ثعالبُ الصحْراء



تأليف
بـول كـارل

تعريب
كمال عصمت الشريف

مراجعت وتعليق
فتحى عبد الله النمر



مكتبة الأنجلو المصرية

ثعالب الصحراء

THE FOXES OF THE DESERT

تعريب : كمال الشريف

تأليف : بول كارل

تعليق ومراجعة : فتحى عبد الله النمر



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

كارل ، بول .

ثعالب الصحراء / تأليف : بول كارل ، تعريب كمال الشريف تعليق ومراجعة فتحى عبد الله النمر .ـ ط٢.ـ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٨.

٤٨٦ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١ـ القاده العسكريون أ ـ الشريف ، كمال (مترجم)

٢ـ هتلر ، ادولف ١٨٨٩ـ١٩٤٥ ب ـ النمر ، فتحى عبد الله (مراجع)

جـ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٢٦٦٦٨

ردمك :٣ـ٢٣٦٢ـ٠٥ـ٩٧٧ تصنيف ديوى : ٩٢٢,٥٥

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشر: مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

مقدمة

إن هذا الكتاب لم يكن فى الاستطاعة تأليفه لولا مساعدة ألف شخص من الجنود وضباط الصف وصغار وكبار الضباط . لقد وضعوا تحت تصرفى تقارير المخابرات وتقارير المعارك والرسومات والصور، وسردوا علىّ تجاربهم فى الحرب. إننى مدين لهم لمساعدتهم على إخراج هذا الكتاب .

وإنى أقدم شكرى الخاص إلى القائد العام لمجموعة الجيوش الأفريقية الألمانية الجنرال «فون أرنيم» ، وكذلك إلى الجنرال «نهرنج» القائد السابق للفيلق الألمانى الأفريقى فى ليبيا ومصر وقائد الفيلق ٩٠ فى تونس ، وكذلك الليفتانت جنرال بايرلاين رئيس أركان الفيلق الأفريقى .

وكانت هناك فكرة واحدة سيطرت علَىّ وعلى الذين عاونونى فى تأليف هذا الكتاب : وهى أن نحاول إعطاء صورة صادقة ودقيقة عن الحرب فى حملة شمال أفريقيا، وإننى أهدى الكتاب إلى ذكرى الذين ماتوا فى الحرب من كلا الطرفين، وآمل أن تكون حوادث هذا الكتاب عبرة وتحذيراً للأحياء .

بول كارل

الفهـــرس

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع

الفصل الأول

الهجوم المضاد الأول لروميل

الفصل الأول

الهجوم المضاد الأول لروميل

١ - فئران الصحراء: (انظر اللوحة رقم ١)

كان الوقت منتصف ليلة ٣١ مارس سنة ١٩٤١ وقد لف شمال أفريقيا ظلام حالك ... دامس ... صامت ...

وعلى الحدود الغربية لإقليم برقة أمام العقيلة فى منخفض بين كثبان الرمال كان ضابطان من قوة إحدى دوريات الاستطلاع البريطانية يراقبان من خلال نظارتيهما المكبرة الليلة أحد الحصون الشامخة التى يحتلها العدو . وظلا يراقبان مواقع العدو لمدة طويلة ، وكان أحدهما هو الملازم فردميلر المعروف بين أصدقائه باسم دستى، الذى أخذ يصغى بانتباه فى اتجاه مواقع الإيطاليين، ثم وخز صديقه الملازم جيمس كلارك، وقال له: « سوف أقول لك شيئا يا نوبى يظهر أن الحرب قد توقفت أنفاسها » . والحقيقة كان الصمت المميت مخيمًا على الصحراء، التى لفها الليل بردائه وبدا كأنما الحرب قد توقفت ولو على الأقل مؤقتًا . فلم يعد يسمع صيحات الحراس أو أصوات المعدات أو ضجيج الحملات المتحركة ، ولم يسمع أى صوت من اتجاه العدو .

كان كلارك وميلر معهما سائق عربة اللاسلكى يكونون طاقم عربة الاستطلاع المدرعة المموهة والمختفية بين كثبان الرمال العالية . وكانت هذه العربة تحمل شعار الفرقة السابعة المدرعة على رفرفها الخلفى ومن جهة اليمين . وكان شعار الفرقة السابعة المدرعة البريطانية عبارة عن فأر من فئران الصحراء مرسوم باللون الأحمر وسط دائرة بيضاء .

وكان المتفكهون من رجال آلاى الهوسار الحادى عشر أثناء مزاحهم بفندق الكونتيننتال بالقاهرة يقولون للسيدات حولهم : « أن رجال جرازيانى البالغ عددهم ربع مليون جندى فروا مذعورين كما تفر المرأة عندما ترى فأرا» ، فقد هرب

الإيطاليون (١) من الحدود المصرية حتى حدود طرابلس . فقد انسحبوا من السلوم إلى العقيلة حيث يقفون اليوم على مقربة من سيارة الاستطلاع، التى تقف لترى هل سيحاول الإيطاليون الهجوم مرة ثانية ؟ (انظر اللوحة ٢ ، ٣) .

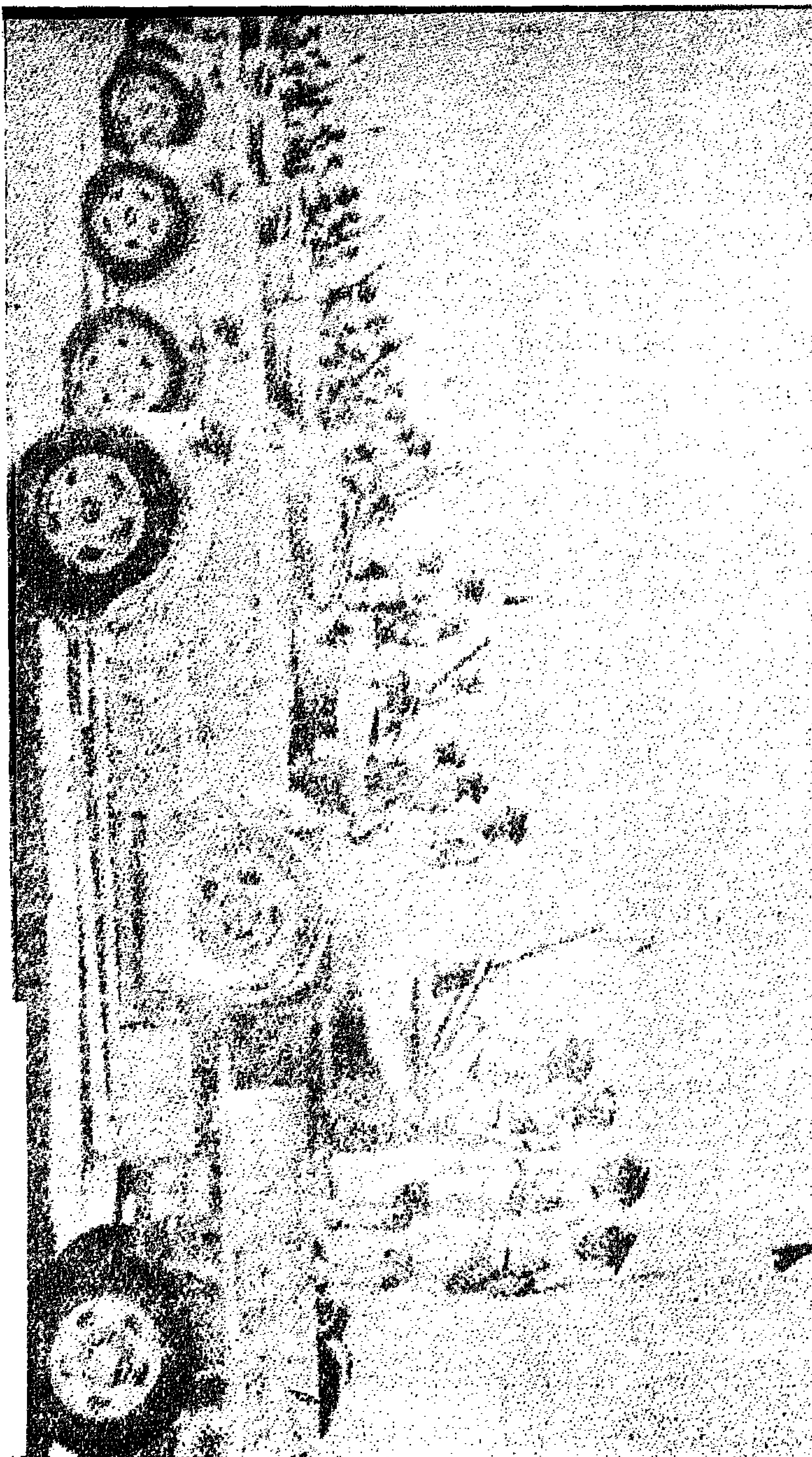
وكان آلاى الهوسار الحادى عشر قد ضم إلى الفرقة السابعة المدرعة ومن ضمن قوته الملازمان : كلارك ، وميلر . وقد سحبت الفرقة السابعة المدرعة من الجبهة وأرسلت إلى القاهرة للراحة ، وقد أدى سحب البريطانيين لقواتهم – على عجل من الصحراء الغربية لنقلها إلى اليونان – إلى أن قلت قوة وحدات الاستطلاع هى الأخرى ، وكان نوبى ودستى من ضباط المخابرات المدربين جيداً لذلك ضما على الفرقة الثانية المدرعة، التى كانت فى ذلك الوقت تواجه القوات الإيطالية المدحورة . وكان من السهل إذا نظر الإنسان إلى وجه الملازم ميلر – الذى كان لونه أحمر قانيا – أن يعرف أنه لم يمض عليه وقت طويل فى الصحراء تحت تأثير الشمس والرمال . فلقد وصل الملازم البالغ من السن تسعة عشر عاماً إلى القاهرة منذ أيام قلائل بالطائرة مع الكتيبة الاحتياطية التابعة للآلاى الحادى عشر هوسار، ولقد سر كثيراً عندما وجد زميله الملازم جيمس كلارك هناك .

وأعد لهم السائق فاتون عشاءهما على نار صغيرة أوقدها فى الرمال، وكان العشاء مكوناً من المكرونة الإسباكتى أخرجها من غلافها الأزرق ووضعها فى الماء المغلى، ثم فتح علبة من الكريز المحفوظ بسونكى البندقية وأخذ الأربعة يتناولون هذا العشاء الغريب بالنسبة للبريطانيين، فالطعام الذى أخذوا يتناولونه كان من الغنائم التى استولى عليها البريطانيون وقد ملئوا بها سياراتهم عندما سقطت بنى غازى فى أيديهم فى السابع من شهر فبراير ١٩٤١ . وبينما أخذ كلارك وفالتون وعامل اللاسلكى العريف فاركهار يأكلون فى صمت أخذ ميلر يتكلم، وأعرب عن أسفه لأنه لم يكن موجوداً أثناء مطاردة جرازيانى وقواته الإيطالية بين ديسمبر ١٩٤٠ وفبراير ١٩٤١ . فخلال هذا التقدم أحرز البريطانيون نصراً عظيماً فقد تمكنوا من هزيمة عشر فرق إيطالية، وأسروا ١٣٠ ألف مقاتل و ٤٠٠ دبابة و ١٢٠٠ مدفع ، فيا لها من حرب ، وياله من نصر ، ومن المؤسف أن يفوت الإنسان مشاهدة ذلك .

---

(١) لقد هاجم الإنجليز موقع الدفاع الإيطالى فى سيدى برانى واستطاعوا تدميره فى ظرف ثلاثة أيام فاضطر الإيطاليون على أثر ذلك إلى الانسحاب إلى البردية وإلى طبرق ثم إلى بنى غازى حتى بيضاء فم وهناك استطاع الإنجليز تطويقهم ، فأسروا معظم القوات الإيطالية بمعداتها .

(المعلق)



الآي الموسار في منطقة القيلة عندما ضم على الفرقة ٧ المدرعة

٢ - الجنرال ذو اللحية الكهربائية[1]،

ولف الرجال أنفسهم فى معاطفهم وزحفوا تحت السيارة، وأشعل كلارك سيجارة بلايرز وأخذ يروى قصته ، وكانت معروفة فى الجيش كله ، وهى قصة الرجل ذى اللحية الكهربائية – وهو الجنرال الإيطالى الذى أسره كلارك ومنح لذلك وسام الصليب الحربى-: كان الجنرال المسمى بذى اللحية الكهربائية موضوع روايات وقصص لا نهاية لها فى القاهرة ولندن : وذو اللحية الكهربائية هو الاسم المستعار الذى أطلق على قائد الفيلق الإيطالى الجنرال برجنرولى خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وظل ملازما له خلال الحرب فى أفريقيا . فلقد سماه الجنود ذا اللحية الكهربائية لأن لحيته كانت حمراء تشع شرارات حمراء، ولا يعرف أحد حقيقة السبب الذى جعل هذا الجنرال معروفاً فى كلا الجانبين المتحاربين ، فخلال الحملة البريطانية المنتصرة فى برقة أصبحت عملية أسر الجنرال ذى اللحية الكهربائية تبدو كأنها مباراة رياضية . وبعد كل انتصار أو استيلاء على بلدة كان السؤال الذى يتردد بين هيئة أركان الحرب البريطانية وكذلك فى الصحف البريطانية هو « هل أسروا ذا اللحية الكهربائية؟ » لكن الجنرال الإيطالى الصغير الحجم كان يبدو كأن حياته ونجاته من الأسر طلسم من الطلاسم ، ولقد خسر الجنرال كل المعارك التى خاضها ، سواء فى الماضى أو فى شمال أفريقيا . ولكنه كان دائماً يفلت بجلده من السلوم ومن البردية ثم من طبرق ومن درنة .

وتابع كلارك حديثه قائلا : «ولكنى أمسكت به فى بنى غازى» وعندما صوبت مدفعى الرشاش إليه من خلال نافذة سيارته قال : «لقد حضرتم إلى هنا اليوم بسرعة أكبر من المعتاد »، وكان يبدو عليه التعب، وصحبته إلى الجنرال أوكونور، وكنت حاضراً استجوابه ولن أنساه مطلقًا فقد سألناه: كيف استطاع الإفلات، وأن ينجوا من الأسر مراراً؟» فأجاب ذو اللحية الكهربائية: « عندما حاصرتم البردية فى ديسمبر استطعت الإفلات من حلقة الحصار خلال خطوطكم

---

(١) الرتب وما يعادلها باللغة العربية :

فيلد مارشال : غازى .	ماجور جنرال : لـواء .
كولونيل جنرال : مشير .	بريجادير جنرال : عميـد .
جنرال : فريق أول .	
ليفتانت جنرال : فريق .	

(المعلق)

مع عدد قليل من ضباطى وكنا أثناء النهار نختفى فى الكهوف، واستطعنا بعد خمسة أيام الوصول إلى طبرق وعندما سقطت طبرق استطعت الإفلات إلى درنة، وعندما حوصرت هذه البلدة المنيعة بواسطة القوات الأسترالية قدت سيارتى على الطريق الساحلى إلى بنى غازى، وها أنتم الآن قد استطعتم أن تأسرونى ، وكل ما فى الأمر أنكم كنتم فائقى السرعة فقط » .

وفى بنى غازى - بالإضافة إلى الجنرال السابق - أسر البريطانيون نصف دستة من الجنرالات ، وكان منهم الجنرال «بجنانى» قائد البرساجليرى، والجنرال «ڤيلانيز» قائد المدفعية ، والجنرال «نيجروبى» قائد المهندسين ، والجنرال «بادينى» قائد المدرعات والجنرال «كونا» ورئيس هيئة أركان حربه الجنرال «جوليانو» . وقد وقفوا ببساطة منتظرين البريطانيين ليأسروهم، وتعجب الجنرال البريطانى أوكونور عندما رآهم ، وقال: « إننى لم أر مثل هذا الجمع من الجنرالات منذ احتفالات التاج عام ١٩١١م ».

وكانت الثقة تملأ القوات البريطانية، فعما قريب سوف تصل إلى طرابلس حيث اللهو والمتعة، لأن الإيطاليين عادة ما يجهزون قواعدهم العسكرية تجهيزاً جيداً، علاوة على أن لهم عاداتهم الخاصة . وكان يقال: إنهم يذهبون إلى الحرب مزودين بكل وسائل الراحة والرفاهية . وفى بنى غازى ادعت القوات البريطانية أنها أسرت لورى محملا بالفتيات الجميلات المخصصات للضباط فقط، ما أحلاها من حرب ! والتف رجال السيارة المصفحة فى معاطفهم بإحكام ، لأن برد الصحراء كان شديداً ، وتقلب كلارك على جنبيه، وقال : « افتح عينيك يا دستى حتى لا تفاجأ بالإيطاليين » ثم أضاف وهو نصف نائم: « خذ حذرك من أن تعود الحرب للتنفس ثانية ».

٣ - وصول قائد فرقة الأشباح :

ولم يدر بخلد الملازم كلارك أنه فى خلال ساعتين سوف تبدأ الحرب فى التنفس من جديد بشدة وقوة . وبينما كان طاقم العربة المدرعة ينامون تحت عربتهم أمام العقيلة ، كان موجوداً فى إحدى غرف فندق إيطاليا فى بنى غازى الجنرال« نيم» الحامل لصليب فيكتوريا، ومساعد القائد العام لبرقة ، يدرس الخريطة مع الجنرال جاميير قائد الفرقة المدرعة الثانية، التى أرسلت حديثا من إنجلترا إلى شمال أفريقيا ، وكانت توجد على منضدة بجوارهما الرسالة التى أرسلت من كلارك

باللاسلكى منذ ساعات. وكان نصها : « ليس هناك شىء فى العقيلة كل شىء هادئ» .

وقد شعر الجنرالان أنه كان من واجبهما ألا يتوقفا عند خليج « سرت » منذ شهرين ، بل كان عليهما أن يواصلا التقدم خمسمائة ميل أخرى حتى يصلا إلى طرابلس ، ولكن التقدم لمسافة خمسمائة ميل ليست بالشىء الهين، لأن الدبابات لم تكن فى حالة تسمح بهذا التقدم، زد على ذلك إرسال بعض القوات إلى اليونان وكريت لوجود قوات ألمانية فى هذا الميدان (١).

وقد أرسل الجيش الأفريقى ثلاث فرق إلى هذا الميدان، ومن المؤكد أنهم أرسلوا فرقهم الاحتياطية المحمولة بالجو من جنوب إيطاليا إلى أفريقيا ، وكل يوم يمر على البريطانيين فى بنى غازى كان يظهر ويثبت لهم كفاءة رجال الفيلق الجوى العاشر الألمانى . وقد عانى البريطانيون الكثير من تفريغ سفنهم فى ميناء طبرق ، علاوة على أن أغلب إمداداتهم كانت ترسل من طبرق إلى الأمام بالحملة الميكانيكية عن طريق البر . وكان هتلر لا يقبل أو يسمح لصديقه موسولينى أن يترك شمال أفريقيا ويعرض جنوب أوربا الرخو لهجوم الحلفاء . وعلى هذا الأساس كان على استعداد للتضحية، فقام بإرسال الفرقة الخامسة الخفيفة إلى تونس ، وكان رجالها يسمون بـ « الفيلق الأفريقى الألمانى » .

وفى طرابلس غنى ورقص رجال الفيلق الأفريقى عندما استولت الكتيبة «٣ استطلاع» فى ٢٤ مارس سنة (١٩٤١م) على حصن العقيلة، وكان قائدهم روميل أورين معروفا بروحه الهجومية . واستدعى الجنرال جامبير إلى الغرفة المجاورة ، وبعد لحظة دخل ضابط من المخابرات ومعه مظروف أحمر، وقرأ: « روميل أورين ولد فى نوفمبر ١٨٩١م فى بلدة هايدن هايم بمقاطعة ورتمبرج ، وأثناء ما كان ملازماً فى سنة ١٩١٠م ألحق بإحدى آلايات المشاة بورتمبرج ، ثم التحق بأكاديمية الحرب فى دانزج سنة ١٩١٢م، ثم رقى إلى رتبة ملازم ، وقاتل خلال الحرب العالمية الأولى فى معركة آراجوان ، وخدم فى إيطاليا ورومانيا وجرح مرتين ومنح

---

(١) فى مارس سنة ١٩٤١م أبحرت إلى اليونان القوات الإنجليزية التالية :
اللواء الأول مدرع – الفرقة النيوزيلندية – الفرقة ٦ الأسترالية على أن يتبعها اللواء البولندى ثم الفرقة ٧ الأسترالية . وذلك لتعزيز هذا الميدان .

(المعلق)

وسام « من أجل الشجاعة » ، وفيما بين الحربين شغل منصب قائد آلاى . وعند اندلاع الحرب عين قائداً لمركز القيادة النازية فى بولندا ، ثم عين قائداً للفرقة السابعة المدرعة، إحدى فرق الفيلق الخامس عشر » .

وعند هذه النقطة قال الجنرال نيم : « كانت الفرقة السابعة المدرعة تسمى «بفرقة الشبح» وقد قامت باقتحام نهر الماس خلال معركة فرنسا » . وتابع الرائد قراءة التقرير: « وفى ٢١ مايو ١٩٤٠م كاد روميل أن يؤسر، عندما قمنا بهجومنا المضاد عند آراس، ثم قاد فرقته مخترقا خطوط الحلفاء حتى مدينة ليل، وقد منح- مكافأة لذلك - وسام « صليب الفارس » ويقال : إنه منح زيادة على ذلك وسام «أوراق البلوط » ، ويرجح أنه موجود مع هيئة أركان حربه فى طرابلس منذ ١٢ فبراير ١٩٤١ » وكان التقرير إنجازه كافياً للجنرالين .

وتوجه الجنرال نيم إلى النافذة مفكراً . فهناك شىء واحد يبدو مؤكداً : وهو أن روميل وقواته ليسوا أكثر من محاولة لتقوية الإيطاليين . وأن روميل موجود ليمنحهم شيئًا من الصلابة . وقد أيدت المخابرات البريطانية هذا على أساس المعلومات المستمدة من أعلى المصادر فى برلين . ولم يكن هناك ما يخشاه البريطانيون من هجوم الألمان فى أفريقيا؛ لأن فرقة ألمانية واحدة ليست كافية لهذا الغرض، وخاصة أن الجنود فى هذه الفرقة ليس لديهم الخبرة بحرب الصحراء ، أما المخابرات البريطانية الموجودة فى الدوائر الإيطالية - وكان لا يعتمد عليها كثيرا - أرسلت المعلومات، ولكن الشىء الوحيد المؤكد من هذا المصدر أنه لا توجد قوات ألمانية فى شمال أفريقيا عدا الفرقة الخامسة الخفيفة . ومن المعروف أيضًا أن المقصود بوجودها لا يتعدى أن تكون مسألة نفسية لرفع الروح المعنوية لدى الإيطاليين . وفى القاهرة أخذ الجنرال ويفل يجتمع مع الجنرال أوكونور لمدة ثلاثة أيام ، وأخيراً اقتنعا - بناء على رسالة سرية وصلت من لندن - أن الهجوم الإيطالى الألمانى غير متوقع قبل نهاية شهر مايو سنة ١٩٤١م؛ لأنه كان يجب على هتلر إرسال فرقتين أخريين على الأقل لتنفيذ هذا الهجوم ، وكانت هذه الاستنتاجات تتفق مع تقارير دوريات الاستطلاع .

٤ - تقارير المخابرات تؤدى إلى أخطاء مميتة :

والنتائج التى توصل إليها القائدان مساء ٣١ مارس سنة ١٩٤١م كانت مبنية على أسس ومعلومات، فالجنرال ويفل - القائد العام للشرق الأوسط - تلقى تقارير

من العملاء فى برلين بأن هتلر قد أمر بمنع روميل من القيام بهجوم مضاد على نطاق واسع. وبالرغم من أن البريطانيين لم يعرفوا حرفية هذه الأوامر إلا أن المعلومات الواردة من برلين وروما كانت مؤكدة، لدرجة أنهم اعتمدوا عليها .

ولكن يحدث أحياناً أن تقارير أكفأ أجهزة المخابرات من معسكرات العدو قد تؤدى إلى أخطاء مميتة ، ولقد حدث هذا بالنسبة للبريطانيين مرتين فى شمال أفريقيا بالرغم من أن تقارير المخابرات كانت صحيحة . فلقد أشاروا فى تقاريرهم إلى أمرى هتلر رقمى (١٨ ، ٢٢) والتى كشفت عن خططه وقد اتخذ البريطانيون الخطوات المضادة لهذين الأمرين . ولكن فى أفريقيا كان أحد الجنرالات وهو روميل لم يتبع خطط الفوهرر ، وكانت النتيجة نصرا سهلا لألمانيا كان سيؤدى إلى هزيمة بريطانيا العظمى ، وكان سلوك هتلر والقيادة الألمانية العليا حيال مسرح العمليات فى أفريقيا بالنسبة للخطط الاستراتيجية الألمانية العامة قد كشفت وعرفت عن طريق الأوامر السرية لهتلر والمؤتمرات العسكرية التى عقدها فى مقر القيادة العليا.

وفى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٠م (أى قبل أن تهزم إيطاليا فى أفريقيا) أعلن هتلر فى أمره رقم (٨٨): « بأن القوات الألمانية ستشترك فى حرب أفريقيا فقط عندما يصل الإيطاليون إلى مرسى مطروح ، وفى هذه الحالة يمكن بصفة مبدئية اشتراك القوات الجوية الألمانية فى الحرب فى شمال أفريقيا، على أن يقوم الإيطاليون بوضع القواعد الجوية اللازمة تحت أوامر القوات الجوية الألمانية . ويجب أن تعمل الترتيبات اللازمة لاشتراك الأسلحة الثلاثة للقوات المسلحة الألمانية فى هذه الحملة أو أية حملة فى الميدان الأفريقى على الأساس التالى : - **القوات البرية :** تجهيز فرقة مدرعة تبقى على أهبة الاستعداد للعمل فى شمال أفريقيا . **القوات البحرية :** إصلاح وإعداد السفن الراسية فى الموانى الإيطالية لنقل أكبر عدد ممكن من القوات، سواء إلى ليبيا أو إلى شمال غرب أفريقيا . **القوات الجوية :** تتخذ الترتيبات للاستعداد للقيام بعمليات هجومية على الإسكندرية وقناة السويس لقفل هذا الممر المائى بالنسبة للقوات البريطانية . ويمكن أن نرى أن التقديرات التى توصل إليها هتلر وبنى عليها أوامره كانت مبنية على احتمال قيام القوات الإيطالية بعملية الاختراق للحدود المصرية . فلقد كان من رأيه أنه فى تلك الحالة فقط سيحتاج الإيطاليون إلى مساعدة القوات الجوية الألمانية والمدرعة لاحتلال وغلق قناة السويس... فيا له من خطأ !!

وبعد شهر تغير الموقف تماماً . ولم يكن هناك تفكير للقيام بهجوم إيطالى،

بل على العكس، فمنذ ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٠م كان البريطانيون فى شمال أفريقيا يتقدمون فى اتجاه الغرب . وفى ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٠ كان على هتلر أن يعيد النظر فى قراره السابق ويأمر سلاح الطيران الألمانى بالآتى : « العمل فى شمال أفريقيا بأقصى سرعة ممكنة من قواعد فى جنوب إيطاليا ومهاجمة الأسطول البريطانى فى الإسكندرية وقناة السويس وفى المضيق بين صقلية وساحل شمال أفريقيا » .

وفى نفس الوقت أمر هتلر بعمل الاستعدادات لنقل الفرقة المدرعة المخصصة لشمال أفريقيا . وكانت كل قراراته تحكمها الخطة المعدة لغزو روسيا . فبالنسبة لهتلر كانت شمال أفريقيا تعتبر مسرحًا ثانويا من مسارح الحرب . وكان يعتقد بعدم إمكانية الحصول على نصر حاسم فى هذا الميدان ، كما لم يتوقع أى خطر كبير من هذا المسرح .

٥ - دخول (أ ب) ثعالب الصحراء تاريخ الحرب العالمية الثانية :

وبعد ثلاثة أسابيع كانت الهزيمة الإيطالية واضحة . ففى ١١ يناير ١٩٤١م ورد فى أمر هتلر رقم (٢٢) التالى : « إن الموقف فى البحر المتوسط من الناحية الاستراتيجية والسياسية والنفسية يتطلب المعونة ويجب إنقاذ طرابلس » . وبالرغم من هذا القرار الحاسم كان هتلر ينظر إلى الموقف من الناحية الدفاعية فحسب، لأنه اعتقد أنه لن يكون هناك أمل فى الوصول إلى نتائج حاسمة فى الحرب فى البحر المتوسط . والرجل الذى صمم على إخضاع روسيا فى ستة شهور لم يكن يعتقد أنه يستطيع الحصول على نصر سريع فى شمال أفريقيا .

وفى ٨ يناير كان هتلر لا يزال مصرا على رأيه فقال : « إنه ليس من المستطاع بالنسبة للإيطاليين أو بالنسبة للألمان شن هجوم على مصر ، ولو أمكن القيام بمثل هذا الهجوم فلن يكون ذلك قبل شتاء ١٩٤١م » . فما السبب الذى جعله يعتقد ذلك ؟ إنه كان يعتقد ويرى أنه فى ذلك الوقت يكون قد دمر روسيا . وكانت ثقته فى النصر فى الشرق كبيرة، لدرجة أنه فى فبراير ١٩٤١م أعلن أن خسارة شمال أفريقيا يمكن احتمالها من الناحية العسكرية ، ولكن ذلك سيكون له تأثير نفسى سيئ على إيطاليا، فقال : « يجب أن نبذل كل جهودنا لضمان بقاء شمال أفريقيا ، ويجب أن نشرك سلاح الطيران الألمانى مع قوة مناسبة من الجيش » وكانت القوة التى يقصدها هتلر هى العناصر الأولى من الفيلق الأفريقى فى حدود فرقة واحدة .

وأعلن هتلر أنه ليس هناك نية لإرسال فرقة ثانية ، ومرة ثانية كان عليه أن يغير من رأيه، لأن سرعة التقدم البريطاني التي أدت إلى الوصول لبني غازي في ٦ فبراير ١٩٤١م قد أرغمته على تدعيم القوات الألمانية التي أرسلت لمعاونة الإيطاليين . وعليه فإن الفرقة الخامسة الخفيفة عززت بالفرقة المدرعة الخامسة عشرة . وعين أورين روميل قائداً عاما للقوات الألمانية في أفريقيا ، وقد صدق الفيلد مارشال براوشتش القائد العام الألماني على تعيين روميل قائدا للفيلق الأفريقي في ٦ فبراير سنة ١٩٤١م، وهكذا دخل (أ ب ثعالب الصحراء) تاريخ الحرب العالمية الثانية . غير أن هتلر حذره قائلا : « يجب ألا تقوم القوات الألمانية في شمال أفريقيا بعمليات على نطاق واسع حتى خريف سنة ١٩٤١ » .

وحتى ١٨ مارس سنة ١٩٤١ كان روميل لا يزال في مقر قيادة هتلر ، وقيل له بوضوح إن القيادة الألمانية العليا لم تضع خططاً لعمل حاسم ضد البريطانيين في شمال أفريقيا ، وإن عليه عند وصول الفرقة ١٥ المدرعة (في نهاية مايو سنة ١٩٤١م) أن يشن هجوماً محدوداً في منطقة أجدابية ، وفيما بعد يمكنه أن يستولي على بني غازي .

وكان عليه أن يعرض خططه على القيادة الألمانية العليا في ٢٠ أبريل سنة ١٩٤١ (وكان هذا هو التوقيت الذي وضعه هتلر) وقال هالدر رئيس هيئة الأركان العامة: « إن عملية الفيلق الأفريقي عبارة عن عملية سياسية لإبقاء الإيطاليين على مسرح الحرب » .

وكان الجنرال «روميل » من الشخصيات العسكرية الممتازة ، ويعلم أن الأوامر يجب أن تطاع وتنفذ ، ولكن في نفس الوقت كان يعلم أن القادة الكبار الجالسين على مكاتبهم في برلين ليس لديهم صورة واضحة دائمًا عن الموقف ، ولم يكن روميل من القادة الذين يتركون أية فرصة تفلت دون أن يحقق بها نصراً ، وسرعان ما تحقق أن القوات البريطانية المواجهة له خلف كثبان الرمال في العقيلة قد ضعفت بصورة ملحوظة، لأنها أرسلت قوات منها إلى اليونان ، وأن تشرشل أصبح واثقاً من النصر في الصحراء الغربية حتى إنه سمح للجنرال ويفل أن يحتل المواقع المستولى عليها في برقة بقوات صغيرة، وبالإضافة لهذا فكانت خطوط الإمداد من القاهرة إلى البردية وطبرق ومنهما إلى بني غازي ثم إلى العقيلة طويلة جداً وفوق طاقة الحملات الموجودة مع الفرق البريطانية الضعيفة .

وسرعان ما اكتشف روميل ذلك . وكان من الطبيعى أن يكتشف كذلك أن البريطانيين يبذلون كل ما فى وسعهم لتقوية مواقعهم الضعيفة ، وعلى الأخص المضايق المطلة على مرسى البريقة، لأهميتها الاستراتيجية . فلماذا إذاً الإنتظار ؟ وهل ينتظر حتى يستطيع العدو المواجه له تجهيز مواقع دفاعية قوية قد يفشل أمامها الهجوم المحدود الذى سيقوم به فى شهر مايو ؟ أو قد ينجح بتضحيات كبيرة؟ وهل ينتظر لأن هتلر والقيادة الألمانية العليا فى برلين لديهم فكرة خاطئة عن حرب الصحراء ؟ أو هل ينتظر لأن موسولينى وجنرالاته فى روما يرتعدون من الرعب بعد الحملة التى شنها البريطانيون عليهم لمدة ٩٢ يوما؟ لا ... ولهذا قرر روميل الاستيلاء على مرسى البريقة وربما أجدابية . ويجب تنفيذ ذلك على الفور وعدم الانتظار حتى نهاية مايو .

ومن يصمم على النصر فلن يهزم . والحرب فى الصحراء تختلف عن الحرب الكلاسيكية على الأراضى العادية، فالصحراء مثل البحر ، فهناك مساحات شاسعة صالحة للمفاجأة ولأعمال المباغتة الجريئة ضد النقط القوية المحكمة ، والتى يؤدى الاستيلاء عليها إلى سقوط الجبة بأكملها .

ولقد جرب الإيطاليون ذلك ، ففى خلال شهرين طوردوا لمسافة ٦٥٠ ميل عبر شمال أفريقيا بواسطة فرق قوامها ٣١ ألف مقاتل و ١٢٠ مدفع و٢٧٥ دبابة، وهذه القوات الصغيرة أمكنها هزيمة وتحطيم عشر فرق إيطالية يبلغ تعدادها ٢٠٠ ألف مقاتل ، وكانت بريطانيا فخورة بما حققته. وحارب الجيش الإيطالى عموما بشجاعة، إلا أن أسلحته كانت رديئة. وكان متخلفًا كثيرا بالنسبة للفرق البريطانية الميكانيكية. وفى الحقيقة إن البريطانيين كانوا قد أعدوا أنفسهم لهجوم محلى يستغرق خمسة أيام للوصول إلى أهداف محدودة.

ولكن كما قلنا : إن الصحراء كالبحر، فما تكاد تسقط وتستسلم نقطة محصنة حتى تنكشف مساحات واسعة خلفها خالية من أى مقاومة، والذى يتخلى عن الأرض الحيوية لا يجد مكانا ليثبت أقدامه ولا مكاناً لإعادة تجميع قواته .

ولقد كان هذا هو ما حدث بالنسبة للإيطاليين، والغريب فى الموضوع أن القادة البريطانيين فى «بنى غازى» و «القاهرة» لم يتصوروا مطلقًا أنه من الممكن لأحد القادة الألمان أن يكتشف هذه الحقيقة عن الحرب فى الصحراء. ولكن الذى حدث أن الجنرال «ويفل» القائد العام للشرق الأوسط كانت لديه التقارير التى أرسلها

عملاؤه عن خطط «هتلر» و «موسوليني» ، وطبقاً لهذه الخطط وتبعًا لقواعد الحرب الكلاسيكية كان لا ينتظر أن يفتتح روميل عملياته الهجومية بفرقة واحدة فى نهاية شهر مارس سنة ١٩٤١م وكان الهجوم متوقفاً على موافقة القيادة الإيطالية العليا التى ترأس «روميل» . ولم يكن وقت الهجوم فى هذه القيادة قد حان بعد، لأن الجنرال «ويڤل» كان يعلم ذلك، واعتمد على أن «روميل» يتميز بالضبط والربط وتنفيذ الأوامر بحذافيرها، ولذا فقد اعتقد أن الهجوم لن يقع، وعليه ففى «القاهرة» فى يوم ٣٠ مارس ذهب إلى سريره لينام وهو يأمل فى نوم هادئ، وقد فعل كذلك الجنرال «نيم» والجنرال «جامبير بارى»، وذهبا للنوم فى فندق إيطاليا بمدينة «بنى غازى».

٦ - احتلال بوابة برقة :

أما الملازم «فرْدميلَر» فقد غلبه النعاس خلال الليل الساكن بالقرب من «العقيلة»، وكل ما كَان يَسمعه قبل أن يغلبه النوم هو شخير زملائه. وفى هذه اللحظة أخذت الحرب تتنفس من جديد؛ فقد سمع صرير جنازير الدبابات. ثم ساد الصمت وتبعه جلبة، فاستجمع «فردميلر» حواسه وأخذ حذره، ولم يحتج لإيقاظ زملائه، فزميله الملازم «كلارك» استيقظ بدوره وأخذ يحدق فى الظلام من تحت سيارة الاستطلاع، واستلقى الاثنان على بطنيهما، وأخذا يحدقان أمامهما إلى أشباح ضخمة لها صرير وصوت مزعج كلما تحركت، وسمعا صيحات. وهمس «ميلر»: «إنها دبابات !!! إنها دبابات ألمانية».

وكانت الدبابات لا تبعد أكثر من ٣٠ ياردة فى اتجاه الجنوب منهما . وأخذ «كلارك» يعدها: واحد. اثنان . ثلاث . أربع . خمس . ثم توقف عن العد، لأن الدبابة السادسة حولت اتجاهها نحوهم رأسًا وكان قائد الدبابة يقف فى برجها وقد رآهم، وصاح «كلارك» : « تحركوا » وكان كل من السائق وعامل اللاسلكى قد ركبا السيارة ولكن لم تجاوب فى الإدارة فى أول الأمر وصاح كلارك فى السائق: «أسرع يا رجل » وأخيراً وبعد أن أصبحت الدبابات على بعد أقدام منهم تحركت السيارة . ودبت الحياة فى الصحراء فجأة وتقدمت الدبابات من كل اتجاه . وسارت السيارة حتى وصلت إلى طريق «مرسى البريقة» واتجهت نحو القرية العربية ذات المسجد الأبيض المقام على مرتفع فيها ، وأخذ الفجر ينبثق على صباح يوم من أيام التاريخ . وصاح «جيمس كلارك» مخاطباً قائد إحدى وحدات الاستطلاع التابعة للفرقة الثانية المدرعة والتى كانت تقف أمام «مرسى البريقة» : «الدبابات الألمانية

تتقدم نحو الجنوب بحذاء الطريق الساحلى ».

وسرت أنباء الحرب مسار النار فى الهشيم بين رجال وحدات الاستطلاع البريطانية الذين تحركوا بحمالات البرن ، ولكنهم لم يصلوا بعيداً فقد بدأ «روميل» معركته الأولى. (انظر اللوحة رقم ٨) .

ففى الساعة ٩ر٤٤ دقيقة يوم ٣١ مارس سنة ١٩٤١م قامت عربات الكتيبة الثالثة استطلاع الألمانية بمهاجمة وحدات الاستطلاع التابعة للفرقة الثانية المدرعة البريطانية الموجودة بمرسى البريقة . وفى الساعة التاسعة وخمسين دقيقة انطلقت الطلقات الأولى معلنة زحف روميل السريع المفاجئ فى اتجاه طبرق.

وقد انتهى هذا التلاحم بتراجع البريطانيين، وأخذت دبابات آلاى البانزر الخامس تحت قيادة المقدم «ألبريخ» تهاجم المواقع الرئيسية البريطانية فى مرسى البريقة وقبل هذا الهجوم بثمانية أيام – وخلال الهجوم الذى شنه الآلاى على حصن العقيلة – أصيب الآلاى بأولى خسائره فى المعركة عندما انفجر لغم تحت إحدى الدبابات . ثم أخذ الآلاى يهاجم البريطانيين ثانية ورأى العريف «جيرهارد» من السرية الثامنة أول عدو له. وحدد مكانه ولكنه اتضح أنه جمل أخذ يهاجم الدبابات الألمانية ، وسأل «جيرهارد» نفسه : « هل هذه حيلة شيطانية من البريطانيين؟» بالطبع لا، فقد تحول الجمل عن الدبابات واختفى خلال زوبعة من الرمال . وأخذت الدبابات تواصل تقدمها ولكنها لم تستطع اقتحام المواقع البريطانية المحصنة .

وفى الساعة ١٧:٣٠ هاجمت طائرتان من الطائرات المنقضة من طراز «ستوكا» الخطوط البريطانية، بينما قصفت المدافع الألمانية مواقع المدفعية البريطانية، وكانت درجة الحرارة مائة «فهرنهيت»، وأخذت المشاة تتلمس طريقها خلال كثبان الرمال ثم انفجر أول لغم ، وصاح صائح: « المهندسون يتقدمون ». وأخذ مكتشفو الألغام يزرعون راياتهم السوداء على جانبى الممر الذى تم تطهيره خلال حقل الألغام . وكانت هذه الأعلام تخفق تحت ضوء الشمس الساطع لتحدد الطريق للمشاة الراكبة ولرجال الكتيبة الثامنة «مدافع ماكينة». وبدأ الهجوم على المواقع، وسقط أول الضحايا ثم سقطت مرسى البريقة وهى مفتاح برقة كلها .

وبذلك فإن الهدف الأول الذى حددته القيادة الإيطالية العليا قد تحقق ، غير أن «روميل» شعر بضعف البريطانيين، لأن القائد العام البريطانى لم يتوقع هجوماً ألمانيا علاوة على أن الفرق التى كانت تحت إمرته كانت غير مستعدة لهذا الهجوم،

وعليه فقد أمر «روميل» بمواصلة التقدم، وأخذت جنازير الدبابات تشق طريقها على الرمال . وكذلك تقدمت سيارات الاستطلاع والسيارات المدرعة، وإطاراتها تسحق القواقع على الطريق وفوق السابحة الممتدة بين «مرسى البريقة» «وبنى غازى». وكان حظهم حسناً لأن الأمطار لم تسقط فى الربيع ولو سقطت الأمطار لتحولت الأرض فى دقائق إلى طين تغرز فيه عجلات السيارات كما تغرز السكين فى الزبد.

واستمر «روميل» فى تقدمه حتى الثانى من أبريل وجاءت تقارير طائرات الاستطلاع تتضمن أن البريطانيين ما زالوا ينسحبون ، وأصدر «روميل» أوامره بمهاجمة «أجدابية» وسقطت أجدابية، وبسقوطها أصبح يملك المياه الصالحة للشرب في هذه المنطقة الصحراوية . وتابع البريطانيون الانسحاب، ورفضوا التوقف للقتال، فأرسل «ويڤل» الجنرال «أوكونور» خبيره فى حرب الصحراء والعميد «كومب» قائد لواء الهوسار الحادى عشر إلى الجنرال «نيم »، وطبقًا لمعلوماتهما فإنهما رأيا أن «روميل» لا يستطيع شن هجوم كبير. إذاً ما الذى حدث ؟ وأشار الجنرال «نيم» إلى التقارير التى تلقاها من الوحدات التابعة له . لقد اكتسح الألمان اللواء الثالث المدرع وحدثت ثغرة فى الجبهة . وكانت أوامر «روميل» متابعة التقدم . وكانت تتوالى على مكتب «روميل» - الذى أنشأه بجوار دبابة قيادته - التقارير المفرحة عن تقهقر البريطانيين حتى أصبحت تشكل أكواماً من الرسائل أمامه . ثم جاءت رسالة مستعجلة وبالشفرة من الوحدات الأمامية تتضمن: « لم يعد هناك عصير »، أى أن البترول قد نفد ، وقد أخبره رجال الإمداد والتموين أنهم سيحتاجون إلى أربعة أيام على الأقل حتى يستطيعوا إحضار البترول اللازم لكل المركبات ، غير أن «روميل» علمهم كيف يكون التنظيم الإدارى فى المعركة . فأمر كل العربات الخفيفة فى الفرقة أن تفرغ حمولتها، وشكل منها قولا للتموين وأرسله إلى المؤخرة فى اتجاه الغرب لإحضار الوقود والذخيرة اللازمة، وأعطاهم مهلة أربعاً وعشرين ساعة للقيام بالمهمة . وكان هذا يومًا خطيراً على الفرقة كلها؛ لأنها كانت غير قادرة على الحركة ولا على الدخول فى المعركة إذا هوجمت ، ولكن الجنرال «نيم» لم ينتهز هذه الفرصة . وفى خلال أربع وعشرين ساعة كان الوقود والذخيرة قد وصلا ، وتحركت الفرقة الخامسة الخفيفة لمواصلة المطاردة .

٧ - «ويڤل» الاستراتيجى العظيم :

وفى نفس الوقت كانت الفوضى فى الجانب البريطانى ضاربة أطنابها، فالأوامر المتناقضة التى تصدر جعلت القادة فى الميدان على حافة اليأس، فلقد

هزمت آلاياتهم، ولكن القادة فى الميدان والقائد العام فى القاهرة لم يصدقوا أن «روميل» استطاع أن يشن هجومه بفرقة واحدة فقط، وأصدر «ويڤل» أوامره من مقر القيادة، وكانت تتناقض مع أوامر القائد فى برقة . فلقد تخطى السير «ريتشارد أوكونور» الجنرال «نيم» قائد القوات فى برقة رسل أوامره مباشرة إلى قادة الفرق جامبير وبارى وورسهيد . ونتيجة للتقارير المتضاربة من الخطوط الأمامية لم يستطع «ويڤل» أن يعرف الموقف الحقيقى ، وأخيراً طار إلى برقة وكان من السهل تصور شعوره ، لأنه من أيام قليلة أكد لوزير الخارجية «أنتونى أيدن» ولرئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية السير «جون ديل» أن الألمان لا يمكنهم الهجوم قبل منتصف شهر مايو. وعند وصوله إلى مقر قيادة نيم قام «ويڤل» – الذى يعتبر من القادة الاستراتيجيين الكبار – بارتكاب خطأ آخر، فقد اعتقد أن الألمان لا يستطيعون التقدم عبر الصحراء وأن «روميل» لديه خبرة بحروب الصحراء ولذا فسيتقدم على الطريق الساحلى المرصوف «طريق بالبو» فقط ولذا أصدر تعليماته على هذا الأساس: «حاولوا مهاجمة «روميل» من جناحه الأيمن عندما يتقدم على الطريق الساحلى «بالبو – بنى غازى». ولا تدافعوا عن بنى غازى ولكن احتلوا الهضبة هناك » وأشار ويڤل إلى موقع «الرجيمة» وقال: « لا بد أن تدافعوا عن هذا الموقع . ويجب أن تحافظوا عليه وتحتفظوا به » .

وما معنى كلمة لا بد؟ فإن الجنرالات البريطانيين كانوا قد فقدوا توازنهم وعجزوا عن تقدير «روميل» وجنوده حق قدرهم وسوف نراهم يواصلون ارتكاب الأخطاء وسوف تثبت الحوادث أن أخطاءهم هذه كانت فادحة الثمن . وطلب «ويڤل» الاطلاع على قائمة مخازن التموين الموزعة فى الصحراء ، وهى مخازن مجهزة تجهيزاً جيداً فهى عبارة عن القلاع الحديثة فى الحرب الميكانيكية . وكان أكبرها فى بلدة مسوس حيث كان الوقود موضوعاً فى خزانات تحت الأرض . كما كان يوجد مستودع «المخيلى» وهو المركز القديم لطريق القوافل وكان يسمى بقلب برقة ، وهذان الموقعان هما جزيرتا التموين فى بحر الصحراء ، أما القرارات التى توصل إليها «ويڤل» فكانت مبنية على خطأ فى التقدير .

أولاً: لأن «روميل» تقدم عبر الصحراء وليس على الطريق الساحلى، على عكس ما كان متوقعاً وكان هدفه بلدة «المخيلى» . ثانياً : أن القائد الألمانى اتبع تكتيكاً جديداً وكانت هذه التكتيكات قائمة على العلم بأن المشكلة الكبرى فى حرب الصحراء هى التموين بالبترول، ولذا صدرت الأوامر إلى السلاح الجوى الألمانى

بأن يكون هدفه الأول تدمير طوابير التموين، وبذلك فإن الفكرة القديمة بتجميع الوقود فى مستودعات فى الصحراء أصبحت فكرة ميتة بالنسبة للبريطانيين.

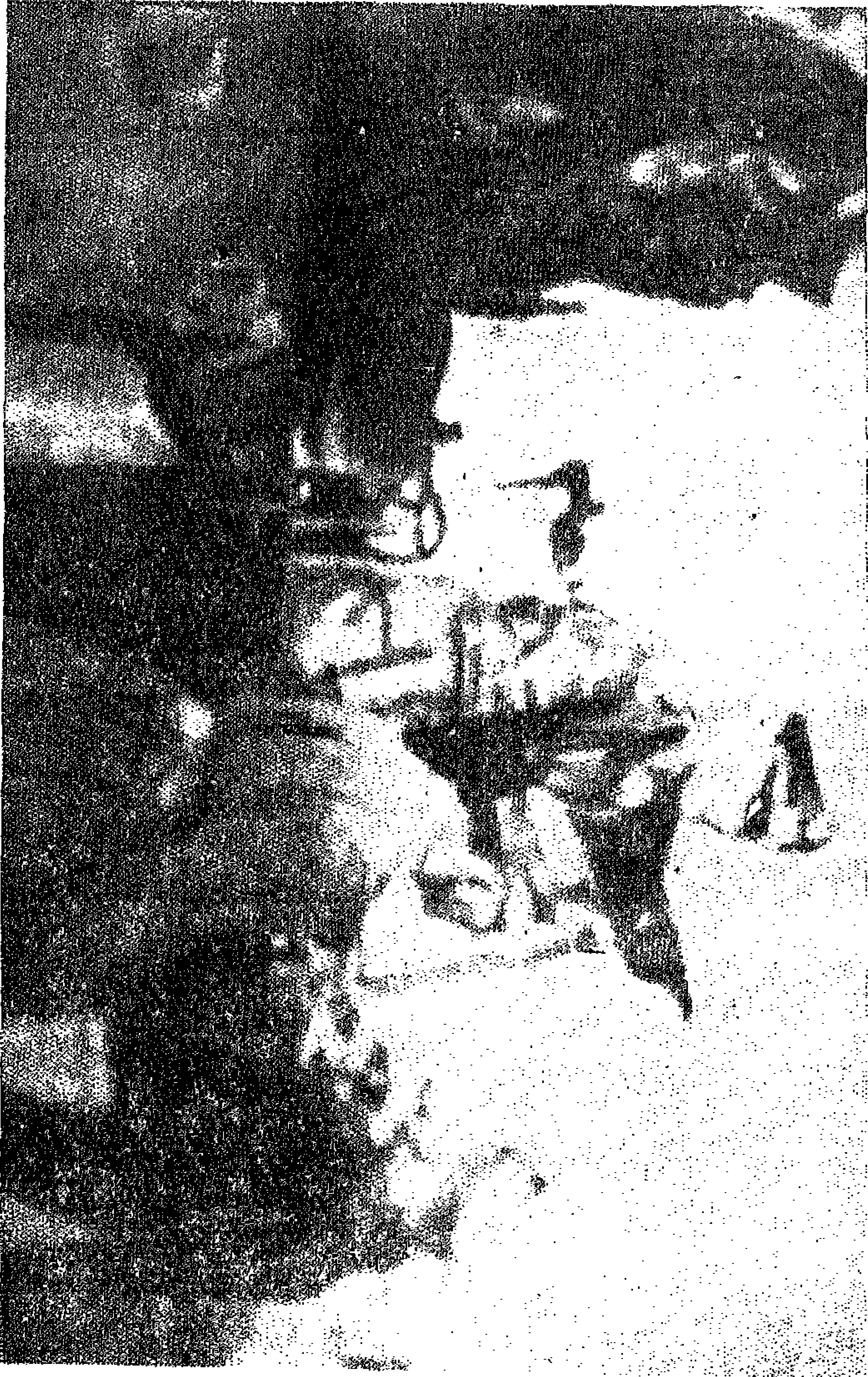
وفى صبيحة الرابع من أبريل ١٩٤١ انتشرت الأنباء فى «مسوس» أن الألمان يهاجمون الموقع، فقامت الحامية البريطانية فى القرية بنسف المستودعات الموجودة بها، بالرغم من أن الألمان حقيقة لم يكونوا بالقرب منها . فقد أدت سحب الدخان الأسود التى تصاعدت من نسف المستودعات إلى إخفاء دبابات الفرقة الثانية المدرعة التى جاءت لتتزود بالوقود . وكان كل ما رأوه من الوقود – وكانوا فى أشد الحاجة إليه – هو عمود من الدخان الأسود الكثيف ، وقد انتشر فوق البلدة فحجب أشعة الشمس لمدة طويلة . وقد أدى هذا إلى أن ترك البريطانيون معظم دباباتهم وفروا .

وكان «روميل» بنفسه موجودا فى عربة الاستطلاع الأولى التابعة للكتيبة الثالثة استطلاع التى يقودها المقدم «فريهرفون ويسمار» متجهًا إلى «بنى غازى» فوصل الميناء فى الساعات الأولى من يوم ١٤ أبريل . ولم يكن لدى البريطانيين وقت لتدمير منشآت الميناء .

ولم يكن لدى روميل كذلك وقت للتفتيش، بل لم ينظر حتى إلى سوق البلدة الواسع الجميل، حيث وقف الأعراب فى ملابسهم البيضاء ينظرون بدافع من حب الإستطلاع إلى القادمين الجدد وهم يحيون كل دبابة قادمة بصيحات الابتهاج . ولم يعر «روميل» انتباهاً لتجار الفول السودانى والليمون الذين ما زالوا رغم اندلاع الحرب يمارسون تجاراتهم ، واكتفى بالابتسام لبائع الليمون الذى تقدم نحو سيارته باحترام لكى يقدم له هدية من بضاعته . فلم يكن يدر فى عقل «روميل» فى ذلك الوقت سوى فكرة واحدة هى مواصلة التقدم .

وكان على مجموعات القتال التوغل بعمق فى وادى «برقة» الواسع . فقامت من «أجدابية» مجموعة القتال التابعة للواء «استريتش» ومعها الكتيبة الثالثة مدافع ماكينة تحت قيادة المقدم «بوناث»، وكذلك أرسلت مجموعة القتال التى يقودها المقدم «جران شوبرن» ومعهما قوات إيطالية للقيام بعملية تطويق واسعة هدفها اكتساح «المخيلى» .

أما المقدم «البرتش» ومعه القوات الرئيسية للآلاى الخامس المدرع والكتيبة الثانية مدافع ماكينة وأربعون دبابة من فرقة «آريتى» المدرعة الإيطالية ، فقد قام



روميل فى عربة قيادته على رأس الفيلق المهاجم - وهو يصدر أوامره

بالهجوم على «المخيلى» عن طريق «مسوس».

أما اللواء «كيرشن هايم» فقد قام بالتقدم من «بنى غازى» ومعه عناصر من فرقة «بريسكا» الإيطالية على طريق «بالبو» إلى «درنة» . كما أرسلت مفرزة إلى «المخيلى» خلال الصحراء المليئة بالصخور والرمال الساخنة . وكان هذا الاندفاع من الذكريات التى لا تنسى من رجال الفيلق الأفريقى الذين اشتركوا فيه .

٨ - أسر الجنرالين «نيم» و«أوكونور» :

ولم يكن هناك فى برقة كلها إلا رجل واحد تنبه إلى ما يقصده «روميل» باستراتيجيته هذه، وقد عرف ذلك فى لمح البصر . وكان هذا الرجل هو الجنرال البريطانى «أوكونور»، ذلك الرجل الأيرلندى صغير الحجم والذى عرف فى صفوف الجيش البريطانى بأنه أكبر خبير فى حرب الصحراء . فقد كان أوكونور العقل المفكر لحملة شمال أفريقيا . وقد أرسله «ويڤل» فى الثانى من أبريل من القاهرة إلى الجبهة لكى يساعد الجنرال «نيم» وقد عزم على إنقاذ «برقة». وخرج نيم وأوكونور من بلدة «مراوة» فى ليلة السادس من أبريل وسارا خلال المستعمرات الإيطالية المهجورة حيث كان العنب فى مزارع الكروم ولا يزال أخضر والقمح قد ارتفعت سيقانه وقارب النضج . وكان هدفهما الوصول إلى «التميمى» مركز القيادة البريطانية الجديد، إلا أنهما ضلا الطريق ووصلا إلى طريق درنة الشمالى ثم حدث لهما ما حدث :

فلقد كان القائدان المرهقان يجلسان فى سيارتهما عندما قبض عليهما جنود المشاة الميكانيكية الألمانية التابعون لمجموعة القتال التى يقودها المقدم «بوناث» وقد لاحظ سائق السيارة قدوم الألمان فأمسك ببندقيته وصوبها نحوهم وسقط الجندى الألمانى الذى كان يركب فى المقعد الجانبى للموتوسيكل الأول، وما كان من الألمان فى الموتوسيكل الثانى إلا أن أطلقوا عليه النار من مدافعهم الرشاشة فسقط قتيلا. ونظر القائدان البريطانيان فى رعب إلى مواسير الرشاشات الألمانية ورفعا أيديهما واستسلما للأسر .

٩ - سقوط قلب برقة :

وفى السابع من أبريل قامت مجموعة القتال «شويرن» و «استريتش» بالتسلل إلى موقع «المخيلى»، وهكذا - وللمرة الثانية - حوصرت البلدة التى تعد قلب برقة والحصن الصحراوى ذا الأبراج ، وطلب من حاميتها التسليم، ورفضت الحامية

البريطانية مرتين التسليم،وعندما جن الليل حاولت القوات البريطانية التسلل خارج الموقع وشق طريقها خارج الحصار ، غير أن الألمان أسروا الجنرال «جامبير بارى» والعميد «فوجان» ومعهما جزء كبير من اللواء الثالث الهندى الميكانيكى وسرية من آلاى المدفعية راجبوتانا الشهيرة ومركز رئاسة الفرقة وبلغ عددهم جميعًا ٢٠٠٠ رجل . واستولى الألمان على غنائم كثيرة . وكان الجنرال «جامبير بارى» – الذى أسر – من خيرة القواد . وفى نفس اليوم الذى سقطت فيه «المخيلى» استولت مجموعة القتال» بوناث» على «درنة»، وفى البلدة الصغيرة تجمعت آلاف العصافير للهجرة السنوية لها إلى الشمال نحو وطن الفيلق الأفريقى ، غير أن روميل لم يترك لرجال الفرقة الخامسة الخفيفة وقتا للاستمتاع بمشاهدة العصافير ، بل لم يترك لهم فرصة لكى يستريحوا ، واستطاعوا بكميات التموين التى استولوا عليها من معسكر «التميمى» «من ماء ووقود ومؤن» أن يتقدموا بسرعة إلى طبرق فلقد كانت طبرق هى الهدف الرئيسى من الهجوم ، طبرق لؤلؤة شمال أفريقيا ، فقد كانت ميناء كبيراً وقاعدة للتموين ومفتاح مصر . وفى السابع من أبريل أبرق «تشرشل» إلى الجنرال «ويڤل» قائلا : « يجب أن تصمد فى «طبرق» مستعيناً بالدفاعات الثابتة التى أقامها الإيطاليون ، وذلك على الأقل حتى يحضر العدو مدفعيته القوية ، ويبدو أنه لن يكون فى استطاعته ذلك قبل مضى عدة أسابيع، وسوف يعرض نفسه للخطر لو ترك «طبرق» – دون الاستيلاء عليها – وتقدم نحو مصر ، ويجب أن تعرف أنه فى إمكاننا أن ندعم قواتنا من البحر ونعطل خطوط مواصلات العدو ، ولذلك فطبرق هى المكان الذى يجب أن يدافع فيه المرء حتى الموت بدون تفكير فى الانسحاب ، ويسرنى أن أسمع منك ما ستفعله » . ورد عليه الجنرال «ويڤل» فى اليوم التالى قائلا : « إن طبرق ليست بالموقع الدفاعى الجيد، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار طول خطوط المواصلات، علاوة على أنها غير محمية ويعوزها المنشآت الضرورية » وكان تشاؤم ويڤل باديا للعيان .

واعتقد تشرشل – وكان اعتقاده صواباً – أن ويڤل ينوى التخلى عن طبرق وغضب رجل الحرب القديم فى لندن ، وأرسل إلى ويڤل أمرا بألا يتخلى عنها، وكان أمراً تاريخياً وبناء على هذا الأمر فعندما حاول روميل احتلال طبرق قابلته مقاومة غير متوقعة وعنيفة . وفى العاشر من أبريل أمام طبرق عند الكيلو ١٦ سقط قائد الفرقة الخامسة عشرة المدرعة الجنرال فون برتويتز قتيلا . وحاول روميل يومى ١١، ١٢ ومعه جزء كبير من آلاى البانزر الخامس المدعم بالسريتين ١ ، ٢

من الوحدة المدرعة ٦٠٥ أن يخترق منطقة دفاعات طبرق إلا أن الهجوم رد على أعقابه بنيران مدفعية اللواء الأسترالى العشرين .

وقال روميل: « حظ سيئ »، وأمر بهجوم آخر خلال يومى ١٣ ، ١٤ واخترقت كتيبة المدافع الماكينة الثامنة بقيادة المقدم «بوناث» خط الدفاع الأول، وتمكن آلاى البانزر الخامس من التغلب على كمائن الدبابات حول البلدة، غير أنه وقع تحت تأثير نيران قوية من حصن «بيلا ستريتو» ولم يستطع التقدم أكثر من ذلك . وقد تمزقت السرية الثانية من الآلاى واضطرت باقى القوة إلى التراجع. أما فرقة «آريتى» الإيطالية المدرعة التى تعودت القتال بشجاعة ، فلم تستطع أن تتحمل شدة النيران، أما بوناث ورجاله فقد اشتبكوا فى صراع مرير بالأيدى والسلاح الأبيض مع الأستراليين ، وفى النهاية مزقوا تماماً . وهكذا انتهت خطة الاستيلاء على طبرق بغارة سريعة أدت إلى نهاية محزنة .

ولكن روميل لم يكن بالرجل الذى يتخلى عن غرضه بسهولة ، وكان يشك فى أن البريطانيين الذين بدوا ضعفاء ومرتبكين يمكن أن يتحولوا بسرعة إلى مثل صلابة الحديد . ورفض أن يترك طبرق تقف عقبة فى وجه تقدمه ، وأمر بأن تتقدم مجموعتا قتال فى اتجاه الشرق مع الالتفاف حول طبرق ، وهاتان المجموعتان هما كتيبة الاستطلاع الثالثة تحت قيادة «فون ويشمار» والكتيبة الخامسة عشرة مشاة ميكانيكية – عدا السريتين الثقيلتين اللتين ما زالتا فى إيطاليا وكانتا فى طريقهما إلى أفريقيا – وذلك بالإضافة إلى السرية ٣٣ المضادة للدبابات ومعها بطارية من المدافع عيار ٨٨ مم ويقودها المقدم «كناب» .

جلس الرقيب «كروجل »من السرية الأولى من الكتيبة الخامسة عشرة الميكانيكية وبصق على رمال بنى غازى، وكذلك فعل الرقيب دولف قائلا: « هذه الرمال الملعونة . وعلى كل فهى أحسن من مياه البحر المتوسط الخطرة ، الذى عبرناه منذ أيام من نابولى إلى طرابلس فى السفينة القديمة آليكانت ويا لها من رحلة » .

فلم تكن رحلة مفرحة ، بل كانت فى الحقيقة مخيفة ، فلقد عانوا كثيرا من دوار البحر ولسوء الحظ أن مساعد الآلاى آبل لم يصب بدوار البحر بالمرة، فلقد كان يذرع سطح المركب ، وعندما رأى منظر رقيبيه المفضلين ، وقد اصفر وجهاهما ، شعر فى الحال أن هذين الرجلين يجب أن يعهد إليهما بعمل فوراً فقال

لهما: « إن كلا منكما قد حصل على وسام الصليب الحديدى من الدرجة الأولى ومع هذا يبدو عليكما الخوف كما لو كنتما مجندين جديدين ، اذهبا إلى مقدمة السفينة ، وافتحا عينيكما لأى غواصة تظهر أو لغم بحرى ، ولو غرقت هذه السفينة فستكون غلطتكما » . ثم استدار على عقبيه وتركهما، إلا أنه نظر إليهما من فوق كتفه، وقال : « إذا كان فى معدتكما ما تقدمانه للبحر فتخلصا منه الآن ».

وعبر البحر بسلام رغم قِدَم السفينة، ورغم شعورهما بدوار البحر طوال الرحلة . ولم ينعما بالراحة فى طرَابلس مدة ثمانية أيام كما توقعا ؛ لأن النقيب أوتو رئيس الإمداد والتموين كان فى انتظارهما على رصيف الميناء وأمرهما قائلا : «توجها فوراً إلى بنى غازى » .

وتقدمت السرايا الثلاث التابعة للكتيبة الخامسة عشرة من المشاة الميكانيكية على طريق بالبو وكانت كل سرية مكونة من ١٦ موتوسيكلا مزودا بمقاعد جانبية و٢٥ سيارة نقل بين خفيفة وثقيلة، وكان عدد رجالها ٢١٠ رجل .

وعند وصولهم إلى بنى غازى سمعوا هناك أن روميل ترك طبرق دون أن يحتلها، وأن كتيبتهم مع السرية ٣٣ تكونان مجموعة القتال كناب، وأن عليهم احتلال حصن كابوتزو وبلدة وميناء السلوم .

وسقطت بلدة البردية فى أيديهم فى ١١ أبريل ، وتابعوا التقدم إلى كابتزو والسلوم، وكان لهذين الاسمين رنين فى آذانهم . وتساءلوا أين تقع هذه الأماكن ؟ إنها أسماء فقط ولكن سرعان ما تصبح جزءاً من التاريخ . تاريخ الخراب والقبور ، وكان ذلك فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٤١ .

وتابع القول سيره على الطريق المترب ، وكانوا يسيرون لمسافة خمسة أميال ثم يتوقفون حتى تبرد الموتورات فهذه كانت التعليمات ، وكانت تتبع وتنفذ بكل دقة. وسرعان ما تبينوا أن هذه الموتوسيكلات عديمة النفع فى الصحراء رغم أن قيمتها كانت عظيمة فى أوروبا ، وقد عول عليها كثيراً ، فكل موتوسيكل كان به ثلاثة جنود ومدفع رشاش وصناديق من الذخيرة وثلاثة تعيينات طوارئ (لكل جندى تعيين) وصفيحة من البترول كاحتياطى وصفيحة ماء وثلاث بنادق .

وكان السير شاقا والحر شديداً، فقد وصلت درجة الحرارة إلى ١٢٠ فهرنهيت فى الظل وكانت فكرة تسجيل درجة الحرارة فى الظل فكرة مضحكة، لأنه لم يكن هناك ظل بالمرة، ولم تصمم الموتوسيكلات للعمل فى جو بمثل هذه الحرارة ،

ولذلك أضربت عن العمل وتعطلت . وكانت رحلة غير سارة ، فالتراب والأشواك والحرارة والذباب كانت تضايقهم ، وقال «شريفر» عداء السرية الأولى: « إنها بلاد مثالية للحرب؛ فلا يوجد فيها شيء يمكن تدميره » فرد زميله: « عدا أنفسنا » .

وأخيراً جاء الليل ولا بد أن كابتزو على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الأمام . وتوجه ضابطان من ضباط الاستطلاع ومعهما جهاز لاسلكى ليتحققا من ذلك ، وقد عادا من مهمتهما سنة ١٩٤٧ من أحد معسكرات أسرى الحرب .

وعندما استيقظت باقى الكتيبة فى صباح اليوم التالى صاح بعض الرجال: «عيد فصح سعيد » نعم فلقد حل عيد الفصح . وقال: « يا له من عيد فصح فى الصحراء » . وتساءل أحد الرجال: « أين يمكن أن نخبئ البيض؟ » ولم يتلق جواباً وسرعان ما أمطرهم البريطانيون بالقنابل بدلا من بيض الفصح وانفجرت القنابل فى منتصف القول . وأصيبت ثلاثة موتوسيكلات وأصبحت غير صالحة للاستعمال وصاح صائح: « المدفعية تتقدم للأمام » ثم تقدمت القوات متجهة إلى كابوتزو . وكان الحصن الإيطالى والثكنات التى كانت موجودة فيه قد أصبحت خرائب ، وكانت كابتزو حصناً حديثاً مجهزاً بالثكنات للجنود والضباط . وكل ما تبقى منه عبارة عن أعمدة الأسمنت المقام عليها المبانى وكانت تلمع تحت أشعة الشمس . وأدت نيران البريطانيين الدفاعية إلى فتح ثغرات فى صفوف الكتيبة . وصاح الملازم سبيدل فى فصيلته: « إن لم نواصل التقدم فسوف يمزقوننا بنيرانهم » وتقدم رجال الفصيلة الثانية لأن التقدم كان فيه النجاة حتى يصلوا إلى خرائب الحصن ليجدوا فيها شيئًا من الحماية . وفى هذه الأثناء أخذت سيارات الاستطلاع البريطانية والمدافع ذاتية الحركة تطلق نيرانها على المهاجمين الألمان ، وهى تتراجع عن كابتزو بينما قامت المدافع الألمانية المضادة للدبابات بالرد على النيران بالمثل . وصاح القائد: «أطلقوا النيران » وتوقفت سيارة الاستطلاع البريطانية الأولى، وانقلبت السيارتان الثانية والثالثة وفرت باقى السيارات فطاردتها القوات الألمانية . وحوالى الظهر سقطت كابوتزو فى أيدى القوات الألمانية ، ووجدها الألمان حطاما ، فكانوا يأملون أن يجدوا فيها ولو بارا واحدا ولو صغيرا ، أو أحد مشارب القهوة العربية ، أو أى مظهر من مظاهر الحياة فى قرية صحراوية ، ولكن كانت آمالهم أحلاما. وخارج الحصن استلقى الألمان فوق الرمال وقد ذهبت أحلامهم أدراج الرياح، وقال لى الرائد آهل قائد القوة: « كانت هذه هى الحالة عند احتلال الحصن » .

وفتح الجنود بنيقات ستراتهم وأخذوا يضحكون عندما شاهدوا العريف «إيميك» يجرى وهو يلهث ، فقد اكتشف العريف تحت ستار الدخان والأنقاض مستودعا للمؤن ، وقد أحضر منه علبة من الخوخ والمشمش واللحم المحفوظ ، واحتفل الجنود بعيد الفصح . وفى ١٣ إبريل ١٩٤١ لم يدر بخلد هؤلاء الجنود أن أنقاض وخرائب كابتزو سوف يحتلونها ثم يجلون عنها أربع مرات وأنه سرعان ما تقام فى هذا المكان مقبرة للقتلى من الجنود ، يكتب على صلبانها أسماء إيطالية وإنجليزية وألمانية .

وسقطت السلوم كذلك بواسطة السرية الثالثة من كتيبة المشاة الميكانيكية الخامسة عشرة بالاشتراك مع السرية الأولى من آلاى الدبابات الثالث والثلاثين بانزر، وهما اللتان اقتحمتا المرتفعات حول السلوم وميناء السلوم نفسه . وتقدم الرجال بوثبات خلال المواقع الإيطالية القديمة – التى احتلها وأخلاها البريطانيون– متقدمين من دشمة إلى دشمة صاعدين المرتفعات المحيطة بالوديان والهضبة ، وعند وصولهم إلى المرتفع كان البحر المتوسط ينبسط أمامهم بمياهه الزرقاء اللامعة.

والتصق الجنود بسرعة بالمرتفعات الممتدة المؤدية إلى السلوم ، وكان فى استطاعتهم أن يروا الخليج الواسع والشاطئ العريض، وخلفهم كانت تقع الهضبة الليبية وكان فى الميناء مدمرة بريطانية أخذت تقذف المنحدرات بنيرانها . إلا أن الملازم كروس استطاع إسكاتها بأن أطلق عليها نيران مدفعيته من عيار ٨٨ مم المضادة للطائرات ، وهذا المدفع يعتبر معجزة الحرب العالمية الثانية . المرء ليتساءل: ترى كيف ستكون الحرب الأفريقية بدون المدفع عيار ٨٨مم، ولقد صمم هذا المدفع فى الأصل ليكون مدفعا مضادا للطائرات . غير أنه استخدم فى الحرب الأفريقية كمدفع مضاد للدبابات وأثبت كفاءة ممتازة كما استخدم أيضا كمدفع ميدان . فقد ورد فى كل التقارير البريطانية عن مسرح العمليات فى أفريقيا أن المدفع ٨٨ مم كان موضع خوف وإحترام من جانب القوات البريطانية . وكان هناك جانب آخر فى معركة السلوم ، وهذا الجانب هو المواقع المعدة للمدفعية بواسطة الإيطاليين، فقد أنشئت بمهارة وعناية فائقة من جانب المهندسين الإيطاليين سنة ١٩٤٠ ، فالإيطاليون عباقرة فى فن البناء ، غير أنهم – لسوء الحظ– لم يتمكنوا من الاحتفاظ بهذه المواقع الممتازة، وكانوا يقاتلون بشجاعة عندما يكون على رأسهم قادة أكفاء .

١٠ - الصلابة مطلوبة أكثر من الشجاعة :

وكان المطلوب فى معارك السلوم وكابتزو ومعارك ممر «حلفاية» و«طبرق» الخشونة الفائقة الحد والقدرة على الاحتمال لا مجرد الحماس الرومانى ، لأن القوات المضادة كانت من القوات النيوزيلندية والأسترالية ورجال اللواء الثانى والعشرين حرس بريطانى وكانوا فى صلابة الحديد . فعندما يهاجمون أو يتسللون بالليل ، وهم يرتدون أحذية من المطاط للإغارة على مواقع المدافع المضادة للدبابات ومواقع المدفعية فإن الله يكون فى عون الجميع لأن جهنم تفتح أبوابها عند ذلك .

وكانوا يشنون هجماتهم وهم يلبسون سراويل طويلة وسترات من الصوف وعلى رءوسهم البريهات والقنابل اليدوية فى جيوب ستراتهم الكبيرة حاملين فى أيديهم المدافع الرشاشة .

وكانوا يظهرون فجأة فى ظلمة الليل فى أحد المواقع فيقذفونه بقنابلهم اليدوية ويفرغون خزائن مدافعهم الرشاشة ثم ينسحبون بسرعة كما ظهروا فجأة . ولو أسر أحدهم فلا يتكلم ولا يستطيع أحد أن يستخلص منه ولو كلمة واحدة . وكل ما يفعله هو الابتسام ثم يهز كتفيه قائلا : « لن أقول شيئا » وكان يحافظ على كلمته .

وفى منطقة السلوم كان البريطانيون يدافعون عنها بقوة ويتراجعون خطوة فخطوة مع احتلال مواقع أفضل بالنسبة لهم خلف البلدة وعلى المرتفعات أو حولها وكانوا يقفون فى وديان الجبل ومعهم عربات الاستطلاع وهم فى حالة تأهب ويطلقون النيران على أى شىء يتحرك ، ولذلك كان من المستحسن أن يبقى الجنود الألمان أثناء النهار فى خنادقهم، إلا أن الحرارة كانت أبشع من الحرب ثم الذباب وهو العدو اللدود لكل الجيوش فى العالم . فلقد كان الذباب يزحف على شفاه الجنود ويدخل فى أنوفهم ، وحتى السحالى ذات الصدور البيضاء التى كانت من الجرأة بحيث تأكل الذباب من على وجوه الجنود ، لكن لم تكن فائدتها كبيرة أمام هذه الجيوش الجرارة من الذباب .

ونتيجة للمقاومة البريطانية فى طبرق والسلوم وكابتزو وزعت قوات روميل بين جبهتين، وهذا أضعف من قوته ، وكان هذا هو السبب الذى جعل روميل يصمم على ضرورة الاستيلاء على طبرق لكى يحرر القوات المستخدمة فى حصارها حتى يتسنى له التقدم ، غير أن البريطانيين كانوا مصممين على الاحتفاظ بطبرق بأى ثمن بواسطة القوات الأسترالية المدافعة عنها . وكانت أوامر تشرشل:

«يجب الاحتفاظ بها حتى الموت» .

وفى العاشر من أبريل سنة ١٩٤١ – وهو اليوم الأول الذى شن فيه روميل هجومه على طبرق – كانت السريتان الثقيلتان من كتيبة المشاة الخامسة عشرة الميكانيكية قد وصلتا إلى طرابلس فأرسلتا على الفور إلى طبرق . وكان النقيب «بوشن» قائد السرية الخامسة الذى قاد سريته إلى الأمام قد قابل روميل شخصيا فى بلدة عكرمة وتلقى أوامره بالهجوم . وقد قال له روميل: « يجب أن يعتقد العدو أنك فى قوة كتيبة على الأقل » فقد كان الخداع هو حيلة روميل خلال تلك الأسابيع . وفيما بين طبرق والسلوم كانت عرباته من مثيرات الأتربة دائمة التحرك باستمرار لإخفاء تحركات القوات عن الاستطلاع البريطانى وأدت هذه الخدعة إلى أن البريطانيين اتخذوا قرارات خاطئة . وفى ١٩ أبريل قامت السريتان السابق ذكرهما بقيادة الرائد شكريلر حسب أوامر روميل بالهجوم ، وقد شاهد روميل هذا الهجوم بنفسه شخصيا من فوق سيارة القيادة الخاصة به ونتيجة للهجوم تعطلت كل الأسلحة الثقيلة الموجودة مع المشاة الميكانيكية والمدافع المضادة للدبابات فى السريتين من تأثير نيران مدفعية العدو . وتعذر على القوات أن تخترق الدفاع حول طبرق وفقد أكثر من خمسين رجلا .

وأخيرا فى حوالى ٣٠ أبريل تمكنت وحدات من آلاى المدفعية ١١٥ ومعها كتيبة المهندسين ٣٣ من اختراق دفاعات طبرق بعمق . وتمكنت السرية الثالثة من الكتيبة الثانية مدافع ماكينة من الاستيلاء على رأس المدور وهى نقطة محصنة تحت قيادة قائدهم ثابت العزم جود فرد مونتو وتمكنت قوات الاقتحام الألمانية من شق طريقها إلى الموقع الأول لموانع الدبابات واحتلاله ولكن خسائرها كانت فادحة.

وقتل أثناء الاقتحام الملازم سيرنر حامل وسام « صليب الفارس » كما قتل الملازم فردل شميدت قائد جماعة مهندسى آلاى المدفعية ١٠٤ . وكان قد أرسل فى مساء يوم ٣٠ أبريل لتدعيم مجموعة القتال ١١٥ (مولر) . وفى أول مايو ١٩٤١ قامت الكتيبة ١٥ مشاة محملة ومعها آلاى المدفعية ١٠٤ بالهجوم لتوسيع الثغرة التى قام بفتحها الآلاى ١١٥ ، وكان آلاى المدفعية ١٠٤ قد أرسل إلى أفريقيا فى أبريل ووصلت طلائعه الأولى وهى الكتيبة الأولى من الآلاى ورئاسته .

وقد تركوا تكناتهم فى ألمانيا خلال عاصفة ثلجية عنيفة، وقال الملازم جرودجر من قوة الآلاى لزملائه وهو جالس ومعه جريدته اليومية: « إن ما تفعله

الفرقة الخامسة الخفيفة فى أفريقيا غير معقول ، العقيلة ثم مرسى البريقة وأجدابية وبنى غازى والمخيلى ودرنة والآن وصلوا إلى أبواب طبرق . إن الأمور لا يمكن أن تسير بهذه السرعة وأؤكد لكم أنه ما زال هناك متسع من القوات لكى تصلوا إلى هناك فى الوقت المناسب » .

وبعد مغادرة رجال الآلاى لروما لم يذكروا الحرب بعد ذلك بل اكتفوا بلعب الورق، ووصلوا إلى نابولى ولكن لم يكن لديهم الوقت الكافى للتمتع بالتجول فى المدينة فقد كانت طائرات النقل من طراز يونكرز ٥٢ جاثمة فى انتظارهم على أرض المطار . ووصلت درجة الحرارة إلى ١٠٤ فهرنهيت رغم أنه منذ أيام قلائل كانوا يرتعدون من البرد فى بلادهم . وطاروا فوق البحر المتوسط وكانت الطائرات محملة فوق طاقتها فهى فى العادة تحمل ستة عشر فردا ولكنها كانت محملة بأكثر من ذلك . وكثيرا ما كانوا يتساءلون: هل ستقابلهم المقاتلات البريطانية أثناء رحلة العبور؟ . وهل سيكتب لهم النجاة لو حدث ذلك ؟ ورأوا على مرمى الأفق خطا رفيعا أبيض هو الساحل الأفريقى أو الصحراء ثم بعد ذلك وصلوا إلى بنى غازى .

١١ - الدشم التى تبصق النيران :

كانت الشمس محرقة والرمال الناعمة الساخنة تلدغ عيونهم وكانت سيارات النقل الخفيفة معدة لنقلهم إلى الأماكن المجهولة فى هذه البلاد . ولم يعرف أحد منهم وجهتهم، ولكنهم كانوا يعلمون شيئا واحدا هو أن الوقت ضيق ، فقد كانت هناك شائعات بأن طبرق على وشك السقوط وسيكون لهم دور فى الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة ولكنها كانت مجرد شائعات ليس إلا ...

وتوقفت بهم السيارات بجوار بعض الخرائب المسماة بعكرمة ، وكان هذا المكان هو نقطة التجمع للاقتراب من طبرق . ونام الجنود بمجرد وصولهم بالرغم من صوت المدافع التى تدوى . وعندما عاد النقيب ديستل من المؤتمر الخاص بالقادة قال لهم: « يجب على المهندسين أن يستعدوا للعمل » وتقدموا إلى المعركة حاملين المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وكانت الصحراء منبسطة كالطبق وأرضها صخرية فى بعض الأماكن ، وعلى مرمى البصر لا يوجد أى مكان يصلح للاستتار فلا يرى الإنسان منزلا ولا شجرة على الإطلاق إنما يرى شيئا واحدا هو الحجارة والرمال .

واخترقوا أول سلك شائك ورأوا لأول مرة آثار جنازير الدبابات وأخذ صوت

المعركة يرتفع كلما اقتربوا منها وانتشرت أمامهم سحب الأتربة الناتجة عن سقوط وانفجار القنابل . وكان الموقع الأول من الجبهة محدد المعالم بحائط من الأتربة وكان عليهم أن يصلوا إلى هذا الموقع ليحتلوه . ثم رأوا لأول مرة القتلى من البريطانيين فى مسرح العمليات وقد انتفخت وجوههم من أثر الحرارة بشكل أدى إلى تلاشي معالمهم وكانت الجثث فى حالة تعفن شديد حتى انفجرت الملابس التى عليهم ورأوا ثلاثة أو أربعة من الأستراليين قد سقطوا قتلى معا ولا بد أنهم قتلوا بدفعة من رشاش .

وسرعان ما قابلوا بعض الجنود الألمان العائدين من الخطوط الأمامية وقد غطتهم الأقذار والتراب ومن بينهم أحد الرقباء الأوائل وكان مصابا بنزيف فى كتفه.

وسقطت القنبلة الأولى بالقرب منهم وبدأت الأمور تتأزم ، وصاح صائح: «انتشروا واتخذوا ساترا ثم انبطحوا أرضا » وبعد وقت قصير واصلوا التقدم بوثبات قصيرة وسريعة وكان ميدان القتال مغطى بجثث الموتى كما كان واضحًا أن هذه الجثث لم يمر عليها مدة كبيرة لأنها لم تكن منتفخة . وبسرعة حملق الرجال ، وتساءلوا أين الخنادق وأين توجد الدشم ؟

ويقصدون الدشم التى كانت موجودة على حدودهم الغربية أو الدشم التى عرفوها فى خط ماجينو وكان من الواضح عدم وجود شيء من ذلك هنا . ولكن كانت توجد دشم ، ولكن من الصعب رؤيتها .

وهبط عليهم الليل فجأة وذلك عند وصولهم إلى مراكزهم فى الجبهة يوم أول مايو سنة ١٩٤١ وكانت وحدات الآلاى ١٠٤ بالاشتراك مع سرايا الآلاى ١١٥ مدفعية تقوم بتوسيع رأس الكوبرى فى حصن بيلا ستربنو . وعند الفجر تلقوا الأوامر بالهجوم ، ولكن كانت هناك مفاجأة ، فأخذت المدفعية الألمانية تقذفهم بالنيران وصاحوا: « أوقفوا إطلاق النيران نحن ألمان » ولكن صيحتهم ضاعت فى الفضاء ، بينما نسف أحد المدافع المضادة للدبابات ومعه بعض حملة النقالات . ثم أخذت المدفعية تطلق نيرانها على سرية إيطالية متجمعة على يمين الطريق، وصرخ الرجال طالبين النجدة، وأخيرا وصلت المدرعات الألمانية على الجناح الأيسر، وتقدمت السرايا بصحبة المدرعات للخروج من هذا المأزق ، بينما قفز الإيطاليون من خنادقهم ليصحبوهم فى الهجوم ، وكان النهار قد طلع . وتقدمت

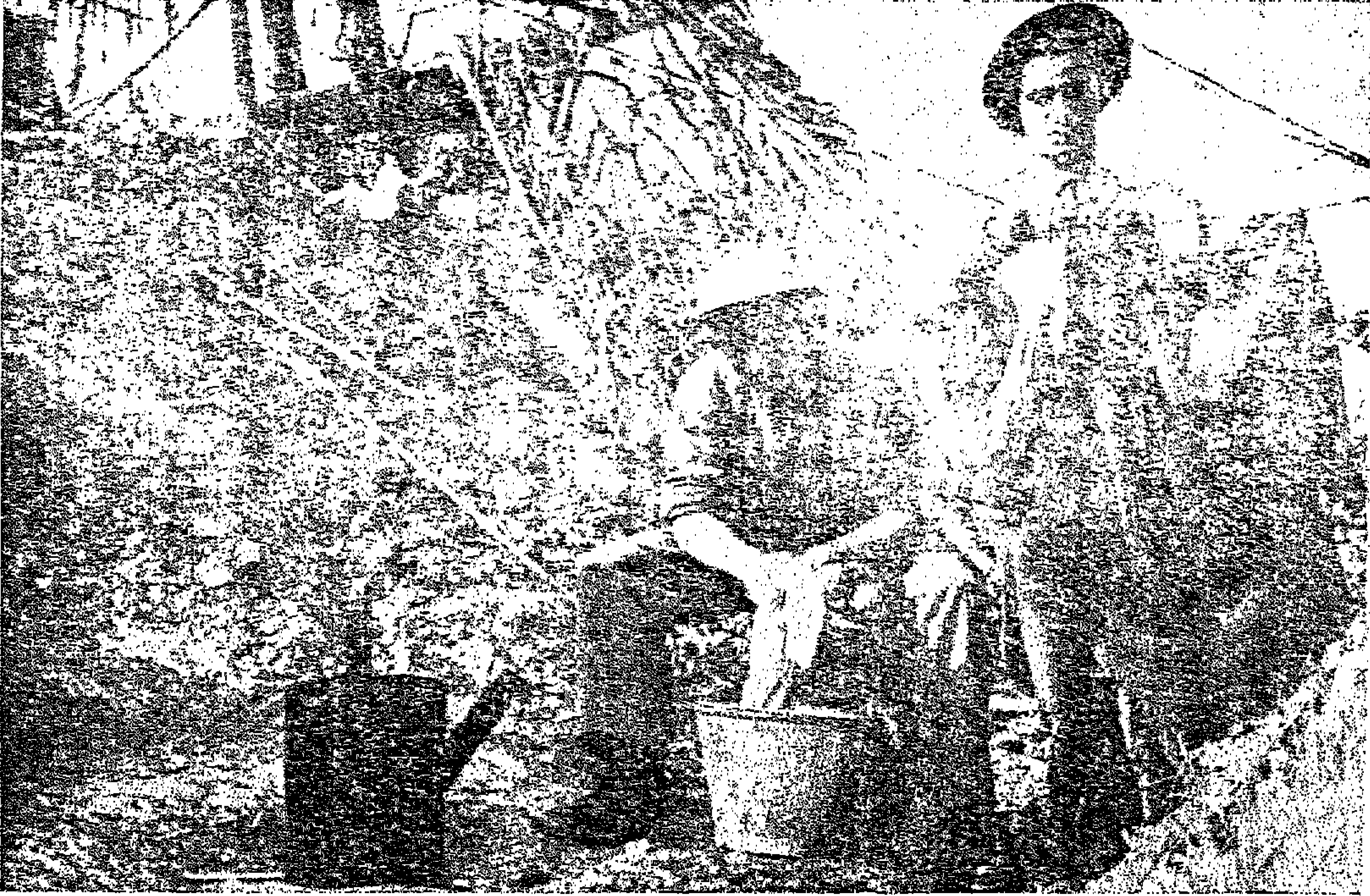
السرايا بوثبات مفاجئة إلا أن الخسائر فى صفوف الإيطاليين كانت كبيرة ، وأخذت الألغام تنفجر، وتوقفت الدبابات لتحطم جنازيرها ، وقفز منها أطقمها وأسرعوا إلى المؤخرة . واكتسحت نيران المدفعية ميدان القتال ، وأخذت المدافع الرشاشة والهاونات تقذف بحممها وكان لا يوجد فى الميدان بالكامل أى سواتر للاستتار من هذا السيل المنهمر من قذائف الموت .

ولم تكن التربة صالحة للحفر، حتى لحفرة لشخص واحد، لأنها كانت مثل الأسمنت المسلح ، وحلت الساعة التاسعة، ومر على بدء الهجوم أربع ساعات، وشعر الجنود بالظمأ الشديد، وكان أبشع من هذا الظمأ مرض الدوسنتاريا الذى تفشى بين الجنود وأصاب نصف القوات ، فكان هناك بعيدا بجوار الموتوسيكلات الملازم بوشر ومراسلته ويفرهوف (وكلاهما كان مدرسا فى الحياة المدنية) يعانيان من وطأة الدوسنتاريا الحادة . فقد خلعا سراويلهما وغسلاها، ولكن سقطت قنبلة هاون دمرت السراويل المنشورة . وقد حارب كل من الملازم ومراسلته لمدة يومين بسراويلهما الداخلية فقط . وواصل روميل محاولته للاستيلاء على طبرق حتى السابع من شهر مايو، إلا أن قواته كانت غير كافية ، وكان الدفاع عن طبرق قويا جدا وخاصة المدفعية، وقد حاربت القوات المحملة الألمانية كالشياطين فقد كانوا يحصلون على مؤنهم من المواقع البريطانية .

وحمل المساعد نواك الجرحى من خط القتال بنفسه ، غير أن هذه البطولات لم تُجْد نفعا . ففى ليلة الرابع من مايو سحبت القوات المحملة من خط القتال وأرسلت إلى حصن كابتزو . وارتد الآلاى ١٠٤ إلى خط القتال الجديد فى الخلف الأكثر ملاءمة من مراكزه الحالية . ولم يجرؤ أحد على الخروج من الحفر إلا فى الليل فقط وأثناء العواصف الرملية . ثم دبت الحياة فجأة فى المواقع الألمانية، فقد جمعت الأحجار حول المواقع قليلة العمق وبنيت فوق بعضها للوقاية من أسلحة القوات البريطانية .

وقدم الملازم فردل شميدت نفسه إلى قائد مجموعة القتال الرائد ميلر قائد آلاى المدفعية ١١٥، وقد اتخذ مركز قيادته فى الدشمة رقم ٦ فلقد رقمت الدشم بأرقام. ولم يكن فى الاستطاعة رؤيتها إلا إذا سقطت فيها، فهى بمساواة الأرض المحيطة بها، وكانت فى الأصل خنادق حفرت بالديناميت فى الأرض الصخرية وقويت بالخرسانة وتم توصيلها بمخبأ على هيئة غرفة .

وكان هذا النوع الماهر من أنواع الاستحكامات الدفاعية قد كلف الألمان الكثير من حياة جنودهم . فلقد كانوا يسيرون فوقها دون أن يروها ، وبعد اجتيازهم



الملازم بوشر ومراسلته ويفرهوف أثناء غسل ملابسهما بسبب الدوسنتاريا الحادة

لها يتعرضون لنيران قاتلة من الخلف . وهكذا كان جحيم الحرب فى طبرق . وجاءت الأوامر بضرورة تكرار الهجوم لتدمير الدشم رقم ٤ ، ٥ بواسطة جماعة مهندسين من الآلاى ١٠٤ ، وكان إصدار الأوامر فى حد ذاته سهلا ، ولكن التنفيذ كان صعبا وصعبا للغاية . فكان على جماعة المهندسين التابعة للآلاى أن تقوم بالهجوم عند الفجر على دشمتين تبصقان النيران . وقبل منتصف الليل وصل الطهاة وقاموا بتوزيع الطعام على الجنود الذين ابتلعوا الحساء بشغف، لا لجودته ولا لما احتواه، بل لمجرد أنه ساخن . وإلى جانب الحساء وزع الجبن والسردين والخبز الأسود . وكان هذا الطعام هو الطعام المعتاد فى جبهة أفريقيا ، وأحيانا كان الطهاة يرسلون إلى الجنود الألمان لحما محفوظا وكان الجنود الألمان يطلقون عليه لرداءته (لحم موسولينى) أما الإيطاليون فكانوا يسمونه لحم الحمير) .

وفى الهجوم على الدشمتين رقم ٤ ، ٥ استخدمت الأسلحة الثقيلة وهى مدافع من عيار ٨٨ مم ومدافع الميدان الفرنسية ، وكان أفضل الأسلحة مدافع الهاون عيار ٢١ سم . وظنت القوات بعد هذه التجهيزات أن الأمر أصبح سهلا ، لأن استخدام مثل هذه الأسلحة وخاصة مدافع الهاون من عيار ٢١ سم كانت كافية لتدمير المواقع والاستحكامات بل وسحقها .

وتحت جناح الليل تجمعت جماعة المهندسين . وعند خيوط الفجر الأولى تحركت القوات زاحفة إلى الأمام حتى أصبحت على مرمى القنابل اليدوية من مواقع العدو .

وتم الاتفاق عندما تصل القوات إلى هذا الموقع أن تطلق إشارة ضوئية بيضاء إيذانا للمدافع الثقيلة بالضرب . وكان على مدافع الهاون أن تركز ضربها على الدشم ثم ترفع نيرانها لكى تقتحم المشاة الدشم لينسفوها ، ثم يتقدموا لاحتلالها ويظلوا فيها حتى الليلة التالية ، ثم تأتى قوات لتحل محلهم . وكانت الخطة بديعة .

وزحف الجنود فوق الأرض الصخرية فى سكون حتى دميت كيعانهم ولكن ما أهمية ذلك؟ فيجب ألا يصدر منهم أى صوت ولا يراهم العدو . لقد وصلوا إلى هدفهم ، وارتفعت طلقات الإشارة وانطلقت منها الإشارة الضوئية وهى تصفر فى سكون الليل وتنير المنطقة بأضوائها المغنسيومية . والآن يجب أن تبدأ المدافع الثقيلة ضربها ... يجب !!! ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وقام العدو بنسف المهاجمين وتحطيمهم، وسمعت صرخات تدل على الألم وأصوات حشرجة الموت . وصاح الجندى الصغير «سيجريست»: « لقد جرحت». ولم يرض أحد من الجنود أن يترك هذا الجندى لأنه أصغر أفراد الجماعة ومحبوب من الجميع . وصاح الملازم «فيردل» وهو يحمله ليقف على قدميه: « هيا معى »، وسار الجندى الجريح وراءه إلى الخطوط

الخلفية . وعاد سيجريست إلى ساحة القتال بعد أسبوع. فلقد مرت الرصاصة داخل فمه المفتوح وخرجت من الخلف بالقرب من عموده الفقرى، وكما لو كانت يد ساحر هى التى وجهتها، لأنها تركت كل منطقة خطيرة دون أن تخترقها، فما من شريان أو وريد أو عصب أو حتى عظمة مسّتها الرصاصة أثناء دخولها من فمه حتى خروجها من خلف رأسه. وكل ما حدث هو جرح سطحى صغير. وقال له الطبيب: «لو كنت منك لسرت فى المستقبل مفتوح الفم فأنت رجل محظوظ»، وفعلا كان الصبى ذو الأعوام الثمانية عشر «سيجريست» محظوظاً؛ فقد خاض الحرب كلها وخرج سليما وهو لا يزال حيا حتى اليوم فى صحة وعافية.

وواصلت القوات الهجوم دون توقف، ولم يعرف أحد لماذا لم تنفذ المدفعية الثقيلة الخطة كما وضعت . وصاح «روميل» فى مهندسيه : «إن ما يقوم به البريطانيون فى وضح النهار لا تستطيعون أن تفعلوه فى ظلمة الليل»، وتزايدت أرقام الخسائر يوماً بعد يوم وظل الآلاى ١٠٤ راقدا فى حفرة لا يستطيع الحراك .

فالأستراليون رماة مهرة، قناصون ممتازون. وأعتقد أنه غير مريح أن يبقى الإنسان فى الشمس المحرقة لمدة ١٢ ساعة دون أن يجرؤ على التحرك، وخاصة إذا كان التموين قد انقطع لعدة أيام وكان عليهم أن يأكلوا كلما تيسر الطعام. وكان الرجال يضطرون للبقاء على هذه الحالة حتى حلول الليل؛ لأن كل حركة كان معناها الموت المؤكد لهم ، فما عليك إلا أن تظهر فوق سطح الأرض حتى تطلق رصاصة وتجد نفسك مصاباً.

ولحسن الحظ كانت العواصف الرملية كثيرة وخلالها كان الجنود يصعدون على سطح الأرض مثل الأشباح ، ثم يهرولون ليتبادلوا الكلمات مع زملائهم فى الحفر المجاورة . وكان هذا ممكنا خلال العواصف الرملية؛ لأن المدافع كانت لا تطلق نيرانها أثناء ذلك حتى لا تحدث انفجارات كبيرة . وكان البريطانيون يلزمون أماكنهم خلال العواصف ، أما الألمان فعلى العكس ، ينتهزون الفرصة لكى يحيوا ويتكلموا مع بعضهم . كان هذا هو التنافس فى الحرب حول طبرق .

وفى خلال النهار كان من الخطر أن تبرز أنفك خارج الحفرة ، فلقد كان البريطانيون مزودين بذخيرة كثيرة من البحر لدرجة أنه كان فى مقدورهم أن يطلقوا طلقة مدفع هاون على هدف من رجل واحد . فأثناء زيارة فردل شمدت للملازم وتنجل فى الجماعة المجاورة رآه البريطانيون وأطلقوا عليه النيران . وكان

فيردل يعرف من صوت القنبلة متى تسقط على الأرض ، ومتى يسارع بالانبطاح لتفادى خطرها . غير أنه فى إحدى المرات ، لم يجد على مقربة منه حفرة أو خندقًا ليستتر فيها من القنبلة ، فلقد كان الخندق المجاور له مشغولا ، غير أنه لم يكن هناك مفر وقذف بنفسه فى الخندق . وبينما كان نصفه داخل الخندق والنصف الثانى خارجه شم رائحة نتنة مفزعة ، ثم تساءل : هل الزى الذى يرتديه شاغل الخندقًا زى ألمانى أم بريطانى؟ وشاهد العلامات على كتف الجثة ... لقد كان ألمانيا . وكان طبيبهم المفقود ... كم مضى من الوقت عليه فى هذا الخندق بعينيه الواسعتين المفتوحتين ؟ ظل مهندسو الآلاى ١٠٤ جاثمين فى الآتون المتقد أمام طبرق حتى منتصف مايو ، ثم أخيرا بعد طول انتظارهم جاءت قوات الغيار . وكانوا مسرورين لنجاتهم من الموت مرة أخرى ، فلم تلتهمهم طبرق . غير أن مأساة أشد كانت تنتظرهم فيما بعد فلقد نقلوا مع الآلاى ١١٥ إلى الجبهة الثانية الدامية من جبهات حرب شمال أفريقيا ، فى قطاع (السلوم - كابتزو) وممر حلفاية، فهناك كانت المعركة ما زالت مستمرة كذلك .

١٢ - مجموعة القتال (هيرف) تقتحم ممر حلفاية :

خلال أبريل سنة ١٩٤١ تمكنت مقدمة الفرقة الخامسة الخفيفة من احتلال ممر حلفاية ذى الأهمية الاستراتيجية ، وبهذا الاحتلال أصبح للألمان مراكز متقدمة أمام جبهة السلوم .

ولو أراد البريطانيون معاودة الهجوم فعليهم أولاً أن يحتلوا ممر حلفاية . وفى منتصف شهر مايو وبالتحديد فيما بين ١٥ - ١٧ ، قام الجنرال ويفل بالهجوم مستخدما وحدات من لواء الحرس الثانى والعشرين ، ودافعت السرايا التابعة للآلاى ١٥ من المشاة المحملة الألمانية ومعها بطارية إيطالية عن الموقع فى ممر حلفاية ، ولكن سقطت كل الحامية الألمانية التى كانت موجودة فى الأسر عدا ١٢ جنديا غير أن أهداف هذا الهجوم لم تتحقق ، لأن مجموعة القتال هيرف الألمانية عادت واحتلت كابتزو والسلوم بهجوم دامٍ مضاد ، لأنهم وجدوا أن ممر حلفاية فى يد البريطانيين معناه تهديد دائم للقوات الألمانية الضعيفة فى جبهة (كابتزو -البردية) ومن ثم قرر روميل إعادة احتلال الممر من البريطانيين .

وحدد للهجوم يومى ٢٦ ، ٢٧ مايو ، وكان مسرح العمليات هذا يبعد عن

طبرق ٦٥ ميلا إلى الشرق ، كما كان مسرح العمليات يشمل حصون ومراكز سيدى عمر وكابتزو وخط الأسلاك الشائكة العريضة الممتدة على الحدود بين مصر وليبيا وكان طوله ٨٥ ميلا وسط الصحراء وقد أقامه الإيطاليون فى الأيام الماضية كوقاية ضد الغارات التى كان يقوم بها السنوسى على المستعمرات الإيطالية. وفى أيام الصيف الأولى من عام ١٩٤١ لم يعد هذا السياج مانعا أو واقيا فهذا الخط الثلاثى من الأسلاك قد تحطم إلى قطع صغيرة فى أماكن متعددة وسقط على الأرض ومرت فوقه الدبابات ، أما الأعمدة الحديدية فقد وقفت وحدها تحيط بها الأسلاك المخلوعة ، وفوق هذه الأسلاك كنت تشاهد صفائح بترول صدئة أو أوانى فارغة وقطعاً من الملابس العسكرية وجرائد يومية قديمة والرياح تتلاعب بها فوق الأسلاك وكان العديد من هذه الأشياء يخدم قوات الاستطلاع والدوريات كعلامات تحدد معالم الطريق أما الباقى منها فكان عبارة عن مخلفات للحرب .

وفى هذه الجبهة (جبهة كابوتزو والسلوم) كان يوجد مرتفع مسطح من الأرض ينحدر انحداراً شديداً (حوالى ٦٠٠ قدم) فى اتجاه البحر، وكذلك الجزء الساحلى الممتد من شاطئ السلوم إلى الجنوب الشرقى ، مكوناً هضبة طولها ٢٣ ميلا ، وكان الطريق المؤدى إلى ما فوق الهضبة هو ممر حلفاية ، وكان مدخل الممر تحيط به الوديان والمضايق العميقة وآثار لأنهار قديمة كانت تجرى من الداخل إلى الساحل غير أنها أصبحت جافة ومملوءة بالحشائش والصخور.

وفى هذه الوديان دارت الحرب . وكانت مرة المذاق . فلقد تمركزوا مثل الطيور فى أعشاب هذه الوديان ومنحدراتها . وكان البريطانيون مختفين فى حفرهم فوق المرتفعات .

١٣ - الشيطان المراوغ:

وفى السادس والعشرين من الشهر صدرت الأوامر لمجموعة القتال هيرف باحتلال ممر حلفاية . وإصدار مثل هذا الأمر شىء بسيط وبسيط جدا. وعلى الخرائط كان يبدو تنفيذه بسيطاً. وتقدم الآلاى الثامن المدرع تحت قيادة المقدم كرامر من السلوم جنوبا عبر الصحراء ثم غير اتجاهه نحو الشمال وهاجم القوات البريطانية التى تدافع عن الممر من الخلف . وعاون الآلاى الثانى فى هجومه مدفعية الآلاى المدرع ٣٣ ، بالإضافة إلى كتيبة المشاة المحملة ١٥ ، والسرية

الأولى من كتيبة الاستطلاع ٣٣ . وقامت الكتيبة الأولى من آلاى المدفعية ١٠٤ بالهجوم بالمواجهة على الممر سيراً على الأقدام ، وبينما تقدم الآلاى المدرع الخامس من المنطقة غرب كابتزو يعاونه بطارية مدفعية وخمسة مدافع من عيار ٨٨ مم ووحدات من المدفعية الإيطالية ليقوم بهجوم مخادع من الجنوب لكى يحول أنظار البريطانيين عن الممر . وهكذا كانت الأوامر ، وهكذا كانت تظهر الخطة على الخرائط .

ولكن كيف تبدو المعركة فى نظر الجندى العادى الذى شق طريقه قتالا من السلوم إلى المرتفعات المحيطة بالممر .

لقد فقدت الكتيبة الأولى من آلاى المدفعية ١٠٤ قائدها فى اليوم الثانى لخدمتها فى مسرح العمليات الأفريقى أثناء معركة طبرق . وأرسل النقيب باخ قائد إحدى السرايا ليحل محله . وكان الجنود يسمونه بالشيطان المراوغ، أما الصف ضباط فكانوا يسمونه بالقسيس ولم تكن كلمة قسيس كناية ، لأنه كان قسيساً فعلا . فكان قائدهم الجديد ضابطا احتياطيا ، وفى الحياة المدنية كان قسيسا وراعياً لكنيسة إنجيلية فى مانهايم . وقد دهش الملازم شميدت عندما قدم نفسه إلى القائد الجديد، وذلك للطفه الزائد .

وكان شميدت موجوداً فى كوخ تُقَسّمه بطاطين عسكرية عتيقة عندما انفرجت هذه البطاطين ظهر رجل فى القسم الآخر ، ولم يدل مظهره على أنه رجل عسكرى صارم أو كصورة ضابط كما يتوقعها الإنسان . فقد كان فِى الخمسِين منِ العمر وِسيداً متزناً بسيطاً يزيد طوله عن ستة أقدام وله شارب . وحيِّى القائدُ الجديد الملازم برأسه وكان يحمل سيجارا فى يده اليسرى ويرتدى سروالا طويلا بدون سترة . وكانت علامات الرتب تستقر فى راحة فوق كتفيه العريضتين . وقال الملازم: « حسنا يا صديقى إذاً لقد تمكنت من الوصول إلى هنا سالما » قالها بلطف قبل أن يستطيع الملازم تقديم نفسه إليه . ثم قال له القائد: « هل تحب أن تدخن سيجارا ممتازا؟ » فقال الملازم : «شكرا يا سيدى النقيب فأنا أدخن السجائر فقط والسيجار يجعلنى أشعر بالغثيان » فردَّ القائد : « من الناحية الصحية فإن تدخين السيجار أحسن، وعلى كلٍّ خذ سيجارة لو كنت تفضلها » .

وكان القائد يتكلم بلهجة آهل بادن ويدخن السيجار بشغف وعند كل نفس

ينفخه يميل برأسه قليلا إلى أحد الجانبين وعليه هيئة الرجل الذى يتذوق ما يتناوله ومن يراه لأول مرة يشعر أنه رجل قانع مالك لزمام نفسه ورجل من أسرة.

وقال القائد متابعاً حديثه مع الملازم: « حسنا يا صديقى أتمنى أن تستمتع بالمتعة والهناء هنا معنا » ولم يسبق للملازم شميدت أن سمع فى حياته العسكرية قائداً يقول مثل هذا القول وأن يستمتع بحياته العسكرية وخاصة فى زمن الحرب ، وفى ممر حلفاية بالذات .

وهكذا كان القائد الجديد القسيس باخ .

وقد ضرب هذا القسيس المثل الرائع للفضائل العسكرية فى تاريخ الحرب الأفريقية فلم يعطِ أمراً قط لم يكن هو نفسه على استعداد لتنفيذه ، وقد أحبه الجنود ونادراً ما يحب الجنود قائدهم . وبعد أن أسره البريطانيون ظلوا يذكرون فضائله . وقد أطلقت عليه الصحف البريطانية اسم بطل ممر حلفاية أو قسيس نار الجحيم ، لأن منطوق حلفاية بالإنجليزية يعنى (نار الجحيم) ولكن سوف نرى فيما بعد هذا النوع من الرجال .

وقد اتخذت السرية مواقعها الدفاعية فى وادى قلالة حيث وصلت درجة الحرارة فى الظل إلى ١٣٠ فهرنهيت ولم يجرؤ أحد على الزحف فى الوادى لأن أى رجل يرفع رأسه ينهال عليه سيل من الطلقات .. وكانت المدفعية البريطانية عيار ٧٥ مم تطلق نيرانها على فترات ولا يعرف أحد من أين تطلق هذه المدافع . ولم يستطع العريف جنج قائد جماعة اللاسلكى اكتشاف مكان المدفعية وقد ناداه النقيب باخ وقال له: « اذهب يا جنج وأحضر المدفع ٣ر٧ سم المضاد للدبابات من الخلف لنضعه على جناحنا ونقذف به هؤلاء القوم » وبعد عناء وعرق ودموع تمكن الجنود من وضع المدفع فى المكان المناسب المطلوب . ولا يمكن تصور المجهود الذى بذل لإحضار مدفع ثقيل مثل هذا ، وفى هذا الجو الحار ثم تثبيته فى مكانه ، إلا أن المدفع المضاد الألمانى لم يقلق البريطانيين لأن نيران هذا المدفع كانت غير محكمة بالمرة . ولم يجرؤ الرماة على رفع رءوسهم لمراقبة سقوط الطلقات . وصاح النقيب باخ: « اتركوا المدفع لأنكم تسرفون فى الذخيرة وبدون فائدة » . وخرج النقيب بنفسه من الوادى واتخذ ساتراً على حافة الوادى ونظارته المكبرة فوق عينيه واختبأ فى اللحظة المناسبة عندما قذفه البريطانيون بالنيران إلا أنه كان قد تمكن

من تحديد مكان المدفع ٧٥ مم البريطانى . وأرسل جنج إلى البطارية ليخبرهم بمكان المدفع . وصاح الجنود لبعضهم: « هل رأيتم الرجل العجوز وماذا فعل ؟ » وأحنى الجنود رءوسهم ، وعندما رفع الرجل العجوز رأسه شرعوا فى الهجوم .

وكان فى مواجهتهم الآلاى الثالث من حرس الكولد ستريم . وهو من أحسن وأمهر الآلايات البريطانية وقد قاوم رجال حرس الكولد ستريم طوال الليل وطأة الهجوم الألمانى . وعند الفجر بينما كانت الشمس تبزغ عند الأفق حمراء كالدم ، بدأ هجوم الآلاى ١٠٤ على الطريقة التقليدية (بالبنادق المثبت بها السونكيات) وتعالت الصيحات الضارية وانتاب الجميع الشعور بالخوف . وقامت السرية الثالثة من الآلاى الخامس عشر من المشاة المحملة بالهجوم من المنحدرات، على الجناح الآخر، تعززها الدبابات والمدفعية المضادة وهى تقذف نيرانها الكاسحة على الممر والطريق الساحلى . وارتد رجال الحرس البريطانى واستولى الألمان على الممر وألقى الجنود الألمان بأجسامهم على الرمال وهم يتنفسون بصعوبة ثم ناموا إلا أنهم لم يستريحوا فى النوم فقد أيقظتهم صيحات الجرحى . وقام الجميع بمساعدة حملة النقالات فى حمل الجرحى ودفن الموتى . وهذه العملية تبدو سهلة إلا أن الصلاة الأخيرة على أرواح الموتى كانت ثقيلة على قلوبهم . وكان من المتعذر دفن الموتى قبل ساعات حتى يتمكنوا من حفر القبور فى التربة الصخرية .

وجمع الجنود الحجارة وأقاموا لكل جندى قتيل حصناً لحمايته من هجوم الضباع . أما الأحياء ممن نجوا من المعركة فقد دخلوا أيضاً تحت الأرض فقد أقاموا الحفر والخنادق للمرحلة التالية من القتال .

وكانت هذه المرحلة الجديدة من القتال قد تم زرع بذورها فى لندن منذ خمسة أسابيع .

الفصل الثانى

معـركـة السـلوم

الفصل الثانى

معـركة السلوم

١ - عمليـة النمـر:

كان الوقت بعد منتصف الليل وخارج قصر « تشيكرز » المقر الريفى لرئيس وزراء بريطانيا والمطر ينهمر وهذا الجو الردىء فى مثل هذا الوقت يمنع الألمان من قذف إنجلترا بالقنابل . وفيما بين دوفر وأدنبرة أزاح السكان الستائر السوداء لفترة وجيزة ليحدقوا فى الظلام ثم يعودون إلى أسرهم وهم يشعرون بالراحة لعدم توقع غارات فى مثل هذا الجو الردىء . وكان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يجلس فى فراشه فى تلك الليلة من ظهر أبريل ١٩٤١ ، وبالتحديد كان مستندا على الوسائد ويقرأ البرقيات الأخيرة الواردة من القاهرة . ولم يقم بوضع خطوط تحت الفقرات المهمة كما كانت عادته ، ولكنه ظل جالسا مكانه وهو يفكر فقد كانت هذه الليلة التى علم فيها بهزيمة الجنرال ويڤل فى برقة ، وكانت من أسود الليالى . وقد أثرت فيه هذه المصيبة وشغلت تفكيره ويمكننا تقديرها من إحدى فقرات مذكراته التى يقول فيها: « إن هدفى الأعظم ظل ممثلا فى نصرٍ نحرزه فى الصحراء الغربية، ونحطم جيش روميل قبل أن يقوى ، وقبل أن تصل إليه الفرق المدرعة بكامل قوتها» وكان تشرشل يقصد بذلك ما نقله إليه عملاؤه فى ألمانيا من أن الفرقة المدرعة الخامسة عشرة فى طريقها إلى أفريقيا .

والآن أصبح واضحًا أن الذى سوف يفوز فى سباق الحرب من يستطيع إحضار المزيد من القوات والمؤن بسرعة . ولو تأخر البريطانيون عن الألمان فى هذا المضمار ولم يعززوا قواتهم قبل أن تصل الفرقة الخامسة عشرة المدرعة فإن احتمال أى هجوم مفاجئ سيكون ضعيفاً للغاية . وكانت الإمدادات البريطانية سوف تصل متأخرة بدون شك لأنهم خوفا من الغواصات والطائرات الألمانية فى البحر المتوسط كان عليهم أن ينقلوها عن طريق رأس الرجاء الصالح ثم إلى البحر الأحمر وقناة السويس ومنها إلى الإسكندرية .

وفى العشرين من أبريل تلقى تشرشل معلومات من ويقل تفيد بأن مقدمة الفرقة الخامسة عشرة المدرعة [١] قد تم إنزالها فى طرابلس . وفى الحقيقة إن بعض وحدات الفرقة كانت قد وصلت فى مارس وأبريل من نفس السنة ، واشتركت فعلا فى القتال وهى : الوحدة ٣٣ استطلاع والكتيبة الخامسة عشرة من المشاة المحملة والوحدة ٣٣ مدرعات بانزر . ولم يعلم ويقل بذلك . وكان يخشى أن تصل الفرقة بكامل قوتها ومعداتها (وبها ٤٠٠ دبابة) إلى الخطوط الأمامية قبل الشهر. وكان هذا موقفاً مثيراً للرعب وكان معناه نهاية بريطانيا العظمى فى مصر، ما لم تصل النجدات بسرعة .

وفى مثل هذا الموقف قرر تشرشل أن يربح المعركة بضربة سريعة حاسمة ففى الواحد والعشرين من أبريل أمر القيادة البحرية البريطانية بإرسال قافلة محملة بالدبابات الجديدة عن طريق البحر المتوسط بدلا من إرسالها عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وقامت خمس سفن تجارية كبيرة تحرسها وحدات بحرية من أسطول الأدميرال سمرڤيل وكانت تحمل القافلة ٢٩٥ دبابة وحوالى ٥٠ طائرة مقاتلة فى اتجاه جبل طارق .

وكانت هذه العملية تتطلب اسما كوديا حتى يتسنى كتابته فى البرقيات الخاصة بالعملية ويجب ألا يكون الاسم الكودى بسيطاً بل يجب أن يكون صعباً وأن تكون الكلمة لها قوة ومعنى ، وقد سموها عملية النمر . وكانت هذه التسمية تتمشى وتتناسب إلى حد كبير مع حمولة الموت التى تحملها من الدبابات واستند تشرشل إلى وسائده وهو راض عما فعل . وفى اليوم التالى أرسل إلى ويقل برقية يشرح فيها إيمانه بالنصر وكان نصها: « لو تمكن النمر من المرور فستكون ساعة العمل والإقدام قد حلت . وقد طالبت بالإسراع فى تحويل أسراب طائرات الهاريكان من مالطة إلى قيادتك بمجرد أن يمر النمر فى سلام . وإن هؤلاء البرابرة (أى الألمان) سيكونون أقل خطورة عندما يفقدون المبادأة ، إن أفكارنا كلها معك » .

وحقيقة إن أفكار لندن كانت متجهة إلى مصر . فهناك خطر كبير من أن

---

(١) يقصد الآلاى الخامس بانزر فقد وصل إلى طرابلس واشترك فى الهجوم المضاد الأول لروميل .

(المعلق)

تفقد بريطانيا العظمى نقطة ارتكازها الاستراتيجية فى قناة السويس . وقد تنفس تشرشل الصعداء عندما علم أن النمر قد وصل إلى الإسكندرية سالماً فى ١٢ مايو ١٩٤١ . لقد عبر النمر البحر المتوسط وبذلك فقدت الغواصات الألمانية والإيطالية فرصة عظيمة فلم تغرق من القافلة إلا الباخرة أمير سونج وعليها ٥٧ دبابة و ١٠ طائرات بعد اصطدامها بلغم ، ووصلت باقى الشحنة سالمة إلى الإسكندرية . وكانت الدبابات التى وصلت إلى الميناء عبارة عن ١٣٥ دبابة ثقيلة من أحدث طراز من دبابات المشاة، وهى الدبابات من نوع (ماتيلدة II) وتزن الواحدة ستة وعشرين ونصف طن وسمك الدرع ثلاث ونصف بوصة ، وبالإضافة إلى هذا كان هناك ٨٢ دبابة جديدة (مارك II) زنتها ١٤ طن لا يزيد سمك درعها عن نصف بوصة ومركب بها مدفع عيار ٤٥ سم وكانت سريعة الحركة . وتمكنت هذه الدبابات من قلب سير المعركة فى الصحراء . وكان هناك بالإضافة إلى ما تقدم ٢١ دبابة (مارك ٤) وهى دبابة خفيفة زنتها خمسة ونصف وسمك درعها ثلاثة أرباع بوصة وسرعتها ٤٠ ميلا فى الساعة .

وأرسل ويڤل برقية إلى لندن فى الخامس والعشرين من مايو يقول فيها بأن النمر يحتاج إلى تنمية مخالبه ويعنى بذلك أنه يلزمه الوقت لتجميع هذه الدبابات ثم تدريب الجنود على استخدامها . وبعد ثلاثة أيام أرسل إلى رئيس الوزراء يخبره بأنه مستعد لمهاجمة روميل بقواته الجديدة ، ليقذف بالفيلق الأفريقى إلى خلف طبرق ثم يتقدم ليفك حصارها . وقد اختار تشرشل اسما كوديا لهذه العملية فقد سماها (عملية الباتل آكس) أى عملية البلطة . وكانت معركة للدبابات على نطاق واسع لم يسبق أن شاهدتها الصحراء الغربية ، فقد اشترك فيها ٥٠٠ دبابة من الطرفين وكان تشرشل مقتنعاً أن الدبابات البريطانية متفوقة على الألمان وأنها سوف تكسب المعركة .

وفى الساعات الأولى من صباح يوم ١٥ يونية ١٩٤١ دق جرس التليفون بشدة فى مقر هيئة القيادة البريطانية وأخذ جهاز المورس يدق وتسابق المراسلات الراكبون هنا وهناك، فقد كانت كل هذه الترتيبات تعلن ابتداء الهجوم الكبير وهو الهجوم المدبر بكل دقة والمجهز بكل عناية . فلقد بدأت معركة البلطة فى الساعة الرابعة صباحًا فجر يوم ١٥ يونية ١٩٤١ . وقاد الجنرال كريج الفرقة الإنجليزية

السابعة المدرعة [١] التى تضم اللواء الرابع المدرع بدبابات المشاة الثقيلة القوية وقاد الجنرال مساريفى الفرقة الرابعة الهندية [٢] مع اللواء ٢٢ حرس . أما الجنرال برسفورد بيرس فكان يقود المعركة بالكامل . وقد دخلها ومعه ٢٠٠ دبابة و ٢٥ ألف رجل . وكان الغرض الرئيسى هو الاشتباك مع روميل وتدمير قواته المدرعة فى منطقة (السلوم – البردية) ثم احتلال ممر حلفاية وإعادة المواصلات البرية مع طبرق . وفى تمام الساعة الرابعة زأرت موتورات الدبابات الإنجليزية مارك II التى أحضرت إلى الجبهة على حاملات خاصة ومعها دبابات المشاة ماتيلدة II . وقد سر الملازم كلارك وزميله ميلر عند رؤيتها لهذه الدبابات (وهما الملازمان اللذان عرفناهما فى الفصل الأول) . وكانا أول من شاهد الهجوم المضاد الألمانى الأول فى العقيلة والذى انتهى عند ممر حلفاية . ولم يبق من الرجال الأربعة الذين كانوا فى عربة الاستطلاع الإنجليزية إلا الملازم كلارك وزميله ميلر ، إذ قتل سائق السيارة فولتون عند البردية ، ودفن عامل اللاسلكى فاركهوار بجوار طبرق .. وقد ألحق الملازمان بالفرقة السابعة المدرعة على اللواء الهوسار الحادى عشر . وكانا واقفين فى برج دبابتهما الجديدة مارك II ورفع قائد الكتيبة ذراعه وحركها ثلاث مرات إشارة للقوات بالتقدم إلى الأمام .

٢ - الحرب يجب أن تدور فى الصحراء :

وفى ممر حلفاية استمر المهندسون الألمان فى تحصين الموقع لمدة أربعة عشر يوما وتقويته مع إعداد الدشم للمدافع . وكان المهندسون مهتمين بنتيجة عملهم . والغريب أن هذه الأشياء قد تبعث على الفرح فى الحرب .

فالله يعلم أن المدافع عيار ٨٨ مم ليست بلعبة صغيرة يمكن إخفاؤها بسهولة وقد تحرك الملازم ريتشارد لمسافة ١٥٠ ياردة أمام الموقع ثم انبطح على بطنه ليلاحظ مدى الإخفاء والتمويه للمدافع ولم يكن هناك أثر ظاهر للعيان لدشم المدافع ويرجع السر فى ذلك إلى خداع النظر فى الصحراء وكل شىء حتى ارتفاع ثلاثة أقدام كان لا يرى بالمرة من على بعد . وكل ما زاد طوله على ثلاثة أقدام كان يبدو أكبر من الحقيقة .

---

(١) الفرقة السابعة المدرعة كانت مشكلة من مجموعة المعاونة + اللواء ٤ مدرع + اللواء ٧ مدرع .

(٢) لم تشترك الفرقة ٤ الهندية فى المعركة واشترك فقط اللواء ١١ هندى .

(المعلق)

وكذلك كانت الحال بالنسبة لمواقع مدافع بطارية (بوم . بوم) فلقد كان للبطارية ميدان جيد لضرب النار ، فالصحراء تعطى للمدفعية مدى رائعًا حقا ، والواجب أن تدور الحروب دائما فى الصحراء . وخلف بطارية المدافع ٨٨ مم كانت توجد بطارية أخرى من مدافع عيار ١٥٥ مم وهى من مدافع الميدان الفرنسية . وكانت مدافع ثقيلة مثلها فى ذلك مثل قائد البطارية الملازم أرمل فهذا المدرس الفنى السابق فى مدرسة ورزبرج قد أخفى مدافعه الثقيلة بمهارة وحذق . وبجوار بطارية الملازم أرمل كانت توجد مواقع لبطارية إيطالية يقودها الرائد باردى .

وكانت هذه البطارية من المدفعية الإيطالية الممتازة ، وأثبتت جدارتها . وكانت نتيجة الحائط المعلقة فى مخبأ قائد المهندسين تشير إلى ١٢ يونية سنة ١٩٤١ وحملت عربة خفيفة بالألغام وأرسلت إلى السهل الساحلى ، وعملية بث الألغام تعتبر من العمليات الخطيرة . فقد حفرت الحفر على هيئة رقع الشطرنج بمسافة من ستة أقدام إلى تسعة أقدام بين كل لغم . والمهندسون المدربون يكتفون بتحديد المسافة بالنظر . وفى وسط كل حفرة ثبتت أوتار صغيرة مع وتد آخر متقاطع فى حائط الحفرة وثبت إلى هذين الوتدين سلك رفيع بمفجرات ألصقت بالأرض وإلى جوانب اللغم . ويجب ربط السلك بحيث إنه عند تعرضه لأقل اهتزاز لجهة اليمين أو اليسار أو مجرد رفع اللغم ينفجر .

وكان هناك على غطاء اللغم مفجر ثالث يعمل بالضغط وكل شخص يضع قدمه على اللغم يحدث الانفجار فوراً . وأى شخص يكشف اللغم ويحاول إزاحة الرمال من حوله ثم يقوم بفك المفجر الموجود على الغطاء يجب عليه ألا يحاول بأية حال من الأحوال تحريك المفجر إلى أحد الأجناب فلو تحرك المفجر أقل حركة أو لسوء الحظ مس السلك الرفيع فإن الأرطال الثمانية عشر من المتفجرات الموجودة فى اللغم تنفجر محدثة صوتاً مثل الرعد . وبعد أن انتهى المهندسون من بث الألغام قاموا بأعمال التمويه للحقل .

وخلال قيامهم بالعمل قام سرب من طائرات الهاريكان بعملية استطلاعية فوق الممر ومعنى هذا أن هناك شيئًا على وشك الحدوث . فمنذ أيام والطائرات البريطانية تضرب المواقع ، وبالطبع اعترضتها الطائرات الألمانية التابعة للفيلق الجوى العاشر . وما كاد المهندسون الألمان ينتهون من أعمالهم حتى شاهدوا طائرة ألمانية من طراز مسز شميت تنقض على الطائرة الأخيرة فى السرب البريطانى المغير وتطلق نيرانها فسقطت الطائرة الهاريكان وتحطمت ، أما قائدها فقد قفز منها بالمظلة .

وكانت مشاهدة الطيارين الألمان أثناء عملهم ممتعة ، فسرعان ما أسقطت طائرة بريطانية ثانية وهبط قائدها بالمظلة فى البحر . ولكن زورقا بريطانيا سرعان ما التقطه من البحر ولم تستغرق المعركة الجوية أكثر من دقائق . وعادت الطائرة الألمانية وانخفضت تجاه الأرض وهى تهز جناحيها علامة على النصر ثم طارت فوق الممر وحياها الرجال بأيديهم . وفى المساء عرف الجنود أن الطيار المنتصر هو النقيب منشبرج . وبعد ذلك بقليل جاءت سيارة الاستطلاع من اتجاه (آفا ماريا) وهى نقطة فى الممر أقام فيها الإيطاليون تذكاراً للسيدة العذراء وكان فى السيارة المساعد بارلسيوس من السرية الأولى لكتيبة الاستطلاع ٣٣ ، وصاح الرقيب «توقعوا حدوث شىء إنهم يتجمعون فى سيدى عمر» . وكانوا يتكلمون مثل الفلاحين عند توقعهم حدوث عاصفة ، وذكرت الأسماء التى لم يسمعها أحد منهم من قبل. ولكن هذه الأسماء أصبحت لها قيمتها الآن . فعندما يكون هناك شىء فى سيدى عمر ذلك الموقع الصحراوى الذى يقع جنوبى ممر حلفاية ، فإنه يختلف كل الاختلاف عن ضرب ميناء بنى غازى بالقنابل من البحر أو الصراع حول طبرق .

٣ - الرجل المناسب فى المكان المناسب :

وقد كانت سيدى عمر نقطة ارتكاز مهمة فى مناطق (السلوم - وكابتزو - حلفاية - طبرق) . وأوشك الليل على الانتهاء ولم يحدث شىء ولكن باستطاعتهم أن يواصلوا العمل . ومرت ليلة ثانية والتصقت ملابس الجنود بأجسامهم . واحتفظوا بأسلحتهم إلى جانبهم ومعها خزائن الذخيرة الاحتياطية . وأعد الرجال المدافع الرشاشة كما جهزوا شرائط الذخيرة أما الأفراد رقم ٢ فى جميع أطقم الرشاشات فقد فقاموا بتنظيف المواسير الاحتياطية واحتفظوا بها نظيفة بعيدة عن تأثير الرمال والتراب وكانت صناديق الذخيرة كذلك ملأى . ولقد كان كل شىء على أتم الاستعداد وذلك لأن الأب «باخ» قد اهتم بكل شىء . ولم يسمعه أحد يرفع صوته أو يلعن لأنه عندما كان يقول: «يا أولاد . أريد ذلك» فإن رغباته كانت تنفذ على الفور وبحذق ومهارة . وكان لا يطلب شيئًا غير مستطاع عمله ولذلك كانت أوامره يجب أن تطاع وكان كل فرد يعرف ذلك ، لأن قيادة الأب «باخ» فى ممر حلفاية كانت **قيادة الرجل المناسب فى المكان المناسب** وكان وضعه فى هذا المكان يعتبر من فنون روميل الحربية فى فن القيادة ، وأحد أسرار انتصاراته .

ولم يستطع أحد أن ينام ملء جفونه وملابسه كلها عليه لأن الجو كان قلقا . وسمع صوت أحد الجنود وهو يلعن من حفرة مجاورة ويقول: «يا إلهى العظيم لو

كانت لها رءوس مثل رءوس الثيران لكان فى استطاعتنا أن نحطمها حتى الموت ، نعم لو كانت لها رءوس مثل رءوس الثيران ... » وكان المتحدث المساعد فليشمان البافارى ، ويقصد بقوله هذا البراغيث ، التى كانت فى استطاعتها أن تدفع الرجل إلى الجنون ، فإن الله يكون فى عون الذى تهاجمه وتشرع فى مص دمائه . وكانت البراغيث دقيقة الحجم لا يمكن رؤيتها إلا من خلال عدسة مكبرة وكانت الأنثى منها تقفز على الرجل ثم تخترق جلده حتى لا يبقى منها إلا مؤخرتها ثم تبدأ فى مص دمائه حتى تتحول إلى كرة من الدم سميكة وصغيرة . وقد وشم الرقيب أرهارد بها من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه . وقد أعيد كثير من الرجال إلى أرض الوطن لأن البراغيث قد أصابت أكثر من نصفهم بالجنون ، وحتى رجل مثل المساعد فليشمان كان من الممكن أن تخرجه البراغيث عن صوابه وكان يقول: «ماذا نستطيع أن نفعل لهذه المخلوقات اللعينة » ولسوء الحظ لم تكن البراغيث لها رءوس مثل رءوس الثيران . وقد تعمد الكثير من رجال المشاة إلى طى أسرّتهم والنوم فى أسرّة معلقة ، وكان هذا ممكناً فى ممر حلفاية ، ولكن لم يكن فى الاستطاعة إقامة أعمدة وسط الصحراء الليبية فكانت هناك أسرّة معلقة « هاموك » ولكن ليست لها أعمدة لتنصب عليها ، لأنها لم تصل من أوربا بعد ، وحتى لو وصلت هذه الأعمدة فقد كان من المستحيل إقامتها وفى نفس الوقت لن تغنى شيئا ، لأن البراغيث كانت تستطيع القفز من الأرض إلى الأسرّة المعلقة .

ولم تكن البراغيث وحدها هى التى تضايق الرجال فقد كانت هناك الشائعات التى تسرى بينهم . فلقد أحضر الرقيب برندهل إشاعة معه إلى الوادى ، وهى أن البريطانيين لديهم دبابات جديدة لا تؤثر فيها المدافع المضادة بل ترتد على دروعها القذائف كما لو كانت حبات من الفاصوليا ، واسمها (مارك II) ولم يكن قد رآها أحد وانتشرت الإشاعة عن الدبابة المعجزة ، وتدريجيا انتشرت موجة من الخوف من هذه الدبابة وسيطرت على الرجال وظلوا فى قلق لمدة طويلة . ودائماً الانتظار المصحوب بمثل هذا القلق يؤثر على الأعصاب .

وفى الرابع عشر من يونية ١٩٤١ دق جرس تليفون الميدان وقال المتكلم: «من المنتظر حدوث شيء هذه الليلة أو فى الصباح الباكر » فلقد أنبأهم الأب باخ بذلك فى هدوء ، وقال للملازم شميدت: « إنك جندى اقتحام قديم ولديك جماعة مهندسين قديرة ، وعندى لك مهمة خاصة، ستعمل كاحتياطى للمهندسين ، فلو تمكن البريطانيون من اختراق المواقع فعليك أن تردهم إلى الخلف » وكانت مهمة

سهلة فى منظرها أو فى قولها فكل ما عليه إذا اقتحم البريطانيون الجبهة واخترقوا أى موقع أن يردهم على أعقابهم وهى مهمة واضحة ومحددة . ولم يكن هناك شىء أكثر وضوحًا من هذا . فأجاب الملازم: « سمعًا وطاعة أيها القائد » وأخطر على الفور كلا من المساعد فليشمان والرقيب بيكر برندهل وجيرهارد وهامل ، وكان عليهم أن ينتظروا . وعند المساء أغلق المهندسون الممرات الموجودة فى حقول الألغام بسرعة فيما بين السرية الثالثة وجماعة المدافع المضادة للدبابات ، وضوعفت الحراسة وأرسلت الدوريات إلى الأمام . وكان كل رجل فى حالة تأهب فى حفرته ، وخيم صمت مميت على الممر ولم يسمع شىء ولمعت النجوم فى كبد السماء ، وظهر القمر كاملا وأضاء الصحراء الواسعة ، وكان الضوء كافيًا لأن يقرأ الجنود الصحف ولكن من منهم كان معه جريدة؟! أو من كان فى حالة تمكنه من القراءة؟ وفى تمام الساعة العاشرة إلا ثلاث دقائق سمع صوت المذيع الهادئ فى الراديو يعلن عن ابتداء إرسال محطة الإذاعة الألمانية الحربية فى بلجراد ، ثم سمعت أغنية (ليلى مارلين) واستمع الجنود لهذه الأغنية العذبة من أجهزة الاستقبال فى عرباتهم ودباباتهم التى ذاعت شهرتها فى العالم كله ، وكلماتها تتضمن الآتى:

تحت عمود النور
هناك بجوار باب الثكنات
أنا أتذكر يا حبيبتى
منظرك وأنت واقفة فى الانتظار
فهناك كنت تصفرين بخفوت وحنان
يا حبيبتى الواقفة بجوار عمود النور
إنها حبيبتى ليلى مارلين .

واستمع الجنود الألمان المنتشرون فى سائر بقاع الأرض ، فى فرنسا وفى بولندا وفى النرويج فى الغواصات السابحة فى ظلمات البحار ، وفى الصحراء الأفريقية ، وفى الثكنات أو فى الميدان ، وفى حفر القنابل وكانوا يحلمون جميعًا بصوت امرأة شابة تغنى بصوت بسيط ساحر طبيعى ... تغنى أغنية بسيطة ساحرة... طبيعية كطبيعة الحياة .

وكانت هذه أغنية الجنود المفضلة ، وقد انتقدت هذه الأغنية فيما بعد ، ولكن

لم يكن ذلك عدلا بالنسبة لحكم ملايين الجنود على هذه الأغنية والذين استمعوا لها واستمتعوا بها لأنها تحمل لهم معنى الوطن والعواطف البشرية المضادة للخراب والدمار الذى تحمله الحرب . فلقد كانت هذه الأغنية تحمل معنى الهناء المنزلى والسلام والزوجات والحياة الهادئة فى القرى والمدن ، بل كانت تجعل الدموع تترقرق حتى فى أعين ثعالب الصحراء الأشداء الأقوياء وليس فى أعين الألمان فقط . فقد كتب آلان مورهيد الكاتب الإنجليزى والضابط السابق فى كتابه عن الحرب الأفريقية فقال : «لم يطرب هذا اللحن الجنود الألمان فقط بل كان يطرب أيضًا الجنود البريطانيين ، فقد كانوا يديرون أجهزة الراديو ليسمعوها كل ليلة ». وفى الصحراء كنت تسمع الجنود البريطانيين وهم يغنونها بالصفير ، وكانت لهذه الشهرة أثرها فيما وراء خطوط القتال ، وكان تأثيرها قويا لدرجة أن الجنرالات البريطانيين منعوا الجنود من غنائها أو من الاستماع إليها فى الإذاعة الألمانية .

وكانت هذه الأغنية الشعبية قد بعثت من جديد عند اندلاع الحرب . وكان نجاحها فى أغلب الظن سيكون مؤقتاً.

وقد ألفت هذه الأغنية الذائعة قبل نشوب الحرب ، ففى عام ١٩٣٨ تمكن مؤلفها ويلى شافرز من إقناع المغنية الكوميدية ليلى أندرسن بأن تغنيها فى أحد الملاهى الليلية ولكنها لم تنجح عندما سجلت على أسطوانة ، إلا أنها نجحت فى ربيع ١٩٤٠ قبيل الحرب فى فرنسا فقد كان ضباط صف السرية ٢ من الكتيبة ٣٣ استطلاع يجتمعون بزملائهم فى أحد المقاهى حيث استمعوا إلى الأغنية لأول مرة ، وأحبوها وأصبحت أغنيتهم المفضلة التى يطلبونها أثناء شربهم للبيرة فى الحانات ، وكان من بين أفراد السرية المساعدة كارل هينز وكان يعمل قبل استدعائه للاحتياط فى إذاعة برلين قبيل الحرب . وقد أعجب بهذه الأغنية وعندما نقلت السرية ٢ استطلاع إلى مسرح العمليات الأفريقى فى ربيع ١٩٤٠ كان كارل هينز الذى رقى إلى رتبة الملازم يعمل فى محطة إذاعة بلجراد ككبير للمذيعين وهكذا تقرر مصير أغنية ليلى مارلين فقد أخذ كارل الأسطوانة معه وكان يذيعها كتحية لسريته القديمة بعد إرسال تحية لزملائه القدامى عبر الأثير . وبعد أيام قليلة من إذاعتها كان هناك رد فعل لهذه الأغنية ، ومن تلك الساعة أعيدت إذاعتها حتى أصبحت تذاع كل مساء.

ولم تكن إذاعتها قاصرة على الجبهة بل كان جميع الشعب الألمانى عندما تحين ساعة إذاعتها يقولون لبعضهم: « لنستمع إلى بلجراد » لأن كلا منهم كان يعلم

أن الجنود يستمعون إليها ويحلمون ببيوتهم . وكان الكل يستمع إلى هذه الأغنية ذات الأنغام المضحكة ولكنها كانت تجعل الدموع تسيل من أعينهم . وهذه قصة أغنية ليلى مارلين وهى قطعة من تاريخ الحرب .

٤ - ممر جهنم: (انظر اللوحة رقم ٩)

لقد قطع صوت الضباع فى ممر حلفاية نغمات الأغنية فتذكر الجنود الحقيقة، وأنهم ليسوا فى وطنهم بل وسط الصحراء . فمن جوف الصحراء ذكرهم صوت الضباع آكلة الجثث بحقيقة الأمر ، هذه الوحوش القذرة التى لا تفتأ تبحث عن الرمم واللعاب يسيل من أنيابها . فقد كانت تخرج الجثث من قبورها وتدفع الأحجار جانبًا لتصل إلى الأجسام الهامدة . ولهذا السبب كان الجنود يدفنون فى قبور أشبه بالحصون الصغيرة . وكانت الساعة أوشكت على الرابعة وسرعان ما يطلع الفجر . رغم أن الفجر والغسق ليس لهما وجود فى الصحراء ، لأن التغير يتم بسرعة فى الصحراء . والآن أصبح فى استطاعتهم سماع صوت المدرعات بوضوح وأعلن المساعد فليشمان النبأ إلى الجنود فى الخفر . ورن جرس التليفون: « كونوا على استعداد . أصوات دبابات . أصوات دبابات » . وسرى النبأ فى المواقع كلها .

وزال التوتر الذى سيطر على الجنود بسبب انتظارهم الطويل خلال الليل. فالحمد لله على انتهاء الانتظار ولم يكن هذا سببه روح الاستعداد للعدوان أو البطولة ولكن كان معناه نهاية الانتظار :

فإن الشعور بالخوف من عدو غير مرئى كان يؤثر على أعصابهم أما الآن ففى استطاعتهم أن يروا عدوهم ويحاربوه .

وببطء علت ضجة الموتورات . فكانوا يستطيعون بواسطة نظاراتهم المكبرة أن يروا نقطاً سوداء على بعد وفى اتجاه هذه النقط السوداء كانت ترتفع سحابات عالية من الأتربة . ومعنى ذلك أن العدو يتقدم .

وكانت القوات المهاجمة هى الفرقة الرابعة الهندية [1] مدعمة باللواء السابع

---

(١) كان اللواء ١١ الهندى هو الذى يتقدم وليست الفرقة ٤ الهندية وأعتقد أن الكاتب الألمانى أراد أن يزيد من قوة العدو .

(المعلق)

المدرع . واتخذ الكابتن باخ موقعه مع المدافع المضادة للدبابات عيار ٨٨ مم التى تعتبر معجزة الحرب ، وكان عليه أن يلعب الدور الرئيسى خلال الساعات القليلة المقبلة . وسأل باخ: « ما رأيك يا ريتشارد كم تبعد الدبابات » فرد ريتشارد : «أعتقد أنها على بعد ٣٥٠٠ ياردة » ونفخ باخ المستند على عصاه دخان السيجار وقال: «حسنا ما زال لدينا بعض الوقت يا ريتشارد » وكانت الأوامر تقضى بعدم إطلاق النيران بأية حال من الأحوال وودع العدو يقترب . وكان أمراً سهلاً وفى نفس الوقت الأمر الصحيح . وظل الجنود قابعين فى خنادقهم الضيقة ساكنين والدبابات تتقدم نحوهم وأخذت الأيدى ترتعد .

وارتفعت حرارة الشمس . وأعماهم ضوء الشمس وحدٌ من مدى رؤيتهم لأن الدبابات كانت قادمة من اتجاه الشرق مع الشمس ، وازدادت ضربات قلوبهم وساد الصمت المميت والدبابات تتقدم فى اتجاههم ، وكانت دبابات ثقيلة سوداء أشبه بالوحوش الضارية . إذاً هذه هى الدبابات المخيفة (مارك II) .

وظهرت دبابات أكثر وأكثر وكانت تسير خلفها دبابات المشاة الثقيلة . وتقدمت ببطء شديد حتى تساير سرعة المشاة . وقبل أن تبلغ الدبابات العملاقة المصنوعة من الصلب قرية حلفاية فتحت نيرانها ، وصاح صائح : « اتخذوا ساتراً » وأخذت مدفعية العدو تطلق نيرانها مرة بعد الأخرى . وكان صفير القنابل وانفجارها يصم الآذان .

وحرثت الأرض وأصبحت مملوءة بالحفر التى أحدثتها القنابل ، وهكذا بدأت معركة السلوم وطارت كتل من الصخر فى الهواء وتصاعدت أعمدة الدخان فى كل مكان وأخذت القنابل تتساقط فى الوادى الخالى غير المحتل بين السرية الثالثة وموقع المدافع . ولم يكن فى الوادى أى مقاتل أو مركبة . وكان ضرب المدفعية مركزاً على الوادى الخالى ، وصاح الجندى هوهمان: « يمكنكم الاستمرار فى هذا الضرب ما حلا لكم » وأجابه زميله ميز: « مادامت لا تسقط القنابل على رءوسنا فليضربوا الوادى كما يشاءون » وكان المهم ألا يعرف البريطانيون أنهم يصوبون نيرانهم على هدف خاطئ ، وكان هذا يتطلب التظاهر للبريطانيين بأنهم قد أحسنوا اختيار الهدف وقد كسبوا نصف المعركة . وتقدمت الدبابات فى اتجاه السرية الثالثة وكانت كلها من مارك II وتتبعها العربات المدرعة الخفيفة تحمل اللواء الهندى الحادى عشر الذى نزل وتشكل فى هيئة سرايا وسار خلف الدبابات كما لو كان فى ميدان استعراض . ولم يطلق الموقع طلقة واحدة على الدبابات وقال الهنود لبعضهم

« لا بد أن المدفعية مسحت الألمان من على وجه الأرض وأن الخنادق التى احتلوها أصبحت مقابر لهم». فقد ذكر الأسرى ذلك فيما بعد ليفسروا تقدمهم الذى اتسم بعدم المبالاة . أما فى الجانب الألمانى فلم يتحرك شيء . لماذا لم تطلق المدافع على الأقل ؟ ووصلت سيارة بريطانية وتوقفت عند أطلال قرية حلفاية وأفرغت حمولتها من الجنود . ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن مدى قربهم من المدافع الألمانية ، ثم مزق الهواء صوت انفجار يصم الآذان . وكان الصوت واضحاً ويمكن تمييزه من صوت المدافع البريطانية . فلقد تكلم المدفع ٨٨ مم . وصدرت الأوامر: «افتحوا النيران » وانهال سيل من الموت من أفواه المدافع الألمانية .

فقد تم ضرب نيران سريعة من كل البطاريات . وسجلت إصابات مباشرة وتصاعدت أعمدة اللهب . ثم إصابات مباشرة جديدة . وتمزقت أبراج الدبابات الثقيلة المصنوعة من الصلب المقوى من على أجسام الدبابات مارك II . وطارت لعدة ياردات فوق الرمال . وصاح رجال المشاة الألمانية: « هذا هو المدفع ٨٨ مم !!! هل رأيتم ماذا فعل ؟؟ يا له من مدفع! » . ولم تستطع الدبابة مارك II الصمود أمام المدفع ٨٨ مم وهكذا ذهب خوفهم من هذه الدبابة إلا أن البريطانيين لم يتراجعوا ، فقد كانوا مصممين على الاستيلاء على الممر والطريق الساحلى حتى يستطيعوا استخدام ميناء السلوم فيصبح قاعدة للتموين . وأصبحت بطارية باردى الإيطالية تحت تأثير نيران المدافع البريطانية إلا أن رجال باردى تأهبوا لإطلاق النيران . وكانت المعركة فى هذا الموقع أكثر ضجيجاً منها فى المواقع الأخرى واختلطت أصوات الطلقات بالانفجارات حتى أصبحت واحدة . وكان الرائد باردى يصدر أوامره كما لو كان فى ميدان للتدريب على الرماية مما أدهش رجال المدفعية الإيطالية . وكانت المدافع من عيار ٢٠ مم المضادة للدبابات تقذف حممها خلال انفجارات دانات المدفعية الثقيلة . وأطلق الملازم الطالب جنتزلر مدفعه على دبابة مارك II حتى احمرت ماسورة مدفعه . وكان غضبه شديداً عندما رأى أن مقذوفات مدفعه الصغير عيار ٢٠ مم تنزلق من على صلب الدبابة ، إلا أنه لاحظ تأثير مدفعه على جانب الدبابة ومؤخرتها حيث يوجد الموتور ذو الدرع غير السميك.

وكان يحدد هدفه ثم يعطى أوامره ويصوب طلقاته بإحكام ، وهكذا استمر الضرب حتى أسكت مدفعه طلقة مباشرة . وعندما حضر حملة النقالات كان

الضابط الطالب هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من رجاله . وبالرغم من خطورة جرحه إلا أنه تمكن من الحياة .

وفتحت جهنم أبوابها فهذه هى الحرب الحديثة وطرق القتل الفنى فيها والخراب المؤكد الذى يقوم على العلم .

واشتعلت النيران فى ١٢ دبابة بريطانية أمام المواقع الألمانية . وأطلقت المدافع من عيار ٨٨ مم نيرانها على طوابير المشاة المتقدمة فى تشكيلات منتظمة ، وكانت النتيجة مميتة . فمنذ تلك اللحظة أصبح ممر حلفاية يعرف باسم ممر جهنم.

ولكن ما الذى حدث فى أسفل الوادى على السهل الساحلى أثناء ما كانت السرية الأولى تحاول منع البريطانيين من الوصول إلى السلوم؟ لقد ظهر فى السهل الساحلى الدبابات البريطانية وهى تتقدم إلى مواقع السرية الأولى وكانت تبدو كأنها لعب للأطفال ، وخلف الدبابات كانت تسير السيارات التى تحمل المؤن والوقود .

وبقى الألمان دون حراك فى مراكزهم حتى أصبحوا على مقربة منهم ، تماماً كما حدث فى الممر أعلى الجبل ، غير أن الأعين كانت مركزة على حقل الألغام وكان الانفعال على أشده . وتقدمت خمس دبابات مارك II وما كادت تدخل حقل الألغام حتى ارتفع عمود من الدخان واحتوى إحداها . ثم سمع الجنود انفجاراً مكتوماً وتابعت الدبابات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة تقدمها دون أن تأخذ حذرها مما حدث للدبابة الأولى . وسرعان ما انفجرت الدبابة الثانية وبلغ انفجارها عنان السماء ، بينما لمس جنزير الدبابتين الثالثة والرابعة الألغام فتعطلتا كذلك . وأصبحت الدبابات الأربع معطلة داخل الحقل .

وفتح برج الدبابة الرابعة وقفز أحد الجنود منها إلى الأرض وسرعان ما حدث انفجار وتصاعد عمود من الدخان وتناثر الرجل إلى أشلاء صغيرة فى الهواء. وصاح الرقيب فولز: « يا إلهى كيف ولماذا يفعل الرجل ذلك ؟ » ولم يكن فى صوته رنة فخر لما حدث بل مجرد عطف على الرجل الذى قفز من الدبابة بحماقة وبدون سبب ليلقى حتفه . وكان هذا ما ضايق فولز لأنه شعر بنوع من الغضب المكبوت لأن العدو لم يتبع النظم المعمول بها فى الحرب الأفريقية والتى يعرفها كل جندى . فعند الدخول فى حقل للألغام يجب عليك أن تزحف ببطء بوصة بوصة وأن تتحسس طريقك بقدميك ، مع عبور الحقل وأنت رافع يديك فوق

رأسك حتى لا يطلق عليك العدو النيران . أما هذا البريطانى فكل ما فعله هو أنه قفز ببساطة إلى حتفه .

وبقيت دبابة واحدة من الخمس وسرعان ما ستنفجر هى الأخرى . ولكن الألمان دهشوا فقد عبرت الدبابة حقلا مكوناً من ستة صفوف من الألغام دون أن يمسها خدش . وجمد الرجال فى خنادقهم الضيقة جمود الأحجار فقد أصبحوا فى موقف خطير . لقد وصلت دبابة مارك II إلى هدفها بعد عبور حقول الألغام ، وفى استطاعتها اقتحام مواقع المشاة الألمانية ، وأصبح الطريق مفتوحا أمام ذلك الوحش من الصلب حتى بلدة السلوم السفلى ، ولكن الدبابة توقفت فجأة ! ما الذى حدث ؟ هل هو الخوف لأنها أصبحت وحيدة ؟ هذا من المحتمل . وسرعان ما دارت الدبابة للخلف وعادت فى طريقها الذى أتت منه فى حقل الألغام وسرعان ما حدث انفجار مروع وتعطلت الدبابة الخامسة هى الأخرى إلا أن طاقمها من الجنود على الأقل عرفوا ما يجب عمله فرفعوا أيديهم أعلى رءوسهم وزحفوا خارج حقل الألغام وهم يتبعون آثار جنازير الدبابة فى الحقل حتى يتجنبوا انفجار ألغام جديدة .

٥ - الموقع رقم ٢٠٨ :

وأخذت الشمس تنحدر نحو المغيب . غير أن القذائف كانت تواصل سقوطها على المواقع فى ممر حلفاية وكانت أغلب القنابل تسقط فى الوادى الخالى من القوات وكانت بطارية الرائد باردى هى الوحيدة التى تقع فى طريق هذا الإعصار من النيران . وكان الرائد بنفسه يتولى إطلاق المدافع لأن المعمر قد جرح ، وكان جنوده ينظرون من وقت لآخر إلى قائدهم ويقولون :« انظروا إلى ريكاردو يجب أن يراه الدوتشي وهو يقاتل» إلا أن روميل وصل بعد ذلك وهنأ الرائد باردى ولكن فى هذه اللحظة لم يكن هناك وقت للمصافحة .

فقد شن المشاة البريطانية هجوماً ثانياً وخرج فى موجات من بين أطلال قرية حلفاية وتقدموا وهم يهزون أذرعتهم وخوذاتهم المسطحة المصنوعة من الصلب وقد مالت من على رءوسهم وكانت القوات من اللواء الحادى عشر الهندى واللواء حرس ٢٢ .

وكان عليهم التقدم عبر السهل المنبسط نحو المواقع الألمانية حيث ينتظرهم الموت فكانت هناك القوات تنتظر وأصابعها على الزناد .

وكان اللواء الهوسار الحادى عشر يتقدم ومعه جنود المستعمرات من الهنود

وكان لهم أمهات وزوجات وحبيبات كلهم يحبون الحياة ، إلا أنهم جميعًا لم يكن لديهم إلا فكرة واحدة وهى وجوب طرد الألمان من حفرهم الصغيرة المطلة على ممر حلفاية ولكنهم مزقوا إربا رغم مدافع الهاون البريطانية التى أحدثت ثغرات كبيرة فى المواقع الألمانية علاوة على قتل الكثير من الآباء والأبناء . وهبطت ليلة ١٥-١٦ يونية على ميدان المعركة حيث ألقت عليه برداء الرحمة . وفى صباح اليوم التالى صعدت الشمس إلى كبد السماء حمراء قانية ودخلت معركة السلوم فى يومها الثانى . وعند الظهر كانت درجة الحرارة ما بين١٣٠ - ١٤٠ فهرنهيت ولم يبق لدى الألمان من الماء فى أسفل زمازمهم سوى ما يملأ الفم مرة أو مرتين . وكان طعم الماء متغيرا ، ويحرق الزور رغم أنه يروى الظمأ ، لأن الماء كان نقيع بذور الآنسون ليجعله أكثر قدرة على إرواء الظمأ ، وهى طريقة تعلمها الألمان من الإيطاليين .

وبينما كانت القوات الهندية ورجال اللواء الرابع المدرع يشنون هجومهم الوحشى بالدبابات والمشاة محاولين الاستيلاء على المرتفعات المحيطة بممر حلفاية. كان الجنرال برسفورد بيرس ومعه مجموعتا قتال قد التف حول الممر وتقدم نحو الغرب ، وتقدمت مجموعة منهما بحذاء الساحل فى اتجاه كابتزو «ومساعد» لمواجهة الفرقة المدرعة الخامسة عشرة فى منطقة البردية . أما المجموعة الثانية فقد قامت بالتفاف واسع إلى الجنوب خلال الصحراء ، وحاولت بجرأة القيام بحركة تطويق وكانت الفكرة هى إرغام الفرقة الخامسة الخفيفة على التراجع اتجاه الشمال ، ثم محاصرتها هى والفرقة المدرعة الخامسة عشرة والدخول معهما فى معركة فى الأرض المفتوحة بمعاونة الفرقة المدرعة السابعة البريطانية .

وكان الهجوم البريطانى فى الوسط ناجحاً . فلقد سقطت كابتزو «ومساعد» وتقدمت الفرقة السابعة المدرعة لمواجهة الفرقة الألمانية الخامسة عشرة التى لم تستطع إيقاف تقدمها .

وهكذا نجحت المرحلة الأولى للخطة البريطانية . والآن أصبح كل شىء متوقفًا على أمرين ، الأول : أن الموقع الألمانى فى ممر حلفاية يجب أن يسقط والثانى : أن حركة الالتفاف خلال الصحراء اتجاه الجنوب يجب أن تنجح ، حتى يمكن مهاجمة الفرقة ١٥ البانزر والفرقة الخامسة الخفيفة من الخلف ، وكان أقصى المواقع الألمانية اتجاه الجنوب يقع عند نقطة حصينة سميت بالتل ٢٠٨ . وكان على الفرقة البريطانية السابعة المدرعة أن تتفاداها فى تقدمها . وكان إطلاق كلمة

نقطة محصنة عليه فيه الكثير من المبالغة . ففى الحقيقة لم يكن هناك ما يميز الموقع عما حوله من الصحراء إلا مقبرة للأعراب . وقد قام المهندسون الإيطاليون مع المشاة بمعاونة سرية من سرايا الواحات الألمانية ببناء هذا الموقع . وكانت سرايا الواحات عبارة عن ٥ سرايا قد أمرها روميل باحتلال واحات جغبوب وسيوة والكفرة ولهذا اختير رجالها من الجنود صغار السن ، (فيما عدا الضباط) وجميع الجنود لم يتعدَّ سنُّهم الثلاثين .

ولم يترك جنود سرايا الواحات آثارهم فى الموقع ٢٠٨ فقط ، بل فى ممر حلفاية أيضا وخاصة فى السلوم . وفيما بعد أعيد تشكيلهم فى الكتيبة رقم ٣٠٠ واحات للقيام بأعمال خاصة . وقال الرجال عندما شاهدوا الموقع رقم ٢٠٨ : « ما أجملها من واحة !!» فقد كان الموقع عبارة عن مستطيل طوله ٦٠٠ ياردة وعرضه ٥٠٠ ياردة . ويقع فى الجنوب الشرقى لكابتزو بعشرين ميلا فى قلب الصحراء ، وتحت الحرارة الشديدة المتقدة تمكن الإيطاليون من حفر خنادق ضيقة بالمثاقيب الآلية ، وموهوا مواقع المدفعية الثقيلة ، وقد قاموا بعمل باهر فلم يكن من المستطاع رؤية أى موقع للمدافع من على بعد عشرين ياردة . وكان قائد الموقع الملازم بوليويز أما جنوده فمشكلون من السرية الأولى واحات وبطارية المدفعية المضادة للدبابات عيار ٣٧ مم وجماعة رشاشات ثقيلة وبطارية المدفعية المضادة للدبابات عيار ٨٨ مم يقودها الملازم زيمر ، وكان الموقع ٢٠٨ هو أقصى المواقع الألمانية جنوباً فى الصحراء . ولو أراد البريطانيون النجاح فى عملية التفافهم على الفرقة الخامسة لكان عليهم أن يكسروا هذه البندقة أولا . ولم يحدث شىء خلال يوم ١٥ يونية فقد كان البريطانيون مشغولين فى تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة وهى معركة حلفاية ، والتقدم إلى البردية . وفى نفس الوقت « فى المساء » قطع الاتصال اللاسلكى بين الموقع ٢٠٨ والكتيبة ١٥ مشاة المحملة . وهكذا أصبح الموقع ٢٠٨ معزولا عن باقى القوات وكأنه جزيرة صغيرة وسط محيط الصحراء وكان عبارة عن نقطة صغيرة فى رقعة شطرنج المعركة المتسعة . وفى صباح ١٦ يونية تحرك اللواء السابع المدرع نحو الموقع ٢٠٨ وكان الجو ما زال مظلماً . وعند سماع أول صوت لجنازير الدبابات كان الملازم بوليويز واقفا على قدميه ، فقد توقف عن حلاقة ذقنه وخرج بسرعة لينذر رجاله وقال لهم: « يجب ألا يطلق أحد منكم النيران قبل صدور الأوامر، احبسوا نيرانكم حتى تهاجمكم المشاة ، وتكون الدبابات قد وصلت تقريبا فوقنا » .

٦ - المدفع ٨٨ مم معجزة الحرب العالمية الثانية :

وسرعان ما طلع النهار وظهرت الدبابات البريطانية على خط السماء وهى تثير زوبعة من التراب . وانضم الملازم بوليويز إلى موقع المدافع ٨٨ مم وتمكن الجنود من إحصاء ثلاثين دبابة من خلال نظارات الميدان . وسأل الملازم زيمر: «متى نبدأ الضرب ؟ » .

فأجاب بوليويز: « أرى أن نترك الدبابات الأولى تقتحم علينا الموقع مع حبس نيراننا وإلا ابتعدت الدبابات الباقية عن مرمى مدافعنا ثم تشرع بعد ذلك فى ضربنا من بعيد ، وأنهى بوليويز حلاقة ذقنه ، وكان يشعر بقلق بسيط . وسأل نفسه كيف سيواجه جنوده هذا الموقف ؟ فإنه لم يعرفهم إلا من مدة عشرة أيام فقط وربما فقد أحدهم السيطرة على نفسه وأطلق النيران قبل الوقت المناسب نتيجة لتوتر أعصابه . واقتربت الدبابات، وعد زيمر سبعين دبابة وكلها كانت ماركة II وقال لرجاله: «يجب ألا تكونوا عصبيين يا رجال » وتجاوزت الدبابة الأولى حدود الموقع وصاح الملازم: « أطلقوا النيران » وزأر المدفع ٨٨ مم وطار برج الدبابة بمدفعها فى الهواء . والآن أصبح الجانبان يكيل كل منهما للآخر ضربة بضربة وأصيبت الدبابتان الثانية والثالثة وتعطلتا عن العمل . وزأرت المدافع المضادة للدبابات وانطلقت الرشاشات من ناقلات الجنود البريطانية ولم يكن فى استطاعة رجالها أن يترجلوا منها وأصبح هناك إحدى عشرة دبابة إنجليزية محترقة بجوار الموقع . وخرجت باقى الدبابات من المعركة وأسر نقيب إنجليزى مع باقى الأسرى من رجال الدبابات المعطلة وطلب رؤية المدفع ٨٨ مم وعندما رآه هز رأسه وقال: « إن مظهره لا يدل على قوته. ولكن لا يوجد شيء يمكن عمله حياله . وسوف يؤكد عدم جدوى الدبابة مارك II» وكان صادقا فى قوله .

وفيما بعد الظهر شن البريطانيون الهجوم الثانى وفقدوا فى الهجوم سبع عشرة دبابة أخرى مارك II . وهكذا تحطمت ٢٨ دبابة من دبابات تشرشل الحديثة الرائعة حول الموقع ٢٠٨ . فلقد صد هذا الموقع هجوم لواء مدرع بأكمله . وكان هذا كثيراً بالنسبة للبريطانيين . وما معنى ذلك ؟ ومرة ثالثة قاموا بالهجوم على الموقع ودفعوا بمشاتهم إلى الأمام ، غير أن الهجوم أوقف على بعد ٣٠ ياردة من المواقع بواسطة نيران الرشاشات . وأصبح ميدان المعركة مقبرة للدبابات البريطانية، بينما كانت خسائر الموقع عبارة عن إصابة جنديين بجراح خفيفة ومدفع واحد مضاد للدبابات. ولكن ما الذى سوف يحدث فى اليوم التالى؟ فذخيرة المدفع ٨٨مم

أوشكت على النفاد وكان على جنود الموقع أن يوفروا فى استخدام الذخيرة . وسأل الجنود أين العدو الآن ؟ «وأين باقى القوات الألمانية؟» وفى المساء تمكن عامل اللاسلكى من الاتصال بقيادة الفرقة . وكانت القيادة مسرورة جدا عندما علمت أن الموقع تمكن من الصمود أمام هجوم البريطانيين ، وأرسلت على الفور الإمدادات من المياه والذخيرة إلى الموقع . وانتظر رجال سرية الواحات استئناف القتال إلا أن البريطانيين لم يظهروا ثانية فقد توقفت معظم الدبابات فى السلوم . وكان تقدير الجنرال برسفور بيرس خاطئا فيما يختص بأمرين :

الأول قدرته على الاستيلاء على ممر حلفاية .

والثانى : قدرته على الاستيلاء على الموقع ٢٠٨ بالرغم من أن الموقع الأول كانت تحتله كتيبة واحدة فقط ، وفى الموقع الثانى كان يوجد به ما لا يزيد عن سرية بقليل ، ولكن تمكنت هذه القوات من قلب الخطط رأسًا على عقب ، والفضل فى ذلك يرجع إلى المدفع ٨٨ مم الذى يصلح لجميع أنواع الاستخدامات .

والتاريخ الرسمى للحرب الأفريقية الذى طبعته الحكومة البريطانية فى عام ١٩٥٦ بعد دراسة دقيقة للمصادر ، قد ورد فيه أن «عملية البلطة» التى بدأت بأمل كبير قد باءت بالفشل ، لأن ممر حلفاية لم يمكن الاستيلاء عليه ، وكذلك الموقع ٢٠٨ وذلك **يرجع لعزم وقوة نيران الدفاع وكذلك المدافع ٨٨ مم التى أحسن إخفاؤها وقد تبين أنها ذات تأثير مميت على أية دبابة بريطانية وكان لعامل المفاجأة دور فى هزيمة البريطانيين» .**

٧ - القيادة الحكيمة تؤدى إلى النصر :

ويمكن تلخيص المرحلة النهائية لمعركة السلوم كما يلى:

فى اليوم الأول تقدمت طلائع الفرقة السابعة المدرعة إلى كابتزو و«مساعد» وهددت البردية . وقد سقطت كابتزو و«مساعد» وقرية السلوم العليا . وفى كابتزو دب الذعر فى القوات الألمانية فقد ظهر فجأة أمام الموقع ٥٠ دبابة بريطانية ولذلك أعطيت الأوامر للمشاة المحملة بالتراجع وكانت أوامر صحيحة وكل ما استطاعوا عمله إزاء هذه الدبابات هو الفرار بأقصى ما تستطيعه أرجلهم ، غير أن الدبابات كانت أسرع، وجرح الكثير من الجنود وكان عليهم أن يتخلوا عن السباق ولكن خلاصهم تم بواسطة المدفع ٨٨ مم الذى أحضره من البردية الملازم توكى من الآلاى ٣٣ المدرع ، وأطلق ثلاث طلقات ، وتعطلت ثلاث دبابات بريطانية، وتوقفت أربعون دبابة عن الهجوم مع إطلاق سحابة من الدخان . وقد قام النقيب

كومل بعمل بارع مع رجاله التابعين للآلاى المدرع الثامن فقد استطاعوا بمدافع دباباتهم من عيار ٧٥ مم المركبة على دبابتين ثقيلتين أن يدمروا ٦ دبابات بريطانية مارك II ، ويحولوا دون تقدم بريطانى آخر ، وقد منح النقيب كومل وسام « أوراق البلوط » وعرف فيما بعد باسم « أسد كابتزو » .

وخلال المعركة كان المقدم كناب ومعاونوه (وهم ياوره الملازم كوهنود والمساعد مانكويز والمساعد جولز ومعهم العداءون التابعون للآلاى ورجال الإشارة) وقد اختبئوا فى أحد الخنادق أسفل الطريق ، وعلى بعد أربعين ياردة منهم كانت توجد سيارة كناب المدمرة وأخذوا يراقبون جنود إحدى الدبابات البريطانية وهم يبحثون فى السيارة عن الغنائم ، واستولوا على بذلة المقدم العسكرية وهم يضحكون. وفيما بعد تحت ستار الليل تسلل المقدم وجماعته إلى الخطوط الأمامية . فالمقدم كناب والملازم كوهنود التقطهما الآلاى الثامن المدرع الذى كان يسيطر على الطريق المؤدى إلى كابتزو .

أما مجموعة القتال التى يقودها باخ (ومعها الكتيبة الأولى من آلاى البانزر ١٠٤ والمدفعية المضادة للطائرات والمدفعية المضادة للدبابات) فقد ظلت مسيطرة على ممر حلفاية الذى يقع على جناح القوات البريطانية . وكما سبق القول فهذا الموقع ذو أهمية بالغة لسيطرته على طريق الإمدادات للمعركة التى تخوضها الدبابات فى منطقتى البردية وطبرق لأن البريطانيين كانوا يحضرون الإمدادات إلى ميناء السلوم ثم تحملها الحملات على الطريق البرى الساحلى ، ولذلك كان كل شىء يتوقف على احتلال ممر حلفاية . وقد أرسل روميل برقية إلى باخ يقول له فيها: «إن الممر يجب الاحتفاظ به تحت أية ظروف » وفهم القسيس ما يعنيه القائد الألمانى . وهاجم البريطانيون الموقع خمس مرات . فالمرة تلو المرة يقوم الهنود والبريطانيون بمهاجمة الموقع . وتطلق المدافع نيرانها ساعة بعد ساعة وتنفجر القنابل ويسمع صدى أصوات الانفجارات فى الوديان ولكن باخ تمسك بموقعه وأخذت الذخائر تقل لدى الألمان ، وجمع الرائد باردى قذائف المدفعية الإيطالية القديمة التى كانت مخزونة فى الوادى ، وقام بتنظيفها وصقلها وتشحيمها ثم أطلقها. ولم يكتف باخ بالسيطرة على الممر بل قام بشن هجوم مضاد أرغم فيه المشاة البريطانية على التخلى عن قرية حلفاية .

وفى وسط المعركة كان موقف روميل صعبًا للغاية . فقد فشلت محاولاته

لاستعادة احتلال كابتزو وفقد الآلاى الثامن المدرع معظم حملاته الميكانيكية ، أما الآلاى الخامس بانزر فقد طارده البريطانيون من ميدان المعركة أثناء عودته ، ولم يبق متمسكا بمواقعه إلا نقطة الارتكاز فى الجنوب حيث الموقع ٢٠٨ ، وهذا مكن روميل من إرسال الفرقة الخامسة الخفيفة إلى الموقع لكى تهاجم جناح العدو من هناك .

وكانت خطة روميل بارعة رغم بساطتها فكان البريطانيون يريدون تطويقه ولكنه قلب عليهم خطتهم ، وكانت نقطة التحول هى الموقع ٢٠٨ ، فقد شقت الفرقة الخامسة الخفيفة طريقها قتالا متجهة نحو سيدى سليمان ووصلت فى المساء يوم ١٦ يونية إلى شرق سيدى عمر وهناك قام روميل بتنفيذ ضربة اتصفت بالجرأة . فقد سحب القوات الموجودة أمام كابتزو من تحت أنف العدو وأرسلها للانضمام إلى الفرقة الخامسة الخفيفة التى تهاجم سيدى سليمان وفى نفس الوقت تهاجم قواته جناح القوات البريطانية الشمالية فى منطقة البردية وممر حلفاية . وقد أدى هذا إلى تداعى الجبهة البريطانية ، وأجبر الجنرال برسفورد بيرس على إعطاء إشارة الانسحاب وانقلب الانسحاب إلى تقهقر غير منظم . وكان ذلك فى السابع من شهر يونية سنة ١٩٤١ وهو اليوم الذى كتب فيه تشرشل فى يومياته : « فى السابع عشر انقلب كل شيء » .

وكان هذا التحول الكبير فى المعركة يرجع إلى حفنة قليلة من الضباط وبضع مئات من جنود الفيلق الأفريقى الذين دافعوا عن ممر حلفاية وعن الموقع ٢٠٨ . وكسبت هذه المعركة الجبارة بفضل شجاعة الجنود وقرارات روميل الجريئة » .

ولم تكن المسألة مسألة شجاعة فحسب بل تفوق أسلحة وخاصة المدفع ٨٨مم. وظلت المعركة دائرة الرحى لمدة ٧٢ ساعة . وفى التقارير البريطانية سميت « عملية البلطة » وظل القائد البريطانى العام فى القاهرة الجنرال ويڤل لمدة ٧٢ ساعة مقيداً بعملية (النمر) فقد حاول تغيير مصير الحرب فى أفريقيا ، إلا أن ذكاء الألمان وتفوق أسلحتهم منعاه من تحقيق ذلك . ولم يكن الأمر قاصرا على المدفع ٨٨ مم بل يرجع كذلك للدبابات الألمانية مارك ٣ ومارك ٤ وقد تحملت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة خسائر كبيرة فى مركباتها إلا أن الألمان تمكنوا بفضل وحدات النجدة المنظمة جيداً من سحب الدبابات المعطلة بالجرارات خارج

ميدان المعركة وقاموا بإصلاحها فى الورش المتنقلة .

وقد دهش البريطانيون من هذا العمل وقد عبر تشرشل عن إعجابه بهذا العمل فى مذكراته ، وبذلك انتهت (معركة البلطة) وتعد من كبرى معارك المدرعات التى رأتها الصحراء حتى ذلك الوقت ، وانتهت بفوز الألمان .

وبلغت خسائر البريطانيين فى المعركة ١٢٢ قتيل و ٢٥٩ مفقود و٥٩٩ جريح. كما تم تدمير أكثر من ١٠٠ دبابة بريطانية، وعدد آخر أصيب إصابات بالغة وأمكن سحبه وبذلك تحطمت قوات ويڤل المدرعة .

أما خسائر الألمان فقد كانت ٩٣ قتيلا و٢٣٥ مفقود و٣٥٠ جريح أما الخسائر فى الدبابات فكانت ١٢ دبابة بينما تعطلت خمسون دبابة أخرى .

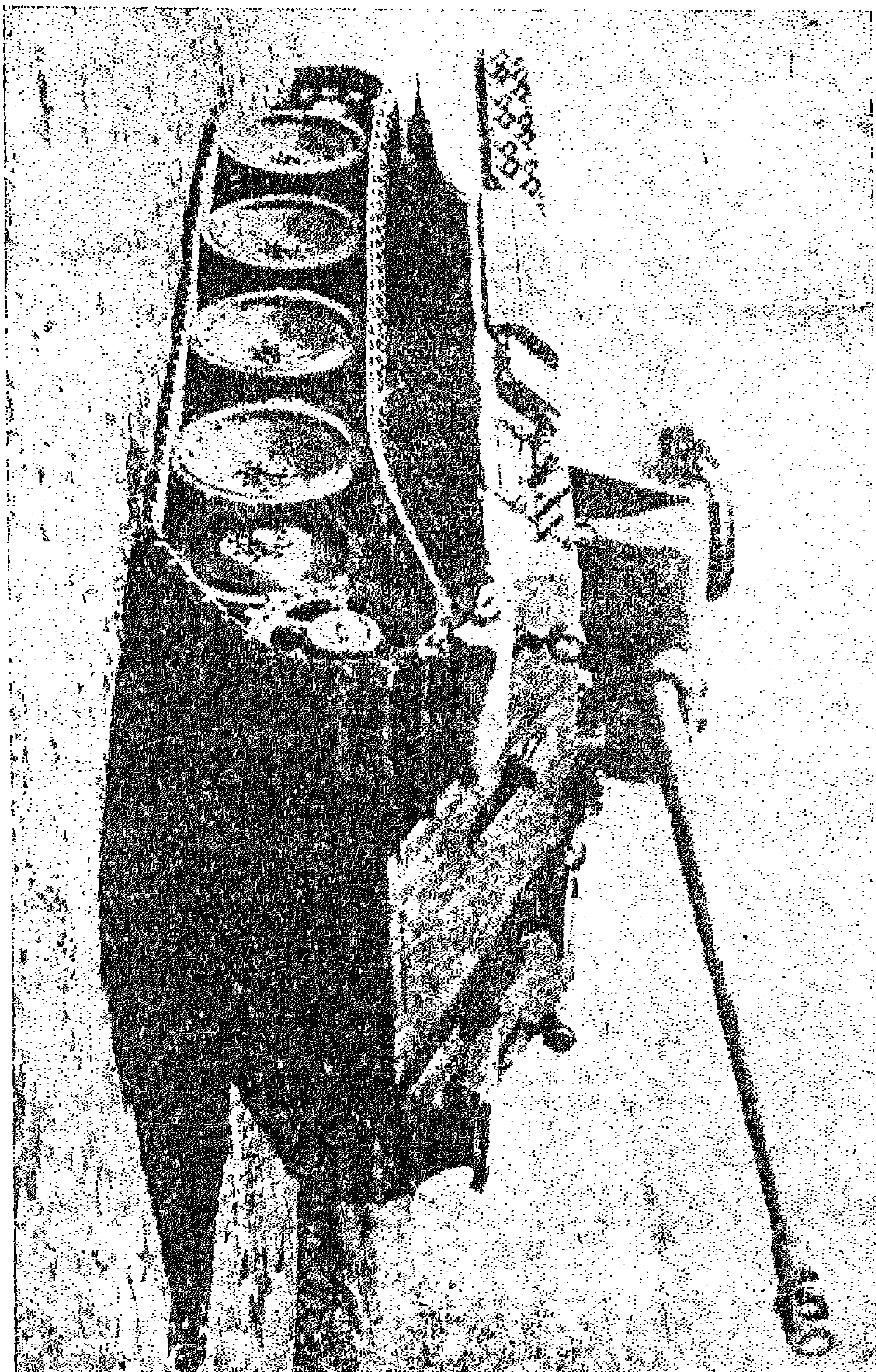
ولقد أحرزت القيادة المتفوقة والأسلحة الأكثر جودة النصر فى المعركة ، ومع ذلك فإن الحرب لم تكن قد انتهت بعد ، فالبريطانيون كانوا مصممين على أن يتعلموا الدرس من هزيمتهم .

فهل يعطيهم روميل الوقت الكافى لذلك ؟ وهذا هو السؤال الذى كان يجول فى الأذهان خلال صيف سنة ١٩٤١ ، غير أن الجواب لم يتوقف على روميل وحده .

٨ - أسطورة مناعة روميل :

كان رجال روميل يعتقدون أنه رجل « مُحَجَّب » ويقولون : « لم تخلق بعد الرصاصة التى يمكن أن تصيبه » وتعودوا أن يقولوا ذلك فى دهشة وإكبار أو بهزة من الرأس وخصوصاً بعد أن شاهدوه وهو يحس بالخطر فيتحرك بسيارته المدرعة قبل أن تنفجر إحدى القنابل بقليل ، ومرة أخرى كان الرجال يرقدون فى وسط الصحراء تحت وابل من نيران العدو الرشاشة ولا يستطيعون أن يظهروا حتى أنوفهم خارج خنادقهم دون أن يعرضوا أنفسهم للنسف والتدمير .

وفى يوم توقف الهجوم وحضر روميل بسرعة ووقف فى الخندق وهو يحمى عينيه من أشعة الشمس بيده، وقال : « ما خطبكم أيها الرجال ؟ فعندما تتأزم الأمور بعض الشىء تنبطحون على بطونكم »وما كاد يفرغ من كلماته ويتحرك بعيداً حتى سقط الضحايا من جديد نتيجة لنيران العدو .-وكانت هذه قصة معادة ، فكثير من ثعالب الصحراء القدامى من المحاربين رددوا مثل هذه القصص عنه .



الدبابة الألمانية البانزر مارك ٣ أثناء اشتراكها في معركة السلوم

وقد قال الرجال الذين عادوا من الحرب وقد زينت صدورهم بأرفع الأوسمة «كالصليب الحديدى » و « صليب الفارس » وكان من المؤكد أنهم لا يخافون ضرب القنابل فقد قالوا أيضًا: « إنه حقا لم تطرق ولم تصنع بعد الرصاصة التى تصيب روميل » .

وبالطبع فإن أسطورة مناعة روميل قد انتشرت فى الخطوط الأمامية وحملها الأسرى إلى الأرض الحرام بين المتحاربين وأصبح الجنرال الألمانى فى نظر الجنود البريطانيين « قائداً لا يمكن قهره » . وقد تنبه قادة الحلفاء إلى هذا الخطر وأرسلوا تقريراً جاء فيه : « إن اسم روميل أصبح أسطورة من الأساطير وإن هذه الأسطورة فى طريقها لكى تصبح خطراً سيكولوجياً على الجيش البريطانى » .

وفى الثامن عشر من يونية كان من بين القوات فى الفرقة السابعة البريطانية المدرعة المندحرة أصدقاؤنا الذين عرفناهم فى الفصل الأول «كلارك» و «ميلر» وكانا واثقين من النصر عندما خرجا فى دبابتهما مارك II . أما الآن فقد انتهى كل شىء ، وقد تمكنا فى الوقت المناسب من التسلل من « حقيبة روميل الكبيرة » والتى تشمل سيدى عمر وممر حلفاية وكابتزو . ولقد كان انسحاباً مهيناً.

وتساءل البريطانيون: هل من المستحيل قهر هؤلاء الألمان؟ ألا توجد طريقة لإنزال الهزيمة بهم ؟ وكانت هذه الأفكار التى دارت فى رأس الرجلين ومعظم القوات . وكانت حجة القيادة البريطانية أن الروح المعنوية لدى البريطانيين منخفضة .

ونتيجة لهذه الهزيمة عزل تشرشل الجنرال ويڤل من قيادة الشرق الأوسط رغما عنه ، وعينه قائداً عاماً فى الهند . وتولى القيادة مكانه رجل جديد مشهور بالإقدام فى القيادة هو الجنرال «أوكنلك». فهل يستطيع هذا القائد أن يهزم روميل ؟ ذلك الملعون روميل !! وكان الوقت يستدعى القيام بضربات جريئة ، ولذلك لم يكن من المستغرب أن تجول فكرة أسر روميل فى الأذهان ، وأن تتردد هذه الفكرة فى المستويات العليا .

ولم يكن لدى روميل فكرة عن هذه الأفكار السوداء التى تجول فى رءوس أعدائه فهو فى ذلك الوقت بالذات لم يفكر فى أن لديه مناعة وأنه أسطورة كما يدّعون ، ولكنه كان فى الحقيقة قلقاً، وكان يتساءل كيف تتطور الحرب الأفريقية

يوم ١٨ يونية ، وهو اليوم التالي للنصر الذى أحرزه ، وقد علم أن الهجوم الألمانى على روسيا على وشك الوقوع وأن ذلك يعنى فقد الأمل فى حصوله على تدعيمات قوية من المدرعات والطائرات والجنود لميدان شمال أفريقيا . وكان يعلم - كذلك جيداً - أن اهتمام هتلر وهيئة أركان حربه العليا منصب على جبهة الحرب فى أوربا ، ولا يهمهم مسرح العمليات فى أفريقيا بالرغم مما كان فيه من إمكانيات إستراتيجية عظيمة . وكان رئيس هيئة أركان الحرب العليا الجنرال هالدر مقتنعاً بأنه يستحيل هزيمة البريطانيين في شمال أفريقيا ، وكانت الحرب الأفريقية فى نظره مجرد حرب جانبية لتحويل الأنظار وكسب الوقت .

وكان من المعروف أن روميل رجل تكتيكى من الطراز الأول ، وقائد موهوب لدى رجاله ولكنه ليس بالاستراتيجي بعيد النظر . ولكن التاريخ أثبت رغم هذا أن خطط روميل الاستراتيجية لم تكن بأية حال خيالية ، بل فى الحقيقة كانت أقرب إلى الواقع من نظريات هتلر التى كان يدير بها المعارك الروسية من مركز قيادته فى (وكر الذئب) فى راستنبرج ببروسيا الشرقية، كما لو كان شبحاً من أشباح الغابات . وقد خامرت روميل فكرة جريئة قام بعرضها على هتلر وهيئة أركان الحرب العامة ، وهى الاستيلاء على طبرق ثم الاندفاع لاحتلال قناة السويس، ولم يكن هذا هدفه النهائى لأنه كان يريد متابعة التقدم حتى البصرة والخليج العربى مستخدماً سوريا كقاعدة للقوات ومركزاً رئيسيًا للإمداد . فهل كانت هذه أفكاراً خيالية ؟ وهل هى أكثر خيالا من خطة هتلر لعبور القوقاز والاستيلاء على آبار البترول فى باكو ؟ وقد انتهت خطة هتلر بنهاية محزنة .

فى حين أن خطة روميل كانت أقرب إلى الواقع والصحة ، ويمكن إثبات ذلك بقراءة تقرير الجنرال أوكنلك رقم ٣٨١٧٧ عن الموقف الأفريقى فيما بين نوفمبر ١٩٤١ وأغسطس ١٩٤٢ . وفى هذا التقرير يمكن استخلاص الحقيقة المهمة وهى أن القائد البريطانى العام فى الشرق الأوسط كان يخشى فعلاً مثل هذه الخطة التى كانت تجول فى رأس روميل لعدم وجود قوات بريطانية قوية فى سوريا بينما كانت تحت إمرة القائد البريطانى فى الشرق الأوسط قوات ضعيفة جداً فى العراق وإيران وطبقا لرأى أوكنلك فإنه من السهل الاستيلاء على قبرص بواسطة رجال المظلات الألمانية ، وكان أوكنلك خائفًا على جناحه الشمالى وطلب من الله ألا يستجيب القادة الألمان للاقتراحات التى عرضها روميل .

ولكن خلال صيف ١٩٤١ واجه روميل صعوبات ليست فقط استراتيجية بل كانت تكتيكية أيضاً !! ماذا سيحدث لو أن البريطانيين عادوا إلى الهجوم ثانية ؟ وكان من الواضح أنهم سيحاولون الوصول إلى قرار فى هذا الموقف .

فقد أحضروا كل شىء يمكن لسفنهم أن تحمله ، وبذلك فإن التفوق البريطانى يزداد يوما بعد يوم . إن طبرق يجب أن تسقط فى يد روميل سواء شاء هتلر والقيادة الألمانية العليا أم لم يشاءوا. وكان هذا هو القرار الذى استقر عليه رأى روميل .

وفى هذه الأثناء تلقى روميل عوناً مؤيداً لقراره ومن مصدر لم يكن يتوقعه ، وكان هذا المصدر من رئيس المخابرات الألمانية الأدميرال كناريس ذلك الرجل الذى كان حائراً ومتردداً بين مقاومة هتلر والوفاء لواجبه .

وبالرغم من أن كناريس اتهم وأدين بأعمال التخريب ضد وطنه إلا أنه أدى خدمات جليلة لقادة الحرب الألمان . ففى القدس كان من عملاء كناريس ممرضة فى المستشفى البريطانى هناك . وكانت تجمع كل المعلومات ذات الأهمية من الجنود البريطانيين الجرحى . وقد ذهلت الممرضة عندما سمعت من أحد الإنجليز الموثوق بهم عن قرب هجوم جديد من الجانب البريطانى فى شمال أفريقيا ، وقد شجعت الممرضة باقى الجنود على مناقشة موضوع هذا الهجوم ووجدت من ذلك أن هناك تأكيداً لهذه المعلومات، وقد أثر تقريرها فى كناريس حتى إنه أرسله إلى «هتلر» و «جودل» مع إخطاره لروميل بذلك وكان رأيه كالآتى :

« إنه من الأهمية بمكان ضرورة الاستيلاء على طبرق بأقصى ما يمكن من السرعة » .

وبعد محادثات تليفونية سريعة ، ومخابرة أخرى من روما بالتليفون مع الجنرال جودل تمكن روميل من التغلب على معارضة القيادة العليا .

وما كاد يصل الإذن من القيادة الألمانية العليا بالموافقة حتى قام روميل بعمل الاستعدادات للهجوم.

وكان من الواجب أن يكون هذا الهجوم فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ وهكذا أمكن لممرضة فى أحد المستشفيات (وهى عميلة للمخابرات الألمانية فى القدس) أن تدير مجرى الحرب لمدة قصيرة .

٩ - محاولة اختطاف روميل (عملية العباءة والخنجر) :

في الحقيقة كان البريطانيون يعدون العدة لهجومهم في سرعة بالغة . فقد سيطر عليهم أنه يجب القضاء على روميل لأنه العقل المحرك للحرب الألمانية في شمال أفريقيا ويجب أن يشل روميل إما بقتله أو أسره .

لقد كلفت مجموعة الصحراء بعيدة المدى البريطانية للقيام بأعمال التخريب والمخابرات في الصحراء . ويقابلها عند الألمان قوة براندبرج للعمل خلف خطوط العدو. وكانت مجموعة الصحراء بعيدة المدى البريطانية مشكلة من فدائيين متطوعين ومقر رئاستهم في كهوف واحة سيوة ، ثم بعد ذلك في واحة الكفرة . ومن قيادتهم هذه كانوا يقومون بغاراتهم الجريئة خلف خطوط الأعداء بمئات الأميال . ومن أعمالهم البارزة الهجوم على المطارات الألمانية التي تقع على بعد ٣٥٠ ميل خلف خطوط العدو . وكانوا يقومون بغاراتهم في عربات خفيفة وقليلة ولمدد طويلة تصل إلى أسابيع ، حيث يصلون إلى مطارات العدو ويدمرون كل مقاتلة وقاذفة في المطار ، وينسفون مخازن البترول وينزلون بالأعداء خسائر فادحة ، مع أخذ بعض الأسرى أثناء عودتهم إلى كهوف واحة سيوة . وتساءل البعض: «لو فرض أن استخدم هؤلاء الرجال ضد روميل وقاموا بإطلاق الرصاص على هذا العدو المخيف في مقر قيادته أو القيام بأسره؟» وكانت المسألة مجرد محاولة لكشف طبيعة روميل وخصائصه ، على أن يتم القيام بذلك في حينه . وقامت المخابرات البريطانية بعملية من كبرى عمليات العباءة والخنجر في مسرح العمليات الأفريقي . فقد أقام الرائد شليسنر (رئيس الإمداد والتموين لمجموعة البانزر في أفريقيا) مقر قيادته خلال الهجوم الألماني خلف الجبهة في منطقة سيرين ، وهي منطقة أثرية ذات شهرة تاريخية ، وكانت في يوم من الأيام مقراً لمستعمرة أفريقية تملؤها الأعمدة والمعابد (وذلك حتى تاريخ قريب) حيث دمرها زلزال حدث على شاطئ برقة .

وفي سنة ١٩١٣ عقب عاصفة رعدية عثر الإيطاليون على تحفة فنية من أروع التحف في العالم وهي تمثال ڤينوس سيرين .

والعواصف الرعدية المصحوبة بالأمطار الغزيرة لا تثير الدهشة في هذا الجزء من أفريقيا لأن العواصف الرعدية المفاجئة مألوفة في هذا الجزء من البلاد. وأطلال البلدة القديمة تمتد إلى حدود المستعمرة الإيطالية الحديثة المسماة

بيدا ليتوريا، وتوجد على منحدر، بالقرب منها غابة كثيفة من شجر السرو مقام بجوارها منزل من طابقين تحيط به الشجيرات والوديان الضيقة والكهوف والصخور. وقد اتخذه رئيس الإمداد مقرا لقيادته فى أواخر أغسطس ١٩٤١ وكان يستعمل قبل ذلك مقرا لبلدية المدينة .

وفى ١٧ نوفمبر هبت ريح قوية فى منطقة بيدا ليتوريا نتج عنها سقوط أمطار غزيرة . ولم يكن رئيس الإمداد فى مقر قيادته فى ذلك الوقت ، مثله فى ذلك مثل نائبه القدير النقيب أوتو الذى كان فى أحد مستشفيات بلدة أبولونيا فقد أصيب بالدوسنتاريا كما أصيب أوتو باحتقان فى الرئة . وكان مساعد النقيب أوتو وهو لينشوالد مصاباً أيضاً بالدوسنتاريا وراقداً بالمستشفى . وكان القائم بعمل رئيس الإمداد والتموين هو النقيب ويتز ومعه دستتان من الضباط والمراسلات والعدائين والسائقين وبقية رجال الخدمات المعتاد وجودهم فى مراكز القيادة وكانوا موجودين جميعاً فى ذلك المنزل المقْبض يستمعون إلى صوت سقوط الأمطار وهو ينهمر مدراراً.

وقبيل منتصف الليل ذهبوا للنوم فى غرفهم المتفرقة فى الطابقين الأرضى والأول حيث كانوا ينامون على أسِرّة الميدان .

ولم تكن هناك حراسة بالمعنى المفهوم فما هى الفائدة من وضع حارس وهم على هذا البعد الشاسع من الجبهة ؟ وكان يقوم بأعمال المراقبة فى الممر السفلى بالمنزل رجل من رجال الشرطة العسكرية وسلاحه الوحيد كان السونكى ، وكانت مهمته توزيع البريد الذى يصل متأخراً فى الليل أكثر منه كحارس .

وكان هناك الجندى ماكس بوكس هامر من أفراد الحملة يقوم بأعمال الخدمة الليلية فى خيمة الحراسة وكان مسموحاً له بالنوم بعد منتصف الليل .

واستغرقت بيدا ليتوريا التى تقع بعيدا جدا عن الخطوط الأمامية فى النوم إلا أنه كان يوجد على المرتفعات المحيطة بها وبين الشجيرات أشباح تتحرك ذات وجوه مدهونة باللون الأسود ، وقد ارتدوا ملابس الميدان البريطانية . ومن وقت لآخر كان يتحرك أحد الأشباح فى الضوء الساطع للمصابيح القوية المعلقة أمام المنزل ثم سرعان ما يختفى. وقبل منتصف الليل بعشر دقائق والرعد والبرق يزمجر بشدة أطفئت آخر أنوار بيدا ليتوريا وكانت الأشباح المختفية فى غابة السرو بين الشجيرات على المنحدرات قد قطعت مسافة طويلة للوصول إلى هذا المكان .

فقد أحضرتهم غواصتان بريطانيتان هما توربای وتاليزمان وأنزلتهما فى ليلة ١٥ نوفمبر فى خليج مهجور على شاطئ برقة . وقد كلفوا بقتل أو أسر أروين روميل قبل قيام البريطانيين بهجومهم باثنتى عشرة ساعة .

وبالرجوع إلى كلمات تشرشل نجده قد تكلم عن هذه العملية بالتالى :

(لكى نشل العقل المفكر ومركز أعصاب جيش العدو فى اللحظة الحرجة ، أرسلنا خمسين رجلا من الفدائيين الإسكتلنديين تحت قيادة العقيد ليكوك وقد حملتهم غواصتان إلى نقطة على الساحل خلف خطوط العدو بـ ٢٠٠ ميل . وقد أمكن إنزال ثلاثين رجلا انقسموا إلى جماعتين، الأولى لقطع خطوط التليفونات والاتصال التلغرافى، والثانية تحت قيادة المقدم كيز ابن الأدميرال كيز وكان عليهما مهاجمة منزل روميل) .

وقد تم رسم كل شيء يتعلق بالخطة فى مكتب الأدميرال كيز أدميرال الأسطول . فلقد كان الأدميرال يرأس كل فرق الكوماندوز الخاصة فى الجانب البريطانى . وهو الرجل الذى قاد عام ١٩١٨ قوة برية بريطانية ضد قاعدة الغواصات الألمانية فى ميناء أوستند البلجيكى .

ففى هذه الغارة قام كيز الأب بغلق مدخل الميناء بواسطة سفن محملة بالأسمنت وبذلك وجه للألمان ضربة قاضية . وكان تواقا لتكرار هذا النجاح فى عام ١٩٤١ . وقد تم اختيار ٥٣ رجلا من بين المائة جندى وضابط الذين تدربوا تدريبًا شاقا لعدة أسابيع فى لندن ، وقد قام باختيارهم جوفرى كيز الابن الأكبر للأدميرال وهو ضابط برتبة الرائد ووقع اختياره على الأكثر صلابة وقوة . وكان نائبه فى القيادة النقيب كامبل الذى يتكلم الألمانية والعربية بطلاقة .

وفى الخامس عشر من نوفمبر أنزلوا خلال هبوب عاصفة على شاطئ برقة وكانت الأمواج تتكسر على جسم الغواصة توربای وتتلاعب بها كأنها علبة من الثقاب .

وقد انقلبت الزوارق المطاطية أكثر من مرة وتكررت العملية ، وفى كل مرة كان الرجال يرفعون من الماء المزيد . ثم أمرهم كيز بأن يمسكوا جيداً بالحبال المحيطة بالزوارق . وشقوا طريقهم إلى الشاطئ ونجحت المحاولة . وسرعان ما تمكن كيز وكامبل و ٢٢ رجلا من الوصول إلى الشاطئ .

أما بالنسبة للعقيد ليكوك فقد سارت الأمور معه سيراً سيئاً لأن الغواصة تاليزمان التى حملته هو ورجاله غرق منها رجلان ، واضطر عدد كبير من الرجال (بعد صراع مع الأمواج ومن فرط التعب والإجهاد) إلى العودة إلى الغواصة .

ولم يصل إلى الشاطئ إلا سبعة رجال ، أى أن قوتهم هبطت إلى النصف من مجموع القوة البالغ عددها ٥٣، لم يصل إلى الشاطئ منهم إلا ٢٩ رجلا ، (٢٢ مع كيز وسبعة مع ليكوك) . وقرر كيز تركيز العملية على الهدف الرئيسى وهو قتل روميل أو أسره . وبقى العقيد ليكوك وثلاثة رجال فى نقطة النزول على الشاطئ لحماية انسحاب القوة بعد انتهائها من مهمتها .

أما باقى القوة وهم ثلاثة ضباط و ٢٥ رجلا فقد ساروا لمدة ربع ساعة وهم يرتجفون من شدة البرد؛ حيث كان ينتظرهم أحد الأعراب، ولم يكن هذا الرجل سوى المقدم هاسلدن أحد الضباط فى مجموعة الصحراء بعيدة المدى والذى عاش خلف الخطوط الألمانية لمدة وهو متخف فى زى الأعراب . وكان أحد الشخصيات المهمة فى خدمة المخابرات البريطانية وراء خطوط روميل . وعمل هاسلدن كمرشد للقوة وشرح لهم الموقف بالضبط، وقام كيز بتسجيل ذلك فى مفكرته كما قدم لهم ثلاثة من الأعراب كمرشدين، وهكذا انتهت مهمة هذا العميل الغامض ولم تكن المخابرات البريطانية تريد تعريض حياته للخطر باشتراكه الفعلى فى العملية واختفى هاسلدن فى سكون كما جاء . وتابع كيز ورجاله طريقهم .

وفى ليلة السابع عشر من نوفمبر وقف كيز ومعه رجاله على أحد الكثبان الرملية قريباً من بلدة بيدا ليتوريا وهم يتنصتون ثم حددوا غرضهم ، فكانت تقع أمامهم المنازل وعلى بعد قليل منها توجد بعض الشجيرات وفى وسطها يقع المنزل الحجرى الكبير الذى هو هدفهم الرئيسى حيث ينام روميل (كما قالت المخابرات البريطانية) . وقد تأكدت هذه المعلومات بواسطة جون هاسلدن الذى سمعها من الأعراب الذين يعملون فى خدمته .

وكان كيز ورجاله يؤمنون بذلك كل الإيمان ، غير أنهم جميعاً كانوا ضحية خطأ كبير ، ومعرفة السبب لم تكن من الصعوبة بمكان، لأنه فى نهاية شهر يوليو ١٩٤١ تولى الجنرال روميل قيادة مجموعة البانزر الأفريقية . وكانت القيادة العامة مقرها فى بيدا ليتوريا ورئيس الأركان هو الماجور جنرال جوس وكان الجنرال ستفال أركان حرب (١) عمليات، وكانت المكاتب تحتل المنزل الأبيض الكبير

ومنازل أخرى مجاورة . والمكاتب الموجودة فى المنازل المتفرقة المجاورة كان من السهل التعرف عليها بواسطة اللوحات المثبتة على أبوابها. وكانت توجد على أحدها لافتة مكتوب عليها رئيس أركان القائد العام، أركان حرب العمليات ١ ، ٢ ، ٣ ... إلخ ، وكانت اللوحات معروفة لدى رجال المخابرات البريطانية . فقد قاموا بتصوير اللوحات والأرقام التى عليها .

وعلى كل ففى نهاية أغسطس ترك روميل برقة مع هيئة أركان حربه وتوجه إلى الغزالة (على بعد ٤١ ميلا غربى طبرق) ثم تحرك بعد ذلك إلى جامبوت بين طبرق والبردية وحل رئيس الإمداد والتموين محل مركز قيادته فى بيدا ليتوريا ولم تكتشف المخابرات البريطانية حقيقة ما حدث .

فهل خدع العملاء العرب البريطانيين عن عمد أم أن طمع الجواسيس كان هو السبب فيما حدث ؟ وعلى كل مهما كان السبب فقد كان الاعتقاد السائد فى القاهرة ولندن خلال شهر سبتمبر أن مقر قيادة روميل فى بيدا ليتوريا وكانت غلطة خطيرة ، غير أن الرائد كيز لم يكن يدرك هذا الخطأ ، وظن أنه قد وصل إلى هدفه. وفى خطابه الأخير الذى أرسله لأبيه كتب يقول: «لو نجحت الغارة فسوف يعنى ذلك تقدم إنجلترا خطوة إلى الأمام، وهذا يساوى الكثير حتى لو سقطت أسيرا» .

ولم يكن كيز على خطأ تام ، فحتى لو لم تكن بيدا ليتوريا مركزا لقيادة روميل فقد كانت مقرا لرئاسة الإمداد والتموين، وهى النقطة الحساسة التى تتولى إمداد وتموين الجيش الألمانى فى أفريقيا ، وتعد مركز العصب لمجموعة البانزر الألمانية الإيطالية وكان من الممكن إثارة الكثير من الفوضى والاضطراب بالقضاء على هذا المركز . وانهمر المطر وقصف الرعد ولمع البرق، كما لو كانت الموسيقا التصويرية التى تصاحب هذه المغامرة . وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة إلا دقيقة عندما أعطى كيز لرجاله آخر تفاصيل العملية ، فكان عليه هو والنقيب كامبل والرقيب ترى وستة من الرجال أن يزحفوا إلى مدخل المنزل . وكان على ثلاثة رجال آخرين أن يلتفوا حول المنزل للوصول إلى الباب الخلفى .

وكان الحارس الألمانى يقف أمام الباب الأمامى المفتوح ، وكان على الرقيب أن يقتله بالخنجر . ومن يعلم ؟ فقد تحرك الحارس حركة غير مقصودة ، وأخطأ الخنجر طريقه ، وفى لمح البصر كان هناك عراك فى الممر .

ونادى الألمانى بأعلى صوته طالبًا النجدة . إلا أن صوت الرعد والعاصفة أضاع فى طياتهما صوته . كما أخفت العاصفة صوت تدمير محطة توليد الكهرباء الصغيرة التى تبعد ٣٠ ياردة عن المنزل ، والتى دمرت تماماً بواسطة الفدائيين .

وخلال الصراع فى الممر لم يتيسر للمغيرين استخدام مدافعهم الرشاشة القصيرة بل إنهم قد حاولوا أن يمسكوا بالحارس ويسكتوه خنقًا ، إلا أن الجندى الألمانى كان رجلا قوياً دافع عن نفسه بشجاعة وأخيراً سقط أمام الباب الأول للممر، وقد أدى ذلك إلى مصرع كيز فيما بعد . وقد كتب تشرشل عن الحادث بغموض فى مذكراته كما كتب دزموند يونج (الذى كتب عن حياة روميل) وصفاً مفصلا فى كتابه عن الغارة على مركز القيادة الألمانية ، غير أن المعلومات الدقيقة عن الغارة كانت ناقصة ولم تذكر هذه المعلومات ! ولماذا لم يكن روميل موجوداً هناك ؟

ولكن يمكن أن نقول – طبقاً لأدق تفاصيل عرفت عن هذه الغارة ، وقد نشر هذا فى عدد يناير ١٩٥٧ فى مجلة (للرجال فقط) – لقد نادى كامبل الذى يعرف الألمانية على الحارس من خارج المدخل، فلما خرج ضربه كيز بالرصاص من مدفعه الرشاش ، ثم قفز «كيز» و «كامبل» و «ترى» فوق جثة الحارس وفتحوا أول غرفة قابلتهم ، فقابلهم ضوء باهر وكان الضباط الألمان فى داخل الغرفة ، وقد أخذتهم الدهشة وأخذوا ينظرون دون حراك ، وبدون كلمة أطلق كيز عليهم الرصاص من مدفعه الرشاش فأرداهم قتلى ، وبذلك حصدوا خيرة رجال الإمداد والتموين فى الفيلق الأفريقى .

وطبقًا للرواية فى مجلة (للرجال فقط) اتجهوا إلى الغرفة التالية غير أن الضوء فى هذه الغرفة كان قد أطفئ ، وقابلهم من بالغرفة بنيران مركزة من المسدسات ، فأصابت كيز خمس طلقات ، غير أن «ترى» قفز داخل الغرفة وأطلق عدة طلقات من مدفعه الرشاش .

وفى الخارج كان كامبل (كما تقول التقارير الرسمية البريطانية) يقف فوق غرود الرمال وقد تحقق من موت كيز بينما أصيب هو الآخر فى ساقه . ولذلك سلم القيادة إلى الملازم كوك الذى كان عليه أن يعود بالرجال إلى الشاطئ ولم تذكر التقارير البريطانية شيئاً عن غياب رجال الفدائيين عن المعركة ، ويعتقد كذلك أن أربعة من رجال هيئة أركان الحرب قد قتلوا فى هذه الغارة ، ولكن لسوء الحظ أن

روميل لم يعثر عليه . لأنه كان قد غادر مقر قيادته فى الساعة العاشرة والنصف ليحضر حفلة زواج أحد شيوخ القبائل . ولم يعد إلا حوالى الساعة الواحدة إلا ثلثا، أى بعد انتهاء الغارة بثلاثين دقيقة فيا للحظ السيئ .

١٠ - فشل المغامرة الكبرى :

ولكن ما هى القصة الحقيقية للغارة ؟ أعتقد أننى قد توصلت إليها ، فقد سألت كل الذين حضروا الغارة من الألمان وكانت أقوالهم تتضمن الصورة التالية :

كان مساعد رئيس الإمداد والتموين الرائد بوشل يتذكر تمامًا ما حدث فى تلك الليلة . كما أننى قمت بسؤال عدد كبير من الرجال الذين حضروا تلك الليلة وكانت النتيجة كالتالى :

« بعد مهاجمة الحارس فى الممر (وكان رجلا قوى البنية) سقط على الأرض ومعه الجندى البريطانى فى صراع عنيف . واصطدم الجندى بباب مكتب الذخيرة وكان ينام فى هذه الغرفة المساعد لنتزن والرقيب كوفاك فاستيقظا من نومهما واختطفا مسدسيهما . وقفز لنتزن إلى الباب وفتحه وأخذ يبحث عن عدو يضربه ثم رفع مسدسه وأطلقه ، وفى نفس اللحظة قذف كيز بقنبلتين يدويتين مرتا بجوار رأس لنتزن ، وانفجرتا فى الغرفة . وقد طرح الانفجار المساعد أرضاً إلا أنه لم يصب بأى جرح أما كوفاك فقد تلقى قوة الانفجار وسقط قتيلا . وكان هناك ضابط صف ثالث فى الغرفة هو الرقيب باتيل .

وكان على وشك القفز من سريره إلا أنه تمكن من العودة والاستلقاء عليه ، ولم يصب بأى جرح . وكانت الحوادث تمر بسرعة البرق . ولكن هل أصابت طلقات المساعد لنتزن هدفها ؟ سوف نرى أنه فى هذه اللحظة تقرر مصير الخطة التى رسمت ودبرت بعناية . ففى الطابق العلوى لم يكن الضابط المنوب الملازم كوفهولز قد نام عندما دوت صرخات الحارس ، وكان هو أول شخص فى المنزل سمعها ، فوثب من سريره - ولكن كان عليه أن يحضر مسدسه من أحد الأدراج - ثم جرى فى الممر العلوى وهبط درجات السلم وفى هذه اللحظة انفجرت القنابل اليدوية فى مكتب الذخيرة ، وعلى ضوء الانفجار رأى الملازم كوفهولز الجنود البريطانيين ولكن النقيب كامبل كان قد رآه كذلك ، إلا أن الملازم سبقه فى إطلاق الرصاص فسقط الرائد كيز قائد الفدائيين . وفى نفس اللحظة انطلق مدفع كامبل الرشاش مما أدى إلى تناثر شظايا سور السلم وإصابة كوفهولز وأثناء سقوط كوفهولز

فى طريقه إلى الموت أطلق نيران مسدسه فأصاب كامبل فى ساقه فسقط على الأرض ، وبذلك أصيب قائدا الغارة كيز وكامبل . وفى الممر المظلم لم يبق سوى الرقيب ترى ومعه اثنان من الجنود . وسمعت أصوات من الطابق العلوى وخرج الضباط الألمان من غرفهم وعرف ترى أن المفاجأة قد انتهت غير أنه تساءل: أين باقى القوة، وكان عليهم اقتحام المنزل من الخلف ؟ وفى هذه اللحظة سمع صوت إطلاق مدافع رشاشة خارج المنزل . وتساءل ترى: هل الألمان يقومون بهجوم مضاد ؟ وكانت هذه غلطة خطيرة ، لأنه لم يكن هناك مجال لقيام الألمان بهجوم مضاد ، ولكن الذى حدث كان مفزعا ، فأحد الضباط الألمان- وهو الملازم جنجر كان نائمًا فى الغرفة المجاورة لمكتب الذخيرة - وقد طرح من سريره أرضًا بسبب انفجار القنابل اليدوية التى ألقاها كيز، وكان يفصل بينه وبين مكتب الذخيرة حائط من الخشب ، وقد تحطم هذا الحاجز تماما . فوثب جنجر من نافذة الحجرة التى تحطمت هى الأخرى من الانفجار وهو مرتدٍ بيجامته ، وأخذ يعدو تحت المطر المنهمر الذى كان يضيئه البرق بين آونة وأخرى . وأثناء جريه اصطدم بحارس بريطانى فأطلق عليه الرصاص دون أن يتردد أو يطلب منه التسليم، فالمجال لا يسمح بأخذ أسرى . وقد تم إطلاق الرصاص من بُعْد عشرة أقدام فمزقه تمزيقاً.

ولكن هذه الطلقات سرعان ما رد عليها . وكانت هذه هى الطلقات التى سمعها الرقيب ترى ورجاله فى الممر المظلم وجعلت ترى يظن أن القتال قد نشب فى الخارج ، فقفز هو ورجاله من المنزل إلى الطريق . وكانت الطلقات التى أطلقت على الملازم لها نفس الأثر على باقى قوات الفدائيين الموجودين خلف المنزل قبل دخوله . وكان فى استطاعتهم تدمير المنزل تمامًا لولا صفيحة من الماء حالت بينهم وبين ذلك . فالباب الخلفى للمنزل يؤدى إلى غرفة كانت تستخدم كمطبخ وكانت مملوءة بالدوسيهات والمكاتب . وكان هناك باب صغير فى نهاية الغرفة يؤدى إلى سلم حلزونى يوصل إلى بدروم المنزل . وكان المساعد هيريش والعريف باش يعيشان فى هذه الغرفة . والعريف باش رجل عجوز يكره ترك الأبواب مفتوحة أثناء نومه، وبما أن الباب الخلفى ليس له قفل فقد تعود وضع صفيحة من الماء خلف الباب ثم يضع خلفها دولابًا مملوءاً بالدوسيهات . وكان هذا نوعًا من الأقفال التى لا يمكن لأى مفتاح أن يفتحها . وقد حاول الفدائيون فتح الباب بالقوة فلم يمكنهم ذلك ، فبقوا فى الخارج وعقدوا مؤتمراً. فلما سمعوا صوت إطلاق النيران خشوا من أن يحاصروا وتراجعوا بسرعة .

وصرخ الرائد بوشل: « اخفضوا مصابيحكم » وكان يخاطب الضباط الألمان الذين اندفعوا من غرفهم فى الطابق العلوى إلا أن الكابوس كان قد انتهى ، فمن الخارج سمعوا صوت إطلاق مدفع رشاش ثم ساد الصمت ، بعد أن دوت صرخة فى ظلام الليل ، وعلى السلم وجدوا الملازم كوفهولز ميتا . وفى الممر وجدوا ضابطاً بريطانيا وهو كيز ميتا أيضا وقد دهن وجهه باللون الأسود بعد أن أصابته طلقة فى صدره اخترقت قلبه ورئتيه ، كما أصيب فى ساقه . وكانت هذه الطلقة بلا شك من طلقات المساعد لنتزن .

وقد فشلت الغارة كلها بسبب مقاومة الحارس الذى بَذَلْتُ كُلَّ مجهود لمعرفة اسمه فلم أوفق لأنه كان ينتمى إلى إحدى وحدات الشرطة العسكرية ولم تكن هناك سجلات تثبت فيها أسماء الأشخاص التابعين لهذه الوحدات « إنه الجندى المجهول» . وفى الخارج عثرت الدوريات الألمانية على جثة الملازم جنجر ثم عثرت على جثة ألمانى آخر وهو رابع القتلى واسمه بوكس هامر من جنود الحملة المخصصين للإمدادات والتموين ، وكان يقيم فى إحدى الخيام وعليه إرشاد «المراسلات» الذين يصلون بالبريد فى ساعة متأخرة من الليل إلى أماكن نومهم التى تقع بعيداً عن مركز القيادة بعض الشيء . وكان بوكس هامر قد سمع صرخة الحارس فى أول الغارة فقفز من خيمته لمعاونته إلا أنه اصطدم بالرقيب ترى وجنوده فأطلقوا عليه الرصاص وقد جاء فى البلاغ الحربى عنه: « أن النيران قد أصابته وهو يحاول مساعدة زميل له فى شدة » .

وهكذا انتهت الغارة بالفشل . ونتيجة للظروف غير المتوقعة ، وبفضل عمل رجال قليلين . ويمكن أن يتصور المرء كم تكون النتيجة لو تمكنوا من دخول مركز القيادة دون أن يشعر بهم أحد واستطاعوا تدمير قيادة الإمدادات والتموين كلها قبل الهجوم البريطانى بخمس ساعات ! أو لو تمكنوا من السيطرة على مقر القيادة وقاموا بإصدار أوامر كاذبة تبعث الفوضى فى مجموعة البانزر الأفريقية ، وأما ما تبقى فإنه يضيف قصة إنسانية صغيرة ذكرت لى بواسطة الجراح الدكتور جنج ، لقد أصيب النقيب كامبل بطلقة فى ساقه وكان من الواجب بتر الساق لسوء الحالة إلا أن الطبيب الألمانى الذى عالجه بعد الأسر لم يبترها وأبقاها فى الجبس لمدة ١٤ يوما .

ولم يجرؤ الفدائيون على العودة إلى الغواصة ، خوفاً من أن تتعقبهم دوريات ألمانية قوية . واختبئوا فى خيام الأعراب . وفى صباح اليوم التالى قامت قوات ألمانية وإيطالية بعملية بحث واسعة النطاق وفتشوا أكواخ الأعراب وكل ركن فيها فلم

يجدوا شيئًا، إلا أن أحد رجال البوليس الإيطالى الذى عاش مدة طويلة فى الأقاليم قبل الحرب قال لهم إنه سوف يريهم كيف يعملون ، وأحضر فتاة عربية من القرية المجاورة وقال لها أنه سيعطيها هى وعائلتها ثمانين رطلا من الدقيق وعشرين رطلا من السكر عن كل بريطانى يسلمونه إلى الألمان .

وكان هذا عرضاً مغرياً فثمانون رطلا من دقيق الذرة وعشرون رطلا من السكر تعد كنزا غاليا للأعراب فى هذا الوقت . وكان طمعهم فى المكافأة أقوى من حبهم للجنيهات الإنجليزية ، وتركتهم الفتاة وعادت إلى قريتها وسرعان ما وصل أول جندى بريطانى من نفس الأكواخ التى سبق تفتيشها ، وكان الأعراب قد ألبسوهم ملابس عربية قذرة حتى يبدوا كأنهم منهم ، وسقط كل الجنود الفدائيين فى أيدى الألمان ، عدا الرقيب « ترى» الذى تمكن من الهرب مع اثنين من الجنود وشق طريقه إلى الخطوط البريطانية . ولم يعامل الجنود الأسرى (على أساس أوامر هتلر) باعتبارهم عملاء ، فقد أمر روميل بمعاملتهم كأسرى حرب . أما قائدهم القتيل الرائد كيز فقد دفن فى بيدا ليتوريا فى احتفال عسكرى لائق به وبجوار الألمان الأربعة الذين قتلوا فى الغارة .

الفصل الثالث

خطة الهجوم التى سرقت

الفصل الثالث

خطة الهجوم التى سرقت

١ - الخيانة والحرب :

كيف تكون الحروب بدون خونة ، إنها تكون عبارة عن معادلات حسابية يكون النصر فيها للاستراتيجية المتفوقة وللجنود الأشجع وللتفوق فى الأسلحة، غير أن هذه ليست هى الحقيقة . إن الخيانة هى العبقرية الشريرة فى الحروب، فالخيانة تفسد المجهودات التى تبذل فى رسم الخطط وتحبط خطط العباقرة، وهى تجعل البطولات فى زمن الحرب والتفوق فى الأسلحة وشجاعة الجنود فى مواجهة الموت أشياء لا قيمة لها .

وكم من معارك تقرر مصيرها نتيجة للخيانة الشريرة ؟ وبالتأكيد إنها تمثل فى عددها المعارك التى كسبت بالشجاعة .

وكانت الأحوال هكذا فى جميع العصور ، غير أنه يوجد عزاء واحد فى أعمال الخيانة المعروفة ، وهو أن الخيانة غالبًا ما تفشل فى جنى ثمارها ، لأنها غالبا لا تصدق . ومثال ذلك عندما باع الجاسوس البارع شيشرون ، وهو الخادم الأرمنى الأصل لسفير إنجلترا فى تركيا ، البرقيات السرية للغاية ، الواردة من لندن إلى السفير عن خطط الحلفاء الحربية ، إلى هتلر . فإن القيادة الألمانية العليا لم تصدق أن هذه البرقيات حقيقية وشك هتلر فى أن مسألة البرقيات ما هى إلا خدعة من المخابرات البريطانية وقد عرف غلطته بعد فوات الأوان .

وعلى سبيل المثال عندما هبطت طائرة ألمانية من طائرات الاتصال خطأ فى بلجيكا فى سنة ١٩٤٠ ، وكانت تحمل خطط الهجوم على فرنسا ولم يكن لدى ملاحيها وقت لحرق هذه المستندات ، فقد اعتقد الجنرالات الموجودون فى مقر قيادة الحلفاء أن هتلر يحاول تشجيعهم على اتخاذ قرارات خاطئة عن طريق خدعة جهنمية . وضحكوا كثيرا ... ولم يفعلوا ما يجب عليهم أن يقوموا به طبقًا للخطط التى وقعت فى أيديهم . وشن هتلر هجومه طبقاً لهذه الخطط المستولى عليها . وقد

أدى هذا إلى أن حقق هتلر النصر الكبير فى الغرب . وهناك أمثلة عديدة فى التاريخ عن الخيانة التى لم يحسن استغلالها، بينما قام الخونة بخياناتهم بدون فائدة لتركهم الفرص الذهبية تفلت منهم ، أو تسببت الخيانة فى هلاكهم .

وكذلك فالحرب فى الصحراء لها خونتها ، وأحد هذه الأحداث المحزنة بالذات ما زالت أسرارها غير معروفة . وقد حدث ذلك خلال المعارك التى دارت رحاها من أجل القلعة الحيوية المسماة بطبرق .

ففى خريف سنة ١٩٤١ كانت هذه البلدة تمثل القلعة الرئيسية للممتلكات الإيطالية فى شمال أفريقيا وكانت لا تزال صامدة أمام هجمات روميل ، وكما عرفنا فقد أمر تشرشل نفسه بالدفاع عنها حتى آخر رجل . وتمكن جرزان طبرق من الصمود فيها والاحتفاظ بها . وبهذا كانت تمثل خطراً دائمًا يهدد جناحي روميل ومؤخرته . وكان عليه إزاء ذلك أن يوقف تقدمه إلى الإسكندرية والقاهرة وقناة السويس . فلو أراد أن يصل إلى النيل فيجب أن تسقط طبرق أولا . وقال روميل لضباطه وجنوده: « يجب الاستيلاء عليها » إلا أن الهجوم المتكرر عليها فشل .

وهكذا كان الموقف فى نوفمبر سنة ١٩٤١ وقد تم عمل الاستعدادات للهجوم الكبير ، فقد وصلت الإمدادات أخيراً رغم الخسائر التى منيت بها نتيجة لهجوم الأسطول البريطانى عليها فى البحر . وفى بداية شهر نوفمبر سنة ١٩٤١ ركب روميل عربة القيادة المرسيدس للتفتيش على الجبهة ، وكان روميل دائمًا فى كل مكان . وفى المساء كان يفكر كثيراً فى عربة القيادة التى كان يستخدمها كحجرة للنوم . ومرة أخرى راجع خطته « وهى نفس الخطة التى رسمها بيده » وكان موضحًا عليها أسماء الوحدات المشتركة فى الهجوم ووقت الهجوم لكل وحدة فى جميع المراحل . وكانت هذه الخريطة هى المفتاح الرئيسى للهجوم الكبير . ولم يكن الغرض منها الاستيلاء على طبرق فحسب، بل كما سبق أن أوضحنا كان يريد أن تكون نقطة البداية والوثوب للزحف إلى النيل وقناة السويس حيث كان يحلم بأن يتابع تقدمه إلى سوريا وربما إلى الخليج العربى لمهاجمة موارد البترول البريطانية فى الشرق الأدنى وفتح الطريق إلى الهند .

غير أن الهدف الأول كان طبرق . وقد سجل أركان حرب روميل على خريطته السرية كل التفاصيل التى بنيت عليها الخطة ، وكانت سرية للغاية لذلك أعطى قادة الوحدات المختلفة أوامر الهجوم شفويا ، مع التدريب على كل جزء من

تفصيلاتها . ويجب أن تنجح الخطة فى هذه المرة .

وكان قائد الفرقة المدرعة الخامسة عشرة الجنرال نيومان سيلكو قد شكل مجموعة خاصة كان واجبها القيام بنوع من « الخدمات المتنقلة » للتشكيلات التى تهاجم طبرق ومن ضمن واجباتها توجيه التشكيلات المختلفة إلى القطاعات الخاصة بها وأماكن عبور خنادق الدبابات المحيطة بالمدينة حتى تسمح لها بشق طريقها فى عمق التحصينات الملتفة حول الميناء . وكان أفراد هذه المجموعات يعرفون كل خندق وكل دشمة وكل بطارية من بطاريات مدفعية العدو . وقد وضعت خطة الهجوم بعناية ودقة أكبر من أية خطة نفذت قبل ذلك . وأصبح كل شيء معدا وقامت « المجموعة الخاصة » بعملها وأعدت اللافتات والإشارات الضوئية الأرضية، وانتظرت أوامر الهجوم . ومن المحتمل أن تصدر هذه الأوامر فى أى يوم وفى أى ساعة ، فلم يعرف أحد بعد ميعاد الهجوم ، ولم يحدد هذا الميعاد فى أى مستند أو ورقة من أوراق القيادة حتى ولا على نفس الخريطة التى رسمها روميل بنفسه . فلم يكن يعرف ساعة الهجوم سوى روميل نفسه وقليل من المحيطين به . وبعد تأجيله لموعد الهجوم عدة مرات قرر أخيراً أن يكون يوم ٢٣ نوفمبر ، وكان من المعروف أن البريطانيين يستعدون أيضًا لشن هجوم . لذلك أعطى الاسم الكودى « المد » «أى المياه العالية » لهجمات العدو المحلية ، وكلمة « الطوفان » للهجوم الشامل . وعند اختيار هذه الأسماء الكودية لم يكن أحد يعلم بأنه سيكون هناك طوفان حقيقى. فقد بدأ المطر ينهمر فى ١٧ نوفمبر .

وصاح الجنود: « إنها تمطر » وهم فى غاية السرور ومدوا أيديهم خارج خيامهم . وغسلوا وجوههم منه . وكان شيئًا ملحوظًا أن يسقط المطر فى الصحراء. ففى منطقة ممر حلفاية لم يسبق أن سقط المطر بهذه الغزارة منذ ستين عاماً . غير أن المطر المتدفق سرعان ما أصبح السبب فى الفوضى . فقد بقيت الوحدة «الخاصة» بالفرقة المدرعة الخامسة عشرة فى خيامها على حافة المرتفع شرقى جمبوت وكانوا يستمعون لصوت تدفق المطر وهم يشعرون بنوع من الحماية بل كانوا يضحكون عندما دخل المطر إلى خيامهم وارتفع حتى ركبهم وصاحوا: «يا إلهى العظيم إن هذا الشىء جديد ! ، أن يغرق الإنسان فى الصحراء » غير أنه بعد لحظات ماتت الضحكات من على أفواههم ، فقد سمع صوت زئير جبار للمياه وهى تتدفق من فوق المرتفعات إلى مواقعهم فقد أصبح المطر طوفانا وهو ينحدر فى اتجاههم مقتلعًا الصخور التى فى طريقه وقطع الرمال أثناء اندفاعه . وفى دقائق

كسح الطوفان الخيام ، كما اكتسح فى طريقه العربات وكأنه مارد ضِخم قد قبض عليها بيِده وحطمها إلى قطع صغيرة فوق الصخور ، وأضاع صوت الرعد والمطر صياح الرجال وهم يطلبون النجدة وغرق الكثيرون .. !! غرقوا فعلا وسط الصحراء. ودفن البعض الآخر ، فقد فقدوا وعيهم نتيجة للصخور التى أصابتهم فى رءوسهم ، والبعض اختنق من انهيار الرمال عليهم . وكانت ليلة ليلاء . بالإضافة إلى ظلامها الذى لا يستطيع الرجل أن يرى فيه يده .

وحدثت نفس المأساة فى ممر حلفاية ، فقد أضاء البرق على منظر مروع وكأنه منظر من مناظر الأوبرا المروعة . كما قال عامل اللاسلكى جنج لصديقه ديجن: « لا يمكن أن يكون ما حدث إلا مشهداً مسرحيا » . فالخيام والسيارات الخفيفة والمدافع اكتسحتها مياه الفيضان . ووجد جنج وديجن صعوبة فى إنقاذ نفسيهما ، أما الخيمة وجهاز اللاسلكى والجاروف وحتى تموينهما من الطعام وأدوات الكانتين الخاصة بهما فقد ذهبت هى الأخرى .

وتمكنا من تسلق مرتفع صخرى ، وأنقذا أحد الإيطاليين وكانت المياه تدفعه أمامها فى دوامة وهو يدور حول نفسه ، وأخذ الإيطالى يتوجع وينادى: « يا للسيدة العذراء . يا أمنا العذراء » ولم يكن فى استطاعتهما أن يريا شيئًا ، غير أنهما سمعا صوتا متقطعا فعرفا أن غيرهما من الجنود يجاهدون فى حفرهم فى إنقاذ حياتهم . وصاح ديجن: « يجب أن نحصل على معونة ونجدة » وتحسسا طريقهما إلى الأمام وسقطا فى حفرة مملوءة بالوحل واعترضتهما جداول من المياه سريعة الجريان وخنادق قد ملئت حتى حافتها ، وهكذا أصبح موقع السرية الأولى خراباً قفراً .

ثم سمعا صوت انفجارات حادة تصم الآذان . وسرعان ما تبينا أنها صوت انفجار المتفجرات فى رءوس الألغام المزروعة فى حقولها . وقد انفجرت الألغام نتيجة لضغط كثبان الرمال التى دفعتها المياه ، واختلط صوت انفجار الألغام بصوت الرعد ، ولهيب ضوئها بلمعان البرق .

وحمدوا الله على أن البريطانيين لم يهجموا . وتابع جنج وديجن سيرهما إلى أعلى الممر فى اتجاه قيادة الكتيبة ، ونظر إليهما الضباط فى مقر القيادة كأنهما رسل الكارثة وقالوا لهما : « هل هاجم البريطانيون السرية واكتسحوها ؟ » ونظر إليهم جندى اللاسلكى فى دهشة وقال : « البريطانيون! إنه الفيضان وليس البريطانيين » . وأصبح الضباط فى مقر القيادة فى حيرة بالغة . وسألوا أنفسهم : «هل بلغوا بإشارة عن عملية باسم الفيضان؟ » وهل معنى هذا أنه تحذير من كارثة

طبيعية أو أنه إنذار عن هجوم بريطانى ؟ وإنه لموقف يؤدى إلى الجنون . وأخيراً وصل الحل عندما تلقوا الكلمة الكودية « الطوفان » والآن أصبح كل شيء واضحاً، غير أن الموقف كان محزناً، فيضان طبيعي وفى نفس الوقت هجوم شامل من جانب البريطانيين ، ماذا ستكون النتيجة ؟ فقد جرفت المياه الكثير من المواقع واكتسحت الأسلحة ، واندفع الرجال ثانية كالنمل اتجاه ممر حلفاية وأخذوا فى العمل.

وفى موقع جمبوت أخذ الرجال يحاولون إنقاذ عرباتهم وكأنهم مخلوقات برمائية . وأخذت « المجموعة الخاصة » التابعة للجنرال نيومان سيلكو تعمل ، ولكن ليس للاستيلاء على طبرق ، فقد سبقهم البريطانيون . فهل فشل الاستطلاع الألماني ؟ هل انكشفت خطة الهجوم الألمانى ؟ ولم يكن هناك وقت للتفكير فى مثل هذه الأمور . وطبقًا لتاريخ الحرب فإن الهجوم البريطانى فى ١٨ نوفمبر ١٩٤١ الذى بدأ قبل قيام روميل بهجومه بخمسة أيام قد اعتبر إحدى الضربات المحظوظة التى كانت من نصيب السير «كلود أوكنلك» القائد العام فى الشرق الأوسط والذى كتب له النصر . غير أن هذا ليس صحيحاً تماماً لأن المخابرات البريطانية هى التى لعبت دورها الفعال فى ذلك .

فلقد كان رجال مجموعة الصحراء بعيدة المدى تحت قيادة المقدم هاسلدن متنكرين فى زى أعراب خلف الخطوط الألمانية إلا أن الأنباء كانت تصل للقيادة العامة فى القاهرة بغير انتظام . وقد جاء مئات الأعراب للبريطانيين بأنباء كثيرة مؤكدة ، كما أن الحمالين من العرب أدلوا بمعلومات عن وجود تجمعات للجنود الألمان والإيطاليين إلا أن هذه المعلومات لم تكن هى كل شيء. فالمخابرات البريطانية كانت نشطة فى إيطاليا نفسها وصقلية ، بل فى روما أيضًا ، ففى روما كان لدى رجال المخابرات مصادر كثيرة وجيدة للمعلومات . فقد كان معروفاً لدى بعض المصادر الإيطالية أن الأدميرال الإيطالى موجيرى كان عميلا بريطانيا .

وكان يمدهم بتفاصيل الإمدادات والتموين التى تشحن لروميل من الموانى الإيطالية، فمن العجيب أن يعرف الإنجليز بأمر ٧٥٪ من هذه الإمدادات . ولم ينشر بيان الخيانات كلها من ناحية الإيطاليين ، غير أنه من المؤكد أن البريطانيين تلقوا ثروة من المعلومات أدت إلى كثير من الانهزامات للألمان فى أفريقيا .

وليس من المعقول أن يكون الأدميرال موجيرى هو المورد الوحيد للمعلومات

عن الميدان الأفريقى ، بل إن من برلين نفسها ومن أعلى المراكز كانت تصل معلومات مهمة إلى البريطانيين عن طريق روما وقصص هذه الخيانات تكون فصلا على جانب كبير من الدقة والحساسية فى تاريخ الحرب لأن تسرب المعلومات الحربية كان جزءاً مرتبطاً بالمقاومة السياسية ضد هتلر .

وهذا الصراع اليائس ضد الفاشستية الإيطالية والنازية قد استغلته المخابرات البريطانية والأمريكية بحذق ومهارة وكثيراً ما أدى هذا إلى خيانات عسكرية دون أن يعرف المصدر حقيقة تأثير معلوماته .

وكان أهم المصادر الخصبة للجاسوسية البريطانية، فى إيطاليا، وذلك يرجع لعدم الرضا الذى ساد بين الضباط الكبار الإيطاليين عن قيادة روميل وخاصة فى أفريقيا ، لأن الانتصارات الألمانية ألقت ظلا على هزائم الإيطاليين مما جرح كرامتهم وغرورهم لأنهم قد أكدوا قبل ذلك بأن الحرب لا يمكن أن تكسب . وقد سمح كل ذلك للبريطانيين بتوطيد أقدامهم داخل القيادات الإيطالية .

ويضاف إلى هذا الكراهية التى كان يشعر بها الضباط الإيطاليون الذين ينتمون للملك حيال الفاشية فى إيطاليا . وهو البغض الذى انتقل بدوره إلى القائد الذى أرسله هتلر وهو أورين روميل . وبالطبع كان البريطانيون يعلمون بهذا الانقسام الموجود فى القيادة الإيطالية ولذا جلس العملاء البريطانيون فى روما وتركوا أصدقاءهم الإيطاليين من رجال القيادة يعملون واستغلوا عدم الرضا فى التأثير على الدوائر التى تنتمى للمجتمع الملكى الإيطالى .

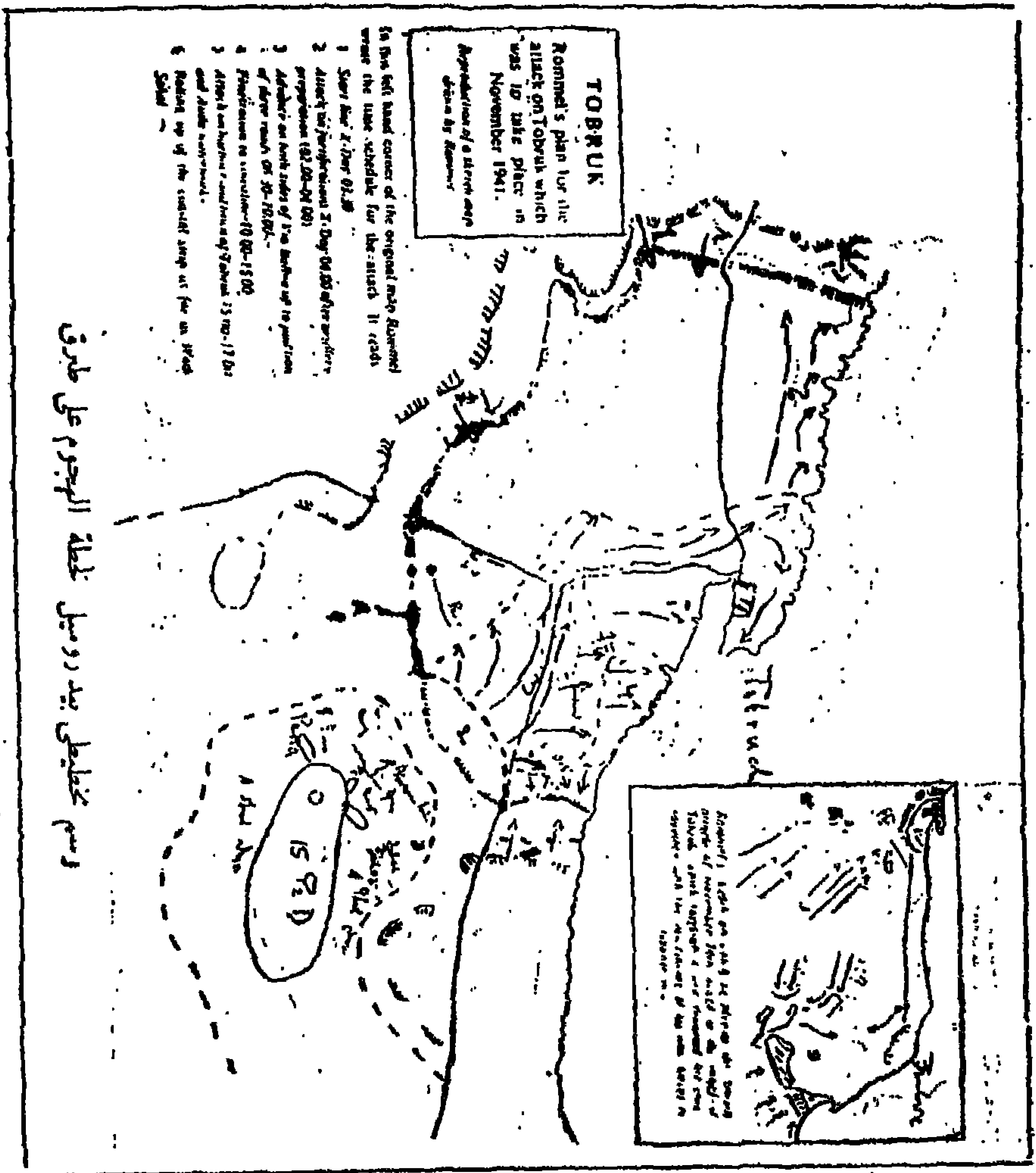
ولكنه من الخطأ القول بأن الضباط فى الميدان الأفريقى كانوا مورْدا للخيانة. فهذا لم يحدث، فلو كان الأمر كذلك ما تمكن روميل من إحراز نجاحه الباهر . وكقاعدة عامة فإن الضباط الإيطاليين كانوا شجعانا مهذبين ذوى بأس . وقد بذل الجنود الإيطاليون أقصى طاقاتهم، أما قيادتهم العسكرية فقد كانت إلى حد كبير تدعو إلى الأسف والحسرة ، فقد نفذت هيئة أركان الحرب الإيطالية أوامر موسولينى بكل عناية واهتمام أما اقتراحات روميل فقد كانت تلاقى أقل اهتمام منهم . وقد أدى جنود الجبهة الإيطالية واجبهم ، وكانت مأساتهم أن لديهم قوادا فى منتهى الضعف وأسلحة أكثر ضعفاً . وكانت دباباتهم عبارة عن توابيت متنقلة وكانت الذخيرة فاسدة ولم يكن السبب فى عيب الذخيرة يرجع كله إلى فقر الإيطاليين فى الناحية الفنية بل كان يرجع جانب كبير منه إلى أعمال التخريب ، لأن التخريب احتل جانبا كبيراً لم يعرف من قبل فى تاريخ الحروب .

٢ - اقتناص الثعلب داخل مصيدته :

أخذ الجنرال كلود أوكنلك يفحص ورقة موضوعة على مكتبه بإعجاب واهتمام وفى نفس الوقت بشك ، وكذلك ضباط مخابراته . فما الذى جعلهم يشعرون بهذا الشعور؟ فأمامهم خريطة مرسومة بيد روميل نفسه تظهر فى وضوح خطته لمهاجمة طبرق ولم يكن ينقص الخريطة شيء. فالقطاعات المحددة للهجوم مبينة عليها الوحدات المستخدمة وأماكن الاحتياطى والنقط الضعيفة فى خطة الهجوم وساعة الصفر لكل هجوم فرعى ولكل وحدة من الوحدات فكل شيء موجود ما عدا شيئا واحدا وهو تاريخ بدء الهجوم ؛ فلقد كانت الخريطة معلمة بيوم (ى) ولكن ما معنى هذا ؟ فإنهم يمتلكون خطة العدو ، وهى حلم كل قائد ، وحدثت مناقشات طويلة . هل الخطة صحيحة أم هى خدعة من ثعلب الصحراء العجوز ؟ أليس من الجائز أن هذا الأستاذ فى رسم الخطط والذى طالما خدع أحسن الاستراتيجيين البريطانيين فى أفريقيا قد فكر فى مثل هذه الخدعة ؟ ولماذا لا ، وهو الرجل الذى يعمل ومعه وحدات الصيانة المتنقلة ومحركات الطائرات المركبة على السيارات لتثير الغبار للإيهام بأنها دبابات مهاجمة ، فى حين يقوم بالهجوم فى مكان آخر . لماذا لا يترك مثل هذا الرجل خطة هجوم زائفة تسقط فى أيدى رجال المخابرات المعادية من أجل خداع البريطانيين وقيادتهم ؟ لقد أصر رجال المخابرات على أن الصورة الفوتوغرافية والملاحظات عليها إنما هى بخط روميل نفسه ، وذلك بعد مقارنتها بمخطوطات لروميل على مستندات قد سبق الاستيلاء عليها . وقد لاحظ أوكنلك على الفور أن تفاصيل الخطة وأسماء الوحدات والفكرة كلها تحمل طابع عبقرية روميل . ولكن المهم فى الأمر هل يمكن الاعتماد على هذا المصدر ؟

ولكن هل يمكن الوثوق بأحد فى مثل هذه الأمور ؟ فإن أعظم أعمال الخيانة قد تحمل طابع عدم التأكد . وبعد مناقشات طويلة تقرر فى مقر قيادة أوكنلك أنه ليس هناك مجال للشك في عدم صحة الخطة ومصدرها . وهكذا فقد أمسكوا بالثعلب داخل مصيدته ، وأصبح الأمر بالنسبة لهم كلاعب « البريدج » الذى منح فرصة لينظر إلى أوراق خصمه أثناء اللعب وبهذا فإن أحسن اللاعبين إذا تعرض لذلك يمكن أن يخسر اللعب .

وهكذا قرر أوكنلك أن يقبل خطة روميل على أنها صحيحة . وبقيت أسئلة قليلة تحتاج إلى إجابة . الأول : تاريخ الهجوم ؟ ومن الواضح أن هجوم روميل



رسم تخطيطي بيد روميل لخطة الهجوم على طبرق

كان وشيكا ومن الممكن أن يشنه فى أى يوم ؟ والسؤال الثانى : كيف يمكن الاستفادة من وقوع الخطة فى أيديهم ؟

وكانت الخريطة تبين أن روميل ينوى مهاجمة طبرق من الجنوب ومن الشرق ، ومن المحتمل أن الهجوم سوف يقع فى ظرف يوم أو يومين . وكان هناك عمل واحد مهم وهو الإسراع فى عمل الاستعدادات والقيام بالهجوم المضاد . وكان هناك احتمال لتغيير الدفاعات الموجودة فى طبرق لمواجهة خطة روميل وبذلك يفشل هجوم روميل غير أن أوكنلك قرر أن ذلك غير كاف ، بل يجب القيام بهجوم بريطانى عام لمواجهة خطة روميل . وقرر السماح لروميل بالهجوم الذى قدره ، وبينما يكون روميل مشغولا بالهجوم يقوم أوكنلك بمهاجمة جناحه الأيمن غير المحمى ثم يطوقه ويطبق عليه ويدمر كل مجموعة البانزر الأفريقية .

وبالنسبة لأوكنلك كانت هذه هى الطريقة الوحيدة الممكنة للاستفادة من هذه الفرصة الفريدة ، وبالطبع كان يعنى ذلك عدم إجراء أى تعديل فى دفاعات طبرق، لكى لا يثير شبهات روميل . ولكن ما أهمية دفاعات طبرق ؟ فالأمر لم يعد مسألة الدفاع عن هذه البلدة بل مسألة النصر النهائى فى أفريقيا .

وعلى كل فقد كان لا بد من اتخاذ بعض الإجراءات فيجب الإسراع بالتحركات البريطانية من مصر إلى الجبهة على أن يراعى قبل كل شيء ألا يلاحظها الاستطلاع الألمانى ، علاوة على أن السرعة المتناهية كانت ضرورية. وقد عملت هيئة أركان حرب أوكنلك عملاً باهراً ، فقد موهت تحركات الجنود على أنها قوافل جمال وأخفت المراكز ببراعة وبذلك فشلت الطائرات الألمانية والإيطالية فى الكشف عنها، ولم يرسل تقرير واحد يثير الشك إلى مقر قيادة روميل ، وفى الرابع عشر من نوفمبر ١٩٤١ كانت الاستعدادات قد تمت والفضل يرجع إلى المجهود الجبار الذى يفوق قدرة البشر الذى قام به رجال أركان حرب أوكنلك وجنوده حتى وصلت المعدات والجنود إلى نقط الانطلاق . وقال أوكنلك لجنوده: «الآن دعوا روميل يبدأ فى هجومه » غير أن روميل لم يقم بالهجوم .

وقد أدلى الفيلد مارشال أوكنلك بعد الحرب بحديث إلى مجلة « بكتشر بوست» فى ٢٦ إبريل ١٩٥٣ وبذلك أزاح النقاب عما حدث فى طبرق فقال: « فى كل خطة للحرب هناك احتمال لكل شيء. وبالنسبة لطبرق كان الاحتمال هو أننا لم نكن نعرف التاريخ الذى حدده روميل لهجومه ، وكنا نعرف أن الهجوم وشيك الوقوع

والمسألة مسألة أيام غير أننا لم نستطع تحديد هذه الأيام » .

ومر يوما ١٤، ١٥ نوفمبر ١٩٤١ . وكان انتظار القاهرة ولندن لهجوم روميل انتظاراً محموماً.

فلقد مرت ثلاثة أيام على وصول الفيالق إلى نقط انطلاقها وكان بعضها يربض في وسط الصحراء المكشوفة . وكل يوم يمر يزيد من خوفهم من خطر اكتشافها . ولم يحدث الهجوم حتى ١٧ نوفمبر ، وفقدت لندن أعصابها وأخذت الشكوك تتزايد والسبب مفهوم ، فقد قامر البريطانيون بكل شيء على ورقة واحدة هي عبارة عن خريطة . وبدأ المتشككون يقولون : ولنفرض أن المسألة كانت خدعة كبرى فهل يؤدى ذلك إلى نهاية مؤسفة لهذه الاستعدادات الكبيرة؟ أليس من المحتمل أن يفاجئهم روميل بما لا يتوقعونه؟

وتبودلت الرسائل بسرعة بين القاهرة ولندن . وكان أوكنلك يرغب فى الانتظار مدة أخرى إلا أن تشرشل ووزارة الحرب فى لندن كانوا ضد الانتظار . وكان تشرشل حسب معلوماته عن أماكن الحشد الألمانى وعن قوة الجيش الثامن يعتقد أن النصر سوف يكون من نصيب البريطانيين لو استغلوا عامل المفاجأة وقاموا بالهجوم دون انتظار روميل . وكان من رأيه أن الانتظار سيؤدى إلى إفساد كل شيء . وفى السابع عشر من نوفمبر وضع تشرشل قائده أوكنلك فى موقف حرج بتحديده للميعاد النهائى للهجوم ، وكان فى الثامن عشر من نوفمبر .

ولقد كان تشرشل متأكداً من النصر ويتضح ذلك من الرسالة التى أرسلها إلى أوكنلك باسم صاحب الجلالة ملك بريطانيا: « لأول مرة تواجه جيوش الإمبراطورية والقوات البريطانية قوات الألمان بتفوق فى السلاح والمعدات من الأنواع كافة إن نتيجة المعركة سوف تؤثر فى سير الحرب كلها . وإنه من الضرورى إنزال أكبر ضربة بالعدو للحصول على النصر النهائى من أجل الوطن والحرية . وسوف يكتب لجيش الصحراء صفحة جديدة فى التاريخ تضارع معارك بلنهايم ووترلو . إن أعين العالم تتطلع إليكم . وقلوبنا كلها معكم وندعو الله أن يؤيد الحق » .

وقد ذكر تشرشل بلنهايم وهى المعركة التى أطلق عليها الإنجليز اسم «معركة هوتشستدت» والتى قادها أحد أجداده الدوق مالبروه بالاشتراك مع الأمير يوجين سنة ١٧٠٤م. وانتصر فيها البريطانيون نصراً حاسماً على الفرنسيين والبافاريين وذلك خلال الحرب الإسبانية السكسونية. أما وترلو فهى المعركة التى تمكن فيها

الدوق وليجتن بالاشتراك مع المارشال البروسى بلوخر من تحطيم جيش نابليون . ويجب أن يحطم روميل بنفس الطريقة التى تحطمت بها جيوش الآخرين .

ولم يكن لدى أوكنلك الخيار وما كان عليه إلا القيام بعملية الكروسيدر أو «المقاتل الصليبى » وهى الكلمة الكودية لبدء الهجوم ، الذى بدأ مع الساعات الأولى فى يوم ١٨ نوفمبر فى ممر حلفاية وجمبوت مما أدى إلى أنها أرسلت إشارات الإنذار (المياه العالية أو الطوفان) على طول الجبهة الأفريقية . ولم تكن العاصفة مأساة للجنود الألمان والإيطاليين وحدهم ، فقد منعت أوكنلك أيضًا من استخدام قاذفات القنابل التى كان عليها فى المراحل الأولى للهجوم أن تقوم بغارات مفاجئة لقطع خطوط المواصلات وتدمير القواعد الإدارية ومراكز القيادات. ولم يستطع السلاح الجوى الملكى القيام بأى غارات خلال يومى ١٧ ، ١٨ نوفمبر وبهذه الطريقة كان سوء الأحوال الجوية حجر عثرة بالنسبة لكلا الجانبين .

وبينما كان الألمان يحاربون فى حلفاية وجمبوت ضد المياه والوحل وبينما كانت حقول الألغام تغمرها المياه وكتل الرمال المنهالة التى أدت إلى انفجارها وجرف المعدات الثقيلة من مواقعها ، كان روميل فى ذلك الوقت فى زيارة لروما . وكان أيضًا ضحايا الغارة التى شنها الفدائيون على مقر قيادة الإمداد والتموين يحملون إلى الخيام لإسعافهم وكانت رأس الحربة البريطانية تنطلق من حفرها المملوءة بالمياه ومعها الدبابات التى زحفت إلى الأمام نحو الدروب الصحراوية والمغرقة ، وبدأت المعركة.

٣ - محاولة تمزيق قناع الخائن :

« من هو الخائن الذى سلم الخريطة والخطة إلى البريطانيين ؟»

إن الفيلد مارشال أوكنلك هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يعطينا الجواب الصحيح إلا أن وزارة الحرب البريطانية ما زالت تعتبر الوقت غير ملائم للإفصاح عن تفاصيل قصة هذه الخيانة .

وقد كتب لى الفيلد مارشال كسلرينج القائد العام فى الجنوب وكان خلال هذه الفترة فى روما « فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤١م»: « استلمت قيادة القوات الجوية الألمانية فى البحر المتوسط بالإضافة إلى عملى فى الجنوب، ولم أسمع قط من روميل أو من هيئة أركان حربه أى شىء عن تسرب الخطة الألمانية للهجوم على طبرق سنة ١٩٤١ للعدو ، وهذا لا يعنى أنه لم تكن هناك خيانة .

وأن احتياطات الأمن المشددة التى اتخذها روميل وأمر بها فيما بعد بالنسبة لهجومه المضاد من العقيلة للاستيلاء على برقة يمكن أن نفسرها بأنها بسبب تجارب الماضى غير السارة ، وقد ذكرت أنا شخصيا لرئيس هيئة أركان حرب القوات الإيطالية (المارشال الكونت كافاليرو) والذى عملت معه فى وفاق تام- احتمال تسرب أنباء القوافل القادمة من إيطاليا لشمال أفريقيا ، غير أننى لا أستطيع أن أميط اللثام عن المتسبب فى هذه الخيانة . وحتى محطات التنصت المدارة بكفاءة عالية لا يمكنها أن تعطى لنا شرحاً شافياً. ورغم ذلك فقد كانت هناك أدلة لا تقبل الشك تدل على أن الحلفاء كانوا يعلمون تماماً بالزمان والمكان وخط سير قوافل المحور . وكثير من هذه القوافل لم تهاجم ولم تكتشف عندما كانت تؤمر بتغيير خط سيرها . وكانت هذه هى الحال عندما كانت السفن الألمانية السريعة تعبر البحر. فمن أى مصدر كانت تتسرب هذه المعلومات إلى معسكر الأعداء ؟

وكان تكوين هذه القوافل وحمولتها وميناء الشحن وميعاد إقلاع السفن يقرر بمعرفة عدد قليل لا يزيد على أصابع اليد الواحدة من أكبر الضباط رتبة فى القيادة العليا الإيطالية والسلاح الجوى الألمانى ولكن أليس من التجنى اتهام أحد من هؤلاء الضباط الألمان أو الإيطاليين بالخيانة ؟ ألم يعرف هؤلاء الرجال جميعاً أن تسرب هذه المعلومات لا يعنى فقط فقد السفن والمؤن بل تعرض الكثيرين من الجنود الألمان والإيطاليين للموت إما غرقًا فى البحر المتوسط وإما نسفًا مع سفنهم ؟ هل يمكن لرجل ذى ضمير أن يبرر لنفسه مثل هذا العمل أمام جنوده أو بنى وطنه أو أمام الله ؟

لقد واجهتنا مشكلة فيها ثغرات كثيرة لذلك اضطررنا إلى إشراك عدد من البحرية الألمانية وسلاح الطيران الألمانى فى عمليات التموين والإمداد الإيطالية وذلك للتفتيش وعمل الإجراءات السرية واحتياطات الأمن ضد الخيانات الفردية ، ونتيجة لذلك قلت الخسائر ثم أخذت تقل حتى توقفت تمامًا عند استخدام الحلفاء لقواتهم البحرية وسلاحهم الجوى فى جبهات أخرى ، وعندما اضطروا أيضا لعدم التحرك نتيجة لهجمات قاذفات القنابل أو حصار الغواصات .

وكانت الخسائر تزداد بشكل مخيف عند عبور قوافل المحور البحر المتوسط وعليها الإمدادات والتموين بينما كانت القوات فى أفريقيا فى أشد الحاجة إليها . وكان علىّ -بصفتى قائداً عامًا للمنطقة الجنوبية - أن أهيئ حماية جوية كافية تتزايد باستمرار لكى أضمن وصول أهم الإمدادات والمعدات والتموين اللازم إلى

أفريقيا. وكانت النتيجة أن أرهق الطيارون برحلات كثيرة فوق البحر ليلا ونهاراً ونادراً ما كان لديهم التفوق الجوى فى المكان والوقت المناسبين وهكذا تضاعف أثر الخيانة مرتين أو ثلاث على سير الحرب فى أفريقيا » .

وقد كشفت السنوات التالية للحرب جزءاً من الحل . فالأمريكى المدعو إلياس زاكارياس الذى كان ضابطا ورئيساً للمخابرات البحرية الأمريكية فى إيطاليا ذكر فى كتابه « مهمة سرية » أنه كان يعرف كل شيء يحدث فى القيادة البحرية الإيطالية ، وكانت تصل إليه كل المناقشات العسكرية المهمة التى تدور هناك . وكان يعرف الأرقام السرية لقوات المحور فى أفريقيا من قسم استعلامات البحرية الإيطالية وكان مصدر معلوماته الرئيسى فى هذا هو الأدميرال موجيرى وقد كافأه الحلفاء على خدماته وانتهى- ذلك -ما ورد فى خطاب المارشال كسلرينج .

أما الجنرال بايرلاين وهو أحد مساعدى روميل المقربين أجاب على سؤالى بما يلى :

« عند قيام العدو بهجومه فى شتاء ١٩٤١ كنت برتبة مقدم وأعمل رئيس أركان حرب مجموعة البانزر الأفريقية التى تتكون من فيلق ألمانى وثلاثة فيالق إيطالية (١) . وعند ابتداء المعركة كان مقر قيادتى فى البردية ولكن فيما بعد كان مقر القيادة فى تحرك دائم.

وخلال سير المعركة علمت أن خطة روميل للهجوم على طبرق قد تسربت إلى البريطانيين وقد أمكن جمع هذه المعلومات من الأسرى البريطانيين .

وكان من المحتمل التأكد من اسم الخائن لأن كثيراً من الضباط الإيطاليين الكبار حضروا مؤتمرات مع روميل قبل الهجوم وكذلك أثناء التدريبات التى تمت على تخت رمل وأنا لا أستطيع أن أدفع عن الإيطاليين تهمة الخيانة فى مسألة طبرق لأن سلوك الخيانة بالنسبة لحلفائنا الإيطاليين قد عرف فى حالات كثيرة » .

أما الجنرال «سيجفريد وستفال» الذى كان برتبة مقدم فى عام ١٩٤١ ويعمل أركان حرب الإدارة والأفراد فى رئاسة هيئة أركان حرب مجموعة البانزر قال لى ما يلى :

« فى نهاية سبتمبر سنة ١٩٤١ قرر روميل الاستيلاء على طبرق بهجوم

(١) مجموعة البانزر الأفريقية تتشكل من : الفيلق الأفريقى + الفيلق ١٠ الإيطالى + الفيلق ٢٠ الإيطالى الخفيف + الفيلق ٢١ الإيطالى .

(المعلق)

واسع النطاق . وكان قد راهن على أن الهجوم البريطانى الجديد (بعد تعيين الجنرال أوكنلك بدلا من ويفل) على وشك الوقوع . وكان روميل يريد إحباطه بالقيام بهجوم مبكر عنه .

٤ - كل الطرق تؤدى إلى روما :

وبالنسبة لروميل كانت المسألة سباقًا مع الزمن ، وكان يضطر مرغمًا إلى إرجاء تنفيذ خططه لعدم وصول الإمدادات . ولكى يكشف نوايا عدوه أمر بهجوم استطلاعى بالفرقة الحادية والعشرين المدرعة يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤١ إلى بير حباطة ولكنها لم تستطع كشف أى دليل على وجود هجوم بريطانى وشيك الوقوع .

وخلال الأسابيع التالية تمكن البريطانيون بوسائل الإخفاء والتمويه الممتازة والدفاع ضد الطائرات من منع الطيران الألمانى من الاستطلاع . ولم تصلنا أى تقارير من عملائنا . وفى الثامن عشر من نوفمبر سنة ١٩٤١ فوجئ روميل بالهجوم البريطانى . وكانت مفاجأة تكتيكية أكثر منها استراتيجية . ولم أكن أعلم أن خطة روميل فى الهجوم على طبرق قد سقطت فى يد الجنرال أوكنلك » .

ويعتبر الجنرال وستفال أن توزيع القوات للدفاع فى طبرق لا يوحى بأن البريطانيين كان لديهم أى فكرة عن أن الهجوم الرئيسى لروميل سيتم من الشرق كما أن المقدم فون مللينثن الذى كان فى ذلك الوقت أركان حرب «٣» لمجموعة البانزر أقر نفس الرأى . وقد اتصلت كذلك بسكرتير روميل والذى عمل معه سنوات طويلة وهو المساعد بوتشر وخدم مع الفيلد مارشال من صيف ١٩٤١ إلى أكتوبر ١٩٤٤ . وكان مختصا بحفظ الملفات والاطلاع على المستندات السرية الخاصة بالمخابرات وشئون الأفراد .

وقد كتب لى ألبرت بوتشر يقول : « **إن الفيلد مارشال روميل كان يصمم دائمًا على اتخاذ أشد إجراءات الأمن إلى حد الهوس** . وكانت الوثائق مرقمة ومعلمة طبقا لأهميتها ومقسمة إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول « سرى للغاية »، والثانى «سرى لشئون القيادة»، والثالث « سرى جدا » .

أما الوثائق « سرى للغاية » فكان يتداولها هو مع ضباط هيئة أركان الحرب

وتنقل بواسطة ضباط اتصال معينين . وما عدا ذلك فقد كانت الوثائق توزع للوحدات عن طريق المراسلات الراكبين أو المراسلات المترجلين .

وكان «المراسلات» يختارون بعناية وعليهم أن يقسموا قسما خاصا بالمحافظة على سرية عملهم .

وكانت الوثائق « سرى للغاية » تحفظ تحت القفل والمفتاح فى خزائن مقفلة . أما الوثائق ومستندات القيادة فقد كان يعهد بها إلى قادة الوحدات ولا يسمح لأحد بالاطلاع عليها إلا إذا كان مشتركا أو له دور فيها . وكانت هذه الأوراق ترسل إلى الوحدات الإيطالية والقيادة الإيطالية العليا لأن الأوامر تتطلب ضرورة اطلاعهم على كل العمليات المهمة . وكانت تتم عن طريق ضباط اتصال إيطاليين .

ونتيجة للحرب المائعة وتعوُّد المارشال روميل على الذهاب إلى الخطوط الأمامية مع أركان حربه فقد كان يخشى دائماً من خطر سقوط الوثائق فى يد العدو وكثيراً ما وقفنا مستعدين بالبترول لإحراق كل شيء . والخريطة التى رسمت بيد الفيلد مارشال روميل كانت قد أعيدت إلى ملفها كالعادة فى أرشيف مكتب القيادة العام ضمن أوراقه الخاصة حتى يمكنه الرجوع إليها عندما يحين الوقت . وكانت مكاتباته وأعداد الصور من خطاباته وأوامره متعددة تسبب لنا اضطرابا كبيراً .

وكان يستخدم الشفرة فى الموضوعات السرية التى ترسل بواسطة التليفون أو التلغراف ، وجهاز الشفرة لا يوجد فى مقر القيادة التكتيكية ولكن فى الخلف بعيداً عن خطوط القتال حيث تحل الرسائل . وبالرغم من تغيير الشفرة على فترات منظمة إلا أنه إذا قررت المخابرات أن العدو يتنصت على رسائلنا أو تمكن من حل الشفرة كان يتم تغييرها فوراً . وكان رئيس المخابرات فى الجيش هو المسئول عن كل ما يتعلق بقسم المعلومات .

أما المخابرات فى منطقة العمليات فقد كان يشرف عليها المقدم فون مللينثن أركان حرب عمليات « ٣ » ، فمن واجبه الحصول على المعلومات عن العدو ومد هيئة أركان الحرب بها للقيام برسم خططهم . كما كان مطلوبا منه بالذات تحديد حشود وتكوين قوات العدو، والأسلحة التى لديه ونوعها ومواقع قواته فى خط القتال أو فى المناطق الخلفية . وكان يتم ذلك عن طريق استجواب الأسرى ، أو التنصت على محطات إرسال العدو مع استخدام المترجمين وإقامة نقط للتسمع والتداخل على

خطوط العدو السلكية واللاسلكية والقيام بعمليات خاصة فى أرض العدو . كل ذلك كان من واجبات ضابط أركان الحرب المسئول عن العمليات وشئون الأفراد.

وبالإضافة إلى ذلك كان عليه أن يستقى المعلومات من الجنود الألمان أنفسهم . أما المخابرات خلف خطوط الأعداء فكانت من اختصاص الإيطاليين لأن هيئة أركان حرب روميل كانت دائماً فى الخطوط الأمامية . وكان العمل الكتابى فى الميدان صعباً وخاصة عندما ينطفئ النور فى الليل أو يضطر الأفراد للعمل فى خيمة أو فى سيارة على ضوء الشموع » .

وكان هذا ما قاله «ألبرت بوتشر» لى.

وهناك قول قديم « كل الطرق تؤدى إلى روما » وفى حالتنا هذه كان لهذا القول المأثور معنى خاص لأن تقارير المخابرات من هيئة أركان حرب روميل أوضحت أن المخابرات السرية للعدو كان لديها الفرص للحصول على معلومات قيمة عن طريق روما.

وكان هناك فى الحلقة التى مرت بها خطة روميل «رجل فى خدمة العدو» فمن هو؟ وهذا السؤال الأخير ما زال يحتاج إلى جواب.

الفصل الرابع

هجوم أوكنلك

(معركة الكروسيدر)

الفصل الرابع

هجوم أوكنلك (معركة الكروسيدر)

١ - ١٠٠٠ دبابة وعربة مدرعة إنجليزية تتحدى روميل : (انظر اللوحة رقم ١٠)
فى ليلة ١٧ - ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤١ لم يعرف النوم طريقه إلى جفون جرزان طبرق . كما سمى الأستراليون أنفسهم بكل فخر ، وهم محاصرون فى القلعة المنيعة، واستلقوا وسط الخرائب وهم يستمعون لصوت سقوط المطر . هذا المطر المنهمر الذى لم تستطع الصحراء امتصاصه لشدة غزارته . وحوصرت الحامية البريطانية منذ الصيف فى هذه القلعة الواقعة على البحر . ولكن البريطانيين كانوا سادة البحار لأنه بالرغم من الخسائر الكبيرة كانت الوحدات البريطانية البحرية تتسلل ليلا إلى الميناء حاملة الإمدادات الضرورية بل والتعزيزات من الجنود . وهكذا استطاع المدافعون عن الميناء أن يظلوا سبعة شهور صامدين لمحاولات روميل لاقتحام المدينة وعندما سرت الشائعات أن الألمان يعدون العدة لهجوم جديد ضحك المدافعون عن المدينة وهم قابعون فى خنادقهم الضيقة . وفى ليلة ١٨ نوفمبر استمعوا إلى كلمات تشرشل المذاعة من محطة إذاعة لندن وهو يقول : « إن جيش الصحراء سوف يكتب صفحة جديدة فى التاريخ يمكن مقارنتها بمعارك بلنهايم ووترلو » .

وأخذوا يواصلون الاستماع إلى صوت المطر، وبالرغم من عدم سماعهم لأصوات حشد وتحرك القوات البريطانية من اتجاه الشرق فقد كانوا يعلمون أن هناك ١٠٠٠ دبابة وعربة مدرعة تقترب من خطوط الألمان لتشتبك مع قرابة ٥٠٠ دبابة ألمانية وإيطالية . فقد تحرك الفيلق الثلاثون « الذى يتكون من الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الأولى جنوب أفريقيا واللواء الثانى والعشرين » [1] من مراكز تجمعه فى مادالينا وزحف اتجاه طبرق .

(١) إن اللواء ٢٢ المدرع كان من ضمن تنظيم الفرقة السابعة المدرعة ولم يكن يعمل بمفرده ، وكان تنظيم الفرقة ٧ المدرعة عبارة عن: اللواء ٤ المدرع + اللواء ٢٢ المدرع + مجموعة المعاونة .
(المعلق)

أما الفيلق الثالث عشر ، الذى يتكون من الفرقة الهندية الرابعة والفرقة النيوزيلندية الثانية ولواء الدبابات الأول ، فقد تقدم من اتجاه السلوم . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك وحدات ميكانيكية سريعة متقدمة من واحة جغبوب لتخترق فى عمق خطوط روميل الخلفية لقطع خطوط مواصلاته (١) .

ولم يلاحظ الألمان هذه الاستعدادات البريطانية الخطيرة فلقد فشل الاستطلاع الجوى الألمانى فى ذلك ، فحتى مخازن التموين البريطانية فى الصحراء الجنوبية والتى كانت على الجناح الأيسر للقوات لم تكتشف .

ولم تصل أية تقارير من عملائهم بهذه الاستعدادات . بل لم يتم التقاط أى رسالة لاسلكية للبريطانيين عن هذه الاستعدادات . فقد أمر أوكنلك بفرض صمت كامل على اللاسلكى .

وهكذا زحف القول المدرع الضخم فى سرية تامة إلى اتجاه طبرق . وكان الهدف هو رفع الحصار عن طبرق وتحطيم تشكيلات الجيش الألمانى كل على حدة كما هو مبين فى خريطة روميل الموضوعة على مكتب أوكنلك فى القاهرة .

أما فى الجبهة الألمانية فقد كانت هناك معلومات وافية عن المعركة التى بدأت فى ١٨ نوفمبر ووصلت إلى قمتها يوم الأحد ٢٣ نوفمبر أى بعد بدئها بخمسة أيام . وفى الحقيقة لم يقدر أحد الأعمال التى قامت بها القوات الألمانية بين «الطوفان ، وبين يوم الأحد خامس أيام المعركة ومقْدرة روميل الرائعة على القيادة قيادةً حق قدرها، فقد قفز الرقيب هابوخ من السرية الثامنة من الآلاى الثامن المدرع إلى دبابة قيادة الملازم دوث وأعطى الإنذار بالاستعداد للمعركة . وتساءل الجنود: هل هم على وشك الهجوم على طبرق ؟ فلقد تدربوا الأسابيع متصلة على «تخت رمل ، وكانت لديهم جميع التعليمات . ولكن الرقيب هابوخ كان مشغولا جدا ، ولم يكن انشغاله هذا بخصوص طبرق ولكن بخصوص إنقاذ نفسه ، فعند وصول البريطانيين ظهرت الكارثة أمامه فقد انشغل الدكتور أستور طبيب الوحدة وافتقر عدد كبير من المصابين إلى الرعاية الطبية ، فقد أصيب الملازمان «دوث» و «كيستمان» والراميان «باكينسين» و «لودر أوهر» وكثيرون آخرون كانوا فى حالة خطيرة .

---

(١) كان اللواء ٢٩ الهندى بمحمل هو المعين لهذا الواجب .

(المعلق)

وفى صباح يوم ١٨ نوفمبر كانت القوات فى ممر حلفاية تقوم بإصلاح الخسائر الجسيمة التى تسببت من العاصفة . وكان الملازم جيرنج قائد السرية الأولى من الآلاى ١٠٤ قد أنقذ بأعجوبة من الغرق . **وقد أحاط المساعد زيجلر برجال ومعدات السرية كما تحيط الدجاجة بصغارها .**

وفى منتصف نهار ١٨ نوفمبر فاجأت سيارة استطلاع ألمانية سيارة من سيارات قيادة الفرقة الرابعة الهندية بالقرب من سيدى سليمان وكانت قد ضلت طريقها وأسر الألمان راكبى السيارة ومعهم أحد الرقباء التابعين للقيادة . وأرسل الرقيب لاستجوابه فى البردية وتبين أن مع الرقيب خريطة قرر أنها تتضمن خطة أوكنلك للهجوم . كما قرر أن القيادة البريطانية العامة تملك الخريطة التى توضح خطة روميل للهجوم على طبرق . وبذلك فإن خيانة طبرق كان لها هناك مقابل مع فارق واحد وهو أن روميل كان فى استطاعته أن يقرر فى تاريخ لاحق أن الخطة كانت حقيقية ، وانكب رجال أركان حربه على الخريطة يدرسونها . ومما لا شك فيه أن هذا الرقيب قام بخدمة جليلة للدفاع الألمانى فى المعركة التى هى على وشك الوقوع . وقد فسر لى «فريتز بايرلاين» رئيس أركان روميل كيف تطورت المعركة .

فقد تمكنت الفرقة السابعة المدرعة وخاصة آلاى الهوسار الحادى عشر من اختراق المواقع الألمانية والإيطالية فى ٢٠ نوفمبر ووصلت إلى سيدى رزق على مشارف الهضبة المطلة على طبرق . وقد قامت القوات الألمانية بعمل ناجح ضد هذه القوات فتمكنت من تحطيم عدة دبابات واكتساب مواقع مناسبة لمهاجمة العدو من الخلف .

ونظراً لتفوق العدو فى القوة اضطر روميل لمهاجمة تجمعات العدو الواحدة تلو الأخرى حتى يتسنى له تدمير القوات البريطانية الزاحفة بأجمعها إلى طبرق من الجنوب .

ولكن هل سيدفع الجنرال كننجهام قائد الجيس البريطانى [1] بقواته المدرعة وهى متفرقة للمعركة ؟ والذى حدث فعلا هو أنه دفع بقواته على مراحل ولم يحاول حشدها بالكامل للهجوم بها مرة واحدة .

---

(١) الجيش الثامن البريطانى .

(المعلق)

٢ - المفاجأة تذهل الطرفين :

وفى صباح يوم ٢١ نوفمبر هاجم الفيلق الأفريقى اللواء السابع المدرع من الخلف فى المنطقة الواقعة غربى سيدى عمر وفى خلال هذا الصدام الأول كان لدى البريطانيين ٢٠٠ دبابة وعديد من المدافع المضادة للدبابات والتفوق فى المدفعية ، غير أن البريطانيين أرغموا على التراجع فتمركزوا فى المرتفعات المطلة على طريق كابتزو ونظموا أنفسهم للقيام بالدفاع المتحرك .

وتمكن الألمان من صد هجوم قامت به قوات حامية طبرق إلا أنهم عادوا للهجوم بخمسين دبابة ولذلك كانوا هذه المرة أكثر نجاحًا . وهاجمت وحدات من الفرقة البريطانية السبعين (١) المواقع التى تحتلها فرقة بولونيا الإيطالية ، وتمكنت من اختراق دفاعاتهم واكتسحوا مدفعية الفرقة ، ودمروا كتيبتين و ٣٥ مدفعا . وقامت الكتيبة الثالثة استطلاع الألمانية بغلق الثغرة التى حدثت فى هذا القطاع غير أن التهديد فى هذا القطاع من الجبهة ظل قائما .

وأمر روميل بمعركة متحركة يوم ٢٢ نوفمبر وتمكن الجنرال كروويل من تجميع الفرقة الخامسة عشرة المدرعة خلال ليلة ٢٢ نوفمبر على جانب العدو . وهاجمت الفرقة ٢١ المدرعة مطار سيدى رزق ودفعت العدو إلى الخلف فى اتجاه الجنوب أما الجنرال «نيومان سيلكو» قائد الفرقة الخامسة عشرة المدرعة فقد هاجم العدو من الجنب ومن المؤخرة وحاصره . وتمكن الآلاى الثامن المدرع من تدمير اللواء الرابع المدرع (وهو أحد الألوية البريطانية الممتازة المشتركة فى المعركة) . وجاء فى التاريخ الحربى البريطانى الرسمى عن الحرب أن هزيمة اللواء الرابع المدرع قرر مصير المعركة . وبالطبع فإن هزيمة لواء مدرع وتحطيمه وأسر رجاله هو إحدى العمليات التى لا تحتاج إلى تعليق أو إشارة إلى شجاعة ومهارة الذين قاموا بها .

وخلال ليلة ٢٢ نوفمبر فقد المقدم كرامر (قائد آلاى البانزر الثامن) اتصاله بقوات العدو المنسحبة وفجأة وفى ظلام الليل الحالك وجد قائد الكتيبة الأولى من الآلاى نفسه وسط تجمع للدبابات ، ولم يتبين أنها بريطانية إلا عندما أصبح على بعد ١٠ ياردات منها .

---

(١) الفرقة ٧٠ البريطانية هى جميع القوات الإنجليزية الموجودة داخل الحصار فى طبرق .
(المعلق)

وأذهلت المفاجأة الطرفين فلم تطلق طلقة واحدة . وفى لمح البصر أخذ الرائد فينسكى قائد الكتيبة المبادأة ، فقاد دبابة قيادته بسرعة خلال الدبابات البريطانية وأصدر أوامره باللاسلكى للسرية الأولى للالتفاف حول تجمع مدرعات العدو من جهة اليمين ...

وأخذ مساعده الملازم بيك يطلق طلقات الإشارة المضيئة لينير المنطقة ، وظهرت تجمعات العدو المدرعة وهى مضاءة إضاءة تامة . وكان البريطانيون مذهولين ، وفى نفس الوقت شق المراسلات الراكبين تحت قيادة الرقيب سوتر طريقهم وسط صفوف البريطانيين وهم يصيحون : ارفعوا أيديكم ، وهم يهددونهم بالمدافع الرشاشة . فحاول طاقم إحدى الدبابات أن يتحرك ، فوثب سوتر على الدبابة وفتح فتحة البرج وأطلق مدفعه الرشاش وحاولت أعداد قليلة من الدبابات الهروب من الحصار فصدرت الأوامر بإطلاق النيران على الدبابات التى تحاول الهروب وأصبحت حلقة الحصار حول البريطانيين كاملة ، ولكى لا تحدث فوضى صدر الأمر بإطلاق النيران فقط على الدبابات الهاربة . وأصدر القائد الألمانى أوامره بالميكروفون: « على قادة الدبابات الألمانية الترجل ومعهم أسلحتهم لأسر جنود العدو مع بقاء الرماة والمعمرين فى أماكنهم بالدبابات ».

وفى ضوء مصابيح الدبابات الساطع جرد البريطانيون من السلاح . وقاوم قليل منهم وقتل ثلاثة من الرقباء الألمان وتمكن نقيب إنجليزى من إشعال النيران فى ثلاث دبابات قبل أن يأسره فينسكى وكانت هذه هى نهاية اللواء الرابع المدرع. ومن بين الأسرى كان يوجد عميد و ١٧ ضابطاً و ١٥٠ من ضباط الصف و ٣٥ دبابة وعدد كبير من المركبات وكانت هذه المعركة إحدى المعارك الغريبة للدبابات.

وقتل الرائد فينسكى فى اليوم التالى !

ولم تحاول حامية طبرق الخروج فى ذلك الوقت إلا أن البريطانيين أحضروا فيلقهم الثالث عشر وهجموا به على جبهة واسعة ضد مؤخرة القوات الألمانية فى السلوم وممر حلفاية وصمدت المواقع القوية ما عدا حصن كابتزو الذى استولى عليه النيوزيلنديون .

وبعد هذه العمليات قرر روميل الخطة التالية : يجب أولا تدمير قوات العدو الرئيسية التى تعمل حول طبرق . ولم يتمكن من إعطاء الأوامر الشفوية لقادة التشكيلات بنفسه ، بل قام بإجراء غير عادى إذ أرسل رسالة لاسلكية مطولة بالشفرة . ورأى الجنرال كروويل الذى كان يقود الفيلق الأفريقى فى غياب روميل



بعض دبابات اللواء ٤ المدرع البريطانى أثناء فرارها من حلقة الحصار الألمانية .

أن فك رموز البرقية المكونة من ست صفحات سوف يستغرق اليوم بطوله فهل ينتظر ؟ هل يفقد هذه الساعات الحاسمة وينتظر فك رموز البرقية ؟

وقد قال لى بايرلاين: « ولما كان لدينا صورة كاملة عن موقف العدو فلم ننتظر حل رموز البرقية .

وتركنا رئاسة الفيلق الأفريقى فى الخامسة والنصف لنلحق بالفرقة الخامسة عشرة المدرعة . ولم نأخذ معنا سوى المصفحة الضخمة موريتز وعربتى القيادة تاركين الباقى خلفنا . وكان ذلك من سوء الحظ ، فبعد نصف ساعة من مغادرتنا لمركز القيادة قام النيوزيلنديون بهجوم من الخلف دون أن يشعر بهم أحد وأسروا كل أفراد القيادة بما فيهم أركان حرب العمليات (٣) الكونت بوديسين ، وبعد معركة خاطفة أخذوا أسرى بينما نجوت أنا– « بايرلاين » –وكروويل من الأسر بشق الأنفس ».

وقد شرح لى أحد أفراد هيئة القيادة ما حدث فقال :

« عندما استعدت هيئة قيادة الفيلق الأفريقى للتقدم من الجبل [١] إلى طريق كابتزو (وكان النهار قد طلع) رأينا على يميننا مدافع ميدان ، وفى نفس الوقت رأينا سيارات تقترب منا من جميع الاتجاهات . وتساءلنا: هل ما زالت الوحدات الخلفية للفرقتين ٢١ ، ١٥ موجودتين فى ذلك المكان؟

وبينما كنا نتناقش فى ذلك صفرت أول القنابل وبسرعة انتشرت قواتنا فى الحال ، وأخذت سيارات الاستطلاع والمدافع المضادة للطائرات تطلق نيرانها بكل قوة . ثم توقف الضرب وانتهزنا هذه الفرصة لنقفز فى عرباتنا ونسير بها فى جميع الاتجاهات وبمنتهى السرعة ، غير أننا لم نستطع الابتعاد كثيرا ، فقد دخلنا تحت تأثير النيران المؤثرة للدبابات البريطانية والمدافع المضادة للدبابات والمشاة وتعطلت العربات الواحدة بعد الأخرى وكان بيننا إصابات كثيرة فقتل منا من قتل وجرح عدد كبير ، وتعطلت أيضاً عربات الاستطلاع وأخذت النيران تشتعل فيها . وأخذت الدانات تنفجر وتطير فوق رءوسنا . وأمكننا حرق أهم الوثائق والمستندات قبل أن يدركنا البريطانيون . وكانت القوات المهاجمة هى الفرقة النيوزيلندية الثانية بقيادة

---

(١) لقد اختار روميل الهضبة الموجودة عند جمبوت ليحشد (بينها وبين البحر) الفيلق الأفريقى حتى يستطيع تهديد جنب أى قوة معادية متجهة إلى طبرق ويستطيع معاونة قواته الموجودة فى منطقة طبرق ومنطقة الحدود المصرية إذا هوجمت . (المعلق)

الجنرال فريبورج . وقد أخذنا أسرى .

وكان ما حدث شيئاً طبيعيا في حرب الصحراء فكثيراً ما يصبح الجنرالات بدون هيئة قيادة . وقد أسر كل المختصين مرة واحدة مع خرائطهم بينما تحطمت الأجهزة اللاسلكية ، إلا أن الجنرال كروويل ظل يقود رجاله إلى هدفهم » .

٣ - حائط النيران :

وفى صباح ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤١ وقفت القوات الألمانية الإيطالية المشتركة جنوبى طبرق مستعدة للقتال . وفى منطقة سيدى رزق كانت الفرقة ٢١ المدرعة على استعداد للقيام بعمليات دفاعية . أما فرقتا تريستا وآريتى الإيطاليتان فقد تجمعتا فى منطقة بير الجوبى . وقرر الجنرال كروويل مهاجمة العدو من الخلف بعد انضمام فرقة آريتى المتقدمة من بير الجوبى وبذلك يستخدم كل قواته المدرعة .

وفى حوالى الساعة السابعة والنصف وصلت الفرقة الخامسة عشرة المدرعة من الجنوب الغربى وقامت بإبلاغ كل سراياها الرسالة اللاسلكية التالية : « يجب هزيمة العدو تماما اليوم » .

وشوهدت قوات قوية من مدرعات العدو حول سيدى مفتاح واشتبكت معها القوات على الفور ، ودار قتال عنيف ، وشوهدت أيضاً قوات إضافية للعدو تصحبها قولات إدارية وعدد كبير من الدبابات والمدافع ، وإزاء ذلك قام الجنرال كروويل بحركة التفاف واسعة بينما كانت الفرقة ٢١ المدرعة فى نفس الوقت ما زالت مشتبكة فى معركة دفاعية عنيفة مع قوات جديدة من قوات العدو فى منطقة سيدى رزق (وهى الفرقة السابعة البريطانية) [١].

وحوالى الظهر حاولت حامية طبرق الخروج من حلقة الحصار مستعينة بستين دبابة تعاونها قوات كبيرة من المشاة على أمل الاتصال بالقوات المدرعة القادمة من الشرق ، غير أن المواقع الإيطالية المحتلة بفرقة بافيا قاومت بعنف وظلت محافظة على مواقعها وعلى كل فقد تمكن العدو من الاستيلاء على عدة نقاط قوية فى القطاع . ووصلت قوات المقدمة من فرقة آريتى المدرعة الإيطالية وكان معها ١٢٠ دبابة . وقام الجنرال كروويل بإلقاء قواته من الألمان والإيطاليين

---

(١) بعد تدمير القوة المدرعة الإنجليزية فى سيدى رزق صدرت الأوامر للفرقة ٧ المدرعة بالكامل بالتوجه إلى هناك للاشتراك فى المعركة .

(المعلق)

بالكامل فى المعركة للهجوم على مؤخرة العدو وكانت خطة الهجوم كالتالى :

فى الوسط دفع الآلاى الثامن المدرع. وعلى اليمين دفع الآلاى الخامس المدرع وعلى اليسار دفعت القوات الإيطالية، إلا أن هذه القوات سرعان ما واجهتها غلالة قوية من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات من قوات جنوب أفريقيا[1] التى أخذت تطلق نيرانها بشدة . وواصلت المدفعية من جميع الأعيرة والأنواع إطلاق النيران لإقامة غلالة من النيران أمام القوات المحورية المهاجمة وكان من المستحيل اختراق هذا الحائط من النيران ، وسرعان ما انفجرت الدبابات واحدة بعد الأخرى .

وتحملت السرية الثامنة من الآلاى المدرع الثامن خسائر فادحة . وقد تمكن قائد السرية الملازم «وث» بإصراره من الوصول إلى مواقع العدو بثبات فى دبابة قيادته ثم سقط قتيلا بين ذراعى رامى الدبابة الرقيب هاجوك بعد إصابته بطلقة فى رأسه . وعندما حاول الملازم ليستمان قائد القول الثانى أن يحل محله فى القيادة لم يتلق جوابا من دبابة القائد القتيل فقد حطمها مدفع ذاتى الحركة من عيار ٤٠ مم وتمكن ليستمان من إنقاذ طاقم الدبابة عدا الملازم القتيل ورامى المدفع إلا أنه سرعان ما أصيب هو الآخر بطلقة من العدو . وكذلك المعمر باكيسن الذى كان بجواره فسقط قتيلا . وهذا كان مصير أحد القادة ورجاله غير أنه لم يكن هو الوحيد، فقد كانت هناك حوادث مماثلة فى الآلاى الثامن . فبالإضافة للملازمين وث وليستمان سقط قادة آخرون من قادة الدبابات وهم الملازمون كرامر وآدم وبيسات ومعهم جنودهم .

وكان من الضرورى تجميع المدفعية لإسكات المدفعية البريطانية الواحدة بعد الآخرى.

ولم يتمكن الألمان من اختراق خطوط العدو فى عدة مواقع إلا بعد العصر . ثم تقدمت القوات الألمانية المدرعة إلى الأمام ، وباستخدام كل الحيل فى المعركة المتحركة تمكن الألمان من ضغط العدو وحصره فى قطاع ضيق ، ولم تتمكن الطلعة التى خرجت من حامية طبرق من نجدتهم ، ولم يجدوا أمامهم غير الانسحاب أو الأسر ، وقد تم أسر ما يزيد عن ألف مقاتل[2] .

---

(١) لقد استطاع اللواء ٥ جنوب أفريقيا احتلال موقع تبة سيدى رزق .

(٢) لقد تم أسر وإبادة اللواء ٥ جنوب أفريقيا تماما فى هذه المعركة .

وفى هذا الوقت حاصرت الدبابات البريطانية مصفحة القيادة مورتيز، وكان الجالس فيها كلا من الجنرال كرוويل قائد الفيلق الألمانى ومعه الجنرال بايرلاين . وكان من الصعب تمييز الصليب الألمانى المعكوف المرسوم على سيارة قائد الفيلق بسبب التراب والرمال التى غطته ، وكان البريطانيون فى حيرة . وقال الجنرال بايرلاين: « إن زائرينا لم يتأكدوا منا ، فقد هبط الجنود البريطانيون من دباباتهم وتوجهوا إلى عربتنا وأخذوا يقرعونها». وفتح الجنرال كروويل نافذة السيارة ونظر فى وجه الجندى البريطانى الذى بدا عليه الذهول لمقابلته لجنرال ألمانى فى هذه الحالة غير الطبيعية ، وكان يبدو أن مصيرنا قد تقرر بالأسر إلا أنه فى تلك اللحظة سمع إطلاق نيران من اتجاه الخلف فانبطحنا أرضًا ، فكان هناك مدفع ألمانى مضاد للطائرات من عيار ٢٠ مم يطلق نيرانه على جنود الدبابات المعادية الذين كانوا يتجولون على أقدامهم . فسارعوا بالقفز إلى دباباتهم واختفوا بمنتهى السرعة نحو الجنوب ومرة أخرى خرجت هيئة قيادة الفيلق الأفريقى من مأزق خطير .

٤ - المقابلة العاصفة بين الجنرالين :

وفى نفس الوقت كانت المنطقة جنوب سيدى رزق قد تحولت إلى بحر من الدخان والتراب وكانت الرؤية محدودة ونتيجة لذلك تمكنت الدبابات والمدافع البريطانية أن تتسلل خارج حلقة الحصار نحو الجنوب والشرق ، وبذلك نجت من الأسر ، إلا أن الجزء الأكبر من قوات العدو بقى محاصراً وعندما هبط المساء كانت المعركة لم تنته بعد، فقد كانت مئات الدبابات والسيارات والمدافع تحترق ونيرانها تضىء ميدان المعركة .

ولكن بعد منتصف الليل يظهر الموقف بجلاء ، فقد أمكن حصر الخسائر والسيطرة على القوات ومعرفة حقيقة الموقف .

وكانت نتيجة المعركة إزالة الخطر المحدق بالقوات الألمانية المحاصرة لطبرق وتدمير جانب كبير من مدرعات العدو والتأثير المعنوى الكبير عليها. وقد تمكن الجنرال كروويل من قلب خطط البريطانيين جيدة التحضير رأساً على عقب .

وفى صباح ٢٤ نوفمبر قدم كروويل تقريره إلى روميل ويتضمن أن العدو فى سيدى رزق قد قضى عليه ولم تتمكن سوى قوات قليلة من الفرار . حقًا أنه نصر لا يصدق لأنه تم بالرغم من الفرص المتاحة للعدو والتفوق العددى لديه على الألمان.

وبالرغم من ذلك فإن التاريخ رفض أن يعترف بنصر الجنرال كروويل

وقواته من الفيلق الأفريقى . ولم يترك روميل هذا النصر دون أن يلهمه بفكرة جريئة . فقد وضع بسرعة لمهاجمة العدو فى اتجاه الشرق لتحطيم القوات النيوزيلندية والهندية قبل أن تنضم إليها القوات البريطانية الرئيسية . وفى نفس الوقت كان يريد الاستيلاء على حباطة ومادالينا فى مؤخرة البريطانيين لقطع خطوط إمداداتهم .

وقال روميل: « **يجب استغلال تأثير الصدمة التى لحقت بالعدو من هزيمته وعلينا أن نتقدم بقوات كبيرة إلى سيدى عمر** . إلا أن رئيس أركان حربه المقدم وستفال حذره مما سيترتب على ذلك ، ولكن روميل لم يكن بالرجل الذى يرجع عن تصميمه فقد قرر أن فرصته الكبرى فى تحطيم العدو وطرق أبواب النصر . (انظر اللوحة رقم ١١) .

وقد اشتركت كل قواته الميكانيكية فى العملية ، فترك قوة ضعيفة شمال طبرق تحت قيادة قائد مدفعية الفيلق الأفريقى الجنرال بوتشر ، مع احتلال حلقة الحصار حول طبرق بقوات غير ميكانيكية . وكتب آلان مورهيد فقال : « وكان هذا القرار من أجرأ القرارات التى اتخذها روميل » .

فبينما كانت الدبابات مشغولة فى أشد معارك الصحراء عنفا، قرر روميل أن يغامر **بطريقة فيها نوع من العبقرية وتتضمن أجرأ أنواع الخداع المحتملة** .

غير أن الخطة الجريئة بنيت على أساس أن القوات البريطانية الرئيسية أمام طبرق قد تم هزيمتها وأنها تتراجع وهى مهزومة ، فهل معنى هذا أن القادة البريطانيين قد أعلنوا يأسهم؟

وقد واجه الجنرال كننجهام ضباط قيادته وهو مملوء بالمرارة وقد حطمه الإرهاق ، فقد كان على وشك أن ييأس من فشل الخطة البريطانية ، فقد كانت الخطة مبنية على أساس خريطة روميل المستولى عليها ، وكان عليه أن يفك الحصار عن طبرق ويحاصر القوات المحورية بحركة كماشة فى المنطقة الممتدة بين السلوم وسيدى عمر وطبرق حيث يتم تحطيمها ، وفكر أن أفضل الحلول الآن هو إنهاء المعركة والعودة إلى مصر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مع إقامة آخر خط من خطوط الدفاع على مشارف النيل .

ونظر الضباط إلى قائدهم ، وكان الصغار منهم ينتقدون القيادة البريطانية غير المرنة وأبدوا ملاحظات مريرة فقالوا : « إن سلاح الجو الملكى فى أوج قوته ،

والبحرية تسيطر على البحر ونحن أكثر عدداً فى الرجال ومع ذلك نخسر المعركة؟ فلماذا نخسرها ؟ لأننا نحارب متفرقين لأننا لا نخاطر فى حربنا مثلما يفعل روميل».

فعندما بدأت المعركة مع الفرقة السابعة المدرعة وفرقة جنوب أفريقيا لم تتقدم الفرقة النيوزيلندية ولا لواء الحرس [1] لمساعدتهم ، وعندما تورط النيوزيلنديون فى القتال لم تصل القوات الهندية لتعزيزهم ، هكذا كانت الحال منذ معركة العقيلة .

وكان من السهل فهم اليأس الذى سيطر على الضباط البريطانيين ، وبعد عدة ساعات من قرار كننجهام بالانسحاب وصل الجنرال أوكنلك قادما من القاهرة بالطائرة .

وكانت مقابلة عاصفة بين القائدين ، ورفض أوكنلك كل الحجج التى أبداها كننجهام وأعلن أن هذه المعركة لا يمكن أن تكون نتيجتها الهزيمة ، لأن ذلك معناه نهاية الحرب فى شمال أفريقيا ، بل يمكن أن تعنى هزيمة بريطانيا أيضًا على ضفاف النيل ، ولقد كان أوكنلك ذلك الجنرال البريطانى (ذو الشكيمة القوية) مثل كثير من رجال التاريخ البريطانى عند حدوث الأزمات ، فقد أيقظت هذه المعركة فى نفسه ناراً متقدة ، وكثيراً ما تظهر هذه الحالة فى التاريخ البريطانى عند التعرض للشدائد ، وفى هذه اللحظة الحرجة ألقى بالحرص جانباً وقرر التضحية بآخر رجل وآخر مدفع لتجنب الهزيمة ، فيجب على الجيش الثامن أن يخرج من هذه المحنة وإلا فليذهب إلى الجحيم .

وقام الجنرال أوكنلك بإعفاء الجنرال كننجهام من قيادة الجيش الثامن فى الميدان ، وهو موقف خطير ومثير للقلق ، وعين محله الجنرال ريتشى وهو رجل تعلم فى المدرسة القديمة التقليدية للاستراتيجية البريطانية إلا أنه أمام أمر أوكنلك الصارم لم يكن له خيار ، وكان من المحتم عليه القيام بالمغامرة بكل شيء . فأصدر أوامره بإيقاف انسحاب الفرقة السابعة المدرعة ، وبذل كل ما فى وسعه لكى يعيد إلى الجنود روح القتال حتى يمكنهم الصمود أمام القوات الألمانية شديدة المراس وبذلك يستطيع إعادة تنظيم القوات البريطانية .

---

(١) اللواء ٢٢ حرس .

(المعلق)

ولم يأل كل من ريتشي وأوكنلك جهداً للوصول إلى غرضهما ، فقد شكلا ما يعرف باسم طوابير جوك [١] وهى قوات العاصفة شكلت تحت قيادة العميد جوك كامبل وكتب آلان مورهيد المراسل البريطاني عن هذه الوحدات فقال : «كانت الأوامر التى تعطى لكل قادة هذه الوحدات هو التوجه إلى مؤخرة العدو ومهاجمة كل شيء هناك وهكذا ولدت قوات العاصفة فى الصحراء ، وبمجرد تجميعها أرسلها أوكنلك فوراً إلى الصحراء .

وفى خلال يومين أو ثلاثة كان لديه عشرون أو أكثر من هذه المجموعات خلف خطوط العدو تحرق وتدمر ثم تنطلق هاربة ثم تعود لكى تقيم الكمائن فى الوديان للدبابات الألمانية وتحطم خطوط التليفونات وتهاجم قوافل التموين والمطارات وتحصل على المعلومات ، وكان هذا كسباً للوقت حتى يتمكن الجيش الثامن من إعادة تنظيم قواته ، غير أن أعمالهم جاءت بنتائج سريعة وكان لها تأثير عكسى فعال ، ولقد كان للألمان قوات مماثلة لهذه القوات ، وهى قوات البراندير جير وقد انتقد البريطانيون أعمال هذه القوات بشدة بعد الحرب وكانت هذه القوات هى القوات المضادة لطوابير جوك كامبل .

وقد عاملت مجموعة الصحراء بعيدة المدى القوات المعادية على أساس عين بعين وسن بسن . وتمكنت هذه القوات من الوصول فى مهامها الجريئة إلى مشارف القاهرة ، وأن تعمل خلف قيادات العدو . وتنسف الكبارى وتنشئ مراكز التنصت وتنزل الخسائر الفادحة بالعدو خلف خطوطه.

ولقد تمكنت طوابير جوك كامبل من إنزال خسائر فادحة بالوحدات الإيطالية خلف الخطوط ونتيجة لذلك فإن الإيطاليين كانوا قساة فى معاملاتهم لرجال هذه القوات عند اصطدامهم بهم ».

٥ - الصحراء تمتص كميات كبيرة من الدماء : (انظر اللوحة رقم ١١)

وفى ذات يوم كان العريف «جيرهارد فاريدانك» يقوم بنقل الماء من أحد الآبار فى درنة فطلب منه أعرابى شاب أن ينقله معه فى سيارته الفولكس واجن . فرفض العريف لأن ذلك مخالف للتعليمات . وعند ذلك أخرج الفتى من جيبه

---

(١) طوابير جوك : عبارة عن قوات خفيفة الحركة مشكلة من عدد من الدبابات والعربات المدرعة والمشاة الميكانيكية وتحمل معها إمدادات من وقود وذخيرة وتعيينات تكفيها لمدة أسبوع وكانت تغير على المناطق الخلفية لروميل . (المعلق)

تصريح مرور موقعا عليه من روميل يطلب فيه منح حامله كل التسهيلات والمساعدات لأنه فى خدمة الألمان . وبالطبع أخذه معه فى العربة .

وفى الطريق إلى السلوم أوقف العربة بعض رجال الشرطة العسكرية الإيطاليين ونظر الإيطاليون بريبة إلى الشاب الأعرابى وأخرجوه من السيارة . فاحتج الشاب الأسمر بقوة ودعا العريف الألمانى لحمايته ، غير أن الإيطاليين رفضوا ، ثم فتشوه ووجدوا ما يبحثون عنه ، فقد كان يربط على فخذه حقيبة من الجلد المراكشي مملوءة بالجنيهات المصرية والليرات الإيطالية وتحقيق شخصية بريطانياً خاصاً برجال طوابير جوك كامبل التى تعمل خلف خطوط العدو .

وركب العريف الألمانى سيارته وهو يرتجف ، فلقد حمل معه ضيفا كان يعتقد أنه فى خدمتهم ثم تبين أنه جاسوس يعمل فى خدمة البريطانيين . وقاد سيارته وسرعان ما سمع صوت ثلاث طلقات . وكانت هذه مأساة من المآسى التى تحدث على هامش الحروب ... مأساة على جانب الطريق ... واستمرت الدبابات فى سيرها والقافلة فى طريقها لأن الصحراء لها قدرة على امتصاص كميات كبيرة من الدماء .

وكانت رحى المعركة لا تزال دائرة حول طبرق . فقد اعتقد روميل أنه هزم البريطانيين ولذا بدأ غارته الجريئة . وفى صباح يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٤١ بعد أن أبلغه الجنرال كروويل بنجاحه فى معركة يوم الأحد ، قفز روميل إلى عربته وأحضر أركان حربه المقدم وستفال وقال له « سأتوجه إلى سيدى عمر وسوف أتولى قيادة فرقة البانزر ٢١ إلى ممر حلفاية » .

وحاول وستفال التفاهم معه ، فقد تلقى التقارير الأولى من طائرات الاستطلاع التى تتضمن أن البريطانيين قد استولوا على بير الجوبى ولكن روميل لم يستمع إليه . فقد جذب رئيس أركان حربه جوس إلى عربته وقادها بأقصى سرعة. وتابع سيره بسرعته الفائقة اتجاه الحدود المصرية فى طريقه لقوات العدو المهزومة.

فقد كان ينوى القيام بهجوم مباغت على الفرقة النيوزيلندية الثانية والفرقة الهندية الرابعة فى منطقة السلوم قبل أن تستطيعا الانضمام إلى القوات المنسحبة . وأكثر من ذلك كان يريد عبور منطقة الحدود المصرية ومهاجمة حباطة ومادالينا وفى نفس الوقت تدمير مركز قيادة الجيش الثامن والمستودعات وقواعد تموينه وكان يأمل بهجومه المباغت هذا أن يقطع طريق إمداد الجيش الثامن كله فى الخلف ثم

يدمره بعد ذلك .

وقاد روميل سيارته بجنون أمام فرقتى البانزر ١٥ ، ٢١ إلى سيدى عمر وكان يتراقص أمام عينيه سراب الدخول إلى مصر والوصول إلى قناة السويس والنيل والنصر العظيم ، ولم يكن يعلم أن أوكنلك قد أوقف الانسحاب أمام طبرق .

وقاد روميل عربته بسرعة ٥٠ ميلا فى الساعة ، وتبعه ضباط الإشارة الملحقون بقيادته إلا أن عربة اللاسلكى تعطلت فى الطريق بينما واصل روميل سيره بدونها . وفى نفس الوقت وصل روميل فى المساء إلى سيدى عمر وكان القادة البريطانيون فى حيرة وذهول . وكانوا يتساءلون: من أين جاء هؤلاء الألمان؟ وما هو غرضهم؟ وما هى غايتهم ؟

ثم دفع روميل الفرقة ٢١ بانزر إلى سيدى سليمان لعزل ممر حلفاية من الشرق . وقاد بنفسه الفرقة خلال الأسلاك الشائكة الممتدة على الحدود عند نقطة قصر العبيد على الحدود المصرية ، ومن خلال نفس الثغرة التى عبرها البريطانيون أثناء هجومهم عليه . وأعطيت الأوامر للفرقة ١٥ بانزر بمهاجمة العدو فى سيدى عمر ومن أجل هذا الهجوم أمر روميل بانضمام آلاى البانزر الخامس على الفرقة الخامسة عشرة لتعزيزها .

غير أن المعركة لم تسر وفق الخطة الموضوعة، فقد تبين أن الفرقة الرابعة الهندية قد حفرت خنادقها وثبتت مراكزها حول سيدى عمر قبل هجوم روميل بقليل. وكانت قواته أقل من اللازم . وهكذا تجاوزت خطة روميل حد الجرأة مرة أخرى وفشل الهجوم الألمانى وتكبد آلاى البانزر الخامس خسائر فادحة . أما قائد الآلاى المحنك المقدم ستيفن فقد قتل .

وحل الليل فى الصحراء وأخذ يلمع وهج الدبابات المحترقة خلال الظلام . وتحيط بها جثث الأعداء والأصدقاء على حد سواء . وفى نفس الوقت صاحب روميل الفرقة ٢١ شمالا لمهاجمة النيوزيلنديين الذين كانوا يهاجمون جبهة السلوم . وكان على الجنرال فون رافنشتين قائد الفرقة أن يتوغل بعمق فى مصر بعد إتمام هزيمة النيوزيلنديين .

وعاد روميل ثانية إلى سيدى عمر لينضم إلى الفرقة الخامسة عشرة . وفى أثناء الطريق تعطلت عربته . وظل القائد الألمانى لجيش البانزر الأفريقى طوال الليل ومعه الجنرال جوس وسط ميدان المعركة المتسع الضخم وكان لا يعرف مكان

قواته على وجه التحديد أو قوات أعدائه . ومن المصادفة العجيبة أن وصل بايرلاين فى عربة الجنرال كروويل إلى نفس المكان ، فرأى العربة الألمانية وصاح بايرلاين: « يا إلهى إنه روميل » ، وضحك روميل وقال: « خذونا معكم » وكان يرتجف من البرد.

ومن يعتقد أن كل شيء فى المعركة سار على خير حال فهو مخطئ لأن كروويل وبايرلاين لم يكن معهما حراس ، فقد هربا فى عربة القيادة . وكان من حسن حظ روميل أن الظروف جعلتهما يعثران عليه . وبذلك تواجد القادة الكبار لقوات المحور فى أفريقيا فى عربة واحدة ذات أرضية خشبية لا تستطيع حمايتهم من انفجار لغم من آلاف الألغام المبعثرة فى الصحراء .

وفجأة شاهدوا الدبابات ، ولم تكن دبابات ألمانية بل كانت دبابات الفرقة الرابعة الهندية ، ومن حسن الحظ أن القادة الألمان كانوا فى سيارة قد استولوا عليها قبل ذلك من البريطانيين . وبذلك لم تثر السيارة فضول الهنود ، وإلى يمينهم ويسارهم كانت الدبابات تمر على بعد ياردات قليلة يتبعها راكبو الموتوسيكلات من الهنود وأخيراً وصلوا إلى خط الأسلاك الشائكة الكثيفة الممتد على الحدود إلا أنهم لم يعثروا على ثغرة ليمروا منها ، وكان من المستحيل عبور هذا المانع .

وأصبح روميل فى حالة هياج وقال: « سوف أتولى القيادة » ودفع الياور الذى يقود السيارة جانباً وأخذ يصدر تعليماته إلى السائق قائلا: « إلى اليمين – إلى اليسار .... » غير أن حاسته الخاصة بالاتجاهات التى أصبحت أسطورة فيما بعد خانته هذه المرة . ومرة ثانية قابلت عربتهم مجموعة من الناقلات البريطانية ، وكانت عربات ثقيلة من ماركة دودج وكان الموقف فى غاية الغرابة فالقائد العام الألمانى على مرمى حجر من البريطانيين وهم لا يشعرون به . وهكذا كانت الحرب فى أفريقيا .

وبينما كان روميل فى رحلته وسط الصحراء معزولا عن مقر قيادته كانت الأمور فى طبرق قد تطورت إلى الموقف الذى خشاه وستفال **فالقوات البريطانية فى سيدى رزق قد جمعت شملها والفضل يرجع فى ذلك إلى استعادة المبادأة التى قام بها أوكنلك** وهاجمت القوات الجبهة التى أصبحت خالية بانسحاب الفيلق الأفريقى وفى نفس الوقت عاودت حامية طبرق هجومها ، واخترقت حلقة الحصار الألمانى حول طبرق وتعرضت قوات بوتشر الألمانية لنيران قاتلة . وعندما حاول وستفال

الاتصال بقيادة روميل ليخبره بالموقف لم يعثر عليه وفقد خمس طائرات اتصال ستورش فى هذه المحاولة . وأخذ عمال اللاسلكى يرسلون الإشارة تلو الأخرى ولكن ما من مجيب .

فقرر وستفال أن يتولى زمام الأمور بنفسه فأمر بعودة الفيلق الأفريقى إلى المنطقة الحرجة وهى طبرق .

وسارع عامل اللاسلكى كارل دوفرت بتوصيل الرسالة التى تلقاها إلى رئيس أركان حرب الفرقة البانزر ٢١ الرائد فريهر فون سسكند وكان رئيس أركان الحرب يقف مع الجنرال فون رافنشتين الذى كانت تلوح عليه علامات التعب والإجهاد ، وسلمه العداء الرسالة وطلب منه إيصالا ووقع فون رافنشتين الإيصال وقرأ الرسالة ونفذ ما جاء بها . وشق طريقه مع ما تبقى من دباباته القليلة مقاتلا خلال القوات النيوزيلندية إلى طبرق .

وهكذا أصبحت نبوءة روميل القائلة « بأنه يمكن إنهاء الحملة اليوم » غير صحيحة .

٦ - **الحظ يحالف روميل :**

وعندما عاد روميل وعلم بأوامر رافنشتين بعودة الفرقة ٢١ هاج وانفجر غاضباً لأنه اعتقد أنها خدعة من العدو وأن الرسالة مزورة . وعلى كل حال فعند عودته إلى مقر قيادته ودراسته للخرائط الاستراتيجية لم يعلق ولم يتكلم وأوى إلى مضجعه . وفى اليوم التالى أثنى على **أوامر وستفال فقد تحقق أنه يجب على رئيس هيئة أركان حربه أن يتخذ قرارا حاسما** ، فالحوادث قد أملت عليه هذا القرار لإنهاء المغامرة المندفعة التى أمر بها القائد العام .

أما بالنسبة لروميل فقد كان من المستحيل إعطاء مثل هذا الأمر ، بل إنه كان إزاء الموقف المتأزم سيعمل بطريقة أخرى حيال الموقف فى طبرق . وهذه نظريات محضة لأنه هو نفسه لم يعلق على هذا الموضوع فيما بعد . **وقفز روميل فى عربته مرة أخرى ، وأخذ يتجول من وحدة إلى أخرى لكى يزلل الصعاب التى أصبحت متفاقمة** واخترق خطوط العدو وعبر مطاراً يحتله البريطانيون وطورد فى عربته وأطلق عليه النار غير أن ما قاله فردريك الأكبر مرة ينطبق على ذلك الرجل روميل إذ قال: « **إن القائد الناجح لا يحتاج فقط إلى أن يكون قديرا بل يجب أن يكون ذا حظ** » وكان روميل محظوظاً.

وبسرعة قصوى عبر أحد الكثبان الرملية الصغيرة وفجأة وجد نفسه فى مستشفى للنيوزيلنديين ولم يظهر أقل أثر من الاضطراب ، فقد ترجل من عربته وأمر السائق والياور بأن يدورا بالعربة حول خيمة المستشفى لينتظرانه عند الباب الثانى للخيمة ودخل بجرأة إلى المستشفى وكان مظهره مظهر المنتصر وسلك سلوكا يدل على أن المستشفى والمنطقة المحيطة بها ما زالت فى أيدى الألمان ، وحيى ضباط الحرس والأطباء بابتهاج وسألهم هل ينقصهم شيء ، كما وعد بإرسال كميات من الأدوية فوراً.

وعندما انتهى من الزيارة حياه الأطباء البريطانيون التحية العسكرية ، وسرعان ما اختفى بسيارته ، وبعد عشر دقائق تبين للنيوزيلنديين الخدعة التى جعلها روميل تنطلى عليهم فقد وصلت إليهم سيارات نقل بريطانية ، وسرت القصة فى الصحراء مسرى النار فى الهشيم ولكن ما الفائدة من كل هذه الجرأة من جانب القادة والضباط والجنود ؟

فإن نجم النحس كان يحلق فوق الحملة التى قام بها الألمان فى نوفمبر سنة ١٩٤١ وقال الكثيرون : إن الجنرال رافنشتين كان فى اللحظة التى أعطى فيها الأوامر بالعودة كان قريبا من مستودع ضخم للإمددات البريطانية . فعلى بعد ربع ساعة من المسير كان من الممكن تدمير هذه الإمدادات ذات الحيوية البالغة مما كان سيؤدى بدوره إلى وضع أوكنلك فى مركز محفوف بالمهالك .

وظل روميل يتجاهل « أن انتصار يوم الأحد قد تحول إلى هزيمة » . فهو لم يقبل أن يتراجع الفيلق الأفريقى من جبهة طبرق فقد منح أوكنلك فرصة غير متوقعة ، وعلى كل حال فكلا الجانبين حارب بشجاعة اليائس ، لأن البريطانيين كانوا يعلمون أن هزيمتهم معناها انتصار ألمانيا فى شمال أفريقيا ، والألمان كانوا يعلمون أن الهزيمة معناها ضياع الدماء والعرق اللذين بذلا خلال عام كامل من الكفاح .

ولم تعد هناك جبهات فقد استدعى روميل كل القوات التى أرسلها إلى جبهة السلوم من أجل الكفاح أمام طبرق . ولقد دافع رجال باخ عن مواقع مقضى عليها ، غير أنهم قاتلوا كالنمور .

وفى نفس الوقت كان الجنرال فريبرج وجنوده من النيوزيلنديين قد شقوا طريقهم بأسنة الرماح من الشرق حتى طبرق . وقد صمد رجال فريبرج أمام

هجمات المدفعية والدبابات ثم تحولوا بعد ذلك إلى الهجوم، هم أنفسهم . وخلال ذلك تمكنوا من أسر الجنرال فون رافنشتين قائد الفرقة ٢١ البانزر ، وقد كتب الكثير من القصص عن هذا الحادث ولذلك سألت الجنرال نفسه لكى يعطينى صورة واضحة عما حدث .

فخلال ليلة ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤١ التقى الجنرال فون رافنشتين مع عربة القيادة الخاصة بالجنرال كروويل قائد الفيلق الأفريقى حيث أبلغه عن وصول الفرقة ٢١ المدرعة .

وبذلك أصبح تحت قيادة الجنرال كروويل فرقتان مدرعتان مرة أخرى ، وقرر على الفور استغلال الموقف فأمر الفرقتين المدرعتين بمهاجمة القوات البريطانية فى سيدى رزق فى اليوم التالى . وكان هذا الهجوم سيغير الموقف فى القطاع جنوب شرقى طبرق .

وقبل أن يعود الجنرال فون رافنشتين إلى مقر قيادته فى الفرقة ٢١ فى نفس الليلة ، كان قد اتفق على أنه فى صبيحة اليوم التالى سوف يعطى بنفسه الأوامر للفرقة ١٥ البانزر .

وعاد فون رافنشتين إلى فرقته بمنتهى السرعة وكانت أمامه الخريطة التى حدد عليها بايرلاين بصليب مكان الفرقة الخامسة عشرة المدرعة . وكان على فون رافنشتين أن يقطع عشرة أميال بالعربة للوصول إلى الفرقة . وقاد العريف هانز كرانزكى عربة الجنرال بالطريقة القديمة التقليدية مستعينا بالبوصلة وعداد المسافة فى العربة . وكان يعاونه الرامى بيلتل وهو خباز من برلين فى الثامنة عشرة من عمره وكانت له شهرة فى الفرقة بأنه من أحسن الجنود الذين يعرفون المسالك فى الصحراء . وكانوا يطلقون عليه فى الصحراء اسم فرانزر وعلى العموم فان أفضلهم فى بعض الأحيان كان يؤسر .

وعلى ضوء الفجر شاهدوا عربات على مرمى الأفق ، وطبقا للخريطة والمسافة التى قطعت فإن هذا الموقع هو الذى أشار عليه بايرلاين بالصليب . واعتقد فون رافنشتين أن هذه العربات تابعة للفرقة الخامسة عشرة بانزر .

وفجأة أطلقت عليهم النيران من مدافع رشاشة ثقيلة من على بعد ٢٠ ياردة ، وتوقفت العربة واشتعلت فيها النيران وجرح السائق كرانزكى وترجل الجميع من العربة واختبئوا إلا أن الوقت أصبح متأخراً فقد سقطوا فى موقع من مواقع

النيوزيلنديين (قد أحسن إخفاؤه وتمويهه) وطلب منهم التسليم . وعلم الجنرال فريبرج أثناء تناوله الإفطار أن أسيره هو الجنرال الشهير فون رافنشتين قائد الفرقة ٢١ بانزر .

ولقد كان للأسير الجنرال فون رافنشتين تأثير كبير فيما بعد على ناقلة الجنود باستير البالغ حمولتها ٣٠ ألف طن ، فعلى ظهر هذه الباخرة (التى كانت من بواخر الركاب الفاخرة قبل الحرب) حوالى ١١٠٠ أسير حرب ألمانى لتنقلهم من القاهرة إلى كندا .

وكان يوجد على ظهرها طاقمها من البريطانيين ومعهم زوجات وأطفال رجال الحامية البريطانية فى الشرق الأوسط .

وقد قسمت الباخرة بالنسبة للأسرى الألمان إلى أماكن للضباط وأخرى للجنود ، وخصص للضباط السطح العلوى والأوسط . وخصص للجنرالين فون رافنشتين وشميدت الغرفة رقم ٢٩٦ على السطح . وفى الغرفة المجاورة لهما كان يوجد الدكتور ويلزمان والمساعد وينجندر والقسيس الكاثوليكى فرنز ، وكانوا جميعا من هواة لعبة الانزلاق ، وبدلا من ممارسة هوايتهم كانوا يدبرون خطة للهروب ، وكانت الأمور تبدو مشجعة ، لأن الباخرة كانت تمر خلال البحر الأحمر ولو أمكن التغلب على البحارة البريطانيين فلن يكون الأمر صعبًا ، فبمساعدة ضباط البحرية التجارية الألمان الموجودين ضمن الأسرى كان يمكن توجيه السفينة إلى سنغافورة .

وأعدت كل الترتيبات بمنتهى العناية والحرص ، فقد حصلوا على سكاكين وعملوا عصا كنوع من السلاح ، وشكلت الرجال على هيئة فرقة الكوماندوز ، وتدربوا على الأعمال الموكلة لهم . وبالطبع كان يلزم إخطار عدد كبير من الرجال المقيمين فى الطوابق السفلية بالمؤامرة . وكان على الطبيب والقسيس أن يعملا على إبلاغهم أثناء الزيارات اليومية لهم . وقد حذروا الرجال من الكلام ولكن كانت هناك مناقشات .

وشعر الحراس البريطانيون بالأمر ولاحظوا القلق والاضطراب بين رجال المشاة الألمان فدسوا رجلين من رجالهم الذين يتكلمون الألمانية وسط الأسرى الألمان ، ثم هب الإنجليز إلى العمل .

ففى يوم ١١ مارس ١٩٤٢م فى الساعة الحادية عشرة ليلا اقتحم عدد من البحارة الإنجليز الغرفة رقم ٢٦٩ ووضعوا الجنرالين فى الحبس الانفرادى ، وفى

ثلاث غرف أخرى جلس القسيس والطبيب ومساعده . وأراد البحارة الإنجليز إلقاء الجنرالين وزعماء المؤامرة فى البحر ، وسرت الشائعات فى السفينة بأن الألمان كانوا ينوون وضع النساء والأطفال فى زوارق مكشوفة وإلقاءهم فى البحر ، وطبعاً كانت هذه بعض الشائعات . وسرعان ما عاد بحارة السفينة إلى صوابهم .

وفيما بعد حاول رجال الفيلق الأفريقى فى كندا رسم خطط عديدة للهروب . وقد انتشرت هذه الروح بين الأسرى من رجال الفيلق الأفريقى الذين وجدوا معاونين لهم من الأسرى الألمان الآخرين من رجال الغواصات ورجال سلاح الطيران ، وهكذا فإن مقاتلى الصحراء حتى وهم أسرى حرب جاءوا معهم بروح المغامرة إلى معسكرات الأسر .

٧ - مفاجآت المعركة :

وجلسا فى سيارتهما الخفيفة يتناقشان فى الكون والوجود والله وأكثر من هذا فإنهما رغم الحرارة الشديدة والذباب كانا يتناقشان بحرارة ، وقال دراير : « ما من أحد يحب الموت أو يفضله، ومن المضحك أن ننتظر من أى إنسان أن يستطيع ذلك» وقد قال ذلك ردا على سؤال أحد العرفاء المتشككين: « بالطبع ما من أحد يريد الموت وحتى المسيح على الصليب ثار على الموت » .

وكان الكل يعلمون أن الملازم دراير كان قسيساً فى زمن السلم . وكان قسيساً محبوباً وله زوجة جميلة وأربعة أطفال ظرفاء كانوا يعرفونهم من صورهم الفوتوغرافية وكان دراير كذلك ضابطاً محبوباً وقديراً وممتازاً. وكان كل رجل من الوحدة يتعجب لأن مثل هذا الرجل من رجال الله يمكن أن يكون ملازماً قديراً يعرف المدافع الرشاشة حق المعرفة . وكانت له شهرة ذائعة بين رجال القوات الميكانيكية .

وسأله أحد الجنود الشبان: « هل يستطيع القسيس أن يصبح ضابطاً ويقتل؟».. فيجيب الملازم : « بالطبع، ويكفى أن تنظر إلىّ فيكون الجواب القاطع» .

«وماذا عما ورد فى الإنجيل ؟» .

وحاول دراير تفسير معنى القتل أثناء الحرب ، والقتل الذى يقصده الإنجيل إلا أن هذا الجواب لم يخرج إلى حيز الوجود فى الصحراء الأفريقية الحارقة ، ولم يعط الجواب مطلقًا لا فى ذلك اليوم ولا فيما بعد فى أفريقيا. وعلى كل حال فلم

يكن الجواب على السؤال هو جواب الملازم درابر . لأنه حدث فى ذلك الوقت وصول إنذار مفاجئ ، فلقد وصل مراسل راكب بأقصى سرعته يحمل معه أمراً بالهجوم فوراً على سيدى عزيز ولم يعد هناك وقت لاستكمال المناقشة ، فقد وصل الأمر يحمل طابع الحيوية والاستعجال .

وكان هذا هو أحد المواقف المتعددة التى حدثت كثيراً فى منطقة طبرق والسلوم بين يونية ونوفمبر ١٩٤١ . فلقد تقدمت قوات رأس الحربة البريطانية واحتلوا السلوم وسيدى عمر وشوهدت مدرعات العدو شمال وغرب كابتزو وسيدى عمر . وانتظرت الفرقة الخامسة عشرة البانزر خارج درنة طبقاً لأوامر روميل .

وصدرت الأوامر للكتيبة الثالثة والثلاثين بمهاجمة سيدى عزيز . وكانت معركة مليئة بالمفاجآت . فلقد أرسلت وحدات الاستطلاع تقاريرها بأن سيدى عزيز محتلة بقوات ضعيفة غير أنه فى نهاية المعركة أسرت الكتيبة اثنين من الجنرالات و٧٠٠ رجل و ٦٠ مدفعاً و٧٠ سيارة وكان أحد الجنرالات المأسورين هو البريجادير جنرال هارجست الذى نال شهرة فى اليونان وكريت . وكان مشمئزا مكتئبا وروحه المعنوية منخفضة لوقوعه فى الأسر .

ووقف هارجست بجوار عربته عندما مر روميل فرفع يده بالتحية فرد عليه روميل تحيته وقال له مواسياً: « ليس هناك ما يدعو للاكتئاب فلقد حاربت أنت ورجالك بمنتهى البسالة والشجاعة » .

وأمر الملازم درابر باصطحاب الجنرالين إلى البردية ، وعندما لم يعد فى تلك الليلة قلق قائده وازداد قلقه عندما أخبره العريف ويلى فوجست بأن الملازم درابر قد ركب عربة القائد الإنجليزى وتبعه السائق البريطانى وبعض الجنود . فقال الرائد آهل: « يمكنك أن تعتبر ذلك وداعا بالنسبة له فدرابر كان دائماً رجلا مثاليا ومتفائلا ويؤمن بالطبيعة البشرية ، وغالبا فالبريطانيون سوف يحولون اتجاهاتهم فى مكان ما بعد السلوم ودرابر أصبح الآن أسير حرب » .

وكان منظر العريف فوجست وهو يسمع هذا الكلام جديراً بالدراسة . فقد شعر بأن هذا الكلام قد جرح شعوره كما لو كان قد ضبط وهو يغش فى لعب الورق وقال للرائد: «إن هذا الكلام لا ينطبق على الملازم درابر يا سيدى الرائد لأنه سوف يأخذهم إلى البردية ، وأنا مستعد للرهان بحياتى على ذلك » .

وتوقف فوجست لبرهة طويلة ونظر بجد وتابع كلامه قائلا: « إن الملازم

درايز يعرف طريقه جيداً . ولم يفقد طريقه مطلقًا فى فرنسا . ويمكنه أن يتعرف على كل حفرة فى كابتزو وهو معصوب العينين . كلا يا سيدى الرائد إن أرنولد ، أرجو المعذرة يا سيدى ، إن الأمر يختلف بالنسبة للملازم درايز ولن يخدعوه فسوف يأخذ الإنجليز إلى المكان المحدد وإلا فسوف آكل هذه الأشواك » .

وكان فوجست فخورا بكلامه الطويل وحتى قائده كاد أن يقتنع فقال: «حسنا، سوف أجعلك تأكل هذه الشجرة لو كنت مخطئا حتى لو اضطررت إلى الوقوف فوق رأسك ثمانى ساعات » .

ولم يكن على العريف فوجست أن يفى برهانه ، لأنه بعد نصف ساعة وصلتهم أوامر للتحرك إلى البردية وهم فى قمة الانفعال ، وتردد حديث فوجست مع الرائد بين رجال الكتيبة ، وخيم الصمت على جنود سرية درايز فقد قالوا: «إن لم يكن قد وصل أرنولد الآن إلى البردية ومعه الجنرالان البريطانيان فسوف نأكل ....» .

والله وحده يعلم ماذا كان معدا لهم للأكل ولم يكن هناك داع للقلق فقد وصل الجنرالان إلى البردية ومعهم القسيس رغم أنه لم يعثر عليه فوراً . فقد كان جالساً مع قسيس إيطالى يتكلم فى حديث طويل عن الله والخليقة والكون . وقد نسى الحرب تماماً . وتناول بعض أكواب الكيانت التى قدمها القسيس الإيطالى وشرب درايز آخر ما فى الزجاجة .

وقد حزن رجال سريته عندما عين درايز ياورا فى الفرقة الخامسة عشرة بانزر فهذا القسيس الذى جاء من إقليم هتزكز كان رجلاً قديراً محنكا . فقد كان باستطاعته أن يشوى غزالا فى الصحراء يسيل له اللعاب . وكان فى استطاعته أيضا أن يقود دورية دون أن يعرضها لنيران العدو . ولم يطلب قط من رجاله إحضار زميل جريح من خط النار ، بل كان دائمًا يقفز بنفسه لإحضاره وهو على كامل الاستعداد فى أى لحظة لتأدية صلاة الجنازة عند دفن أى رجل .

وفى أثناء تلاوته للصلاة الجنائزية على أرواح الموتى فإن أكثر الشباب استهتارا فى السرية كان يصمت فى هذا الوقت . وكذلك كانوا يؤمنون بما يقول لأن الرجل الماثل أمامهم كان مخلصاً.

وبهذه العقيدة نفسها وبهذا الإيمان مات الملازم درايز فى سبتمبر ١٩٤٢ فى أثناء القتال العنيف الذى دار فى معركة العلمين .

وكان يذكر صلواته دائماً بصوت عالٍ كما تعوّد أن يقولها أمام رجاله: «واغفر لنا خطايانا» .

ولماذا أذكر هذه القصة وهى حدث صغير فى تاريخ الحرب ؟ ليس لكى أخفف من فظائع الحرب أو أحول اهتمام القارئ عن فظاعتها وقسوتها بقصة إنسانية . **ولكن ذكرتها لمجرد أن أظهر أن الحرب فى شمال أفريقيا رغم كل شىء كانت فيها نواح إنسانية ما زالت باقية ، فالعدو والصديق على حد سواء كانا تحت سيطرة الصحراء . وكانت الحرب لا تزيد على أنها مغامرة جريئة وكانت ضراوة الصحراء وقسوتها هى التى حددت ووضعت المقاييس والقيم ، غير أن روح الجنود الذين قاتلوا فيها هى التى قررت وأعملت هذه المقاييس ويجب أن تبقى ، وبالطبع فإن ذلك لم يكن دائما .**

ففى الثانى من ديسمبر ١٩٤١ أرسل روميل البرقية التالية إلى مقر قيادة هتلر فى راستنبرج: « فى القتال العنيف الذى استمر من ١٨ نوفمبر إلى أول ديسمبر دمرنا للعدو ٤١٨ دبابة وعربة استطلاع ، كما أسقطنا له ٢٧ طائرة ، وكميات الغنائم التى أخذت من الأسلحة والذخائر والعربات كانت كبيرة وزاد عدد الأسرى على ٩ آلاف، منهم ٣ من الجنرالات ، وتعطى هذه الأرقام تقريراً كاملا عما حدث فى الأيام العصيبة فيما بين ١٨ نوفمبر وأول ديسمبر فى شمال أفريقيا .

غير أن المأساة لم تنته بعد، فقد كان روميل وأوكنلك يواجهان بعضهما كأنهما متصارعان من أجل طبرق ... وهى حجر الزاوية فى الاستيلاء على مصر. وجاءت تقارير الاستطلاع تفيد بأن البريطانيين يحضرون مزيداً من الجنود والمعدات . وحشد أوكنلك قوات قوية حول موقع بير الجوبى لانتزاع طبرق من براثن الألمان .

وكان رد روميل على ذلك هو الهجوم ، فلقد أخلى القطاع الشرقى من محيط طبرق لكى يوفر القوات .

وفى ليلة ٤ – ٥ ديسمبر تقدم الفيلق الأفريقى غرباً من خلال الثغرة البالغ اتساعها ثلاثة آلاف ياردة بين موقع الدودة وسيدى رزق وكان من المقرر أن تكون الضربة بمعاونة الفيلق الإيطالى [1] وكان واجبه التقدم من الشمال الشرقى ، ولكن

---

(١) الفيلق الإيطالى ٢٠ الخفيف .

(المعلق)

نظراً لعدم استعداد الإيطاليين ولعدم حشدهم لقواته للهجوم اضطر الفيلق الأفريقى للقيام بالضربة بمفرده ؛ وذلك فى منتصف نهار ٥ ديسمبر . ولم ينضم على الفيلق الأفريقى من القوات الإيطالية سوى فرقة الشباب الفاشست القوية فى الشمال الغربى من بير الجوبى واصطدمت القوات المهاجمة أولا بلواء الحرس البريطانى [1] ثم بالفرقة السابعة المدرعة التى أعيد تشكيلها ، وظهرت الوحدات التى اعتقد روميل أنها قد هزمت مرة أخرى فى كامل قوتها فى ميدان المعركة ، وهكذا ظهرت معجزة التعزيزات والإمدادات البريطانية .

وبينما كان الفيلق الأفريقى منهمكا فى القتال العنيف عند بير الجوبى قامت الفرقة ٧٠ مشاة بريطانية بالخروج من طبرق وهاجمت القوات الألمانية الإيطالية الضعيفة من الخلف ، واستولت الفرقة على الهيئات الحيوية بين موقعى الدودة وبلحامد وأصبحت قوات روميل تحت ضغط عنيف وبالرغم من ذلك حاول روميل أن يحدث تحولا فى المعركة فطلب من ضباطه ورجاله أن يبذلوا مجهوداً فوق طاقة البشر .

٨ - أين جامبارا :

وفى السادس من ديسمبر ١٩٤١ كان الفيلق الأفريقى مشتبكاً فى القتال مرة أخرى ، فإذا لم ينجح فى رد العدو فإن الهزيمة الكبرى كانت من المستحيل تجنبها. وقام الجنرال كروويل بتشديد الهجوم بفرقتى ١٥ ، ٢١ إلا أن فرقتى: آريتى المدرعة وتريستا الإيطاليتين لم تظهرا فى الميدان لتشتركا فى المعركة .

فقد قرر القادة الإيطاليون أن رجالهم قد أنهكهم القتال ولم يعد فى استطاعتهم الاشتراك فى المعركة . فقد كان من السهل لو قام الإيطاليون بالمساعدة فى هذه المعركة أن يقلب ميزان المعركة فى صالح الألمان . فقد تراجع البريطانيون إلى بير الجوبى بسبب الضربات العنيفة التى كالها لهم الفيلق الأفريقى وذلك لكى يتجنبوا التطويق إلا أن الألمان كان ينقصهم الجنود وكان على الإيطاليين أن يكونوا فى المعركة فقط . ولم يطلب منهم القتال بل مجرد تأمين الجناحين للقوات المهاجمة وإحكام حلقة الحصار حول القوات البريطانية.

---

(١) اللواء ٢٢ حرس البريطانى . (المعلق)

ولاحت الفرصة أمام الجنرال كروويل وهى الفرصة الكبيرة والأخيرة واستمر يرسل البرقيات والإشارات إلى روميل وإلى الفيلق الإيطالى وقائده جامبارا فقد توسل واستجدى وأمر وأرسل المرة تلو المرة: « أين جامبارا؟ » وتكدست الرسائل دون فائدة فلم يظهر جامبارا ولا فيلقه فى ساحة المعركة وظهرت المرارة والغضب على وجوه الضباط الألمان . وكان من الحكمة فى تلك الأيام عدم اقتراب الإيطاليين منهم .

وفى السابع من ديسمبر كانت المعركة ما زالت مشتعلة وكان روميل معرضا لخطر التطويق من الجنب بواسطة القوات البريطانية المتفوقة . وأخذت الدبابات تتوقف واحدة تلو الأخرى ، إما لتلفها الكامل أو لاشتعال النيران فيها أو لخلوها من الوقود .

وقتل الجنرال نيومان سيلكو قائد الفرقة البانزر ١٥ أثناء وقوفه فى برج دبابة القيادة وكان من ألمع القادة فى حرب الصحراء . وكان الجنرال شخصا محبوبا ويحظى باحترام وافر من رجاله وقد عرف الجميع القصة التى حدثت له قبل مقتله بأيام . فقد كان على الألمان الاستيلاء على أحد مستودعات التموين البريطانية وشقت الفرقة ١٥ طريقها إلى المستودع حتى أصبحت على بعد ٢٠٠ ياردة منه . وترجلت المشاة الميكانيكية وهاجمت الموقع وهى تسير خلف الدبابات مباشرة ثم وقعت القوات تحت وطأة نيران حامية من المدفعية المضادة للدبابات المعادية .

وتفرق الرجال كل يبحث عن ساتر .

وكان الجنرال نيومان كعادته فى برج دبابته فى الخط الأول يراقب المعركة.

وناداه أحد رجال المشاة دون أن يلاحظ دبابة القيادة أو يعرف أنه الجنرال: «بحق الله يا رجل . اقفل برج الدبابة » وقال الجنرال لنفسه : «إنه أحد المساعدين العابثين» .

وعندما اضطر رجل المشاة مرة أخرى إلى الاستتار من النيران المؤثرة قرب الدبابة ، نادى على الجنرال مرة أخرى قائلا: « بحق المسيح . أغلق الغطاء . وإلا فسوف تقتل » .

وكما لو كان كلامه فى حاجة إلى تأييد فقد انفجرت قنبلة بالقرب من مقدمة الدبابة ، مما جعل الرجل يدفن نفسه فى الأرض . وفى هذه اللحظة صاح الجنرال: « تحركوا خارج هذه الغلالة من النيران » فرد الجندى: «فكرة طيبة يمكنك أن تقدم نفسك إلىّ فيما بعد وتشاركنى فى الغنيمة التى سنحصل عليها» .

واستولى الألمان على الموقع القوى . وكان العريف بوتاث هو نفس الرجل الذى كان يخاطب الجنرال وكان من أمهر الجنود فى الحصول على الغنائم ، وكان من الرجال الأوائل الذين اقتحموا الموقع المستولى عليه . وزيادة على ذلك فكان عمله جمع الغنائم . حيث كان لديه سرية واجبها جمع الغنائم . وكان بوتاث عبقريا فى الوصول إلى ما يريده . فقد كانت لديه حاسة سادسة للوصول إلى أحسن السيارات الجديدة المستولى عليها من العدو . وكذلك المخزون من المياه والوقود والأطعمة . وكان بوتاث قد استولى على أحسن سيارة خفيفة وجدها وحملها فى غاية السرعة بما حصل عليه قبل أن يدوى نفير الجمع بعد المعركة .

وفى هذه اللحظة جاء الجنرال نيومان ونادى على قائد السرية الأولى وقال له ضاحكا: «يجب علىّ أن أقدم نفسى إلى أحد رجالك الذين يجمعون الغنائم » .

وأجاب الملازم بهر: «إنه لا شك بوتاث» ، ثم نودى عليه: « قدم نفسك إلى قائد السرية » ، وظهر بوتاث وكان يبدو عليه الخوف وأى جندى لا بد أن تنتابه الشكوك عندما يطلب منه أن يقدم نفسه إلى قائده؟ وعرفه الجنرال نيومان على الفور وقال له: « أين الغنيمة التى وعدتنى بها يا عريف؟ » ، واعتذر بوتاث بارتباك وكان على وشك المضى فى القول إنه لم يلاحظ الجنرال وهو فى الدبابة فقاطعه الجنرال قائلا: « إن هذا ليس هو السؤال ولكن ما أريده هو الغنيمة التى وعدتنى بها» وقال بوتاث: « سأحضرها فوراً يا سيدى الجنرال» .

وسرعان ما اختفى وعاد مع ثلاثة من رفاقه حاملين حملا من الشيكولاتة والسجائر واللحوم المحفوظة . وسألهم الجنرال « هل لديكم ما يكفيكم منها ؟ » وظهرت على وجوه الرجال منتهى الدهشة ، وكان معنى نظراتهم أنه لا يوجد جندى فى العالم مغفل لدرجة أنه يعطى قائده كل ما استولى عليه دون أن يحتفظ لنفسه ما يكفيه . وفهم الجنرال نيومان وأخذ غنيمته وسار فى طريقه وعلى وجهه

ابتسامة عريضة. ولم يعش الجنرال طويلا لكى يستمتع بكل ما أخذه فقد قتل بعدها بوقت قصير . أما بوتاث فقد سقط قتيلا هو الآخر بعد ستة شهور وهو يقود أحد المدافع ذاتية الحركة يوم أول يونية ١٩٤٢ .

وفى الخامس عشر من ديسمبر أرسل روميل تقريره إلى القيادة العليا يقول فيه: « بعد أربعة أسابيع من المعارك المتصلة والخسائر الفادحة رغم الأعمال البطولية الفردية فقد ضعفت القوة القتالية فى الجنود لعدم وصول الإمدادات من المعدات والذخائر . وكان فى نيتى أن أدافع عن قطاع الغزالة إلا أنه لتفادى التطويق والتدمير من عدو متفوق ، فالانسحاب لا مناص منه عن طريق المخيلى ودرنة فى ليلة ١٦ - ١٧ ديسمبر » .

ولا يمكن تسجيل الانسحاب من برقة الذى استغرق الاستيلاء عليها ثمانية شهور من القتال الدامى كمجرد حادث من حوادث الحرب وتاريخها ، لأن هذا الانسحاب يعتبر دراسة استراتيجية مفيدة للباحث العسكرى ويجب أن تروى قصص هذه الأيام المفجعة من نهاية ١٩٤١ بواسطة الرجال الذين أكرهوا على الانسحاب فوق الطرق المتربة وهم يقاتلون يومًا بعد يوم ويقطعون المسافات الطويلة خلال الليل وهم فريسة تحت رحمة العواصف الرملية والحر اللافح والبرد القارس ، وفى معارك متصلة طوال الوقت ولأيام طويلة بدون طعام ووقودهم محدود ، وأسوأ من هذا كله ندرة المياه . ولذا فليس من العجيب أن يعاد تنظيم بعض الوحدات من جديد لاضطرار وحدات عديدة إلى الانضمام إلى بعضها .

فقد سأل الرائد كريبل (أركان حرب (١) عمليات فرقة البانزر الخامسة عشرة) عن قوة كتيبة المشاة الميكانيكية فى الفرقة بعد المعارك فكان الجواب: «أنها تتكون من خمسة ضباط و ١٤ ضابط صف و ٥٨ جنديا وثلاثة مدافع ذاتية الحركة وعشر سيارات فولكس واجن وخمس سيارات نقل ثقيلة وستة موتوسيكلات » .

وسأل الرائد: « هل هذا كل شيء ». وأجاب الملازم كوردل: « نعم يا سيدى الرائد هذا كل شيء» .

وكانت هذه الكتيبة منذ أسابيع مكونة من ٤٨٠ رجل ... وكان المفقودون منهم جاثمين فى قبورهم فى سيدى رزق أو فى السلوم أو بعيداً هناك فى الصحراء

بين طبرق وسيدى عمر ، أو أخذوا أسرى .

والتفت الرائد كريبل إلى المقدم باليرسند وقال له: « إن قائد الفرقة يرغب فى عدم استخدام المشاة الميكانيكية منذ الآن كحرس مؤخرة ، أما الباقون منهم فيجب إعادة تنظيمهم » . فأجاب المقدم باليرسند: « ولكنهم يجب أن يواصلوا عملهم اليومى كحرس مؤخرة ولو لمرة واحدة فقط » .

٩ - العربات الهزيلة :

وصدرت الأوامر بأن السلوم يجب أن تقاوم حتى الفجر . وكان على المشاة الميكانيكية أن تعمل كحرس مؤخرة وتغطى الانسحاب وتصد العدو قدر الإمكان ثم تنسحب إذا أمكنها ذلك . والسلوم تقع فى الشرق من بنى غازى . وعندما عبرتها المشاة الميكانيكية التى تشكل وحدة المؤخرة كان البريطانيون فى أعقابهم .

وكان لديهم الوقت الكافى للحصول على حاجاتهم من التموين والذخيرة والوقود قبل نسف المستودعات . وارتفعت أعمدة الدخان الكثيفة عالية إلى كبد السماء . ودمرت مواد تقدر بملايين الجنيهات . ووقف الملازم كوردل الذى أمضى سنتين يدرس الفلسفة فى الجامعة قبل أن يلتحق بالجيش مع الملازم دراير والملازم سيرفاس على الطريق المسمى بطريق بالبو ومعهم ما تبقى من الكتيبة . وقالوا: «علينا أن نفعل ما فعلناه بالأمس وهو أن نحتفظ بالبلدة حتى الفجر » وقال كوردل: «هذا إن لم يكن قد احتلها البريطانيون فعلا » وقاد الملازم سيرفاس الطابور المكون من بعض المدافع ذاتية الحركة التى استولوا عليها من البريطانيين وعربة ثقيلة فيها جنود المدافع الرشاشة وموتوسيكلين تابعين لرجال المراسلات .

وقدم العريف روج تقريره بعد عودته من دورية الاستطلاع بأن السلوم خالية من العدو . وكانت السرية الحادية عشرة ، من آلاى المشاة رقم ٣٦١ قد اتخذت موقعا دفاعيا فى السلوم ، ومعها دبابة بانزر مارك ٤ محطمة الجنزير وكانت تعمل كمدفعية للسرية . وقال روج: « إن رائحة المكان تشبه رائحة صالون الحلاقة » .

ولم يكن هذا غريباً ففى بنى غازى اكتشفوا مستودعاً لم يدمر بعد مملوءاً بالصابون وأدوات الزينة . وقد ملأ الجنود حقائبهم وحمل كل رجل ما لا يقل عن

عشر فرش أسنان وما يكفيه مدى الحياة من الصابون إلى جانب ماء الكولونيا . وهذه الأسلاب التى استولى عليها الألمان كانت من الغنائم البريطانية . والآن جلسوا فى خنادقهم مسرورين بما حصلوا عليه .

وجاء أمر جديد: « على كتيبة المشاة الميكانيكية أن تؤمن منحدرات الجبل الواقعة فى جنوب غرب السلوم » .

وصاح قائد الكتيبة أثناء مغادرة السرية: « إن الله فى عونكم وسوف نأتى وننقلكم لو أمكننا ذلك » وكان أمل السرية فى النجاة من الأسر ضعيفًا . وكان الجبل فى السلوم يمتد لأكثر من عشرة أميال فى الصحراء . وطبقًا للخرائط كان هناك مدقان يؤديان إلى أعلى المنحدر الوعر . وعندما دخلت الكتيبة قرية السلوم قبل الغسق بقليل وجدت إحدى السرايا من الآلاى ٣٦١ مسيطرة على السهل أمام الجبل. وحيث إنهم لم يكن لديهم وسائل نقل عملوا كقوات حرس للمؤخرة .

وأرسل قائد السرية يقول: « إن الجانب الآخر من الجبل خالٍ من الأعداء وعربات الاستطلاع والدبابات البريطانية » .

وعندما حاول الملازم سيرفاس استكشاف الطريق للوصول إلى أعلى الجبل قابلته عربة استطلاع بريطانية قادمة من الاتجاه المضاد . وكانت المقابلة مفاجأة والنتيجة متوقفة على من يطلق النار أولا . وكان سيرفاس هو الفائز وأغلق الطريق على عربتين أخريين ، وتحتم عليه العودة لأنه رأى وحدة استطلاع بريطانية تشق طريقها صاعدة إلى أعلى الجبل .

وقال المساعد فردريك: « إن الأمور ستسوء فى الصباح لأننا سنكون أهدافا ثابتة لهؤلاء البريطانيين القادمين من أعلى الجبل ». وكان لدى فردريك مدفع رشاش ثقيل . وأخفى الألمان العربات فى منخفض من الأرض ودفعت نقطة ملاحظة للأمام على حافة الجبل ، أما باقى الجنود فقد انتشروا فى الأمام على هيئة نصف دائرة .

وتلقت السرية العاشرة أوامر بالانسحاب والاتجاه إلى الشمال الغربى حتى تصل إلى طريق بالبو وبذلك تكون قد نجت . واتجه الملازم كوردل إلى السلوم

ليرى هل احتلت الكتيبة مواقعها ، وعاد بعد ثلاث ساعات يحمل فى يديه حملا صغيراً لا يزيد عمره عن ساعتين . ففى أثناء عودته فى الظلام الدامس ضل طريقه وقابله أحد الأعراب الذى قدم له الحمل كهدية ، وقال: إنه لم يستطع رفضها. فقال له العريف «سيجفريد بهرين» وهو فلاح من أقاليم التمارك: « يجب عليك أن تعيد الحمل يا سيدى الملازم ، لأنه لا يمكن ذبحه وليس لدينا لبن لإطعامه وسوف يموت » . وقال الملازم كوردل: « يا إلهى يا بهرين يجب عليك أن تشغل بالك فقط فى كيفية الخروج من هنا فى الصباح ولو كانت لديك أفكار نيرة فإننى أعدك بأن أعيد الحمل إلى صاحبه حيا » وشعروا بأن الليل أوشك على الانتهاء .

وفى لحظة طلوع الفجر أرسلت نقطة الملاحظة الأمامية تقريرها: «إن البريطانيين يستعدون ، وقد أديرت محركات العربات » .

وكان عليهم أن يحددوا موقفهم لأنه يجب استغلال ضوء الفجر مع إيهام العدو بأن الخط الأمامى للقوات الألمانية فى هذا المكان ، ثم ينسحبون فى وضح النهار بعد تعطيل القوات البريطانية. وظهرت الشمس فأضىء الجبل والمنطقة المحيطة به ، وتقدمت أولى سيارات الاستطلاع البريطانية ببطء إلى أسفل المنحدر وتساءل الألمان: ألم يراهم الملازم سيرفاس فقد كان مختبئا مع مدافعه ذاتية الحركة فى منخفض من الأرض . وتوقعوا أن تطلق النيران فى أية لحظة . وسرعان ما أطلق سيرفاس مدافعه وسجل ثلاث إصابات ، فقفز البريطانيون من عرباتهم فقابلهم سيل من نيران المدافع الرشاشة ولم يكتشفوا بعد مواقع المدافع الألمانية وأطلقوا مدافعهم من عيار ٢ رطل على الأرض المكشوفة ولكن سرعان ما سقطت القنابل على موقع الكتيبة وتعالت الصيحات من الألمان تنادى حملة النقالات .

ومرة أخرى أطلقت كل الأسلحة ما لديها من الذخيرة بالمعدل العالى محاولة خداع البريطانيين بأن القوات التى تواجههم قوات قوية ، ثم أوقفوا إطلاق النيران وقفزوا إلى عرباتهم وتحركوا للخلف ثم عادوا فقفزوا من عرباتهم مرة ثانية وانبطحوا على الأرض ليطلقوا النيران من جديد وأخذ الملازم سيرفاس يطلق نيرانه بجنون ليس على الجبل فقط ولكن فى اتجاه اليمين حيث ظهرت حاملات الجنود

البريطانية المدرعة وسيارات الاستطلاع بينما قفز باقى الجنود وركبوا عرباتهم وقادوها بمنتهى السرعة تجاه الشمال الغربى.

وكان على العريف فوت أن ينتظر حتى يركب رجاله فى العربة ثم يسرع بهم ليصل إلى رأس الطابور . وتوقفت إحدى سيارات الفولكس واجن وقالوا: « حظ سيئ» .

فلم يعد أمامهم سوى الأسر . وهو مصير قوات حرس المؤخرة . أما الملازم سيرفاس فكان على عهده عظيما فقد سارع حتى وصل إلى رأس القول المسرع ومعه مدافعه ثم توقف وأخذ يطلق النيران ، ثم عاد بسرعة إلى السير ، وهنئوا أنفسهم بالنجاة وعلى حصولهم على هذه المدافع ذاتية الحركة البريطانية المتفوقة .

وفجأة شاهدوا أمامهم خياماً منصوبة . وكانت خياماً للأعراب . وكان الأعراب يطلقون النيران وهم مرتكزون على ركبهم مثلهم فى ذلك مثل الجنود فى حرب البوير وكانوا يطلقون النار على كل شيء يعترض طريقهم. وشاهدو – الألمان الهدف الذى يطلقون عليه النيران وكانت طائرات إيطالية جاثمة فى أحد مطارات الصحراء . ووصلت مقدمة الكتيبة إلى حيث كان الأعراب فألقى الأعراب بأنفسهم على الأرض إلا أن الملازم كوردل ورجاله لم يكن لديهم الوقت ولا النية لكى يشغلوا أنفسهم بهم . فشقوا طريقهم إلى المطار وهناك كان فى انتظارهم مفاجأة أكبر، فقد وقف الإيطاليون رافعون أيديهم فوق رءوسهم فقد ظنوا أن الألمان القادمين بريطانيون .

وكان الملازم سيرفاس بمدافعه الثلاثة يطلق النيران على سيارات الاستطلاع البريطانية المدرعة . وقد رفع ذلك من الروح المعنوية للإيطاليين ، فسارعوا إلى مدافعهم الثلاثة المضادة للطائرات ودباباتهم الأربع . وفجأة ظهرت سريتان إيطاليتان فقد أثار حماسهم قتال الألمان فأخذوا يطلقون نيرانهم بأقصى طاقاتهم .

وكانت عربات الاستطلاع البريطانية قد ظهرت فى المطار منذ ساعتين إلا أن الإيطاليين ردوها على أعقابها ولكنهم عندما رأوا المشاة الميكانيكية الألمانية تتقدم نحوهم ظنوها بريطانية ففقدوا أعصابهم . أما الآن فقد أصبحوا فى حالة معنوية جيدة ، وفى غاية الابتهاج كأنهم أطفال ، وكانوا يصيحون: « إلى الأمام .

إلى الأمام ، فقد كانوا مبتهجين لوجود من يصدر إليهم الأوامر . ثم قفزوا إلى سياراتهم ومعهم المدافع المضادة للطائرات وتراجعوا إلى الخلف مع الألمان . وعندما قدم قائد الكتيبة تقريره إلى المقدم بايرلاين أحنى بايرلاين رأسه وقال: «لقد كنت محظوظاً مرة أخرى » .

فقد كانت المشاة الميكانيكية محظوظة عدا السرية الحادية عشرة التي سقطت ورجالها في الأسر . وقال سيرفاس: « الآن لم يعد لدينا سوى تسع عربات صغيرة».

فقال كوردل: « ولكن لدينا كذلك ثلاثة مدافع مضادة للدبابات » فأجابه سيرفاس: « إلا أن العدو سوف يستولى عليها جميعاً »

ولم يعد أحد من الملازمين الثلاثة (سيرفاس ، كوردل ، دراير) إلى وطنه لأن دراير وسيرفاس قتلا أثناء معركة العلمين ولقى كوردل حتفه في روسيا .

١٠ - القائد الجهنمي :

احتُلَّتْ المواقع حول السلوم يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤١ بواسطة السرية العاشرة واحات ومعها بقايا من السرية ١٢ ورئاسة كتيبة الواحات ٣٠٠ احتياط ويقودها الرائد أنكروس . وفي ١١ يناير سنة ١٩٤٢ بقى من هذه القوات ٧٠ فرداً فقط كانوا يحتلون هذه المواقع .

وفي ممر حلفاية (بالقرب من هذا الموقع) كان الرائد الألماني باخ مع رجاله يسدون الطريق الساحلي أمام البريطانيين وحاول البريطانيون ليلة بعد ليلة شق طريقهم خلال موقع السلوم . وكان القتال السائد يوميا هو القتال المتلاحم يداً بيد .

وفي ١٠ يناير سنة ١٩٤٢ أمر أنكروس بتوزيع آخر التعيينات ، فخص كل رجل بـ ٢٠ جراما من الخبز وحفنة من الأرز وملء ملعقة من الفاكهة المجففة وهبطت روح الرجال المعنوية وقالوا: « إن هذه هي النهاية ».

وفي صبيحة اليوم التالي قام البريطانيون بالهجوم . وأطلق الرجال نيرانهم على المهاجمين بشدة حتى احمرت مواسير مدافعهم . وتمكن رجال الإشارة من صد اختراق قوي للعدو بين المواقع المحصنة وقيادة الكتيبة وأسروا بعض المهاجمين وبقي الموقع في يد الألمان.

وجاء تقرير من أنكروس يتضمن التالى : « فى صباح يوم ١٢ يناير أطلق البريطانيون غلالة كثيفة من النيران مركزين كل بطارياتهم وهاوناتهم على مواقعنا. وتحولت المنازل التى سبق إصابتها إلى أنقاض وسويت بالأرض . وقد صددنا الهجمة الأولى ، وتبعتها هجمة ثانية ولم يبق فى مقر قيادة الكتيبة إلا طلقات الإشارة الكاشفة » .

وبعد إطلاق آخر طلقة موجودة فى الموقع أرسل النقيب أنكروس أحد الأسرى يحمل علمًا أبيض إلى القوات البريطانية لكى يستسلم . وأصدر النقيب أوامره إلى نقاط القوة الثلاث: « دمروا أسلحتكم واستعدوا للتسليم » واصطف الرجال وقد اسودت وجوههم من القذارة وأصبحت ملابسهم خرقًا مهلهلة وكانوا جوعى وفى حالة إرهاق شديد بعد قتال دام ستة وخمسين يوماً متصلة.

وبدأ النقيب كلامه قائلا: «أيها الرفاق » ثم هز رأسه بحزن واستدار فجأة لأنه لا يجب أن يروا الدموع فى عينيه فكان يفكر فيمن قتلوا من رجاله ، ثم بعد كل هذا تسقط السلوم فى يد العدو!!!

وما الذى حدث عند ممر الجحيم الشهير ، هذه النقطة القوية مفتاح الطريق إلى مصر؟

وقد سَمِعْتُ رواية هذه المأساة التى أكسبت الرائد باخ اسم الشهرة (القائد الجهنمى) . ولَم أغير كلمة واحدة من هذه الرواية : « لقد كنا نعانى من نقص فى المياه فعندما سقطت بلدة السلوم السفلى فى يد البريطانيين احتلوا آبار المياه . وبدأت شفاهنا تتشقق . وأصبحت حلوقنا جافة . وكان يجب علينا أن نفعل شيئاً وأمر قائدنا باخ أن تقوم جماعة من جنود العاصفة بإعادة احتلال الآبار ولو لمدة قصيرة حتى يمكننا الحصول على المياه . ويا لها من معركة من أجل المياه !

وأعطيت الأوامر للملازم أكهولز من السرية الثانية للاستيلاء على آبار المياه بجنود من الفدائيين واحتلال الموقع حتى يتم ملء عربات المياه ثم العودة ، ونجح أكهولز ورجاله فى مفاجأة البريطانيين بالهجوم إلا أنه حدث (أثناء فوضى المعركة وخلال الظلام الدامس) أن الجماعتين الأماميتين اللتين قامتا بالهجوم أن أطلقتا النيران على بعضهما . وقتل عريف . وقد كشفت صيحة أحد الجرحى وهو ينادى حملة النقالات بالألمانية عن المأساة التى حدثت .

وعادت القوة ومعها الرجل القتيل ورجل جريح وعربة مملوءة بالمياه . وكاد

الرقيب جنج أن يفقد حياته أثناء الغارة ، فلكي يحصل على صفيحة مياه زيادة لأجله ولأجل زملائه ، سرقه الوقت أثناء المعركة ونسي نفسه . وأمكن لزميله برون بعد أن قطع مسافة على قدميه أن ينقذه ويحمله على دراجته البخارية قبل طلوع النهار ، وتمكن جنج من الاحتفاظ بصفيحة المياه . فقد التصق بالصفيحة كأنها كنز طوال النهار والليل ، وفعلا كانت صفيحة المياه تعتبر كنزا في ممر حلفاية خلال أيام عيد الميلاد عام ١٩٤١ .

ولم ترسل بطاقات تهنئة بعيد الميلاد إلى الوطن . ولم تكن هناك شجرة لعيد الميلاد بل قرأ لنا الأب باخ قائدنا وقسيسنا سطوراً من الإنجيل ولكن كان هناك تعيين إضافي من المياه . وحلت طلقات المدافع البريطانية من عيار ٢٥ رطلاً محل أجراس عيد الميلاد فقد أخذت تتساقط كأنها الرعد فوق حفرنا الموجودة بين الصخور . فيا لها من ليلة عيد الميلاد !.

وعبثاً حاول روميل تنظيم إمداد الموقع بالمياه والمؤن بواسطة الطائرات من كريت . ففي الليلة التالية كانت طائرات القتال الليلية البريطانية في انتظارهم . وأسقطت طائراتنا اليونكرز في البحر . وبعد هذا لم يصلنا أي إمدادات أخرى وبين الوديان وحول الصخور انتظر الرجال عملية التتميم وهم في حالة الاستعداد ، وهي العملية التي تتم عند الغروب والشروق . وأخذ الرجال يظهرون من خنادقهم وحفرهم ومواقع المدافع ومن عربات النقل ومطابخ الميدان وهم يرتدون ملابسهم الرثة وقد اسودت وجوههم وكأنهم الأشباح أو سكان عالم آخر . ورفعوا رءوسهم وحركوا أطرافهم اليابسة واستنشقوا نسيم الليل البارد » .

١١ - التعيينات لا تكفي للموت أو للحياة :

وقال لي محارب آخر: « في الليل كانت تدبُّ فينا الحياة مرة أخرى . حيث يتم توزيع التعيينات وهي عبارة عن فنجالين من الحساء ، وعلبة من اللحم المحفوظ، ولكل ثلاثة رجال في اليوم ملء إبريق من القهوة التي صنعت من ماء البحر . وكانت هذه الكمية قليلة لكي تتيح للرجل أن يحيا ، وهي في نفس الوقت تحفظ عليه حياته ولكنها غير كافية لكي تمنحه القوة للقتال » .

وبهذه الكمية من التعيينات كان لا يمكن تحمل الحياة إلا بالرقاد طوال اليوم كما كانت النكتة الشائعة بين الرجال في السرية الثالثة (بهذا القدر من الطعام يمكن أن يحتمل الإنسان الحياة وهو مستلقٍ فقط) . وكان البريطانيون يعرفون تماماً

الأحوال السائدة فى ممر حلفاية ، وبعد تجربتهم الدامية فى محاولة الاستيلاء عليه وفشلهم فى ذلك قرروا إجاعة المواقع بحصارها » .

وفى ليلة منتصف يناير وصل بضع مئات من الجنود الإيطاليين التابعين لفرقة سافونا التى يقودها الجنرال دى جيروجيس فقد تمكنوا من شق طريقهم من مواقعهم المحصنة غرب ممر حلفاية إلى موقع الرائد باخ ، وبذلك كونوا احتياطيا قويا للموقع . غير أنهم كانوا حملا ثقيلا على التعيينات القليلة .

وبعد أسبوع انتهت التعيينات وجاءت النهاية فقد أرسل النقيب فوت قائد السرية للتفاوض مع قوات جنوب أفريقيا . وبعد المفاوضات المبدئية ركب الرائد باخ ومعه الملازم شميدت من مهندسى الفيلق وتوجها إلى البريطانيين لتنظيم عملية الاستسلام . وكان قادة قوات جنوب أفريقيا عادلين تماما ، وتم الاتفاق بسرعة ويسر وعندما وقع باخ شروط التسليم وغادر الخيمة أومأ الملازم شميدت إلى سائق عربته . وفهم الرجل من غير كلام وقام بتعديل وضع العلم الأبيض على مقدمة السيارة من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر . لماذا ؟

فبعد التوقيع على شروط التسليم ، كان على الرائد باخ ألا يعطى أى أوامر بتدمير الأسلحة والمعدات ، ولذلك اتفق مع ضباطه للقيام بخدعة ، فقد أعطى أوامره قبل قيامه للتفاوض بالتالى : « على أول حارس ألمانى يرى العربة وهى عائدة والعلم مرفوع على جانبها الأيسر أن يبلغ قيادة الكتيبة بأن العلم الأبيض على الجانب الأيسر للعربة » . وكانت هذه هى العلامة المتفق عليها لتدمير العربات والمدافع والمعدات فى كل المواقع ، أما إذا أدت المفاوضات إلى فشل الاتفاق على التسليم فإن العلم سوف يبقى على الجانب الأيمن ومعنى ذلك أن الأسلحة يجب أن تكون معدة للإطلاق وفى حالة استعداد للضرب .

ونجحت الخدعة ولم يحقق قادة قوات جنوب أفريقيا رغبتهم فى الحصول على مدفع من عيار ٨٨ مم سليما .

وفى السابع عشر من يناير سنة ١٩٤٢ أشرقت الشمس على ممر حلفاية . وسقطت أشعتها الحمراء الدامية الأرجوانية الزرقاء على الجبل فأضاءته ، ولم تطلق طلقة واحدة ، وتسلل الرجال المنهكون الضعفاء من حفرهم وخنادقهم وهم يترنحون وتجمعوا فى المكان المعين ولم يتم مثل هذا التجمع للقوات فى وضح النهار منذ أسابيع طويلة وتبودلت التحيات بين الرجال وقد أثر الجوع والعطش والقذارة على

وجوه الرجال فغيرت من ملامحهم ، وكانوا يبدون كباراً فى السن ومتعبين .

ووصل جنود جنوب أفريقيا ووزعوا المياه والتعيينات واعتنوا بالجرحى ثم أعلن قائد السرية أمره بالسير . وفى هذه اللحظة حدث شيء يعد وصمة فى تاريخ الحملة الأفريقية فقد أطلقت النيران فجأة على الجنود وهم يتجمعون استعداداً للتسليم وكانت النيران موجهة إلى موقع السرية الأولى التى يقودها الملازم مهرنج .

وفى البداية ذهل الرجال وتفرقوا طبقاً للتعليمات لتفادى النيران وصاحوا : « الخنازير الأقذار، الخنازير الحثالة ».

وتوقف الرائد باخ وقد ابيضّ وجهه وأمامه الضابط البريطانى الذى بدا عليه الذهول هو الآخر .

وأخيراً توقف إطلاق النيران وكان جنود جنوب أفريقيا ذاتهم قد انبطحوا على الأرض كذلك . وبعد بضع دقائق وصل عدّاء وهمس فى أذن الضابط البريطانى الذى توجه إلى باخ وقال له عن طريق المترجم: « القوات الفرنسية الحرة رفضت تنفيذ الأوامر وتجاهلت اتفاق التسليم ولذا أطلقت النيران عليكم أثناء التسليم » . ولم يلفظ الرائد باخ بكلمة !!

ثم قادوهم إلى الأسر وأعلنت القيادة الألمانية العليا أنهم قاتلوا حتى آخر طلقة وكان هذا القول له وقع عظيم لأن الحقيقة كانت خلاف ذلك بكثير . وعلى كل حال فالحرب لم تنته بعد . فقد كان لا يزال لديهم ذخيرة كثيرة ، ولكن الجوع والعطش أديا إلى الهزيمة . وكان الرائد باخ القسيس القادم من مانهايم من أشجع الجنود فى أفريقيا ويعرف المثل القديم جيداً: « من حارب ثم انسحب يعيش ليحارب يوما ما » .

١٢ - كل شيء مرعب ومخيف :

كانت نقطة الضعف فى حرب روميل فى الصحراء هى الإمدادات .

ولم يرد ذكر هذه الأمور فى تقارير القوات المسلحة الألمانية . فقد كان رجال وضباط البحرية التجارية فى سباق مع الموت عندما يقودون سفنهم إلى أفريقيا وجزء كبير منهم لقوا حتفهم خلال ذلك .

فخلف كل جندي يطلق رصاصة أو يقود دبابة أو يذهب في مهمة في قاذفة قنابل يقف صفٌ طويل من الرجال المجهولين الذين بدونهم لا يمكن للجندي أن يطلق

رصاصة واحدة أو يحرز أي نصر .

هؤلاء هم الرجال المجهولون الذين يكونون الطوابير الطويلة خلف خطوط القتال ويحضرون الأسلحة والذخائر والوقود والإمدادات للجنود فى الجبهة . وخلال الحرب العالمية الثانية كسبت معارك كثيرة نتيجة لوصول الإمدادات والمؤن فى الوقت المناسب كما خسرت معارك كثيرة أيضًا (وهذا ينطبق على معارك شمال أفريقيا) بسبب نقص المؤن والمعدات والوقود . ولذا فلا يستطيع أحد أن يذكر ثعالب الصحراء وما قاموا به من أعمال عظيمة دون أن يذكر السفن التجارية وقوافلها إلى أفريقيا . وكذلك قيادة طائرات النقل وكتائب التموين التى نقلت الإمدادات والمعدات. وقد خسر الألمان الحرب فى شمال أفريقيا لأن القيادة العليا لم تنجح فى التغلب على مشكلة توصيل الإمدادات عبر البحر نظراً لعدم سيطرتها عليه، وعبر الصحراء نظراً لأنها مترامية الأطراف .

فهناك ٣٥٠ ميل من البحر تفصل بين صقلية وطرابلس . وفى قاع البحر يرقد عدد من الجنود مساوٍ للعدد الذى مات ودفن فى شمال أفريقيا . كما يرقد فى قاعه أيضًا كميات من التموين والإمدادات تعادل الكميات التى استخدمها الألمان والإيطاليون فى الحرب الأفريقية وقد تزيد عليها وذلك يرجع إلى أن البريطانيين سيطروا على البحر المتوسط وكان لا بد لأجل إحراز النصر فى أفريقيا من تحطيم القوة البحرية البريطانية وقهر وإخضاع جزيرة مالطة قاعدة الهجوم البحرى والجوى على خطوط الإمداد الإيطالية والألمانية .

وكانت هذه المشكلة الرئيسية فى الحرب الأفريقية . وقد غطت انتصارات روميل الأولى السريعة على هذه المشكلة إلا أنها سرعان ما ظهرت بكل قوتها فيما بعد وقد عبر معظم ربع المليون جندى الألمانى الذين حاربوا فى شمال أفريقيا وجزء من ثعالب الصحراء البحر من نابولى أو تورنتو . ولكن بعض الوحدات التى حاربت فى تونس قد نقلت جوا . والرحلة لا تستغرق سوى ٤٨ ساعة ولكنهم كانوا تحت وطأة الخوف الدائم ويفكرون هل سينجحون فى العبور ؟ هل سيقابلهم العدو أثناء الرحلة ؟

وكان الجنود عندما تدوى صفارات الإنذار فى تلك السفن عند سماع صوت الطائرات البريطانية حاملة الطوربيدات يتجمعون وينبطحون بلا حول ولا قوة على ظهر السفن . وكل همهم أن تتمكن المدافع المضادة من طرد الطائرات المغيرة . وأحياناً أثناء لعبهم الورق أو أثناء أخذهم قسطاً من النوم كانوا يسمعون انفجارا عنيفاً وتسمع صرخة خلال السفينة بأن الطوربيد أصاب السفينة إصابة مباشرة وتأخذ

السفينة فى الغرق . فيندفعون لإنقاذ حياتهم وتكون الأحوال سيئة للغاية . فهل يستطيعون النزول إلى الماء أم إنهم سوف يغرقون وسط الحطام والمعدات والأسلحة؟ وكانت هذه الأسئلة تؤرقهم وتعذبهم كثيراً .

وفيما بين يناير ومايو ١٩٤١ فقدت ١١ سفينة إمداد ألمانية يبلغ مجموع حمولاتها ٤٢ ألف طن . وفى السادس عشر من إبريل لقت نفس المصير إحدى القوافل الألمانية الكاملة فقد هاجمتها البحرية البريطانية فى الساعة ٢٠ر٢ ولم تستغرق العملية قبل الفجر سوى نصف ساعة وغرقت فيها ثلاث سفن وهى أدانا وأيجينا وأيسترلون .

وأخذت إحدى السفن وهى السفينة أطنة تحترق بشدة وهى عائمة حتى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى ، وفى نفس اليوم التالى غرقت السفينة ساموس . وفى أول مايو ١٩٤١ حدثت ثلاث عمليات بحرية بين نابولى وطرابلس. وغرقت السفينة لاريتسا بالألغام وأغرقت زوارق الطوربيد البريطانية سفينة أخرى وهى أركوتوس التابعة لخطوط (أرجو) الملاحية . وبعد ساعات قلائل لاقت سفينة حمولتها سبعة آلاف وثلاثمائة طن نفس المصير وهى السفينة لفوكوسون التابعة لشركة هاباج وبالرغم من كل هذا فقد صمدت البحرية الألمانية التجارية وقاومت بكل شجاعة .

وخلال نوبة الملاحظة الثانية توجه القبطان موريس إلى كابينة القيادة وراجع خط سيرها وحدق باحثا فى الأفق . وتحدث مع ضابط الاتصال الإيطالى قليلا . وفجأة اهتزت السفينة هزة عنيفة ، فلقد أصابها الطوربيد ، وطارت المدافع المضادة للطائرات من شدة الانفجار إلا أن السفينة لم تغرق لتوها . وكان هناك وقت كافٍ لإنزال قوارب النجاة . وقامت السفن الأخرى فى القافلة بالتقاط الجنود والبحارة.

وهكذا غرقت السفينة أركوتوس التى سبق لها أن قامت برحلات عديدة بين نابولى وطرابلس . وقد أبحرت هذه السفينة متوسطة الحجم من ميناء نابولى وقد خصص نصف السفينة للجنود الإيطاليين والنصف الآخر لرجال الفيلق الأفريقى الألمانى . وكان هذا التقسيم ساريا كذلك بالنسبة للسفن الإيطالية . وقد هاجمت القاذفات البريطانية القافلة لمدة ست ساعات . وحبس الجنود أنفاسهم على ظهر السفينة عندما سقطت القنابل على بعد ياردات من السفينة .

وعلى رصيف الميناء فى نابولى كان كل شىء يبدو سهلا. فقد وقف القبطان على أحد الصناديق وخاطبهم بأنه غير مسموح بالتدخين على الأسطح العليا للسفينة



السفينة أركونوت أثناء غرقها بعد إصابتها بطوربيد

خلال الليل ، وأنه غير مسموح إظهار أى ضوء لأى سبب كان وأن السفينة سوف تبحر فى ظلام تام . وأنه يجب ألا يغادر أى فرد السفينة ، وألا يقفز أحد منهم إلى البحر فى حالة إصابتها مهما حدث . وأن الأمر بمغادرة السفينة سوف يصدر من القبطان الموجود فوق الكوبرى فى غرفة قيادة الباخرة .

وكان الكثير من الجنود لم ير البحر فى حياته أو لم يشاهد باخرة كبيرة قبل ذلك . والرحلة بالنسبة لهم مغامرة مسلية إلا أن الأمر عندما كان يتأزم فإن هذه المغامرة كانت تتحول إلى مأساة .

وقد قال القبطان للجنود فى نابولى: « لا تقلقوا فسوف نعتنى بكم على ظهر السفينة فعلى السفينة عدد كافٍ من زوارق النجاة وأطواق النجاة . وقد حددت أماكن التجمع للنزول فى حالة إصابة الباخرة ومهما حدث فسوف يكون هناك دائما بحار ليعطى الأوامر . ولو قتل القبطان فسوف يأخذ مكانه الضابط الأول ثم الثانى ثم الثالث إذا احتاج الأمر ، ولن تتركوا وحدكم » .

وكان هذا ما قاله القبطان . وقد حافظ على كلماته وأحضر الجنود مواقد الكحول وأعدوا طعامهم لأن مطابخ البواخر الصغيرة لا تستطيع تقديم الطعام لستمائة رجل .

وأُعلن الإنذار بالهجوم . وظهرت أولى الطائرات . ووقف القبطان على سطح غرفة اللاسلكى مرتديا سروالا أبيض وقميصا كاكيا وحزام النجاة ، وخوذة من الصلب ، ووقف بحيث يستطيع رؤية كل شىء . وتركزت عيون الجنود عليه ، وأخذ يعلن التطورات قائلا: « الطائرات تقترب من مقدمة السفينة ، وهى تزداد اقترابا » وقد نجا القبطان مرات عديدة من قذف الطائرات لباخرته ، إلا أنه لم ينج هذه المرة إذ غرقت الباخرة .

١٣ - بيضة الشيطان :

أما قائد النقل البحرى فى طرابلس القبطان ماكستر فقد وصل إلى رصيف الميناء ليستقبل قباطنة السفن الذين نجوا من الغرق وكان القبطان موريس- قبطان الباخرة أركوتوس - عندما غرقت باخرته قد خلع حذائه فى الماء حتى يستطيع السباحة بسهولة ولكنه لم يجد فى طرابلس حذاء لكبر قدميه . وظل لبضعة أيام فى أحد فنادق طرابلس الفاخرة يسير بدون حذاء.

أما عابرة المحيطات الإيطالية برمانيا فكانت راسية فى ميناء طرابلس وعليها

شحنة من الذخائر . وكان الضابط الأول للقبطان موريس هو المسئول عن تفريغ شحنة السفينة الخاصة بالقوات الألمانية . وفى الرابع من مايو زاره القبطان موريس وتركه بعد مشاركته فى كأس من الجين ولم يكد يبتعد ٢٠٠ ياردة عن الباخرة حتى سمع انفجاراً كالرعد واتخذ موريس ساترا فى مبنى القيادة العسكرية للميناء . وتبع الانفجار الأول انفجار ثانٍ وارتفعت سحب الدخان الأسود فوق الميناء . فماذا حدث؟

لقد انفجرت السفينة برمانيا كما انفجر بجوارها طراد إيطالى محمل بالوقود. كان على ظهر برمانيا العديد من العمال العرب والألمان وكانوا يقومون بتفريغ السفينة وآخرون على الأرصفة . وكانت الخسائر فادحة ، فقد قتل من الألمان ٢٨ وجرح ٣٨ ، أما الإيطاليون فقد قتل منهم ٤٢ وجرح ٥٠ أما العمال العرب فقتل منهم ١٥٠ وجرح كثيرون .

وكان منظر الأرصفة بعد الانفجار يبدو كأنما تعرضت لغارة جوية عنيفة وضرب بالقنابل الثقيلة ، وارتفعت مقدمة السفينة برمانيا البالغ حمولتها عشرة آلاف طن على جانب رصيف الميناء نتيجة للانفجار . وقد نجا القبطان هيلر من رجال التفريغ من الموت بأعجوبة ، فقد هبطت حوله مقدمة السفينة محدثة صوتا كالرعد. وأغمى عليه وعاد إلى رشده فوجد أن مقدمة السفينة قد حمته بأجنابها الفولاذية من الشظايا التى تناثرت حوله ووجد نفسه فى ملجأ من ألواح الصلب . أما زملاؤه الثلاثة وكانوا على بعد ياردات قليلة منه فقد قتلوا جميعا .

ووصل الخبراء إلى مكان المأساة . وقرروا أن حمولة السفينة عبارة عن ذخائر ألمانية تتكون من قنابل مضادة للأفراد من عيار ٢٠ رطلا ، وكانت كل عشرة قنابل منها مربوطة بشريط من الصفيح . ومثبت بها مفجر واحد ، ومعدة وجاهزة للعمل بعد مدة محددة من إسقاطها . وهى عادة من ثانية إلى ثلاث ثوان حيث ينصهر الشريط نتيجة لانفجار شحنة التفجير وبذلك تأخذ كل قنبلة فى السقوط على حدة. وكان المفجر فى حزمة القنابل حساساً للغاية لدرجة أن أى لمسة تجعل القنابل تنفجر فى الحال .

وكان هذا هو سر هذه الأسلحة الرهيبة وقد صممت لتستخدم ضد أفراد العدو أثناء سيرهم ، وكذا ضد الأهداف فى الأماكن المفتوحة وفى العراء . وهذه القنابل الصغيرة المضادة للأفراد قد أرسلت إلى أفريقيا لأول مرة .

وتم الاعتناء بحزم هذه القنابل وتعبئتها إلا أن السلطات لم تعتن بتصنيع العبوات الصالحة لنقلها . فقد حزمت القنابل فى عبوات عادية فرقدت بجوار بعضها بدون إحكام . وعندما رفعت للشحن فى عنابر السفينة ارتخت أحزمة القنابل وأصبحت غير محكمة الربط . وانقلب بعضها رأسًا على عقب داخل الصناديق . ونتيجة لذلك فإن المفجر الذى كان مؤمنا بمسمار أمان صغير أصبح فى وضع العمل . وعند أقل هزة سوف تنفجر القنابل ، وبما أن السفينة كانت تحمل قنابل ثقيلة أخرى ، فإنه من السهل تصور ما قد يحدث إذا انفجرت واحدة من هذه القنابل المسماة ببيضة الشيطان . وكان من المستحيل الوصول إلى الأدلة التى كانت السببَ فى الفاجعة إلا أنه من المحتمل عند إنزال أحد الصناديق على الرصيف أن تنفجر إحدى هذه القنابل الصغيرة فتسبب الكارثة . وكان النقيب «أتو» – المساعد الأيمن لروميل بالنسبة للإمداد والتموين والذى أصبح فيما بعد رئيسًا للإمداد والتموين – قد غادر السفينة قبل انفجارها بدقائق .

وكان أتو والنقيب مكسنر (المسئولان عن النقل البرى) مشغولَيْن فى البحث عن أسباب الكارثة عندما وصلت إلى أسماعهما أخبار مقلقة . فقد وصلت سفينتان إيطاليتان إلى الميناء وعليهما شحنات من هذه القنابل الصغيرة .

وأصدر مكسنر تعليمات لهما بإنزال مراسيهما بمنتهى الحذر إلا أنه قد واجهته مشكلة كبرى فقد وصلت الأنباء إلى برلين وفقد المسئولون صوابهم وأصدر جورينج أمره بإخراج السفينتين وإغراقهما فى البحر ، حتى لا يتعرض الرجال للخطر بأية حال من الأحوال .

وكان من السهل على جورينج أن يصدر مثل هذا الأمر ، إلا أن كل باخرة وكل شحنة كان لها تأثير مباشر على مصير روميل وجيشه فى شمال أفريقيا .

وأصبح مكسنر فى دوامة ميئوس منها ، فهذا الرجل الذى نادرا ما تقابل جنديا قاتل فى أفريقيا لا يعرفه شخصيا . ولم يكن بالرجل الذى ينفذ الأوامر بدون تمعُّن ، ففى الحرب العالمية الأولى تطوع وأغرق مدمرة إيطالية . وهرب خمس مرات من معسكرات الاعتقال ثم يعاد القبض عليه فى كل مرة ليعاود محاولته من جديد .

وفيما بين الحربين درس مكسنر القانون ، واستدعى للخدمة من الاحتياط سنة ١٩٤٠ برتبة ملازم . وكان ممن اشتركوا فى وضع عملية (أسد البحر) وهى

الخطة التى أعدت لغزو إنجلترا ، وفيما بعدُ أرسل إلى طرابلس وأصبح أكثر من أن يكون ضابطا من المعاونين لروميل ، فقد كان صديقاً له ، رغم أن صداقتهما بدأت بنزاع بينهما ، فقد أوضح مكسنر بجلاء أنه يكن لروميل احتراما عظيماً لمقدرته الفائقة كجندى ورجل عسكرى إلا أنه طلب منه ألا يتدخل فى المسائل البحرية التى لا يعرف عنها شيئاً . وكان على مكسنر أن يوجد حلاً وسطاً بين أوامر جورينج ورغبته الشخصية فى تفريغ الباخرتين دون خسائر فى الأرواح . وكان هناك شىء واحد مؤكد ، فلو حدث أى حادث فسوف يحاكم عسكرياً لعصيانه الأوامر .

وأرسل فى طلب رجل يعرف عنه أنه ذو خبرة وعلى جانب عظيم من الشجاعة وهو القبطان رينين قبطان الباخرة مينيس والموجود فى طرابلس لأن باخرته أغرقت بطربيد وسأله: « هل تعتقد أنه من الممكن تفريغ الباخرتين؟ وهل تأخذ على عاتقك مسئولية تفريغ واحدة منها ؟ ».

وقال رينين: « سوف أفعل » وعاونه الملازم كروجر مساعد مكسنر وبحث كل منهما عن عشرة من الجنود الألمان المتطوعين وترك البحارة الإيطاليون السفن وبدأت هذه العملية شديدة الخطورة.

وكان على ظهر السفينة برمانيا بالإضافة إلى القنابل الصغيرة شحنات من القنابل الثقيلة . ورفعت العبوة الأولى ، وفتح أول صندوق لمعرفة هل ما زالت مسامير الأمان فى أماكنها الصحيحة أم لا . ووجدت سليمة فنقل الصندوق الأول إلى رصيف الميناء . ثم نقل الثانى والثالث بعد الفحص إلا أنه وجد فى الصندوق الرابع مسمار الأمان مفقودا . وبذلك كانت القنبلة جاهزة للانفجار فى أية لحظة وتأزمت الأمور .

وأزاح القبطان رينين حزمة القنبلة جانباً وأمسكها وأخرج القنبلة الحية من الحزمة ووضعها بعناية فى أحد الأركان ، وأخرج منها المفجر .

ووقف بجواره القبطان رينين ليرى كيف يعمل لأنه قد استعار هذا الخبير لمدة يوم واحد وعليه أن يعود إلى مستودع الذخائر الذى يعمل فيه حيث تنتظره تحضيرات مهمة للهجوم القادم . فلو حدث نفس الشىء كان على رينين وكروجر أن يحلا المشكلة بدون الخبير . ولذلك اهتما بمراقبة عمل خبير المفرقعات مراقبة واعية ودقيقة .

وفى اليوم الأول اكتشفوا ست قنابل حية ، وفى اليوم الثانى تسع ، وفى اليوم

الثالث أربع . واستغرق تفريغ الشحنة خمسة أيام . وقد تبين أن ٢٢ قنبلة كانت حية نتيجة لسوء صناعة الصناديق المعبأة فيها . وقد قام رينين وكروجر بعد –مغادرة خبير المفرقعات – بتأمين ١٦ قنبلة ، وقد واجه الموت ١٦ مرة وفى كل مرة كانا يرسلان رجالهما العشرة إلى الشاطئ حتى ينتهوا من عملهما.

وكانت العملية تستغرق خمس دقائق والعرق يتصبب على وجههما ، والصمت مخيم حولهما كأنه صمت الموت . وكانت كل حركة يقومان بها كأنها خطوة لهما إلى العالم الآخر .

وقد أمكن إنقاذ الباخرتين وحمولتهما بالكامل . وكان القبطان رينين وهو أول مدنى يحصل على وسام الصليب الحديدى من الدرجة الأولى كما حصل عليه الملازم كروجر ، وكان هذا الحدث أحد الأعمال البطولية التى تمت فى هدوء والتى قام بها معاونو روميل ولم يعرف أحد خلال الحرب أى شيء عن هذا النشاط الذى قاموا به . فإن عملهم ونشاطهم وموتهم كان يجب أن يظل سراً من الأسرار فقد كان يجب ألا يعرف العدو موقف الإمداد والتموين لأنه كان موقفاً حيوياً وله أهمية كبيرة بالنسبة للألمان . كما يجب ألا يعلم العدو كم باخرة وصلت إلى طرابلس أو طبرق أو بنى غازى ؟ وهل هى قادمة من نابولى أو تورنتو ؟ ويجب ألا يعلم كم سفينة أبحرت وكم وصل منها إلى الموانى المحددة لها فى الشاطئ الأفريقى ؟

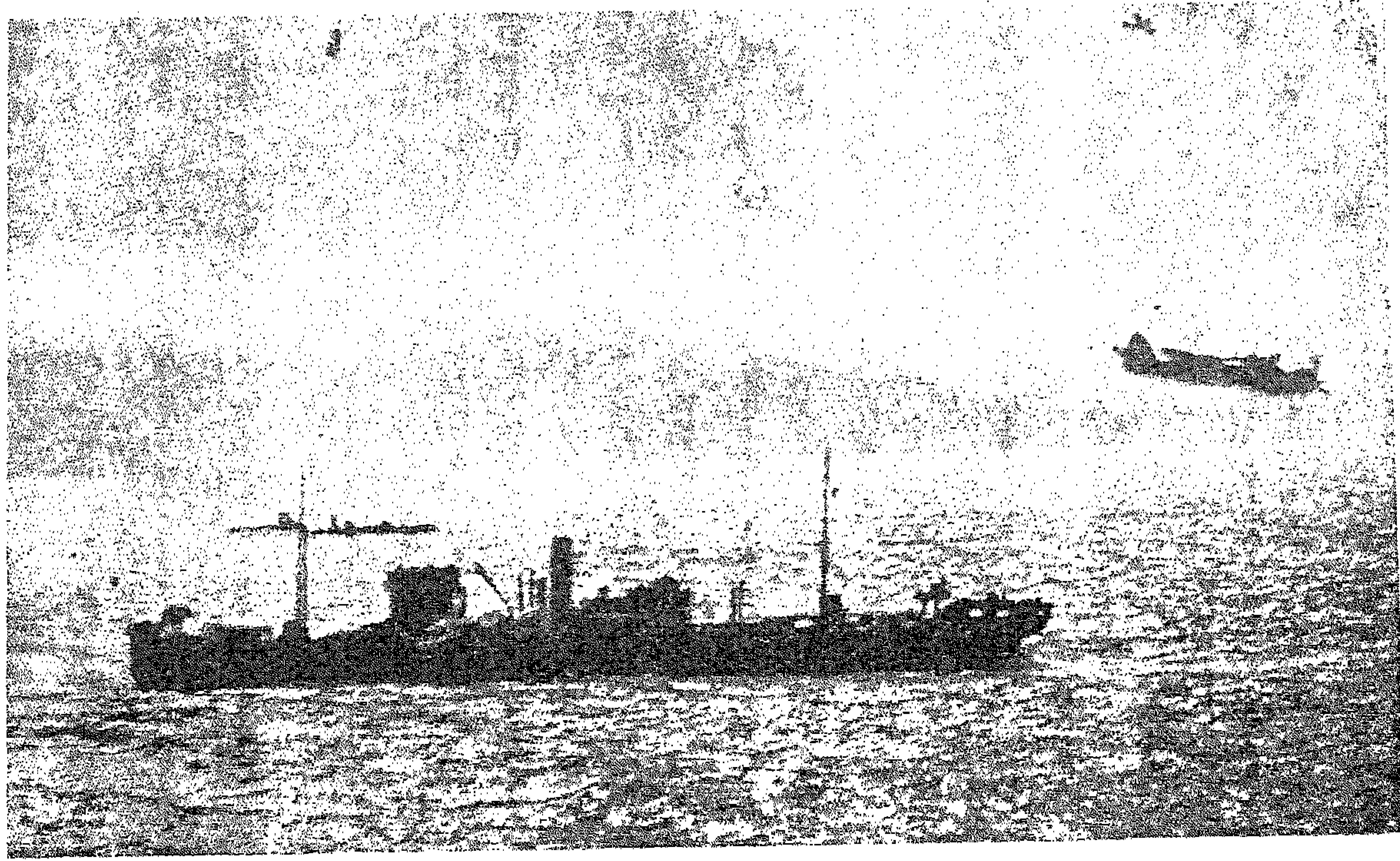
وإذا اطلع الإنسان على أسرار النقل البحرى فى الأرشيف السرى للقيادة البحرية لأصابه الفزع من كثرة الخسائر .

والرجل العادى لا يستطيع تقدير الخطر الجسيم لغرق أى سفينة بواسطة الطائرات والبحرية البريطانية أو بواسطة قاذفات القنابل بلنهايم .

ولنأخذ على سبيل المثال ما حدث للباخرة بروسن التى أغرقت بواسطة إصابة مباشرة بقنبلة فى ٢٢ يولية سنة ١٩٤١ بالقرب من جزيرة نبتلاريا وكان يوجد على ظهرها ٦٠٠ جندى وطاقمها المكون من ٦٤ بحاراً و٦٠٠٠ طن من الذخائر من الأنواع كافة و ١٠٠٠ طن من البترول و ١٠٠٠ طن من التعيينات و ٣٠٠٠ حقيبة بريد و ٣٠٠٠ مركبة بين دبابة وسيارة فولكس واجن .

وكان أهم ما فى هذه الشحنة هى القنابل زنة ٤٠٠٠ رطل الجديدة لسلاح الطيران الألمانى وأول بطارية مدفعية عيار ٢١٠ مم .

وفقدت الشحنة بأكملها كما مات ٢٠٠ من الجنود والبحارة . والباخرة



الباخرة بروسن التى أغرقت بإصابة مباشرة بقنبلة فى ٢٢ يولية ١٩٤١

المذكورة ما هى إلا إحدى البواخر الكثيرة التى غرقت فى البحر بين إيطاليا وأفريقيا، ولو كانت هناك شواهد لقبور السفن فإن الطريق البحرى بين صقلية وموانى شمال أفريقيا يصبح مرصوفا بها ، وكان السبب فى هذه الخسائر جزيرة مالطة فقد كانت هذه الجزيرة الصخرية المركز الرئيسى للبحرية البريطانية وغواصاتها وطائراتها فى البحر المتوسط والتى كانت عاملا مهمًا فى انتصار بريطانيا فى شمال أفريقيا . ومهما قيل بأن الحرب فى شمال أفريقيا قد تقرر مصيرها فى البحر بعيداً عن المألوف ، فإن مالطة قد تسببت فى هزيمة روميل . ويظهر هذا الموضوع بوضوح لكل من يدرس الحرب فى شمال أفريقيا .

١٤ - مالطة تلتهم الإمدادات :

ومَن يزور مالطة قبل الحرب يجد أن الجزيرة تغطيها المروج وحقول القمح التى تلفحها الشمس ، ويرى شباك الصيد معلقة فوق الصخور والمنازل القديمة فالمالطيون يرتزقون فى جزيرتهم المكتظة بالسكان بالعمل كفلاحين أو تجار أو صيادين أو بحارة . ومالطة هى موطن إنتاج أحد الأغذية المفضلة عند الأوربيين وهى سمكة التونة .

ويصعد المرء من الميناء فى طريقه إلى بلدة فاليتا التى أخذ اسمها من اسم أول سادة فرسان مالطة ، وتاريخ الفرسان فى مالطة مرتبط بالقلعة القديمة التى ظلت مدة طويلة تستخدم كمقر للحاكم البريطانى . وفى القرن السادس عشر أهدى الأمبراطور شارل الخامس الجزيرة إلى فرسان سانت جون . وكان من المؤكد أن للجزيرة تاريخا مليئا بالمغامرات ، لأنها ملجأ طبيعى للقراصنة ، فهى تقع على الطريق المستقيم بين شرق البحر المتوسط وغربه .

وقد لعبت مالطة دائمًا دوراً فى التاريخ فمنها تحكم الفينيقيون فى التجارة بين الشرق وأوربا وأفريقيا . وحوالى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد احتلها القرطاجيون ثم احتلها الرومان سنة ٢١٨ قبل الميلاد. وقد حارب الأسترجوس والواندال والبيزنطيون من أجل هذا الموقع المهم الذى يمكن التحكم منه فى تجارة البحر المتوسط .

وفى سنة ٨٧٠ م احتلها العرب وبعد ٢٠٠ سنة انتزعها منهم النورمانديون ، وفى سنة ١٧٩٨م احتل نابليون الجزيرة وجزيرة أخرى صغيرة مجاورة لها وهى جزيرة جوزو، ثم احتلها البريطانيون سنة ١٨٠٠م وجعلوا من مالطة قاعدة من أقوى القواعد البحرية والجوية فى إمبراطوريتهم . وبسط ضباط البحرية البريطانية

والطيران نفوذهم على مظاهر الحياة فى الجزيرة كما غيرت السفن البريطانية من صورة الميناء ، فقد تم بناء أحواض ضخمة للسفن وورش للصيانة والإصلاح فى هذا الميناء الطبيعى وأصبحت مالطة جزيرة جميلة وقوية وفخورة بما أدخل عليها . وهى لا تبعد أكثر من ٥٠ ميلا عن صقلية .

وقد سخرت هذه القلعة من ادعاء موسولينى أن البحر المتوسط عبارة عن بحيرة إيطالية ، فقد أثبتت أن البحر المتوسط ما هو إلا بحر لبريطانيا العظمى ، وكان على أى قوة تريد نقل جنودها عبر هذا البحر أن تقهر مالطة أو تدفع الثمن غاليًا ، وقد قال أحد كبار الخبراء فى الحرب البحرية خلال الحرب العالمية الثانية وهو الفيس أدميرال «أسمان» الألمانى: « لو كان الإيطاليون يابانيين لبدءوا الحرب فى ١٠ يونية بالهجوم على مالطة كما حدث تماما فى الهجوم على بير هاربور ، وكانت فى ذلك الوقت مجرد قاعدة دفاعية ومالطة ذات أهمية كبيرة بالنسبة للإيطاليين مثل أهمية بير هاربور لليابانيين إلا أن الإيطاليين لم يكونوا يابانيين .

فبعد أن دخلوا الحرب فى منتصف سنة ١٩٤٠ إلى جانب الألمان اكتفوا بمحاولة إخضاع القلعة البريطانية فى البحر المتوسط بالضرب من الجو فقط . وإنه لمن المضحك أن يقال إن الإيطاليين كانوا يقذفونها من الجو . فلم يكن هجومهم على الجزيرة هجوما بالمعنى المفهوم ، فلم تتعرض الجزيرة لنيران كاسحة ، ولم تقذف قذفا ثقيلا جديا بل كان القذف مثل الصراع بين الفرسان فى العصور الوسطى ضربات خفيفة متفرقة أو مثل وخز الدبابيس » .

ولقد كان الأدميرال ريشهولد الألمانى رئيس ضباط الاتصال البحريين فى إيطاليا وهو أول من اقترح الاستيلاء على مالطة فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠ إلا أن الإيطاليين رفضوا ، وحتى القادة الألمان لم يستطيعوا تقدير الأهمية العظمى لهذه الجزيرة بالنسبة للحرب الأفريقية إلا فيما بعد . أما بالنسبة للبريطانيين فقد كان الأمر مختلفا ، ورغم أنهم كانوا يشعرون بالقلق عندما علموا بخطة هتلر (أسد البحر) لغزو جزيرتهم ، فقد أرسلوا إمدادات كبيرة إلى مالطة لمنع الاستيلاء على الجزيرة لأنهم دخلوا الحرب فى حالة يرثى لها من ناحية الاستعداد .

ولم يكن هناك شيء مسعد لمثل هذا العمل .. وقد أوضح لى المارشال بادوجليو بنفسه الحقائق فى كلمات مشوبة بالحذر . ويمكن اليوم الحصول على صورة واضحة للموقف كله بعد الرجوع إلى سجلات الحرب .

١٥ - أسطول الطقس اللطيف :

لقد لاحظ موسوليني سنة ١٩٣٩ الانتصارات الألمانية الباهرة في بولندا في ذهول وتراءى له أن احتلال الجنرال ويڤل لـ «نارڤيك» كان من فعل ساحر ، ولكنه هز رأسه عندما علم أن الدانمارك وأوسلو قد سقطتا في يد الألمان بدون إطلاق طلقة واحدة . ولاحظ الدوتشي باهتمام زائد كيف اكتسح جنود هتلر أعداءه الفرنسيين كما تكتسح الريح الهشيم . وهكذا رأى موسوليني هتلر الذي يعده أحد تلاميذه يحقق النصر لنفسه في أوربا وقد أعد أيضًا خطة لغزو بريطانيا ذاتها ! ! وهذا يجعل الحرب من المتوقع أن تنتهي في ظرف ثلاثة شهور . والنتيجة هي النصر للألمان ثم يملي الفوهرر شروط الصلح .

وما الذي سيحدث لإيطاليا ؟ « فلو أرادت إيطاليا أن تجلس على مائدة الصلح عندما يقسم العالم فيجب عليها أن تدخل الحرب وأن تدخلها بسرعة » . هكذا قال موسوليني لمارشالاته يوم ٢٦ مايو سنة ١٩٤٠ في البندقية . ووقف المارشالان «بالبو» و «بادوجليو» وقد جمدا كأنهما تماثيل من الحجارة . وقد أذهلهما ما سمعاه من أن إيطاليا سوف تدخل الحرب !

ولاحظ موسوليني سلوكهما غير المتمشي مع رأيه . وتبادل القائد العام في ليبيا المارشال بالبو النظر مع المارشال بادوجليو رئيس هيئة أركان حرب الجيش . ثم رفع الدوتشي يده وقال بعظمة: « يجب أن أخبركما أنني أرسلت بالأمس رسالة إلى هتلر أؤكد له أنني لا أنوي أن أقف متفرجا ويدي في جيبي . وأني سأعلن الحرب على فرنسا اعتبارا من ٥ يونية » .

وتقدم بادوجليو وقال: « هل تعلم أيها الدوتشي أن إيطاليا غير مستعدة للحرب بالمرة من الناحية العسكرية ؟ لقد اطلعت على التقارير الدورية ويوجد ٢٠٪ فقط من القوات استكملت مرتبات الحرب ، وأكثر من ٧٠٪ من فرقنا المدرعة ليس لديها دبابة واحدة ، وليس لدينا حتى أقمصة كافية للجنود . فكيف يمكن لنا أن نشن الحرب وفي مستعمراتنا لا توجد أية استعدادات عسكرية وأسطولنا التجاري موزع في البحار؟ » وحاول بادوجليو مواصلة حديثه إلا أن موسوليني قاطعه قائلا: « إن التاريخ لا يمكن أن يكتب بعدد القمصان التي نملكها » .

وهكذا دخلت إيطاليا الحرب ولم يستقل بادوجليو ولم يقم القواد بثورة . وكيف كان يمكنهم أن يفعلوا هذا ؟ فإن هذا يعني أنه خلال عشر سنوات من الفخر

والخيلاء والكلام المنمق قد أخفوا الحقيقة وهى أن الجيش الإيطالى أداة لا فائدة منها. وكانت الأمور تبدو فى الظاهر أحسن حالا فى السلاح البحرى وطبقًا لأقوال موسولينى فإن كل شىء يتوقف على البحرية .. وبقوله هذا لم يكن قد تمادى فى الخطأ بعيداً !!

فالجيش الإيطالى يمكن أن يقاتل فى أى مكان.

لقد كان الأسطول المدرج فى القوائم مكوناً من ٦ بوارج و ٢٩ طراداً و ٦٩ زورق طوربيد و ١١٥ غواصة . فهل لا يعد كل هذا شيئاً !!

لقد كان لإيطاليا أكبر أسطول للغواصات فى العالم . وما الذى تستطيع أن تعمله بريطانيا العظمى فى مواجهته ؟ وما هى القوات التى تملكها بريطانيا فى مصر ؟ إنها تملك ٣٥ ألف جندى يقابلهم فى الجانب الإيطالى تحت قيادة المارشال بالبو ١٤ فرقة يبلغ تعدادها ٢٢٠ ألف مقاتل .

حقيقة أنهم لا يملكون مدرعات ثقيلة ولا يملكون العدد الكافى من المدرعات الخفيفة . وحقيقة أن أربع فرق فقط كانت على استعداد للحرب وفرقتين فقط لديهما الحملة الكافية . ولكن لا شك أن ٢٢٠٫٠٠٠ مقاتل يمكنهم اكتساح ٣٥٫٠٠٠ مقاتل بسهولة ونحن نعلم مدى النتائج التى تحققت من هذا الكلام . ونعلم أن هتلر قد قرر فجأة الخطورة التى سيترتب عليها طرد موسولينى من أفريقيا وبذلك يعرض معدة أوربا الضعيفة للهجوم الواسع من قبل البريطانيين.

وكان هذا هو السبب الذى جعل هتلر يرسل لموسولينى الفيلق الأفريقى تحت قيادة روميل ليوقف العطن فى أفريقيا . ولو أرسلت هذه الفرق الثلاث إلى أفريقيا قبل ذلك بستة شهور (كما اقترح الجنرال جوديريان فى نهاية شهر يونية سنة ١٩٤٠م) لكان فى استطاعتهما أن يقررا مصير الحرب فى شمال أفريقيا فى ذلك التاريخ . ومن المحتمل أن الإسكندرية وقناة السويس والقاهرة كانت قد سقطت فى أيدى المحور .

وقبل أن تبحر أول سفينة تحمل مقدمة الفيلق الأفريقى إلى طرابلس أرسلت القيادة الألمانية العليا الجنرال جيسلر وتحت قيادته الفيلق الجوى العاشر ويضم ٢٠٠ طائرة إلى جزيرة صقلية . وسرعان ما زاد عدد الطائرات إلى ٥٠٠ وكانت مهمة الطائرات المقاتلة والقاذفات المقاتلة من طراز استوكا شن الهجمات على القوات البحرية البريطانية فى البحر المتوسط وتأمين الإمدادات المرسلة لأفريقيا . وهكذا

ظهرت أول محاولة لاستعراض القوة ، وفى اليوم السابع من يناير سنة ١٩٤١ شوهدت القوات البحرية البريطانية فى شرق البحر المتوسط وغربه وهى تتجه إلى مالطة .

فقد غادرت ميناء جبل طارق أربع بواخر شحن عليها شحنات ثمينة مرسلة إلى مالطة واليونان . وكانت القافلة البريطانية عليها حراسة مشددة . ونتيجة للتجارب السابقة مع البحرية الإيطالية التى يسميها تشرشل (أسطول الطقس اللطيف) لم يكن هناك مبرر لانزعاج البحرية البريطانية .

وبعد ظهر يوم ٩ يناير ١٩٤١ قامت لأول مرة الطائرات الإيطالية الحاملة للطربيد بمهاجمة القافلة جنوبى جزيرة سردينيا فقد كان لوجود سلاح الطيران الألمانى فعل السحر على الروح المعنوية للإيطاليين . وهاجمت القافلة زورقين من زوارق الطربيد الإيطالية . ودخلت السفن فى حقول الألغام التى بثها الألمان وغرقت سفينتان .

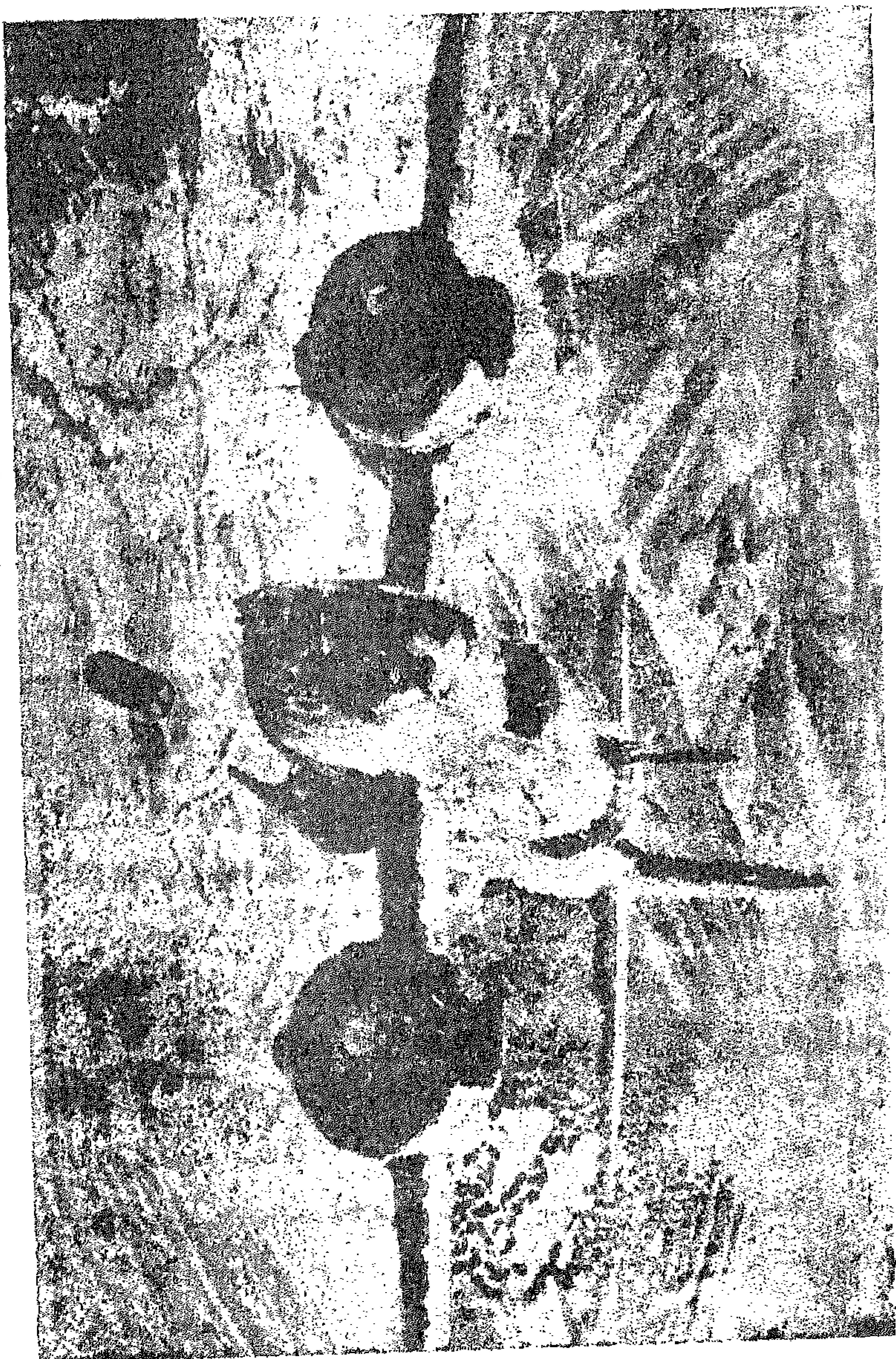
وفى اليوم التالى وهو العاشر من يناير قبل أن ينتصف النهار كانت أكبر سفينة فى القافلة وهى حاملة الطائرات اللستدايوس على بعد مائة ميل غرب مالطة وكانت تحمل الطائرات للجزيرة التى ينتظرونها بفارغ الصبر .

وعلى ظهر الحاملة كانت طائرات على أهبة الاستعداد للإقلاع، ولكن طائرات استوكا ويونكرز ٨٧ و ٨٨ قامتا بهجوم مفاجئ على القافلة . وقامت الطائرات بقذف الحاملة بالقنابل مما أدى إلى تحطيم السطح العلوى للحاملة واشتعلت فيها النيران . وتلف محرك الحاملة وأخذت تدور حول نفسها . ومرة بعد المرة عادت الطائرات الألمانية والإيطالية الحاملة للطربيدات إلى ضرب الحاملة المصابة .

وطبقًا للتقارير الرسمية عن المعركة فإن الهجوم الألمانى على الحاملة هو فقط الذى أدى لإصابتها . وفى بحر عشر دقائق انفجرت عشر قنابل زنة الواحدة منها ألف رطل على ظهر الحاملة . وأرسل الأدميرال البريطانى قائد القافلة إلى القاهرة ولندن برقية يقول فيها: « إنه قد حدث اللقاء الأول بين القوات البريطانية والبحرية والسلاح الجوى الألمانى فى البحر المتوسط .

ولكن أين كان الأسطول الإيطالى ؟ أين كان الأسطول الذى يفخر به موسولينى ؟

فلم يظهر الأسطول الإيطالى . وتمكن قبطان الحاملة اللستدايوس بمهارته فى



قاذفة القنابل الألمانية وهي تضرب جزيرة مالطة بالقنابل

فنون البحر وبمعاونة رجاله أن يقود الحاملة المصابة إلى مالطة إلا أن هذا اليوم لم يئته بعد . فقد اصطدم الطراد سوث هامتين بلغم وأصيب بعدة قنـابل . وبذلك فقد البريطانيون طراداً من أسطولهم فى البحر المتوسط .

ولم يمنح الطيارون الألمان حاملة الطائرات البريطانية فرصة للراحة . فقد واصلوا غاراتهم عليها . وكان على البريطانيين أن يستخدموا كل المدافع المضادة للطائرات للدفاع عنها . ولم يتخذ أى إجراء ضد القوافل المحورية .

وتمكنت سفن النقل الألمانية من الوصول إلى طرابلس دون أن يصيبها ضرر. وكان هذا الحادث هو أحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى انتصارات روميل الأولية . وواصلت القاذفات الألمانية طيرانها لضرب مالطة فى حماية المقاتلات . وانفجرت القنابل فوق الجزيرة الصغيرة وفوق الأرصفة وورش الإصلاح ومستودعات التموين وفوق السفن والمطارات .

وفى السابع من شهر مارس ١٩٤١ أبلغ الفيس مارشال ماينارد (قائد سلاح الطيران الملكى البريطانى فى مالطة) القاهرة أنه لم يعد فى استطاعته حماية طائراته من طراز ستدرلند ولنجتن من المقاتلات ولهذا نقلت الطائرات إلى مصر .

وفى نفس اليوم أرسل حاكم مالطة الجنرال سير ويليام دوبى برقية إلى لندن يطلب فيها النجدة ويقول فيها: « إن هجوم العدو الجوى شديد لدرجة أن مالطة معرضة إلى أن تفقد أهميتها كقاعدة جوية وبحرية بريطانية » وأرسلت قيادة الشرق الأوسط فى القاهرة طائرات الهاريكان المقاتلة إلى الجزيرة لحمايتها إلا أن الألمان واصلوا هجومهم على الجزيرة .

وفى المدة بين يناير ويونية سنة ١٩٤١ خسر البريطانيون ٧٨ طائرة ، فى حين أن الهجوم الإيطالى على الجزيرة من يونية ١٩٤٠ إلى يناير ١٩٤١ لم يسبب أية أضرار جسيمة للجزيرة الصخرية . وبعد خمسة أشهر من الهجوم الألمانى تغيرت الصورة ، فبالرغم من وجود الكهوف الطبيعية فى الجزيرة التى استخدمت كملاجئ فقد زاد عدد القتلى عن ٤٠٠ فرد، وأخذ المالطيون يتهامسون ، ورفضوا العمل لإزالة الأنقاض .

وفى مارس كانت الجزيرة تعانى من نقص فى المؤن . وفرضت بطاقات التموين وأصبح الوقت مناسباً لعملية الغزو من قبل الألمان والإيطاليين للجزيرة . وأرسلت القيادة البريطانية العليا تعزيزات من المشاة إلى الجزيرة تم إرسالها من مصر . وكانوا ينتظرون كل يوم الغزو الذى أصبح وشيك الوقوع . وكان لدى

البريطانيين ثمانى كتائب وآلاى مدفعية للدفاع عن الجزيرة ، وبالإضافة إلى هذه القوات كانت توجد عدة بطاريات من عيار ٣٧ بوصة و ٦ بوصة وقليل من المدافع عيار ١٨ رطل ، أما فيما يختص بالمدرعات فكانت هناك وحدة من الآلاى الثانى إلا أنها كانت مسلحة بدبابتين خفيفتين وأربع دبابات للمشاة .

وبدت الأمور عابسة قاسية بالنسبة لمالطة . وفى هذا الوقت كان لدى قوات المحور الفرصة للوصول إلى حل حاسم ضد بريطانيا العظمى فى البحر المتوسط . وكانت خطة الأدميرال الأكبر رايدر قائد البحرية الألمانية يبدو أنها هى الخطة الصحيحة وكانت تتضمن الاستيلاء على مالطة حتى يمكن إرسال الإمدادات الضخمة إلى أفريقيا دون عائق وبذلك يصبح روميل فى موقف يسمح له بتتويج نصره فى برقة بدخوله لمصر .

وكان من الواضح أن تشرشل لن يكون له مثل هذا المستقبل السياسى الزاهر لو تم لروميل دخول مصر.

ولكن ما الذى فعله هتلر ؟ ففى ٢٢ يونية ١٩٤١ قام بفتح الجبهة الشرقية ضد روسيا ، فهاجم روسيا التى كانت تمده ببعض القمح والوقود . وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن الاعتماد على روسيا طوال الحرب ، ولكن لم يكن لديها نوايا عدوانية مباشرة ضد ألمانيا .

١٦ - الكنوز الخرافية تخرج من البحر :

ونتيجة للحرب الروسية نقلت وحدات من الأسطول الجوى العاشر الألمانى من صقلية إلى الجبهة الشرقية . وقلّ سقوط القنابل على مالطة ، بينما عزز تشرشل قواته فى الجزيرة ، ومرة أخرى أنزلت القوات البريطانية البحرية والجوية الخسائر الفادحة بإمدادات روميل ووقف روميل مكتوف اليدين أمام أبواب طبرق فى صراع يائس لأنه لم يستطع الحصول على إمدادات كافية . ولكن هل كان من الممكن الاستيلاء على مالطة ؟ إن هذا هو السؤال الذى سأله اليوم المؤرخون الألمان. وفى رأيى أنه كان من الممكن الاستيلاء عليها .

فالغزو الألمانى الناجح لكريت أثبت أنه من الممكن الاستيلاء من الجو على جزيرة أكبر من مالطة ٣٣ مرة حتى إذا كان الدفاع عنها أفضل . وكان الاستيلاء على كريت هو أول غزو من الجو فى التاريخ . ولقد كان ناجحا . فهناك فى كريت حاول الرجل الأسطورى أيكاروس منذ بضعة قرون أن يحقق حلم الإنسان القديم فى

الطيران فركّب لنفسه جناحين مستخدمًا الشمع للصقهما بجسمه إلا أنه سقط فى البحر وتحطم .

أما الرائد كوشن الذى حلق فوق كريت يوم ٢٠ مايو ١٩٤١ فى تمام الساعة السابعة والنصف فى طائرته الشراعية نزل فى الجزيرة على رأس الكتيبة الأولى من آلاى المظلات ، ولكنه لم يسقط فى البحر ، وقد تبعه الأسطول الجوى فى النزول بالطائرات اليونكرز ٥٣ .

وأسقطوا رجال المظلات ، وبذلك سقط فوق الجزيرة آلاف من أمثال أيكاروس ولكن فى العصر الحديث ، وهم مسلحون جيداً بالأسلحة والذخيرة . وسقطوا مثل السحب البيضاء من خلال السماء الزرقاء . وقفزوا إلى الجزيرة الصخرية الموجودة أسفلهم بينما أمطرهم المدافعون بالموت والدمار .

وما الذى قاله تشرشل فيما بعد عن هؤلاء الجنود ؟ لقد قال تشرشل عنهم: «هؤلاء الجنود الشجعان كانوا من رجال المظلات وهم زهرة الشباب الألمانى ، وكانت هذه هى الحقيقة فأحدهم كان نافخ البوق «أرنست سبرنجر» وهو صياد من إقليم سيليزيا العليا ونزل مع الكتيبة الأولى أثناء الغزو ثم أخرج نفيره وهو ما زال معلقًا فى الجو وأطلق نداء الهجوم . فدوى صدى ندائه غريباً مفزعا فى آذان جنود اللواء النيوزيلندى الخامس المذهولين الذين كانوا يدافعون عن الجزيرة وكأن نداءه تحية النصر للرجال الهابطين .

وتم الاستيلاء على كريت . وكان أول إنزال من الجو ناجحًا . ولكن النجاح كان غالى الثمن ، فقد تكبد رجال المظلات خسائر مفزعة . فعندما كانوا محلقين فى الجو كانوا أهدافًا للمدافع الرشاشة من أسفل . وسواء ماتوا أو جرحوا فقد ظلوا معلقين فى مظلاتهم البيضاء . وعند وصولهم إلى الأرض كانوا يتدحرجون حتى يوقف تدحرجهم شجيرة أو صخرة . وتسكن المظلة المصنوعة من الحرير الأبيض ، وتلتف حول جثثهم لتسترها كالكفن .

وقد ضحى رجال المظلات وهم النخبة المنتقاة فى أول عملية كبرى بكل ما فى التضحية من معنى ، ولكن «كريت» وهى المعقل القوى بين اليونان وطبرق قد سقطت فى أيدى الألمان . وأرسل تشرشل يتوسل يائسًا إلى روزفلت بأن بريطانيا سوف تخسر الحرب ما لم تضاعف الولايات المتحدة مساعداتها لها .

وكان هناك كثير من القادة العسكريين الألمان وكانوا يريدون الحصول (من

هذا النصر الغالى الثمن) على نقطة وثوب لعمليات حاسمة أخرى ضد الحلفاء فى البحر المتوسط وأفريقيا ، وكان رايدر على رأس هؤلاء . وفى هذه الأيام لم يكن تشرشل يخشى شيئًا أكثر من أن يقوم الألمان بعملية إنزال جوى على مالطة وفى ٢٨ مايو ١٩٤١ أرسل برقية إلى الجنرال ويڤل فى القاهرة أبدى فيها مخاوفه من أن مالطة قد تفقد ، فيتحطم خط المواصلات فى البحر المتوسط مع مصر .

غير أن هتلر لم ينتهز هذه الفرصة التى أرسلتها له السماء . بل رفض كذلك خطة الجنرال الجوى ستيودنت الذى أراد الاستيلاء على قبرص ، ومن هناك يقوم بعمليات بحرية وجوية ضد قناة السويس . ويرجع سبب الرفض فى أن الخسائر الفادحة فى كريت أذهلت هتلر زاد على ذلك أن موسولينى كان لديه الطموح فى محاولة غزو مالطة بمفرده . وكان هتلر يعلم تماماً أن موسولينى لن يستطيع تنفيذ العملية إلا أن قلبه لم يطاوعه على جرح إحساس صديقه موسولينى .

وقد أدى البدء فى الحملة الروسية إلى إهمال وترك كل الخطط المعدة للاستيلاء على مالطة ووضعها فى الدرجة الثانية من الأهمية ، وكان على الفيلق الأفريقى أن يدفع ثمن كل هذا .

ومن يونية إلى أكتوبر ١٩٤١ أغرقت ٤٠ باخرة كانت تحمل الإمدادات إلى شمال أفريقيا.

وبلغت حمولة هذه السفن ١٧٩٫٠٠٠ ألف طن ، وفى سبتمبر أغرق نحو ٤٠ ٪ من مجموع البواخر التى أبحرت إلى أفريقيا ، يضاف إلى هذا التضحيات المفزعة فى الرجال وإمدادات الحرب ، كما أصبح النقص فى عدد البواخر محسوساً. ونتيجة لهذا فإن مجموع الإمدادات المرسلة لروميل كانت عبارة عن ٥٠٫٠٠٠ طن أغرق منها ٦٠ ٪ .

وفى نوفمبر أرسل له ٣٧٫٠٠٠ طن فأغرق منها ٧٧٪ بواسطة البحرية البريطانية وسلاح الطيران البريطانى . وأصبح الآن واضحاً أن حملة روميل فى شمال أفريقيا سوف تنتهى نهاية سيئة نتيجة للحصار البحرى لإمداداته . وتحقق هتلر أخيراً من ذلك . ودوى الإنذار فى القيادة العليا . وأرسلت برقية باللاسلكى إلى رجل فى الجبهة الشرقية كان هو كفيلاً بتغيير كل ذلك . وكان هذا الرجل هو المارشال كسلرينج وكان الجنود فى أفريقيا يعانون من المأساة القاسية وهى النقص فى الإمدادات . فالجندى العادى لا يعلم شيئًا عن المشاكل الإستراتيجية ولا يعرف شيئًا عن الإمدادات التى تغرق غير أنه كان يلاحظ أن سريته كانت دون الحد

المقرر لها فى الرجال والإمدادات ، ولا يصلها الدبابات ولا الوقود ولا البيرة ، ولا حتى الترفيه البسيط الذى يجعل الحياة فى الصحراء أكثر احتمالا . وكان يحدث أحيانا أن السماء- أو بالأحرى البحر- يمدهم ببعض الكنوز الخرافية .

وما زال رجال الكتيبة ٣٣ استطلاع كلما تذكروا هذه الصدفة المدهشة يسيل لعابهم . فقد كان على دوريات الكتيبة إرسال تقاريرها باللاسلكى عندما تعود من استطلاعها إلى الخطوط الألمانية . وقد فوجئ قائد الكتيبة بكلمة كودية غريبة وردت فى التقرير وهى كلمة (النمر) وبعد قيامه ببعض التحريات دهش عندما علم أنها لا تعنى أكثر من أن قائد الدورية يعنى أن رجاله ذهبوا ليستحموا فى البحر .

وفى أحد الأيام قلق النقيب هيرا كورت قائد السرية الأولى عندما تأخر الملازم إنجل هارت القائم بالاستطلاع عن موعد عودته بعدة ساعات بعد إرساله الكلمة الكودية (النمر) وعندما ظهر الملازم أخيراً كان يسلك سلوكاً غريباً فقد عثر على شيء ثم أخرج من جيب سرواله زجاجة من الويسكى .

وكانت قصة عثوره على الويسكى مثيرة جدا. ولم يصدقها النقيب هيرا كورت وقال الملازم بانفعال: « اذهب لترى بنفسك » ، وركبا العربة إلى المرتفع المجاور لبلدة البردية وهناك ظهر السر . فقد قذف البحر بحطام سفينة إلى الخليج الصغير . ولكى يكون الحديث أكثر دقة قذف البحر بنصف سفينة . فقد فقدت السفينة مقدمتها وقذفت الأمواج بالجزء الباقى إلى الشاطئ وكان اسم السفينة «هيكلا» وسبح الضابطان إليها . وكانت محتويات السفينة تفتح الشهية ، فالجزء الأمامى كان مملوءاً بالصناديق المعبأة بالخضراوات المحفوظة والفواكه والزبد والشيكولاتة والسجائر والويسكى ولم يهتما بالأحذية الطافية والملابس الخاصة بالجيش البريطانى .

وعاد الضابطان إلى الشاطئ وجمعا كل السرية وأمراها بتفريغ السفينة ، وكان هذا هو الواجب الأول واستغرق ذلك خمسة أيام ولم يتصبب الرجال عرقاً من حرارة شمال أفريقيا إلا نادراً ولكنهم هذه المرة تصببوا عرقاً وكانوا فى غاية السعادة والسرور أثناء تفريغ السفينة فى الخليج الصغير المجاور للبردية .

وكانت الصناديق تنزل إلى الماء وهى محملة على زوارق من المطاط ثم تسحب إلى الشاطئ . وكان هذا العمل يستغرق ثلاثة أرباع ساعة . ومن هناك كانت تحمل فوق منحدر الجبل وتوضع فوق العربات .

وحصلوا على ٤٠٠ زجاجة ويسكى . وكانت هذه الأيام أسعد أيام الكتيبة ٣٣ استطلاع . ولم يكن هناك ماء صودا من ضمن حمولة الباخرة هيكلا ، ولكن طعم الويسكى كان أحسن مذاقًا بدون صودا أو مع بعض قطرات من ماء البحر المالح . ورغم أن وحدات عديدة استفادت من هذا العثور إلا أن الوحدات استمرت تأخذ منها لمدة طويلة وكان ذلك من حمولة نصف سفينة صغيرة . وهذه واحدة من مئات السفن البريطانية والألمانية التى غرقت أبان الحرب . وكان الأمر يبدو محيراً عندما يفكر فيه الإنسان !!!

الفصل الخامس

الهجوم المضاد الثانى لروميل

الفصل الخامس

الهجوم المضاد الثانى لروميل

(انظر اللوحة رقم ١١ أ)

١ - حرب المد والجزر:

أين كنا قبل ذلك ... ومتى كان ذلك ؟

كان هذا من تسعة أشهر مضت ، وكنا فى ذلك الوقت نتقدم فى اتجاه طبرق وكان هدفنا الوصول إلى القاهرة وقناة السويس !!

يا للسماء ... والآن نحن فى طريق الانسحاب .. وليس هناك أغان أو أناشيد للانسحاب ، فطريق الانسحاب ضعف طريق التقدم فى مدته وصعوبته.

وتساءل البعض: هل كان الطريق هكذا أثناء التقدم؟

نعم كان كذلك ، ولكنهم لم يلاحظوا مشقته ، فالانتصارات تخفف من عبء الصعاب وتجعل الإنسان ينساها.

منذ متى كانت تلك الأيام التى قاتل فيها الألمان أمام طبرق؟ كان ذلك أحد أيام الآحاد فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤١ .

نعم كان ذلك منذ أسابيع قليلة، ولكنها تبدو وكأنها شهور ، وكانت المعارك تدور كل يوم ، كل يوم يتم فيه اشتباك المعارك مع الجيش الثامن المهاجم الواثق من النصر .

ولم يكن هناك أحد يعرف على وجه التحديد مكان العدو أو الصديق ، فالمواقع كانت تحتل ثم يتم إخلاؤها ، وكان الكثير من الأسرى يعودون سيرا على الأقدام إلى وحداتهم بعد بضع ساعات من أسرهم . وكانت مستشفيات الميدان يتبادلها الطرفان ثلاث أو أربع مرات فى اليوم الواحد ، ولم يهتم الأطباء الألمان والبريطانيون بذلك وظلوا فى خيامهم جنباً إلى جنب يجرون العمليات الجراحية ويواصلون عملهم .

واستمر ذلك ثلاثة أسابيع من أول شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ حتى نهايته .

ثم حلت أمطار الشتاء وأصبح الجو فى أفريقيا بارداً.

وكان روميل يعرف أنه فى هذه الحرب الحديثة لم يكن الأمر مسألة الاستيلاء على منطقة من الصحراء سواء كانت برقة أو غيرها . ولكن الحرب فى شمال أفريقيا يتقرر مصيرها فقط بتدمير قوات العدو تماماً أما كسب الأرض فلا يعد نصرا كما أن خسارتها لا تعد هزيمة .

وكان كلا الجانبين قد عرف ذلك . رغم أن القائد العام البريطانى أوكنلك ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه القائد السابق ويڤل فقد اختلط عليه الأمر . ففى ٢٦ ديسمبر ١٩٤١ أبرقت وكالة رويتر من القاهرة إلى قرائها فى لندن قائلة: « إن بقايا الفيلق الأفريقى والجيش الإيطالى تتراجع على طول الطريق الساحلى المحاذى لخليج «سرت» إلى طرابلس . وقد تحقق الهدف الرئيسى وهو تدمير قوى العدو فى الصحراء الغربية . فلقد هزمت المدرعات الألمانية ولم يبق منها إلا بضع دبابات وهى تفر فى ذعر إلى طرابلس » .

وتاريخ الحرب العالمية الثانية ملىء بمثل هذه الأخطاء الجسيمة ، وقد أخطأ هتلر وكذلك تشرشل وقد دفع كلاهما الثمن باهظاً .

وفى لندن حوالى نهاية العام كان النصر واضحاً فى الأفق: « لقد هزم روميل ، لقد دمرت قوة روميل » .

أما الرأى العام البريطانى فكان يجب أن يكون حذراً وأكثر حذراً من تقبل هذه الأنباء، وكان يجب عليه ألا يصدق كل ما يقال . ولكنه كان بعيداً جداً عن أفريقيا، وحتى من هم أقرب لأفريقيا قد وقعوا فى نفس الخطأ ، فهم لم يعرفوا روميل ولم يعرفوا رجال المشاة الألمانية ، فلقد كان لروميل إرادة من حديد وكانت لديه خطة ولكن كانت له مصاعب مع الإيطاليين وخاصة القائد العام الذى كان يخشى من التأثير السياسى للانسحاب أمام البريطانيين .

وصرخ روميل فى وجه الجنرال باستيكو: « إننى أنسحب لأنه يجب علىّ أن أفعل ذلك وإلا فلن أفقد فقط المعركة بل سأفقد الجيش كله » .

ولذلك أخذت قوات المحور فى الانسحاب منذ بداية ديسمبر ١٩٤١ وتركت قطاع طبرق واتجهت إلى الغرب إلا أن هذا الانسحاب لم يكن انهزامًا وتقهقراً فى

فوضى مثل ما كان عليه الانسحاب الإيطالى فى السنة السابقة، بل كان الفيلق الأفريقى ينسحب فى نظام تام . وكانت القوات من الجنود المنتخبين بعناية تحت قيادة ضباط شجعان يسترون هذا الانسحاب الاستراتيجى ، وكانت هذه القوات تمثل الوحدات الميكانيكية ووحدات الاستطلاع المدرعة ، ووحدات المدفعية المضادة للطائرات وسرايا الواحات .

وفى ١٦ ديسمبر حضر من روما المارشال كافاليرو رئيس هيئة أركان حرب القيادة العامة الإيطالية لزيارة روميل وتوسل إليه بعدم التخلى عن برقة . وقال له: «أى هزيمة ظاهرة للعيان ستكون خطرة على سمعة موسولينى » .

وأجاب روميل بغضب لاذع: « وماذا تكون الحال لو هزمنا وفقدنا الجيش كله ومعه شمال أفريقيا ؟ » .

ورغم ذلك أصر كافاليرو على إلغاء أمر الانسحاب ونسى ما حدث قبل ذلك بعشرة أيام عندما أخذ الجنرال كرooويل يرسل رسائله اليائسة عبر الصحراء ، عندما كانت الفرقتان ١٥ و ٢١ بانزر عند بير الجوبى والنصر قاب قوسين أو أدنى وهو يطلب فى رسائله: « أين جمبارا؟ » إلا أن جمبارا لم يظهر، وكان الجواب الذى تلقاه: «إن جنودى مرهقون » كما لو كان جنود الفرقتين الألمانيتين لم يحاربوا ولم يرهقوا إلى حد الإعياء » .

ورفض روميل أن يضغط عليه أحد وكان أمره الذى أصدره: « شقوا طريقكم إلى الخلف إلى موقع دفاعى جيد ».

ولكن تبعًا للتجارب السابقة لم يكن هناك مثل هذا الموقع فى برقة كلها، ولكن يوجد مكان مناسب واحد حيث سبق له أن أوقف التقدم البريطانى فيه وذلك عندما طارد ويڤل الإيطاليين فى شتاء سنة ١٩٤٠ من الحدود المصرية عبر طريق بالبو إلى المنحنى الهائل لخليج سرت . وهى نفس المنطقة التى شن منها روميل أول هجوم له منذ تسعة أشهر .

نعم، الحرب فيها مد وجزر . والآن بالنسبة لروميل كانت الحالة جزر . ففى ليلة ٢٠ ديسمبر ١٩٤١ قام الرائد «آهل» على رأس مشاته الميكانيكية المدرعة ومعها بطارية مدفعية مدرعة وسرية من الكتيبة البانزر ٣٣ لإنشاء الموقع الدفاعى اللازم هناك ، بينما تجمع الفيلق الأفريقى فى الصحراء ، للعمل كحرس مؤخرة ضد البريطانيين ومنعهم من الوصول إلى الجنوب الشرقى من أجدابية .

وكانت هذه أياما حاسمة لروميل . فهل يستطيع الوصول إلى الموقع المختار فى مرسى البريقة ، ويوقف التقدم البريطانى ؟

وبالطبع حاول البريطانيون أن يحبطوا خطة روميل إلا أن شجاعتهم فى هذه المحاولة لم تجد ، لأن خطوط مواصلاتهم الطويلة سلبتهم القوة الدافعة على القتال علاوة على أن رجال حرس المؤخرة لقوات روميل ظلوا يدافعون ويقاومون رأس حربة الجيش البريطانى .

وكانت تندفع مجموعة القتال بالير ستد وسط العدو وتهاجمه ثم تقفز بعد ذلك فى عرباتها وتواصل الانسحاب . وبالطبع كانت القوات الألمانية تفقد كذلك الكثير من المركبات ولكن روميل كان يحصل على العربات لقواته من البريطانيين أنفسهم.

٢ - قوات روميل تحتفل بالعام الجديد :

وبين ٢٧ – ٢٩ ديسمبر ١٩٤١ ألحق الفيلق الأفريقى خسائر فادحة بالبريطانيين أثناء الدفاع عن أجدابية . وحلت رأس السنة فى ٣١ ديسمبر فوق الصحراء ولكنها كانت باردة مظلمة إلا أن طلقات الإشارة لوحدات الاستطلاع أنارت الليل . وكانت تطلقها لتهدى المتخلفين الذين ضلوا الطريق ، وكان على ضوء هذه الشعلات يشق الجنود طريقهم قتالا إلى حيث توجد وحداتهم ، ثم نظر أحدهم فى ساعته . لقد حلت ليلة رأس السنة . ولم يبق على انتصاف الليل سوى عشر دقائق، وقالوا : «بعد عشر دقائق يمكن أن نؤرخ أوامرنا بأنها صادرة فى عام ١٩٤٢م» .

وكان أركان حرب الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات يريد أن يشرب قليلا من الشمبانيا فى منتصف الليل تماماً فوضع الزجاجة التى استولى عليها فى حفرة من الرمال لكى تبرد ، أما الرائد هيج فلقد وزع قواته بمهارة دفاعية فاستطاعت تغطية المواقع الدفاعية حول أجدابية بالنيران .

وكان الآلاى الاحتياطى ١١٤ مدفعية مضاد للطائرات يدافع عن القطاع الشمالى بـ ١٣ مدفعًا عيار ٨٨ مم و٩ مدافع ٣٧مم أو ٢٠ مم و ٧ مدافع عيار ٨٨ مم تدافع عن القطاع الشرقى، أما باقى آلايات المدفعية الميكانيكية المضادة للطائرات وهى الآلايات (١٨ ، ٣٣ ، ٣٥) فقد بقيت مع الفيلق الأفريقى وخصصت للمعركة المائعة . وأمر روميل بوضع بطاريات كاملة من المدافع الهيكلية فى

المواقع . وقد قام الآلاى الاحتياطى ١١٤ مدفعية مضاد للطائرات بعمل هذه المدافع. فقد جمعت المواد المطلوبة من الصحراء حوله. وضحك رجال المدفعية وهم يشاهدون البريطانيين يمطرون هذه المدافع الهيكلية بقنابلهم .

وأخرج النقيب مردان من جيبه آخر خطاب وصله من أهله وقد انشغل بقراءته عن شرب الشمبانيا عند منتصف الليل، إلا أنه تنبه فى الوقت المناسب فأخرج سدادة الزجاجة وأخذ يشرب وهو يتذكر قول أحد أصدقائه: « كم هو جميل منظر فقاعات الشمبانيا وهى تتصاعد من الكأس كأنها حبات اللؤلؤ » وفى هذه اللحظة انفجر بركان من الجحيم على طول الجبهة وكان هذا يعنى شيئًا واحداً وهو أن هناك هجوماً عاماً .

وقفز الأركان حرب من خيمته ، كما اندفع الرائد هيج من خيمته أيضا وشاهدا السماء وقد امتلأت بالمشاعل البيضاء والخضراء والحمراء والصفراء فأضاءتها .

وأخذت المدفعية والمدافع الرشاشة والبنادق تطلق نيرانها . وزحفت المشاعل كأنها مذنبات على وجه السماء . غير أنه لم تكن هناك معركة وكل ما فى الأمر أن جيش روميل كان يحتفل بالسنة الجديدة بهذه الطريقة . ومن الذى كان لديه قلب قاسٍ لكى يمنعهم من مثل هذه المتعة !!

واحتج الإيطاليون بالتليفون . فأجابهم الجنرال بايرلاين: « هدئوا من روعكم فإن الظلام ما زال مخيما فوق خطوطكم ولن يحدث شىء مما تخافونه » .

وكان المنظر رائعًا . وكونت المشاعل ممراً مضيئًا . وتحت هذا الضوء الساطع وبدون تفكير خرج الرجال من حفرهم وهم فى غاية السرور. ثم حدث شىء لا يصدق ولولا أنه حفر فى ذكرياتهم آلاف المرات ما جرؤ أحد أن يعيد روايته . فإن ما حدث كان معناه التحدى السافر . وكان معناه إيمانهم بعقيدتهم لأنهم بدون إيمان ما استطاعوا تحمل مأساة الموت والقتال . ولكنهم كانوا يؤمنون إيمانا عميقًا بعقيدتهم ورغم أنه قد أسىء استغلالها مع خيانتها ثم تدميرها . وبالرغم من كل هذا فقد كان الجنود ما زالوا يؤمنون بها . وارتفع صوت أحد الرجال وتبعه الآخرون .

ففى وسط الصحراء بالقرب من أجدابية وفى مساء السنة الجديدة أخذوا ينشدون: « ألمانيا فوق الجميع » أخذوا ينشدون وكلهم إيمان وكانوا متعبين مطاردين

قذرين قد تجمدت سيقانهم وكأنها وضعت فى آنية من الأسمنت وقد امتلأت جواربهم التى بللها العرق بالرمال وتمزقت أحذيتهم ، وفقدت سراياهم كثيراً من الرجال حتى أصبحت قليلة العدد ، ورغم كل هذا فقد أخذوا يغنون . وفى اليوم التالى أرسل اللواء ٢٢ المدرع البريطانى إشارة إلى القاهرة يقول فيها:

« قد نقول: إن جيش روميل لم يعد لديه دبابات إلا أنه شيء سابق لأوانه أن نتحدث عنه كجيش مهزوم ، ففى الليلة الماضية وفى الخطوط الأمامية أخذ رجال الفيلق الأفريقى ينشدون نشيدهم القومى . ويجب ألا نخدع أنفسنا أن هؤلاء الجنود وعلى رأسهم قائدهم المحنك ذو العزم والتصميم على استعداد للتسليم » .

ولو صحب القائد البريطانى (الذى أرسل الرسالة) قائد الفرقة ١٥ بانزر الجنرال فون فيرست فى صباح السنة الجديدة أثناء زيارته لمواقع الجنود فربما أرسل رسالة مخالفة ، فعند خروج الجنود من الخنادق والحفر ليقدموا أنفسهم للقائد كانوا فى حالة يرثى لها من سوء الملابس والتغذية والتعب والإنهاك. ما عدا جندى واحد لم يقدم نفسه للقائد وكان مشغولا بمراقبة خطوط العدو بمنظاره وقال له الجنرال مشجعاً: « سوف تتحسن الأمور فى العام الجديد » وكان جواب الجندى: « إننى أرجو أن تتحسن حال سيدى الجنرال كذلك » ، وضحك فون فيرست العجوز .

٣ - القيثارة الشيطانية :

ووصل الفيلق الأفريقى إلى موقع مرسى البريقة فى ٤ يناير سنة ١٩٤٢ وخلال عاصفة ممطرة قامت الوحدات بتجهيز المواقع الدفاعية ، واتخذت الكتيبة الأولى من آلاى البانزر ١١٥ « جرينا دير» مواقعها ومعها ما تبقى من كتيبة المشاة الميكانيكية وبعض رجال كتيبة المدافع الرشاشة ، وقد كونت هذه القوة ثلاث سرايا كاملة واتخذت مواقعها جنوبى وادى الفارغ .

وعاد الجنود والجرارات لتسحب العربات الخفيفة المعطلة واستقرت الكتيبة ، وسقطت الأمطار كنوع من الرحمة لتغسل عنهم الأقذار من على ملابسهم وأجسامهم . أما المركبات فقد غرست فى الوحل . وجلس الرجال فى حفرهم متجمدين ينظرون . وقاد الرقيب ديريش ويلر جماعة فنية من جنود الاستطلاع للاستيلاء على العربات البريطانية المعطلة وإصلاحها وأسر المزيد من العربات الأخرى، وتمكن الملازم ردت من أن يجمع بالجرارات ثلاثة مدافع مضادة للدبابات صالحة للعمل .

وأخذت الحرب تتنفس ببطء مرة أخرى فى وادى الفارغ ، وفى كل من مرسى البريقة ومرادة.

وفى السادس من يناير كانت العاصفة لا تزال تهب وسقط المطر وهبت الرياح محملة بالرمال فوق العربات والخيام ، وهى الرياح التى يسميها العرب (الجبيلى) وهى تهب طوال العام ، ففى الصيف كانت تلفح وجوه الرجال المبتلة بالعرق بتراب أصفر محمر . والآن- وقد أقبل الشتاء - أخذت الرمال تغطى الرجال والمعدات والمهمات بحباتها التى تشبه شظايا القنابل الصغيرة فتمزق الخيام والمعاطف وتؤثر على كفاءة المعدات . لقد كانت هذه الرياح جزءاً من الحرب فى أفريقيا مثلها مثل الذباب والماء المالح والبولوبيف . وكان يعتبرها الجنود أشد الأعداء مرارة إلا أنها كانت تعد صديقاً للمدافعين .

وفى هذه المرة كانت الرياح فى جانب الفيلق الأفريقى . وفجأة صفا الجو وتبعه أيام مشمسة هادئة . والآن ولأول مرة ظهرت المواقع التى احتلوها فى ٥ يناير فى جنوب وادى الفارغ المتسع - وهو أكبر الوديان الجافة فى منطقة سرت - وكان مجرى قديماً لأحد الأنهار وكان مغطى بالنباتات الكثيفة . وكان يمكن من فوق قمة الجبل رؤية الصحراء الليبية الواسعة الجرداء .

وهنا وهناك- مثل الجزر فى البحر - كانت توجد بعض الواحات المتناثرة . ففى الجنوب توجد واحة مرادة (وهى المنطقة الأمامية القوية التى احتلها الألمان والإيطاليون وهى تمثل الجناح الأيمن لخط البريقة) وعلى بعد ٢٢٠ ميل من مرادة وفى أقصى الشرق كانت توجد واحة جالو وهى مركز قديم للقوافل على الطريق إلى واحة الكفرة وكانت «جالو» محتلة من نوفمبر ١٩٤١ بواسطة البريطانيين وهى المركز الأمامى لرجال مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، وهؤلاء الرجال كانوا يتوغلون بعيدا فى ليبيا وعبر الصحراء ليقوموا بأعمالهم الجريئة فى التخريب .

وفى ديسمبر ١٩٤١ وصل هؤلاء الرجال إلى الطريق الساحلى وقام رجال العقيد هاسلدن بتحطيم العربات الإيطالية التى تنقل البترول وقاذفة ألمانية فى مطار أجدابية. أما القوات المماثلة لهم فى الجانب الألمانى فهى البراندير جرز فكانت ستباشر نشاطها فى مارس (كما سيذكر بعد ذلك) وسوف تقوم بأعمال خطرة .

وكانت أولى الوحدات الصديقة والقديمة فى الظهور هى البطارية الثقيلة رقم ٩٠٢ وقد استمتع رماة هذه البطارية ببضعة أيام من الراحة بين الكثبان الرملية

غربى العقيلة وقد أنستهم تلك الأيام الأسابيع المريرة التى قضوها فى سيدى رزق والعضم ، وربما لم تنسهم تماماً . فمن الذى ينسى القنابل التى سقطت فى ذلك اليوم من أيام الآحاد بين الدبابات البريطانية وكانت تنسفها كما لو كانت قبضة مارد جبار قد حطمتها . ولكن كان على رجال البطارية رقم ٩٠٢ أن يتراجعوا . وتحت وابل الأمطار شقوا طريقهم عائدين عبر برقة.

وقد استقبلت البطارية هناك قائداً جديداً وهو النقيب جريم ، ورغم اسمه فقد كان رجلا محبوبا وجندياً شجاعاً ورامياً ممتازاً.

وكان الجندى الألمانى يتجنب مثل هذا الطابع الهادئ من الرجال . وكانوا فى حاجة إليه فى تلك الأيام العصيبة ، عندما كانوا يعملون كحرس مؤخرة . وكانت القوات البريطانية تتقدم تحت أنظارهم وقال المتشائمون: إن البريطانيين سوف يكمنون لهم فى الركن المشهور بجوار أجدابية لكى يأسروهم . فقد كان هذا هو ما حدث للإيطاليين فى فبراير ١٩٤١ عندما سقط منهم ٢٠٫٠٠٠ فى المصيدة . والآن بعد عشرة شهور كان من الواضح أن البريطانيين سيعاودون مناوراتهم السابقة. وكان هذا وقتاً عصيباً يحتاج للتحرك بخفة . ولم يكن هناك شيء يهمهم سوى الوقود والذخيرة والتعيينات وكل ما عدا ذلك كان غير مهم .

وبناء على أوامر قائد البطارية قام ترزى البطارية بفتح صندوق الملابس الذى تمكن حتى الآن من إنقاذه . وأخذ ينظر وهو يقرض أسنانه أثناء توزيع الملابس على كل من فى حاجة إليها وهى الملابس التى اهتم بترتيبها من أقمصة داخل ورق السيليلوز والسراول والأحذية إلا أن الأمر كان مبهجًا عندما فتح الصراف «هار» صندوقه الخاص بالنقود ووزعت محتوياته بالتساوى على الجنود . وقال لهم النقيب جريم : «سوف تسيرون فى شوارع القاهرة ، وأنتم ترتدون أحسن ملابسكم والذهب فى جيوبكم، لو تمكن هؤلاء الإنجليز الملاعين من أسرنا».

إلا أن البريطانيين لم يأسروا رجال البطارية ٩٠٢ فقد تسللوا بمهارة من برقة ومرُّوا ببنى غازى حيث وجدوا حقيبة بريد فى انتظارهم . واشتروا لأنفسهم بعض علب السردين ، وزجاجات من شراب الشتاب من مخازن الإمدادات والتموين وأخذوا راحتهم بين الكثبان الواقعة بين طريق بالبو وشاطئ البحر . لقد نجحوا فى الانسحاب ووصلوا إلى الموقع الذى اختاره روميل ثم استداروا ، وكان معنى ذلك أنهم يواجهون الآن الشرق .

واستلقوا على الهضبة المنحدرة المطلة على الوادى الذى يقع على حافة الأرض الحرام ، وبين وقت وآخر كانت تظهر بعض عربات الاستطلاع البريطانية فكانوا يطلقون مدافعهم عليها وسقطت القنابل على المغيرين وتصاعد عمود من الدخان فى سماء الشتاء الباهتة الزرقاء .

ولم يرتح البريطانيون لما حدث . وأخيراً وصلت لهم التعزيزات فقد نقل الأسطول الجوى الثانى التابع للمارشال كسلرينج ، من الجبهة الشرقية إلى صقلية لكى يحرس قوافل التموين عبر البحر المتوسط . ولو جرت الأمور على هذه الحال منذ عدة شهور ، لوصلت الدبابات الإيطالية والمدافع المضادة للدبابات والمشاة إلى أفريقيا . وعند وصول قوات المظلات بورك هاردت انقلبت الحال فقد كانوا عبارة عن مجموعة من الشباب المندفع تحت قيادة قائد أشد منهم اندفاعًا ، وقد وصلوا ومعهم أسلوبهم الخاص فى القتال، فهم عبارة عن قوات فدائية محملة ، كل جماعة منهم معها عربتان فولكس واجن يصحبها عدد من رجال المظلات المسلحين إلى أسنانهم يركبون الموتوسيكلات المزودة بعربات جانبية وكانوا يتقدمون بعيداً فى الجنوب داخل الصحراء .

وكان منظرهم يثير الرعب فعندما وصلت إحدى دورياتهم إلى إحدى النقط الإيطالية أمام مرادة أرعبوا الإيطاليين حتى إنهم سألوهم: « أبريطانيون أنتم أم ألمان؟».

وكانوا عادة ما يحضرون معهم شيئًا ، إما بعض الأسرى أو العربات أو الأطعمة أو السجائر ، وفى أسوء الحالات كانوا يحضرون بعض الأغنام .

وفى ذات يوم ظهروا ومعهم بعض الطبول وبعض أبواق غريبة الشكل ، وكانت عبارة عن أدوات لفرقة موسيقية استولوا عليها من إحدى الوحدات الهندية .

وليلة بعد ليلة كانت الطبول تقرع وينفخ فى الأبواق . وقام أحد الشبان الأذكياء بعمل قيثارة شيطانية كانت تشارك بأصواتها المزعجة مع باقى الآلات وأصبح بورك هاردت ورجاله كابوسًا ثقيلا على صدر البريطانيين فى برقة . وعندما أسر قائدهم أذاع البريطانيون بفخر: « لقد أسرنا الرائد بورك هاردت قائد قوات المظلات التابعة لروميل » .

٤ - زفاف فى وادى الفارغ :

وبينما كانت جنود البطارية يستمتعون بهذه الألحان فى وادى الفارغ وصل مظروف كبير أصفر من ألمانيا ، وكان يبدو عليه المظهر الرسمى . ولم يبق المظروف أكثر من نصف ساعة فى خيمة القائد حتى دوى صوت المراسلة خلال الموقع: « على العريف راسكونسكى أن يقدم نفسه إلى القائد » (وكان بول راسكونسكى محارباً قديماً خدم فى فرنسا وبولندا) .

فأسرع إلى خيمة القائد واختفى بداخلها . وظهر بعد مدة حاملا للمظروف الأصفر وكان يبدو عليه الإعياء، وجاء صديقه الحميم أنطون الذى لا يستطيع أن يتحكم فى لسانه وسأله: « حسنا ما هى المسألة ياصديقى؟ ما هو الأمر ؟ هل هو ميراث أم صليب الفارس؟ ».

وقوبل الصديق المازح بنظرة حرج . وغريب أن يشعر الجنود القدامى بالحرج فى بعض الأوقات . واعترف بول أخيراً قائلا: « سوف أتزوج بعد غد » وحملق أنطون وقال : « ماذا تقول؟ هل أنت مريض !! هل تقول إنك سوف تتزوج بعد غد ؟ » إلا أن بول أجاب بفخر: « نعم إنه زواج بالمراسلة » وصاح أنطون: « يا إلهى العظيم » واندفع خارجًا ليخبر باقى الجنود قائلا: « إن بول سوف يتزوج بالمراسلة » وتحركت الأمور بسرعة . وكان ما علمه الرجال من العريس المستقبل قد أدهشهم .

فلقد قابل بول عروسه قبل أن تنتقل البطارية من ألمانيا إلى نابولى . وكان حبًّا من أول نظرة ووعد بول الفتاة بالزواج فى عطلته التالية ، إلا أن العروس لم ترغب فى الانتظار أكثر من ذلك فكتبت له . إلا أن الرسالة فقدت مع البريد فى البحر المتوسط . وخلال الشهور المملوءة بالمعارك لم يجد بول وقتاً للكتابة لها .

ولذلك تولت الفتاة الأمور بنفسها . وأرسلت خطاباً رسميًّا لقائده تطلب منه السماح للعريس بأجازة للزواج ، وإذا لم يتيسر الحصول على أجازة بسبب الموقف الحربى فإنه يمكن أخذ موافقة على الزواج بالمراسلة وقد أرفق بالخطاب الأوراق اللازمة لذلك وبعد استبعاد مطالب البيروقراطية العسكرية فقد تحدد يوم ١١ يناير ميعاداً للزواج وأقام الرجال وسط الصحراء مسرحاً لعقد مراسيم الزواج فيه وقد وضع فى وسط المسرح صندوق مغطى ليجلس عليه القائد ، وإلى اليسار واليمين من المسرح وضعت مجموعات من البنادق . ولكن بعد معاينة المسرح قرر القائد أن

البنادق والعلم الألمانى ليسا كافيين ، بل يجب الحصول على بعض سعف النخل .

وقام بعض رجال الموتوسيكلات بالذهاب نحو الجنوب لإحضار سعف النخل الأخضر. وأرسلت سيارتان فولكس واجن عبر الوادى تحملان رجلين قويين كانا فى حياتهما المدنية قصابين ، قد أعطيت لهما الأوامر بعدم العودة إلا ومعهما ثلاثة خراف أو أربعة .

وفى صباح يوم ١١ يناير ١٩٤٢ بزغت الشمس فى السماء الزرقاء الصافية واصطف الرجال واتخذ بول مكانه وسط المسرح أمام الصندوق المغطى بالعلم الألمانى وفى مكان العروس الغائبة وقف صديقه أنطون وكاتب البطارية اللذين كان عليهما أن يكونا شاهدين على الزواج . وصاح الضابط: « رجال البطارية .. انتباه » واستدار الضابط إلى القائد قائلا: « البطارية تمام وعلى استعداد يا سيدى» «ووقف القائد وألقى خطبة عظيمة أثلج بها قلوب أشد الرجال قسوة . وقد ذكرهم بوطنهم الذى يبعد عنهم كثيراً، حيث تقف الآن فى هذه اللحظة فتاة أمام القسيس فى الكنيسة تفكر في الصحراء أو على الأقل فى شخص يقيم فى الصحراء وهو عريسها بول ، وعليها أن تقول عبر البحر وعبر نصف أوربا إنها تقبل الزواج من بول العريف الواقف فى وادى الفارغ .

واختفت الابتسامات التهكمية من على وجوه الرجال . وعندما صرفهم الضابط أخذ الجميع يصافحون بول يداً بيد ، غير أن السلوك الجاد لم يستمر طويلا ، فقد أعطى العريس بنفسه إشارة البدء فى الجزء غير الرسمى من الاحتفال . فلقد أعطاه قائد البطارية زجاجتين من الكونياك كهدية للزفاف . وعندما سمع الإيطاليون بهذا العرس من جنود المدفعية المضادة للدبابات أحضروا صفيحة كبيرة مملوءة بالنبيذ الأحمر وأحضر أحد الرقباء من قوة المظلات ثلاث زجاجات من المشروبات الروحية من العربة الجانبية الخاصة بموتوسيكله وكان كل فرد مشتاقاً للمساهمة بإحضار شىء فى هذه المناسبة التى حدثت فى الحرب لأنهم وجدوا فى هذه المناسبة باعثا للاحتفال بحياة جديدة بدلا من الموت .

وكانت الهدية الكبرى بالطبع الخراف الأربعة فلقد أحضرها «هانس» و«ويلهم» بالمقايضة مع أحد الأعراب ، وأعد الطهاة وجبة شهية لذيذة بمساعدة كمية من الكارى وجوال من البصل وهبط الليل بارداً مثلجاً وظهرت النجوم فى السماء واستعد بول لقضاء أول ليلة فى عرسه فانسحب مع بعض الأصدقاء ومعهم زجاجة كونياك

إلى إحدى الخيام . وخارج الخيمة كان رجال المظلات يقرعون طبول الفرقة الهندية الرابعة التى استولوا عليها ، وفى شمال العقيلة كان وهج القنابل المضيئة ينير وجه السماء كتحية للعريف راسكونسكى ووادى الفارغ . وهى النقطة الهادئة فى خط روميل الأمامى العريض الممتد من مرسى البريقة إلى واحة مرادة.

وعلى بعد أميال جذب النقيب «مردان سكلور» (من رجال الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات) البطانية فوق رأسه وهو يقول: (هذا المخلوق اللعين) فليلة بعد ليلة كان نفس الشيء يحدث ، يأتى ضبع إلى الموقع ويبدأ فى العواء خلال الليل . وبالأمس تسلل إلى خيمة الميس وجرح أنفه فى الصفائح الفارغة إلا أنه لم يخف وكان يحضر باستمرار ولم يستطع أحد صيده ، وحدث مرة واحدة أن شاهده أحد الحراس عند الفجر بجوار الكثبان الرملية وكان الضبع ليلة بعد أخرى يشكو جوعه للنجوم ، وكان رجال المشاة الألمانية يسمعون عواءه ، وكذلك البريطانيون الذى يرقدون فى حفرهم الرملية الباردة فى النقط الأمامية .

وكان الجميع يتساءلون: «لماذا لا نتحرك من هذا المكان؟ لماذا لا نقضى على هؤلاء الألمان؟ فقد طاردناهم ٥٠٠ ميل ، ثم جاءوا ووقفوا فى هذا الموقع فى سلام ! ماذا بحق السماء يفعلون فى القاهرة ؟ » .

٥ - الراقصة حكمت فهمى تهتف « إنه النصر »:

لقد أحدث سباق النصر الذى قام به الجيش الثامن فى عيد الميلاد حماسا كبيراً فى القاهرة ، فكان الكل متفائلا تحت شمس الشتاء الدافئة . فالسيارات والأندية الليلية فى المدينة كانت مملوءة على آخرها بالرجال المحاربين الذين يقضون عطلاتهم . وأخذت الأندية الليلية تتزايد كأنها الأعشاب وكان أحدها فى عوامة فاخرة على النيل .

ولم تعان القاهرة نقصًا فى أى نوع من السلع ، رغم أن الأسعار كانت مرتفعة وكان هذا طبيعيا لأن الجنود البريطانيين كان لديهم نقود كثيرة ، ولكن فى أى مكان يمكنهم إنفاقها إلا فى القاهرة !! وكانت العاصمة المصرية تضحك وتستمتع بالأمان . وفى نهاية يناير ١٩٤١ وصلت الأنباء بأن قوات روميل فى ممر حلفاية والسلوم استسلمت .

وعندما ظهرت فى الصحف صورة الرائد باخ قسيس ممر حلفاية الشهير كأسير حرب ، كانت آمال القيادة البريطانية فى القاهرة بالنسبة للنصر بغير حدود .

فقريبا سوف تندفع مئات الدبابات إلى الأمام فى هجوم جديد. فسوف يندفع الجيش الثامن مرة أخرى إلى الهجوم ولن يتمكن أحد من إيقافه حتى يصل إلى طرابلس .

وبذلك فهؤلاء الألمان الملاعين وكذلك روميل سوف يعطونهم بعض الراحة وكان رأى القيادة فى القاهرة أن هناك رجالا متوفرين فى القوات المسلحة وكل ما يحتاجونه هو بضع مئات من الدبابات والطائرات والمدافع . وقد وصلت فعلا هذه المعدات . فقد وصلت الطائرات الأمريكية والدبابات . وكان الجنرال أوكنلك يتريض فى حديقة الورود المحيطة بمقر القيادة فى القاهرة . وأخذ يفكر فى الخطط الجديدة، لتدمير روميل ، ومن وقت لآخر كان يتوقف حتى يستطيع المصورون التقاط صور له استعداداً للنصر فى الغد .

إلا أن المعارك لا تكسب من خلال التفكير وسط الحدائق والزهور.

فروميل كان فى ذلك الوقت جالسا فى العقيلة ولم يكن لديه حديقة زهور . وفى ١٠ يناير زار مقر قيادته الجديد وفتش على المواقع ومعه وستفال رئيس أركان حربه . وما زال وستفال يتذكر جيداً جولته هذه فى الصحراء مع روميل . ففى الخط الأمامى كانت توجد بقايا الفيالق ١٠ ، ٢٠ ، ٢١ الإيطالية . أما الفيلق الأفريقى فقام بتدعيم وحداته بعد وصول الإمدادات ، فقد عمل الأسطول الجوى الثانى تحت قيادة كسلرينج على حماية عمليات النقل فى البحر المتوسط . وكان السؤال الذى يتردد « هل تستطيع قوات روميل صد هجوم بريطانى قوى ؟ ».

وفى الحقيقة: إن خطوط تموين البريطانيين قد طالت إلا أنهم كانوا يزدادون قوة يوما بعد يوم .

وقد اقترح المقدم وستفال القيام بهجوم مضاد سريع وكانت حجته فى هذا أن يبدأ الألمان بالهجوم قبل أن يستعد العدو للهجوم . وبقى روميل طوال الليل فى المقطورة التى يتخذها للنوم ومقرا لقيادته . وكان يوجد على المقاعد والمنضدة الخرائط وتقارير الاستطلاع الجوى والمحادثات التى التقطتها أجهزة التنصت اللاسلكية خلال الأيام الماضية .

وقال الرقيب أول بوتشر سكرتير روميل الخاص: « إن الرجل العجوز يفكر فى شىء » ، ثم استدعى المراسلات . ومرة بعد أخرى كان بوتشر يخرج من صناديقه وحقائبه الخرائط وخطط الهجوم والتقارير وقال: « إن هناك شىء يدبر » . وكان على حق . وأخيراً فى حوالى الخامسة والنصف أطفأ روميل المصباح واستلقى فى

سرير الميدان وأمر المراسلة بأن يوقظه بعد ساعة وطلع فجر يوم ١٣ يناير ١٩٤٢ . وعندما ظهر الجنرال فى ميعاد الاجتماع الصباحى العادى أحس ضباطه أن لديه شيئا سيقوله وتبدو عليه علامات السرور . وكانت لكنته ظاهرة أكثر من المعتاد أثناء الكلام .

ولم يتركهم ينتظرون طويلا فلقد قال لهم: « إننا سوف نقوم بالهجوم !! » .

ودهشوا ، فهم الذين لم يتمكنوا من النجاة بأنفسهم إلا بعد جهد حتى وصلوا إلى مواقعهم الحالية ، وكانت بعض سراياهم لا يزيد عددها عن ثلاثين رجلا ، كما أن عرباتهم وسيارات الذخيرة قد تحطم منها أعداد كبيرة خلال عمليات حرس المؤخرة التى خاضوها ، وبعد ذلك كله يقومون بالهجوم !!

وكانوا مشدوهين وحبسوا أنفاسهم . وكانوا جميعا يعلمون أن الجيش الثامن البريطانى مستعد للمعركة الفاصلة . وفى كل صباح يمر بهم بدون هجوم بريطانى يعتبرونه هبة من الله ، حتى يستطيعوا تحسين مواقعهم الدفاعية ويبنوا الحائط الشرقى لحماية طرابلس ويجعلوا منه موقعاً منيعاً.

وكان وستفال وحده هو الذى لم يفاجأ عند سماعه كلام روميل . وكل ما فعله أنه ابتسم . فخلال الأيام القليلة السابقة لم يترك روميل بل ظل يلازمه . وأصر روميل على قوله: « إننا لو أعطينا البريطانيين فرصة حتى فبراير فسوف يطردوننا من هنا ولن يوقف تقدم الجيس الثامن أى شيء حتى لو وصلت إمداداتنا بسرعة أكبر. وحتى لو تمكن الأسطول الجوى الثانى بقيادة كسلرينج من التغلب على مالطة والبحرية البريطانية فلن يتيسر لنا الحصول على قوة كافية بالسرعة اللازمة ، وزيادة على ذلك لا يوجد لدينا معدات ثقيلة » .

ثم أضاف بعد ذلك عقب وقفة قصيرة (كما لو كان يرد على نفسه): «ولذا يجب علينا ألا ننتظر ويجب علينا أن نفاجئ العدو بضربة مفاجئة تقلب خططه » .

ثم أطلع هيئة أركان حربه فى ذلك الصباح على كل شيء ناقشه خلال الأيام الماضية مع رئيس أركان حربه وستفال ، وكل ما فكر فيه خلال ليلة ١٣ يناير ١٩٤٢ . وكانت خطته فى منتهى الجرأة .

وكان الهدف من هجومه هو إعاقة تقدم العدو مع إقامة المصاعب فى وجهه لتأخير هجومه المنتظر . ولو نجحت خطته فهناك دائمًا فرصة لتوسيع نطاق هجومه.

وكانت مغامرة يائسة إلا أنه لم يكن أمامه سواها . فلكى يتجنب الهزيمة المحققة كان عليه أن ينتزع المبادرة من البريطانيين .

وكخطوة أولى فإن الثعلب الماكر روميل تظاهر بأنه ينوى تَرْك موقع البريقة وسرى النبأ فى القوات الألمانية المحاربة مثل مسرى النار فى الهشيم ووصل للإيطاليين وامتلأ الضباط الإيطاليون بالرعب وقالوا: «إن روميل ينوى الانسحاب مرة أخرى» وسارعوا بإبلاغ روما بالخبر ؛ وشاع الخبر فى روما: « إن روميل على وشك الانسحاب » .

وفى روما كان من الصعب المحافظة على سر من الأسرار المهمة . وسرى النبأ من هيئات القيادة إلى مخادع النساء الجميلات وإلى مجال الحلاقة ومن بائعات الزهور إلى البارات وردهات الفنادق وقيل: إن روميل لا يستطيع الاحتفاظ بمواقعه الحالية وإنه سوف ينسحب إلى طرابلس . وناقشت القيادة العليا الإيطالية موضوع استجواب روميل على خطة انسحابه هذه إلا أنها قررت العدول عن هذا واكتفت بالسكوت .

ونتيجة لهذا فقد حدث فى القاهرة فى ١٨ يناير أن وصلت تقارير العملاء من روما ونابولى ومن خلف الخطوط الألمانية ، وكلها تؤكد أن روميل يضع خطة للانسحاب . ووضعت هذه التقارير على مكتب القائد العام إلا أن أوكنلك لم يقتنع. فأمر بإجراء استطلاع بالقوة ، وكانت النتيجة تعزيزا لما ورد فى التقارير فلم يلاحظ أى تحركات من جانب قوات المحور وبالرغم من أن طائرات الاستطلاع البريطانية داومت المراقبة فلم ير الطيارون شيئاً . وبالطبع تعذر عليهم الاستطلاع بالليل .

ولذلك لم يَرْوا ما يحدث فى ساعات الظلام . وأبلغ أيضًا عملاء بريطانيا الموجودين خلف خطوط الألمان بأن روميل يضع خطة للانسحاب . وعلى ذلك فلو أن البريطانيين قاموا بالهجوم على مؤخرة روميل أثناء انسحابها قد يؤدى هذا إلى النصر النهائى . وعليه فقد طلبت القيادة المزيد من المعلومات .

وسأل أوكنلك: «وما هى أخبار برلين ؟» وجاء الرد على سؤاله من رجال الطابور الخامس فى ألمانيا: «ليس لدى برلين أية معلومات عن خطة روميل وهو بالتأكيد لا ينوى الهجوم» .

وسأل أوكنلك: « وما هى معلومات القيادة العليا الإيطالية ؟» وجاء الرد: «إنها لا تعرف شيئًا غير أنها تخشى أن يقوم روميل بالانسحاب» وسأل أوكنلك: « وما

الذى تعرفه مجموعة الجيوش الإيطالية التى يقودها الجنرال باستيكو ، وجــاء الرد: « إن ما سمعته مجموعة جيوش باستيكو لا يزيد عن شائعات عن انسحاب روميل المقترح وأن أى هجوم لم يكن موضع بحث . وهذا شىء مؤكد».

وفى ١٩ يناير هبّت عاصفة رملية قوية جعلت كل أنواع الاستطلاع متعذرة وفى اليوم التالى أخذت المساكن تحترق فى مرسى البريقة ، وانفجرت السفن فى الميناء (وكانت المساكن خالية والسفن هيكلية) وقد أمر روميل – حسب خطته الماكرة – أن تدمر .

وبالطبع فإن طائرات الاستطلاع البريطانية والعملاء البريطانيين لم يكونوا غافلين عن ذلك . وكرر رجال المخابرات ببساطة إلى رؤسائهم ما يقوله الضباط الألمان . وأرسل العملاء البريطانيون إلى القاهرة يقولون: « إن الألمان يحرقون إمداداتهم فى مرسى البريقة » . وأكدت دوريات الاستطلاع البريطانية المتقدمة اشتعال النيران والانفجارات . ومن ثم استنتجت القاهرة أن روميل يجرى آخر استعداداته للانسحاب فهو فعلا سوف ينسحب . وكان الشعور فى القاهرة يدل على السرور فقد كانوا يشربون الأنخاب ويقولون: « إن روميل يحرق سفنه ، إن روميل يرحل » .

وهكذا كان الموقف فى القاهرة فى ليلة ٢١ يناير ١٩٤٢ . وكثير من ضباط أركان الحرب الإنجليز فى القاهرة لم يعودوا إلى ثكناتهم إلا قرب الفجر، وعلى النيل فى عوامة الراقصة حكمت فهمى كانت موسيقا الجرامافون ما زالت تعزف حتى الساعة الثامنة صباحًا وصاحت حكمت فهمى: « إن روميل ينسحب فعلينا الاحتفال بذلك » وألقت الراقصة الجميلة بكأس الشمبانيا على الحائط الخشبى . وصاحت: «إنه النصر ».

ولكن النصر لمن ؟ ولم يكن هناك أدنى شك فى أذهان الضباط البريطانيين فى أن النصر سوف يكون من نصيبهم .

وفى نفس اللحظة التى ألقت بها حكمت فهمى بكأس الشمبانيا . كان هناك خلف الخطوط الألمانية فى طرابلس يوجد رجل فى ثياب أعرابى ويسمى محمد على ولكنه كان فى الحقيقة جاسوساً لمجموعة الصحراء بعيدة المدى والتى يقودها هاسلدن . وفتح عينيه وأصغى بأذنيه . فقد قام أحد رجال الشرطة العسكرية الألمانية بوضع إعلان على باب المنزل ، وتجمع حول الإعلان الجنود الألمان

والإيطاليون وصاح الرجال المتجمعون فى الصفوف الخلفية: اقرءوا الإعلان ، وقرئ الإعلان فسمع الجاسوس البريطانى شيئًا غريبًا لم تصدقه أذناه . ففى مساء اليوم السابق قد أرسل رسالة إلى القاهرة يروى فيها الأحاديث التى تدور بين الجنود الألمان الذين كانوا يتكلمون بحرية أمامه .

فهو كأعرابى لم يعتقدوا أنه يفهم كلامهم بالألمانية ، ورغم أنه فى الحقيقة كان يتكلمها كأهل برلين فلقد أرسل للقاهرة الأحاديث التى سمعها والتى لم تخرج عن أن روميل ينوى الانسحاب ، وكانت أماكن حرس المؤخرة قد أعدت ، ولكن ما هذا الذى يقرؤه هذا الألمانى لزملائه .

القيادة العامة فى ١٩٤٢/١/٢١

مِن القائد الأعلى لمجموعة البانزر الأفريقية ..

أمر الجيش اليومى..

أيها الجنود الألمان والإيطاليون ،..

لقد خلفتم وراءكم معارك مضنية مع عدو يفوقكم عدداً وعدة ورغم هذا كله ظلت روحكم المعنوية عالية .

وفى هذه اللحظة فإننا أقوى بكثير من العدو الذى يواجهنا فى الخطوط الأمامية .

وعلى ذلك فسوف نتقدم اليوم لنهاجم ونحطم العدو .

وإنى أنتظر من كل جندى أن يبذل ما فى طاقته فى هذه الأيام الحاسمة .

عاشت إيطاليا . عاش الرايخ العظيم وعاش الفوهرر .

المارشـــال

روميـــل

القائد العام لقوات البانزر

(توزع نسخة على كل فرقة)

٦ - **الثالوث الأفريقى :** (انظر اللوحة رقم١١ أ)

ومثل ما فعله محمد على الجاسوس البريطانى فى طرابلس فعلته كذلك النقط الأمامية البريطانية فى مرسى البريقة . فقد فتحوا أفواههم فى دهشة عندما رأوا الدبابات الألمانية فى تمام الساعة الثامنة والنصف من يوم ١٩٤٢/١/٢١ تتقدم نحوهم . وسرى النبأ: « انتبهوا ! الألمان يهجمون . وإن روميل قد حضر» .

وكانت المفاجأة تامة . فقد نجحت خدعة روميل . فقد تعلم من دروس الماضى فى الخيانة ووصول أخباره إلى الإنجليز . أما اليوم فقد نجح فى خداع العدو، فقد جعل نبأ اعتزامه الانسحاب يملأ أذهان الناس بواسطة ضباطه الأركانات حرب وجعل كل التحركات تتم أثناء الليل وكانت التحضيرات النهائية للهجوم قد أخفيت بمهارة فائقة بواسطة العاصفة الرملية التى هبت فى ١٩ يناير ولم تعط خطة الهجوم لقادة الوحدات المختلفة إلا فى آخر لحظة .

وتعمد روميل عدم استشارة القيادة الألمانية العليا وكذلك القيادة الإيطالية العليا ، وقيادة هتلر فى راستنبرج . فهو يعلم كيف تتسرب الأنباء من هذه الأماكن ولذلك قام بإخبار رئيس أركان حرب القيادة العليا الإيطالية فى ليبيا الجنرال جمبارا بأنه ينوى القيام بإغارة بسيطة وما هى إلا مجرد صدام محدود . وأنه يمكنه أن يسميها إغارة من إغارات الفدائيين .

وكانت النتيجة أن جمبارا لم يتعب نفسه بالسؤال عن التفاصيل ، ووضع الوقود الذى طلبه روميل تحت تصرفه ولم يهتم بذكر الموضوع لرؤسائه فى إيطاليا فالموضوع عبارة عن إغارة بسيطة فلماذا يتسبب فى إزعاج الرئاسات . إلا أن هذه الإغارة البسيطة دوت كقرع الطبول ليس فى أفريقيا حتى مشارف القاهرة فقط بل دوت كالرعد فى أرجاء العالم كله: «إن روميل قد عاد مرة أخرى إلى الهجوم !!!» .

وفى الجانب الألمانى ظهرت فرقة جديدة فى هذه المعركة وهى الفرقة ٩٠ الخفيفة وقد تكونت من الفرقة الأفريقية المعاونة التى قاتلت فى جبهة طبرق . وكان قائدها الماجور جنرال سمرمان وقد قتل أثناء الانسحاب إلى العقيلة .

وتولى قيادة الفرقة بعده الماجور جنرال ڤيث الذى حضر من الجبهة الروسية.

وكانت خطة روميل عموماً كالتالى :

- تتقدم مجموعة قتال بقيادة المقدم ويريز ماركس ومعها وحدات من الفرقة ٢١ البانزر والفرقة ٩٠ الخفيفة للهجوم على المواقع التى يحتلها لواء الحرس البريطانى على طول طريق بالبو وعليها أن تخترق خطوط العدو ثم تندفع بسرعة إلى أجدابية .

- وعلى الفيلق ٢٠ الإيطالى ومعه باقى الفرقة ٩٠ الخفيفة أن يتّبعا القوة فى هجومها ، وكان هذا هو المحور الشمالى للكماشة.

أما الفيلق الأفريقى فعليه أن يتقدم عبر الصحراء على امتداد وادى الفارغ متجها إلى الشمال الشرقى . وكان هذا المحور الجنوبى للكماشة بعد أن يتم اتصاله بالقوات الشمالية عليه أن يهاجم الوحدات البريطانية ويدمرها، وسيتقرر التقدم التالى حسب سير ونتيجة المعركة .

وكان هذا اليوم من أيام الشتاء الباردة المشمسة وذلك عندما ترك روميل مقر قيادته فى السادسة صباحاً لكى يزور مجموعة القتال بقيادة ماركس . وقبل أن يغادر القوة وصلت رسالتان من مقر قيادة هتلر:

الأولى تقرر فيها أن مجموعة البانزر الألمانية فى أفريقيا يصبح اسمها من الآن جيش البانزر الأفريقى .

والثانية تقرر منح روميل علامة السيف وأوراق البلوط لوسام صليب الفارس الذى يحمله .

وفى الساعة الحادية عشرة تمكنت مجموعة قتال ماركس من اختراق خطوط الأعداء الدفاعية وبذلك أمكن تخفيف الضغط على الفيلق ٢٠ الإيطالى الخفيف بقيادة الجنرال زينج هالس (المشهور باسم جوديريان الإيطالى) فواصل تقدمه .

واندفعت مجموعة ماركس إلى أجدابية واستولت عليها بالمفاجأة فى اليوم التالى . أما الدبابات البريطانية مارك ٦ فلم تشترك فى القتال بسبب نفاد البترول منها أثناء تقدمها إلى خط قتال . فمستودعات البترول والذخيرة استولى عليها الألمان بواسطة مجموعة قتال ماركس .

وكان البريطانيون مذهولين من وَقْع هذا الهجوم ويمكن معرفة ذلك مما قاله آلان مورهيد الكاتب الإنجليزى فى كتابه «الثالوث الأفريقى»:

« كان يبدو أن المواصلات قد انقطعت منذ اللحظة الأولى، ولم تستطع قوات المشاة المعرضة للهجوم الشديد من الحصول على المعاونة . وبقيت قوات الدعم فى

أماكنها بلا عمل . وعندما حاولت الوصول إلى القطاعات المهددة وجدت أن العدو قد أغلق عليها الطريق وتمكنت القوات التابعة للمحور والمشكلة فى هيئة ثلاثة طوابير أن تندفع رأسا إلى الخطوط البريطانية ثم انتشرت القوات وأعادت نفس القصة القديمة ، فعزلت القوات البريطانية فى مجموعات ثم تم القضاء عليها الواحدة بعد الأخرى . وفى خلال يومين أخمدت حدة القوة البريطانية . وفى بحر ثلاثة أيام انقلب التقدم البريطانى تماما إلى انسحاب ».

وكان هذا تقديراً صحيحاً للموقف، كتب ببساطة ويمكن قراءته ببساطة إلا أن حقيقة الأمور لم تكن بسيطة تماماً.

والآن فلنحاول أن نتابع المعركة مع أركان حرب الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات والتى لعبت وحدته دورا بارزا فى هذه المعارك . ففى يوم ١٩ يناير أرسل روميل فى طلب الرائد «هشت» قائد الوحدة ثم قال له باختصار: « إننى قررت مفاجأة قوات العدو الأمامية، وساعة الصفر هى صبيحة يوم ٢١ يناير وعلى آلاى المدفعية المضاد للطائرات التابع لك أن يعطى أكبر معاونة ممكنة للهجوم » .

وقد وزعت قوات الآلاى على محورى الكماشة الشمالى والجنوبى . وبعد الاستيلاء على أجدابية أمرت جماعات المدافع المضادة للطائرات فى الشمال بتعزيز القوات الميكانيكية أثناء اندفاعها إلى الأمام ، وتحركت كل القوات إلى الأمام . وأصبحت البطارية الاحتياطية ١١٤ المضادة للطائرات بطارية ميكانيكية ثقيلة .

أما باقى البطاريات التابعة للآلاى ، فقد بقيت للمعاونة فى الدفاع الجوى عن أجدابية ، وفى نفس الوقت كان الفيلق الأفريقى قد اندفع إلى الأمام فى قطاع «عنتيلات سونو» ، وقام بتطويق الفرقة الأولى المدرعة . وفى ٢٤ يناير قرر روميل تحطيم هذه الفرقة المدرعة البريطانية التى أصبحت جامدة فى مواقعها . وكان روميل بنفسه على رأس قواته المكونة من عدة طوابير لتحقيق ذلك وقاد بنفسه القوات المشتركة فى المعركة والتى تتكون من البطارية ١١٤ ومركز رئاسة الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات.

ويروى النقيب «مردان سكولر» ما حدث قائلا: « قطعنا قرابة ٤٠ ميلا عندما لاحت لنا أطلال جوف المطر ، وفجأة صاح روميل: «القوات المعادية تتقدم» أطلقوا النيران ».

وتبادلنا نحن رجال المدفعية النظرات وتساءلنا: « أين الهدف يا سيدى الجنرال ؟ » وقال روميل: « ألا تستطيع أن ترى عربات العدو المتجمعة أمامك ؟ ».

وقام الرائد هارثمان قائد الآلاى ١١٤ بالبحث عن هدف لمدافعه من عيار ٨٨ مم . ولم يستطع رؤية شيء فهز رأسه متحيراً . وطلب روميل إحضار علم أبيض ، وقال: « علينا أن نرسل رسولا للمفاوضة مع العدو على التسليم ». وظهر أحد الرجال وهو يرفع قطعة من القماش الأبيض . قال له روميل: « تقدم فى اتجاه العدو وأنت تحرك قطعة القماش وسوف يسلم البريطانيون ، اذهب إليهم وقل لهم إنهم محاصرون، وفى نفس الوقت سنثير الغبار حولهم » .

وصدرت الأوامر: « أثيروا الغبار »، وسرعان ما تحرك كل شيء له عجل لإثارة الغبار فى المنطقة وفى هذه اللحظة هبطت طائرة من طائرات الاستطلاع الخفيفة بالقرب منا ، وقرر روميل فى لمح البرق التالى :

– « على الرسول أن يطير إلى البريطانيين » .

وقام الرائد هارثمان بمسح الأفق بمنظاره المكبر ، ومرة أخرى هز رأسه فى حيرة ولكن بدون فائدة . فقد استقل الرسول الطائرة وهو يلوح بعلمه الأبيض من مقعده بجوار السائق ، وهبط الطيار إلا أنه لم يجد شيئاً يتحرك ، فعاد لأن المنطقة كانت خلوا من الأعداء .

ففى الصحراء التى كثيراً ما تكون الرؤية فيها غير واضحة ظن روميل أن بعض الشجيرات الشوكية سيارات بريطانية . ولقد حدث مثل هذا باستمرار خلال الحرب الأفريقية وهذا شيء يستحق الذكر لكى نعطى للقارئ مقدار التفاؤل الذى كان يشع من روميل فى كل الاتجاهات .

إلا أن الآلاى الثامن البانزر لم يظهر أمامه شجيرات شوكية فى مرسى البريقة ، فلقد قاد المقدم كرامر الآلاى إلى الأمام ، وعلى جانب الآلاى كانت توجد أربع دبابات تابعة للسرية الرابعة . وسمع قائد السرية الأوامر فى السماعة الموجودة على أذنيه:

« انتبه يا برتقال ٢ هاجم دبابات العدو على يسارك ».

وكان برتقال ٢ هو الاسم الكودى للدبابتين الموجودتين على الجناح الأيسر للآلاى ، وفهم قائد الدبابات ، وقال فى الميكروفون: « اشتبكوا مع العدو الموجود عند الساعة الحادية عشرة » وكان يوجد بداخل الدبابة السائق والرامى والمعمر وعامل اللاسلكى، وقد سمعوا جميعاً الأوامر ، وكان معنى الساعة الحادية عشرة أن العدو موجود على يسارهم بقليل أى عليهم أن ينحرفوا قليلا فى اتجاه اليسار .

وصدرت الأوامر: «**الهدف على بعد ٨٠٠ ياردة أطلقوا قذيفة مخترقة للدروع**» .

وكان الرامى والمعمر يعملان بدقة الساعة بداخل الصندوق المعدنى وهو الدبابة وقد وصلت درجة الحرارة إلى ١٢٠ فهرنهيت ، وبعد توجيه المدفع والبرج نحو الهدف توقفت الدبابة لأن من الأفضل إطلاق النيران والدبابة ساكنة حتى تكون الإصابة محققة ، ثم ضغط على زر الإطلاق الكهربائى . ثم سمع صوت القائد يقول: « الضرب قصير خمسينٍ ياردة » أى أن القذيفة سقطت قبل الهدف بخمسين ياردة . وصدر الأمر : « عمر . على المسافة الجديدة – صوب – أطلق النيران ! الهدف أصيب » .

وأرسل البريطانيون قوة هندية من بنى غازى لكى تهاجم جناح الألمان . وكان هذا شيئاً خطيراً إلا أن رجال التنصت التابعين لروميل كانوا منتبهين ، فقد التقطوا رسالة بريطانية دلتهم على أن هذه القوة على بعد خمسة عشر ميلا شمال أجدابية وكانت تقوم إلى حد ما بدور الاستطلاع بالقوة إلا أن القائد البريطانى الجنرال ريتشى كان لا يريد إشراك الفرقة كلها فى هذه المعركة وكان يحاول خداع الألمان إلا أن روميل كان يعرف نواياه فأصبحت خطته بدون فائدة وقرر روميل أن يتجاهل الفرقة الهندية وأن يقذف كل قواته ضد الفرقة الأولى المدرعة .

ولقد تحقق ما توقعه كما دلت نتيجة المعركة . فقد استولى الألمان على ١٢ طائرة و ٩٦ عربة مدرعة و٣٨ مدفعاً ، كما تم أسر ما يزيد على ١٠٠٠ رجل ومن ضمنهم هيئة أركان حرب إحدى الفرق البريطانية المدرعة . كما سقط فى أيدى الألمان مركز ضخم للتموين به كميات هائلة من المواد . ودهش الجنود عند رؤيتهم لهذه الثروة !!! لهذه الموارد الضخمة والكنوز التى يملكها البريطانيون ويا للأسف كانت جيوبهم صغيرة وكانت الأسلحة والذخيرة أهم من سجائر البلايرز ومربى البرتقال والويسكى والبسكويت، أما المهندسون فقد حصلوا على صيد ثمين ، فقد وجدوا إحدى الورش الخاصة بإصلاح الدبابات وبها ٣٠ دبابة صالحة لخوض المعركة من طراز فالنتين .

٧ - سباق السلاحف :

وعندما طار روميل مع رئيس أركان حربه وستفال فوق أرض المعركة ليأخذ صورة عن الموقف تعرضا للأسر ولكنهما نجوا بأعجوبة . وهذا الحادث يظهر أن مصير قادة المعارك دائما معلق بخيط رفيع أثناء الحرب.

فلقد كان الرجلان فى طائرة استطلاع تطير على ارتفاع منخفض متجهة

نحو تجمع للعربات ظناً منهما أنهما سيجدان الجنرال كروويل هناك ، وفجأة وقعا تحت تأثير نيران المدافع المضادة للطائرات . فلقد كانت العربات بريطانية . وأصيبت الطائرة وأصبحت كالمصفاة . وطارت الشظايا وقطع المعدن فى الهواء إلا أن روميل لم يفقد صوابه . وأخذ يواجه الطيار قائلا: « اتجه إلى اليمين ، والآن إلى اليسار ارتفع بالطائرة ، انخفض ، وكانت الطائرة فى ذلك الوقت تتأرجح فى السماء.

شاهد وستفال فجأة اثنتي عشرة طائرة هاريكان فوق طائرتهم . وكانت هذه هى النهاية كما اعتقد إلا أنه لحسن الحظ لم تر الطائرات البريطانية الطائرة الصغيرة الموجودة تحتها ، وكانا محظوظين للخروج من هذا المأزق . وعند العودة تعرضا ثانية لنيران المدافع المضادة للطائرات ، وأصيبت الطائرة مرة ثانية ، ولكن روميل عاد إلى مقر قيادته بدون خدش ولو أن الحظ ساعد رجال المدفعية البريطانية قليلا لسقط روميل ورئيس أركان حربه حيين أو ميتين فى قبضة الأعداء.

وبمعركة مسوس تكون خطة روميل قد نجحت فى كسب الوقت وعرقلة استعدادات الهجوم البريطانى ، ولكن روميل لم يكن بالرجل الذى يقتنع بالمفاجأة فقط ونجاح باهر لمدة أربعة أيام . وقرر المارشال الكونت كافاليرو زيادة أرض المعركة لكى يقنع روميل بعدم الاستمرار فى هجومه . وطار معه كسلرينج إلى مقر قيادة روميل . وكان السبب يرجع لمخاوف الإيطاليين من هجوم روميل الذى قد يؤدى إلى هزيمة عسكرية وطبعاً كان هذا الهجوم سرا بالنسبة لهم وقام به وحده وبقواته الألمانية ، ويرجع أيضاً للكبرياء المجروحة بسبب انتصارات روميل الباهرة. وكما قال لى فريتز بايرلاين لقد سجل روميل هذا الخلاف الدرامى مع القيادة الإيطالية العليا فى مذكراته .

فى ٢٣ يناير وصل المارشال كافاليرو قادما من روما يحمل تعليمات موسولينى بالنسبة لسير الحملة وقال كافاليرو: « إن روما لا توافق على الهجوم وتريد منى أن أنهيه مع عدم الاشتباك مع العدو، والانسحاب إلى موقع مرسى البريقة، وقد عارضته بقوة وأبلغته أنه ما دام أن جنودى ومواردى تسمح لى فإننى سأواصل مقاومة العدو وإزعاجه . وأخيرا تقدم جيش البانزر مرة أخرى وقد كانت الضربات الأولى الموجهة للعدو ناجحة ، وسوف أتبعها بأخرى وقد توسل إلى المارشال كافاليروا بألا أفعل ذلك ... ».

إلا أن روميل لم يستسلم ، وانسحب كافاليرو غاضبا . وكان رده أنه سيسحب الفيلق الإيطالى من تحت قيادة روميل . وقرر أن القوات الإيطالية ستبقى فى قطاع (أجدابية – مرسى البريقة)، ولو أراد روميل أن يواصل قتاله فعليه أن يفعل ذلك بالوحدات الألمانية وحدها ، وهذا ما فعله روميل بالضبط .

فلماذا كانت القيادة الإيطالية حذرة إلى هذا الحد ؟ فنحن الألمان مضطرون إلى الحكم عليهم بشىء من الاحتقار ، إلا أن الأمور لم تكن بمثل هذه البساطة.

فالقيادة الإيطالية العليا لم يكن فى مقدورها الوصول إلى قرارات جريئة . أما الجندى الإيطالى فعلى العكس قد قاتل ببسالة . ولم تكن شجاعته موضع التساؤل أو النقد . ولكن المسألة ترجع إلى كفاءة معداته العسكرية . وكان الشعب الإيطالى يتساءل: لماذا يريد موسولينى أن يشن حرباً استعمارية أخرى يريق فيها الدم والدموع فى حين أن الإمبراطورية الاستعمارية الإيطالية كانت كبيرة وكافية؟!!

وكان العسكريون الإيطاليون ينظرون إلى المسائل من هذه الزاوية . ولم يستطيعوا فهم كيف استطاع ذلك الألمانى روميل بعد ٥٠٠ ميل من القتال والانسحاب أن يبدأ مرة أخرى فى التفكير فى النصر ؟ ومن المؤكد أن جنوده المرهقين سوف يواصلون الهجوم وكلهم ثقة ! وقد اعتبر الإيطاليون ذلك جنوناً محضًا. فالجيش الإيطالى غير قادر على الاشتباك فى مثل هذه المغامرة لأن معداته كانت قديمة ، وكان مظهره يخفى حقيقة أمره . فلقد اشترك الضباط الإيطاليون فى الحرب ومعهم قطارات من الأمتعة الشخصية ، ويتبعهم جيش من أمهر الجرسونات الذين كانوا يعملون فى أحسن الفنادق الإيطالية كمراسلات ، وكانوا حتى فى وسط الصحراء يخدمون الجنرالات وهم يرتدون القفازات البيضاء . وبالإضافة إلى ميس[1] الضباط كانت هناك ميسات لضباط الصف المتطوعين والمجددين وضباط الصف المجندين ، وميسات للجنود العاديين . وبينما كان الضباط يتناولون وجبات مكونة من ثلاثة أصناف ، كان الجنود يأكلون علبة من اللحم المحفوظ . وكان الجنود ينظرون بعجب إلى القوات الألمانية فكانت قادتهم من الجنرالات إلى الجنود العاديين يأكلون نفس النوع من التعيينات .

وعندما قام روميل بالهجوم من مرسى البريقة فى ٢١ يناير لم يواجه سوى وحدات استطلاع المفرزة ولقد أخذ البريطانيين على غرة تماماً. وأخذ روميل يضع

---

(١) الميس : عبارة عن مكان لتناول الطعام والنوم فيه . (المعلق)

الخطط لمهاجمة بني غازى . وبالرغم من أنهم كانوا فى آخر يناير إلا أن الصحراء كانت فى الربيع لأن شمال أفريقيا تختلف عن أوربا .

ففى المواقع الجديدة التى احتلها الألمان فى مسوس ، دهش الجنود من منظر الطبيعة الجميلة الموجودة على مشارف صحراء برقة ، فلقد أينعت الزهور . وكانت هذه الزهور البرية أكبر من التى توجد فى أرض الوطن ، وقد جمعت كل الألوان بين الأصفر والأحمر والأزرق. فلقد كانت ثورة من الألوان ، إلا أن هذه الأفكار الجميلة عن الطبيعة كان عمرها قصيراً . وكان تفتح الربيع فى الصحراء كأنه احتجاج من الطبيعة على حماقة الإنسان المشغوف بالقتال . وأشرقت الشمس وساد جو من السلام . ولم يعد يسمع سوى عويل الجنود وهم يطلبون النقالات لحمل الجرحى ، وكم كان هذا الربيع مشرقا فى ظل الموت !! وكيف يستطيع الرجل أن يستنشق عبير الزهور عندما تكون رائحة الموت ليست بعيدة عنه .

وقد بنى الرجال أقفاصا خارج حفرهم وخنادقهم من أجل السلاحف ، أما الآخرون فكان يستمتعون بمهارة الحرباء فى اقتناص الذباب بألسنتها الطويلة . ووضع الجنود هذه المخلوقات الرقيقة فوق الرمال البيضاء ، وفوق الأعشاب الخضراء حيث كانت الحرباء تغير من لونها وفقا للبيئة المحيطة بها ، من أبيض إلى أخضر إلى لون أحمر مثل لون المنديل الذى توضع فوقه ويصيح الجنود كلما غيرت الحرباء من لونها إلى لون آخر: « انظروا .. انظروا » .

ثم يأتى سباق السلاحف . وكان كل ما يلزم لهذا السباق السطح العلوى لمنضدة قديمة لكى يمنع المتسابقين من أن يحيدوا عن خط السباق . وكان رجال الآلاى ١١٥ هم الفائزون دائماً فى مثل هذا السباق . وكانوا يتراهنون بمبالغ كبيرة ودائمًا يكسبون . ولما كان أصلهم من مقاطعة هيس فقد كانوا دائمًا فخورين بالمحافظة على التقاليد التى كانت يوما ما متبعة فى الحرس الخاص لصاحب السعادة دوق هيس .

وكُنْتَ تسمعهم أثناء السباق يصيحون: « عشر سجائر جولد فلاك على نابليون . خمس عشرة سيجارة سينيور سير مس على ويلهلم أو عشرون سيجارة بلايرز على أوكنلك » .

وكانت هذه السجائر الإنجليزية تعتبر من أفضل الغنائم . وكان المتراهنون على ويلهلم غالبا ما يكسبون ، فيمنحون بذلك فرصة ذهبية لزيادة تموينهم من

السجائر . ومن الذى لا يفضلها على السجائر الألمانية الجافة ، التى يعوزها التغليف الصحيح لمواجهة الحرارة فى الأقاليم الحارة لذلك كانت مثل القش ، وكان ويلهلم سلحفاة أرضية ، وكانت هذه الأنواع من الحيوانات أكثر مكراً من زميلاتها الحيوانات الألمانية التى تعيش فى المستنقعات وكانت هذه هى الخدعة التى يعتمد عليها الجنود ، فلا يراهنون على سلحفاة مائية رغم أنها قد يبدو فى البداية أنها أكثر سرعة من الأرضية . وكان ويلهلم سباقاً ، فبالرغم من الإغراء الذى كان يتعرض له من قبل الطهاة بأن يعرضوا عليه أطباق الحساء كان يتجاهل ذلك ويواصل السباق ، وكعرفان بالجميل فقد أطلقوا سراحه بمجرد انتهاء حلمهم بالسلام واستيقظوا فقد انتهت الأيام الثلاثة التى منحوها أجازة من الجحيم ، فلقد عادوا إلى الحرب .

٨ - احتراق ٨ ملايين سيجارة فى بنى غازى :

فلقد علم روميل عن طريق التقارير التى وصلته من مراكز التنصت التابعة له أن القيادة البريطانية مترددة بالنسبة للدفاع عن بنى غازى والمخيلى . وهل من الممكن الدفاع عنها ؟ وكانت هذه مادة جديدة يمكن سحقها فى طاحونة روميل . ولذلك قرر انتزاع المبادأة من البريطانيين ومهاجمة بنى غازى . فالميناء سوف يصبح ذا فائدة عظيمة للإمداد . ومرة أخرى أمكن إحراز المفاجأة التكتيكية . ففى ربيع ١٩٤١ استولى على بنى غازى من الجنوب . وقال: « إن البريطانيين سوف يتوقعون منا أن نعاود ما فعلناه قبل ذلك » وعلى ذلك فقد قال لوستقال إنه يرى أن يهاجم بنى غازى عن طريق مسوس أى من الشرق . ويستولى على الميناء بمفاجأتها من الداخل ، وبهذه الخدعة يستطيع حصر الحامية البريطانية فى المدينة بالرغم من صعوبة الأرض ونقص الوقود اللذين سيحدّان من عدد القوات التى سيستخدمها .

وتوجه روميل مع هيئة أركان حربه لزيارة مجموعة قتال ماركس . وكان على هذه المجموعة القوية التى عززت بالكتيبة الثانية مدافع ماكينة ومجموعة قتال الرائد هشت المضادة للطائرات أن تعبر المنطقة الجبلية فى برقة وتتقدم إلى بنى غازى .

كما كان على مجموعة القتال التابعة للعقيدة جسلر أن تلتف حول المخيلى وتستولى على مراوة لتأمين عملية الهجوم على بنى غازى من الشرق . وكانت هذه المجموعة تتكون من جماعات من الآلاى المدرع ١١٥ بانزر وسريتين من

المدرعات وبطارية من المدفعية المدرعة .

وشقت مجموعة القتال طريقها بصعوبة عبر الصحراء الوعرة ، وعادت إحدى دوريات الاستطلاع وأبلغت عن وجود قوات قوية للعدو فى الوادى تتكون من حوالى ٢٠ مدفعاً و ١٠٠ عربة .

وكان البريطانيون غير حذرين فقد كان من الممكن سماع أصواتهم وهم يستعدون للعشاء ، وأمر جسلر جنوده بالتزام الصمت . وفى الظلام الدامس جهزت المدافع المضادة للدبابات فى أماكنها . وحدد موعد الهجوم ليكون عند الفجر . وكان الليل شديد الظلمة لدرجة أن مدافع الماكينة وضعت فى أماكنها بمجرد الغريزة والتخمين ولم يتيسر للبطارية الثقيلة أن تختار موقعًا مناسباً لها . وبقيت على استعداد لإطلاق النيران على طرق الاقتراب .

ولم يتعود البريطانيون الاستيقاظ مبكراً . وكان هذا معروفًا عنهم ويعد من مظاهر الضعف . وكان جسلر قد وضع خطته على أساس هذا التقصير وأصدر أوامره فى الساعة الثالثة صباحًا وقال: « أطلقوا النيران عندما ترون الإشارات الضوئية البيضاء » وقد وجد الملازم روف أن الانتظار غير محتمل وكان موجوداً مع مدافعه الثلاثة . وسرعان ما ظهر فى ضوء الفجر الشاحب معالم المدافع والعربات البريطانية . ولم تكن هناك حركة من جانب البريطانيين . وكان الألمان قد اتخذوا مراكز القتال .

وأخيرا ظهرت الإشارة البيضاء . وأطلقت المدافع الثلاثة المضادة للدبابات نيرانها . وفى أسفل الوادى كانت جهنم قد فتحت أبوابها . فقد بوغت البريطانيون مباغتة تامة وسرعان ما صعدوا إلى عرباتهم وأخذوا يطلقون النيران على غير هدى وهم يهربون بعرباتهم وجرى الرجال (الذين لم يركبوا) وراء العربات الفارة، وهم يصيحون بأعلى صوتهم وكأنما كانوا يسيرون إلى حتفهم ثم تصاعدت أعمدة الدخان .

وأخذت القوات الألمانية الميكانيكية تتدفق إلى الوادى . وكان لا بد من تطهير الطريق من العربات المعطلة . وقام الفدائيون بجمع جثث الموتى والعناية بالجرحى .

ووقف رائد بريطانى بجوار سيارته وقد عقد يديه وهو يصلّى وينظر إلى

زميله الملازم الذى سقط عند قدميه . وكان أحد الأطباء راكعًا بجواره . وقفز النقيب جود طبيب الآلاى ١١٥ من عربته المدرعة ، إلا أنه لم تكن هناك حاجة إلى مساعدته وظل الرائد واقفًا كالتمثال بجوار الجثة . واقترب منه الملازمان وقالا له بهدوء: « تعالَ الآن أيها الرائد » وانتبه الرائد كأنما كان فى غفلة وهز رأسه وسار إلى نقطة جمع الأسرى .

وقال النقيب «سيستر» أركان حرب العقيد جسلر (وهو محارب قديم محبوب ومعروف فى الآلاى ١١٥) وهو يهز رأسه: « إن هذا لشىء يؤثر فى النفس أن يتابع الإنسان الصلاة وينسى الحرب ، إلا أن هذا يعد مظهراً سيئًا بالنسبة له كضابط ، ولكن يجب أن نبدى إعجابنا به لإخلاصه لزميله المتوفى » .

وواصلت جماعات المقدمة من مجموعة العقيد جسلر تقدمها إلى مراوة. وكان ذلك فى يوم ٢٨ يناير .

ولكن هل هذه حقًا هى أفريقيا ؟ فيا لها من بلاد!!! شجيرات خضراء ومراع وأشجار من الحور والقسطل والزهور فى كل مكان ، فلقد كانت هذه المنطقة الخصبة فى القديم المزارع الرئيسية للقمح لروما القديمة قبل أن تمتد رمال الصحراء إلى الشمال .

ووصلوا إلى ينبوع من الماء عليه كوبرى من الخشب وتخيلوا أنهم فى سكسونيا الجنوبية بألمانيا إلا أن الحرب لا تحترم مظاهر جمال الطبيعة .

وفى صبيحة اليوم التالى حلقت القاذفات المقاتلة للعدو فوق قوة جسلر. واعتقد خطأ أنها قوات بريطانية فلم تقذفها بقنابلها . غير أنه سرعان ما سمع انفجاراً ضخماً. وطارت العجلة اليمنى لعربة القيادة فى الهواء . فلقد دخلت العربة فى حقل للألغام موجود أمام الكوبرى . واستعد السائق «هرنجر» للوثوب من العربة، إلا أن الملازم «مورنيز» منعه قائلا: « ابقَ حيث أنت يا رجل وإلا فسوف تمزق إربا» ويحذر خرجا من العربة وسارا على آثار عجلات العربة إلى الخلف وتقدم المهندسون ورفعوا الألغام .

إلا أن باقى الكتيبة عبروا الجدول المائى ليتجنبوا وابل النيران المتساقطة على الكوبرى وعادت عربة الاستطلاع وأبلغت عن أن المرتفعات المحيطة بمراوة خالية

من الأعداء .

وقال تونى ستريت الضابط المنوب بالآلاى ١١٥ : « سوف نحصل على عربة قيادة جديدة مصنوعة فى بريطانيا» .

وأرسل قادة السرايا إلى القطاعات المعينة لهم . كما أرسلت جماعتان من جماعات الاستطلاع فى اتجاه بنى غازى والمخيلى وقال قائد الآلاى ١١٥ : « إن الآلاى مستعد للعمل » .

ولكن ما الذى حدث فى نفس الوقت بالنسبة لهجوم روميل على بنى غازى فى يوم ٢٨ يناير ١٩٤٢ ؟

لقد خرج روميل بمجموعة القتال التابعة له فى تمام الساعة الخامسة إلا أن العملية صاحبها النحس منذ البداية فلقد هبت عليهم عاصفة رملية مصحوبة بأمطار رعدية واستمرت العاصفة ساعتين . وقد فاجأت العاصفة أحد القولات أثناء عبورها أحد الوديان مما اضطرها إلى البقاء ساكنة فى مكانها وقواتها معرضة للبرد والجوع حتى صبيحة اليوم التالى .

وأصبح التقدم متعذراً بسبب الوحل . وهذه لا يمكن أن تكون أفريقيا ؟ وتحت الخيوط الأولى من شمس الصباح المحرقة سرعان ما جفت الأرض وارتفع عنهم الكابوس ، وتركوا العربات الثقيلة بالطبع فى الخلف .

وما أهمية ذلك؟! فإنهم يريدون التقدم بسرعة أكبر.

وسرعان ما لاح لهم الحصن التركى القديم المسمى «رجيمة» ، وكان مملوءاً بقوات العدو إلا أنهم واصلوا التقدم وروميل على رأسهم متجهين إلى مطار «بنيا» ، وفى اللحظة الأخيرة قبل وصولهم حلقت عدة طائرات من طراز يونكرز ٥٢ وكان يقودها البريطانيون !!! فيا للأسف .

وتعويضاً عن ذلك وجدوا مخازن المؤن والمستودعات على جانبى الطريق مملوءة بالإمدادات وخالية من القوات . وكانت مستودعات جديدة أقامها البريطانيون عندما قرروا الهجوم على طرابلس . وزيادة على ذلك فإن المستودعات الألمانية التى تركها الألمان أثناء انسحابهم لم تمس. فالحرب لا تعرف الاقتصاد لأنها الإسراف بعينه ، وكانت هذه المؤن كأنها كنوز يسعى الكل إلى الحصول

عليها، وكانت محتوياتها كافية لتموين مدن بأكملها .

أما الحامية البريطانية في بنى غازى فقد كان مكتوباً عليها الفناء . وأرسل قائد الفرقة الهندية جماعات النسف والتدمير التابعين له للعمل . وبجوار الكنيسة أخذت المستودعات البريطانية تحترق وتصاعد منها الدخان . واحترقت سبعة ملايين سيجارة تصاعد دخانها إلى عنان السماء .

وأحرقت براميل من الروم لا حصر لها . وأحرقت مائة ألف طن من اللحم المحفوظ وتفحمت في مستودعاتها المشتعلة . ولكن بالرغم من كل هذا وجدت كميات كبيرة من المؤن لم يتسع الوقت لتدميرها . وأحضر زجال مجموعة ماركس أول طوابير الأسرى ، وأبلغوا عن الاستيلاء على عديد من السيارات التى حاولت التسلل من بنى غازى إلا أن روميل رفض أن يضيع وقتًا فقد كان يريد دخول المدينة ولكنه توقف لمدة وجيزة ، استمتع بها جميع الرجال تماماً . فلقد التقط عامل اللاسلكى رسالة أرسلها موسولينى . وكان الدوتشى يقترح فيها على روميل الاستيلاء على بنى غازى فى هذه الفرصة الذهبية على أن تبقى القوات الإيطالية فى مواقعها فى الخلف فى مرسى البريقة . وكان رد روميل قصيراً وحاسماً فقال: «إن المدينة قد تم الاستيلاء عليها فعلا» .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة من يوم ٣٠ يناير دخل روميل على رأس قواته إلى عاصمة برقة . وحياه العرب من سكان المدينة وهم يلوحون بعلم لونه بنى وأخضر وسار بسيارته خلال المدينة التى دمرت إلا أن سكان المدينة كانوا مبتهجين تماماً كما فعلوا منذ عدة أسابيع عند وصول البريطانيين إلى المدينة .

وبالرغم من أن روميل كان يقامر كثيراً إلا أنه فى بعض الأحيان كان يأخذ حذره ، فعندما سمع أن مجموعة جسلر مستعدة لاحتلال مرادة ألغى العملية وكان ذلك فى اللحظة التى أرسل فيها الرائد «آهل» قائد الكتيبة الأولى رسالته بأن الكتيبة على استعداد للهجوم، فقد وصله الرد من روميل بأن يبقى حيث هو حتى تصله الكتيبة الثانية مدافع ماكينة .

ورد روميل على جسلر بأن بنى غازى قد تم احتلالها وكان لا يريد أن يعرض نفسه لمخاطر البقاء داخل بنى غازى . وكانت الشمس قد قاربت المغيب عندما انضمت الكتيبة الثانية مدافع ماكينة إلى قوات جسلر .

وعند حلول الليل كانت مرادة قد سقطت فى قبضة الألمان . ووقف أوكنلك أمام الخريطة فى مقر قيادته بالقاهرة وأرسل أركانات حربه الواحد بعد الآخر إلى الجبهة بطريق الجو لكى يعطوا الأوامر بالانسحاب وكان السؤال الذى تردد «هل يستطيع البريطانيون إيقاف تقدم روميل ؟ وكم تبقى لدى روميل من قوات ؟ » وسرعان ما جاءت التقارير الأولى تعلن عن تقدم قوات روميل إلى درنة. وتساءلوا: أليس هناك طريقة لإيقاف تقدم هذا الثعلب الماكر ؟ نعم ممكن ذلك لأن روميل سيخضع لحكم التعزيزات والإمدادات والتموين ولذلك يجب على البريطانيين التمركز فى موقع الغزالة الحصين . وكان هذا الموقع الدفاعى يمثل لدى البريطانيين ما كان يمثله موقع مرسى البريقة لدى الألمان .

ففى مدة سبعة عشر يوما تمكن روميل من استعادة كل ما فقده تقريباً إلا أن قواته كانت غير كافية للاستيلاء على طبرق ولذلك بقيت فى أيدى البريطانيين .

ومرة أخرى أصبحت آمال البريطانيين معلقة على (قلعة الرمال) هذه . فهل تثبت مرة أخرى أمام روميل ؟ إنها شوكة فى جنب روميل لو تقدم كما حدث فى سنة ١٩٤١م ، علاوة على أنها الباب المنيع ضد الاستيلاء على مصر وهى السبب فى هزيمة الفيلق الأفريقى؟

الفصل السادس

مقدمة معارك الصيف

الفصل السادس

مقدمة معارك الصيف

١ - الصراع المرير بين الغابات والصحراء :

أخذ الرقيب «هاين» يدير مفاتيح جهاز الإرسال اللاسلكى وهو يحبس أنفاسه وينصت . إلا أن الجهاز لم يستجب له . فمرة أخرى لم يتلق ردا على إشارته.

ولمدة يومين ظل جالسا فى أجدابية صباح كل يوم فيما بين الثامنة والتاسعة بعد الظهر فى عربة اللاسلكى التابعة لسلاح الطيران الألمانى الأفريقى يتنصت . وكان يستمع إلى محطات كثيرة وشوشرة تداخل المحطات الأخرى غير أن الرسالة التى كان ينتظرها لم تصل .

وتنهد هاين وقال : « لم تصل بعد » وهو يرفع السماعات من على أذنيه وكانت الساعة الثامنة وعشر دقائق من يوم الجمعة الموافق ٢٣ يناير ١٩٤٢م.

ورفع هاين السماعات وناولها إلى مساعده وقال « واصل المحاولة حتى الساعة الثامنة والنصف ».

ووضع قبعته على رأسه وتوجه لتناول عشائه وما كاد يصل إلى الباب حتى نادى عليه مساعده وقال « لقد توصلت إليها » وساد الصمت فى العربة ولم يتحرك أحد وجمد هاين عند الباب كما لو كان تمثالا من الحجر بينما أدار الباقون أعينهم فجأة فى اتجاهه واستمع عامل اللاسلكى باهتمام وجرى قلمه على الورق .

وعاد هاين على أطراف أصابعه ونظر من فوق كتفيه (ف ك ب ج - ف ك ب ج) وشاهد كيف أن الإشارة الواردة قد تكررت . وتبادل الرجلان النظر وابتسما وقال هاين « نعم إنهم هم ، أرسل الرد » وأرسل العريف الرد على الفور عبر الأثير .

وفى هذه اللحظة على بعد ٧٥٠ ميل من أجدابية وسط الصحراء الأفريقية الإستوائية التى ظلت آلاف السنين تحت سيطرة الرياح والرمال تصاعدت صيحة «لقد اتصلنا بهم » .

وقفز نقيب من سلاح الطيران الألمانى على قدميه واندفع اتجاه عامل اللاسلكى الذى كان جالساً على الرمال وبجواره جهاز إرساله الصغير بقوة ٣ وات وتجمع باقى الرجال حوله وقد قتلهم العطش وطالت لحاهم وهم الملازم بوهسناك والرائد الإيطالى الكونت فيمر كاتى سيفرينو ، والملازم فريتز ديتمان والرقيب أول هنيريش جسلر ، وحدقوا فى عامل اللاسلكى ويخمان الذى كان منحنيا إلى الأمام وهو ينصت على ضوء الشموع إلى الإشارات الواردة واستضاءت وجوههم فلأول مرة منذ يومين أصبح فى استطاعتهم الضحك فى هذه البقعة النائية التى تقع على بعد مئات الأميال من أجدابية » .

وهناك فى أجدابية كانوا يستمعون إلى النبرات الضعيفة التى تصلهم من قلب الصحراء الأفريقية النائية . وبمشقة وجهد وبعد تكرار الطلب بإعادة الرسالة قاموا بفك رموزها وتتضمن « لقد قامت جماعة الفدائيين بليخ بتنفيذ مهمتها بنجاح وقد أصابت القنابل مستودعات الوقود والحظائر فى حصن لامى الواقع على ضفاف بحيرة تشاد إصابة مباشرة ، وقد اضطررنا للهبوط الاضطرارى أثناء العودة منذ يومين من بحيرة تشاد بسبب نقص الوقود وسط منطقة غير معروفة ، ومكان الهبوط الاضطرارى يقع بالتقريب فى القطاع المسمى على الخريطة تا آومو والماء قد أوشك على النفاد » .

ورد عامل اللاسلكى فى أجدابية على الرسالة بعد استقبالها بـ « انتهى » .

ورد عليه ويخمان من ذلك المكان البعيد فى الصحراء وهو يكتب آخر كلمة فيها «انتهى» ثم قفز على قدميه (بالرغم من النظام العسكرى) .

وأخذ طاقم الطائرة يرقصون على الرمال أمام طائرتهم من طراز هينكل مارك ٣ وكانت تقف هناك فى تلك البقعة النائية كأنها طائر من طيور الأساطير . ولكى يحصلوا على الظل علقوا خيامهم فوق أجنحة الطائرة وكأنها أعلام . أما مهماتهم فكانت ملقاة على الأرض فوق الرمال.

واقترب جسلر (ميكانيكى الطائرة) من النقيب بليخ وقال له « ماذا عن قطرات قليلة من الماء للاحتفال بهذه الأنباء يا سيادة النقيب . مجرد قطرات قليلة ؟» .

ونظر الجميع إلى قائد الطائرة غير أنه هز رأسه فماتت الابتسامات من على وجوههم وتحققوا من أن ما حدث لا يزيد عن اتصال تم على بعد سبعمائة وخمسين

ميلا . فهم ما زالوا سجناء فى الصحراء اللانهائية وأنه لم يبق فى صفيحة الماء ذات الجالونات الخمس التى يستخدمونها منذ يومين سوى جالونين . وتراجعوا إلى حقائق نومهم فى صمت أشبه فى عمقه بصمت الصحراء التى احتوتهم بين جوانبها .

وتساءلوا : هل سيستطيعون تحطيم قيودهم هذه أم أن الصحراء سوف تصبح قبوراً لهم ؟

ووقف جسلر مرة ثانية وتوجه إلى الطائرة لإحضار حجر كان قد انتقاه بعناية فى ذلك الصباح ، لأنه فى صباح اليوم التالى سوف يبدأ فى حفر اسمه عليه حتى يسهل على الناس فيما بعد أن يعرفوا أن هذه العظام البيضاء هى عظامه، ويعلموا مصير الرجال الذين ماتوا فى ربيع ١٩٤٢ أثناء مهمة خيالية وهذه هى قصتهم .

وفى وسط القارة الأفريقية الشاسعة تقع بحيرة كبيرة على خط العرض الذى يشير إلى أوسع أجزائها وطولها ١٢٠ ميلا هى بحيرة تشاد ويصب فى البحيرة نهران هما نهر لوجون (النهر المسموم المياه) ونهر فسارى، وإذا نظرنا إليها من الشمال فسنجد أن خط تقسيم المياه وبحيرة تشاد يمثلان أول حدود الصحراء الممتدة إلى الشمال . وإذا نظرنا إليها من الجنوب فإن البحيرة تكون خط الدفاع الأخير للغابات أمام الصحراء الزاحفة ، فهى الحائط الشمالى للغابات وهى السد الهائل للخضرة ضد جبروت الصحراء الزاحفة ، فهنا يقوم بين الصحراء والغابات صراع مرير إلا أن الصحراء دائماً هى المنتصرة ، فالرياح الشمالية تدفع الرمال باستمرار وبدون انقطاع اتجاه الجنوب . وهناك أجزاء من البحيرة قد ملأتها الكثبان الرملية ، وتحولت البحيرة من اتجاه الشرق إلى بركة ضحلة . والرمال تواصل زحفها وتحارب الغابة والمياه . فهى حرب صامتة غير ملحوظة تدور رحاها بدون صدى كما هى طبيعة الصحراء فى الصمت والسكون .

غير أن بحيرة تشاد ليست مجرد معالم جغرافية ، ولكنها نقطة مهمة لطرق المواصلات الأفريقية من الناحية الاستراتيجية والسياسية فى القارة السوداء . فهناك على حافة الغابات الإستوائية تتقابل حدود المستعمرات الألمانية السابقة وهى الكاميرون ونيجيريا وأفريقيا الإستوائية وأفريقيا الغربية والفرنسية .

وبما أن الطبيعة قد خلقت منها حصنًا طبيعيًا فإن الغزاة والمستكشفين

والمستعمرين قد بنوا فى هذه النقطة حصناً هو « حصن لامى » ويقع تقريبا فى منتصف أفريقيا وهو عبارة عن قلعة حديثة لحكام القارة تقع فى مفترق الطرق المهمة بين شاطئ الأطلنطى وميناء دوالا فى مفترق الطريق إلى الكونغو البلجيكية فى الجنوب (سابقًا) والجزائر فى الشمال . ومن ثم يمكن وقاية وتهديد الجناح الجنوبى لليبيا .

وفى سنة ١٩٤٢ أصبح حصن لامى مفتاح الطريق البرى الممتد عبر المحيط الأطلنطى إلى مصر لتوصيل الإمدادات .

ولكى نلم بقوة العدو الذى كان روميل يقاتله هو وفيلقه الأفريقى بمعدلاته القليلة يجب أن نعلم أن الحملة الأفريقية لم تكن فى الشمال فقط (فى المنطقة الساحلية) ولكن تأثيرها امتد بعمق إلى قلب القارة الأفريقية .

وبالنسبة لحصن لامى فإن الحرب بالإمدادات كانت تشن ضد روميل من هناك وعلى نطاق استراتيجى واسع ، فهناك كانت تقع منطقة الإمداد اللازم لمصر بعيداً عن متناول عمليات روميل الحربية علاوة على أن قوات ديجول احتلت جبال تيبستى وهددت ميمنة قوات روميل من الصحراء الليبية الجنوبية .وتعتبر نقطة تجمع ضخمة ونقطة البداية لتحقيق أهداف بعيدة المدى .

٢ - حصن لامى عقدة المواصلات إلى النيل :

ولم تكن برلين تعرف إلا القليل عن هذه الأسرار الأفريقية لأن استراتيجية الغرب على مستوى القارات كانت غير معروفة لهم . وكانت برلين تجهل أيضاً أن الحلفاء قد أنشئوا طريقاً للإمداد عبر أفريقيا إلى مصر ، وكانت تجهل تماما ما حدث فى لاجوس حيث توجد مصانع التكرير الضخمة التابعة لشركتى شل واستاندر أوبيل كما لم تكن لديها معرفة بالأحداث التى تجرى فى ميناء دوالا وبرازفيل فى الكنغو البلجيكية (سابقاً) .

حيث كان ينقل البترول منه إلى حصن لامى إلا أن رجلا واحداً كان يعرف ذلك جيداً ، واحدا من هؤلاء الرجال العظام ليس لديه أى دخل فى السياسة أو الاستراتيجية، فما كان سوى واحد من الرواد والمستكشفين المخلصين ، وصاحب مزرعة ومغامر بكل ما فى الكلمة من معنى ، ومستعمر قديم . وهو الجندى الوحيد فى الجيش الألمانى عام ١٩٣٩ الذى قدم نفسه للخدمة فى سلاح الطيران ومعه طائرته وهو ثيو بليخ وكان يعمل مع روميل بطائرته الخاصة من طراز تيفون لو

أمكن أن يطلق الإنسان كلمة طيران على ما تقوم به هذه الطائرة الضعيفة .

وفي يناير ١٩٤٣ قدم تقريرا سريا قبل قيام روميل بهجومه جاء فيه: « إن حصن لامى هو نقطة تجمع لعمليات العدو . فهذا المكان المهم هو حلقة الاتصال لخطوط عديدة من المواصلات بما فى ذلك الطريق إلى الشرق ويمكن استخدامه على مدار السنة ، ويمتد حتى نهر النيل .

وقد لاحظ الحلفاء بسرعة مزايا طريق المواصلات هذا الذى يبعد عن متناول يدنا ويمتد من ساحل أفريقيا الغربى إلى النيل ، فقاموا بتعبيده إلى الحد المطلوب .

أما جبال تيبستى وهى المنطقة الأمامية فى الشمال والتى تعتبر بمثابة رأس الكوبرى بين ليبيا ومنطقة بحيرة تشاد فكان يسيطر عليها جيش ديجول. وهى بذلك تمثل خطراً مباشراً على الصحراء الليبية ، وبالتالى على خطوط مواصلاتنا من طرابلس وبنى غازى . ولذلك يجب تأمين الحدود الليبية الجنوبية لمواجهة هجوم العدو المحتمل من أفريقيا الوسطى.

والحل هو القيام بعملية حربية الغرض منها إزعاج العدو أو الاستيلاء على حصن لامى الذى يقع على طريق الإمدادات إلى مصر » .

وقرأ الأركانات حرب فى برلين هذا التقرير فى ذهول . فهل فى استطاعتهم الاستيلاء على خط الإمداد الممتد من حصن لامى إلى النيل؟ لا شك أن الرجل مجنون . غير أن ثيو بليخ لم يتركهم فى سلام . فقد أمر بإرسال تشكيلات من القاذفات على الأقل لتدمير المركز المهم الموجود فى حصن لامى .

ومعنى ذلك القيام بهجوم جوى على مكان يبعد عن مطارات السلاح الجوى الألمانى فى شمال أفريقيا بـ ١٢٥٠ ميلا .

وقرأ روميل تقرير بليخ باهتمام . فلقد كان دائمًا يحبذ الجرأة والخيال . وفحص الخرائط جيداً وأومأ برأسه ثم أضاف حرف (ر) كبير الحجم إليها دلالة على الموافقة . وأرسل التقرير إلى قائد سلاح الطيران الألمانى فى أفريقيا .

وقد حمل تقرير بليخ توقيعات عديدة غير أنها جميعا لم تكن فى أهمية حرف (ر) الذى أضافه روميل . ونتيجة لهذا ففى اليوم الذى بدأ فيه روميل هجومه الجديد فى ذلك الأربعاء ٢١ من يناير سنة ١٩٤٢ قام ستة طيارين بغارة تستحق أن توصف بأنها إحدى الغارات الكبرى والجريئة والخطيرة فى العصر



الطريق البرى الذى أنشأه الطليان عبر وسط أفريقيا مارا بحصن لامى

الحديث والتى يجب أن نسجلها فى تاريخ الحرب . فلقد طار رجال الفدائيين التابعين لبليخ إلى حصن لامى .

٣ - أمير واحة جالو :

كان معسكر ينو مطاراً طبيعيًا ذا أرض تكسوها الطفل الصلب . وأما ممرات الطائرات فهى خالية من الموانع من جميع الاتجاهات ويحيط بالمطار مرتفعات تحجب الرياح عن ذلك المطار الذى يعتبر أكثر مطارات العالم انعزالا .

وطار الفدائيون من مطار واحة «هون» وهبطوا فى معسكر «ينو» فى ٢٠ يناير ١٩٤٢ . ووجدوا أنفسهم بمفردهم فى هذا المكان الغريب وسط الصحراء ، والذى لا توجد فيه حظيرة واحدة للطائرات أو مظلة . وكانوا يتكونون من النقيب ثيو بليخ ومعه طائرته، والملازم «فرانز بوهسناك» قائد طائرة من طراز هينكل ٣ والمساعد جسلر الميكانيكى والرقيب «ويخمان «عامل اللاسلكى والملازم «ديتمان» المراسل الحربى . وكان ديتمان لا يحيد قط فى تقاريره عن الحقيقة عند وصفه للمعارك البرية والجوية وكان مشهورا بين رجال الطيران بشجاعته وبسالته وكان المراسل الحربى الوحيد – كما أعلم الذى حصل على وسام الصليب الذهبى .

وطار معهم رجل آخر من معسكر ينو للاشتراك فى الغارة على حصن لامى وهو شخصية كشخصيات الأساطير يرجع تاريخها إلى عصر القياصرة . وهو الرائد «كونت روبرتو فيمر كاتى سان سيفرينو «خبير الصحراء فى الجيش الإيطالى الأفريقى. وقد اكتشف بنفسه معسكر ينو عام ١٩٣٥ عندما هبط فى إحدى رحلاته فى المكان المذكور . وقد قام باكتشاف المرتفعات حوله وحدد مكان المطار المثالى الذى لم يكتشفه أحد من قبله على الحافة الجنوبية للصحراء الليبية ، وكان «فيمر كاتى» صاحب أسفار محبا للصحراء، وهى المكان الذى تسود فيه الرياح والرمال والنجوم. وخدم كضابط فى ليبيا لمدة ستة عشر عاماً وكان رفاقه يدعونه باسم (أمير جالو) على اسم الواحة التى أحبها كثيراً .

وهبط «فيمر كاتى» فى معسكر «ينو» بطائرة كبيرة من طراز «سافويا» فى العشرين من يناير وكانت وظيفة الطائرة القيام بدور (الطائرة الأم) حيث حملت الوقود اللازم للإغارة على حصن لامى ثم العودة، وكان على الطائرة أن تبقى فى معسكر ينو ، بينما كان الملاحون وزملاؤهم فى واحة هون يعدون الساعات حتى تعود الطائرة الهينكل مارك ٣ من غاراتها الجريئة.

وكان الإيطاليون متوترى الأعصاب وقلقين ، ومنهم عامل اللاسلكى النشيط «سكوروزن» صغير الجسم وكان يرتدى سروالا أكبر من مقاسه فكان يبدو كأقزام الأساطير ، ومعه كل من الرقيب «داجاتا» «وزاراشينى» «وتوليانى» والميكانيكى «موساد» والرجل ذو الاسم الذى لا يلائمه إطلاقا وهو « ألفريدو سكندالو » .

وكان معسكر ينو مكانا مثاليا للرجل الذى يحب الصحراء على أن يكون لديه خيمة لتحميه من الشمس المحرقة وما يحتاجه من الماء .

وفحص «فيمر» خيمته وهى خيمة جديدة غريبة الشكل يحملها كل رواد الصحراء المجربين كما يحمل الأوربى ولاعة السجائر .

أما فرانز بوهسناك قائد الطائرة وهو طيار بالسليقة هادئ الطبع دائما وذو شهية قوية ، فقد كان مشغولا بإعداد طعامه على نار موقد يعمل بالكحول .

أما جسلر الميكانيكى فكان يقوم بربط المسامير فى أماكنها ويفحص الطائرة .

أما ديتمان فكان يتأمل فى ضوء الشمس الغاربة .

وصاح الإيطاليون لملاحى الطائرة الذين سيعملون فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى الموافق الأربعاء من يوم ٢١ يناير بالإيطالية: « أن بوكا آل لوبو»(١) .

وتحركت الطائرة هينكل ماركة ٣ فوق الرمال وهى تحمل ألف جالون من الوقود وكأنها فنطاس طائر من البترول .

وزأرت المحركات ، وجلس بوهسناك فى هدوء أمام عجلة القيادة ، أما بليخ وهو قائد الغارة والملاحظ الجوى فقد بسط الخريطة البالغ طولها سبعة أقدام فوق ركبتيه ، أما فيمر فقد أخذ على عاتقه ملاحظة المعالم الأرضية للمرحلة .

وظهرت جبال تيبستى البالغ ارتفاعها تسعة آلاف قدم فى ضوء المصباح الباهت ، وقام «فيمر كاتى» «وبليخ» بتعيين الأماكن على الخريطة التى يمرون بها بسرعة والتى ما زالت أرضا مجهولة ولم تستكشف بعد، فهى عبارة عن كثبان من الرمال بدون ماء أو أثر للخضرة ، فهى مملكة الرياح حيث لا يعيش فيها إنسان أو حيوان ولم يطأها قدم إنسان من قبل .

---

(١) معناها عودة موفقة وهبوط سعيد .

٤ - الجاسوس الإنجليزى الذى عمل متنبئا للأرصاد الألمانية :

انقلب الجو وأصبح عكرا وبدت بوادر العاصفة وقال بوهسناك غاضباً: «سوف نحتاج إلى وقود أكثر مما قدرنا ، فقد حسب كل جالون بدقة مع احتياطى ضئيل . فقد قدروا أن الجو فى واحة هون سوف يكون ضحوا والهواء ساكنا . فقد حضر المسئول عن الأرصاد الجوية من سلاح الجو الألمانى إلى الحصن الإيطالى ، وكان يرتدى قبعة بيضاء تميل على إحدى أذنيه . وقال وهو يقدم نفسه بمرح ظاهر : «أنا المتنبئ بالأرصاد جئت أمنحكم خبرتى من أجل مهمتكم الخاصة ، وقد اتضح أن خبرته فى غير محلها .

وقال بوهسناك : « ذلك المغفل الأحمق » فلم يقل أحد كلمة طيبة فى حق متنبئ الأرصاد القادم من سكسونيا لأنهم اعتقدوا أن الرجل لم يؤد عمله على خير وجه وبالذات لملاحى الطائرة المتجهة إلى حصن لامى ، إلا أن متنبئ الأرصاد الذى ظهر لهم من جوف الصحراء ما هو إلا أحد رجال « جوك كامبل » (١) البريطانى .

فهو جاسوس وعضو فى مجموعة التخريب البريطانية وعندما حاول التسلل من المعسكر بعد أن أقلعت الطائرة كشف أمره أحد الضباط نتيجة لحادث غريب لا يستطيع حتى أمهر الجواسيس أن يلاحظه .

وعندما عاد رجال بليخ من مهمتهم كان كل ما وجدوه من متنبئ الأرصاد صليباً خشبياً على مرتفع من الأرض . ولم يكن الصليب يحمل اسما لأن عميل جوك كامبل رفض أن يبوح باسمه وقال بابتسامة: « اكتبوا فقط أنه لفرد أنجلو سكسونى » وهو يتكلم بلهجة أهل سكسونيا الواضحة الذى تعلمها وهو يدرس فى مدينة درسدن عاصمة مقاطعة سكسونيا .

غير أن بوهسناك وبليخ وفيمر كاتى والآخرين لم يعلموا بما حدث وهم فى الطائرة المتحركة إلى تشاد وكانوا متذمرين من الرياح وضعف الرؤية .

وحوالى الظهر ظهر لهم الجزء الشرقى الممتد كالذراع لبحيرة تشاد والماء يلمع فى ضوء الشمس . وبذلك فإنهم لن يضلوا طريقهم . وازدادت الرؤية سوءا

---

(١) عبارة عن قوات فدائية إنجليزية تدفع خلف خطوط الألمان للقيام بأعمال التخريب والتجسس وكان يقودها جوك كامبل . (المعلق)

وامتلأ الجو بقناع أصفر من الرمال فقد كان الوقت ميعاد هبوب الهارمتيان وهى العواصف الرملية الجافة التى تهب فى أفريقيا الإستوائية . وسجل الترمومتر على لوحة العدادات (وكانوا على ارتفاع ٧٥٠ قدم) ٧٨ درجة فهرنهيت وقدروا بذلك أن الحرارة على الأرض فى مثل ذلك الوقت لا بد أن تتراوح بين ١٠٤ ، ١٢٠ درجة فهرنهيت .

وقام بوهسناك بدورية واسعة إلى الجنوب ليستطلع الطرق والملاحة فى النهر إلى حصن لامى الاستراتيجى ، وفى حوالى الساعة الثانية والنصف غير اتجاهه إلى الشمال وأمر بليخ بهدوء بالاستعداد للضرب وقال: « على الجميع أن يتخذوا مراكز المعركة » وظهرت المعالم الخارجية للحصن ثم بدت للعيان جلية فكان فى استطاعتهم رؤية الشوارع العريضة الواسعة المستقيمة والحى الوطنى المكتظ والمطار، وأخذت آلات التصوير فى العمل .

ويحتوى مطار حصن لامى على حظيرتين كبيرتين للطائرات تحيط بهما الورش، ونقط بيضاء عبارة عن مخازن للوقود والمؤن جزء منها مدفون تحت الأرض وبدت كأنها قلاع رملية . ولم تطلق عليهم المدافع المضادة للطائرات نيرانها . فهل هم نائمون ؟ .

وسأل بوهسناك بليخ: « هل نقذف بالقنابل فى مجموعات؟ أو فردية ؟ » وأجابه بليخ بأن يقذفها فى مجموعات . وأومأ بوهسناك برأسه وضغط آلة تنشين القنابل وكانوا يحملون ست عشرة قنبلة زنتها قرابة ١٠ آلاف رطل تحمل الموت والدمار .

وصاح القاذف « نحن فوق الهدف . استعد للقذف » وأومأ بليخ برأسه وضغط بوهسناك على زر الإطلاق ولم يسمعوا صوت انفجار القنابل إلا أنهم شاهدوا نتيجة الانفجار وهى أعمدة من اللهب والدخان ارتفعت إلى عنان السماء وظهرت بحار من النيران والدخان وتهاوت الحظائر . واشتعلت النيران فى مخازن الوقود .

أما طاقم الطائرة فأخذوا يصيحون من الفرحة والبهجة وكأنهم شبه مجانين من الانفعال وأطلقوا العنان لعواطفهم فكانوا يقولون: «يا لها من شعلة جميلة. لقد اشتعلت فيها النيران تماماً » .

ولم تطلق على الطائرة طلقة واحدة بواسطة المدافع المضادة للطائرات وكان فى استطاعتهم عندما ابتعدوا عن الهدف ستين ميلا رؤية أعمدة الدخان ، وبهذا تركت الحرب آثارها على بحيرة تشاد الواقعة فى قلب القارة الأفريقية ونجحت

الضربة الجريئة .

وبعد ستة أسابيع علمت القيادة الألمانية العليا من عريف فرنسى أسير أن القوات فى حصن لامى دهشوا عندما ظهرت قاذفة قنابل ألمانية هناك ، وخلال دهشتهم وذهولهم نسوا إعطاء الأوامر للمدفعية المضادة بإطلاق النيران ، وقد احترق نتيجة لهذه الغارة ثمانون ألف جالون من وقود الطائرات وكل المخزون من البترول. ودمرت عشر طائرات وهى جاثمة على الأرض ، وأصيبت كل المبانى بالمطار إصابات جسيمة وتعطل حصن لامى عن العمل لعدة أسابيع .

وقد طاروا كما سبق من معسكر ينو فى الساعة الثامنة وقذفوا لامى فى الساعة الرابعة والنصف ، ثم عادوا طائرين اتجاه الشمال لمدة أربع ساعات . وأخذت الشمس فى المغيب بسرعة وهى تلون كثبان الرمال والصخور بظلال ضخمة.

وسأل بوهسناك ، هل نحن فى طريقنا الصحيح؟ ، ولم يتلق جوابا . فلم يكن هناك رجل يستطيع أن يتعرف على الطريق الصحيح فى مثل هذا الوقت الذى يملؤه الظلال . ولم يبق لديهم من الوقود سوى ما يكفى لمسيرة نصف ساعة فهل فى استطاعتهم العثور على معسكر ينو ؟ وهو لا يزيد عن بقعة ضئيلة فى بحر الصحراء المتسع فى تلك الأمسية ؟

وأخذ ،فيمر كاتى، يستطلع الصحراء وبين وقت وآخر يهز رأسه دلالة على الحير والعجز. وأصبح الوقت قصيراً وكذلك وقودهم، وأخيراً أيقنوا أنهم لن يستطيعوا الوصول إلى المطار فى معسكر ينو قبل أن يحل الظلام .

وفى بحر ربع ساعة سوف ينفد بترولهم وعليهم قبل أن يحل الظلام أن يجدوا مكانا يهبطون فيه فى الأضواء الأخيرة من النهار . وعليهم أن يبحثوا أو يجدوا مكانا لهم فى الصحراء وأمر بوهسناك بتشغيل جهاز اللاسلكى . وكانت سارية الجهاز القوى البالغ قوته سبعون وات طولها مائة ياردة . ونادى بليخ على ديتمان بأن يدير الجهاز ويرسل إشارة الاستغاثة إلا أنه لم يتلق جواباً . وأمرهم بوهسناك بهدوء بربط أحزمتهم والإمساك بمقاعدهم . وتوقف المحرك وساد الصمت ثم زأرت الآلات من جديد فقد اضطر الطيار أن يديرها مرة أخرى ليتجنب أحد الوديان . ولم يتبق إلا وقت قليل حتى يحل الغسق وبعد ثوان قليلة سوف يطويهم الليل فى جوفه .

ومرة أخرى أوقف الطيار المحرك ، وحبسوا أنفاسهم وأمسكوا بمقاعدهم وتساءلوا: هل ستتحطم بهم الطائرة ؟ ولم يحدث شيء فقد تم كل شيء بسلام وبعد بضع هزات توقفت الطائرة على الأرض .

وساد الصمت ونظر الجميع إلى « فيمر كاتي» رجل الصحراء . وبحث في جيوبه وأخرج علبة سجائر ذهبية . وكان بها ثلاث سجائر لأنه لا يدخن أبداً ، فأخرجها وقسم كل منها إلى قسمين وبهذا أصبحت ست سجائر ، ومعنى ذلك ستة أيام . فهل قرر ثعلب الصحراء أنهم سوف يبقون هناك ستة أيام ؟

أما ديتمان عامل اللاسلكى فقد فكر على التو فى جهاز الإرسال الصغير الذى أعطاه له بليخ ، وهو جهاز قوته ٣ وات معد خصيصا للجواسيس لأن جهاز الإرسال فى الطائرة لا يمكن استخدامه إلا ومحركات الطائرة مدارة . وبسرعة مد ديتمان إيريال الجهاز الصغير وكان الوقت حوالى الثامنة مساءً . وهو الوقت المعين للاتصال بقيادة سلاح الطيران الألمانى فى أجدابية ، وعلى ضوء شمعة جلس على الرمال وأخذ يقرع مفاتيح الجهاز ويرسل الإشارة الخاصة بالفدائيين (ف . ب. ك. ج) وأخذ يكرر الإشارة ثم يتوقف عن الإرسال وينصت . ولكن بلا فائدة وكان عليه أن يوفر جهد البطارية ، وبعد نصف ساعة توقف عن الإرسال .

٥ - كتاب هابيل صاحب الأرغن :

وقال بوهسناك: «دعونا نعد للمعسكر » قال ذلك بحرج مصطنع . وأحضروا تعيينات الطوارئ من الطائرة . وكذلك أربع خيام من قماش القلوع تحتوى كل منها على حقيبة نوم وناموسية ومرتبة من المطاط وأطباق وأقداح وبوصلات وبنادق وسكاكين مطوية ومصابيح هاريكان وثقاب وسجائر وجواريف ، فلم ينسوا شيئاً .

أما طعامهم فقد اختزنوه فى ست صفائح كبيرة . وكان مكتوبا على كل واحدة «تعيين رجل واحد لمدة ستة أيام » وكان لديهم تموين كثير من اللحم المحفوظ ولحم الخنزير والبسكويت وأنواع شهية أخرى وسوائل كثيرة تشرب معها . فبالإضافة إلى ما تقدم كان هناك لبن محفوظ وأقراص فيتامينات وفواكه محفوظة وخبز مقدد وأقراص شاى وملح وسكر . فكيف يمكن أن تحتوى هذه الصفيحة على كل هذا وقد قدروا كنزهم هذا حق قدره ولكن أين الماء ؟ الماء اللازم لبلع كل هذه الأطعمة؟

فأنزل جسلر صفيحة واحدة سعة خمسة جالونات . فقال بليخ على الفور:

«سوف يحدد مقدار ماء الشرب لكل منكم ، وهو كوب من الماء فى الساعة الثامنة صباحًا وكوب آخر عند الساعة الخامسة بعد الظهر ، أما بالنسبة للماء الخاص بالطهى فسوف يصرف على حدة ، وما معنى ذلك ؟ فهل حقيقة سيطهون كثيرا . ربما سيطهون قليلا من الفاصوليا الجافة ليأكلوها مع اللحم المحفوظ ولحم الخنزير .

ولكى يرفع بليخ من روحهم المعنوية أضاف قائلا ، فى هذا المساء سوف يكون هناك إناء من الشاى يكفى الجميع ، وقام بوهسناك بعمل الشاى على موقده الكحولى، وعندما وضع أقراص الشاى فى الماء كانت رائحة الشاى جميلة ، والآن علينا بالسكر ، وتناول فرانز العبوة المكتوب عليها سكر وقال «فيمر كاتى»: ، أنا أحب الشاى شديد الحلاوة ، فقام بوهسناك بوضع مزيد من السكر فى قدحه وقدم الشاى للجميع وقال فيمر: فى صحتكم، وتناول جرعة كبيرة ولكنه سرعان ما لفظها على الرمال . ونظروا إليه فى دهشة ثم تناول كل منهم جرعة من قدحه فى احتراس : «يا إلهى، إن الشاى مملح ، وظهر على بوهسناك الارتباك والحرج وأمسك بالكيس الذى وضع منه الشاى وقرأ على ضوء الشمعة كلمة سكر بحروف كبيرة ، ثم فتح باقى الأكياس وأخذ يتذوق ما فيها بأصبعه وكانت كلها ملحا.

غير أنهم وجدوا السكر فى أكياس الملح . وهكذا ضاع الماء المصنوع منه الشاى ، وهكذا حرموا من الشاى جميعاً فأخذوا يسبون ويلعنون .

أما المنطقة التى هبطوا فيها فكانت فى منخفض هائل ، فإلى الشرق توجد سلسلتان من الجبال وإلى الجنوب تلال صخرية عالية . وإلى الشمال نجدان مرتفعان لها أشكال غريبة .

وفى صباح اليوم التالى ما كاد ويخمان عامل اللاسلكى ينتهى من تناول نصيبه من الماء حتى بادر إلى جهاز إرساله وأخذ يدق عليه . ولم يتلق ردا على إشارته، أما فيمر كاتى فجلس تحت جناح الطائرة وهو منكب على الخرائط واستقر أصبعه على نقطة معينة على الخريطة غير أنه لم يقل شيئاً .

بينما قام ويخمان وجسلر باستكشاف المنطقة حولهم ، وكانا يريدان تسلق المرتفعات المحيطة بهم عسى أن يتعرفا على بعض المعالم . وكانت الجبال تبدو قريبة منهم ، ورغم مواصلتهما السير لمسافة طويلة فلم يبد أنهما قد اقتربا كثيراً من الجبل **وبعد مرور ساعتين عليهما فهما أن جفاف الهواء فى المنطقة جعل تقدير المسافة الصحيحة يكاد يكون مستحيلا** ، فالجبل يبعد كثيرا عنهما ، وبعد أربع

ساعات شعروا بالعطش فعادوا إلى المعسكر . وسجل الترمومتر ١٠٠ درجة فهرنهيت فى الظل الممتد تحت جناح الطائرة وكان الهواء شديد الجفاف ، ولم يكن هذا عجيبا فقد كانوا موجودين على أجف خطوط العرض على ظهر الأرض . ولا تزيد درجة الرطوبة فى هذه المنطقة عن ١٨ فى المائة خلال السنة ، فى حين أنها ٦٥ فى المائة فى برلين مثلا .

وتعذبوا كثيرا من العطش . وقام بوهسناك بحساب المسافة على الخريطة ، وقرر أنهم لا يبعدون أكثر من ١٢٠ميل عن معسكر ينو ، لكن ما قيمة هذا الحساب فهم لا يزيدون عن مجرد نقطة فى بحر الصحراء الواسع .

واستقر الرأى على ضرورة مواصلة محاولة الاتصال باللاسلكى ، وبقيت هذه الفكرة مسيطرة عليهم وأخذوا يتناقشون حتى حل الظلام وهبطت درجة الحرارة من ١٠٠ فهرنهيت إلى ٨ درجات تحت الصفر .

وجلس ويخمان مرة أخرى إلى جهازه ولكن بدون فائدة . وعمل ويخمان إيريال آخر من أعمدة الخيام حتى يمكنه توجيه الإيريال فى اتجاه أجدابية .

وانتظر الجميع بشوق ساعة الإرسال المحددة ، وجلس ويخمان إلى جهازه وأخذ يدق عليه لمدة عشر دقائق وهو يرسل إشارته الخاصة . وبدت الدقائق العشر كأنها اللانهائية ، ثم صاح فجأة « لقد اتصلت ، إننى أسمعهم ، إنهم ينادون علينا » وجهز قلمه وأحضر ورقة وهو يصيح « خاطبونا . خاطبونا » ثم توقف برهة وأخذ يرسل إشارته « ف . ك . ب . ج نحن هنا هل تسمعوننى » وكانوا يلاحظون من تعبيرات وجهه أنه على اتصال بالقاعدة .

وسرعان ما وصلت الإشارة من أجدابية وصاح: « على بكتاب الشفرة » ووثب بوهسناك لإحضاره من الطائرة . وكان كتاب الشفرة هو « هابيل صاحب الأرغن » ومؤلفه «مانفريد هوسمان» وهو الكتاب المتفق عليه كمفتاح للشفرة وقال ويخمان: « انظر فى الصفحة ٦٣ مبتدئاً من أعلى » وأخذ يحل شفرة الرسالة وكانت الرسالة كالآتى :

« نحن نسمع إشارتكم ولكنها ضعيفة جدا ، واصلوا إرسالكم » فأرسل ويخمان رسالته بأنهم قد نجحوا فى غارتهم وقد اضطروا للهبوط الاضطرارى بلا ماء وسط الصحراء .

وظل جالساً لمدة ساعتين إلى جهازه وأصابعه ترتعد . وأخذت القاعدة فى

أجدابية تقول « نحن لا نسمعك، أعد الرسالة » وأعاد ويخمان رسالته حتى عرفوا كل شيء عنهم هناك . ولم يفكر أحد منهم في النوم في تلك الليلة وكان السؤال الذي يشغل أذهانهم هل سيستطيع الإيطاليون العثور عليهم .

وفي اليوم الثالث الموافق السبت٢٣ هبت عاصفة رملية . وغطى المنخفض قناع كثيف بني من الرمال ! وهبت على الطائرة رياح جنوبية غربية شديدة فألهبتها، وقال بوهسناك « ما من أحد يستطيع أن يطير في مثل هذا الجو ، فالطيور نفسها قد هبطت إلى الأرض» .

وتوجهوا إلى الطائرة ليحتموا بها . وفي نفس المساء أعاد ويخمان الاتصال، وبدأ الإيطاليون في البحث إلا أنهم حتى ذلك الوقت لم يوفقوا في بحثهم .

٦ - اختيار الموتة المناسبة :

ثم جاء فجر الأحد وهو يومهم الرابع في الصحراء وقد تشققت شفاههم ويبست أطرافهم ، وغطت الرمال ألسنتهم وحلوقهم واضطربت مشاعرهم وسيطر على أفكارهم شيء واحد وهو الماء . وكانوا يعيشون بأمل واحد وهو الحصول على نصيبهم من الماء في كل صباح والخامسة من كل مساء . فأي حلاوة كان يشعرون بها عندما تنزلق قطرات الماء الأولى في حلوقهم ، وقد تمكن ويخمان من أن يبقى نصيبه من الماء ساعة كاملة . وقد أعطاهم بليخ في ذلك اليوم كوباً زائداً من الماء لأن هذا اليوم كان يوم الأحد .

وظلوا ممددين والنعاس يغالبهم والأفكار السوداء تراودهم . وأخذ بليخ يروى الحلم الذي شاهده في الليلة الماضية فقال: « حلمت أنني قابلت بوهسناك في أحد البارات الأنيقة في روما . وطلبنا كوبين كبيرين من البيرة الخفيفة ، ولكن الساقي اشمأز من طلبنا وأحضر مدير المحل الذي عرض علينا أحسن ما لديه من النبيذ . إلا أننا رفضنا وصممنا على طلب البيرة . وبيرة خفيفة ، فحضر صاحب المحل ومعه قائمة النبيذ وقال « أيها السادة . إن لدينا أحسن الأنواع من نبيذ الرين والموزل وأحسن أنواع البرندى والبوردو» ، إلا أننا أصررنا على طلب البيرة الخفيفة ، وهز صاحب المحل رأسه ، وأخذ يهزها بشدة أكثر فأكثر حتى أصبحت كالطبق الطائر ، ثم صحوت من نومي وأنا أشعر بظمأ شديد » فضحك الجميع .

وعلموا عن طريق اللاسلكي أن الإيطاليين لا يزالون يبحثون عنهم ، ولكن بدون فائدة وإذا لم يكتشفوا مكانهم حتى يوم الاثنين أو الثلاثاء فيجب عليهم إرسال

إشارة فيما بين الساعة ٢٠ر٤ إلى الساعة ٥٠ر٤من إحدى طائرات الاستطلاع على مدى خمسين ميلا من جهاز الإرسال وإلا فلن يمكن سماع إشارتهم .

ولحسن الحظ كان لا يزال لديهم فى خزان وقود الطائرة ما يكفى لإدارة محرك واحد حتى يمكن التقاط الرسالة على الموجة الطويلة لجهاز اللاسلكى الخاص بالطائرة .

وحل صباح اليوم الخامس وجاءت معه مفاجأة . فقد استيقظوا ليروا الشجرة الشوكية عديمة الأوراق المجاورة للطائرة وقد غطيت بزهور زرقاء صغيرة وكانت الشجرة تبدو قبل ذلك وكأنها ميتة لأن أغصانها كانت عارية كالزجاج ولو اصطدم بها شخص لتكسرت .

ونظر جسلر إلى هذه المعجزة ووثب على قدميه وأحضر فأسا وبدأ فى الحفر فى الرمال . وكانت نظريته مبنية على أن هذه الشجرة ازدهرت فمعنى ذلك أن هناك ماء ، ورفض أن يقتنع بخلاف ذلك . وأخذ يحفر ويحفر إلا أن الرمال ظلت تنهال فى الحفرة ثانية وأخذ يتصبب عرقًا فألقى بنفسه تحت جناح الطائرة وهو يتمتم « ماء .. ماء » .

واقترب النهار من الانتهاء ولم يعثر الإيطاليون عليهم بعد . وحل يوم الثلاثاء الموافق ٢٧ يناير وهو اليوم السادس . وقبل الساعة الرابعة بقليل أدار جسلر المحرك الأيسر للطائرة بالوقود الباقى وأخذ جهاز اللاسلكى يعمل وهو يرسل موجاته غير المرئية ، فلو كان الباحثون عنهم فى مدى خمسين ميلا فيجب أن يصلوا على الفور ووقفوا مستعدين بمسدسات الإشارة . وانتظروا خمس دقائق ثم عشر ثم عشرين وقال بليخ لجسلر: « أوقف المحرك » إلا أن الميكانيكى رجاه بأن يتركه دائرا لمدة خمس دقائق أخرى ، غير أن بليخ أمره بأن يوقفه ، ولكنه كان عنيدا وقال: «إنها فرصتنا الأخيرة يا سيادة النقيب ، فدع المحرك يدور حتى يقف من تلقاء نفسه» . فتوجه بليخ إلى جسلر وأخذ يتكلم معه كما لو كان طفلا وقال له يجب أن نبقى قليلا من البترول لإشعال النار .

وخفض جسلر رأسه وهو يحاول الإنصات ثم توجه وأوقف المحرك ، وسيطر الخوف عليهم ، وكانت روحهم المعنوية فى أسوأ حالاتها .

وفى الساعة الخامسة وزع بليخ آخر كوب من الماء لكل منهم وشاهدوا يده وهى ترتعد . نعم فإن هذا المستعمر القديم كان يرتجف وقال بهدوء : « بدون ماء

ليس لدى أوامر لأصدرها بعد ، وعلينا الآن أن نقرر ما هو أفضل شيء نعمله فى الصباح الباكر ، وجلسوا فوق حقائب نومهم تحت أجنحة الطائرة .

وكان على كل رجل منهم أن يقرر ما ينوى أن يفعله . وقال بوهسناك: «إن لكم الخيار فى اختيار نوع الموتة التى تموتون بها » .

وحفر جسلر اسمه على الصخر الأملس . ونظر بوهسناك إليه ثم قفز على قدميه وقال: « يجب أن يحضروا حتى لا يتركونا نتعفن هنا » .

وكما لو كان قد تفوه بكلمات سحرية ، فقد دوى صوت يقول « إنها صوت طائرة » وأسرعوا إلى مسدسات الإشارة وكانت طائرة استطلاع إيطالية من طراز «الجبيلى » وكالمجانين أطلقوا مسدساتهم ذات الإشارة البيضاء والحمراء والخضراء وصاح جسلر « إنهم قادمون إلينا » .

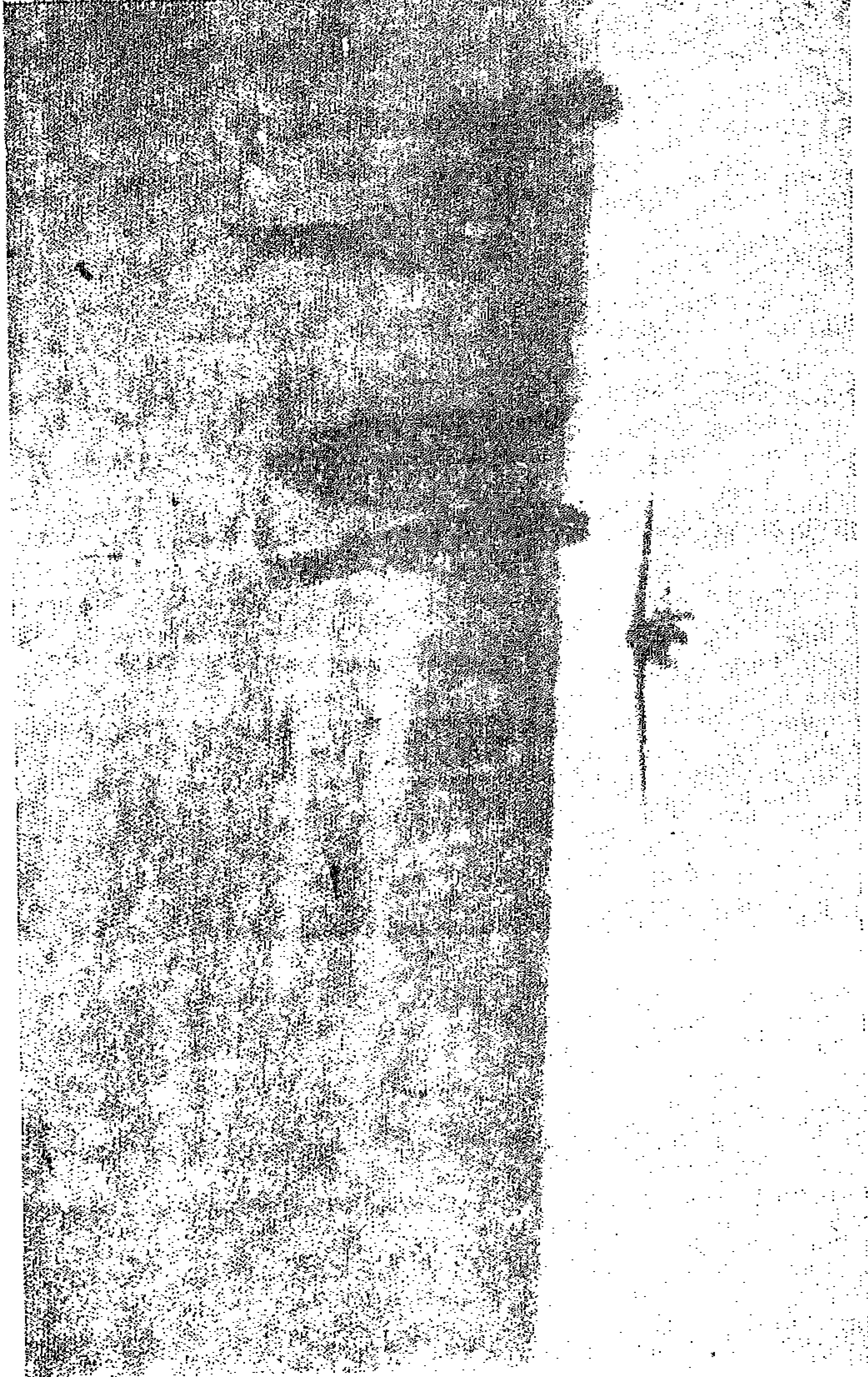
وهبطت الطائرة . ووقف أمير جالو كما لو كان تمثالا منحوتاً يمسك بمنظاره المكبر على صدره وقال بلهجة رجل الحرب المحترف مخاطباً الطيار أنه الملازم ديورات وكان يعرف رجاله، وقد أبدى هذه الملاحظة لكى يخفى التعاسة التى يمكن أن تظهر فى عينيه .

وقفز عامل اللاسلكى سكدر زون من الطائرة أولا ، وكان يلوح بزجاجتى ماء إيطاليتين وهو يضحك ويسرع الخطى على ساقيه القصيرتين فى اتجاههم والتفوا حوله ثم ظهر الباقون ديورات ودجاتا وتوليانى . وكانوا يعرفون ما هو المطلوب فكان كل منهم يحمل فى يده صفيحة أو ترمس وكانت التحيات والعناق وكان الأمر كأنه مأدبة عظيمة فكل رجل رفع زجاجة الماء إلى فمه .

أما فيمر كاتى وبليخ فقد أجهزا على صفيحة كاملة من الماء فالرجل الذى كان يتولى أمر توزيع الماء ويقوم بحساب كل قطرة لمدة ستة أيام ترك الماء يسيل على قميصه وصدره واكتفى بقول : آه ، كلما وضعها على الأرض .

وترك لهم الإيطاليون البطيخ وكمية ضخمة من الماء . ثم انطلقوا عائدين إلى معسكر ينو الذى لا يبعد أكثر من نصف ساعة بالطائرة . وفى اليوم التالى سوف يحضرون البترول .

فلقد أنقذهم عامل اللاسلكى ، فبواسطته أمكن تحديد مكانهم ولم يستطع الإيطاليون التقاط الإشارات وهم فى الهواء بل هبطوا إلى الأرض ، وأقاموا سارياتهم



طائرة الاستطلاع الإيطالية أثناء هبوطها وسط الصحراء لإنقاذ جماعة بلبخ ، وكانت نجدة من السماء

لكى يحسبوا المكان بدقة ولهذا السبب تأخروا فى الحضور ، وحقيقة كانت هذه هى آخر فرصة لرجال الطائرة لأن بطاريات جهاز الإرسال قد جفت وهبط ليل الصحراء عليهم وبدا لهم الليل ساحرا وقاموا بطهى وجبة من اللحم والمكرونة وشربوا الشاى وكمية كبيرة من الماء ، ثم تدثروا فى حقائب نومهم وكان الوقت ما زال مظلمًا عندما سمعوا صوت طائرة فوقهم فهبوا على أقدامهم وأطلقوا إشاراتهم.

فهل عاد الإيطاليون ؟ ووقف بوهسناك وأذناه مرهفتان ثم قال ، كلا إنها طائرة من طراز يونكرز ٥٢ وكانت تطير فوقهم تماما وهبطت فى أول ضوء للفجر وكانت حقيقة طائرة يونكرز ٥٢ وقفز منها الملازم بكير من سرب الإنقاذ الصحراوى وتبادلوا التحيات الحارة والضحك ثم تناولوا الإفطار المكون من القهوة والسجق الذى أحضره بكير .

وكانت الطائرة يونكرز ٥٢ قد أقلعت من أجدابية عند منتصف الليل بدون إذن كما أخبرهم بكير وهو يضحك .

« فلقد كنتم مدار الحديث الوحيد لمدة أسبوع كامل فى المطار وعندما انقطعت أخباركم قلت لنفسى يجب أن أقوم بمحاولة لإنقاذكم وكان رجالى يبادلوننى الشعور ، ثم أقلعوا بادئين مغامراتهم الجريئة مخالفين التعليمات . ولابد أن عناية الله كانت توجههم .

وقد أحضر بكير معه ثلاث صفائح من البترول أفرغوها فى الحال فى خزان الطائرة الهينكل ٣ . وعندما وصلت رسالة الإيطاليين إلى أجدابية بأن رجال الفدائيين التابعين لبليخ قد عثر عليهم وأنهم سوف يحضرونهم فى صباح اليوم التالى، كانت الطائرة هينكل ٣ قد أقلعت فعلا فى طريقها إلى معسكر ينو متجهة نحو الشمال .

وفى اليوم التاسع من تاريخ بدء رحلتهم كانوا يحلقون فوق واحة هون. وعلى الطريق أسفل منهم كانت توجد قافلة تسير فى طريقها بخطى بطيئة كأنها خطوات الأبد .

٧ - المقامرة الكبرى :

وقف العريف جوستاف جروسمان أمام الموقد وهو يتصبب عرقا فى واحة أم

الرزم بالقرب من دزنة وسط الصحراء المحرقة . وكانت عربات المطبخ تحمل شارة عبارة عن صورة قلب أخضر ، وهو شعار إقليم ثورنجيا فى ألمانيا وكان غالبية الخبازين فى السرية من هذا الإقليم . وكانوا يقومون بخبز ليس فقط الخبز الأسود الذى اشتهروا به بل يعملون أيضاً الفطائر والكعك .

وفى صبيحة يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٤٢ وفى الساعات المبكرة أراد جروسمان أن يثبت للفيلق الألمانى ما الذى يستطيع أن يحققه خباز ماهر وسط الصحراء . فقد قام هو وصديقه رودى فونك من إقليم هيليخبستادن بعمل فطيرة من القشدة والشيكولاتة . ووقف حوله زملاؤه ليشاهدوا كيف ستكون النتيجة .

وقام الجنود بإهداء هذه الفطيرة إلى الجنرال كروويل الذى حضر خصيصاً من مركز رئاسة الجيش ليحتفل مع رجال الفيلق الأفريقى بعيد ميلاده ، وكان الجنرال كروويل يقود جيش البانزر الأفريقى نيابة عن روميل ابتداء من أول مارس، وقدمت الفطيرة له كهدية فى عيد ميلاده الخمسين .

وكان يقود الفيلق الأفريقى الجنرال نهرنج خلال تلك الفترة .

ووضع الطهاة الفطيرة وسط المنضدة وكانت مغطاة وبجوارها زجاجة من الشمبانيا الفرنسية المستولى عليها ، وأقيم الحفل تحت ظل النخيل وشجرة صبار ضخمة .

فأية قلوب بورجوازية يحملها هؤلاء الجنود ؟ ففى الحقيقة أن الجنود الألمان القادمين من أقاليم ألمانيا المختلفة كانوا بلا شك يفضلون خبز الفطائر عن قتل إخوانهم من بنى الإنسان . ومما لا شك فيه أنهم كانوا يفضلون تناول القهوة مع الجنود القادمين من لندن وويلز ومانشستر وأدنبرة بدلا من قتلهم .

أما بالنسبة للجنرال كروويل فإن هذا الاحتفال كان أول احتفال له من عدة سنوات . فلقد كان الألمان يستمتعون براحة يستحقونها بعد المجهود الكبير الذى بذلوه فى دفع البريطانيين إلى خط الغزالة فى نهاية شهر يناير وإعادة احتلالهم لبرقة ، وكان كلا الجانبين منهكا ، فلقد حاربا إلى حد الإنهاك . والآن سادت فترة التوقف ريثما يعيدون تسليح أنفسهم لجولة أخرى فى المقامرة الكبرى من أجل مصر والسويس والشرق الأدنى .

وقد جددت الجنود قواها بعد هذه الراحة كما يقولون فى الجيش . وعاد ضباط الصف والجنود من المستشفيات والأجازات التى منحوها . فمثلا الكتيبة ١٥

مشاة الميكانيكية أصبحت مرة أخرى وحدة مقاتلة خفيفة الحركة قوتها أربع سرايا كاملة .

وفى الخامس عشر من مارس اصطفت فى أحد الميادين من أجل الصلاة الدينية وكان الرابع من أبريل هو ذكرى وصولهم إلى أفريقيا وقد احتفلوا بهذه الذكرى مع الفرقة ٢١ بانزر لأن المشاة الميكانيكية قد انضمت إلى الفرقة تحت اسم الكتيبة الثالثة من الآلاى ١٠٤ تحت قيادة الجنرال فون بسمارك . وقد انضموا إلى الفرقة ومعهم مطابخ الميدان ومخازن الإمدادات الإدارية وثورين وخمسة براميل من النبيذ الأحمر وعربة فولكس واجن محملة بالبيرة . وكذلك انضمت هذه الكتيبة المحنكة التى زادتها الحرب خبرة إلى الفرقة .

أما الآلاى ١٠٤ فقد أعيد تشكيله تمامًا من جديد بعد المعارك الدامية فى ممر حلفاية . فكل ما تبقى من رجال هذا الآلاى العظيم القديم شكل منه الكتيبة الثانية ، أما الكتيبة الأولى فقد تشكلت من أفراد الكتيبة الثامنة مدافع ماكينة السابقة.

وكذلك كان الحال بالنسبة للآلاى ٥٤ والآلاى ١٠٥ والآلاى ٢٠٠ من الفرقة التسعين الخفيفة .

أما فيما يختص بالمدفعية والمدفعية المضادة للطائرات وأسراب سلاح الطيران والمهندسين وسرايا الواحات فإنها بعد المعارك المضنية فى الشتاء وهجوم يناير ١٩٤٢ فقد أعيد تنظيمها علاوة على آلاى البانزر الخامس والثامن .

ومع وصول الجنود الجدد والأسلحة الجديدة حل فى أفريقيا حضارة خلاقة جديدة ، فقد تلقت مجموعة قتال روميل دورة مياه ميدانية متنقلة جديدة وكانت الوحيدة من نوعها فى جبهة شمال أفريقيا وكانت فتحتها المصنوعة على شكل قلب فى بابها موضع حسد الجنود الذين ظلوا يستخدمون الطراز القديم من دورات المياه. وكذلك كان البريطانيون يعيدون تسليح وتنظيم قواتهم للمعارك القادمة . وأبلغت دوريات الاستطلاع الألمانية عن أعمال دفاعية أرضية كبيرة تتم فى موقع الغزالة. وكانت الإمدادات والتعزيزات البريطانية تنقل من مصر عن الطريق الساحلى المرصوف إلى طبرق . وأبلغت المخابرات الألمانية عن وجود تحصينات ميدانية غريبة مما يدل على وجود تكتيك جديد سوف يتبعه أوكنلك وريتشى .

وكان روميل الذى أمضى سنة كاملة فى الصحراء حتى ذلك الوقت ليس

لديه الوقت الكافى لكى يتبادل الرأى مع القيادة الألمانية العليا ، فقرر السفر فى فبراير ١٩٤٢ ليحضر مؤتمرا فى مقر قيادة هتلر .

وأرسل يطلب من هتلر السماح له بذلك وكان الرد الذى أرسله هتلر باللاسلكى غريبا: « يستطيع روميل الحضور إذا كان الموقف فى الصحراء آمنا إلى حد أن غيابه المؤقت عن مسرح العمليات يمكن المجازفة به » .

ورد روميل على هذه البرقية بقوله « إن لم يكن الموقف فى الصحراء آمنا لما اقترحت السفر إلى أوربا » . غير أن القيادة الألمانية العليا لم تكن مقتنعة بعد وأرسلت برقية ثانية « نرجو أن تعلن لنا عن ميعاد وصولك إلى روما . وسوف تجد التعليمات هناك تحدد لك ميعاد سفرك إلى بروسيا الشرقية » .

وهكذا كانت المعاملة التى يتلقاها روميل من الجالسين على الموائد الخضراء فى راستنبرج . وهو الرجل الذى أمكنه أن يعيد الأمور إلى نصابها فى شمال أفريقيا بالرغم من الموقف الميئوس منه فى هذا المسرح . فلقد كان هذا الألمانى من إقليم سوانيا ذو الرأى الصلب الذى حصل على النصر فى معارك كانت القيادة الألمانية العليا تتوقع فيها الهزيمة أصبح غير محبوب من رجال هذه القيادة .

وفى الخامس عشر من فبراير ١٩٤٢ فى السابعة صباحا طار روميل ومعه رئيس أركان حربه ويستفال من مطار مسراتة فى طرابلس إلى روما . وكانت أول مرة يطير فيها فى طائرة هينكل ٣ . وما زال طيار روميل الخاص الملازم هيرمان جيسن يتذكر هذا اليوم جيدا . فلقد أصدر هتلر أوامره بأن قادة الجيوش لا يطيرون إلا على طائرات ذات محركين على الأقل إلا أن الطائرة يونكرز ٥٢ ذات الثلاث محركات كانت بطيئة بالنسبة لأفريقيا ، أما الطائرة الكوندور أو يونكرز ٩ وهى ذات أربعة محركات ، وكان من الميسور الحصول عليها ، إلا أن مخابرات الأعداء كان من السهل عليها أن تكتشف بسرعة أن استخدام مثل هذه الطائرة الممتازة يكون لمهام خاصة .

ومن ثم فإن روميل حصل على إذن خاص باستخدام الطائرة هينكل ٣ لأنها ليست ملفتة للنظر . وكانت مجهزة بثلاثة مقاعد مريحة . ومنضدة للخرائط ودولاب للمرطبات إلا أنها لا تحمل سوى التسليح العادى. وقد وصف لى الجنرال ويستفال الرحلة فقال: « كان استقبال موسولينى لروميل فى قصر البندقية بروما كالمعتاد حسنا وديا . ولم يتناقش فى المسائل العسكرية . فقد كان الدوتشى قد



الطبيعة فى روسيا تحارب فى صف القوات الروسية ضد قوات هتلر

امتنع منذ مدة عن التدخل فى سير الحرب ، رغم أنه كان من الناحية الشكلية القائد الأعلى للبحر المتوسط » .

وفى السادس عشر من فبراير طار روميل إلى بلدته «ويتار نستارت » لزيارة عائلته، وفى اليوم التالى هبط فى مطار راستنبرج القريب من مقر قيادة هتلر المسمى بـ « وكر الذئب » .

وقد توقع روميل ورئيس أركان حربه أن الزعيم سوف يظهر اهتماما خاصاً بالأحداث فى شمال أفريقيا ، غير أنهما كانا مخطئين تماما . فلقد كان مشغولا بالحملة الروسية والصعاب التى صادفته أمام موسكو .. وكان يستمع بدون اهتمام إلى تقرير روميل الطويل عن الهجوم البريطانى الشتوى ، والهجوم الألمانى المضاد والموقف الحالى فى شمال أفريقيا .

وعندما سأل روميل هتلر قائلا : « يا زعيمى ما هى خطط القيادة الألمانية العليا بالنسبة لسير الحرب فى المستقبل لشمال أفريقيا والبحر المتوسط خلال ١٩٤٢ ؟» فتجنب هتلر الإجابة كما تجاهل اقتراح روميل بالاستيلاء على جزيرة مالطة وكل ما قاله: « لو قررنا أن نقوم بهجوم فى منطقة البحر المتوسط فلن ندخر جهدا لوضع الأمور فى نصابها على أساس سليم » ولم يمكنه الحصول على أكثر من هذا . ولم يتضح كذلك الموقف عندما تقابل ويستفال فى مساء ١٧ فبراير مع الكولونيل جنرال جودل رئيس العمليات فى القيادة العليا . فكانت القيادة الألمانية العليا تحت تأثير الأحداث فى الجبهة الشرقية وكانت تعتبر أفريقيا مسرحا ثانويا للحرب ولم تقدر أهمية الصراع مع البريطانيين فى شمال أفريقيا . ولم يدركوا أنه من الممكن هزيمة بريطانيا العظمى فى مصر ، وهى أهم النقط المكشوفة فى إمبراطوريتها .

ففى أفريقيا قامر تشرشل بكل شيء على ورقة واحدة . فقد رأى أن جبهة بريطانيا الحاسمة هناك ، غير أن هتلر والقيادة الألمانية العليا فشلا فى إدراك ذلك . وغادر روميل ورئيس أركان حربه بروسيا الشرقية ، وروحهم المعنوية فى غاية السوء .

فلقد كان هتلر فى هذا المؤتمر منحرف المزاج من الصعوبات التى يلاقيها فى حملة الشتاء على روسيا . ونتيجة لذلك فلم يهتم بمسرح العمليات فى أفريقيا . وتأكيدا لذلك فإنه قبل هذه المقابلة باثنى عشر يوماً وبالضبط يوم ٥ فبراير أثناء

محادثة هتلر مع الجنرال نهرنج كان واسع الصدر بالنسبة للمشكلة الأفريقية فقد استقبل نهرنج وهو فى طريقه إلى أفريقيا عائدا من الجبهة الشرقية وتحدث معه لمدة خمسين دقيقة بحضور الجنرال جودل والجنرال بوهل .

وبالنسبة لموضوع أفريقيا فقد أمر هتلر بأنه من المهم التقدم إلى الأمام بقدر الإمكان وإيقاف البريطانيين هناك ومن المستحسن الاستيلاء على طبرق وحبذ فكرة وضع نطاق من الألغام عبر البحر المتوسط فى أضيق نقط العبور بين إيطاليا والشاطئ فى أفريقيا لكى يحمى طريق الإمداد والتموين ، إلا أن البحرية عارضته فى هذه الخطة وأوجدت صعوبات عديدة . وقد أثنى هتلر على أعمال جيش البانزر الأفريقى وقال: « بلغ الكولونيل جنرال روميل بأننى شديد الإعجاب به » .

٨ - الفرن المتقد :

وبعد أربعة عشر يوما من ذلك الحديث لم يلاحظ روميل شيئًا من هذا الإعجاب عند مقابلة هتلر . وفى رحلة العودة إلى أفريقيا أجرى رميل حديثاً آخر مع الدوتشى وحاول أن يكسبه لصفه ليؤيده فى خططه وقام بشرح أفكاره بجلاء ، وكان أولها الاستيلاء على مالطة لمنع ذلك التهديد الدائم لخطوط المواصلات والإمداد وثانياً القيام بهجوم جديد على طبرق للاستيلاء عليها .

وحيث إن الاستعدادات للاستيلاء على مالطة سوف تقتضى وقتا طويلا فقد اقترح روميل الاستيلاء على طبرق أولا ، إلا أن موسولينى كان متحفظا . ولم يستطع روميل أن يكسب إلى صفه قيادة هتلر وتأييد القيادة العليا الألمانية إلا فى أواخر أبريل ١٩٤٢ . وكانت مبرراته القوية أن البريطانيين أعادوا تنظيم وتسليح قواتهم من أجل هجوم صيفى ، وأنه من الضرورى أن يسبق أوكنلك ويقوم بالهجوم.

وعمل روميل فى شبه جمى لوضع خطة الهجوم المنتظر ، وكانت شكواه الدائمة هى الإمدادات ، إلا أنه فى بداية أبريل كانت الأمور سيئة فمالطة كانت عبارة عن عنكبوت ضخم يلتهم السفن والرجال والأسلحة والمعدات .

وفى مارس لم يصل إلى أرض أفريقيا سوى ١٨ ألف طن من ٦٠ ألف طن كانت ضرورية جدا للجيش ويحتاجها بشدة .

غير أن كسلرينج كان يقذف جزيرة القديس جورج « مالطة » بالقنابل

GAZALA

Rommel's plan to encircle the British Gazala position, 1942

Reproduction of a sketch map drawn by Rommel

D.A.K *Deutsches Afrika-Korps*

90 L.D *90th Light Division*

XX *Italian XXth Corps*



الخطة الهجومية على منطقة الغزالة مرسومة بيد روميل

بواسطة أسطوله الجوى الثانى ، فكان عليه أن يحطم دفاعاتها قبل القيام بالهجوم عليها واحتلالها بواسطة جنود المظلات ، ولو أمكن ذلك قبل قيام روميل بهجومه . ومن أجل هذا الغرض أرسلت الفرقة الثانية جنود مظلات إلى إيطاليا وسرعان ما ظهر أن الإيطاليين لن يكونوا مستعدين لغزو مالطة قبل نهاية شهر يونية . ومن ثم فإن روميل غير جدوله الزمنى للهجوم وقرر القيام بالهجوم للاستيلاء على طبرق ثم يتبع ذلك غزو مالطة .

ونشأ عن هذا التغيير للجدول تطور حاسم ، ولم يشك أحد فى أن هذا سوف يؤدى إلى مأساة . وهاجمت الطائرات المنقضة من طراز ستوكا التابعة لكسلرينج الجزيرة وقذفت الميناء وحطمت الأرصفة والاستحكامات مما أجبر الأدميرال كاننجهام إلى الهروب بأسطوله من هذا السيل المنهمر من القنابل ، ولم تستطع طائرات السلاح الجوى الملكى البريطانى الإقلاع من الجزيرة . ومرت قوافل الإمداد المرسلة إلى روميل سالمة ، ولم تغرق إلا سفينة واحدة للمحور فى المدة ما بين أبريل إلى منتصف مايو ١٩٤٢ . وكان هذا مبررا قويا وواضحا على حيوية الاستيلاء على مالطة ، ولكن كما ظهر بمرور الوقت أن موسولينى وهتلر لم يلاحظا هذا المنطق وهذه الأدلة الواضحة . وكان البريطانيون يعلمون أن مالطة لا يمكنها الصمود إلى أمد طويل كما كانوا يعلمون أيضًا أنهم بدون مالطة لا يستطيعون المحافظة على مصر ، غير أن القيادة العليا فى راستنبرج لم تر ذلك أو لم تكن تريد أن تعترف به .

أما طيارو القاذفات من طراز ستوكا التابعون للأسطول الجوى الثانى فى صقلية فكانوا يجهلون الأخطاء التى ارتكبتها هيئة أركان حرب العامة فلقد قذفوا مالطة وجعلوا هجوم روميل ممكنا .

ولمدة شهرين تمتع طيارو السلاح الجوى الألمانى بالسيادة الكاملة على البحر المتوسط ، غير أن هذا انتهى عندما أسقطت المقاتلات البريطانية ثمانى أو تسع طائرات من طراز يونكرز ٥٢ القادمة من كريت من مجموعة الطائرات البالغ عددها ثلاث عشرة طائرة . ووصلت القوافل المحورية إلى ميناء بنى غازى وهى تحمل الدبابات الثقيلة والمدافع عيار ٨٨ مم وأفرغت حمولتها من القذائف على أرصفة ميناء طرابلس ، وأخيراً فقد وصلت الإمدادات .

وأقبل الصيف وأصبحت الصحراء كأنها فرن متقد . فإلى ساعة متأخرة من



بعض الجنود تحت حرارة الشمس المحرقة وعذاب الذباب

الليل تبقى الأحجار والرمال ساخنة سخونة القهوة فى الأوانى الألمنيوم . ووصلت درجة الحرارة إلى ١٢٠ درجة فهرنهيت . وتذكر الكتب أنه فى مثل هذه الحرارة لا يمكن للرجل الأبيض أن يعمل ، فما بالك وهو يحارب ؟ وكان الجلوس داخل الدبابة أمرا مستحيلا غير أن المستحيل لم يكن موجودا فى حرب الصحراء .

فقد قاتل فى هذه الحرارة القاتلة البريطانيون والألمان والإيطاليون فى دباباتهم المتقدة والتى حشدت بالمئات وأخذ رجال المدفعية المضادة للطائرات وجنود المشاة يشيدون المواقع وقام المهندسون برص الألغام فى هذه الحرارة الشديدة ودبغت جلود الرجال بالسمرة الشديدة وسببت نحافة أجسادهم غير أن أعصابهم أصبحت مشدودة وجلودهم قوية . وعذبهم الذباب ، وتسلل إلى جواربهم وملابسهم الداخلية . وأخذت تلدغهم البراغيث بعنف وانتشرت بينهم الدوسنتاريا غير أنهم جميعا صبروا لأنهم كانوا يستعدون للدخول فى معركة جديدة وكان الغرض منها الوصول إلى قناة السويس . وكان يمكن حفر قنوات مثل قناة السويس بواسطة المجهود المضنى الذى بذله الرجال والنشاط الذى أظهروه والتضحيات التى أقاموها بها استعدادا للمعركة . وكانت الغاية من كل هذا المجهود هو الاستيلاء على قناة سويس واحدة .

وكان روميل يعلم أن البريطانيين يعدون العدة للهجوم ، كما أن البريطانيين يعلمون أن روميل لديه نفس الفكرة . إذاً فمن الذى سيكسب السباق الزمنى ؟ وتساءل الجنود الألمان: هل سيسبقنا البريطانيون فى هذه المرة ؟

وتساءل البريطانيون : هل سيهزمنا روميل مرة أخرى ؟ وكانوا يقاتلون «روميل» وليس الألمان لأنه كان الشخصية المسيطرة على مسرح الأحداث وهو فى نظرهم الشجاعة والهجوم الخاطف والمطاردة العنيفة عبر الصحراء ، هذا الألمانى الذى أصبح اسمه أسطورة عنوانها الذكاء والجرأة . وكان هذا خطرا على الروح المعنوية فى القوات البريطانية . وانتشرت الإشاعات « أن روميل قادم » وكانت القيادة البريطانية العليا تعلم تأثير هذا على الناحية النفسية للقوات . ولذا أصدر الجنرال أوكنلك أمراً يومياً مثيراً للاهتمام وهو يعد وثيقة غريبة . فقد جاء فى الأمر ما يلى :

« إلى جميع الضباط العظام ورؤساء الأفرع بالقيادة العامة وقوات الشرق الأوسط .

إن هناك خطراً حقيقياً فى أن يصبح اسم صديقنا « روميل » (بعبعا) ترتعد منه جنودنا ولذلك لأنه حقيقة يتردد اسمه كثيراً . ومهما تكون كفاءة روميل وقدرته فإنه ليس سوى بشر . وحتى لو كان متفوقا فمن الخطأ أن تخلع عليه جنودنا صفات وخصائص فوق مستوى البشر . وإنى أرجو منكم أن تبذلوا كل ما بوسعكم لتحطيم هذه الأسطورة . وروميل ما هو إلا قائد ألمانى عادى. ويجب أن نمنع ذكر اسم روميل فى الحديث عن الأعداء فى ليبيا . ويجب أن نقول: الألمان أو قوات المحور أو العدو ولا يسمح أبدا أن يذكر اسم روميل .

وإننى أطلب منكم أن تتأكدوا من تنفيذ هذا الأمر . مع إصدار التعليمات اللازمة إلى القادة الأصاغر ، لأن الموضوع له أهمية بالغة من الناحية النفسية .

التوقيع / ك.أ. أوكنلك

القائد العام لقوات الشرق الأوسط

ملحوظة :

« أنا لا أجسد روميل ».

وهذه الملحوظة التى ذيل بها أوكنلك أمره ، توضح لنا الناحية الشخصية التى تظهر فى الأوامر اليومية التى يصدرها القادة البريطانيون وهى عادة لا يوجد لها مثيل فى الجيش الألمانى .

الفصل السابع

معركة الغزالة

الفصل السابع

معــركـة الغــزالـة

انظر اللوحة رقم (١٢)

١ - الخدعة الكبرى :

لقد قرر أوكنلك القيام بالهجوم فى منتصف مايو ، إلا أنه قد وصلت له تقارير تفيد بوصول تعزيزات مدرعة قوية لروميل ، وعلى هذا قدر القائد العام البريطانى أن تفوقه ليس كافيا ليبدأ الهجوم ، ومن ثم أجلت وزارة الحرب فى لندن الهجوم حتى منتصف يونية . وكان هذا قرارا مهلكا .

ومن الناحية الأخرى كان روميل قد خطط منذ أبريل أن يبدأ هجومه فى ٢٦ مايو ومرة أخرى أطلق الكرة تتدحرج فى خدعة أملتها عليه طبيعة المواقع الدفاعية البريطانية العجيبة . فجبهة الغزالة حيث وقف البريطانيون كانت توجد أعجوبة تكتيكية ، فهذه الجبهة تمتد من الساحل إلى بير حكيم فى قلب الصحراء . وطول المواجهة أربعون ميلا ، ويتكون خط الدفاع من نقطة محصنة محاطة بالألغام أطلق عليها اسم الصناديق الدفاعية وكان كل صندوق منها قطره ميلان وكانت هذه الصناديق مجهزة كالآتى :

أولا: تحيط الأسلاك الشائكة بالمواقع يتلوها للداخل حقول ألغام بثت فى عمق وأقيم بينها نقط للتسمع ، وأوكار للمدافع الرشاشة وممرات تغطيها نيران المدفعية وكانت حامية كل صندوق توازى قوة لواء . وهى مزودة بكل الإمدادات الكافية للدفاع طويل المدى .

وخلف هذه الصناديق كان يوجد احتياطى للعمليات المكون من المدرعات والوحدات الميكانيكية . وكانت مهمة الصندوق ، مراقبة حقول الألغام حتى لا يستطيع العدو (كما حدث فى الماضى) أن يفتح ثغرات خلال الحقل . وزيادة على ذلك فإن هذه الصناديق كانت عبارة عن مواقع مقاومة من جميع الاتجاهات وكان يجب على العدو الذى يريد اختراق الجبهة أن يقضى عليها أولا حتى يتجنب



أحدى الصناديق الدفاعية الإنجليزية في جبهة الغزالة

خطر الهجوم عليه باستمرار من الخلف أو من الأجناب أو على خطوط مواصلاته . فإذا ركز العدو هجومه على الصناديق نفسها فإن المدرعات الموجودة خلف هذه الصناديق كان عليها أن توجه ضده للقضاء عليه .

وكان أمام روميل احتمالان للهجوم على طبرق . إما أن يقوم بالهجوم بالمواجهة على المواقع المحصنة لاختراق الاستحكامات ثم يدمر مدرعات العدو . وإما أن يلتف حول موقع الغزالة من الجنوب وذلك بالاندفاع عبر الباب الخلفى للصحراء المفتوحة ومنها إلى قلب المواقع الدفاعية ويعزل بذلك القوات البريطانية فى الصناديق الدفاعية عن المدرعات الموجودة فى الخلف ثم يدمر قوات العدو الضاربة جزءا جزءا .

وبالطبع اختار روميل الحل الثانى على أن يقوم بهجوم خداعى بالمواجهة .

وكان تحت إمرته فرقتان ألمانيتان وفرقة مدرعة إيطالية وفرقة ألمانية ميكانيكية وفرقة إيطالية ميكانيكية ، وأربع فرق مشاة إيطالية . أما قوات الجنرال ريتشى وهو الجيش الثامن ، فيتكون من فرقتين ميكانيكيتين ، وفرقة من المشاة فى مواقع الغزالة وفرقتين مدرعتين كانتا على استعداد للقيام بالضربة القاضية فى الخلف ، هذا بالإضافة إلى لواء الحرس ، ولواء من الفرنسيين الأحرار والألوية الهندية ، وكانت هذه الألوية تحتل الصناديق . فكل جيش من كلا الطرفين المتحاربين كان يضم قرابة عشر فرق يبلغ عدد رجالها مائة ألف رجل لكل منها . وكان لدى روميل ٣٢٠ دبابة ألمانية و ٢٤٠ دبابة إيطالية خفيفة و٩٠ مدفعا ذاتى الحركة أما الجنرال ريتشى فكان لديه ٦٣١ دبابة ووصله فيما بعد ٢٥٠ دبابة أخرى.

وكان هذا أكبر أسطول من المدرعات شوهد على أرض المعركة حتى ذلك الوقت . وصاح العريف بروتو برس قائلا « الهجوم فى الساعة الثانية فى وضح النهار . أنا لا أرتاح لذلك ، إن الأمر تفوح منه رائحة خبيثة يا أولاد » . والعريف بروتو من السرية الثانية ودائما ينادى رجاله يا أولاد . وكان مشهورا بين جنود الكتيبة ٣٦١ التابعة للفرقة ٩٠ الخفيفة . وكان رجال الكتيبة من محاربى الفرقة الأجنبية الفرنسية فيما مضى ، وهم العمود الفقرى لجنود المشاة فى أفريقيا ، وهم مجموعة من الرجال المتحمسين والمقاتلين المهرة . وكان روميل عندما يقترب من موقع الآلاى التابعين له ، كان من عادته أن يقول لسائقه هوبر : « اربط العجلات الاحتياطية فنحن نقترب من موقع الكتيبة ٣٦١ » .

وفى السادس والعشرين من مايو فى وقت غير عادى للهجوم وهى الساعة الثانية ظهراً وقفت الكتيبة ٣٦١ لتمثل الهجوم الرئيسى بالمواجهة الذى قام به الجنرال كروويل على موقع الغزالة .

وكانت هناك قوات إيطالية على يمين الكتيبة تابعة للفيلقين الإيطاليين وخلفهم الوحدات الميكانيكية للفيلق الأفريقى ومعهم العديد من سيارات النجدة «مثيرات الغبار» وهى عبارة عن محركات للطائرات مركبة على لوارى تثير الرمال بكثرة بمراوحها حتى تعتقد وحدات استطلاع العدو بأنها تواجه جيشا من البانزر بأكمله .

فهذه كانت الخدعة فقد كان على البريطانيين أن يعتقدوا أن روميل سيقوم بهجومه الرئيسى بالمواجهة بكل قواته على النطاقين الشمالى والأوسط لموقع الغزالة.

وكان هذا المنظر عبارة عن قطعة من الإخراج المسرحى الرائع ، فقد بدأت المدفعية تطلق نيرانها وفقا للتوقيت المحدد لها . وأخذت المدافع الرشاشة تقعقع واهتزت الصحراء كما لو كان هناك زلزال يهزها ، وزأرت طائرات الستوكا المنقضة فوق الصناديق . ورفع الملازم فريمان البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا ذراعه (وكان يقود السرية الثانية من الكتيبة ٣٦١) فاندفع الرجال الذين حاربوا فى الفرقة الأجنبية الفرنسية إلى الأمام فى اتجاه حقل الألغام .

وكان بروتو بروس وزميله إريك هما أول من وصل إلى النقط الأمامية البريطانية ، وأمام الصناديق الدفاعية التى تحتلها الفرقة الخمسون البريطانية صاحا: « ارفعوا أيديكم » وكان الجواب وابلا من نيران المدافع الرشاشة وقد أطلقت بالقرب من أقدامهم من مدفع أحسن تمويهه بواسطة جنود جنوب أفريقيا ، وتطايرت حبات الرمال حتى آذانهم فأسرع بروتو بإلقاء نفسه على الأرض وأطلق إريك كل الطلقات الموجودة فى خزنة رشاشه القصير ثم توقف . وكانت توجد بين الصناديق على طول الجبهة ممرات محوطة بالأسلاك الشائكة . وكانت توجد أمام المهاجمين جبهة ممتدة لمسافة أربعين ميلا من بير حكيم إلى الشاطئ وبها موانع عديدة من الأسلاك ومليونان من الألغام . وسادت الفوضى والاضطراب فى الخطوط البريطانية، كما كان عليه الحال دائما فى حالات الهجوم واسع النطاق فى تلك الأيام . وما هى نوايا العدو ؟ أين سيوجه العدو هجومه الرئيسى؟

ولم تستطع طائرات استطلاع السلاح الجوى الملكى البريطانى الحصول على معلومات دقيقة إلا أنها أكدت وجود تقدم واسع النطاق لوحدات ميكانيكية فى أعقاب المشاة التى تستخدم فى الهجوم بالمواجهة . إذاً فروميل قرر اختراق خطوطهم بالمواجهة إلا أن الجنرال ريتشى كان حريصا فى استنتاجه فهو يعرف جيدا هذا الثعلب العجوز المدعى روميل .

٢ - سـادة الطـريق :

وأضاءت المشاعل أرض المعركة . وقفز حملة النقالات من فوق الأسلاك الشائكة الممزقة يحملون الجرحى ، وكانت المدفعية ما زالت ترعد والمدافع الرشاشة تقعقع . وخلف الخطوط الألمانية كان يوجد نشاط كبير ولكن لم يكن بسبب الاستعداد لهجوم جديد . ففى كل مساء كانت طائرات الاستطلاع تؤكد أن هناك وحدات ميكانيكية ومدرعات تتقدم إلى الأمام . وفى لمح البصر تغير ذلك . فقد انسحبت القوات المدرعة والميكانيكية وقامت بحركة التفاف واسعة إلى الجنوب حيث حشدت المدرعات التى خصصت لتوجيه الضربة الرئيسية عبر الصحراء وتقدمت وجاوزت دفاعات بير حكيم . وفى تمام الساعة الثامنة والنصف أصدر روميل كلمته الكودية « فينسيا » .

وفى ضوء القمر الساطع تحرك طابور ضخم من عشرة آلاف مركبة تكون قوات الهجوم ، وأخذت تشق طريقها ، وتقدمت خمس فرق مستخدمة البوصلة وعدادات سرعة المركبات للتقدم عبر الصحراء ، وجلس أمام عجلات قيادة العربات الخفيفة والثقيلة رجال روميل القدامى التابعون للقوات الميكانيكية .

وكان هؤلاء الرجال المسمون بـ « سادة الطريق » يقودون عربات الإمداد والتموين واللوارى حمولة ٣ طن . ولم يرد ذكر هؤلاء الرجال أبداً فى نشرات الجيش الألمانى وأوامره أو فى تاريخ الحرب ، رغم أنهم كانوا يقودون قوافلهم ١٠٠ أو ١٥٠ أو ٣٠٠ ميل على الطرق المتربة والملتهبة خلال الليل وأثناء العواصف الرملية . وكانوا يقومون بإصلاح أعطال سياراتهم فى هذه الحرارة المحرقة . وكان انفجار ثمانيــة أو عشرة إطارات فى اليوم الواحد يعتبر شيئا عاديا فى حياتهم فكانت الإطارات تنفجر كالبالونات وتغوص محاور السيارات فى الرمال . ولم يكن هناك من يمد لهم يد المساعدة أو يعطى لهم الأوامر . فكانوا يصلحون العطب وهم غارقون فى عرقهم ويعودون للقيادة ويتابعون السير بالرغم من الإجهاد والتعب ،

وكانوا معرضين باستمرار لمقاتلات وعربات استطلاع العدو . وكان الجنود يحبون للغاية هؤلاء السائقين المهرة ورواد الطريق .

وكان يتحتم على قائد الطابور أن يكون فى المقدمة دائما حيث يكون الغبار على أشده ويصيح: « تقدموا ضموا صفوفكم ، استمروا على الاتصال ببعضكم » . أما المراقبون فكانوا يستلقون على صدورهم فوق الرفارف الأمامية ممسكين بالرادياتيرات لأن الرؤية لم تكن تزيد عن ياردة واحدة . وكان عليهم أن يوجهوا السائقين صائحين: « تقدموا تقدموا » أو فجأة يطلبون التوقف لتجنب التصادم إلا أن الذين كانوا أسوأ منهم هم أفراد الدراجات البخارية لأن التراب والوحل كان يتطاير فى وجوههم وتغوص موتوسيكلاتهم فى الرمال وكان عليهم أن يقفزوا من فوقها ويدفعوها للأمام حتى يخلصوها من الرمال . وكثيرا ما يسمع جنود المراسلات «إلى الأمام » لأنهم كانوا يقومون بكل مهمة ويساعدون فى كل شىء ، من إحضار الذخيرة وتحريك المدافع المضادة للدبابات وحمل الجرحى إلى محطات الإسعاف .

٣ - أســد كايتزو:

وفى السرية التاسعة من الآلاى ١٠٤ من قاذفى القنابل كان يوجد عريف يدعى بورستيل من بلدة شتندال وكان فى حياته المدنية رساما . وقد اشترك فى المعارك التى دارت فى بولندا وعندما فقدت سريته ٥٢ رجلا فى إحدى معارك الغابات فى بولندا قاد موتوسيكله ذا المقعد الجانبى خلال أشجار الصنوبر دون أن يعبأ بالقناصة البولنديين وأحضر الذخيرة وحمل الجرحى إلى الخلف . وقد حارب كذلك فى فرنسا وقاد جنود الاستطلاع على نهر الرون فى جبال الألب بسافوى. ووصل إلى أفريقيا فى أول أبريل ١٩٤١ وقد اشترك فى كل المعارك ولكنه أصيب بالدوسنتاريا . والآن وقد أصبح نحيفاً للغاية عاد إلى موتوسيكله مرة أخرى وكان واحداً من مئات الألوف الذين تحملوا وطأة الحرب . لماذا لم يهرب ؟ لماذا استمر فى القتال وهو يتصبب عرقا؟ كيف يخرج من الحرب سالما ؟ لماذا حارب ؟ هل ليقتل أو يقتل؟

ولو سأل أحدهم هذا السؤال للعريف فإنه بلا شك سينتظر منه جوابا مقنعا وربما هز كتفيه وقال: « إن أى رجل ينتابه الذعر فإنه سيهلك، أو بمعنى آخر كل من يخاف يقتل » وكان الجنود يبدون سمراً كأنهم زنوج . وكانوا يواصلون التقدم نحو هدفهم وهو الطريق الساحلى غرب طبرق . وكان هذا يعنى بالنسبة لجنود

المشاة تحمل مزيد من القذارة ومزيد من السمرة فى هذه الصحراء المحرقة ، أما بالنسبة لروميل فكان عليه أن يعزل ويقطع الطريق على الجيش الثامن خلف الغزالة، لذلك قام بتقسيم الجيش الثامن إلى قسمين لكى يهاجم كل قسم على انفراد. وهذا هو التكتيك القديم الذى سار عليه نابليون وعلى أساسه قاتل فردريك الأكبر ، وشن به اليونانيون الحرب . فهل تنجح هذه الضربة ؟ إن الأمر يبدو فيه أمل كبير.

وطلع فجر يوم ٢٧ مايو ونجحت حركة الالتفاف حول المواقع البريطانية الجنوبية فى بير حكيم . وواصلوا التقدم اتجاه الشمال على الشكل التالى :- كان يوجد على الجناح الأيسر للقوات المتقدمة فرقة مدرعة إيطالية (١) وعلى الجناح الأيمن الفرقة ٩٠ الخفيفة الألمانية ومعها وحدات الاستطلاع . وفى الوسط كانت الفرقتان المدرعتان المكونتان للفيلق الأفريقى ، وهما الفرقة ١٥ على اليمين والفرقة ٢١ على اليسار وكان هدفهم الوصول إلى الطريق الساحلى بين طبرق وخط الغزالة الأمامى .

وكان الآلاى المدرع الثامن يمثل رأس الحربة فى الهجوم ، وتقدم على رأسه قائده المقدم تيج ومن خلفه بقية الفرقة ١٥ بانزر . وكانت السرايا الخفيفة فى المقدمة والسرايا الثقيلة فى المؤخرة ، وكان الآلاى يحتوى على ١٨٠ دبابة وتقدمت المجموعة الأولى من الدبابات على طول جبهة عرضها ميل ونصف وعمقها ٣ أميال ، بينما كان يتبع المجموعة الأولى عن كثب المجموعة الثانية . ولم تصل التقارير الصباحية من طائرات الاستطلاع وكان استطلاع الأرض مستحيلا لأن الوحدة ٣٣ استطلاع قد سحبت من الفرقة وأرسلت فى مهمة خاصة ضد طبرق . ولا بد أن العدو متربص بمدرعاته فى جهة ما فى الجبهة فى انتظار قوات روميل.

وسمع صوت فى السماعة المعلقة فى أذن النقيب كومبل المعروف باسم «أسد كابتزو» وسمع النداء التالى « مدرعات العدو فى اتجاه الساعة ١٢ » .

وشاهد البريطانيون الدبابات الثقيلة . وقال أحد الملازمين البريطانيين التابعين لآلاى الهوسار الثامن: « يبدو أن الألمان قد أقبلوا ومعهم لواء من المدرعات» قال ذلك وهو يرسل تقريره إلى رئاسة الآلاى ولكنه بعد دقيقة صحح تقريره قائلا: «إن هناك أكثر من لواء ، إنه الفيلق الأفريقى الملعون بأكمله ، خذوا حذركم ، انتبهوا » وهكذا بدأت المعركة .

وقد تطورت الأحـــداث بالنسبة للآلاى الثامن الألمانى على النحو التالى :

(١) كانت هذه الفرقة هى فرقة آريتى المدرعة الإيطالية. (المعلق)

، مدرعات للعدو الساعة ١٢ - اهجم ، وأصدر قائد الآلاى أمر الهجوم فى الميكروفون المعلق فى عنقه .

ووصل إلى سماعات جميع دباباته . وفى البداية لم يروا سوى بضع نقط سوداء على حافة الأفق ، لأن القوات الرئيسية لمدرعات العدو قد أحسن تمويهها وإخفاؤها خلف تباب صغيرة . وتقدم النقيب كويل بأقصى سرعة . وتبودلت الطلقات الأولى وأخذت الدبابات تتقدم إلى الأمام ثم تقف وتطلق نيرانها ، ثم تتقدم وتواصل إطلاق النيران وأصيبت دبابة ثم أخرى فما هو الموضوع ؟ كيف يمكن للبريطانيين أن يصيبوا بنيرانهم من على هذا المدى البعيد الذى يزيد عن مدى دباباتهم التى نعرفها جيدا، ثم طلقة أخرى وحدوث انفجار وإصابة لدبابة ماركة ٣ إن هذا من عمل الشيطان !!! ورفع قادة الدبابات نظاراتهم المكبرة على أعينهم فوجدوا أن الأشباح السوداء التى فى الأمام كانت شيئا جديداً ، ورفعت إحداها فى هذه اللحظة شباك التمويه ، فظهر أن هذه الدبابة من نوع جديد تماماً .

وكانت هذه المفاجأة الكبرى الأولى . فقد وصلت الدبابات الأمريكية من طراز جرانت المجهزة بمدفع عيار ٧٧ مم وكانت هذه الدبابة متفوقة بكثير على الدبابة الألمانية ماركة ٢ بمدفعها عيار ٥٠ مم ولا يستطيع التغلب عليها سوى الدبابة ماركة ٤ إلا أنها هى الأخرى اشتركت فى المعركة بمدفع قصير مما جعل رميها أقصر من الدبابة جرانت ولم يوجد سوى عدد قليل من الدبابات ماركة ٤ المجهزة بمدافع طويلة الماسورة ، ولسوء الحظ لم تكن هذه الدبابات مزودة بذخيرة خارقة للدروع .

وكانت معركة عنيفة . وعندما التقط رجال الآلاى الثامن المدرع أول جريح بريطانى اكتشفوا أن العدو الموجود فى مواجهتهم هو اللواء الرابع المدرع الذى أعيد تشكيله . إذاً فقد عاد جنود اللواء الرابع مرة ثانية ، عاد هؤلاء الرجال جنود اللواء الرابع ليأخذوا بثأرهم لما حدث لهم يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٤١ عندما تمكن الرائد فينسكى من أسر اللواء بأكمله بمعاونة المجموعة الأولى من الآلاى الثامن المدرع .

٤ - الاندفاع للأمام ليس معناه النصر :

وقد توج ثأرهم بحسن الحظ بكل ما فيه من معنى ، ليس فقط للمفاجأة بالسلاح الجديد الذى كان له تأثير خطير ولكن لأن المدفعية المعاونة للآلاى الثامن قد تأخرت طويلاً . فقد انتشرت البطاريات التابعة للآلاى ٢٩ مدفعية مدرعة نتيجة

لقوة تأثير نيران دبابات العدو . وزيادة على ذلك لم تستطع البطاريات أن تساير الدبابات فى تقدمها ، فتخلفت عنها كثيراً ، هذا بالإضافة إلى أن قادة بطاريات المدفعية الأمامية كانوا يتحركون فى دبابات مارك ٢ وكانت قد وضعت تحت تصرفهم من قبل الآلاى المدرع وقد ثبت خطأ ذلك إذ لم يكن لدى قادة البطاريات خفة الحركة الكافية فى هذه الدبابات وسرعان ما أصبحت كلها عاجزة عن العمل لتعطلها .

وقاتل الآلاى الثامن مدرع بدون معاونة من المدفعية تقريبًا . وكانت خسائره فادحة وإلى يساره كان يقاتل الآلاى المدرع الخامس التابع للفرقة ٢١ تحت قيادة العقيد جيرهارد مولر فى نفس الظروف الصعبة .

وكان يقاتل فى المقدمة قائد المجموعة المسمى مارتن الذى سرعان ما قتل بإصابة مباشرة .

وحاولت الدبابات الألمانية فى يأس الاقتراب من الدبابات البريطانية من طراز جرانت بالرغم من بعد مرماها ، وسرعان ما أدى هجوم الفصيلة الثانية على الجناح البريطانى بنتائج حاسمة ، فقد نجحت تكتيكات القادة الألمان التى اتبعوها ، وتمكن هؤلاء الرجال من القضاء على البريطانيين . فاللواء الثامن الهوسار كاد أن يمحى تمامًا ، أما اللواء الثالث من الدبابات الملكية فقد خسر ست عشرة دبابة جرانت وسارع الماجور جنرال فيرست (قائد الفرقة ١٥ بانزر وكان تحت قيادته الآلاى المدرع الثامن) إلى الأمام فى عربته المدرعة وعندما مر على السرية العاشرة التى تشكل مقدمة القوات صاح قائد السرية: « ما هو اتجاهنا؟» وقبل أن يجاوب فيرست صاح أركان حربه قائلا : « إلى هناك حيث يوجد روميل » وكان الأمر يبدو كأنه قصة خيالية ، غير أنها كانت الحقيقة ، فكان دائماً القائد العام على رأسهم يقودهم كما هى عادته .

أما اللواء المدرع الرابع البريطانى الذى كان يستر طرق الاقتراب إلى الجيش الثامن فلو تمكنت مدرعات روميل من فتح الطريق خلال هذا اللواء فسيصبح الطريق مفتوحًا إلى الباب الخلفى . وتمكنت الفرقة ٩٠ الخفيفة تحت قيادة الماجور جنرال كليمان ومعها ٣ وحدات استطلاع والفيلق العشرون الإيطالى الميكانيكى من الالتفاف حول مطار العضم وتثبيت قوات حامية طبرق فى مواقعها مع احتلال مواقع بين القوات البريطانية وبين مستودعات تموينها فى الشرق . وهكذا فإن هذا

الجزء من خطة روميل كلل بالنجاح .

أما الفرقة ٢١ بانزر تحت قيادة نهرنج فقد واصلت التقدم نحو الشمال بحذاء موقع الغزالة وهكذا قطع الطريق بين المدرعات البريطانية وبين قواعد تموينها وأصبحت معرضة للتدمير الواحدة بعد الأخرى ، وهكذا كانت الخطة إلا أن هذا الجزء من الخطة لم ينجح . ولم يعلم الرجال الموجودون فى الدبابات واللوارى والعربات يوم ٣١ مايو شيئاً عن ذلك .

وشقت الفرقة ٢١ طريقها قتالا إلى عكرمة وكان فى استطاعة جنود المشاة وجنود المدرعات أن يشاهدوا طريق بالبو أمامهم . وخلفه كان يوجد هدفهم من الهجوم وهو البحر .

فهل هزم العدو ؟ لم يصدق أحد هذا . غير أنهم واصلوا التقدم وكانت الروح المعنوية عالية ، إلا أن الاندفاع للأمام ليس معناه دائماً النصر .

وقد تعود الملازم بولويكز (أحد قادة السرايا من الكتيبة الثانية التابعة للآلاى المدرع ١٠٤) الاحتفاظ بفكاهاته الخاصة للأيام الحرجة ، غير أنه هذه المرة لم يحتج إلى هذه النكت . فلقد كان هذا اليوم هو يوم عيد ميلاده . فقبل ساعتين من حلول الظلام شاهد عربة خفيفة بريطانية فاشتبك معها ، وكانت العربة محملة بعلب البيرة وزجاجات الويسكى . وكانت تكفى للسرية كلها . وحطمت السرية أعناق الزجاجات على جانب العربة وشربوا ما فيها فالمشروبات لها تأثير نفسى حتى فى أفريقيا . وكانت المشروبات الكحولية من المؤثرات القوية إلا أن قادة الوحدات بالرغم من ذلك لم يكونوا سعداء ، لأنهم يعلمون أن هدف الفيلق الأفريقى من هذا اليوم لم يتحقق ولم يستطيعوا تدمير قوات العدو الموجودة فى موقع الغزالة، وطبرق . ولم يحقق الجنرال ريتشى أمل روميل بدخول المعركة بقواته بل تراجع بمدرعاته اتجاه الشرق وأخذ يضرب الجناح الطويل الممتد للجيش الزاحف المكون من عشرة آلاف مركبة . وهكذا أنزلت الدبابات التسع من طراز جرانت خسائر فادحة فى المدرعات الألمانية واصل السلاح الجوى الملكى البريطانى ضرب طوابير تموين روميل . وأدت عمليات الهجوم من داخل الصناديق المحاصرة فى موقع الغزالة وعلى الأخص من بير حكيم إلى خسائر فادحة .

ففى هذه المرة لم يكن الحظ فى جانب روميل ولم تكن الدبابات الجديدة من طراز جرانت فقط هى المفاجأة الوحيدة غير السارة وأنها بقيت مختفية تمامًا عن

المخابرات الألمانية ، ولكن البريطانيين أحضروا مدفعًا جديداً مضادا للدبابات وهو المدفع ٦ رطل ويعادل تقريبا المدفع الألمانى عيار ٧٥ مم وقد أمكنه اختراق الدبابات الألمانية بسهولة . فقد تعلم البريطانيون من التجارب السابقة ، كما أخذت تظهر المساعدات الأمريكية فى مسرح شمال أفريقيا .

وتوقف التقدم . ولم تنجح خطة روميل فى التقدم من الجنوب إلى الساحل خلال مؤخرة قوات ريتشى لشطر القوات البريطانية . وعلى كل فقد تقدمت عربات الاستطلاع التابعة للفرقة (التسعين الخفيفة) إلى العضم . وزحفت القوات الرئيسية للفيلق الأفريقى إلى الشمال ، وقد وصلت مقدمتها إلى الطريق الساحلى ، إلا أنه لازمهم سوء حظ مرة أخرى إذ عزل كل حملة الفيلق الأفريقى وقطع الاتصال بينها وبين القوات المقاتلة .

وهكذا ظهر فجأة أن روميل وليس ريتشى هو الذى وقع فى المصيدة . فقد قطعت خطوط مواصلات الفرقة (التسعين الخفيفة) التى تقدمت إلى الشمال الشرقى للالتحاق بالفيلق الأفريقى . وفى نفس الوقت تمكنت مدرعات ريتشى من عزل الفرقة المدرعة التى كانت تحارب فى الشمال عن حملتها وعن تموينها ، فقد وقعت وحدات الاستطلاع الألمانية فى خطأ جسيم ، فلم تخطر روميل بوجود قوات مدرعة بريطانية قوية ، بل لم يقتصر الأمر على عدم علمه بوجود الدبابات من طراز جرانت والمدافع الجديدة ٦ رطل بل إنه لم يكن على علم كاف بالدفاعات الموجودة فى موقع الغزالة والنقط القوية وقوة الدفاع الصندوقى الموجود فى موقع جسر الفرسان . وفى ساعة متأخرة من يوم ٢٧ مايو أصبح الموقف حرجا . ففى الشمال كانت المدرعات قد توقفت لقلة الوقود . وفى الشرق حوصرت الفرقة ٩٠ الخفيفة . وأصبح الجنود منهوكى القوى وبدون تموين ولا ماء . ولم يكن من المستطاع العناية بالجرحى أو نقلهم إلى الخلف وظلوا راقدين فى الصحراء المحرقة . فما الذى يمكن عمله ؟

وبما أن وستفال أركان حرب عمليات (١) لم يكن فى استطاعته الاتصال بروميل الذى كان فى المقدمة مع الوحدات المقاتلة فاضطر وستفال إلى التحرك مع وحدة الإشارة التابعة له للحاق بالجنرال نهرنج ، وحاولا معًا السيطرة على الموقف .

ولقد أعطانى الجنرال نهرنج الصورة الكاملة التالية للموقف فى عصر يوم

٢٥ مايو ، فى الساعة الرابعة تماماً قام البريطانيون بهجوم بحوالى خمس وستين دبابة على جناح الفرقة ١٥ المدرعة المتقدمة إلى الشمال وأباد البريطانيون الكتيبة المخصصة لتغطية جناحنا الأيسر . وقد هربت عربات التموين والنقل اتجاه الجنوب والغرب . وبذلك أصبح الموقف سيئاً بالنسبة لهذه الفرقة التى كانت مدرعاتها فى المقدمة كما كان الحال بالنسبة لسائر المدرعات فى الفيلق الأفريقى .

٥ - **النتيجة الكبرى المعلقة فى الهواء :**

لقد كان الموقف إحدى الكوارث التى أدركت جيشاً بأكمله إلا أنه توجد لحظات يؤدى فيها اتخاذ قرار جرىء واحد إلى قلب الهزيمة إلى نصر . وكان الرجل الذى أمكنه الوصول إلى مثل هذه الفكرة الجريئة والذى أمد الإستراتيجية الحربية بتكتيك جديد هو الجنرال والثر . ك نهرنج ، وأما الرجل الذى وضع الفكرة موضع التنفيذ هو العقيد آلوين وولز .

فلقد وجد الجنرال نهرنج ومعه قائد الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات أثناء قيامهما بالاستطلاع نفسيهما فجأة وسط عربات النقل وطوابير التموين التابعة للفيلق الأفريقى وحملة رئاسة الفرقة وكانوا قد فروا أمام الدبابات البريطانية . وقد ذكر لى العقيد وولز ما حدث فقال: « بعد أن قدنا عربتنا لمدة طويلة تقابلنا مع العربات الهاربة التابعة للفيلق الأفريقى وحملة رئاسة الفرقة وكنا قد فقدنا أفراد الآلاى بأكمله حتى وصل عدد أفراد مجموعة قيادتنا إلى أربعة أفراد . ووسط هذه الفوضى رأيت بعض المدافع من عيار ٨٨ مم فاندفعنا وسط الجنود وسرعان ما وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام روميل الذى كان منهمكا تماما فى جمع الشاردين ، وقد قرعنى تقريعا عنيفاً وقال: « إن المدفعية المضادة للطائرات هى المسئولة تماما عن الفوضى التى حدثت لأنها لم تطلق نيرانها ، فاستجمعت قواى وجريت حيث توجد المدافع وأوقفتها وتمكنت من جمع ٣ مدافع من عيار ٨٨ مم بأطقمها .

وفى بضع دقائق تمكنت من جمع النصف الآخر من البطارية الثقيلة المضادة للطائرات التابعة لمجموعة عمليات الفيلق . وسرعان ما ظهرت مدرعات العدو على بعد ١٥٠٠ ياردة ، أسطول من الدبابات مكون من عشرين إلى أربعين دبابة كان يطارد حملة الفيلق الأفريقى الهاربين ولم يكن لديهم مدفعية لحمايته وكانوا مكتوفى الأيدى فى وجه هجوم مدرعات العدو ، وفى وسط هذا الاضطراب والفوضى كان روميل موجودا مع هيئة أركان حرب الفيلق الأفريقى كلها ،



روميل أثناء أعطاءه الأوامر لجم الشاردين والمدافع ٨٨مم .

وأركانات حرب الآلايات ، وعربات رجال المخابرات ، وبالاختصار العصب الحيوى للوحدات المتقدمة المقاتلة .

وكانت النتيجة الكبرى لهذا الصراع معلقة فى الهواء ، وبمعنى آخر: إنها ستكون مأساة لنا . ووزعت المدافع على مواقعها فى وقت يعتبر قياسيا وفى لمح البصر . وكنت على وشك إعطاء الأمر بإطلاق النيران عندما قفزت من الخوف عند مشاهدتى خلال نظارتى المكبرة أن دبابات العدو على وشك مهاجمة كتيبة المشاة الموجودة على الجناح الأيمن ، فلو وصلوا إلى هدفهم فلن يمكننى إطلاق النيران بدون تعريض حياة رجالنا للخطر . ويجب علينا أن نطلق نيراننا بغاية السرعة وفى منتهى الدقة وصحت « أطلقوا النيران » وانطلقت الدانات إلى أهدافها وسجلت أولى الإصابات المباشرة . وتوقف البريطانيون . وفوجئت الدبابات التى كانت تتقدم نحونا بهذه المقاومة غير المتوقعة ، وعادت أدراجها ، غير أنها تجمعت ثانية للقيام بهجوم جديد . وصاح الجنرال نهرنج: « كونوا خطا من المدفعية المضادة للطائرات، يجب عليك يا وولز أن تبنى جبهة من المدفعية المضادة للطائرات للدفاع عن الجنب بكل المدافع المتيسرة لديك » وكانت كلماته كأنها وحى، ولحسن الحظ ظهر الرائد جيرك ومعه بطارية ثقيلة ثانية . وبعد نصف ساعة وصل أركان حرب رئاسة الجيش ومعه بطارية ثقيلة تتبع وحدة عمليات الجيش والتى يقودها روميل بنفسه شخصيا . وفى سرعة جنونية كونت جبهة من المدافع المضادة للطائرات طولها ميلان فى مواجهة المدرعات البريطانية .

وما كاد وولز ينتهى من بناء حائطه القوى من المدافع حتى تجدد الهجوم وظهرت أبراج الدبابات البريطانية الصفراء وكانت دبابات القادة تحمل أعلاما فوق ساريات اللاسلكى . وصدر الأمر: « المسافة ألف ومائتا ياردة أطلقوا النيران » وانهمرت طلقات عشرة مدافع من عيار ٨٨ مم المضادة للطائرات بنيرانها على الدبابات البريطانية المتقدمة . وأطلق المدفع المسمى «دورا» ثلاث قذائف متتالية من على بعد ستمائة ياردة وأصاب دبابة ماركة جرانت إصابة مباشرة إلا أن الدبابة الأمريكية لم تكن مستعدة لمثل هذه المقابلة ، فأطلق البريطانيون نيرانهم وكل ما لديهم من الطلقات . وبعزم وتصميم عاودوا الهجوم ، فلقد رأى البريطانيون فرصة سانحة وأرادوا استغلالها .

ولكن عندما حل الليل كانت أعمدة الدخان تتصاعد من أربع وعشرين دبابة للعدو إلى عنان السماء أمام مواقع المدافع المضادة للطائرات . وكانت هذه هى أول

مرة فى تاريخ الحرب يقوم فيها قائد المدفعية المضادة للطائرات بقتال المدرعات على هذه المسافة القريبة ، غير أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد، فقد أحضر البريطانيون المدافع وصبوا نيرانهم على مواقع المدفعية الألمانية ، فقد صمموا بكل عزم على تحطيم هذا الحائط الفولاذى . وكان مصير الفيلق الأفريقى يتوقف على هذا الحائط .

واتخذ الجنرال نهرنج مركز قيادته التكتيكى خلف خط المدافع بنصف ميل وذلك للأهمية البالغة لهذا القطاع . وضربت مدفعية العدو مواقع بطاريات المدافع فى الخط بوابل من المقذوفات وأبادت تماماً بعض أطقم المدافع . ومر الرائد جيرك والعقيد وولز باستمرار خلف الخط وعلى طول الجبهة يشجعان الجنود لأن سقوط هذا الخط الدفاعى كان معناه كارثة محققة للفيلق الأفريقى كله . وجاءت النجدة من السماء وأخذت الريح الجنوبية المسماة « بالجبيلى » تهب وتغطى كل شىء بردائها الترابى .

وخف الخطر مؤقتًا . إلا أن الأزمة الكبرى كانت ما زالت موجودة ، لأن موقف المدرعات أخذ يزداد سوءا نتيجة لنقص الإمداد .

٦ - **روميل يعقد مجلس الحرب:** (انظر اللوحة رقم ١٣)

وسأل روميل رئيس أركان حربه جوس فى مساء ٢٨ مايو: « ما الذى حدث لهجوم الجنرال كروويل بالمواجهة ؟ » وبدون أن ينتظر الإجابة قال: « يجب أن نخترق حقل الألغام من الغرب لكى نخلص المؤخرة ، أخطر كروويل بذلك بواسطة اللاسلكى » .

والآن فلندع الجنرال كروويل يقص علينا بأسلوبه الخاص ما حدث ، قال: «خلال ليلة ٢٨ - ٢٩ مايو تلقينا رسالة باللاسلكى من الجنرال روميل يأمرنا فيها بهجوم عاجل بالفيلق الإيطالى الموجود تحت قيادتى . فأرسلت قائد المدفعية العقيد كروز إلى القيادة الإيطالية . وكان عليه أن يجد حارسا ومعه مسدس إشارة ليعين لنا مكان الخطوط الإيطالية ، وركبت طائرتى فى الثامنة والنصف ولم يكن لدى قائد الطائرة الخريطة المجهزة الصحيحة للرحلة . وقد أعطاه الجنرال فون والدو (وكان يقود سلاح الطيران الألمانى فى أفريقيا) اتجاها محددا ، إلا أنه ظهر لى بوضوح أننا ما زلنا نطير مباشرة اتجاه الشرق . وطمأننى الطيار وقال: « إنه لا يمكن أن نخطئ رؤية الإشارات الضوئية » ولكن أسوأ ما فى الأمر حدث ، فقد كنا

نطير فوق الخطوط البريطانية ، وكنا نطير على ارتفاع خمسمائة قدم وتعرضنا لضرب المدافع الرشاشة . وأصابتنا دفعة الطلقات الأولى فى ذيل الطائرة وأما دفعة الطلقات الثانية فأصابت الماكينة ، والثالثة قتلت الطيار وسقط ميتا فى مقعده وبمعجزة لم تسقط الطائرة ولم تندفع إلى الأرض محطمة بل طارت ثم هبطت هبوطاً اضطراريا مثاليا وتحولت الأجزاء السفلى إلى حطام وطار الهيكل وتمزق من حولى إلا أنه لحسن الحظ أن باب الطائرة لم يغلق . وظهر أننا هبطنا فى الخطوط الأمامية لأحد المواقع الصندوقية للعدو وكان يحتله اللواء ١٥٠ البريطانى وهرع الجنود البريطانيون وأخذونى أسيراً . وبعد ذلك بعام علمت من الجنرال كروز الذى أسر فى حرب تونس، أن طلقات الإشارة لم تطلق بالمرة لأن الضابط المسئول عن ذلك قد استدعى للتليفون الموجود فى حفرته فى نفس اللحظة التى كنا نحلق فيها فوقه بالطائرة ».

وهكذا كان الموقف فى ٢٩ مايو ١٩٤٢ . وبالطبع فقد تأخر هجوم الفيلق الإيطالى بالمواجهة إلا أن الفيلد مارشال كسلرينج قفز إلى المعمعة وتولى قيادة الفيلق محل كروويل فى جبهة الغزالة ، بل إنه طلب أن يعمل نائبا لروميل فى القيادة . وقبل أن يعمل تحت أمره كولونيل جنرال وكان برتبة الفيلد مارشال .

وعقد روميل مجلس الحرب وحضره نهرنج وجوس ووستفال وبايرلاين وأجمع الجميع أن الموقف فى منتهى الخطورة ، واقترحوا ضرورة اقتحام طرفى الكماشة .

وحيث إن تقدم كروويل قد توقف فإن الإجراء الممكن الوحيد هو اختراق موقع الغزالة فى اتجاه الغرب لكى يمكن معاودة الاتصال بقواعد الإمداد ، وتردد روميل إلا أنه وافق فى النهاية ، فلقد خسر المعركة ولكن ربما بقرار جرىء يمكنه تفادى وقوع كارثة حقيقية .

وفى يوم ٣٠ مايو بعد منتصف الليل بقليل ، وضعت الخطة موضع التنفيذ . وفى الصباح وصلت القوات إلى حقول ألغام العدو فى خط الغزالة الرئيسى من ناحية الشرق . وأصبحت المشكلة أمامهم فى كيفية شق طريق عبر حقل الألغام الكثيف للوصول إلى طريق الهروب وإلى طريق التموين . واعترف روميل بشرف النصر فى المعركة للبريطانيين ، فلقد كان شعاره أنه يجب ألا يحارب فى معركة ميئوس منها ومن نتيجتها .

إلا أن الخطة الجريئة لعبور حقول الألغام لم تكن قد نجحت بعد بالرغم من فتح ثغرة بسرعة خلال الألغام . وكانت فرقة تريستا الإيطالية قد بدأت العمل فى فتح ثغرة فى الألغام من اتجاه الغرب . إلا أنه تبين بوضوح أن مواقع الصناديق المختارة بمهارة كانت فى غير صالح العملية . ولم تكن القيادة الألمانية تعلم بوجود صندوق غوط الأوالب ، فكان يتمركز اللواء ١٥٠ البريطانى المكون من ألف رجل وثمانين دبابة ماركة ٢ فى منتصف حزام من الألغام وكانت الثغرات خلال حقول الألغام تغطيها نيران المدفعية . وبذلك فإن المرور خلالها فى وضح النهار كان مستحيلا ، وفى خلال الليل فإن العملية تكون مخاطرة خطيرة . زيادة على ذلك فإن الجنرال ريتشى لم يعد مترددا كما سبق بل قام بتجميع دباباته ثم قام بالهجوم . وقام لواء الحرس الملكى البريطانى بالوقوف فى وجه الفرقة التسعين الخفيفة والوحدة الثالثة والثلاثين من وحدات الاستطلاع والوحدة ٥٨٠ من وحدات الاستطلاع التى كانت تحت قيادة النقيب فون هومبر ، فقد صمد اللواء فى منطقة جسر الفرسان ومنع هذه القوات من اختراق الموقع إلى الغرب . أما وحدات الفرقتين المدرعتين ١٥ ، ٢١ فكانت مهددة بخطر الاكتساح كما كان الاختراق نحو الغرب لا يزال غير ممكن لوجود الموقع البريطانى القوى فى غوط الأوالب . وحكم الجنرال ريتشى على انسحاب روميل الإستراتيجى بأنه هزيمة . فأرسل إلى القاهرة باللاسلكى يقول: « إن روميل يهرب » وأجاب أوكنلك: « هنيئا للجيش الثامن ، أعطه الضربة القاضية » . ولكنه كان متفائلا أكثر من اللازم .

وأصدر روميل أمراً صارما: « يجب أن تسقط غوط الأوالب . واللواء ١٥٠ يجب أن يكتسح فى مواقعه » فهذه كانت الفرصة الأخيرة ، فإذا لم تنجح فهناك نهاية روميل وجيشه . وكان القائد العام يعلم ذلك والجنود يحسون بذلك . وهكذا فإن مصير الحملة (كما يحدث كثيرا فى التاريخ العسكرى) كان متوقفا على وجوب القضاء على اللواء وإمكانية تنفيذ الأمر بتحطيمه . وحل أول يونية ١٩٥٢ ، وما من فرد اشترك فى الحملة الأفريقية يستطيع أن ينسى هذا اليوم ، فكل شىء كان فى كفة القدر .

وأرسل روميل الآلاى الخامس المدرع ليقتحم موقع غوط الأوالب ولكن عبثا فقد تحطمت اثنتا عشرة دبابة فى حقل الألغام . وقامت مجموعة قتال كهل بالهجوم إلا أن المدافع الرشاشة البريطانية ونيران المدفعية صدت هذا الهجوم .

فهل يعنى ذلك أن الأمر كان مستحيلا ؟ ونظر القادة خلال آلات تقدير

المسافة ومن خلال نظاراتهم المكبرة أخذوا يبحثون ، أين توجد أوكار المدافع الرشاشة الملعونة وأين ينتهى حقل الألغام ، وسجل الجنرال نهرنج وبايرلاين ملاحظاتهما على الخريطة ثم توصلا إلى قرار ، يجب على الكتيبة الميكانيكية الثالثة المحنكة التابعة للآلاى ١٠٤ أن تنتزع الكستناءة من وسط النيران .

٧ - روميل يأمر برفع العلم الأبيض :

وكانت قيادة الكتيبة موجودة فى حفرة رملية عمقها ستة أقدام تحت الأرض. وبجوارها كان يوجد مدفع عيار ٨٨ مم . وفى هذه اللحظة حلق تشكيل من طائرات ستوكا . وانتظر الجنود وأعصابهم مشدودة لأقصى درجة. هل ستلقى قنابلها على الدبابات المصطفة فى الخط الأمامى؟ وفجأة صاح الملازم كوردل. « يا إلهى إنهم يقذفوننا بقنابلهم » .

ودفنوا وجوههم فى الرمال قبل أن تنفجر القنابل بلحظات . وأصيب المدفع ٨٨ مم والجرار الملحق به . وأخذت الذخيرة تنفجر مما جعل المعاونة مستحيلة وانتشر الجرحى فى كل مكان . واستغل البريطانيون الموقف على الفور وهاجموا الموقع ، وبصعوبة أمكن ردهم . وكانت اللعنات التى صبها الجنود غير قابلة للترديد. وخلال فترة هدوء القتال جاء نداء بأن قائد الكتيبة وأركان حربه مطلوبان فى مركز قيادة الفرقة . وهناك كان يجلس الجنرال فون بسمارك قائد الفرقة ٢١ المدرعة فى عربة القيادة وأشار إلى دبابة محترقة فى الأفق وقال مخاطبا قائد الكتيبة : « هل ترى هذه الدبابة يا أهل » .

« نعم يا سيدى الجنرال ..... » .

« إنه هناك فى هذا الموقع يوجد الصندوق البريطانى غوط الأوالب وعلى كتيبتك الاستيلاء على هذا الموقع المحصن ، إنها مهمة صعبة يا أهل . فحتى الآن فشلت كل محاولات الهجوم . فارسم خطتك للهجوم وأخبرنى عما تنوى أن تفعله . إن الأمر عاجل يا أهل ، ثم أضاف فون بسمارك : « سوف يكون فى معاونة الهجوم قوة من المدفعية تحت قيادة الرائد بيل » .

وفى الطريق إلى التلقين النهائى الذى يسبق الهجوم مباشرة تقابل أهل مع الرائد بيل الذى كان واقفا مع الجنرال نهرنج والعقيد بايرلاين بجوار أحد المدافع عيار ٨٨ مم ، وكان بايرلاين يشرح الموقف لكورديل على الخريطة وفجأة صاح أحدهم: « اختبئوا ، طائرات معادية منخفضة » إلا أن التحذير متأخر فقد أطلقت

الطائرات النيران وأصيب أهل ، وبذلك فلن يستطيع الاستيلاء على غوط الأوالب وتولى القيادة بدلا منه النقيب «ويزمان» (الكتيبة والهجوم) . وقد أعطانى الملازم وولف موجزا عن العملية فقال: « كان كل شيء يتوقف على اختيار نقطة ابتداء جيدة ثم محاولة الاقتحام بأقصى سرعة وعند خيوط الفجر الأولى أعطت غلالة المدفعية إشارة الهجوم ، وعلى الميسرة كانت توجد السرية التاسعة وعلى الميمنة كانت توجد السرية العاشرة وفى الوسط قيادة الكتيبة، وبهذا التشكيل تقدمنا بسرعة ٤٠ ميلا فى الساعة لنقطع الميل والنصف التى تفصلنا عن المواقع البريطانية . وكانت كل سرية يصحبها جماعة من المهندسين لكى تفتح لها ثغرة فى الأسلاك الشائكة والألغام .

ونجحت السرية العاشرة فى اختراق حقل الألغام أثناء اندفاعها الأول ، إلا أن السرية التاسعة توقفت فى منتصف الحقل وركزت نيران المدافعين من الصندوق على الرجال وعرباتهم .

وصاح النقيب ويزمان فى طلب مساعدتى: « وولف أسرع إلى السرية التاسعة وأصدر الأوامر لهم بالخروج من حقل الألغام لأن بقاءهم هناك أشد خطورة من قيامهم بالهجوم » وكانت التدريبات على الاقتحام تقول: « لا محاورة فى التقدم، بل تقدموا رأساً إلى العدو » وكانت هذه هى الفكرة الصحيحة . ولكن هل يمكنهم التراجع لمسافة ميل ثم معاودة القيام بالهجوم مرة ثانية؟ ربما يبدو هذا معقولا نظريا ، ولكن من الذى يستطيع القيام به عمليا . وفى وثبات خاطفة تمكن وولف من الوصول إلى السرية التاسعة . وبذلك فكتب التدريب كانت صحيحة . وكان العدو مختبئا فى مواقع محصنة أحسن إخفاؤها . وكان على العدو أن يظل جالسا فى مواقعه يتصيد المهاجمين ، وهذا ما فعله .

وأصيب الملازم وولف ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى السرية وتلقاه المساعد فردريك وهو يسقط ، وبأوامر من وولف جمع بعض المهندسين والمتطوعين وطهر ثغرة ضيقة خلال حقل الألغام وهكذا أمكن للسرية أن تمر خلال الحقل . وفى وثبات ثلاث يعقب كل وثبة الانبطاح على الأرض ثم القيام ومعاودة التقدم ، حدث فجأة أن توقف المدفع الرشاش الملعون عن الضرب ، فهل حدث له عطل . إذاً فعلينا الإسراع بالتقدم . وكان البريطانيون ما زالوا يحاولون إصلاحه عندما صاح الألمان عليهم: « ارفعوا أيديكم » وأطاع طاقم المدفع . وهكذا استولى الألمان على أول المواقع البريطانية وتلا ذلك صراع بالأيدى والسلاح الأبيض

والقنابل اليدوية والرشاشات ، ودقت مدافع بيل مواقع المدفعية المخفاة وزأرت طائرات الستوكا وأسقطت قنابلها هذه المرة فوق الهدف تماماً .

وفى وسط المعمعة ظهر روميل بنفسه فجأة إلى جوار ويزمان ، وإلى اليسار واليمين كانت المدافع الرشاشة تفرغ أحزمة ذخيرتها . وقال روميل : « إن العدو بدت عليه مظاهر الضعف .

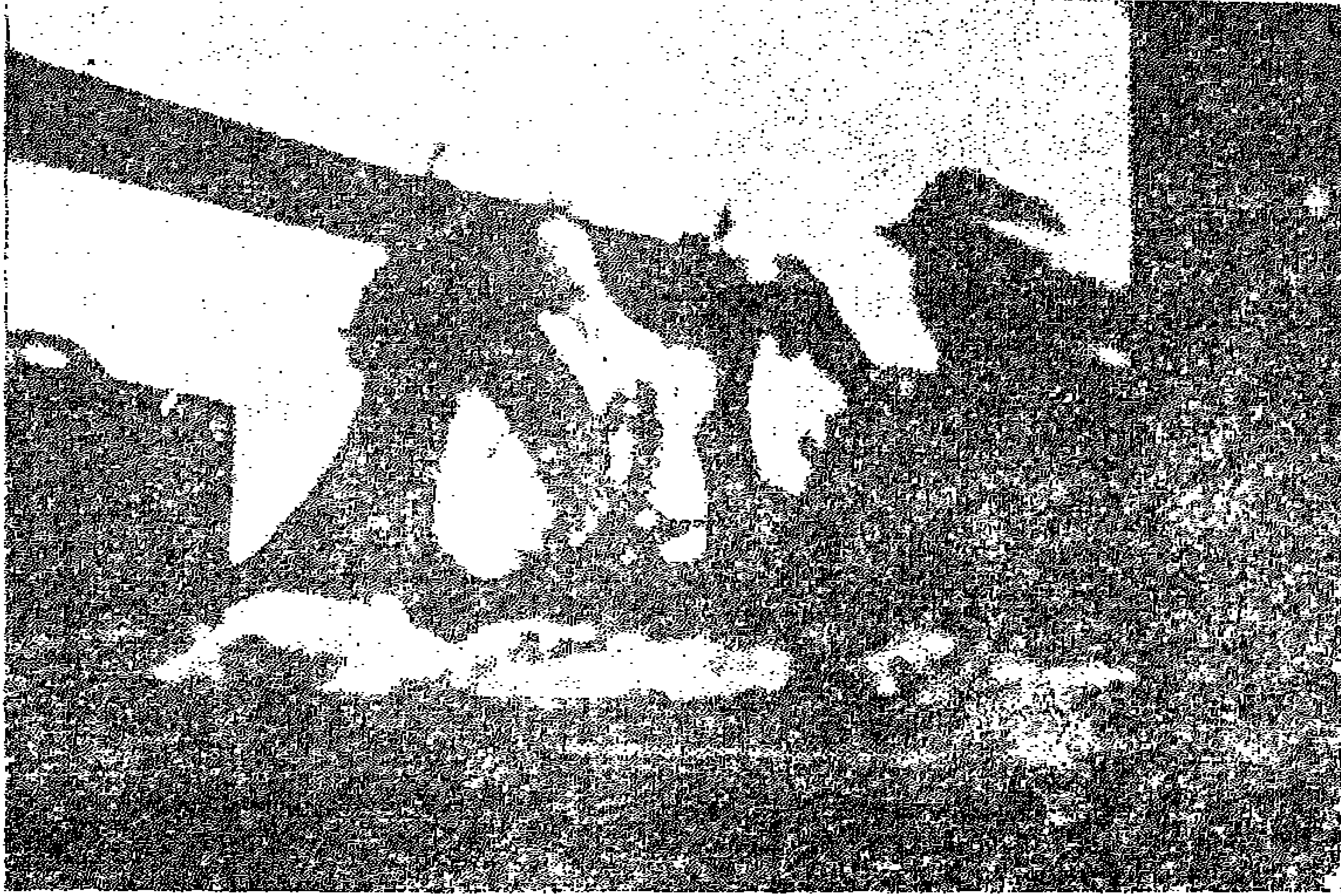
لوحوا لهم بعلم أبيض وسوف يستسلمون » وتساءل ويزمان فى عجب: « هل هذا وقت التلويح بالأعلام؟ لا بد أن الرجل العجوز قد أصابه العته، وما الهدف من هذا التلويح الذى يدعو إليه ؟ فإنهم ما زالوا يقاتلون كالشياطين » وعندما لوح الألمان بعلمهم الأبيض فعل الإنجليز مثلهم وكان القليل منهم لديه مناديل بيضاء، ومن ثم فقد لوحوا بكوفياتهم . ونزع أحدهم قميصه وأخذ يلوح به فى عصبية ثم حدث شيء مذهل . فقد خرج البريطانيون من مواقعهم وأيديهم فوق رءوسهم .

وهكذا سلم ألفان من البريطانيين لثلاثمائة من رجال الكتيبة الثالثة من الآلاى ١٠٤ وهكذا استسلم اللواء ١٥٠ البريطانى . وضاعت بذلك الفرصة على أوكنلك لتوجيه الضربة القاضية إلى روميل .

وكان روميل يأمل أن يكون الجنرال كرومويل التى أسقطت طائرته فوق موقع غوط الأوالب وأسر يوم ٢٩ ما زال موجوداً داخل هذا الصندوق الدفاعى إلا أن البريطانيين كانوا قد أرسلوه قبل ذلك بساعات إلى الخلف . وذكر لهم طاهى اللواء البريطانى الذى أسروه أنه قد أعد للجنرال غذاء شهيا من اللحم إلا أنه لم تكن لديه شهية لتناوله .

٨ - ١٩ ساعة تدفع الرجال إلى الجنون :

وكانت الخسائر التى لحقت بالكتيبة الثالثة فادحة جدا . وكان من بين الذين سقطوا من الضباط والجنود محارب قديم هو العريف بورستل ورغم أنه كان صغيراً فى السن إلا أنه كان محبوباً من رجاله . ومرة أخرى كان فى وسط المعمعة مع موتوسيكله ، وكان موتوسيكله من الموتوسيكلات القلائل التى ظلت تعمل فى الكتيبة. فلقد أحضر بورستل أول الجرحى وعاد بموتوسيكله محملا بصناديق الذخيرة عبر الثغرة الموجودة فى حقل الألغام والتى ركزت نيران المدفعية عليها . وكرر الرحلة أربع مرات إلا أنه فى رحلته الخامسة أصيب بجرح فى المعدة ، وهذا النوع من الجروح مخيف جدا فى أفريقيا . وكان معه رجل جريح فى العربة



المدفع الرشاش الألمانى أثناء الضرب على مواقع اللواء ١٥٠ البريطانى

الجانبية للموتوسيكل وفكر بورستل بسرعة وقرر الوصول بأسرع ما يمكن إلى محطة الإسعاف وإلا فسيموت هو ومن معه . ولم يترجل بورستل أو يطلب أحدا من حملة النقالات ، بل قاد موتوسيكله بيده اليمنى وضغط بيده اليسرى على الجرح الموجود فى معدته . ووصل إلى هدفه وسقط من على الموتوسيكل وبعد ساعات قلائل فارق الحياة وكانت محطة الإسعاف موجودة على طريق كابتزو ، وما زال الكثير من الجنود الألمان يتذكرونها حتى اليوم . والواجب على المؤرخين الذين يجمعون تاريخ المعارك ألا ينسوا مثل هذه المحطات .

وكانت الشمس تسلط حرارتها بلا رحمة على طريق كابتزو ، والجرحى يصيحون من الألم ويئنون فى طلب الماء ، وحتى بعد هبوط الليل فلم تستطع السيارات نقل الجرحى إلى محطة الإسعاف الرئيسية . وكان الصليب الأحمر ورجاله لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم . فالطبيب كان على وشك أن يغمى عليه من شدة التعب .

وفى الساعة الثامنة مساء كان طابور السيارات المكون من مائة سيارة خفيفة على استعداد للتحرك ، ولم يكن متيسر سوى عربات إسعاف قليلة وكان المركز الرئيسى للإسعاف فى التميمى على بعد ستين ميلا .

وكان من بين الجرحى فى عربة الإسعاف النقيب أكرت من مجموعة قتال كهل، وقد جرح فى غوط الأوالب ، وفى الناحية الأخرى من العربة رقد الليفتانت جنرال فون فيرست الذى جرح فى اليوم السابع والعشرين ، ورقد ليس بعيداً عنهما اثنان من الجنود قد أصيبا فى صدريهما ورجل آخر قد تهشمت ساقه . وقد بذلت كل المجهودات لكى يكون سفرهم مريحًا بقدر الإمكان إلا أن ذلك كان بلا فائدة لأن السائق ليس له الخيار فى اختيار طريقه . وكانت رحلة شاقة ففى الياردات الخمسمائة الأولى أخذ المصابون يئنون ثم يصيحون إلا أن الرحلة استمرت فوق الحفر والمنخفضات والحجارة فقد كان عليهم أن يلتزموا الطريق وإلا تعرضوا لانفجار الألغام . وكان يحرس الطابور خمس دبابات وخمس عربات استطلاع ، وإلى الأمام واصلت القافلة سيرها إلى الأمام إلا أن الرحلة كانت غير محتملة بالنسبة للجرحى ، وارتفعت الصيحات واختلطت بالأنين ، فأى إنسان يستطيع تحمل هذا ؟ فتوقف السائقون وأخذ الجرحى المصابون بجروح خفيفة يساعدون الذين لا يستطيعون الحراك ، وكانوا فى عذاب . إلا أن القنابل أخذت تتساقط حول العربات فاضطروا إلى المسير مرة ثانية . وكان طابور العربات قد انتشر وكانت الأوامر تقضى بعدم وقوف العربات على حدة وعليها مواصلة السير ، واستغرقت الرحلة

تسع عشرة ساعة وكادت هذه الساعات التسع عشرة أن تدفع الرجال إلى الجنون .

وفى محطة الإسعاف الرئيسية كانت الأمور مثل هذه الحالة من السوء ، فالأطباء والممرضات قد أنهكهم التعب ، فقد ظلوا يواصلون العمل فى الخيام القذرة المتربة ، وفى الحرارة المهلكة ، وكان العرق يتصبب من أجسادهم . وكان لديهم بعض الثلج والشمبانيا التى استولوا عليها من البريطانيين ، وسمح بالشرب لكل جريح تسمح حالته بالشرب ، وكان يوجد كذلك نبيذ أحمر ، وليموناده مثلجة ، وواصل الجرحى الجدد الوصول وظهر الجمود على وجوه الأطباء والممرضات . وتعالت أصوات الآلات الطبية فى هدوء بخيمة العمليات ، وكانت الأحاديث مختصرة ، وإنه لرجل سعيد الحظ الذى يستطيع أن يتفادى الموت فى هذه المحطة الرئيسية للإسعافات ويصل إلى درنة ليدخل المستشفى التى تطل على شاطئ البحر المتوسط .

ووصل الرائد أهل قائد الكتيبة الثالثة من الآلاى قاذفى القنابل ١٠٤ الذى أرغم اللواء البريطانى على الاستسلام إلى درنة ، ومنها إلى المستشفى الواقع على شاطئ البحر المتوسط ، وفى الغرفة الصغيرة التى رقد فيها أهل كان يوجد سريران آخران مشغولان ، أحدهما يشغله ضابط برتبة ماجور جنرال والآخر برتبة مقدم ، وذلك وفقا لعلامات الرتبة المعلقة على معاطفهم الملقاة على المقاعد ، وكانا نائمين تحت ناموسيتيهما واستدار الرائد أهل على جنبه بعد أن استيقظ فشاهد الفيلد مارشال كسلرينج واقفاً فى الحجرة .

وعرف زميليه فى الغرفة فأحدهما الماجور جنرال جوس رئيس هيئة أركان حرب روميل والمقدم وستفال رئيس هيئة أركان حرب الفيلق الأفريقى ، فقد جرح كلاهما فى غوط الأوالب فقد سقط جوس أمام إحدى الدبابات نتيجة لانفجار دانة وكان يعانى من ارتجاج فى المخ ، أما وستفال فقد دخلت شظية فى فخذه .

ولم يكن كسلرينج فى أحسن حالاته فقد سمعه يقول لهما :

« يا عزيزى جوس أنا لا أريد أن أضايقك إلا أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا الوضع فيجب على روميل ألا يتجول هكذا فى الخطوط الأمامية لأنه لم يعد قائد فرقة أو قائد فيلق وهو الآن قائد جيش ويجب أن يكون من الممكن الاتصال به فى أى وقت ويجب عليك أن تقنعه بذلك » .

وظل كسلرينج يزمجر لمدة طويلة.

ورد عليه جوس قائلا « يا سيدى الفيلد مارشال إن الكولونيل جنرال روميل لا يمكن كبح جماحه ، فإنه يتسلل ببساطة إلى الخطوط الأمامية ومن ثم فيتعذر على عربة الإشارة أن تلازمه ، وإذا لحقته فقد تتعطل ، وعندما تلحق به محطة لاسلكى أخرى يكون الوقت أصبح متأخراً ، **ولكن كيف يمكنه أن يقود جيشه هنا فى أفريقيا من الخطوط الخلفية ؟ لأن هذا النوع من الحروب يتوقف مصير كل شىء فيه على الخطوط الأمامية** » وعند ذلك تدخل وستفال قائلا: « يا سيدى الفليد مارشال، إنه من المستحيل تثبيت روميل فى مكانه ، لأنه لكى يمكنه الوصول إلى قرارات حاسمة فيجب أن تكون لديه صورة كاملة عن الأرض وطبيعتها » إلا أن كسلرينج كان من الصعب إقناعه وقال لهما: « فى يوم ما سوف يؤدى ذلك إلى نتائج خطيرة أيها السادة » .

الفصل الثامن

معركة بير حكيم وطبرق

الفصل الثامن

معركة بير حكيم وطبرق

انظر اللوحة رقم (١٣)

١ - الجحيم فى بير حكيم :

قال روميل لرئيس أركان حربه الجديد العقيد فريتز بايرلاين: « اصعد إلى العربة يا بايرلاين ، فأنا ذاهب إلى بير حكيم » وبهذه الكلمات صحب روميل رئيس أركان حربه الجديد (الذى حل محل الماجور جنرال جوس فى أول يونية ١٩٤٢ بعد أن جرح أثناء انتقاله من رئاسة أركان حرب الفيلق الأفريقى إلى رئاسة أركان جيش البانزر) .

وكانت هذه الطريقة فى مواجهة الأحداث تكون جزءاً من شخصية روميل لأنه ما كاد يخرج من بين طرفى الكماشة المهلكة التى حاكها له عدو يتفوق عليه عدداً وعدة ويترك الميدان خالياً أمام ريتشى ، حتى قام بالهجوم على نقطة مهمة فى جبهة العدو .

وكان روميل قد شكل مجموعة قتال مكونة من بعض قوات الفرقة التسعين الخفيفة ، وقليل من دبابات الفيلق الأفريقى والوحدة الثالثة والثلاثين استطلاع وبعض القوات من فرقة تريستا الإيطالية . ومنذ ٢٦ مايو والإيطاليون يقفون أمام بير حكيم ، وكان من المفروض أن يستولوا على هذه النقطة الحصينة فى بدء الهجوم إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم خطوة واحدة . وهز روميل رأسه وقال « فرقة بأكملها .. حسنا سوف أتولى هذا الأمر بنفسى » وبهذه الجملة تطورت أعنف المعارك التى حدثت حتى ذلك الوقت فى أفريقيا . فقد كانت بير حكيم هى نقطة الارتكاز الجنوبية لجبهة الغزالة التى تحمى طبرق ويدافع عنها اللواء الأول فرنسى أحرار وكتيبة من المتطوعين تحت قيادة الجنرال الفرنسى بيير كونتج .

وكان الجنرال ريتشى قد أرسل هؤلاء الجنود الأشداء عن عمد، فبير حكيم هى مفتاح جبهة الغزالة فإذا سقطت هذه القلعة فخط الغزالة كله يتداعى . وكان هذا الموقع هو العقبة الأولى قبل الوصول إلى طبرق . ولو تمكنت بير حكيم من الصمود فإنها بذلك تشكل خطراً على كل تقدم تقوم به القوات الألمانية بتعريض جناح هذه القوات للتهديد الدائم .

ومن ثم فإن ريتشى كان مصمماً على صمود بير حكيم ، أما بالنسبة لروميل فكان سقوطها شيئا حيويا بالنسبة له .

وفى البداية حاول روميل تطبيق تكتيكاته المشهورة الخاصة بالتلويح بالبيدق الأبيض ، إلا أن هذه لم تنجح فى بير حكيم .

وأصيبت الدبابات الألمانية بنيران المدفعية وقوبل روميل وبيادقه بوابل من نيران المدافع الرشاشة . وقال روميل وهو يستدير إلى بايرلاين: « ليس هذا مهما سوف نهاجمهم » .

وكان الفرنسيون عبارة عن ثلاثة آلاف رجل وكتيبة متطوعين من ألف جندى قد اختبئوا فى مواقع محصنة بمهارة . فالمدافع الرشاشة أحسن إخفاؤها . وأماكن المدفعية مموهة ومحصنة بمهارة وكان من الصعب تمييز وتحديد مكانها . وقد تبين فيما بعد أن عدد هذه الدشم هى ألف ومائتان دشمة . وقد أطلقوا النيران المتقاطعة فى شكل غلالة مهلكة من كل ركن فى الموقع ، وأوقفت المدفعية الفرنسية كل هجوم قام به الألمان . وأرسل روميل إشارة لاسلكية إلى كسلرينج مضمونها كلمة واحدة « ستوكا » ورد عليه كسلرينج قائلا: « تصل إليك حالا » ووصلت الطائرات المنقضة فى ميعادها وألقت قنابلها .

إلا أن المهندسين الفرنسيين حفروا خنادق ضيقة جداً وصغيرة ، وكذلك قواعد المدافع ، فإن لم تسقط القنبلة مباشرة فوق الموقع فإن الخسارة تكون طفيفة ، وأبرق الجنرال كوننج إلى ريتشى: « أرسل المقاتلات » وأجابه ريتشى ، وأصبحت طائرات ستوكا عديمة الحيلة أمام المقاتلات ذات المناورة العالية . وبدت الأمور قاسية وشديدة الخطورة . وسقط كثير من الطائرات المنقضة وكأنها مشاعل متقدة . وقد قلق روميل من هذا الحظ السيئ . وطار إليه كسلرينج وصاح بغضب: « نحن لا نستطيع الاستمرار على ذلك يا روميل ، هاجم هذا الوكر الملعون بكل ما لديك من القوات الأرضية . ودعك من هذه التكتيكات غالية الثمن فى الهجوم » .

وأرسل روميل فى طلب المدفعية المضادة للطائرات . وهى القوة الضاربة فى جيش البانزر . ووصل العقيد وولتز قائد الآلاى ١٣٥ المضاد للطائرات المحنك ومعه وحدات وبطاريات متعددة من آلايات أخرى وهذه الآلايات خلدت أسماؤها إلى الأبد فى تاريخ الحملة الأفريقية .

ووردت أسماؤها كثيرا فى تقارير المعركة . وقد دعمت الوحدة الأولى من الآلاى ٤٣ والوحدة الثانية من الآلاى ٢٥ والوحدة الأولى من الآلاى ١٨ والوحدة الأولى من الآلاى السادس بالوحدة الثالثة استطلاع والوحدة الثالثة والثلاثين المدرعة ، وبطاريات مدفعية من الفرقة التسعين الخفيفة والفرقة الإيطالية تريستا وكونت هذه الوحدات مجموعة مولتز التى قادت الهجوم .

إلا أن الخدعة التى استخدمت بنجاح مع اللواء ١٥٠ فى موقع غوط الأوالب لم تنجح هنا . فعندما طهر المهندسون الألمان ثغرة خلال حقل الألغام فى الليل . كان الفرنسيون يقومون بغلقها ثانية بالألغام فى الصباح التالى . واستطاعوا التسلل بالتموين والذخيرة إلى مواقعهم خلال المنطقة الواسعة التى تكثر بها الثغرات وتعرض المهاجمون لغلالة من النيران لم يسبق لها مثيل قبل ذلك فى أفريقيا .

وامتقع وجه روميل ، **وأمر بإطلاق الإشارات الضوئية والمشاعل طوال الليل حتى تظل مواقع العدو تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة باستمرار مع العمل على إرهاق قوى ومعنويات الفرنسيين** ، إلا أنه عندما هاجم الجنود الألمان فى صباح اليوم التالى تعرضوا لنيران المدفعية بقوة ولم يظهر عليهم الضعف . ثم وافق روميل بعد تردد على رأى العقيد وولتز بأن قوات الهجوم كانت ضعيفة جدا . وقد لحقت بمجموعة القتال كهل خسائر فادحة وكذلك المدفعية المضادة للطائرات ، وقد بدأت العملية كغارة بسيطة وأخذت تتحول تدريجيا إلى هجوم على نطاق واسع .

ولحسن حظ روميل أن ريتشى سمح لقوات بير حكيم بالاستمرار فى قتالها وبدون تدخل منه ، فبدلا من قيامه بحشد جميع قواته للقيام بهجوم تحويلى على الجبهة الواسعة ضد الجناح الشمالى لروميل حيث تقف القوات الرئيسية للفيلق الأفريقى فقد شن هجوما ضعيفا على فرقة آريتى المدرعة الإيطالية فى موقع غوط الأوالب وقد انتهزت قيادة الفيلق الأفريقى بالطبع هذه الفرصة النادرة ، وبما أنهم لم يستطيعوا الاتصال بروميل كالعادة ، فقاموا بمهاجمة اللواءات المدرعة البريطانية المبعثرة . وهاجمت الفرقة ١٥ بانزر من الجنوب تحت قيادة العقيد كريسمان ،

قائدها بالنيابة لإصابة قائدها الجنرال فيرست أثناء الهجوم ، وشق الآلاى الثانى المدرع من قوات الفرقة طريقه رأسًا عبر حقل الألغام والأسلاك الشائكة إلى موقع بير التمار ، أما الفرقة ٢١ بانزر فقد هاجمت من الشرق وكان البريطانيون يعتقدون أنهم مشتبكون مع مدرعات فرقة آريتى المدرعة الإيطالية ، وفجأة وجدوا أنفسهم متورطين فى معركة دبابات من الفيلق الأفريقى .

٢ - عصا ملوك بروسيا :

و عندما تنتهى المعركة فإن كل شىء يبدو سهلا . ولا يخرج الموضوع عن حساب الخسائر فيعرف المنتصر من المهزوم ، ثم يعاد تصحيح الأخطاء . ولكن الأمر فى الحقيقة يختلف فى معارك الدبابات المائعة ، فمن النادر أن يستطيع كلا الجانبين رؤية الموقف بوضوح ، سواء الجندى فى الدبابة أو قائد الآلاى أو ضابط الأركان أو حتى قائد الجيش ، فكل شىء مائع وفى حركة دائمة والتقارير التى ترسل للقيادة فى الخلف تكون عادة تحمل أخبارا قديمة لأن الأوان يكون قد فات .

وعندما تصدر الأوامر من الخلف إلى الأمام تصل عادة متأخرة لأن الموقف فى ذلك الوقت يكون قد تغير . وهؤلاء القادة البريطانيون الذين يديرون الحرب على الطراز القديم من الخلف بعيداً عن الخطوط الأمامية يسهل التغلب عليهم .أما روميل وقادته فكانوا يقودون المعركة من دبابات القيادة أو من عربات مدرعة فى الأمام ، ورغم هذا فكانوا يشاهدون فقط قطاعاً صغيراً من المعركة الرئيسية ونتيجة لذلك فإن المسئولية تقع على عاتق كل القادة من جميع الرتب حتى مستوى قائد الدبابة الذى كان عليه أن يتخذ القرارات وهو فى دبابته أو عربته المدرعة بمفرده وليس معه سوى طاقم دبابته وشجاعتهم وخوفهم . وبالطبع كانوا يعرفون أن روميل موجود فى ساحة المعركة ، فقد كان من عادة روميل أن يصطحب ياوره فى عربته المدرعة أو عربة الاستطلاع ويتقدم للأمام ليشترك فى الهجوم . وحدث مراراً أن بعض قادة الدبابات المترددين وقفوا بدباباتهم لاعتقادهم بعدم قدرتهم على مواصلة التقدم ، وسرعان ما يسمعون طرقا على برج الدبابة ، وعندما يفتحون البرج يرى الملازم «فريهر فون سكيلبنباخ» ياور روميل وفى يده عامود من الحديد يستخدمه للطرق على الدبابة . وكانت هذه الأعمدة الحديدية تحمل دائمًا فى عربة روميل وهى الأداة الحديثة التى حلت محل عصا ملوك بروسيا . وكان روميل يقف فى عربته وما يكاد قائد الدبابة يظهر رأسه من برج الدبابة حتى يصيح فيه روميل: « واصل التقدم إن المعركة لا تكسب بالوقوف ساكنا ». وفى إحدى المرات

كادت هذه الدعوى إلى القتال تنتهي بمأساة . فلقد قال لى ياور روميل ما يلى :

« فى ذات مرة اقتربنا من مؤخرة إحدى الدبابات وقفزت من العربة ومعى العمود الحديدى ، وفى هذه اللحظة تعرضت الدبابة لنيران العدو ، فاضطر السائق للتراجع للخلف فصدم عربتنا بدبابته وتمكن روميل من القفز من العربة فى آخر لحظة » .

وقد أثر هجوم الفيلق الأفريقى على البريطانيين وشدد عليهم الخناق لأنهم لم يصدقوا أن فى إمكان روميل الذى خرج لتوه من المصاعب فى موقع غوط الأوالب أن يستعيد المبادرة مرة أخرى فوق أرض المعركة .

واستطاعت الفرقة ١٥ المدرعة هزيمة الفرقة الخامسة الهندية . وفى نفس الوقت تم القضاء على اللواء العاشر ، فقد حاصرته من الشمال سرية من الآلاى الخامس المدرعة تحت قيادة الملازم ريبولد واشترك الجنرال نهرنج فى الهجوم وكان يركب عربته المدرعة ، وتم إغلاق الثغرة فى حلقة الحصار بواسطة المدافع المضادة للدبابات عيار ٥٠ مم الذى كان يصحبه وقام بإطلاق النيران على الدبابات البريطانية وهى تحاول الخروج من حلقة الحصار . ورأى العريف باير البالغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً وسط حمى المعركة جنديا بريطانيا يسير أمامه على مرمى مدفعه الرشاش ، وكان يبدو عليه أنه جندى شارد فسأله باير : « من أى وحدة أنت ؟ » فهز الجندى رأسه ولم يجب وكان هذا من حقه لأنه ليس مرغماً على الإفشاء بمعلومات عسكرية سرية . فسأله: «وما هى رتبتك؟» وكان مضطراً أن يجيب على هذا السؤال فقال: « جنرال قائد اللواء الهندى » وبدا على العريف عدم التصديق ، ولكى يثبت الأسير قوله أخرج علامات رتبة الجنرال من جيب بنطلونه. وكان الجنرال الأسير هو البريجادير جنرال ديزموند يونج قائد اللواء الهندى العاشر ، وبعد الحرب أصبح من أكبر الكتاب الذين كتبوا عن حياة روميل .

وكان مصير الألوية الثانى والرابع والثانى والعشرين من الألوية البريطانية المدرعة نفس مصير الفرقة الخامسة الهندية وفقد البريطانيون مائة وسبعين دبابة وسقط تقريبًا كل رجال اللواء الحرس ٢٠١ أسرى . **وهكذا حطم روميل الجيش الثامن جزءا فجزءا لأنهم أصروا على القتال بهذه الطريقة المبعثرة .**

ولكن بالرغم من كل هذا ظل الجيش الثامن جيشًا قويا ، وأكثر عددا من جيش روميل نفسه . فكانت – ولا تزال – هناك قوات متماسكة وبكامل قوتها تحتل

القطاع الشمالى من موقع الغزالة بجوار طبرق وفى جسر الفرسان وفى العضم ولو كانت هناك قيادة حازمة فى الجيش الثامن وقررت الهجوم لأصبح الموقف خطيراً بالنسبة لروميل كما كان الحال بالنسبة له قبل أيام فى غوط الأوالب ، لأن مؤخرته لا تزال غير بعيدة عن الخطر لأنه لم يتم بعد الاستيلاء على بير حكيم .

« بير حكيم اللعينة » هكذا كان ينعتها روميل خلال تلك الأيام حيث أخذت مجموعة القتال تهاجمها من الجنوب والشرق طوال الأسبوع بالكامل وهاجمتها الطائرات بأكثر من ألف طلعة وألقت قنابلها على المواقع ولكن بدون جدوى ، لذلك قرر روميل أن يهاجمها بطريق آخر ، فأمر الكتائب ٣٣ ، ٢٠٠ ، ٩٠٠ مهندسين بالهجوم عليها من الشمال لاختراق حقول الألغام الممتدة بين غوط الأوالب وبير حكيم .

وفى صباح ٨ يونية ١٩٤٢ ، كان المهندسون على بعد خمسة أميال من شمال بير حكيم وظهر روميل وأمر قائد مهندسى الجيش العقيد هيكر بتجهيز جزء من جنوده للاشتراك مع كتيبتين إيطاليتين من مجموعة القتال للاستيلاء على بير حكيم من اتجاه الشمال ، وقال هيكر: « ليس لدى قوة كافية للقيام بهذا العمل يا سيدى الجنرال » .

ولذلك قرر روميل استخدام قوات أخرى أقوى ، ووعد هيكر بجزء من وحدة الفدائيين الخاصة ٢٢٨ . وكانت هذه الوحدة المختارة يقودها العقيد منتون ، وقد أعدت فى الأصل للخدمة فى مارس ١٩٤٢ فى العراق إلا أنها نقلت إلى أفريقيا . كما تقرر أن تشترك سرية الألب والسرية المدرعة جيجر وقول الاستطلاع فى المعركة . كما أعطى هيكر وحدات من مجموعة القتال كهل ومعها إحدى عشرة دبابة وعربة استطلاع وبطارية مدفعية عيار ٨٨ مم ، وأخيراً سرية مدفعية ، وبطارية ثقيلة . وكان على جنود المدفعية المضادة للطائرات التابعين للعقيد وولتز حماية الجنب . وكانت هذه القوة كبيرة لذلك قسم هيكر قواته إلى وحدتين مقاتلتين ، وهاجمت كلا الوحدتين من الشمال ولكن فى حركة كماشة وكان الجناح الأيسر تحت قيادة النقيب هندت من كتيبة المهندسين رقم ٢٠٠ .

إلا أن المعركة لم تبدأ بداية حسنة ، فبينما كانت القوات تأخذ مراكزها ازداد عنف غلالة النيران المنطلقة من بير حكيم . ثم هاجمت القاذفات المقاتلة ، وتعرض المهندسون – الذين كانوا يطهرون حقول الألغام تمهيداً للهجوم– لنيران شديدة . فى الساعة الخامسة تماماً أعطى هيكر أوامره بالهجوم .

وتقدم العقيد راكبا عربته المدرعة أمام الكتيبة الإيطالية ووقف ممسكا ببرج العربة المدرعة بيد واحدة ويلوح بالأخرى للإيطاليين صائحًا: « تقدموا ، تقدموا » وسار الهجوم فى طريقه إلا أن نيران العدو وألغامه أوجدت ثغرات أكثر وأكثر بين صفوف المهاجمين . فمن بين قادة السرايا الست الإيطاليين سقط ثلاثة منهم فى أول المعركة . وكانت الأرض خالية من كل شيء يمكن الاستتار به لذلك أصبحت مصيدة للموت . وتمكنت المدافع المضادة للدبابات التى أحسن إخفاؤها أن تدمر ست دبابات من بين الإحدى عشرة دبابة التابعة لمجموعة قتال كهل ، بينما تعطلت أربع دبابات أخرى داخل حقول الألغام .

ووقف الرقيب كارل إريك بجوار مدفعه عيار ٨٨مم وهو يطلق نيرانه المباشرة على مواقع المدافع الرشاشة ومدافع الهاون التى أمكنه تمييزها ، وأمر النقيب هاندت بإطلاق قنابل الدخان على الخنادق .

وسقط معمر المدفع العريف جيرهارد شميدت إلى جوار المدفع فقد أصيب بنيران مدفع رشاش للعدو فقفز رجل آخر وحل محله فوراً .

٣ - **بداية نهاية المأساة :**

وحاول اللواء الرابع البريطانى – وهو يمثل القوة الضاربة البريطانية – القيام بهجوم من الشرق لتحويل الأنظار للجناح الأيسر لهيكر ، ولكن العقيد وولتز صدهم بمدفعين عيار ٢٠ مم مضادين للطائرات ومدافع أخرى ثقيلة ، ولكنه تحمل خسائر فادحة إلا أن المدرعات البريطانية ردت على أعقابها . وعند حلول المساء تمكنت مجموعة القتال من شق طريقها إلى مسافة خمسمائة ياردة من الدفاعات الخارجية لبير حكيم . وشنت قوات الألب هجومها بمجرد أن حل الليل وأمكنها – بالاشتراك مع المهندسين – الاستيلاء على مواقع المدافع الرشاشة الأمامية . وقفز النقيب تمسر قائد سرية الألب التابعة لوحدة الفدائيين الخاصة ٢٢٨ فى خندق مملوء بالرجال وكانت مدافعهم الرشاشة فى أيديهم . وصاح: « ارفعوا أيديكم » فاستسلموا وأخذوا أسرى إلى الخلف ، وكانوا متعبين وأعينهم زائغة فقد حاربوا حتى النهاية وتساءلوا : هل سيعفو عنهم الألمان أم سيقتلونهم ، إلا أن الألمان منحوهم الحياة .

وخيم الليل على أرض المعركة وسادت فترة هدوء وحمل الجرحى إلى خلف خط القتال . وفى صبيحة اليوم التالى وهو التاسع من يونية كان على طائرات ستوكا أن تشن هجوما مركزا على بير حكيم قبل أن يقوم الجنود بهجومهم النهائى .

وقاد هيكر عربته لمسافة طويلة داخل حقول الألغام ليرى تأثير هجوم القاذفات وطلع عليه الفجر فجأة كما هو المعهود فى أفريقيا ، ونظر هيكر فى ساعته ولم ير أثر لطائرات ستوكا فى السماء ، ولم تسقط أى قنبلة من قنابل الدمار على قلعة بير حكيم كما كان متوقعاً . وأصبح الموقف خطرا بالنسبة لهيكر، فقد تبين أنه حدث خطأ أثناء إصدار الأوامر باللاسلكى ولذلك لم تقم الطائرات بغاراتها المتوقعة ولاحظ الفرنسيون بسرعة عربة الاستطلاع التى يركبها هيكر وفتحت المدافع الرشاشة والمدافع المضادة للدبابات والمدفعية نيرانها عليه ، وتراجع السائق بمنتهى السرعة ولكن العربة مرت فوق لغم وهنا حدث أسوأ ما يمكن أن يحدث ، لقد انفجر اللغم وقذف الانفجار بهيكر إلى سقف العربة المدرعة وأصيب بجرح عميق فى رأسه . وتمكن هيكر ومترجمه النقيب كليمك (الذى كسرت قدمه هو الآخر) والسائق وقائد البطارية الثقيلة من الوصول إلى إحدى الدبابات المعطلة واتخذوها مركزا للقيادة .

وعندما قدم هيكر تقريره عن يوم ٩ يونية قال روميل بغضب: « إن هذا الموقع الملعون فى بير حكيم قد أخذ نصيبا كافيا من الضحايا . وسوف أتركه وأهاجم طبرق » .

وطبقا لما رواه الجنرال بايرلاين فقد أجاب هيكر بقوله: « أعطنى كتيبة من المشاة الألمانية يا سيدى الجنرال لنواصل الهجوم ، فقد تمكنا حتى الآن من الاستيلاء على عدة نقاط قوية وأنا مقتنع بأنه فى إمكاننا أن ننهى المعركة منتصرين » .

وعقد روميل مجلس حرب مع بايرلاين ثم عاد وقال لهيكر: « إنك على صواب وسوف أعطيك المقدم «باد» ومعه على الأقل كتيبة كاملة » .

وكان «باد» قائد الآلاى ١١٥ المدرع من قاذفى القنابل ، وتحت إمرته كتيبتان مدعمتان بالأسلحة الثقيلة ورئاسة آلاى بكامل معداته التكتيكية والفنية اللازمة .

وقبل أن تصل مجموعة«باد» قامت الطائرات ستوكا أخيراً بإلقاء قنابلها على الحصن وأطلقت المدفعية الألمانية كل مدافعها .

وفى مساء ٩ يونية كانت كل من الكتيبتين فى مواقعهما وقامتا بالهجوم فورا إلا أن العدو فى بير حكيم كان صعب المراس تماما . ففى وسط وابل النيران

المركزة من الألمان صدر أمر يومى من الجنرال كونتج ووزع على الدشم البالغ عددها ألفًا ومائتى دشمة . وجاء فيه: « فى هذا الموقع المتقدم من الصحراء علينا أن نثبت للعالم كيف يستطيع الفرنسيون أن يقاتلوا ويموتوا » .

وفى مساء ١٠ يونية تمكنت كتائب« باد » ومهندسو هيكر وجنود الألب التابعون له من شق طريقهم بعمق خلال استحكامات الدفاع والوصول إلى أنقاض الحصن الصحراوى القديم .

وأرسل الجنرال كونتج إلى الجنرال ريتشى رسالة يقول فيها: « لقد بذلت أقصى جهدى . العدو على أبواب مركز رئاستى » . ولم يستطع ريتشى أن يرد إلا بقوله: « حاول أن تشق طريقك إلى الخارج » .

وبدأت نهاية المأساة.

ففى السادس من يونية قام النقيب بريل ومعه مجموعة القتال التابعة له بعزل بير حكيم من ناحية الجنوب . وكانت المجموعة تتكون من كتيبة قاذفى القنابل المدرعة المسماة بكايزر ووحدات من الكتيبة المضادة للطائرات ٦٠٦ وكتيبة المدرعات رقم ٦٠٥ التى يقودها النقيب شولتز وكانت هذه القوات تمثل قوات الاقتحام لمجموعة قتال بريل . وقد فشلت المجموعة فى الاستيلاء على القلعة بهجوم بالمواجهة فى ٧ يونية ، لأن حقول الألغام والدفاعات الحصينة والمدفعية كانت أقوى من قوة بريل ، ولذا فقد وقفت هذه المجموعة أمام موقع بير حكيم لمنع أى تسلل من الموقع أو محاولة الدخول إليه .

وفى مساء ١٠ يونية أحضرت إحدى الدوريات أسيرا كان يتجول داخل حقول الألغام البريطانية ، وبسؤاله أدلى بمعلومات مهمة ومثيرة ، فطبقا لما رواه الأسير فقد تلقى الجنود المحاصرون أوامر بالتسلل خلال ثغرة وسط حقول الألغام بعد تطهيرها للانضمام بعد ذلك للبريطانيين . وبناء على ذلك أرسلت عربات الاستطلاع والعربات المدرعة فى صباح اليوم الثالث من الجنوب لكى تنضم إلى القوات الألمانية .

وفى نفس الوقت قام جنود المراسلات من مجموعة القتال بالزحف فوق الأرض ووزعت الأوامر فى همس إلى مجموعة القتال بريل وكايزر من موقع إلى آخر . ووجهت المدافع والرشاشات على الثغرة التى سيحدث منها التسلل ، ووضعت الطلقات الكاشفة فى خزائن المدافع . وقام رجال الإشارة بمد خطوط التليفون إلى

خط القتال . ووضع الحراس ومعهم مسدسات الإشارة على طول الجبهة ، واستعدت مجموعة القتال كلها للقتال ، وأعطى بريل الأوامر المشددة بألا يطلق أحد النيران قبل أن يعطى إشارة البدء من مسدس إشارته وبعدها تستطيع كل المدافع الرشاشة إطلاق النيران ، أى أن النيران لن تطلق إلا عند مشاهدة الإشارة الحمراء يتبعها الإشارة الخضراء وقد ظهرت فى السماء .

وكان بريل قد أعد مفاجأة خاصة ، فقد نظمت الكتيبة ٦٠٦ المضادة للطائرات من قيادة الجيش هذه المفاجأة المسماة « بالسلاح السريع » فقد جمعوا كل ستة مدافع معا فى هيئة مدفع واحد ووضعوها فى أحد الوديان البعيدة . وفى منتصف الليل سمعت نقطة الحراسة المتقدمة صوت محركات العربات وهى تدار فى بير حكيم ثم صوت جنازير الدبابات ، ثم صوت قطع الأسلاك الشائكة فى حقول الألغام ، وقال بريل فى همس لمراسلاته: « انتظروا .. انتظروا » وما كاد العدو يطلق قنابل الدخان ليستر انسحابه حتى قال بريل للعريف بلاتز : « هيا للعمل » وسرعان ما أضيئت السماء بالطلقات الخضراء تتبعها الحمراء وفى نفس الوقت فتحت جهنم أبوابها ، فانطلق وابل من الجحيم والنيران والانفجارات تحمل الموت فى ثناياها . ولم تنفع ستارة الدخان رجال الجنرال كونتج . واصطدمت الطلقات الكاشفة وهى تزأر بعربات العدو ، ولأول مرة سمع الألمان صوت المدفع الرشاش الجديد ٤٢ الذى يطلق خمساً وعشرين طلقة فى الثانية .

٤ - القادة الإنجليز فى طفولتهم بالنسبة لفن الحرب :

وفى أماكن أخرى من ميدان المعركة الواسع ، حدث صدام يدا بيد بين المحاربين والفارين من رجال الجنرال كونتج، وقاتل الرجال بعضهم بعضا بالمجارف والمسدسات والسونكيات والقنابل اليدوية ، ولم ينجح فى اختراق خطوط الألمان سوى نصف الجنود ومعهم قائدهم ووصلوا إلى موقع اللواء السابع البريطانى. وفى فجر يوم ١١ يونية استسلم ما تبقى من حامية بير حكيم . وعندما احتلت مجموعة القتال بير حكيم وجدوا خمسمائة جريح وقوة صغيرة كحرس مؤخرة، وبسقوط بير حكيم حجر الزاوية فى خط الغزالة أصبح الجنرال ريتشى غير قادر على الدفاع عن خط الغزالة ، وبذلك أصبح روميل فى مركز يمكنه من احتلال طبرق .

وكانت القيادة البريطانية فى حالة يأس من سقوط بير حكيم . فهل أصبح

هذا الألمانى غير ممكن القضاء عليه أو هزيمته ؟ ألا توجد طريقة تستخدم ضد روميل هذا ؟ كان هذا هو السؤال الذى يدور بين ضباط القيادة البريطانية وقد كانوا مندهشين من هذه الظاهرة الغريبة ! هذا الرجل الذى يقاتل مخالفا لكل قواعد الحرب التقليدية ومع ذلك ينتصر دائمًا ، فمثلا تنص أصول الحرب أن يكون المهاجم أقوى من المدافع وغالبًا ما يكون روميل يهاجم بقوات أقل وكان يقول : **«لماذا أشغل نفسى بأعداد الدبابات البريطانية بينما قادتهم ما زالوا فى طفولتهم بالنسبة لفن الحرب إنهم يستخدمونها مبعثرة، وأمام هذا التوزيع فأنا دائما الأقوى».**

وقد قال روميل مرة لأحد القادة البريطانيين وكان أسيراً : « لقد رفض البريطانيون فى البداية أن يتعلموا ذلك ، فهذه الدولة من مغامرى البحار لم يكن فى استطاعتها أن تغامر بكل شىء فى أفريقيا ، فكانوا يقولون بأن الوقت لم يحن بعد» ونتيجة لذلك فكان روميل يقرر ويختار مكان المعركة وطريقة إدارتها .

وفى نفس اللحظة التى سقطت فيها بير حكيم دفع بقواته فى اتجاه الشمال حيث معركة المدرعات الكبرى التى يجب أن يخوض غمارها . وهذا هو روميل نفسه الذى كان من أسبوع على شفا هزيمة مروعة . والآن أصبح يمتلك العناصر الكفيلة بأن تجعله يحرز النصر مرة أخرى .

ومرة أخرى استعد الجنود لمتابعة التقدم . وشقت كبد السماء إشارتان كبيرتان ضوئيتان . وكانت هذه الإشارة للفرقة ٢١ المدرعة لكى تتخذ مراكزها ولإرشاد الوحدات أو الأفراد المتخلفين الذين ضلوا طريقهم إلى مواقعهم عن طريق هذه الإشارات الضوئية أو بواسطة اللاسلكى ، وكان عليهم أن ينظروا إلى البوصلة ويحددوا مكان الإشارة الضوئية ثم يعرفوا طريقهم .

وكان الملازم شلوز من الآلاى ١٠٤ المدرع قد ضل الطريق فى الصحراء ومعه عربته بين بير حكيم وجسر الفرسان أثناء قيامه بإحدى الدوريات .

وفى المقعد الخلفى للعربة جلس العريف مولر ومعه مدفعه الرشاش على ركبته استعدادا للمفاجأة التى تحدث عادة فى الصحراء أثناء الليل . وكان السائق مشغولا بالقيادة وتتبع الطريق . وكانت عينا الملازم معلقة بالبوصلة التى حملها بيد ثابتة وأخذ يحدد موقعه ، درجتان لليسار ثم انحراف بسيط إلى اليمين . والآن كان على السائق أن يتخذ طريقه مستعينا بالنجم الأوسط فى مجموعة الدب الأكبر وفجأة صاح أحدهم: « انظروا هناك ، يوجد شىء معتم فى ذلك المكان » وسمعوا

صوت باب العربة يفتح ورجل ينادى: « هل أنتم بريطانيون؟ » ورفع موللر ببطء مدفعه الرشاش إلا أن الرجل المنادى شك فى الأمر وعاد إلى عربته فقادها واختفى، وبعد ذلك سمعوا صوت حمالات البرن وهى تسرع السير على يمينهم .

ولكن ما هذا الصوت ؟ إنه صوت جرذان الصحراء . نعم كان يحدث هناك أشياء من هذا القبيل كما كان هناك كثير من ثعالب الصحراء . ففى فصل الإخصاب تقوم جرذان الصحراء بضرب الأرض بذيولها لكى تسترعى انتباه الإناث.

وكانت الساعة ٢٫٤٥ صباحاً وما زالت دورية الملازم شلوز لم تتصل بعد بباقى القوات . وكان عليهم الآن أن يتبعوا النجم الأيسر لمجموعة الدب الأكبر ثم اتجهوا ناحية اليمين وسمعوا من ينادى « قف – من أنت ؟ » .

وسمعوا صوتاً ألمانيا فأجابوه بكلمة السر، وصاح الحارس « إذاً لقد وصلتم أخيراً » .

وكان وقع الكلمات على أنفسهم برداً وسلاماً . والآن وقد انضموا إلى الآلاى فواصلوا التقدم اتجاه الشمال نحو الشاطئ .

٥ - غجر الصحراء :

ظل الملازم فيرمان من السرية الثانية التابعة للآلاى الأفريقى ٢٦١ يعمل بدون الرقيب المدعى بروكمان وكان بروكمان له شهرة بين زملائه الألمان الذين كانوا يخدمون فى الفرقة الأجنبية لعبقريته التنظيمية . وفى أحد الأيام خلال شهر نوفمبر ١٩٤١ لم يعد الرقيب من إحدى الغارات . ودون اسمه ضمن المفقودين ، وهذه الكلمة « مفقود » كانت تعنى أشياء كثيرة ، ومعنى الكلمة الحقيقى قد يتمثل فى مصير الرقيب بروكمان ، ففى يوم ١٢يونية ١٩٤٢ كانت الفرقة ٩٠ الخفيفة مشتبكة فى القتال فى منطقة العضم مع اللواء ٢٩ الهندى الذى تحصن فى صندوقه الدفاعى ، وفى نفس الوقت كانت وحدات من الفرقة ٢١ المدرعة تشق طريقها قتالا متجهة إلى الشرق . وكانت معركة حاسمة وذلك لأن آخر حصون ريتشى الدفاعية حول طبرق كانت على وشك السقوط .

وفى درنة بعيداً إلى الخلف عن خط القتال ، كان يوجد جنوبها مطار درنة وكان يجلس فى مطار ميس ضباط طائرات الستوكا وطائرات القتال التابعون لقيادة

الجنرال سيدفان وكانوا يحتفلون بعيد ميلاد أحد زملائهم وهو الملازم فون رانتزو ، وجلسوا يتناقشون فى الدين والخلق والخليقة ، وهذا بالرغم من تلقيهم تحذيراً مستديما ليكونوا على حذر من التخريب الذى تقوم به مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، وقد أرغمت هيئة المطار عدة مرات على أن تأخذ هذا التحذير مأخذ الجد لتعرض طائراتهم قبل ذلك للتدمير وقتل الجنود أثناء نومهم . وبالرغم من عدم اهتمامهم جديا بهذا التحذير إلا أنهم كانوا محتفظين بأسلحتهم دائمًا فى متناول أيديهم .

وفى الخارج كان الظلام حالكا . وفى ذلك المساء قاد النقيب جميس براى من مجموعة الصحراء بعيدة المدى عربتين محملتين بالرجال عبر الصحراء . وكانت هذه المجموعة خليطاً غريباً من البريطانيين والفرنسيين والألمان ثم توقفوا وانقسموا إلى قسمين وأعيدت عليهم الأوامر فى صوت هامس : « عليكم تدمير الطائرات بالقنابل اليدوية ومهاجمة الملاجئ مع قطع أسلاك التليفون ويجب العودة بأسيرين على الأقل » وتقدموا فى طريقهم وكان الملازم الفرنسى الذى يقود إحدى المجموعتين مضطرباً فظل يواصل النظر إلى بوصلته ويقول للسائق : يجب أن تقود بحرص وحذر . وتمتم قائلا « لا بد أننا نقترب من الهدف » ، وفجأة توقف السائق. وسأله الضابط : « ما الأمر » فقال له « دعنى ألقى نظرة حولنا يا سيدى الملازم . فأنا أعرف المنطقة » فوافق الملازم وهو متذمر وقال له : « حسنا ، ولكن عليك أن تسرع ».

وابتلع الظلام الرجل . وانتظر الباقون فى العربة ومرت خمس دقائق وهم ينتظرون ، وأخذ الملازم الفرنسى التابع لقوات التخريب البريطانية يلعن السائق لتأخره ، وفى ذلك الوقت فتح باب غرفة قيادة المطار ، ووقف على بابه جندى تعلوه الأقذار وكان يرتدى ملابس غريبة وهو يلهث ويقول : « إن البريطانيين بالخارج ، جماعة من الفدائيين عددها عشرة أفراد ، لقد قدتهم إلى هنا ، لقد قرروا نسف المطار وعليكم بالعمل » وفى لمح البصر قفز الضباط والجنود التابعون لقيادة المطار على أقدامهم ولم يوجهوا له أية أسئلة ، ولم يترددوا ، بل حملوا القنابل اليدوية والمدافع الرشاشة وخرجوا ومعهم الجندى الغريب .

وصاح الملازم الفرنسى: « اللعنة أين ذهب هذا الرجل ؟ . آمل ألا يكون فى الأمر خدعة » ورد عليه أحد زملائه : « أنا لم أثق أبداً بذلك الألمانى » إلا أن الرقيب ميشيل رد : « كلام فارغ ، إن الألمانى لا غبار عليه فلقد وضع فى أحد

معسكرات الاعتقال الألمانية لأنه خدم معنا فى الفرقة الأجنبية ، ولعدم ثقتهم فيه ألحقوه بهذا الآلاى الملعون رقم ٣٦١ وهو ليس بالآلاى الميكانيكي وعلى جنوده أن يقاتلوا بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية ، واعترض رجل آخر قائلا : « ولكن» إلا أنه لم ينه جملته حتى شاهدوا فى هذه اللحظة أشباحاً متجهة نحوهم ، وسمعوا أمرا يلقى بالألمانية . وسارعوا بالإمساك بأسلحتهم إلا أنهم كانوا متأخرين ، فأخذت القنابل اليدوية تنفجر وأخذت صفائح البترول تطير مشتعلة فى السماء وانفجرت الذخيرة وتعالى الصياح وسمع أنين الجرحى وتمكن عدد قليل من القفز من العربة إلا أن مدفعًا رشاشا حصدهم ولم يتمكن من الهرب سوى رجل واحد وكان هو الملازم الفرنسى ، وطارده الألمان إلا أن الصحراء ابتلعته .

وتمكن الملازم بعد أن ظل يتخبط عدة أيام فى مجاهل الصحراء أن يشق طريقه إلى إحدى الوحدات البريطانية وبذا أمكنه أن يقص ما حدث .

ونجا ثلاثة من جماعة الفدائيين بعد شفائهم من الجروح التى أصيبوا بها وأخذوا أسرى ، وبالطبع كان هناك السائق الذى أفسد عليهم خطتهم وجاء بهم إلى المطار ، واسمه الرقيب بروكمان فقد أسره البريطانيون فى نوفمبر ١٩٤١ وبذل كل ما فى وسعه ليتجنب الأسر ثانية . وقد مكنته خدمته السابقة فى الفرقة الأجنبية من أن يكون محل ثقة الإنجليز ونجح فى إثارة اهتمام مجموعة الصحراء بعيدة المدى حتى استطاع أخيراً التطوع للخدمة بها .

وقد روى لى شخصيا هذا الحادث قائد الآلاى ٣٦١ وكان ذلك مدونا فى السجلات البريطانية كالآتى: « لا يمكن للمرء حتى يومنا هذا أن يقطع بالدوافع التى أدت إلى وقوع مثل هذا الحادث ، إلا أن هناك شيئاً واحداً واضحاً وهذا الشيء ترجع نتيجته للموقف المشكوك فيه الذى كان ينظر به فى الرايخ الثالث إلى الجنود الذين خدموا فى الفرقة الأجنبية فبالرغم من أن وطنهم قد تبناهم ثانية إلا أن سابق خدمتهم فى جيش أجنبى كانت شبهة تلاحقهم ولم تستطع الأوامر أو الترقيات من إزالة هذه الوصمة » .

وهكذا كان موقف هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم « غجر الصحراء » كما تعود رجال الآلاى ٣٦١ أن يسموا أنفسهم . وربما كانوا أقل تسليحاً من وحدات أخرى . ومن عادتهم أن يسيروا فى الصحراء على الأقدام بينما يركب باقى الرجال العربات. ورغم هذا فقد كانوا جنوداً ممتازين ولم تتفوق عليهم أى وحدة أخرى فى روح الجندية (١) . وبالرغم من كل الأقاويل والقصص فيجب القول بأن الرجال

---

(١) حبهم وصداقتهم لبعضهم البعض . (المعلق)

الذين سبق لهم الخدمة فى الفرقة الأجنبية كانوا على علاقات طيبة مع ضباطهم الذين أحسن اختيارهم . وكان على الضابط الذى لا يستطيع معاملة مثل هؤلاء الرجال أن يطلب نقله إلى وحدة أخرى سريعاً من باب التضحية .

وقد اشترك الآلاى ٣٦١ فى كل المعارك العنيفة فى حرب أفريقيا وحينما كانوا يهاجمون فإن الأمور تأخذ فى « الغليان » كما كانوا يقولون . فهم يكرهون العواطف ولا يستخدمون كلمات « الوطنية » و«الجنسية » ولا يحاربون من أجل مثل أعلى ، فهم بكل بساطة ووضوح جنود مأجورون . وعندما يعود أحدهم محملا بالغنائم فإنه عادة يحضر معه شيئا « للعصابة » ولن نجد فى أية وحدة من الوحدات طاهيا يعتنى بالجنود مثل «أريخ لوينتخب» طاهى السرية الثانية من الآلاى ٣٦١ .

وكان هذا الشعور الإنسانى يجعلهم مرتبطين ببعضهم . فالسرية هى وطنهم والصحراء أمهم .

٦ - **الجيش المكون من أبطال :**

ودفع الرائد هاردى قدح الشاى جانبًا عندما أحضر الرقيب كوبر دفتر الإشارات إلى الحجرة وقال له : « رسالة من القاهرة يا سيدى » وأومأ الرائد برأسه وقرأها ، وظهر عليه الانفعال ثم نظر إلى تاريخ الرسالة ووقت إرسالها وبهزة من رأسه أخذ الرسالة إلى الغرفة التى بها قائد الجيش الثامن البريطانى .

وكان الجنرال ريتشى يقف أمام نافذة مبنى رئاسة الشئون الإدارية الإيطالية فى بلدة جامبوت وهو يتأمل أنقاض المنازل فى ميدان السوق . هذا الرجل الذى كان هادئاً دائماً ، أخذ يقرع بعصبية على حافة النافذة. بينما وقف أمام الخريطة الكبيرة لموقف العمليات الجنرال نورى قائد الفيلق الثلاثين يحاول تكوين صورة للموقف حتى يعطى رأيه فى الإجراءات الضرورية الواجب اتخاذها . وقد قال الجنرال نورى فى ذلك اليوم رأيه عن موقف قواته المدرعة (وهما الفرقتان الأولى والسابعة المدرعة) وكان الموقف مؤسفا ومحيرا فقد أصبحت الفرق المدرعة ممزقة وبدون خطة موحدة وأصبحت القوات البريطانية المدرعة فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة (بعد سقوط بير حكيم) عاجزة عن إيقاف تقدم قوات روميل المتجهة إلى الشمال نحو الساحل . وأصبح فشلهما واضحاً . وأسر الجنرال «مايسرفى» قائد الفرقة المدرعة السابعة وبقيت الفرقة ليوم كامل بدون قائد . ويمكن توقع

النتائج فى مثل هذه الحالة، وعبثًا حاول الجنرال لمسدين ومعه اللواء ٢٢ المدرع معاونة الفرقة ولكن بدون جدوى . وقد استغرق الاتصال بقائد فيلقه إحدى عشرة ساعة .

ومرة أخرى استغل روميل ارتباك القيادة الإنجليزية ، وبذلك تمكنت مدرعته من هزيمة الألوية البريطانية المبعثرة . وعندما حل عصر يوم ١٢ يونية أصبحت القوات البريطانية المدرعة مجرد أشباح ، وتبعثرت الدبابات فوق رمال الصحراء من طراز جرانت وكروسيدر وستيوارت وكانت محطمة تماماً .

وبالرغم من أن الجنرال نورى لم يحصل بعد على البيانات الكاملة عن مقدار الخسارة الجسيمة التى لحقت بالقوات أثناء شرح الموقف للجنرال ريتشى فى جامبوت إلا أن الصورة كانت مفزعة بما فيه الكفاية .

فقد فشلوا فى إيقاف تقدم روميل نحو الساحل . ولو استطاع الألمان الوصول إلى البحر فإن كلا الفرقتين الموجودتين فى قطاع الغزالة (وهما الفرقة الأولى جنوب أفريقيا والفرقة الخمسون البريطانية) سوف يقطع عليهما خط الرجعة ويعتبران فى حكم المفقودتين . ولم يكن قد تم الانتهاء بعد من تقدير الموقف عندما دخل «هاردى» وهو أحد أركانات حرب الجنرال ريتشى إلى الغرفة ومعه رسالة القاهرة . وقال : « يا سيدى إن القائد العام يبلغكم عن مغادرته للقاهرة وسوف يصل فى ظرف ساعة » وتبادل ريتشى ونورى النظرات ، فهما يعلمان أن هذه الزيارة لن تكون زيارة ودية .

ولم يفقد الجنرال السير كلود أوكنلك زمام نفسه ، إلا أن الغضب والمرارة ظهرا فى نبرات صوته وكانت واضحة فى جمله المقتضبة . فكيف يمكن لعدو تقرر منذ عشرة أيام فقط أنه قد هزم ، وقد أصبح محاصرا وبدون إمداد وتموين وكان من المتوقع أن يقضى عليه بضربة قاضية ؟ كيف يفسر عودة مثل هذا العدو ليصبح على وشك سحق الجيش الثامن؟ فهل روميل هذا متحالف مع الشيطان؟ ألا يوجد قائد فى الخطوط الأمامية ندا لروميل ؟ ووقف الجنرالات وضباط القيادة يستمعون بوجوه جامدة إلى هذا الكلام الذى يشبه الصواريخ التى كان يقذف بها القائد العام . فالضباط الأصاغر أطبقوا شفاههم . ووقفوا صامتين إلا أنهم كانوا يودون (لو أمكنهم الكلام ، ولو قدر لهم أن يتكلموا) أن يقولوا ما يلى :

« طالما أننا نحارب فى الحرب العالمية الثانية بأسلوب الحرب العالمية الأولى

فلن يكتب لنا النصر . ويجب أن يدرك قادتنا أن فجر عهد جديد من فنون الحرب قد ظهر . وأن القوات المدرعة سريعة الحركة تستطيع القضاء على الجبهات الثابتة مهما كانت ، وإننا بهذه الطريقة الجامدة سوف نظل مهزومين دائما مهما تكون قواتنا . وقد تلاحظ أن قادتنا يكتفون بالمناقشات اليومية والروتينية وينتظرون الأوامر من مقر قيادتهم الموجود فى الخلف بعيدا عن ميدان المعركة أما روميل ونهرنج وكليمان وفون بسمارك وجريسمان وزملاؤهم فهم يقومون بقيادة مدرعاتهم ومدفعياتهم ومشاتهم الميكانيكية بأنفسهم . ونتيجة لهذا ففى حالة حدوث أزمة أو موقف مفاجئ فيستطيعون إعطاء الأوامر اللازمة فى الحال ، زد على ذلك ما الذى يفعله القادة البريطانيون الكبار ؟ إنهم هنا فى القيادة يهتمون بالتشاجر ولا توجد قيادة موحدة هنا . ولا توجد ثقة بالنصر أو حرارة على القتال .

ولا يوجد بينهم روح الحماس بل كل ما نجده هو البرود فقط ونجد أيضا الإستراتيجية العتيقة التى تصدر فى القاهرة وتترجم فى جامبوت على شكل أوامر عقيمة ، وهذه الأوامر الصادرة من مقر القيادة فى جامبوت إلى الفيلق ١٣ أو الفيلق ٣٠ ثم منها إلى الفرق ومن الفرق إلى الألوية المدرعة . وهذا يأخذ ساعات وساعات وعندئذ يكون الموقف قد تغير تماماً » . وربما هذا ما كان يريد أن يقوله الضباط الصغار إلى قائدهم الأعلى .

وكان بودهم أيضاً أن يقولوا له إنهم فى حالة يأس من مظاهر الشجاعة التى ليست فى محلها كما حدث لرجال البطارية السادسة مدفعية ميدان التابعة لفرقة جنوب أفريقيا أثناء ستر انسحاب آلاى الحرس الإسكتلندى ، فقد استمروا فى الضرب حتى آخر رجل . وقد قام قائد البطارية الرائد نيومان بتعيين ضابط مع كل مدفع وإعطائه الأوامر بأن يطلق نيرانا مباشرة على دبابات الآلاى الخامس المدرع الألمانى . ولكن ما هى الفائدة التى نتجت عن ذلك ؟ لقد فتحت عليها الدبابات والمدافع الألمانية تجمعات من النيران المركزة ، وقد صمدت البطارية الثانية ولكن قتل نصف جنودها ، بما فى ذلك الضباط، وقد ظل الملازم آشلى ومعه عامل اللاسلكى يعملان على المدفع الأخير حتى قتلا . إنه لا يوجد أى مبرر لمثل هذا العمل إلا لكى يدون فى كتب التاريخ !!!

ولكن قوات روميل لم تقاتل من أجل تدوين قصص البطولة فقد واصلت الفرقتان ١٥ ، ٢١ المدرعتان من قوات الفيلق الأفريقى تحت قيادة الجنرال نهرنج

تقدمهما اتجاه الساحل مع محافظتهما على اتصالهما بمؤخرة الفرقة الأولى جنوب أفريقيا والفرقة ٥٠ البريطانية التى تركهما ريتشى متورطتين فى الصحراء فى منطقة الغزالة .

وقد أثبتت الإستراتيجية القديمة فى هذه المرحلة من معارك شمال أفريقيا فشلها أمام تقدم واندفاع روميل . وتمكن روميل ورجاله من تطوير حرب الدبابات فى الحرب العالمية الثانية فجعلوا منها معركة سريعة متحركة . علاوة على أنهم كانوا يقودون الهجوم فى الخطوط الأمامية ، ، ولم يقوموا بذلك من قبل التظاهر بالبطولة الكاذبة ، ولكن لإلمامهم بتكتيكات المدرعات وسيكولوجية القوات .

وقد قرر روميل ذلك بوضوح فى يوم من الأيام فقال : « إن أغلب الرجال أثناء قتالهم فى معارك الدبابات السريعة يلزمهم فى لحظة معينة بعض الراحة . وطبعا لا يوجد جيش يتكون فقط من أبطال وسوف يظهرون لسبب أو لآخر أنهم لا يستطيعون الاستمرار ، ولكن على القائد بواسطة السلطة المخولة له أن يقاوم هذا الضعف الإنسانى الطبيعى للإعياء ، وعليه أن ينتشل ضباطه ورجاله من موقفهم هذا . ولذا يجب على القائد أن يكون المحرك والمهيمن على المعركة ، ويجب عليه أيضا أن يكون باستمرار فى أرض المعركة وفى الخطوط الأمامية لكى يضع سيطرته موضع التنفيذ .

وقد تمكن الضباط الأصاغر فى الجيش البريطانى من الإلمام بسر قيادة روميل الموفقة ، إلا أن الكثير من قادتهم الكبار لم يكن لديهم هذا الإدراك .

ولكن لا يوجد جيش فى العالم يسمح للضباط الأصاغر الموجودين فى مراكز القيادات بأن يعلنوا عن رأيهم عندما يتكلم القادة الكبار .

ومن ثم فقد ظلوا كذلك صامتين فى جامبوت أمام أوكنلك . واستمعوا إلى ما قاله ريتشى، وكان يبدو أن أوكنلك كان متفقا معه على هذا ، وكأنما أوكنلك هو الذى يتكلم فقال : « إن روميل ليس بالرجل الخارق للعادة ، وقد تكبدت قواته حتى الآن خسائر فادحة . ومن الناحية العددية فإننا مساوون للألمان ولو واصلنا حرب الإبادة فإن روميل سوف يتوقف لالتقاط أنفاسه . ولو تمكن روميل من الوصول إلى الساحل ولو بقوات ضعيفة فإن الواجب يقتضى القيام بصدهم وحملهم على التراجع». وهذه اللمحة المتفائلة سرت أوكنلك . وكل القادة يحبون المتفائلين . وقد تمخض هذا المؤتمر الطويل عن التالى :

« إن المعركة يجب أن تستمر على جبهة (الغزالة – العضم) يضطر العدو إلى التوقف لالتقاط أنفاسه » .

وقبل أن يغادر القائد العام المؤتمر متوجهاً إلى القاهرة أبرق إلى ونستون تشرشل فى لندن يبلغه بأن نوايا العدو لم تتحقق كما كان مرسوما . وأن الروح المعنوية للجنود عالية .

٧ - المربع الصحراوى الضخم : (انظر اللوحة رقم ١٤)

وهكذا كانت البرقية تتفق مع ما يريد أن يسمعه تشرشل . فأرسل الرد التالى: « إننى أهنئك على قرارك لمواصلة القتال . إن نجاحك لا يتوقف على الأسلحة وحدها ، بل كذلك على قوة العزيمة ، بارك الله فيكم جميعا .. ونستون تشرشل » .

واستمرت المعركة فى المربع الصحراوى الضخم بين طبرق والغزالة وجسر الفرسان والعضم . وهزمت آلايات الفرسان فى العضم كذلك هزم الهنود فى عكرمة ولم تتمكن المدرعات البريطانية من تفادى القتال ، فقد اضطروا عند ظهور تجمعات روميل المدرعة أن يخوضوا المعركة وكانوا مجبرين على ذلك ، لأن معنى التخاذل هو فتح الطريق إلى الشاطئ وإلى طبرق . ولذلك كان روميل هو الذى يفرض ميعاد ومكان ميدان المعركة .

فأين سيهاجمهم الآن؟ فى جسر الفرسان أم فى الغزالة أم فى العضم ؟ وكان ريتشى فى دوامة ، وأصبح ريتشى فى حيرة فلو أرسل كل مدرعاته إلى قطاع واحد فيستعرض لخطر اختراق روميل للقطاعات الضعيفة الأخرى ، ولو أبقى على مدرعاته ولم يرسلها ، فإن هناك خطرا أكبر وهو أن يصل روميل إلى الدفاعات الخارجية لطبرق ، وأخيراً تمكنت فرق روميل المدرعة المتقدمة من هزيمة القوات التى واجهه بها ريتشى . كما كان يحتفظ روميل بالورقة الرابحة التى يجب عدم إخفائها وهو المدفع عيار ٨٨ مم الذى لا يمكن تجاهله فالمرة تلو المرة كانت هذه المدافع تدمر الدبابات البريطانية المهاجمة .

ويمر الفيلق الأفريقى بالدبابات البريطانية المدمرة والمحترقة ، فقد استطاع ثقل الهجوم الألمانى تمزيق التشكيلات البريطانية . وتمكن روميل وقائد الفيلق الأفريقى الجنرال نهرنج بسهولة وحذق من إعطاء صورة رائعة للمهارة الفذة فى قيادة المعارك الحديثة ، وبذلك تمكنوا من تدمير مدرعات العدو . وكانت هذه المعركة ذات أهمية حقيقية فى الحرب العالمية الثانية ، لأنها كانت المعركة

الكلاسيكية الوحيدة للدبابات التى كسرت ظهر الجيش الثامن البريطانى . ولم تكد طائرة الجنرال أوكنلك تهبط فى القاهرة ليلة ١٢ يونية حتى أصبح واضحاً للقيادة البريطانية فى جامبوت أن المدرعات البريطانية قد سحقت ، **واخترق بذلك حائط الصلب الذى يحمى المشاة فى موقع الغزالة** وأصبح روميل يسيطر على الصحراء بين بير حكيم وطبرق . وكان الجنرال ريتشى ما زال تحت إمرته فرقتان من المشاة كاملتا العدد والتسليح كل منهما تتكون من عشرة آلاف رجل . ولكن ماذا تعمله مثل هذه القوة فى معارك الدبابات عام ١٩٤٢ حيث يمكن لقوة صغيرة من الدبابات القضاء على مواقع آلاى كامل من المشاة لنقص الدفاعات المضادة للدبابات . وفى الرابع عشر من يونية أصدر الجنرال ريتشى أمراً يخالف ما استقر عليه رأى أوكنلك من ناحية تحديد موقف وموقع القوات البريطانية ، ولم يمض على ذلك سوى ست وثلاثين ساعة ، فقد أعطى كلمة السر « المولد الحر » وكان معنى ذلك أن الفرقة الأولى جنوب أفريقيا والفرقة الخمسين البريطانية تركتا مواقعهما فى الجبهة الشمالية للغزالة وتحاولان الوصول إلى طبرق أو تجاوز طبرق ومواصلة الانسحاب حتى الحدود المصرية .

واحتج أوكنلك بشدة على ذلك من القاهرة ولكن الموقف كان يبدو للقائد العام فى صورة مخالفة للموقف الذى كان ريتشى موجوداً فيه فعلا ، وكانت كل الأنظار فى لندن والقاهرة مسلطة على طبرق وكان السؤال الذى يتردد: ماذا سيكون مصير هذه القلعة التى صمدت قبل ذلك أمام روميل هذا الحصن القوى الموجود على أبواب مصر ؟ وهل ستستطيع طبرق المقاومة مرة أخرى كما فعلت من سنة مضت؟ أم ستكتفى بالحصار والمقاومة ؟

ورأى روميل فى ذلك الوقت أن هدفه الرئيسى أصبح قريب المنال فقد قاتل لمدة سنة كاملة لكى يكون فى مثل هذا المركز ، وبعد أن حطم الحشود الرئيسية للمدرعات البريطانية كان عليه أن يطوق ويأسر فرق مشاة الجيش الثامن ثم يقوم بعد ذلك بغارة سريعة للاستيلاء على طبرق . وفى هذه الحالة لن يقف أمامه أى عائق فى سبيل تقدمه إلى القاهرة . ومن هناك يستطيع أن يعبر النيل ويندفع إلى آبار البترول الموجودة فى الشرق الأوسط والخليج العربى .

إلا أن قوات روميل نفسها قد أخذت نصيباً فادحا من الخسائر ، فبالرغم من أن الفرقة ١٥ المدرعة فى صباح يوم ١٥ يونية ١٩٤٢ عبرت طريق بالبو فى طريقها إلى البحر ، إلا أن الكتيبة الثالثة من الآلاى ١١٥ ومعها ست دبابات ماركة

٣ لم تكن قوية بما فيه الكفاية لتسيطر على الطريق ولذلك تمكن البريطانيون من التغلب عليها بعد الاستماتة فى القتال حتى لا يؤخذوا أسرى .

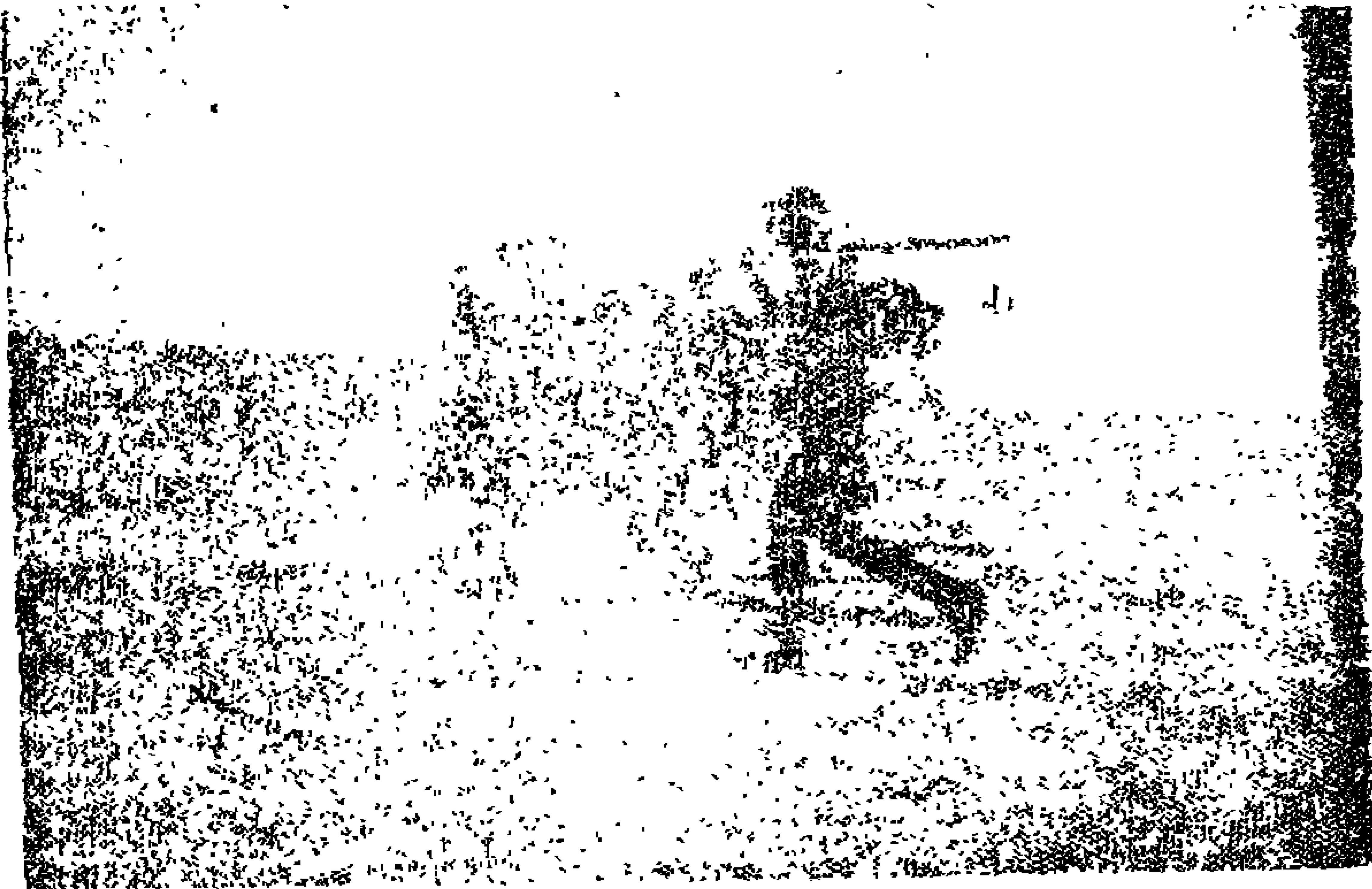
وقامت المدفعية الألمانية وطائرات ستوكا المنقضة بضرب الفرقة الأولى جنوب أفريقيا بغلالة ثقيلة من النيران أثناء انسحابها على طريق بالبو ، وأصبح الطريق الساحلى القديم بحراً من النيران .

وتراجعت الفرقة الأولى جنوب أفريقيا بدون أسلحتها ودخلت طبرق . أما آلايات الحرس التى دافعت عن موقع جسر الفرسان فقد تراجعت هى الأخرى من هذا القطاع فى اتجاه الشرق . وكانت المعركة كلها مائعة ، فكان الألمان والبريطانيون يمرون باستمرار بجوار بعضهم وعلى بعد بضع مئات من الياردات .

أما الفرقة الخمسون فقد اتبعت طريقًا جريئًا لفك الحصار بأن شقت مجموعات صغيرة طريقها خلال الخطوط الدفاعية الإيطالية اتجاه الغرب . (أى فى اتجاه معكوس) . وقد ذهل الإيطاليون من هذه الهجمات غير المتوقعة ، وتوغل البريطانيون بعيداً خلف خطوط الألمان ، ثم استداروا فى الصحراء نحو الجنوب والتفوا حول بير حكيم وأخيراً اتجهوا نحو الشرق وانضموا إلى باقى قواتهم قرب حصن مادلينا وهكذا أنقذوا ولكن بدون الأسلحة الثقيلة ، وأصبحت هذه الفرقة خارجة عن نطاق المعركة الحاسمة من أجل الحفاظ على طبرق . وفى لندن كان ونستون تشرشل ما زال يعتقد أن طبرق تستطيع الصمود . وكانت برقيته التى أرسلها لأوكنلك فى ١٥ يونية تتضمن: « اترك فى طبرق كل ما تستطيع من القوات تكفى للاحتفاظ بها » وعندما رد أوكنلك عليه بأنه سينفذ ما جاء بالرسالة أبرق له تشرشل مرة ثانية يقول: « إن الوزارة مسرورة لأنك سوف تحافظ على طبرق مهما كان الثمن » .

٨ - السرير المزدوج :

فكر رميل بطبيعة الحال فى خدعة أخرى للاستيلاء على طبرق . فلكى يخدع العدو سمح لقواته الميكانيكية بأن تترك المدينة وتمر بها مرور الكرام فى اتجاهها نحو الشرق . وقامت المشاة فقط بالاقتراب من القطاع الغربى للقلعة ، وذلك لكى يعتقد البريطانيون أنه ينوى تجاهل طبرق ويتجه إلى الحدود المصرية رأساً كما فعل قبل ذلك منذ سنة ، وكان روميل على رأس الفرقة التسعين الخفيفة عندما وصلت إلى البردية فى ١٩ يونية وأسرع بإرسال البرقيات بدون شفرة ، وزمجر



القوات الأنجليزية أثناء إنسحابها الى داخل طبرق

كارل وهو أحد رجال الوحدة ٢٠٠ من مخابرات المدرعات وكان يجلس فى عربته لإرسال البرقيات على الهواء بدون شفرة وقال: « إن الرجل العجوز أصبح صريحًا أكثر من اللازم .

وكانت البرقيات تتضمن: « الأمر اليوم هو تنفيذ عملية السرير المزدوج » واقتنع الجميع بأن المقصود بهذه العملية هى بلدة البردية . واعتقد البريطانيون أيضاً ذلك . وأبلغت وحدات التسمع الألمانية تقاريرها وتتضمن أن قيادة العمليات البريطانية تعلم بوجود روميل فى البردية ، وقد قام البريطانيون بإبلاغ ذلك إلى الجهات العليا وتضمن ذلك الآتى: « انتبهوا إن روميل يتقدم نحو الحدود المصرية » وكان هذا هو المقصود من العملية كلها . وقفل روميل عائدا على عقبيه وانضم إلى قوات الفيلق الأفريقى والفيلق ٢٠ الميكانيكى الإيطالى وكان على أهبة الاستعداد جنوب شرق طبرق وتقدموا خلال الليل ليكونوا أكثر قرباً من طبرق .

وقبل فجر يوم ٢٠ يونية ١٩٤٢ وصل روميل ومعه أركان حربه إلى مركز القيادة التكتيكى وكان هذا هو الموقف مساء يوم السبت . ولمعت الشمس قانية حمراء مخترقة السحب ، ووقف روميل وحيداً وهو ينظر إلى ساعته ونظارة الميدان معلقة حول رقبته وعيناه نصف مغلقتين تظلهما حافة قبعته العسكرية . وبين وقت وآخر كان يركز نظارته على طبرق وأخيراً تسلق تبة رملية صغيرة جيدة الإخفاء . وفى ساعات الصباح المبكر التى يسودها الهدوء أخذ يتمشى جيئة وذهابا وببطء ، وتحركت عقارب ساعته للأمام حيث سجلت الساعة ٢٠ر٥ . ومن بعيد سمع صوت طنين خافت وبعد لحظات ظهرت فى الأفق نقط سوداء صغيرة ، وكانت عبارة عن طائرات ستوكا المنقضة وقاذفات القنابل بين خفيفة وثقيلة فقد صدرت الأوامر لكل طائرة إيطالية أو ألمانية يمكنها الصعود إلى الجو فى أفريقيا بالمساهمة فى القذف الجماعى بالقنابل على القطاع الجنوبى الشرقى لطبرق .

وصاح روميل مناديا: « الرائد وولف » وظهرت الابتسامات على أفواه أركانات حربه فلم يكن هناك من يدعى الرائد وولف، بل كان هناك الرائد « فوكس» وهو ضابط اتصال سلاح الطيران . ولم يستطع روميل تذكر اسمه . وهكذا أصبح الرجل ذو الاسم الميدانى هو « الثعلب » أما بالنسبة لروميل « الذئب » . ومرة أخرى ردد أركانات حربه صيحته وقالوا: « على الرائد فوكس أن يقدم نفسه للجنرال» .

وزمجر روميل: « أين وولف بحق الشيطان؟ » وسرعان ما ظهر فوكس وقدم

نفسه قائلا: « الرائد فوكس يقدم نفسه » إلا أن روميل أصر على مناداته باسم وولف وقال له « اسمع يا وولف . هل اتخذت جميع الاحتياطات الكافية حتى تتمكن الطائرات من ضرب أهدافها بدقة؟ » ورد فوكس قائلا: « إن الأسراب قد أحيطت علماً بالمطلوب منها تماما يا سيدى الجنرال » وفى هذه اللحظة سمعوا انفجاراً عنيفاً من اتجاه طبرق .

فقد أفرغت ثمانى طائرات منقضة ومائة قاذفة حمولتها من القنابل على طبرق .

وهكذا فقد ضربوا الضربة الأولى . وأصبحت المعركة الثانية فى سبيل طبرق موضع التنفيذ . وتصاعدت نافورات عالية من الأتربة من اتجاه التحصينات الموجودة فى الجنوب الشرقى حيث توجد المواقع الهندية . وأخذت موجات متتابعة من الطائرات المنقضة والقاذفات تلقى بقنابلها ، وطارت الأسلاك الشائكة والكتل الخرسانية المسلحة والأسلحة فى الهواء وهذا التجمع المتتابع يساوى فى نتيجته تأثير غارة قوامها ستمائة طائرة .

وقد أدى هذا إلى تدمير الأسلاك الشائكة الموجودة على حدود المنطقة الدفاعية ونتج عن ذلك فتح ثغرة عرضها ثلاثة أميال .

ثم دفعت فرقتا البانزر للجهوم (وهما الفرقة ٢١ تحت قيادة الجنرال فون بسمارك والفرقة ١٥ التى كان لا يزال يقودها العقيد كريسمان) ويعاونهما قاذفو القنابل من رجال لواء المدفعية المستقل رقم ١٥ تحت قيادة قائدهم المحنك العقيد ماورى .

وقد حصلت الكتيبتان الأولى والثانية من الآلاى المدرع ٣٦١ على الثناء الخاص من روميل لما قامتا به . وتقدمت السرية الثامنة تحت قيادة الملازم جورنز واقتحمت الميناء . أما طابور الرقيب «ولشهوز» فقد سحق مقاومة مشاة البحرية البريطانية . وقد منح النقيب كليمان قائد الكتيبة التابع لها الطابور وسام صليب الفارس للأعمال التى قام بها هو ورجاله .

٩ - مدفعية السماء :

اشتركت السرية الثامنة من الآلاى المدرع الخامس مرة أخرى فى القتال

وكان الكثير من رجالها ما زالوا يتذكرون عيد الفصح فى السنة الماضية عندما حاولوا الاستيلاء على طبرق وكانوا قد وصلوا إلى تقاطع الطريق المشهور هناك عندما أغلق البريطانيون الثغرة وأنزلوا بهم خسائر فادحة .

وعاد أغلب أطقم الدبابات سيراً على الأقدام وهم فرحون لأنهم أنقذوا من هذا الإعصار من النيران ، وكان ذلك فى السنة الماضية ، والآن يا ترى ما الذى سوف يحدث ؟ فطبرق بدون شك ليست أقل قوة من السنة الماضية فهى محاطة بالأسلاك الشائكة وشراك الدبابات وأماكن المدفعية الإستراتيجية التى أحسن إخفاؤها كان كل ذلك موجوداً فى نطاق الدفاع عن الميناء وكانت القوة التى تدافع عن الحامية تساوى تقريباً فرقة واحدة يتراوح عددها ما بين ثلاثين أو أربعين ألف رجل ، ولكن كان هناك فارق واحد عن السنة الماضية فالقوات التى تدافع عنها هذه المرة قوات هندية وجنوب أفريقية ومنهوكة القوى بعد المعارك الأخيرة فى جبهة الغزالة .

وكانت روحهم المعنوية منخفضة ولم يكن لديهم الثقة فى النصر . وعندما أذاعت محطة الإذاعة البريطانية فى أحد نشراتها : « إن طبرق ليست عاملا حاسماً فى العمليات فى جبهة شمال أفريقيا » ثار قائد حامية طبرق (وهو الجنرال كلوبر) وكان محقا فى ثورته لهذه الضربة الموجهة إلى الروح المعنوية لقوات جنوب أفريقيا الذين يدافعون عن طبرق .

وكانت السرية الثامنة المدرعة من آلاى البانزر الخامس ما زالت مشكلة فى طابورين من الدبابات ماركة ٤ أما باقى الدبابات فقد تعطلت عن العمل خلال الأيام السابقة وأصبحت حطامًا فى الصحراء أو أرسلت الى الورش للإصلاح . وتقدمت العمالقة المصنوعة من الصلب فى حذر . ونظر قائد المهندسين فى عتمة الصباح خلال آلة تقدير المسافة أثناء إنشاء كوبرى فوق خنادق الدبابات وكان يتم ذلك تحت تأثير نيران العدو . وكان القائد هو الملازم كوخ وهؤلاء المهندسون (الذين غطى على أعمالهم الجنود المقاتلون الذين يكونون دائماً محل تقدير كبير) كانوا فنيين ومهرة من الطبقة الأولى ، وقد قاموا بواجبهم فى الحرب خير قيام . وبحذر بالغ تقدمت المدرعات إلى الأمام وعبرت الكوبرى دبابة فدبابة . وبعد عدة مئات قليلة من الياردات سيجدون أنفسهم أمام التحصينات الملعونة والنقط الدفاعية القوية التى نحتت فى الصخر وهى غير مرئية حتى لو أصبح الإنسان أمامها . وكان رجال كوخ يعلمون ذلك من السنة الماضية .

وكانوا فى انتظار طائرات الستوكا المنقضة لمعاونتهم وانتظروا ظهورها فى أية لحظة وقد وزع على طاقم كل دبابة إشارات من الدخان لتحديد رأس حربة القوات الألمانية المتقدمة حتى تتمكن الطائرات من ضرب مواقع المدفعية البريطانية الخرسانية وأوكار المدافع الرشاشة أمامهم . وسرعان ما وصلت « مدفعية السماء » وسمع فى السماعات على آذان رجال الدبابات الأمر بأن « أطلقوا المشاعل الأرجوانية » وبدأ الأمر كما لو كانوا فى مناورة سنوية ، وزأرت طائرات ستوكا فوق أبراج الدبابات وانفجرت قنابلها على بعد مائة ياردة أمامهم فوق مواقع العدو . وأغلق الملازم كوخ فتحة برج الدبابة ، وهذا العمل نادراً ما يحدث فى أفريقيا حيث إنه من الصعب التعرف على الأغراض من خلال فتحات البرج الضيقة ووسط انفجارات القنابل تقدمت الدبابات فى غاية السرعة وسط سحابة الغبار .

وفى وثبات قصيرة عنيفة وصل المشاة من آلاى البانزر من قاذفى القنابل إلى أوكار المدافع الرشاشة وألقوا عليها بالقنابل فدمروها .

وفى تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً عبرت الفرقة ١٥ المدرعة خنادق موانع الدبابات بنجاح . فلقد قام رجال المهندسين وجنود الاقتحام بعملهم على خير وجه .

فقد التقوا فى الخنادق بصفائح البترول الفارغة وبراميل الزيت ليسدوها ، وظهر روميل فجأة بينهم أثناء العمل وصاح فيهم: « أسرعوا يا أولاد ، فإن أصابعنا فوق الزناد » وكانت هذه هى كلمته المشجعة لهم . ثم أخذت جنازير الدبابات الأولى من قوة الآلاى الثانى المدرع ومعها عجلات عربات السرية الثالثة التابعة للآلاى ٣٣ مدرع تقرقع فوق الخندق .

وفى نفس الوقت كان المهندسون قد طهروا ثغرات خلال الألغام وقاموا بقطع الأسلاك الشائكة ووصلوا إلى تقاطع الطريق المشهور عند سيدى محمود حيث يتفرع الطريق المرصوف (وهو طريق بالبو إلى العضم) كما فعلوا منذ سنة ، مع الفارق لأنهم فى هذه السنة لم تكن المسألة فخا بالنسبة لهم . وأخذت المدافع المضادة للدبابات تقذف بحممها من على الجبل إلا أن موجة جديدة من الطائرات المنقضة ظهرت **ومهدت المعاونة الدقيقة للطائرات للبدء فى الهجوم . وكان كل هذا مفاجأة للبريطانيين فالتوافق الدقيق المتكامل بين قذف الطائرات وهجوم الدبابات بالتعاون مع المشاة أنهك قوى المدافعين البريطانيين فى المواقع الأمامية لدفاعات**



الطائرات ستوكا أثناء هجومها على طبرق

طبرق وكانت معركة طويلة منهكة مرة المذاق .

وقامت المدفعية من عيار ٥٠ مم المضادة للدبابات بتدمير أوكار المدافع الرشاشة التابعة لجنود جنوب أفريقيا . وقفز الجنود الألمان فى موجات من عرباتهم وهم مسلحون بمدافع رشاشة خفيفة وشقوا طريقهم إلى المخابئ المغطاة بالصاج التى يقبع فيها البريطانيون وتم أسرهم وكان أغلبهم من رجال جنوب أفريقيا الذى يلبسون قبعات « البوير » .

لقد أحضر العريف فرتيز هوفمان من الآلاى ٣٣ أسيراً أثار دهشة كبيرة فقد كان عملاقا له شارب كثيف أسود وكان الرجل مرعوباً خشية أن يقتل . ولكن عندما أعطاه هوفمان سيجارة انفرجت أساريره عن ابتسامة .

وكانت تقديرات روميل خاطئة بالنسبة لنقطة واحدة وهى أن الفيلق الإيطالى الميكانيكى العشرين الذى كان يعتقد أنه تقدم للأمام كان لا يزال أمام الخط الخارجى للدفاعات ولم يتقدم ياردة واحدة . ونتيجة لذلك أصبح جناح الفرقة ١٥ بانزر معلقًا فى الهواء دون حماية . وركز المدافعون البريطانيون النيران عليه . وسرعان ما شعرت سرية الملازم « كوخ » المدرعة بوطأة الهجوم ، فقد واجهتها غلالة مركزة من نيران المدافع المضادة للدبابات بل زاد على ذلك أن البطاريات الساحلية قامت بتحويل فوهات مدافعها اتجاه المهاجمين الألمان ، وبالطبع كانت أبراج الدبابات مقفلة فكان هذا أسلم ، إلا أن درجة الحرارة داخل هذه الصناديق من الصلب ارتفعت إلى ١٢٠ درجة فهرنهيت . وشعر أحد جنود الدبابات بالظمأ ففتح علبة من اللبن المحفوظ البريطانى إلا أن اللبن اللزج جعله يسعل ، ففتح البرج ليحصل على قليل من الهواء ، وفى هذه اللحظة انفجرت قنبلة على بعد ياردات من الدبابة فأدى هذا الى انفصال البرج من على الدبابة وطار فى الهواء .

وانهالت الأتربة والطين والحجارة إلى داخل الدبابة إلا أن محركها ظل سليما. وتقدمت الدبابة تتحسس طريقها للأمام فكان يوجد على الربوة يسارها دبابات للعدو **ووقع البريطانيون فى نفس الخطأ وقعوا الذى وقعوا فيه سابقًا . فقد قادوا دباباتهم رأسًا فوق المنحدر معرضين أجناب دباباتهم لنيران العدو وأجناب الدبابة هدف سهل وأقل تدريعاً من مقدمة الدبابة .**

وأصدر كوخ أوامره إلى رجال دباباته لاسلكيا « انتبهوا ، دبابات للعدو على بعد ٨٠٠ ياردة – عند الساعة ١٠ – أطلقوا النيران » وكانت دباباته تتقدم فى

تشكيل مفتوح ، واختار كوخ لنفسه هدفاً وكان عبارة عن دبابة ماركة ٦ معلق فوق ساريتها علم . وكان هذا العلم يدل على أن الدبابة هى دبابة قائد التشكيل . وكان يعتبر هذا التصرف غريباً من البريطانيين ليجعلوا دبابات القادة ظاهرة . وقد أدى العلم الصغير المضحك فوق الدبابة إلى نتائج وخيمة .

لأن التشكيل بدون قائد يكون أسهل جدا التغلب عليه . وصاح كوخ: « العدو على بعد ٨٠ ياردة – الساعة ١٠ – طلقة مخترقة للدروع . أطلقوا النيران » وردد المعمرون داخل الدبابات: « مستعدون » ثم « أطلقوا النيران » ثم سقطت الطلقات بعيدا عن الهدف بـ ١٠ ياردات ثم « الطلقات أصابت الهدف » .

واشتعلت النيران فى دبابة قائد التشكيل البريطانى وفتح برجها إلا أن باقى الدبابات لم تنتظر لتلتقط الأفراد ، بل سارعوا بالهرب . واقترب الملازم كوخ من الدبابة المصابة ، وخرج منها ملازم بريطانى ويداه مرفوعتان ومعه الرامى . وكان كلا الرجلين مصابا بجروح خفيفة وضمدت جراحهما . وقال كوخ : «ماذا نفعل بكم» ثم فكر وقال: « سوف نأخذكم معنا فى دباباتنا وإلا هربتم » ثم واصلوا التقدم ، وجلس الأسيران خلف البرج . وعلى الجانب الأيسر كانت توجد السرية السادسة الألمانية وقد أصيبت دبابة قائدها الملازم «فرانك ليندهم» إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران . فمن أين جاءت الطلقات ؟ وعلى بعد عدة مئات من الياردات شاهد كوخ ماسورة مدفع بريطانى مصوبة تجاه دبابته وصاح كوخ فى السائق: « أسرع» مدفع بريطانى عند الساعة ١٢ ، ولكن صياحه جاء متأخرا لأن البريطانيين كانوا أسرع منه فى الضرب وسجلوا إصابة مباشرة وأصيب برج الدبابة ولم يعد من الممكن إدارته . وجرح السائق ، وصاح القائد « اتركوا الدبابة » .

وزحف طاقم الدبابة إلى حفرة تبعد عشرين ياردة من الدبابة . وكان الأسيران ما زالا معهم . وقال أحدهم لكوخ وهو يبتسم : « خذ سيجارة » ورد كوخ عليه: « شكراً ليس الآن » .

وكانوا فى موقف حرج . فالقنابل تنفجر من حولهم وفكر كوخ فى ضرورة الخروج من هذا المكان . وحيث إن سائقه كان جريحا فقد اندفع فى وثبات سريعة قصيرة إلى دبابته المعطلة . وصعد إلى مقعد السائق وقادها إلى حفرة وسرعان ما دخلها الجميع بما فيهم الأسرى ، ثم أصبحوا خارج نطاق القنابل .

واكتشف كوخ وجود شظية فى ساقه . أما عامل اللاسلكى فلم يكتشف جرحه

البسيط إلا بعد ذلك بمدة ، وفى ذلك الوقت جاءت إليهم عربة النجدة . وبينما كانوا يقررون : هل من الممكن استخدام الدبابة مرة ثانية؟ ظهرت عربة مدرعة صغيرة وبها روميل وقفز كوخ وقدم تقريره للجنرال وقال له روميل: « يجب أن تذهب إلى محطة الإسعاف الرئيسية إنها فى العضم » وأمر أحد اللوارى التابعة لقيادته بنقل الملازم الجريح إلى محطة الإسعاف ومعه الأسيران . وأخلا السائق فيما بعد لأنه كان لا يستطيع الجلوس وكان عليه أن ينتظر حملة النقالات . وسار كوخ ومعه الأسيران رأسا عبر الصحراء متجهين إلى العضم وتركوا المعركة بعيداً خلفهم . وفجأة خطرت لكوخ فكرة ، ففى خلال الانفعال الذى ساد المعركة لم يهتم أحد بتفتيش الأسيرين من الأسلحة . وكان كوخ قد ترك مسدسه فى الدبابة ، فما العمل لو أخرج أحد الأسيرين البريطانيين سلاحاً ، وهمس كوخ لسائق اللورى: « هل معك مسدس » ورد السائق: « لا ليس لدى سلاح ، ربما كان هناك مسدس فى الأمتعة التى خلفنا » وما كاد يقول ذلك حتى شعر بالحرج لأنه تحقق من أهمية السؤال وإجابته عليه . وابتسم الملازم البريطانى وببطء أخذ يتحسس جيبه ، فهل فهم؟ هل معه مسدس ؟ وقال البريطانى وهو يناول كوخ مسدسه « خذ . هل تريد سيجارة الآن ؟ » وكان مذاق السيجارة البلايرز التى دخنها بعد ذلك فى غاية اللذة .

١٠ - سقوط القلعة الخرافيـــة :

ووصلت معركة طبرق إلى ذروتها . ودفعت المدفعية الألمانية إلى الأمام وأخذت تطلق نيرانها المباشرة على المواقع . وأخذت الدانات المتتالية تغادر مواسير المدافع التابعة لآلاى المدفعية الملحق بالفرقة ١٥ بانزر . ووقف العريف هانز من رجال المدفعية بجوار مدفعه الثقيل عيار ١٠٥ مم وأطلق فى مدى نصف ساعة ثمانين طلقة على الهدف . وأخذ الرجال - والعرق يتصبب منهم - يحضرون المزيد من الذخيرة ومن حسن الحظ أن الرجال وجدوا مستودعا ألمانيا للقنابل ترك من السنة الماضية ، فيا له من حظ !! وكانت القنابل من العيار المطلوب .

وما كادت القنابل التى زنة الواحدة منها ٢٥٠ رطل تغادر المدفع حتى جاء الأمر: « غيروا مواقعكم » وهكذا استمر الحال ، فهم يطلقون النيران ثم يتقدمون بضع مئات من الياردات ثم يعاودون إطلاق النيران وسرعان ما لحقوا بالدبابات والمشاة الموجودين فى المقدمة . ومن أقصر مسافة ممكنة أخذوا يدمرون مدافع

العدو المضادة للدبابات وأوكار المدافع الرشاشة . ولم يكن فى استطاعة المدافعين أن يصمدوا أمام هذا الضرب وفى الساعة ٣٠ر٦ مساء كانت الفرقة ١٥ المدرعة قد تمكنت من إجبار العدو على الجلاء عن حصن قبر قاسم ، وبعد ذلك بنصف ساعة سقط حصن« يلاسترينو» وأصبح ثلثا الدفاعات فى أيدى الألمان .

وكان روميل يقود بنفسه مجموعة القتال التابعة لرئاسته فقد اشترك فى عملية الاختراق الفاصلة التى قام بها الفيلق الأفريقى . وكانت فكرة مجموعة القتال (التى يوجد عدد منها تحت إمرة روميل شخصيا) فكرة مثالية نبتت وظهرت أثناء حرب الصحراء ، وكانت قوتها مماثلة لقوة كتيبة وتتشكل من سرية دبابات وسرية مدفعية مختلطة من المدافع المضادة للدبابات والمدافع المضادة للطائرات ومدافع ذاتية الحركة عيار ٧٥ مم ومدافع ٥٠ مم و ٣٧ مم مضادة للدبابات ومدافع عيار ٢٠ مم مضادة للطائرات ، وبالإضافة إلى هذا كان يوجد رتل من عربات الاستطلاع المدرعة وعربات اللاسلكى . وكان روميل على الدوام يقذف بهذه القوات فى أشد نقط القتال احتداما ، وقاموا بتحطيم الأوكار على منحدر الجبل اتجاه المدينة كما تتحطم البندقية. **وعند تقاطع الطريق المشهور ، شاهد الجنود أخصائى الألغام القديم روميل وهو يكتشف ويستخرج الألغام مع رجاله من خندق الدبابات الذى يعترض طريقه** وقد تعلم العريف «كيرت كند» القادم من إقليم السار على يد قائده الأعلى شخصيا أحسن الطرق لاستخراج « بيض الشيطان » وهو الاسم الذى أطلقوه على الألغام المزروعة فى الرمال .

وفى نفس الوقت كان يجلس قائد حامية طبرق (وهو الجنرال كلوبر) فى مقر قيادته فى وسط القلعة . وعند بدء الهجوم الألمانى قذف مقر قيادته بواسطة الطائرات المنقضة ، كما أصيب مقر قيادته الجديد بضربة مباشرة من قنبلة . وهكذا فكان قائد الحامية يطارد من مكان لآخر فى أحرج ساعات المعركة . وانقطع اتصاله بجنوده ، وفى منتصف النهار لم يعد فى استطاعته إعطاء مزيد من الأوامر أما الجنرال ريتشى الذى طار إلى القاهرة ليقدم تقريره ، فقد أخذ يراقب طبرق أثناء سكرات موتها من على ضفاف النيل . واشتعلت النيران فى كل اتجاه من المدينة . وأرسل كلوبر رسالة إلى ريتشى يقول فيها: « إن موقفى ميئوس منه سأحاول شق طريقى اتجاه الشرق » .

وانتظروا فى القاهرة وفى لندن الأنباء على أحر من الجمر .

ثم جاءت رسالة كلوبر الأخيرة « الوقت متأخر ، فقد دمرت أكثر وسائل النقل. لم تعد لدينا حملة ميكانيكية . سوف أواصل المقاومة حتى يتم تدمير المعدات المهمة » . وهكذا أصبح حماة طبرق هذه القلعة الأسطورية والتى من سنة مضت قاومت هجوم روميل لمدة ثمانية وعشرين أسبوعاً قد أصبحت نهاية المطاف .

فمعركة الغزالة السابقة والقذف المهلك بالطائرات وهجوم الطائرات المنقضة وهجوم الفيلق الأفريقى بدون رحمة خلال الدفاعات التى ملئت بالألغام والأسلاك الشائكة ، كل ذلك أدى إلى إنهاك قوى المحاربين من رجال الجيش الثامن .

وفى صباح يوم ٢١ يونية فى تمام الساعة الخامسة دخل روميل طبرق على رأس مجموعة قتاله ، فوجد أكواما من الخرائب ، فلم يعد هناك منزل لم يصبه الدمار ، أما المسجد فقد أصيب إصابات خفيفة . وما عدا ذلك فمنشآت الميناء والشوارع قد تحولت إلى أكوام من الأنقاض . وفى حوض الميناء وجد حطاما لسفن عديدة وقد غرق معظمها بإصابات مباشرة من مدافع الفرقة ٢١ المدرعة وارتفعت ساريات ومداخن السفن بشكل مثير للشفقة خلال السماء .

وتقبل روميل فى الساعة ٩ر٤٠ على طريق بالبو استسلام الحامية من الجنرال كلوبر ، وكان روميل غاضبًا جدا لأنه شاهد خلال جولته فى المدينة المركبات المحترقة والمستودعات المنفجرة التى قام بتدميرها جماعات التدمير البريطانية . وقال لكلوبر: « لو ظللتم تدمرون وسائل نقلكم فسوف تنقل جنودكم عبر الصحراء سيرا على الأقدام . ولو دمرتم تموينكم من الأغذية فسوف لا يكون هناك طعام لجنودكم » .وأجاب كلوبر فى برود : « إننى أنفذ الأوامر يا سيدى الجنرال » ثم أضاف فى صوت هادئ: « على العموم إننى لم أعط الأوامر بنسف مستودعات المؤن » وأقنع روميل وبايرلاين الجنرال كلوبر على مصاحبتهما فى الطابور خلال المدينة . وتدفق ثلاثة وثلاثون ألف أسير وهم يتعثرون إلى منطقة التجمع . وقد أعطى آلان مورهيد فى بيانه التالى صورة كاملة عن المعركة فقال: « كانت هزيمة تامة شاملة » .

فقد استولى العدو على أغلى كنز من المعدات جادت به الصحراء . فقد حصل روميل على ما يكفيه من العربات البريطانية والعديد من الدبابات والمدافع ، وما يكفيه من الوقود والذخيرة ليعيد بها تجهيز وتسليح قواته ليندفع بها رأسا إلى مصر . نعم ، فهذا هو روميل ، فهل سيكون فى وقت قريب على ضفاف النيل؟



القوات الألمانية أثناء دخولها المواقع الدفاعية حول طبرق

وهل سيحقق ضباطه حلمهم القديم بشرب الويسكى بالصودا فى بار فندق شبرد ؟ وكان هذا يبدو ممكنا ، وكان روميل لديه آمال كبيرة فى تحقيق ذلك . ويمكننا أن نقرأ أمره اليومى الذى قال فيه « يا جنود الجيش الأفريقى البانزر ، يجب علينا أن ندمر العدو تماماً الآن . وخلال الأيام المقبلة سوف أطلب منكم تنفيذ مهمة جسيمة أخرى حتى يمكننا الوصول إلى هدفنا » .

وكان هدفهم هو النيل . وانتصار طبرق ما هو إلا نقطة البداية ، أما بالنسبة لروميل كقائد عسكرى فقد وصل إلى أوج شهرته . ومن مركز قيادة هتلر فى راستنبرج علم بترقيته إلى رتبة الفليد مارشال ومن الآن فصاعدا سوف يعرف باسم « الماريشال روميل » هذا الرجل الذى تحمل أكبر قدر من الإنهاك فى المعارك التى خاضها مع مدرعات الفيلق الأفريقى .

والجنرال نهرنج رقى إلى رتبة الكولونيل جنرال وقد قدم له روميل علامات رتبته الخاصة به قبل ترقيته لكى يؤكد ترقيته إلى رتبته الجديدة . أما القادة الإيطاليون وهم الجنرالات كافاليرو وباستيكو فقد رقاهما موسولينى إلى رتبة الفيلد مارشال .

وقد حصل، كل من استحق على الترقية، من بين الجنود والضباط، علاوة على الأوسمة لبسالتهم فى معركة طبرق ، ثم بعد ذلك انقضوا على الغنائم . وكان رجال الوحدة ٢٠٠ من وحدات الاستطلاع المدرعة فى سعادة الأطفال عندما عاد زميلهم كارل دورون بصندوق من السجق الألمانى ، فقد عاد السجق إلى أصحابه الأصليين.

وهذه الحادثة تعتبر مثالا للمد والجزر وللانتصار والهزيمة خلال حرب الصحراء .

الفصل التاسع

دور الجاسوسية

الفصل التاسع

دور الجاسوسية

١ - الشمس على موعد مع القمر :

يبدأ النشاط فى ملهى الكيت كات بالقاهرة بعد منتصف الليل . ففى تلك الساعة يهب من النيل نسيم عليل ويأخذ سعف النخيل فى التماوج . ويطل ليل حالك تزينه النجوم على أرض المرقص الخشبية اللامعة . فالملهى مكشوف للسماء عدا البار الذى يدور فى نصف دائرة حول المرقص المسقف وعلاوة على المسرح . يحيط بالملهى – الذى يعتبر ارقى ملاهى القاهرة فى ذلك الوقت – حائط عال حتى لا يترك فرصة لأنظار الفضوليين . ويقف على بابه حراس مطيعون فى حلل زاهية ينحنون باحترام أمام رواده ذوى الشخصيات البارزة الذين يصلون بسياراتهم وقد امتلأت جيوبهم بالأموال . وارتدت النساء أبهى حللها وفى هذا الملهى كان يجد الشرقى والغربى المتع التى اعتادها فى وقت السلم فى تلك الليالى مرتفعة الرطوبة من أيام صيف ١٩٤٢ ، فقد كانت مصر بلدا محايدا فى الحرب رغم أنها كانت قاعدة بريطانية لحرب شمال أفريقيا . كما كانت القاهرة مركزاً مزدحماً بالجيوش البريطانية إلا أن الملك ووزراءه كانوا يجدون الوقت لإظهار ، حيادهم ، فى ظل المندوب السامى البريطانى . وبذا فإن الحرب والسلام كانا يحكمان القاهرة فى وقت واحد ، وخاصة فيما يختص بالأعمال التجارية . وفى الليل يتوجه الضباط المصريون والإنجليز فى ثيابهم المدنية يبحثون عن الترويح عن النفس ، فأبناء الباشاوات والباكوات وكبار ملاك الأراضى وتجار السوق السوداء كانوا ينفقون الأموال فى بذخ فى النوادى الليلية وإلى جانب هؤلاء كان يوجد العديد من ذوى الحوافظ الممتلئة بالنقود ورجال البترول من البلاد العربية ومعهم صديقاتهم من ذوات الثمن المرتفع ، هذا بالإضافة إلى العديد من الناس الآخرين الذين كانوا يتعيشون على الحرب ويحصلون على دخلهم من التجسس والقيام بالمهام الخطرة فى الخطوط الأمامية كجواسيس . وفى الليل تراهم يستمتعون بتناول الويسكى

بالصودا المرتفع الثمن أو الجن أو شراب البيرتو والذى يرغب منهم فى اكتساب الشهرة كان يتناول الشمبانيا.

أما الذى يريد أن يظهر بمظهر الطيب فيكتفى بشرب القهوة .

وتغمر المصابيح الملونة الحديقة بألوانها المرحة حيث يسمع ضجيج المحادثات وصوت الضحك ، فالشرقيون يحبون الضوضاء . أما الفرق الموسيقية فتعزف لهم ألحان التانجو الحالمة والفوكس تروت الحية فى فترات ما بين النمر التى يقدمها الملهى حيث يقوم الرواد بالرقص .

وفى تلك الليلة كان هناك عرض خاص ، لأن «حكمت فهمى» أجمل راقصة فى الشرق الأدنى كانت سترقص، وعندما ترقص يدوى التصفيق كالعاصفة ويقذفون إليها بطاقات الزهور ويقوم الصبية الصغار بالسير جيئة وذهاباً حاملين بطاقات المعجبين الأثرياء إليها .

وكانت «حكمت» تتنقل كالملكة يصحبها بلاطها . وكان أصدقاؤها ومعارفها أسطورة إلا أن اهتمامها كان منصبا على شاب لم يظهر فى مجتمع القاهرة إلا حديثا وكان اسمه حسين جعفر، غنياً، زلف اللسان، محباً للاستمتاع بالحياة ، وكان عنده الوقت الكافى . ويتطلب الظفر بصداقة مثل هذه الراقصة المشهورة الكثير ، وقد اعتقد الناس جميعا أنه من الوارثين المتعطلين ، وكان حسين جعفر فى الحقيقة جاسوساً ألمانيا اسمه هانز أبلر قدم إلى القاهرة مع زميله «جانز جيرد ساند ستيد» فى مهمة خاصة . وكان ساند ستيدت يقوم بدور أمريكى من أصل أيرلندى واستخدم جواز سفره الأمريكى لكى يتفادى الحرب فى صف إنجلترا . وكان اسمه فى جواز السفر المزيف بيتر مونكاستر واسم الكناية هو ساندى .

وامتلأ الكيت كات إلى آخر منضدة فيه ورقص الشابان على أنغام أسطوانة كانت لها شهرة فى ذلك الوقت اسمها « الشمس على ميعاد مع القمر » إلا أن القمر لم يكن موجوداً ، وعلى كل فكان الناس يتابعون كلمات الأغنية فى الشطر الأخير منها مرددين أن القمر لم يكن موجوداً ويتهكمون فى استرخاء لأن القمر فى ذلك الوقت كان لامعاً بوضوح فى السماء .

٢ - رقصة طبرق :

ونظر حسين جعفر حوله باحثاً عن الجرسون ووقعت عيناه على مائدة كبيرة

بجوار البار يجلس عليها نصف دستة من الضباط المصريين الشبان فى ملابسهم المدنية ولم يكونوا من أصدقاء بريطانيا . وكانوا يتحينون الفرص وينتمون إلى أحد الخلايا التى تحارب من أجل استقلال مصر . وكانوا ضد الملك الذى كان متعاونا مع بريطانيا . وكان الهمس يدور على أنهم يريدون القيام بثورة إلا أن المصريين فى ذلك الوقت لم يأخذوها على محمل الجد . ولم يبد هؤلاء الضباط أى إشارة أو أى تغيير فى الملامح يكشف عن معرفتهم بحسين جعفر . وخلال الرقص حدث انفعال مفاجئ ، وقد سبب هذا الانفعال الزائرون الذين حضروا أخيراً إلى الملهى يحملون بعض الصحف ويتكلمون بانفعال !!! فما سبب ذلك ؟ إنها طبرق ؟نعم، وفجأة ظهرت نسخة من الجريدة على مائدة الضباط المصريين . وقرأ أحدهم العناوين وانتشرت الأنباء كالنار فى الهشيم .

والذين لم يقرءوا الخبر سألوا الجرسونات الصغار ، هؤلاء الصبية الأذكياء الذين كانوا فى غاية الجرأة ولا يوجد مثلهم فى العالم فى جرأتهم واعتزازهم . واقتربوا من المنضدة التى يجلس عليها الضباط البريطانيون ولم ينتظروا أن يسألوهم، وقالوا : « لقد استولى روميل على طبرق فى يوم واحد والجيش الثامن يفر أمام الألمان الذين يطاردونه عبر الحدود المصرية، إنهم قادمون إلى هنا، إلى القاهرة» .

وبنوع من الملل والاعتزاز رفع الصبية حواجبهم وقالوا بمعنى مقصود: « قد يصل الألمان إلى هنا بعد غد ويجلس روميل باشا مع ضباطه يشربون الويسكى هنا على هذه المائدة » فكان الضباط المصريون مسرورين وهم يشاهدون الدهشة التى ارتسمت على وجوه الحاضرين من البريطانيين .

وغمغم الرجل الجاد المظهر ذو الشعر الرمادى والذى انضم إلى مائدة حسين جعفر وساندى وقال: « غير معقول » وأومأ حسين جعفر برأسه وقال مواسياً : « إنها أخبار سيئة » وأجاب الرجل: « فى غاية السوء » وكان من الممكن أن تعرف من مظهر هذا الرجل أنه ضابط بريطانى رغم ارتدائه للملابس المدنية وقال: « إن هذا غير معقول » وكان من الطبيعى أن يستطيع رئيس إدارة المخابرات البريطانية فى القاهرة أن يخفى شعوره بسهولة . وهز حسين جعفر كتفيه وقال: « لكن الجيش الثامن ما زال موجوداً وسليمًا . لقد تم أسر ثلاثين ألفا من الجنود فى طبرق إلا أن مصر مليئة بالجنود البريطانيين وأخيرا هناك الجيش العاشر . وما الذى يفعله هذا الجيش فى سوريا؟ يجب أن يحضر الجيش العاشر للدفاع عنا هنا » ، وكان يضغط

على كلمة عنا: « وأنتم بالطبع لن تتخلوا عن القاهرة وتتركوها ليستولوا عليها » .

ولم يستطع ضابط المخابرات أن يقاوم هذا القول وقال « تستطيع أن تطمئن، إن الجيش العاشر لن يقف فى سوريا متفرجا عندما يصل روميل » .

وارتسمت ابتسامة على وجه ساندى وقال: « هذا حسن .. إنها أخبار عظيمة بالله إنها لأخبار طيبة » ، وتدخل حسين قائلا: « زد على ذلك أنه لدينا الجيش المصرى » ، وأخرج الضابط البريطانى علبة سجائر من جيبه وقال :

« الجيش المصرى ؟ عفواً فأنا لا أريد أن أزعجك . ولكن انظر هناك خلفنا إلى المائدة التى يجلس عليها الضباط المصريون » .

وكان ساندى على وشك الإجابة إلا أن حسين جعفر وضع يده على ذراعه وقال « إن حكمت فهمى قد بدأت ترقص » ، ودوت القاعة بالتصفيق . وتوقف الناس عن الكلام . فقد وصلت حكمت إلى خشبة المسرح . وقال الرائد « إنها من عجائب الدنيا . مثل حدائق سميرميس المعلقة » .

وكانت الراقصة جميلة جدا – ونموذجاً للجمال العربى– ذات جسد رائع، وحركات متجانسة وأعين نجلاء ، وملامح مصرية أصيلة وراقصة ممتازة ولا يوجد خارج القاهرة مثل هذا القوام ، لا فى برلين ولا فى حدائق الشتاء أو ألاسكالا أو حتى فى الفولى برجير فى باريس أو فى كازينو دى بارى . ولم يكن يعلم سوى عدد قليل جدا من الناس فى الكيت كات أن هذه الراقصة أحد مصادر المعلومات المهمة لقلم المخابرات الألمانى .

وعندما انتهت حكمت من رقصتها دوى التصفيق عالياً . وصاح المتفرجون وقذفوا بالزهور ، ثم حدث شيء غير عادى فقد دوت صرخة خلال القاعة وجاءت الصرخة من المائدة التى يجلس عليها الضباط المصريون الشبان ، فقد كانوا يصيحون: « ارقصى يا حكمت رقصة لطبرق » ، وكانت الصيحة باللغة العربية إلا أن الكثير من البريطانيين فهموها . وفى سرعة البرق ظهرت المشكلة العربية واضحة فى هذا المكان وهى مشكلة أمة ترزح تحت أغلال الاستعمار . وكان الأمل المضىء أمامها هو روميل ، وتكهرب الجو فى القاهرة ، وظهرت طبعات خاصة من الصحف . واجتمع الناس يناقشون الأنباء . وكان هناك صياح وغناء على ضفاف النيل وفى شوارع القاهرة وقامت مظاهرات من الطلبة وكانوا يهتفون « إلى الأمام يا روميل تقدم يا روميل » . وكان الجو حارا فى تلك الليلة أيضا فى

واشنطون، ففى البيت الأبيض على بعد سبعة آلاف وخمسمائة ميل من القاهرة كان فى ليلة ٢١ يونية ١٩٤٢ تشرشل وروزفلت مجتمعين ، فقد طار رئيس الوزراء البريطانى إلى الولايات المتحدة لمناقشة الموقف الحربى مع الرئيس الأمريكى . ولم يتبادلا كلمات التشجيع كثيرا فكانت أوروبا فى ذلك الوقت فى أيدى الألمان ومن الحدود الفرنسية الأسبانية إلى نارفيك ، أما أسيا فكان اليابانيون يواصلون سيرهم المنتصر ، فقد سقطت سنغافورة . بينما كانت أيضًا ترسل غواصات هتلر آلاف الأطنان من سفن الحلفاء إلى قاع البحر .. وفى روسيا كانت الفرق الألمانية تهاجم الفولجا ، وستالين يرسل فى يأس يطلب النجدة بفتح جبهة ثانية . ولكن فى أى مكان تستطيع كل من انجلترا وأمريكا مهاجمة هتلر؟

وعلى كل فقد كانا مسرورين لإستطاعة كل منهما معاونة الآخر . وفى مكتب رئيس الولايات المتحدة ، أثناء مناقشة «روزفلت» و «تشرشل» ومعهما الجنرال «أزماى» خططهم تسلم روزفلت برقية وقرأها فتجمدت أسارير وجهه حتى أصبحت كالصخر . وساد الصمت ثم سلم روزفلت البرقية إلى تشرشل ولا يوجد من يستطيع وصف هذه اللحظة المحزنة أفضل مما وصفها تشرشل نفسه فى مذكراته .

« فقد تضمنت البرقية استسلام طبرق ، وأسر خمسة وعشرين ألف رجل وكانت هذه مفاجأة مذهلة لدرجة أننى لم أستطع تصديقها وعليه طلبت من أزماى أن يسأل لندن عن هذا الخبر تليفونيا . وبعد لحظات قليلة جاء الرد (لقد سقطت طبرق وقد تغير الموقف كثيراً ، ومن المتوقع حدوث غارات جوية على الإسكندرية فى القريب العاجل ، وبما أن الليالى القمرية تقترب فسوف أرسل وحدات الأسطول الشرقى إلى جنوب قناة السويس لانتظار التطورات ، وكانت البرقية مرسلة من الأدميرال «هارورد» قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط . وكانت هذه البرقية أحد الضربات القاتلة التى لا يمكن أن أنساها خلال الحرب . فلم يكن تأثيرها عسكريا فقط بل أثر فى سمعة الجيوش البريطانية ، ففى سنغافورة سلم خمسة وثمانون ألف رجل لعدد قليل من اليابانيين . والآن ألقى خمسة وعشرون ألف رجل سلاحهم فى طبرق وهم من الجنود المدربين أمام عدد لا يتجاوز نصف عددهم . وكان عدد الأسرى فى الحقيقة فى طبرق سبعة وثلاثين ألف رجل . فإذا كانت هذه هى حقيقة الروح المعنوية لجنود جيش الصحراء ، فليس هناك حدود للنتائج الوخيمة المنتظرة فى شمال أفريقيا . ولم أحاول أن أخفى عن الرئيس روزفلت الصدمة التى تلقيناها وكانت لحظة مريرة . فالهزيمة تعنى شيئاً واحداً ، أما العار فهو شىء آخر

تماماً ، ولم يكن هناك تقريع أو لوم من الرئيس روزفلت ولم ينبس بكلمة غير طيبة، وبالعكس فقد أظهر شعوراً ينطوى على الشجاعة الإنسانية . وقال: « ما الذى يجب أن نعمله لمساعدتكم ؟ » وأجبت على الفور: « أعطنى كل ما يمكن أن تستغنى عنه من الدبابات الشيرمان على أن تنقل إلى الشرق الأوسط بأسرع ما يمكن » .

ولم تكن قوة الألمان هى التى تهدد نفوذ بريطانيا فى الشرق الأوسط فحسب بل كان هناك فى جميع أحياء القاهرة وفى ثكنات ومعسكرات الجيش المصرى فى جميع أنحاء مصر توجد مجموعات للمقاومة التى تريد تحرير مصر من السيطرة البريطانية .

وفى ذلك الوقت كانت عبارة عن خلايا صغيرة من السياسيين والعسكريين ورجال الدين ولكنهم كانوا متحدين فى شىء واحد وهو كراهيتهم لإنجلترا وأملهم فى تحرير مصر ، مصر الحرة المستقلة .

وكان من الممكن أن يصبحوا تنظيماً خطراً لو استخدمهم الألمان فى تحقيق مآربهم وبذلك يصبحون طابوراً خامساً لهم ، وقد اختمرت هذه الفكرة فى القيادة العليا الألمانية منذ عام ١٩٤٠ .

٣ - اختطاف الفريق عزيز المصرى باشا :

فى ربيع عام ١٩٤٠ قام أحد ضباط المخابرات الألمانية بوضع خطة جريئة فى بودابست ، فقد قابل هذا العميل أحد الضباط القدامى من الجيش المجرى - النمساوى وهو النقيب «لاسيزلو فون المازى» وكان خبيرا بالصحراء وكان يعمل رساما لسنين عدة فى خدمة الجمعية الجغرافية للحكومة المصرية . وقد طار فوق الصحراء وكان له أصدقاء فى القاهرة . وقد كسبت المخابرات الألمانية «المازى» لصفها وعين نقيباً فى سلاح الطيران الألمانى وكان أول اقتراح له سنة ١٩٤٠ هو تجديد الاتصال مع الفريق عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى السابق والذى يميل إلى الألمان . وقد فصله البريطانيون من وظيفته . وكان عزيز المصرى عدوا لدودا لبريطانيا .

وكان يأمل الكثير من انتصار ألمانيا لأن مثل هذا الانتصار قد يؤدى إلى تحرير مصر من النفوذ البريطانى فتحصل على استقلالها .

وفى مقر قيادة الأدميرال كناريس فى برلين دهشوا عندما اقترح ضابط

الطيران وعميل المخابرات الألمانية الرائد نيكولاس ريتر إحضار الفريق عزيز المصرى باشا إلى ألمانيا ، ولو لزم الأمر القيام باختطافه . وقد اعتقد كناريس فى أول الأمر أن الفكرة خيالية وجنونية ولكن بعد أن أمعن النظر فيها رأى أن هذه الخطة المبدعة تحقق رغباته ، فأصر على تنفيذ الخطة التى سميت باسم « خطة المصرى » على أن يتم تنفيذها فى غضون ثلاثة أسابيع .

وقد كون ريتر جماعة فدائيين من رجال الأسطول الجوى العاشر الألمانى واتصل بالسفير الهنغارى فى القاهرة الذى كان موجوداً فى بودابست ، ولم يطلع ريتر هذا السفير على الخطة على الفور ، بل طلب منه أن يسهل لهم الاتصال «بالمصرى » ، وأنهم فى حاجة إلى وضع جهاز إرسال فى القاهرة ليبلغهم عن الطقس هناك ، وكان هذا الجزء الأخير صحيحاً ، وأبدى السفير استعداده للمساعدة .

وفى نفس الوقت زاد الرائد ريتر عدد الفدائيين إلى عشرة بما فيهم المازى وكانوا جميعًا من رجال المخابرات ومن أخصائى اللاسلكى والشفرة والمترجمين والسائقين . وكلهم أخصائيين من سرايا الالتقاط أو من محطة الإذاعة الأجنبية التابعة للقيادة الألمانية العليا فى ستاهندورن .

وفى بودابست قام السفير بنقل جهاز الإرسال فى حقيبته الدبلوماسية وأحضره سالما إلى القاهرة وبحذره الدبلوماسى رفض أن يوضع الجهاز فى دار السفارة بل أعطاه لقسيس نمساوى فى خدمة المخابرات المجرية .

وكان القسيس رجلا ذكيا حاذقا ، وكان يقول لأصدقائه فيما بعد: « إن على حسابا عسيرا أمام الله لو اعترفت بأعمالى التى قمت بها فى القاهرة » ، وذلك لوضعه جهاز الإرسال السرى فى الكنيسة، واختار له مكانًا آمنا لا يمكن أن يتخيله إنسان ، فوضعه أسفل الهيكل فى كنسية سانت تريزة بشبرا فى القاهرة . وأصبح السفير وعامل اللاسلكى من الزوار المستديمين للكنيسة لأنهم بهذه الطريقة يمكنهم أن يذهبوا إلى مكان عملهم ويظلوا غير مشتبه فيهم ولا فى أمرهم . وكانوا يرسلون الإشارات فى وقت الصلاة . ومن ثم فقد ظهرت حقيقة شريرة إلى الوجود فى تاريخ الحرب السرية . ففى كنيسة سانت تريزة بالقاهرة بينما تقرع الأجراس للصلاة فى الهيكل كان عامل اللاسلكى يقوم بدق رسائله تحت الهيكل قائلاً «انتبهوا. انتبهوا رقم ب . ر . ك . س ينادى المركز . أجب من فضلك » ، وعندما

يجيب عليه المركز الموجود فى درنة يقوم العامل بإرسال الرسالة ، « النقطة الأولى . حالة الطقس المنتظرة » ثم يتلو بعد ذلك تقرير دقيق عن حالة الطقس ثم « النقطة الثانية تقرير الباشا .... » ويتلو بعد ذلك المعلومات الخاصة بعزيز المصرى الذى أصبح اسمه الكودى « الباشا » .

وقد اقترح المصرى أولا أن تلتقطه غواصة ألمانية من بحيرة البرلس وسط دلتا النيل ، إلا أن هذا الاقتراح لم يكن عمليا . وقد تقرر نهائيا أن تقوم طائرة ألمانية بنقله من نقطة يتفق عليها فى الصحراء لا تبعد كثيرا عن القاهرة . وبعد الاستيلاء على كريت فى ١٠ مايو ١٩٤١ أمكن الحصول على طائرتين من طراز هينكل ٣ من الأسطول الجوى العاشر لتنفيذ مهمة الباشا . وكانت الطائرتان ملحقتين بسرب القتال رقم ٢٦ . أما «المازى» الذى يعرف الصحراء كراحة يده اختار نقطة المقابلة بجوار الجبل الأحمر على طريق الواحات .

وكان فى استطاعة الباشا أن يصل إلى هذا المكان بالسيارة فى بضع ساعات من القاهرة وكان عليه أن يتواجد قبل الغروب بساعة فى المكان المحدد وأن يرفع علما يبين اتجاه الريح ثم تهبط طائرة من طراز هينكل ٣ الخاصة بريتز بينما تبقى الطائرة الثانية فى الجو للحراسة .

وكانت الطائرتان على استعداد للإقلاع عندما وصلت رسالة من كنيسة سانت تريزة إلى درنة تقول إن سيارة المصرى أصابها حادث ولا يمكنها الوصول فى الوقت المحدد وإنه سيكون مستعدا للطيران يوم السبت ٧ يونية ١٩٤١ وقاد النقيب هوللر طائرة الحراسة ومعه الرائد ريتر ، وكان يعمل النقيب بليخ مراقبا للطائرة . وقاد الطائرة الثانية النقيب «فون المازى» التى كان عليها أن تلتقط المصرى . وكلا الطائرتين كانتا تحملان شارات التمييز الألمانية .

ووصلت الطائرتان فى الساعة الرابعة إلى المكان المتفق عليه إلا أنهما لم يجدا شيئا وهبط «المازى» إلى ارتفاع منخفض وطار فوق الطريق فى اتجاه القاهرة لكى يتأكد من أن المصرى فى طريقه إلى المكان المتفق عليه إلا أنه لم يشاهد شيئاً. وبعد خمس عشرة دقيقة من الطيران عاد الطيار بطائرته بعد أن رأى مآذن القاهرة فى ضوء الشمس الغاربة . فأين ذهب المصرى باشا ؟ هل كشفت الخطة ؟

وفى صباح اليوم التالى فى الميعاد المحدد قام جهاز الإرسال بكنيسة سانت تريزة بإرسال الرسالة التالية : « من المحتمل أن يكون قد قبض على الباشا . الخيانة

متوقعة ويخشى أن يكون جهاز الإرسال وموقعنا فى خطر ، ونتيجة لذلك فسوف نقطع الاتصال ، وانتهت الرسالة .

ولكن ما الذى حدث حقيقة؟ ولم تعرف الحقيقة إلا بعد انتهاء الحرب حيث عرفنا الرد على هذا السؤال .

لقد أراد المصرى أن يطير إلى مكان المقابلة فى طائرة من طائرات سلاح الطيران المصرى وأبلغ خطته هذه إلى أحد قادة الأسراب الذى حدد موعد الطيران عندما يتسلم عمله فى مطار هليوبوليس ، وبالطبع كان من الواجب أيضاً إخطار قائد الطائرة نفسه . وأثناء ما كانت الطائرة تتزود بالوقود توجه الطيار إلى برج المراقبة ليقدم نفسه إلى قائد برج المراقبة البريطانى إلا أنه شك فى الأمر ، ولكن أمكن للطائرة أن تقلع إلى السماء ولكن بعد دقائق فقد الطيار ارتفاعه . فقد ظهرت طائرة بريطانية أمامه . فهل فقد الطيار أعصابه أم أنه لم يستطع أن يعيد السيطرة على الطائرة ؟ ومهما كانت الأسباب فقد اضطر للهبوط الاضطرارى فاصطدم بمجموعة من الأشجار ثم بقمة نخلة فتهشمت الطائرة وهرب الطيار ، وأنقذ المصرى من أعلى الشجرة بواسطة الشرطة العسكرية . وعند وصول الضابط البريطانى المسئول إلى مكان الحادث بعد محادثة تليفونية مع مطار هليوبوليس للقبض على الباشا إلا أن أحد الضباط المتقدمين فى السن (وكان من رجال المقاومة) مثل دور المصرى وقبض عليه على أنه هو المصرى نفسه ، وهرب المصرى . ولم يعلم البريطانيون بخطئهم إلا بعد ثلاثة شهور عندما قبضوا على الرجل الصحيح .

٤ - الأدميرال كناريس يتدخل :

ولم يعلم رجال ريتر شيئًا عن ذلك رغم وجود شبكة من الجواسيس الإيطاليين الأكفاء فى القاهرة وكان يقودهم ضابط إيطالى اسمه نانى .

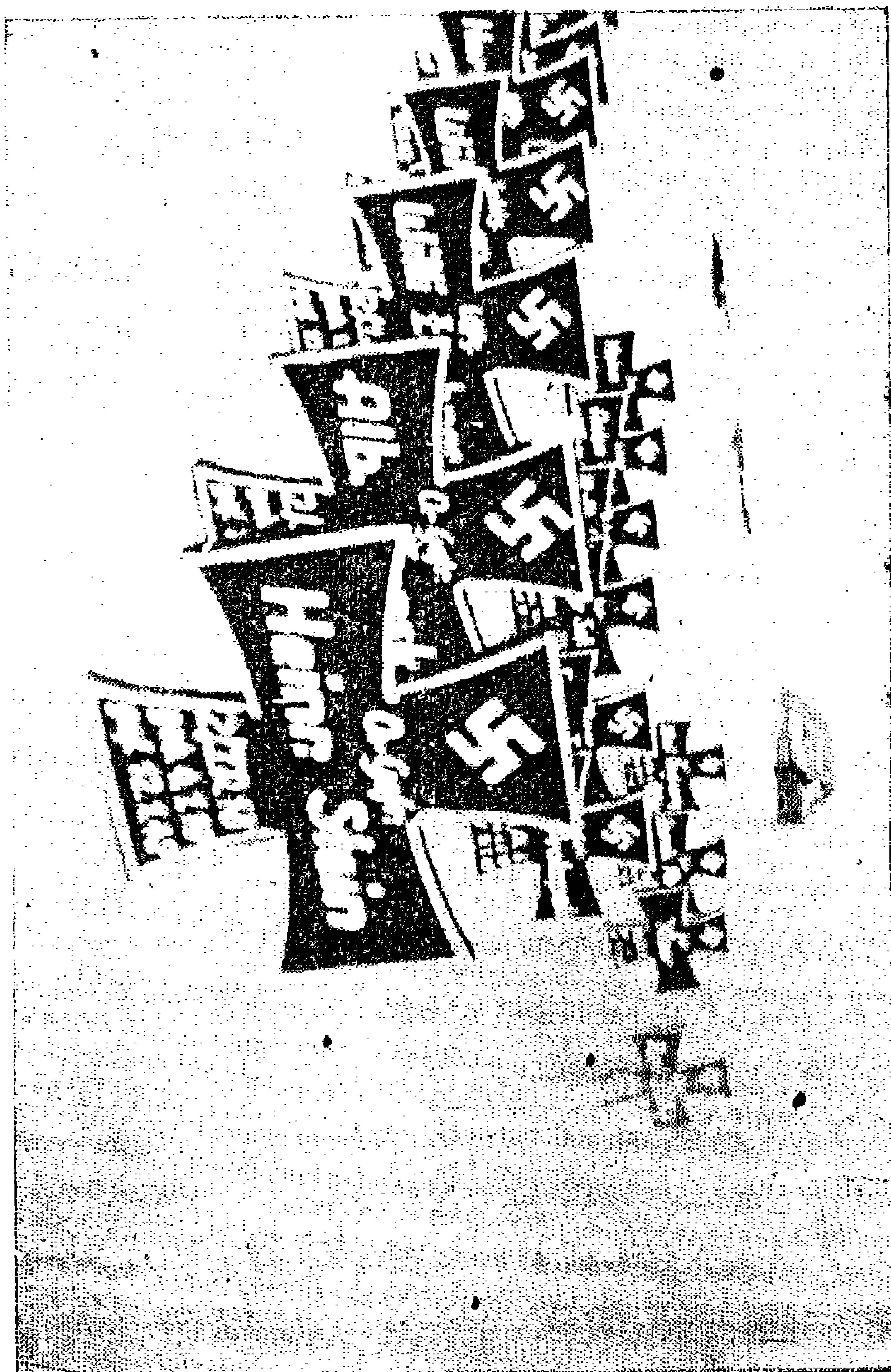
وقد قامت المخابرات الألمانية بإدماج الضابط الإيطالى المدعو روبرتو فى هذه الشبكة وكان يعمل معهم فى أثينا . وقد استفاد الألمان كثيراً من معلوماته التى أمدهم بها فيما بين مايو ١٩٤١ إلى يناير ١٩٤٢ إلا أن معلومات المخابرات الإيطالية كانت دائماً لا يعتمد عليها .

وفى منتصف يونية عقد فى برلين مجلس للحرب ورأسه الأدميرال كناريس رئيس المخابرات الألمانية وبدأ الأدميرال كلامه قائلا: « إن روميل يحتاج إلى

معلومات وثيقة عن القاعدة البريطانية فى مصر ، لأن استراتيجيته تعتمد على الخداع والمفاجأة ، وأى معلومات مهمة نرسلها له تساوى أكثر بكثير من إرسال عشرين دبابة إليه ، وعلى العموم لا يصله من الدبابات شىء الآن لأنها ترسل إلى روسيا » .

ونتيجة لذلك فقد وضعت خطة جريئة وتضمنت تسلل اثنين من الجواسيس إلى القاهرة وحيفا . وبعد مؤتمر برلين هذا ظهر وجهان جديدان من رجال الفدائيين التابعين لريتر الموجودين فى درنة وكان أحدهما رجلا ودوداً فى حوالى الخمسين من عمره يدعى «كلين» وكان اسمه المستعار «باثاشون» ، أما زميله فكان رجلا رياضيا أزرق العينين يدعى «مولينبروخ» ، وكان كلاهما يتكلم العربية بطلاقة كما كان مولينبروخ يعرف لهجات عديدة منها . فقد عاش كلاهما سنوات عديدة فى البلاد العربية ، فعاش كلين فى الإسكندرية ومولينبروخ فى حيفا وكان عليهما أن يعودا إلى هاتين المدينتين لتركيب أجهزة إرسال سرية بهما ثم إنشاء مركز للتجسس ، مع تجنيد عملاء جدد وعليهم كذلك أن يتصلوا برجال المقاومة المصرية. وكانت هذه هى الخطوة الأولى التى اتخذت لتسلل الجواسيس الألمان إلى القاعدة البريطانية فى مصر .

ودارت مناقشات طويلة حول طريقة إرسالهم . وهل يتم إرسالهم بغواصة أو بالسيارات عبر الصحراء؟ وقد تبين تعذر هاتين الوسيلتين ولم يبق إلا وسيلة واحدة وهى إسقاطهما من الجو ، فيوجد طريق للقوافل يمتد من واحة الفرافرة إلى ديروط على النيل ، وكان «المازى» يعرف تلا على بعد ستين ميلا من النيل ويعتبر علامة مميزة فى الصحراء ، وجنوب هذا التل توجد مساحة واسعة من الأرض الصلبة تستطيع الطائرة الهبوط عليها بسهولة . وتستطيع الطائرة قطع المسافة بين درنة وهذا المكان فى أربع ساعات ونصف ، أى يحتاج من تسع إلى عشر ساعات للذهاب والعودة . ولكن السؤال الذى تردد : كيف يمكن للجواسيس أن يقطعوا الستين ميلا من الصحراء التى تفصلهم عن النيل ؟ هل على الأقدام؟ إن معنى ذلك هو الموت المحقق . وكان المازى يعرف حلا آخر ، فقد قطع الرحلة قبل الحرب بالسيارة . وبالطبع فإنه لا يمكن حمل سيارة فى الطائرة . ولكن ما القول عن موتوسيكل فإن هذا من الممكن شحنه فى الطائرة . وقد حسب حساب كل شىء (الحمولة - الوقود - التموين - والملابس والنقود) واستمرت عملية التقديرات



الخسائر الجسيمة الألمانية فى روسيا مما أدى إلى إرسال جميع التعزيزات لهذا الميدان مما أضعف موقف روميل فى شمال أفريقيا

المختلفة . وبعد بحث طويل عثر على موتوسيكل خفيف الوزن وجهزت الطائرة وأصبح كل شيء معدا فى ١٦ يوليو ١٩٤١ .

كان الجو فوق مطار درنة ساخناً كأنه لهيب الفرن . ولم تبدأ الرحلة بداية حسنة فالطائرة التى كان عليها أن تسقط الجواسيس انفجرت إحدى عجلاتها وكان على ريتر أن يقرر: هل يؤجل العملية أو يعدل من خطته ؟وقال: « إن العمل لا بد أن يتم وسوف تقوم طائرة الحراسة بالعملية وتقوم الطائرة المصابة بعملية الحماية من الجو . وحلقت الطائرتان على ارتفاع منخفض فى أول الأمر، وعندما دخلنا مجال العدو الجوى ارتفعنا إلى ستة آلاف قدم . وعندما وجدنا أن الجو على هذا الارتفاع يملؤه الغبار زادتا من ارتفاعهما إلى ما بين تسعة آلاف واثنتى عشرة ألف قدم . ومرت ساعة وساعتان وثلاث وأربع ، وبعد طيران دام خمس ساعات أشار المراقب الجوى إلى مرتفع من الأرض . وهبطت الطائرة إلى ارتفاع عدة مئات من الأقدام، وكانت الشمس تميل نحو الغروب عند الأفق . وكان عليهم أن يسرعوا ، وظلت طائرة الحراسة تحلق على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم . وأخذوا يتساءلون: «لماذا لم يهبط الطيار ؟» وسأله الرائد ريتر: « لماذا لم تهبط ؟ » إلا أن الطيار الشاب كان لا يزال يبحث عن أرض مناسبة ، وأمره النقيب لينج « اهبط بالطائرة يا رجل » وأوقظ كلين ومولينبروخ ، اللذين كانا نائمين فى مخزن القنابل ، وأنزل الطيار جناحيه استعداداً للهبوط إلا أن الطيار واصل طيرانه فوق الطريق . وصاح لينج : «بحق السماء .. اهبط » إلا أن الطيار لم يهبط وكان ضوء النهار يختفى بسرعة . وفى ثوان قليلة سوف يحل الظلام ولا يستطيع أحد أن يقرر عما إذا كانت هناك صخور على الأرض الصلبة التى تعتبر مهبطا طبيعيا . وصاحوا فى الطيار « أنزلها يا رجل .. أنزل الطائرة » . وكان فى استطاعتهم مشاهدة اتجاه الريح من الدخان الذى أحدثته قنبلة الدخان التى أطلقوها إلى الأرض . واستعد الطيار للهبوط إلا أنه عاد وارتفع بمقدمة الطائرة . وصاح ريتر: « ما الأمر » وسرعان ما شاهدوا بأنفسهم السبب . فعلى مرمى الأفق كانت توجد عربة استطلاع بريطانية تسير على مهل وتثير زوبعة من الغبار . ولم يتمكن الطيار ولم يكن فى استطاعته – بعد انتزاع خزانات الوقود والمدافع والدروع قبل أن يطير – أن يجازف بالدخول فى قتال مع عربة الاستطلاع . ولذا يجب أن ينتظروا حتى يخلو الطريق . فطاروا فى دائرة واسعة ثم استعد الطيار للمرة الثانية للهبوط . وأرسلت الشمس الغاربة ظلالا

غريبة إلى الأرض المتعرجة .

والآن يجب على الطائرة أن تهبط . وأمسك رُكّابها بكل قواهم فى المقاعد أمامهم ومرة أخرى عاد الطيار وارتفع . ونظر إليه النقيب لينج متسائلا وقال الطيار: « إن الأرض شديدة الوعورة . وسوف تتحطم الطائرة » .

وكان وجهه محمرا . وصاح لينج: « كلام فارغ إنها الظلال . فأشعة الشمس الغاربة تجعل كل ارتفاع فى الأرض قدره بوصة يبدو كأنه ثلاثة أقدام . والأرض مستوية استواء المهبط فى مطار تمبلهوف ، اهبط بالطائرة » ولكن كان الوقت متأخرا فقد بدأ الطيار فى دورة جديدة . وما إن أصبح مقدم الطائرة فى اتجاه الريح حتى كانت الشمس قد اختفت . ورغم ذلك فقد قام بمحاولة أخرى . ولكن الأرض أصبحت كقطعة من القماش الأسود وذلك لهبوط الليل الأفريقى . ولم يجرؤ الطيار الشاب على الهبوط . وغمغم قائلا « لا أستطيع أن أفعل » وحملق فيه ريتر ولينج ثم سأله ريتر بحنق: « أيها المساعد الطيار هل تدرى ماذا أنت صانع؟ » وعند ذلك ازداد عناد الصف ضابط الطيار وأجاب: « إننى مسئول عن الطائرة يا سيادة الرائد ولو تحطمت .. » ولم يكمل جملته لأن الجميع كانوا يعلمون ما الذى ينوى أن يقوله. فلو تحطمت الطائرة فإن المسئولية تقع عليه لأنه لم يؤمر بالهبوط بطائرته فكان واجبه الطيران للحراسة فقط . وكان يطير فوقهم على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم طيار مجرب ومن واجبه – حسب الأوامر– الهبوط بطائرته إلى الأرض . وقال لينج: «يجب على الجاسوسين أن يقفزا » فأجاب ريتر « وماذا عن الدراجة فإنهما لا يستطيعان أن يسيرا على الأقدام ستين ميلا خلال الصحراء إلى وادى النيل ، علاوة على أن الطعام والماء يكفيهما لمدة ثلاثة أيام فقط وليس لمدة أسبوع عبر الصحراء» .

وكان كلين ومولينبروخ ينامان فى حجرة القنابل ولم يعرفا شيئاً عما حدث ، وقام الأخير واقترب من ريتر وسأله: « ما هى المشكلة يا سيادة الرائد ؟ » فهز ريتر كتفيه واستدار تجاه لينج وقال: « كلا، كلا إنهما لا يستطيعان القفز ، ويجب أن نؤجل العملية، ونأمل أن يعطينا سلاح الطيران الطائرات لمحاولة ثانية » ورد النقيب لينج : « دعنا ندعو لك بذلك » وصاح ريتر بغضب « فلنعد إلى درنة» وهز مولينبروخ رأسه وزحف إلى غرفة القنابل ليخبر كلين ولم ينبس أحد بكلمة . وأخذ النقيب لينج ينقر بأصابعه على ظهر كرسى المراقب الجوى أما ريتر فكان غاضباً جدا من نفسه لأنه غير الطائرة بأخرى وكان يستطيع أن يتصور خيبة الأمل وهى

ترتسم على وجه «المازى» عندما يعلم ما تم بسبب سوء الإدارة . وأثر أزيز الطائرة واهتزازها فى الراكبين فجعلهم يشعرون بالنعاس . ولمعت ألف نجمة فى سماء الليل الأفريقى وهى تطل عليهم من نوافذ غرفة القيادة .

٥ - سقوط طائرة الجواسيس فى البحر :

أما عامل اللاسلكى فقد أخذ يلهوا بجهاز إرساله ويستعد لاستقبال إشارة الموافقة بالهبوط . نعم فهذه هى محطة إرسال درنة التى اتصلت بهم وأخذت الرسالة تنقل تباعا نقطة وشرطة ثم نقطة وشرطة . وأخذ قلمه يتحرك بسرعة فوق الورقة ثم جاء صوت المذيع : « غير مسموح لكم بالنزول فى درنة لأنها تتعرض الآن لهجوم جوى للعدو ، توجهوا إلى مطار آخر » ثم حدث شىء آخر لكى يزيد الأمور سوءا فقد اتجهت كل الأعين إلى عداد الوقود على لوحة القيادة . فهل لديهم الوقود الكافى لكى يصلوا إلى بنى غازى التى تبعد مائتى ميل ؟ وقال لينج: « ربما نستطيع ذلك » . وبينما أخذوا يحسبون المسافة وكمية الوقود أخذ صوت المحرك الأيسر للطائرة يضطرب . ثم صمت الموتور وتوقف المحرك عن العمل ولم يبق سوى طريق واحد وهو أن يطيروا إلى درنة بالرغم من الهجوم الجوى البريطانى . وفى هذه اللحظة أطلق الرامى الخلفى النيران على قاذفة بريطانية وغطس الطيار بطائرته ليتجنب الاشتباك . فهل تآمرت كل الظروف على إحباط هذه العملية ؟ . وقال عامل اللاسلكى: « جهاز الاستقبال توقف عن العمل وعلينا أن نبحث عن مهبط اضطرارى على الساحل » وقال الطيار: « إن هذا مستحيل يا سيادة الرائد . فكيف لى أن أعثر على مثل هذا المهبط على الشريط الساحلى الضيق ؟ ».

وهبط بطائرته إلى أسفل وقال لينج: « نحن فوق البحر » وقال الطيار: « لم يبق لدينا من الوقود إلا ما يكفى للطيران لمدة عشرين دقيقة » ورد عليه لينج قائلا لعامل اللاسلكى « أرسل إشارة الاستغاثة إلى سلاح الإنقاذ البحرى » ثم قال موجها كلامه للطيار ببرود: « أيها الطيار لا تنس أن تخفض ذيلك عندما تهبط على الماء » وكان الليل حالكا ، والسكون مثل سكون الموت ، فقد توقفت الآلات وكان موقفا صعباً للغاية ، إلا أن الطائرة كانت من طراز هينكل ٣ لذلك ظلت سابحة فوق الماء، فقد أعطتها خزانات الوقود الفارغة القدرة على الطفو، وزحف عامل اللاسلكى والميكانيكى والجاسوسان إلى مؤخرة الطائرة . وبما أن الطائرة نزلت على الماء بذيلها أولاً فارتفعت غرفة القيادة ثم غرقت فى الماء ثم خرج منها كل ركاب

الطائرة عدا موليبنروخ الذى سقط تحت صندوق فألقاه على الأرض ، وخلال الظلام والصدمة الأولى لم يلاحظ الآخرون ذلك . وفتحوا باب الطائرة وسرعان ما كانوا يسبحون فوق غرفة القيادة ، وأخرجوا قوارب من المطاط . وأقبل الطيار سابحا نحوهم . ولكن أين موليبنروخ والنقيب لينج ؟»

وزحف عامل اللاسلكى عائداً إلى داخل الطائرة . وتعثر فى قوائم الطائرة الملتوية والموتوسيكل وصناديق التموين . وشعر بساق فصاح: «موليبنروخ» وهو يجذب الساق فلم يسمع صوت أو حركة فقد تحطم رأس وصدر موليبنروخ وفارق الحياة . وبما أن عامل اللاسلكى لم يستطع شق طريقه إلى غرفة القيادة اضطر إلى العودة .

فما الذى كان يحدث فى غرفة القيادة ؟ فقد تسلل الماء خلال الباب الذى نجا منه الطيار . وكان ريتر يجلس هناك فى ذهول فقد اصطدم رأسه بجانب الطائرة عندما هبطت إلى الماء ، وتدفق الماء حتى غطى ركبته . وحاول عبثًا أن يقف إلا أن ذراعه الأيمن كان قد تحطم . وأمامه فى مقعد المراقب الجوى كان يجلس النقيب لينج وقد وصل الماء إلى صدره . وكان هو الآخر يحاول أن يخلص نفسه إلا أن ذراعيه كانتا تسقطان ثانية فى الماء وسقط رأسه على صدره وصاح ريتر قائلا « لينج، يجب علينا أن نخرج من هذا المأزق . ما الذى حدث لك ؟ » وغمغم لينج بشيء واستعاد صوابه وجر نفسه إلى الباب . وساعده ريتر بدفعه بكتفه وأصبح لينج طليقا من حبسه . وانزلق فى الماء وجذبه الآخرون إلى الزورق .

ثم صعد ريتر إلى مقعد الطيار وانحنى لمدة وجيزة ليستعيد أنفاسه وسمع لينج ينادى: « تعال يا سيادة الرائد ، إن غرفة القيادة سوف تتحطم فى أية لحظة » ولم يكن لديه حزام للنجاة علاوة على أنه لا يستطيع السباحة بذراعه الأيسر فقط، أما ذراعه الأيمن فكان معلقاً كأنه كتلة من الرصاص وكانت تؤلمه للغاية ولذلك قام بالسباحة على ظهره فقط . وصاح بصوت عال محاولا أن يبقى على اتصال بالرجال الموجودين فى القارب . وأخيراً تمكنوا من الوصول إليه بالقارب . ثم غرقت الطائرة وأصبحت قبراً لموليبنروخ .

ومكثوا فى الماء اثنتى عشرة ساعة وكان الزورق به أربعة رجال واثنان معلقان بحبال النجاة فى الماء فلم يتسع القارب لأكثر من أربعة . وكسر ذراع ريتر

الأيمن ، أما كلين فقد خلع كتفه أما لينج فكسر له عدة ضلوع . وقام الرجال غير المصابين بالتجديف طوال الليل حتى ظهر اليوم التالى عندما قذفهم المد على الساحل بين درنة وبريس ، وبعد سير مضن خلال الصحراء وصلوا إلى قرية عربية والعطش يكاد يقتلهم ، ومن هناك نقلتهم طائرة تابعة لسرب سلاح الإنقاذ الصحراوى ، أما الطائرة الثانية فقد وصلت إلى بنى غازى ، ولم يبق فى خزان وقودها سوى قطرات من الوقود .

وهكذا انتهت المحاولة الأولى للمخابرات الألمانية لتوصيل جاسوسين إلى القاهرة، أما قائد سلاح الطيران الألمانى فى أفريقيا فغضب وأعلن أنه لن يعطيهم طائرات بعد ذلك ، ونقل ريتر بالطائرة إلى مستشفى فى ألمانيا وتولى «المازى» قيادة الفدائيين بعده .

الفصل العاشر

التقدم إلى مصر

الفصل العاشر

التقـــدم إلى مصـــر

١ - عملية السـلام : (انظر اللوحة رقم ١٤ أ)

كان «المازى» الخبير فى شئون مصر يعرف أكثر من أى فرد آخر أهمية القاهرة كمركز للتجسس . فهو يعلم على سبيل المثال قيمة الرسائل اللاسلكية التى ترسل من الملحقين العسكريين الأمريكيين فى القاهرة إلى واشنطن والتى كانت تلتقط وتحل شفرتها بواسطة المخابرات الألمانية والإيطالية ، والفضل فى ذلك يرجع إلى مهارة الجاسوس الإيطالى «بيامكا بيرجامى» . وعن هذا الطريق تلقى روميل منذ أغسطس ١٩٤١ أهم المعلومات التى أثبتت قيمتها العظمى فى كل انتصاراته الحربية فى شمال أفريقيا .

وذات يوم قال المازى لنفسه: « إن هذا المصدر قد ينقطع لأن أى قائد عسكرى لا يستطيع أن يتحمل تسرب الأنباء باستمرار إلى العدو لزمن طويل فلو حدث خطأ بسيط أو نوع من الخيانة أو الإهمال فإن هذا المصدر سوف ينضب » . وكان روميل لا يزال يحصل على الكثير من الأسرار فى شتاء ١٩٤١ إلا أن المازى كان يرتجف عند التفكير فى أن المدرعات الألمانية قد تصبح فى ذات يوم بدون هذه المعلومات الواردة من القاهرة . وأخيراً كان فى أجندة روميل لسنة ١٩٤٢ قرار بتقدم جيش البانزر الأفريقى إلى ضفاف النيل ، وطلب روميل من المخابرات الألمانية تقريراً مفصلا عن العدو فى قطاع مصر وعن درجة استعداده ، والمناطق العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية المهمة . واحتياطات الأمن من خطر المفاجأة والحماية من أعمال التخريب عندما يدخل الألمان دلتا نهر النيل . وبعناد روميل المعتاد أصر على تنفيذ طلباته . وبعد تجارب رجال المخابرات فى عملية المصرى باشا ومحاولة ريتر لنقل الجاسوسين إلى القاهرة . وقد رأى الرجال المجربون مثل الكونت المازى أنه لا يوجد سوى احتمال واحد للنجاح ، وهو أن العميلين يجب أن يدخلا مصر بالطريق البرى خلال الصحراء وقد عين كناريس المازى رئيسا لهذه العملية . واختار اثنين من مركز رئاسة المخابرات فى برلين كانا قد قضيا سنوات

طويلة فى شمال أفريقيا . وهما أبلر وساند ستيدت ، أما عملية النقل والتفاصيل الفنية فقد تركت إلى قيادة الآلاى ٨٠٠ المسمى براندبرج لهر وهو الآلاى الذى يتكون من الفدائيين . وهذه.الوحدة من رجال المخابرات كانت تحت الإشراف المباشر للأدميرال كناريس .

وهذه الوحدة أخذت اسمها من مدينة براندبرج حيث أرسلت أول سرية منها إلى الحدود البولندية سنة ١٩٣٩، وفى أكتوبر ١٩٤٢ أصبحت هذه السرية آلاى ، وفى ديسمبر ١٩٤٢ زادت حتى وصلت إلى فرقة . وفى مسارح الحرب المختلفة كلما احتاج الأمر إلى عمليات خاصة أو غارات للفدائيين أو عمليات خلف خطوط العدو فإن رجال براندبرج يتقدمون للعمل . وكان أغلبهم من الألمان الذين عاشوا فى خارج ألمانيا ويجيدون لغة أو لغتين أجنبيتين بالإضافة إلى لغتهم الأصلية . وكثير منهم كان لا يزال يحمل جوازات سفره الأصلية التى أعطتها له دول الأعداء . وقد حقق رجال براندبرج الكثير من النجاح ، كما أبلت الوحدات التى تماثلها فى الجانب البريطانى بلاء حسناً وهم مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، وكان الرجال الذين اشتركوا فى عملية « سلام » (وهو الاسم الكودى لعملية عبور المازى للصحراء) كلهم من آلاى براندبرج أو من الملحقين عليه مؤقتًا ، وكانوا جميعًا ممن عاشوا فى الشرق سنوات طويلة فيما عدا القليل منهم ، وكانوا يعرفون عادات البلاد ، وكانوا فى مستوى صحى جيد لتحمل متاعب الرحلة الشاقة .

وقد استغرق الإعداد لهذه العملية قرابة ثلاثة شهور ونصف ، ونتيجة للهزيمة التى لحقت بالألمان فى شتاء ١٩٤١ والتى أرغمت روميل على التراجع من طبرق والسلوم وممر حلفاية إلى العقيلة ، فكان من الضرورى العدول عن نقطة الابتداء الموضوعة أصلا للعملية ويجب الابتداء من طرابلس التى تبعد ألفاً وسبعمائة ميل قبل أن يصل العملاء إلى هدفهم عند أسيوط على النيل . وهى نفس المسافة بين موسكو ومدريد أو من رأس الشمال فى النرويج إلى صقلية . وجزء كبير منها يقع فى أرض العدو وعبر الصحراء التى لم تطأها قدم إنسان ، علاوة على ذلك فكان على الحملة الاختفاء لأيام طويلة أثناء الرحلة وقد جهزت بالإمدادات التى تكفيهم لمدة ستة أسابيع ، وقام سلاح الطيران الألمانى بمدهم بتجهيزات خاصة لا يملكها الجيش للتغلب على الصعوبات فى الصحراء ، وخاصة فى بحر الرمال الأعظم . فقد جهزت بمشايات متحركة للعربات ذات السُست القوية التى صنعت خصيصًا فى إحدى المصانع فى برلين وكانت هذه المشايات توضع أمام العربات عندما يكون

هناك احتمال لغوصها فى الرمال ، وبالإضافة لذلك كانوا فى حاجة إلى كميات كبيرة من المعدات الخاصة التى كان الحصول عليها صعبا للغاية وخاصة فى السنة الثالثة من قيام الحرب .

ومن المشاكل العسيرة التى قابلتهم البحث عن جهاز إرسال لاسلكى ملائم على أن يكون مداه بعيداً وفى نفس الوقت يمكن استخدامه فى المسافات القصيرة .

كما يجب ألا يزيد عن حجم معين ووزن محدد ، وكان تنفيذه يعتبر عملا رائعًا من جانب الفنيين فى قيادة الجيش الملحقين بمحطة إذاعة القيادة فى ستاندهوف وقد تمكنوا من تطوير وصنع هذه الأجهزة فى الوقت المحدد . وفى بداية فبراير ١٩٤٢ بدأ العميلان وثلاثة من عمال اللاسلكى تحت قيادة مساعد من الفرسان وهو فون ستسيفن رحلتهم من برلين إلى طرابلس ومعهم أجهزتهم بالكامل. وركبوا القطار إلى نابولى وكان عليهم أن يكملوا المرحلة التالية من رحلتهم فى طائرتين من طراز يونكرز ٥٢ . وهذا شىء يسهل قوله ويصعب عمله ، فقد كان كل النقل الجوى مخصصًا لنقل الإمدادات للجيش الأفريقى . وسافر المساعد إلى روما وأمكنه الحصول على الطائرتين اللازمتين من الأسطول الجوى المحلى . وبالرغم من أن السرية كانت مطلوبة وفى أشد الحاجة إليها إلا أن الموقف كان معقداً وصعباً ولكن أحد رجال المخابرات الكبار ذلل هذه الصعوبات .

وفى طرابلس خصصت فيلا لتكون مركزاً لهذه العملية . وابتدئ العمل فى إعداد العربات فجهزت لوارى إنجليزية وكانت عبارة عن عربتين فورد ثقيلتين وعربتين فورد حمولة نصف طن لنقل الأفراد وتعرف باسم « فليبرز » وقد كشف عليها بدقة وجربت كما جهزت بالمدافع الرشاشة الخفيفة بجوار السائق .

وبما أن الجزء الأكبر من الرحلة سيتم فى أرض غير معروفة فكان عليهم أن يتعرفوا على طريقهم بواسطة البوصلة . فجهزت ثلاثة لوارى بتوصيلات « اسكانيا » الكروية . ووضع فى لورى القائد جهاز اسكسبانت (١) للحالات الضرورية . وكانت اللوارى تحمل شارة الصليب السوداء والبيضاء التى تستخدم عادة على العربات الألمانية ، وعلى كل فقد كانت العلامات مغطاة بالرمال حتى يصعب رؤيتها أو تمييزها ولو عن قرب ، وبهذه الطريقة فإن شروط معاهدة لاهاى قد طبقت .

---

(١) جهاز للملاحة لتحديد المكان بالنسبة لخطوط الطول والعرض وذلك بقياس الزوايا .
(المعلق)

وارتدى العملاء ملابس عسكرية ألمانية وذلك للحيلولة دون إعدامهم كجواسيس لو تم القبض عليهم .

٢ - مغص الصحراء :

وفى يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٢ كانوا على استعداد لبدء العمل . وقطعوا المسافة السهلة نسبيا فى الرحلة حتى واحة جالو ، وكانت تحتلها القوات الإيطالية ، وفى جالو كان فى انتظارهم أول المفاجآت غير السارة ، فالخرائط الإيطالية كانت غير دقيقة فكلها تشير إلى أن الأرض التى عليهم أن يقطعوها بالسيارة صالحة للسير عليها بسرعة وسهولة حتى المحطة العسكرية البريطانية فى واحة الداخلة .

وطبقًا للمعلومات التى حصلوا عليها من الأهالى وخبرة المازى كان يوجد على بعد ٣٠ ميلا شرق (جالو – الكفرة) حزام من الكثبان الرملية لا يمكن اجتيازه إلا بالسير المتعرج . وقام المازى بجولة استطلاعية بالطائرة أكدت له أن الكثبان الرملية الضخمة تمتد بضعة مئات من الأميال ، وهذا معناه زيادة الكمية المطلوبة من الوقود عما قدر لها . ويجب تقدير كمية الوقود تقديراً جديداً . ثم جاءت المفاجأة الثانية فظهر أن ماء الواحة يفسد إذا حفظ فى أوعية معدنية . وكان عليهم أن يعيدوا ملء الصفائح من آبار على بعد ١٢ ميلا .

أما المازى فكان مقتنعا أنها مسألة حياة أو موت . وبدأ فى السير عند طلوع الشمس وكان كل رجلين فى لورى . وجلس المازى وأبلر فى اللورى الأول . وكان عددهم ثمانية . أما الطريق فكان صلبا وكأنه طريق مرصوف فقد اكتسحت الرياح الرمال الناعمة من فوق الأرض الصلبة ، وهذا مكنهم من السير بسرعة ٦٠ ميلا بدون عناء . ولم يوجد على الطريق خطوط تلغراف أو خنادق أو أرصفة وكان الطريق يمتد على مرمى البصر . وفى اليوم التالى بدأت المتاعب ، فقد اعترضت الكثبان الرملية الكبيرة طريقهم وكأنها أمواج البحر فى يوم عاصف ولم يسبق أن وطأت قدم إنسان هذه الأماكن أو قاد فيها إنسان عربة .

واجتياز الكثبان الرملية فى الصحراء له فن خاص ، فالسيارة يجب أن توجه بحيث تصبح على زاوية قائمة من قمة الكثب ، ثم يقودها السائق بكامل سرعتها إلى قمة التل ولكن عليه أن يتحكم فيها وإلا سقطت منه من الناحية الأخرى التى قد يصل عمقها ما بين ١٠ أقدام إلى ٦٠ قدما وبذلك يستحيل إخراجها من الهوة التى تسقط فيها . ويجب قبل الوصول إلى القمة أن يتم التحكم فى عملية القيادة حتى

يمكن الانزلاق من الناحية الأخرى من القمة إلى المنحدر . فتسلق الكثبان يحتاج إلى قيادة السيارة بكامل قوتها مع القدرة على التحكم فى سرعتها حتى يمكن التغلب على مشكلة الصعود ، وهذا العمل كان يتكرر كلما ظهرت الكثبان . وواصلوا السير على هذا الحال لمدة يومين ولم يتقدموا خلالها سوى ٢٠ ميلا وكل ذلك تم فى درجة حرارة وصلت إلى ١٢٠ درجة فهرنهيت أثناء النهار ، أما فى الليل فكانت الحرارة تهبط إلى ٢٠ درجة فهرنهيت ويتجمد الرجال من شدة البرد . وفى اليوم الثالث سقط الطبيب الشاب مريضا بمغص المعدة وهو مرض صحراوى ينشأ من شدة الإرهاق ، ومن أعراضه فقد التوازن والتعرض لنوبات من الإغماء ، ولم يكن فى استطاعتهم مواصلة الرحلة ومعهم مريض فى حالة خطرة وخاصة أن المريض هو الطبيب .

ولم يكن هناك أمل فى استعادة الطبيب لوعيه من غيبوبته فى القريب العاجل ، وتعتبر محاولة إقامة معسكر لاستكمال شفائه إضاعة للوقت وفكرة فاشلة ، ومما زاد الطين بلة أن ساء حال قلب فون ستسيفن لأنه ظل لمدة شهور طويلة القوة الدافعة للحصول على المهمات والمسئول عن الاستعدادات الفنية للرحلة ، وفعلا كان هو العبقرى فى الناحية الفنية لعملية سلام ؛ إذ قام بحساب كل شىء وكافح مع الإدارات المختلفة والجهات المعنية فى سبيل الحصول على كل علبة من علب اللحم المحفوظ أو القهوة أو البقول وحتى فى سبيل الحصول على المسلى الصناعى اللازم لطعام أفراد الرحلة ، وبالإضافة لذلك قام بالتحقق من صلاحية المياه للشرب ، وكان هذا من حسن الحظ لأن المازى قبل التقارير الإيطالية على علاتها ، وعليه قرر ملء الصفائح من مياه واحة جالو إلا أن أحد الأعراب الذين يساعدهم سألهم: « هل تنوون الاحتفاظ بالماء لمدة طويلة؟ » فرد عليه ستسيفن قائلا: «بالطبع وهل هذا من شأنك لتسأل عنه ؟ » فأجابه الأعرابى: « كلا يا سيدى إنه ليس من شأنى ، ولكن ما أردت قوله إن هذا الماء لن يصلح للشرب بعد ثلاثة أيام من حفظه بالصفائح » .

ورغم أن المازى كان يعتقد فى صحة التقارير الإيطالية إلا أن ستسيفن أرسل عينة من الماء للتحليل بواسطة خبراء السرية ٦٥٩ للأبحاث الهيدروليكية وجاء التقرير يفيد بأن الماء يفسد بعد ثلاثة أيام . ومن ثم فكان عليه أن يملأ صفائح الماء من بير بوتافول على بعد ١٢ ميلا من الواحة .

وكان المساعد ستسيفن يعمل عشرين ساعة فى اليوم ، والآن قدمت له

الصحراء كشف الحساب عن هذا الإرهاق . وخاصة لا يوجد معهم طبيب يستطيع المساعدة . ولذلك قرر المازى أن يفعل ما يفعله أى شخص فى مثل موقفه هذا وهو أن يعود أدراجه . وبعد ثلاثة أيام عادوا ثانية إلى واحة جالو .

وبإعادة النظر فى هذا الموقف كله نجد أن سوء الحظ - هذا الذى لازمهم - ظهر فيما بعد أنه كان فى صالحهم ، فقد عرف المازى أنه لن يستطيع قهر بحر الرمال الأعظم ، ومن ثم فبعد الاستعداد بأمداد أكثر حاول عبور الصحراء عن طريق آخر .

وبدءوا رحلتهم مرة ثانية يوم ١١ مايو . ولم يكن معهم فى هذه المرة الطبيب أو ستسيفن كما أنهم تركوا الرقيب بويل هارز لمرضه . وساروا فى طريقهم فى محاذاة « الجلف الكبير » وهو طريق حدده الإيطاليون بأعمدة حديدية طويلة وأهرامات خرسانية وكانت تتاخم بحر الرمال الأعظم .

وكانت شمس الصحراء المحرقة مرة أخرى رفيقتهم ، وفى اليوم السادس قابلوا شيئًا سبق أن رآه الرحالة الألمانى فريدريك هوريمان لأول مرة سنة ١٧٩٨ ووصفه بالتالى :

« لقد سافرنا لمدة سبعة أيام عبر الصحراء الصخرية السوداء ومن المؤكد أنها من أكثر أماكن العالم وحشة وجفافا . وهذا السهل الصحراوى يحتمل أن يكون منظره المخيف يرجع إلى ثورة بركانية » . ودخل الفدائيون التابعون للمازى حقلا مماثلا من صخور البازلت السوداء . وكان البدو يطلقون عليها اسم « جارة » . وهذه الحقول نتجت عن المخلفات البركانية لثورة بركان حدث قبل فجر التاريخ . وكانت الصخور التى تغطى الأرض متفاوتة الأحجام كما لو أن يد شيطان هائل قد بعثرتها، فبعضها فى حجم السيارة والبعض الآخر فى حجم قبضة الرجل . وقام المازى بإجراء الاستطلاع وتغيب لعدة ساعات . وعاد أخيرا بعد أن عثر على طريق يمكن السير فيه وبسرعة لا تزيد عن خمسة أميال فى الساعة . وتابع الفدائيون سيرهم خلال هذه الأرض الوعرة فى طريق متعرج صعب ، وعبروا هذه المنطقة فى مدة ست ساعات وظهر أمامهم منظر رائع غريب وهو « الجلف الكبير» ، إنه عبارة عن مرتفع ضخم يصل ارتفاعه فى الغرب إلى ٢٥٠٠ قدم ثم يهبط بانحدار شديد جهة الشرق حتى يصل إلى رمال الصحراء .

٣ - كهف الجلف الكبير :

ومرة أخرى تقدم المازى ذلك المغامر بطبيعته الذى اقترن اسمه بجيش البانزر الأفريقى وكان يتحرك فى الصحراء وكأنه بدوى قضى كل حياته فيها ، أما حاسته بالنسبة للاتجاهات فكانت أسطورية . وأى شىء يراه مرة واحدة يظل مطبوعا فى ذاكرته إلى الأبد . وقال لرفاقه بلهجته الهنغارية: « لقد تجولت هنا عام ١٩٣٠ ، وبعد ذلك بعامين كنت أول أوروبى يعبر الجلف الكبير من الشرق إلى واحة الكفرة . وكان معى صديق بريطانى وهو كلايتون وهو الآن يعمل مع مجموعة الصحراء بعيدة المدى ومن الجائز أن يأسرنى ، وفى تلك الأيام كنا من أعز الأصدقاء وقمنا معاً باستكشاف واحة زرزورة الأسطورية . واسمها يعنى واحدة الطيور الصغيرة ، وبهذا مكنا الشاعر أرنولد هوليريجل من تأليف قصته الخيالية التى تقع أحداثها فى العصر القديم فى أرض المراعى القديمة التى يحكمها تيبوس . وفى خريف ١٩٣٢ كنت أعمل دليلا للبروفسور ليوفريتس المستكشف الأفريقى العظيم وأطلعته على الرسوم الرائعة الموجودة فى الكهف الواقع فى الجلف الكبير وهى قريبة من هنا عند المنحدر الغربى . فهناك بين الكثبان الرملية يختفى وادى الصور كما سميته ، وهو الاسم الذى تحمله الخرائط اليوم لهذا المكان . وكنت أول رجل أبيض يرى هذه الرسوم فى الكهف التى مضى عليها آلاف السنين .

وقد أدى وصف البروفسور ليوفريتس كما رآه فى هذا اليوم إلى ثورة فى قيمة الثقافة الأفريقية ، ولو كان لدينا الوقت لذهبنا لمشاهدة الهرم الحجرى المنحوت عليه اسمى ، وهو الهرم الذى بنيته تكريما للأمير المصرى المستكشف كمال الدين حسين سنة ١٩٣٣ » . وقد روى المازى كل ذلك بلهجة كما لو أنه يكسب عيشه من العمل كدليل سياحى فى أفريقيا . حقا أن المازى لرجل مرحل ذلك المغوارى الهنغارى الملكى النزيه الثائر الموالى للإمبراطور كارل بعد الحرب العالمية الأولى، فهو طيار ومغامر وسائق لسيارات السباق ، ومستكشف الصحراء والآن محارب فى جانب المحور ويعمل فى إحدى دوريات روميل الصحراوية .

وكان عليهم بعد ذلك أن يعثروا على طريق عبر الجبال .

وقال المازى: « لقد كنا هنا عام ١٩٣٧ قادمين من الشرق والآن على أن أجد المدخل من جهة الغرب » .

وفعلا كان المازى يبدأ دائماً رحلاته من الشرق قادما من دلتا النيل .

فكان يعمل دليلا على الطرق الصحراوية للمصريين والبريطانيين والمستكشفين والسياح والإستراتيجيين وكان هذا الكونت الهنغارى أفضل أدلاء الصحراء الليبية وكانوا لا يقدرونه دائما حق قدره ، وهو الآن يأخذ بثأره .

٤ - أرض الجان :

واستعان المازى بحاسته السادسة ووجد مخزنا للمياه كان قد تركه عام ١٩٣٧ عند أسفل الجلف الكبير . وكان الماء المدفون فى صفائح محكمة لا يزال صالحا للشرب وفتح المازى إحدى الصفائح وصبها فى أيدى الرجال المفتوحة فتذوقوه بحذر لأنه لم يكن متأكدا أنها كمياه الينبوع العذب ولكنهم شربوا منها وصبوا على وجوههم ، فيا له من تبذير . وخلف مخزن مياه المازى مباشرة أخفى لورى به مؤن تكفى لرحلة العودة وأرسلت إشارة لاسلكية بالشفرة لإبلاغ جالو ومحطات لاسلكى جيش البانزر عن مدى تقدم الرحلة ، وقد التقط عاملا اللاسلكى - أبرل وويبر وكلاهما من رجال البراندبرج - الإشارة وكانا فى خيمة فى منطقة نتوء برقة وبذا استطاع جيش البانزر تتبع رحلة فدائى « سلام » السرية .

وبعد ثلاث ساعات وجد المازى الممر الذى يستطيع عن طريقه عبور الجلف الكبير ، وعلى قمة الجبل أمر بوقفه . وأخذ يستطلع بهدوء مسافة ١٢٠ ميل وهى طول الجلف الكبير وقال: « ما أبدعه من مطار طبيعى لقد بهرنى قبل ذلك فى عام ١٩٣٧ ، إنه من الممكن أن يهبط هنا أسطول كامل على بعد ٤٠٠ ميل من النيل » واستمر المازى فى استطلاعه . وعند غروب يوم ٢٢ مايو - وكان ذلك يوم سبت- شاهدت المجموعة أضواء واحات الشارقة تلمع فى الخلاء تحت أقدامهم . ولما لم يكن فى استطاعتهم إشعال النيران خوفاً من معرفة العدو مكانهم ، فقد أشبعوا رغبة بطونهم بوجبة باردة مكونة من التونة المحفوظة والخبز الأسود والشاى البارد والشيكولاتة ، وكان من يرغب منهم فى التدخين عليه أن يجلس داخل العربة . ثم زحفوا إلى داخل حقائب نومهم وعينوا حارساً لأول مرة . وشرقت الشمس وكانت الشارقة مستلقية تحتهم وكأنها أرض الجان . وهى عبارة عن عدد من الواحات المتجاورة حيث يوجد الماء العذب بوفرة والخضرة والبدو ولكن كان هناك أفراد من الأعداء فى الأكواخ الخشبية . ولذا كان من المستحيل المرور فى الواحة . وكان من المحتمل ألا تكون كل منطقة أشجار النخيل محتلة بالقوات العسكرية . وعلى ذلك فقرروا التحرك بعرباتهم مستترين بغصون الأشجار . وتقدموا فى لوريين فى كل منها ستة رجال ، وكان المازى فى العربة القائدة ، وعند تفرع الطريق الرئيسى

ساروا فى الضيق المحكم إلى أصغر واحة ، وزمجر المازى: « يجب أن نأمل خيراً » ولكن ظهر العكس فقد كانت الواحة الصغيرة التى يوصل إليها الطريق محتلة ويقف بعض الجنود أمام اللوارى تحت النخيل ولا بد أنهم رأوهم . فأصدر المازى أمرا: «استمروا فى التقـــدم . وارفعوا سقاطات الأمان لأسلحتكم » وعندما مروا عليهم وجدوهم من قـــوات الحامية المصرية التى تحرس الواحات . ورفع الحارس يديه ونطق: «قف....! » وقال المازى لأبلر بالإنجليزية: « تقدم يا أبلر وأبلغهم بأننا الحرس الأمامى للفرقة » .

ووقفت العربة وقال أبلر بالعربية « نحن الحرس الأمامى لقائد الفرقة » .

وأشار إلى المرتفع خلفه وقال « ربما كان الجنرال شخصيا قادما من هذا الطريق » (الذى يبعد حوالى ألف ميل عن الخطوط الأمامية) وكان الحارس المصرى – بالطبع- لا يرتاب عندما أبلغه الجندى بوصول الجنرال باللغة العربية .

فلوح لهم بيده للمرور وسمعه المازى وأبلر يقول: « نأمل أن يزورنا جنرالكم» .

وتمتم المازى : « لا أظن » وكان يعنى روميل ، وقادوا عرباتهم بأقصى سرعة وعند ظهر اليوم التالى بعد أن اخترقوا ممر جبسة ، (وهو يعتبر نهاية الصحراء) ظهرت أمامهم أسيوط على وادى النيل .

ورفع المازى آلة التصوير التى يستعملها باستمرار خلال الرحلة وصور علامة الطريق المكتوب عليها « أسيوط ٥ ميل » وبجانبها كان مكتوباً باللغتين العربية والإنجليزية : « خطر . منحدر حاد . القيادة ببطء » .

وقال المازى لأبلر « خطر » وهو يحاول أن يظهر عدم الاهتمام ودخنا سيجارتيهما فى صمت ثم خلع الجاسوسان ملابسهما العسكرية ولبسا الملابس المدنية. وقد قام رجال إدارة المخابرات فى برلين بحياكة علامات لترزية فى القاهرة على السترة والسراويل فلم يهملوا شيئاً . أما حافظتاهما فقد زودتا بالخطابات الشخصية والصور والفواتير وإيصالات الفنادق . كما زودتا بحلقة مفاتيح بها مفتاح سيارة بويك أمريكية وعملات مصرية صغيرة ومفكرة نادى السيارات بالقاهرة مملوءة بالمذكرات والمواعيد، وباختصار كل ما يمكن أن يحمله شخص يقيم فى مصر ، حمله الجاسوسان ، وكانا يحملان أيضاً قصة عند وصولهما بأنهما عائدان إلى القاهرة بعد رحلة بالسيارات فى الصحراء . ثم أحضرت الحقيبة التى بها جهاز الإرسال من السيارة وحقيبة ثانية تحتوى على النقود ومقدارها ٢٠ ألف جنيه.

وعندما حزم الصراف النقود فى برلين كان قلبه يدمى لأنها لم تكن مزيفة بل كانت جنيهات إسترلينية صحيحة .

٥ - عملية كوندور:

وكان الوداع قصيراً وسريعًا وقال لهم المازى: « لا يوجد وقت للعواطف وأتمنى أن أراكما قريبًا فى القاهرة ، وأرسلوا لنا أخبارا طيبة ، وأجاب ساند ستيدت: «سوف نفعل ذلك » وقال أبلر: « بالطبع » وسار كلاهما يحمل حقيبته وعاد المازى وقاد رجاله مرة أخرى لمسافة ١٥٠٠ ميل عبر الصحراء ، وقد مسحوا الصحراء كما لو كانوا فى بعثة ، فقاموا برسم الخرائط والكروكيات ومروا بجوار طابور بريطانى . وفى طريق العودة وجدوا مستودعا لمجموعة الصحراء بعيدة المدى البريطانية يتكون من عربات محملة بالماء والبترول والطعام فأخذوا منه كل ما هم فى حاجة إليه وقاموا بتفريغ باقى البترول على الرمال . ووضعوا الرمل فى محركات السيارات . وأرسل الرقيب وورمان إشارة النجاح إلى ماملين ، وأجاب مركز قيادة روميل: « وصلت رسالتكم » وكانت آخر رسالة يمكنهم إرسالها . ومن ذلك الوقت لم يتلقوا رسائل بعد ، حتى قام المازى بنفسه بتقديم تقريره إلى روميل فى بير حكيم .

وقد حياه بلباقة وقال: « يا سيدى الجنرال إن عملية سلام قد تمت بنجاح وبذلك يمكن لعملية كوندور أن تبدأ » ولم يكتم روميل عنه الحقيقة ، لأن ما حدث كان مؤلما . فقال: « فى بداية هجوم شهر مايو تم إحضار أبرل وويبر وضمهما إلى هيئة الإشارة التابعة لى ، لأننا كنا فى حاجة إلى كل رجل ورأيت أنه من الممكن لهذين الرجلين أن يلتقطا الرسائل القادمة من القاهرة وهما يعملان فى مركز القيادة . كما يمكنهما عمل ذلك فى أى مكان آخر إلا أنه حدثت نكبة فى ٢٧ ، ٢٨ مايو ، ففى هذين اليومين تعرض الفيلق الأفريقى لخطر كبير خلف خط الغزالة . فقد حاصره البريطانيون من كل اتجاه ، وفى صباح أحد الأيام - ولم يكمل روميل حلاقة ذقنه والصابون يغطى وجهه - كان عليه أن يتراجع بسرعة ، وخلال الارتباك أسرت هيئة المخابرات بما فى ذلك السيارة التى بها أبرل وويبر وكل ما يتصل بعملية كوندور » وقد شهق المازى وهو يسمع هذه الأنباء . فكيف يمكن أن تتعرض مثل هذه العملية المرسومة بعناية ودقة إلى الخطر ، وقد بذلت فيها رئاسة المخابرات فى برلين الكثير من التعب ، ويرجع كل ذلك إلى أن الرجلين كان يجب إيجاد عمل لهما. وقد حاول المازى إبعاد الحرج أثناء المقابلة بالكلام عن عملية

سلام فقال لروميل: « يا سيدى الجنرال ، لقد كان فى استطاعتى أن آخذ معى آلاى بأكمله إلى شاطئ النيل » فوضع روميل يده على كتفه وأمر بترقيته من رتبة نقيب إلى رائد وقـال وهو يضـحك: « يا كـونت المازى، إنـى آمل أن أصل إلى هناك بجيشى كله عن طريق أقصر بكثير من هذا » .

وقال الكونت الهنغارى مجيباً بكل كياسة: « يا سيدى الجنرال ، إن رجالنا سوف يعدون لك فيلا لتنزل بها ما لم يكن البريطانيون قد أسروهم خلال ذلك » .

ووصل أبلر إلى القاهرة وساند ستيدت فى ميعادهما بعد رحلة المغامرات ومعهما جهاز الإرسال . وقاما باستئجار عوامة على النيل وقام أبلر بتمثيل دور الشاب المصرى الثرى « حسين جعفر » وأما ساند ستيدت فقام بتمثيل دور أيرلندى طائش باسم« بيتر موز كاستر» ، وقاما بتركيب هوائى جهاز الإرسال فوق العوامة واتصلا برجال حركة المقاومة المصرية .

وقد تم اتصالهما بالفريق عزيز المصرى باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى .

وهو الرجل الذى حاول الرائد ريتر اختطافه بالطائرة ، وقد تلقى أبلر وساند ستيدت معلومات على درجة كبيرة من الأهمية من الضباط المصريين المعادين للإنجليز ، وكان العميل الأول فى نقل الأخبار هى أشهر راقصة فى مصر وهى الراقصة حكمت فهمى ، فعلاقاتها الطيبة مع الضباط البريطانيين قد مكنتها من الحصول على معلومات خطيرة للغاية . فالراقصة المحبوبة جدا كانت تكره البريطانيين ، وعلى استعداد للقيام بأى عمل من أعمال التخريب ضد العدو، عدو وطنها . ولم يتوقف أبلر عند حد فى استغلال هذا الشعور لديها . وقد أخبرته حكمت عن انتقال عناصر من الجيش البريطانى العاشر من سوريا وفلسطين إلى مصر . كما أخبرت الجاسوسين الألمانيين عن وصول مائة ألف لغم إلى جبهة العلمين . وذلك عندما قررت بريطانيا إقامة خطها الدفاعى المحصن فى هذه المنطقة بالرغم من أنه فى ذلك الوقت لم يكن الموقف واضحاً وضوحاً كافياً . كما علم أبلر من حكمت أمر انتقال الفرقة النيوزيلندية الثانية تحت قيادة الجنرال فريبرج إلى مرسى مطروح وذلك قبل أن تتحرك الفرقة بزمن طويل . وكان عامل اللاسلكى ساند ستيدت الذى يسمى نفسه بيتر موز كاستر يجلس دائما فى مواعيد الإرسال المحددة على جهاز الإرسال يستمع بدون فائدة وكان يوجد بجواره الرسائل التى حلت

شفراتها بدقة من النسخة الإنجليزية لقصة «ريبكا لدا فين دى مورييه» . فقد حصلت المخابرات الألمانية على ثلاث نسخ من نفس الطبعة من البرتغال ووزعتها كالتالى:

واحدة لمجموعة كوندور وواحدة إلى أبرل وويبر والثالثة لمحطة الإذاعة التابعة للمخابرات الألمانية فى أثينا .

وجلس حسين جعفر وبيتر موز كاستر - العميلان الألمانيان اللذان كان عليهما أن يكونا بمثابة عيون روميل وآذانه فى القاهرة - فى مقعديهما الوثير يشربان الويسكى ويتساءلان :ما هى الفائدة من رحلتهما الطويلة لمسافة ألف وخمسمائة ميل مع المازى عبر الصحراء ؟ ما الذى حدث للآمال التى علقتها برلين وروميل على عمليتى سلام وكوندور ؟ إن مجهوداً عظيماً قد ضاع واندثر .

فلقد وصل الرجلان فى سلام إلى القاهرة وقاما بتركيب هوائى جهاز الإرسال فوق العوامة وأصبح الطابور الخامس جاهزاً للعمل . وقامت الراقصة حكمت فهمى بإعطائهما معلومات مهمة وكان اتصالهما بحركة المقاومة المصرية على أحسن ما يرام .

إلا أن ذلك كله لم يجن ثماره . فلماذا؟

لقد أعطيت إجابات كثيرة عن هذا السؤال . فقد ذكر أحد الضباط المصريين الذين كانوا على اتصال بالجواسيس أن أبلر أخبره بأن جهاز الإرسال به خلل وأنه لا يستطيع الاتصال بالمحطة الألمانية . فوعده الضابط المصرى - وهو أحد ضباط الإشارة ومتخصص فى أجهزة الاتصال - بإلقاء نظرة عليه . وعندما قام بزيارة الألمانيين فى عوامتهما بحث بدون جدوى عن جهاز الإرسال . وقد لاحظ هوائى الجهاز فوق ظهر العوامة إلا أنه لم يتمكن من اكتشافه . فأخذه أبلر إلى جهاز راديو جرامافون موضوع فى موبيليا وعند الضغط على مفتاح ما ارتفع الغطاء الخشبى وظهر أسفل الغطاء تجويف وضع فيه الجهاز ومقعد لعامل اللاسلكى . وكان يوجد فى الداخل مصباح حتى يمكن استخدام الجهاز والغطاء مقفل والجرامافون مداراً. وبذلك فلا يمكن لأى مخبر ذكى أن يشك فى أن هناك جهاز إرسال ألمانيًا مخبأ ومداراً بواسطة جاسوس ألمانى فى مثل هذه القطعة من الأثاث . وقد قام الضابط المصرى بفحص الجهاز بدقة ولم يجد به عيبًا ، ومن المدهش أن ذلك الضابط المصرى الشاك بطبيعته قد خطرت له فكرة وهى أن هذين الألمانيين من الجائز

أنهما لا يريدان إرسال أية رسائل .

وكانت العوامة قطعة من ألف ليلة وليلة كل شيء فيها يغرى الإنسان بالاستمتاع بجميع حواسه والاسترخاء . وبذلك فهى ملائمة تماماً للجاسوسين المفروض فيهما الحذر والحيطة ، وربما أن الجاسوسين قد تناسيا واجبهما الخطر الذى عهد إليهما به .

ولم يعلم أحد منهما أن المحطة الألمانية كانت تسمع نداءهما ولكنها ترفض أن تجيب .

وقد حلت المشكلة بواسطة رئيس البعثات الخاصة الألمانية فى الشرق الأوسط الرائد « س » وهو الرجل الذى كان معروفاً لكلا الطرفين تحت الاسم الكودى «أنجليو» واسمه الحقيقى لم يسمح بإذاعته بعد ولن أكون الرجل الذى يكشف الستار عنه .

فعندما علم أنجليو بمصير أبرل وويبر أصدر أوامره إلى كل محطات الاستقبال بألا تلتقط أية إذاعة من أبلر وساند ستيدت ، واعتقد أنهما سوف يبوحان للبريطانيين بمعلوماتهما المحدودة عن عملية كوندور بعد سقوط شفرتها فى أيدى البريطانيين وهو ما يجب أن يتوقعه الإنسان وقد حدث بالفعل . فإن الأخصائيين البريطانيين سوف تكون لديهم الأدلة الكافية لكى ينتزعوا من الرجلين بالقوة كل ما لديهما من معلومات .

ولو استطاع البريطانيون الحصول على معلومات كافية ففى استطاعتهم إرسال رسائل كاذبة للخداع . وبهذه الطريقة فالمعلومات التى تصل عن طريق كوندور سوف تكون بلا فائدة . وكانت تعليمات أنجليو التى تقضى بقطع كل اتصال مع أبلر وساند ستيدت حكيمة وضرورية من أجل سلامة الجاسوسين وبهذه الطريقة وحدها تكون لديهما فرصة للنجاة .

وأصبح السؤال الآن من الذى سيربح السباق ضد الزمن ؟ فهل تصل مدرعات روميل إلى القاهرة قبل أن يستطيع رجال الأمن زيارة العوامة الموجودة على النيل؟ ولكن البريطانيين كانوا هم الأسبق فقد قبض على ساند ستيدت وأبلر فى عوامتهما فى سبتمبر ١٩٤٢ .

٦ - روميل يقرر التقدم إلى الإسكندرية :

بعد هزيمة البريطانيين فى طبرق اعتقد روميل أن هدفه الرئيسى قد أصبح فى قبضته . وفى الحقيقة فقد دفع الألمان والإيطاليون ثمنا غاليا للاستيلاء على طبرق والمعارك السابقة وذلك بتضحيات كبيرة فى الرجال والمعدات ، وأصبح التمهل واجبا ليس فقط من الناحية العملية بل من نواح أخرى . وكما كانت الحال دائما فمشكلة التموين كانت هى أهم المواضيع ، وكان محور هذه المشكلة يتوقف على جزيرة مالطة فإذا سقطت الجزيرة فى قبضة الألمان ، فروميل يستطيع متابعة الحرب فى شمال أفريقيا بدون موانع . أما إذا تركت الجزيرة فى أيدى البريطانيين فمعنى ذلك استحالة أى تقدم آخر اتجاه الشرق . وقد ناقش المقدم ملنشين أركان حرب «٣» لروميل هذه المشكلة فى كتابه « معارك المدرعات » ووصل إلى الرأى التالى: «كان من الواجب اتخاذ قرار حاسم ، فطبقاً للخطط الأصلية التى وافق عليها هتلر وموسولينى فى نهاية أبريل ، وكانت تتضمن أن يتوقف جيش البانزر على الحدود المصرية بعد الاستيلاء على طبرق حتى يمكن حشد كل القوات البرية والبحرية الممكنة لإسقاط مالطة . وكان المفروض أن يتم الاستيلاء على الجزيرة بواسطة جنود المظلات . وكانت هذه هى الفكرة الصحيحة ، لأنه بسقوط مالطة يتم تأمين خطوط المواصلات إلى شمال أفريقيا ويمكن متابعة الهجوم إلى دلتا النيل بدون أى قلق على الإمدادات . وفى ٢١ يونية (وهو اليوم الذى سقطت فيه طبرق) طار الفيلد مارشال كسلرينج إلى أفريقيا وكنت موجوداً فى عربة القائد العام عند محادثته مع روميل . وقد اقترح روميل متابعة تقدمه المنتصر على ألا ينتظر الاستيلاء على مالطة ، إلا أن كسلرينج أصر على أن أى تقدم لروميل نحو مصر مع وجود هذه القاعدة «مالطة» فى أيدى البريطانيين لن يكون ناجحا إلا بمعونة كاملة من سلاح الطيران .

ولو تم ذلك فسلاح الطيران لن يمكنه مواصلة عملياته الناجحة ضد مالطة ، لذلك فخطوط مواصلات روميل الطويلة سوف تصبح مهددة ، لذلك أصر كسلرينج على اتباع الخطة الأصلية وطالب بتأجيل غزو مصر حتى يتم الاستيلاء على مالطة. وقد عارض روميل ذلك بشدة وتطورت المناقشة بين القائدين وأصبحت حامية . ولم يصل الفيلد مارشالان الألمانيان إلى اتفاق .

وظلت كل من القيادة العليا الإيطالية والقيادة البحرية الإيطالية والفيلد مارشال كسلرينج تعارض روميل ، وأبرق روميل إلى هتلر مطالبا بقرار حاسم .

وأبرق هتلر إلى موسولينى قائلا: « إن آلهة النصر تبتسم مرة واحدة فقط أيها الدوتشى » .

وبذلك فإن القرار المؤسف بتأجيل الهجوم على مالطة حتى سبتمبر قد اتخذ مع وضع القوات المتيسرة تحت إمرة روميل للهجوم على دلتا النيل . فهل كان هذا القرار صائباً ؟

ومن المهم أن يعرف المرء على أى أساس وضع روميل قراره . وقد ذكر لى الليفتانت جنرال بايرلاين آراء الفيلد مارشال بأنه بنى قراره على الآتى: « يجب أن أبذل كل ما فى وسعى لأمنع البريطانيين من فتح جبهة ثانية وإحضار قوات جديدة من الشرق الأوسط إلى هذه الجبهة . إن الجيش الثامن الآن فى غاية الضعف وأصبح عماد الجيش كله فرقتين بريطانيتين من المشاة علاوة على أن المدرعات البريطانية التى يمكن دفعها من المؤخرة ينتظر ألا تكون قوة ضاربة كبيرة » .

وكان لدى روميل بعض المبررات الأخرى وهى متى يستعد الإيطاليون لغزو مالطة ؟ ألم يخطط للعملية فعلا ثم تأجلت لأن الاستعدادات الإيطالية لم تكتمل ؟ والدوتشى لا يرغب بأية حال من الأحوال أن يترك شرف الاستيلاء على مالطة للألمان وحدهم . أما هتلر فكان على استعداد لترك الإيطاليين يلعبون الدور بالكامل وذلك للخسائر الفادحة التى تحملها فى غزو كريت ومن ثم فإن مسألة غزو مالطة كانت تعتمد كلية على رأى القيادة الإيطالية وكان روميل لا يثق فيها . أضف إلى ذلك أن ثعلب الصحراء كان شديد الثقة بنفسه فكان يعلم أن البريطانيين قد سحبوا عناصر من جيشهم العاشر الموجود فى سوريا لدفعه إلى شمال إفريقيا . وكان يعلم كذلك أن المدرعات الأمريكية ينتظر وصولها فى أية لحظة إلى مسرح العمليات هذا. ويعلم أن البريطانيين ليس فى نيتهم أن يدافعوا عن مرسى مطروح وعرف ذلك عن طريق الرسائل الشفرية التى أمكن حل رموزها والتى تم الاستيلاء عليها من الملحق العسكرى الأمريكى فى القاهرة .

وكما سبق أن ذكرنا فاتصالات الملحق العسكرى بواشنطن عن طريق اللاسلكى قد أمكن كشفها بواسطة عميلة إيطالية اسمها بيانكا برجامن ابنة أحد كبار الفاشيست ، فقد استولت على مفتاح الشفرة من السفارة الإمريكية فى روما .

وبالإضافة لهذه المعلومات قامت سرايا الالتقاط فى الجبهة الإفريقية بتزويد روميل بمعلومات دقيقة عن مواقع العدو . وقد أمكن التغلب على أزمات خطيرة

وعديدة فى هذه الحملة حتى نهاية معركة العلمين والفضل فى ذلك يرجع إلى سرايا الالتقاط هذه . فقد أمكنهم التقاط جميع رسائل البريطانيين من كل محطاتهم مع تتبع تحركات القوات . وأخيراً نجحوا فى حل رموز الشفرة البريطانية . وبذلك استطاع روميل معرفة الكثير عن خططهم ونواياهم ، وكذلك تسليحهم وتوزيع قواتهم ، وعرف كيف يفسد عليهم تدبيرهم . وظلت مصادر المعلومات هذه التى لا تقدر بثمن تعمل وتؤدى واجبها حتى نهاية شهر يونية ١٩٤٢ (وهو اليوم الذى شن فيه روميل هجومه فى اتجاه الإسكندرية) ، ثم توقفت بعد ذلك عن العمل . فقد تغيرت الشفرة فجأة ونتيجة لذلك فلم يستطع روميل أن يكتشف نبأ مهماً واحدا وهو مدى تحصين الموقع الدفاعى البريطانى فى جبهة العلمين الذى يبعد عن الإسكندرية ٦٠ ميلا . وكان عبارة عن خط دفاعى يمتد ٤٠ ميلا بين العلمين ومنخفض القطارة ولا يمكن اجتيازه فى الجنوب . وكان هذا الخط هو الخط الدفاعى الأخير قبل الوصول إلى النيل . وكذلك لم يعرف روميل أن البريطانيين قد استخدموا الأسرى الإيطاليين وكان من بينهم مهندسون مهرة فى بناء هذه المواقع ، وقد قام الإيطاليون – المعروف عنهم المهارة فى بناء الاستحكامات – بزرع حقول الألغام وبناء الدشم والخنادق ونقاط المقاومة .

وفى ٢٨ يونية تقدمت مدرعات روميل فى اتجاه الشرق . وفى اليوم التالى قام الفيلد مارشال بنفسه بعبور الحدود المصرية والتى خلفته وراءها الفرقة ٩٠ . وقد أظهرت الوثائق والرسائل التى حلت شفرتها – بعد الاستيلاء عليها من البريطانيين– بأن جيش أوكنلك كان عليه أن يحتل موقعًا أمام مرسى مطروح ، ولذلك دفع روميل بالفرقة ٩٠ حتى نفد وقودها . وفى محطة حباطة استولى الألمان على مستودع مهم للبترول مما مكن روميل من إرسال مدرعاته اتجاه الشرق لمسافات أبعد نحو النيل .

وكانت هذه الأيام كلها تهور . وكانت طوابير العربات البريطانية والألمانية تسير فى اتجاه واحد لا يفصل بينها سوى ٥٠ ياردة والكل متجه ناحية الشرق .

وكانت الوحدات التى ازدادت خبرة بالحرب وعرفناها قبل ذلك تواصل تقدمها عبر الصحراء .

فالملازم سيرفاس من الآلاى ١٠٤ المدرع كان موجوداً مع مدافعه ذاتية الحركة وكذلك الملازم هانز شكولز من الكتيبة ١٥ المشاة الميكانيكية . وفى ٢٤

يونية دمر شكولز دبابة وعربة خفيفة من قول بريطانى متحرك . وتقدم شكولز مع رجاله وكان يأمل فى الاستيلاء على بعض الغنائم حتى يستطيع استبدال طعامه من لحم البغال باللحم البقرى ولحم الخنزير البريطانى المحفوظ والخضراوات المحفوظة إلا أنه وجد بعض البريطانيين المصابين بإصابات بالغة وكان معهم جنود غير مصابين يقومون بالعناية الطبية لهم . ولم يكونوا من رجال الخدمة الطبية بل قوات مقاتلة وبكامل أسلحتهم .

ولم يستخدم البريطانيون أسلحتهم ولم يقذفوهم بالقنابل اليدوية لأنهم كانوا منهمكين فى العناية بزملائهم الجرحى . وقد تأثر شكولز ورجاله الستة بهذا الموقف فقفزوا من مركباتهم وقدموا لهم أربطتهم الميدانية وساعدوهم فى العناية بالجرحى . وبعد دقائق ظهرت مجموعة جديدة من العربات البريطانية وتبادل شكولز والرقيب البريطانى النظرات السريعة ونادى الملازم الألمانى على رجاله قائلا: « اركبوا العربة» ثم حياه تحية عسكرية ورد عليه الرقيب البريطانى التحية . وبسرعة قام أحد البريطانيين بإعطاء العريف مولر علبة سجائر ولم يطلق عليهم النيران أثناء مغادرتهم المكان ولم يناد عليهم بتسليم أنفسهم .

فوجد كلا الجانبين أن ذلك غير مستحب فى مثل هذا الموقف .

وتقدم روميل ومعه مجموعات القتال الثلاث إلى منطقة مرسى مطروح . واستخدم تكتيكاته المعروفة فى الاشتباك مع مدرعات العدو ومحاصرة منشآته . وكان تدمير المدرعات البريطانية من المهام التى عهد بها إلى الفرقتين المدرعتين ١٥ ، ٢١ اللتين تقدمتا جنوب مرسى مطروح وقامت الكتيبة الثالثة من آلاى المدفعية ١٠٤ تحت قيادة النقيب ريسمان بالاستيلاء على نقطة حيوية في دفاعات العدو على الطريق الممتد بين مرسى مطروح وسيوة بالرغم من وطأة ضرب المدفعية البريطانية الشديد . وفي أول الأمر سارت الأمور سيراً سيئًا . فقد قام البريطانيون بهجوم مضاد بالدبابات وكان العريف سوسنبرج قد أرسل إشارة إلى الآلاى تتضمن: « دبابات العدو تهاجمنا ، رجاء إرسال التعزيزات » وسرعان ما مرت الطلقات بجانب أذنيه . وقبل أن يرفع السماعات من على أذنيه ظهر جندى بريطانى بمدفعه الرشاش وكان يصيح : « ارفعوا أيديكم وتقدموا إلى الأمام » .

وكان سوسنبرج هو الوحيد الذى أسر . وأخذ إلى مواقع العدو ثم حملوه فى عربة بعد استجوابه حيث نقل مع عربات قوات النقطة القوية وكانوا فى طريقهم

إلى مرسى مطروح . وعند هبوط الليل (ولم يمض على رحيلهم سوى ربع ساعة) أطلق عليهم النيران . فقد اصطدم البريطانيون بالوحدة المضادة للطائرات التابعة للعقيد وولز وسارعوا جميعا بالاختفاء . وانتهز العريف الألمانى الفرصة وتسلل إلى شجيرات الأعشاب الشوكية . وعند إطلاق الغلالة الثانية من النيران قذف بنفسه إلى حفرة فسقط فوق جندى بريطانى وعلى الفور استولى على مدفعه الرشاش وصوبه إلى صدره . وجلس الاثنان هكذا يضيئهما وهج القنابل التى تسقط بجوارهما حتى اكتشفهما ملازم من المدفعية المضادة للطائرات .

٧ - روميل يقرر تحطيم العمود الفقرى للجيش الثامن : (انظر اللوحة رقم ١٥)

وخلال يومى ٢٦ ، ٢٧ يونية خلفت قوات روميل وراءها مرسى مطروح وقامت الفرقتان المدرعتان ١٥ ، ٢١ بتدمير التجمعات البريطانية المدرعة فى الجنوب . وحدثت معركة عنيفة ضد الفرقة الثانية النيوزيلندية وكان روميل يعتقد أن هذه الفرقة الممتازة التى يقودها الجنرال فيربيرج هى الموجودة فى مرسى مطروح . وظلت هذه الغلطة حتى وقت قريب مدونة هكذا فى تاريخ الحرب فى الجانب الألمانى . والحقيقة أن الجنرال فيربيرج وهو مصاب بجرح فى رأسه كان يقود رجاله ضد الفرقة ٢١ المدرعة . وقاد الجنرال كينزجر اللواء الخامس . وفى نفس الوقت تحولت الفرقة ٩٠ الخفيفة إلى الشمال ومعها مجموعة القتال ماركس والكتيبة الأولى من الآلاى السادس المضاد للطائرات وأغلقوا الطريق الساحلى من الشرق . وكان من الواضح أن آخر نقاط المقاومة قبل الوصول إلى الإسكندرية قد تم حصارها، ويوجد داخل هذا الحصار الحديدى العدد الأكبر من المشاة البريطانية وهم الفرقة العاشرة الهندية وعناصر من الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الخمسون ووحدات من جنوب إفريقيا . ولو نجح روميل فى أسر هذه القوات لأصبح نصره كاملا ، لأن معنى ذلك تحطيم العمود الفقرى للجيش البريطانى الثامن مع فتح الطريق على مصراعيه إلى الإسكندرية .

وكانت الخطة تعتمد على منع قوات العدو من الإفلات من مرسى مطروح مع الانطلاق إلى الجنوب إلا أن ذلك ظهر أنه من الصعب تنفيذه فى الصحراء الواسعة، وخاصة بالقوات الضعيفة التى كانت مع روميل .

وبضربات قوية تمكنت الفرقة النيوزيلندية تحت قيادة الجنرال فيربيرج من اختراق حلقة الحصار وفتح ثغرة خلال مواقع الفرقة ٢١ المدرعة وقد عاون سلاح

الطيران معاونة فعالة فى فك حلقة الحصار .

وكان القتال هناك على وجه الخصوص مريراً . فقد تعلق جنود فيربيرج فى عرباتهم وهم يحملون خناجرهم ويصيحون صيحات القتال . وخلال القتال المخيف الذى دار بين المتحاربين بالسلاح الأبيض حدثت خسائر فادحة فى كلا الجانبين .

وقوبلت الوحدات التابعة للفرقة ٩٠ الخفيفة – التى كانت تحاصر مرسى مطروح – بمحاولات قوية لفك حلقة الحصار من جانب الفيلق العاشر البريطانى وكان روميل نفسه وسط المعمعة . وعمل الضباط على المدافع الرشاشة . ومرة أخرى قامت مجموعة القتال كهل بدور الحرس الخاص له وقد تكبدت الكتيبة ٣٦١ خسائر فادحة فقد اصطدمت السرية الرابعة تحت قيادة الملازم ستوهلر بمدفع مضاد للدبابات وهاون بريطانى . وأصبحت السرية مهددة بالفناء . فقد دمرت جميع مركباتها وتعالت صيحات الجرحى عالية منادين على رقيب الخدمة الطبية «بانش» . وقد تم إنقاذ باقى السرية من الفناء بالضربة التى قام بها أفراد من الفرقة الأجنبية ، فقد قام الرقيب «روزنزويك» والعريف «كوارزو» بالهجوم على المدافع البريطانية وهما يطلقان الرشاشات من الجنب واقتحما الموقع . وخفض البريطانيون رءوسهم وبذلك أتيحت للسرية الفرصة للبحث عن ساتر . وقد دفع كلا ضابطى الصف حياتهما ثمنا لإنقاذ سريتهما .

٨ - الإمبراطورية ذات السبعة ملايين حربة :

وقد تحملت مجموعة القتال هولزر التابعة للوحدة ٢٨٨ تحت قيادة العقيد منتين حدة الهجوم فى المحاولة التى قامت بها الفرقة الخمسون البريطانية ومعها وحدات المدفعية التابعة لقوات جنوب إفريقيا . وقد اشترك ضباط الأركان وضباط المالية ورجال الإشارة فى القتال بمسدساتهم وبالقنابل اليدوية والسونكيات وقد حوصرت مجموعة الملازم كيفر ، وقامت بإنشاء دفاع دائرى وأطلقت نيرانها على البريطانيين حتى اشتعلت النيران فى مركباتهم وتمكنوا من فك حلقة الحصار عن طريق الوادى . وقاتل الرجال باستماتة ضد القوات الهندية وقوات جنوب إفريقيا المتقدمين. وقام الملازم كيفر والرقيب تباخ المسئول عن التموين والرقيب لنجر ومعهم العريف جوهان – وكلهم من السرية الثامنة – بالاستتار خلف إحدى المركبات وقذفوا بالقنابل اليدوية على جنود جنوب إفريقيا ، ومن نجا منهم قوبل بالسونكيات أو بنيران المدافع الرشاشة الألمانية .

وتكررت هذه المواقف فى مناطق عديدة من جبهة حلقة الحصار . وأمرت

البطارية السابعة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات بقفل مدق التلغراف الممتد بين مرسى مطروح وسيوة من الجنوب .

واتخذت البطارية المكونة من ستة مدافع مواقعها شرق الطريق . وأوكل إلى وحدة من فدائى المهندسين بحمايتهم ، وقام الرقيب فراى ومعه ستة عشر رجلا بهذه المهمة . وكان كل ما لديهم من السلاح هو مدفعا رشاشا واحدا ومدفعين رشاشين قصيرين وبعض البنادق وقليلا من المسدسات والسونكيات وأثناء تناولهم العشاء دوى نذير الخطر وهاجمهم الهنود جنوب الإفريقيين . وقام العريف هنيز برتيز بإطلاق مدفعه الرشاش على أولى العربات ، فتوقف البريطانيون وفتحوا نيرانهم ، وفجأة صمت المدفع الرشاش الألمانى . وصاح العريف أنطون ستونجير: «أطلق عليهم النيران يا هنيز» إلا أن هنيز لم يرد فقد قتل بنيران البريطانيين . وواصل البريطانيون التقدم . وسمعت صيحة من الخلف: « أفسحوا الطريق للمدافع المضادة للدبابات » وأخذت المدافع من عيار ٨٨ مم تنزل الخسائر الفادحة بالبريطانيين ، وكانوا يطلقون النيران من الجانب الأيمن . وسرعان ما تطورت المعركة على طول مدق التلغراف فألقت الطائرات البريطانية الليلية مشاعلها وأتبعتها بقنابلها . وتمكن الكثير من العربات البريطانية من الإفلات . واشتعلت النيران فى بعضها وتوهجت مثل المشاعل وقد احترق من فيها من الجرحى والجنود الذين حوصروا داخلها حتى أصبحوا رماداً.

والنقاد الذين يقبلون الرأى الذى تردد (بأن سبب نجاح البريطانيين فى اختراق حلقة الحصار فى مرسى مطروح كان سببه خطأ الإيطاليين) مخطئون لأن حلقة الحصار التى فرضها روميل كانت ضعيفة جدا . والقوات البريطانية التى أفلتت كانت قوات ميكانيكية جيدة وقاتلت بشجاعة واستماتة . وقد عاون سلاح الطيران المصرى بطائراته القديمة معاونة فعالة . أما الوحدات الإيطالية فقد قاتلت بشجاعة عظيمة . وهذا يعتبر شيئا ملحوظاً لأن معداتهم كانت سيئة ، فدباباتهم لم تكن سوى صناديق مصنوعة من الصفيح ، وأسلحتهم الثقيلة قليلة العدد . وقد خسرت فرقتا : آريتى المدرعة وفرقة تريستا المشاة الميكانيكية ، معظم معداتهما ولم يبق سوى ١٤ دبابة و ٣٠ مدفعا ، ٢٠٠ رجل إلا أنهما صمدتا فى القتال . ولقد سقط قائد الفيلق العشرين الإيطالى الجنرال بلاداساى قتيلا ومعه قائد مدفعية الفيلق الجنرال بياكنزا نتيجة لهجوم جوى بريطانى بالقنابل وكانا يقاتلان على رأس جنودهما .

٩ - التوابيت المتحـركة :

إنى لأنتهز هذه الفرصة لأقول مرة أخرى شيئا فى صالح الإيطاليين الذين كثر القول عنهم . وخاصة بالنسبة للحوادث المقبلة فى العلمين . وأى فرد يريد أن يحكم على أعمال الجنود الإيطاليين يجب أن يبدأ من البداية وهو أن هناك مهام كثيرة قد أوكلت إليهم فى أول الأمر .

فقد وعدهم موسولينى بأن يستعيد لهم إمبراطوريتهم ذات السبعة ملايين حربة إلا أن هذه الحراب كانت مثبتة على بنادق عتيقة . فقد أرسلت القيادة الإيطالية العليا فرقة واحدة مدرعة إلى إفريقيا وهى فرقة آريتى ذات الماضى المجيد فكلمة « آريتى » مشتقة من أصل الكلمة اللاتينية التى تعنى « المنجنيق » وهو الاسم الذى أطلقه الرومان على الأداة التى حطموا بها قلاع العالم القديم من إسبانيا إلى سوريا ، وقد أثارت هذه الأداة إعجاب وخوف العالم . أما الدبابات الموجودة مع فرقة آريتى والتى جهزها موسولينى فلم تثر سوى احتقار الأعداء وشفقة الحلفاء، وألقت الرعب فى قلوب الجنود الإيطاليين لعدم جدواها . وكان وزن الدبابة ١٢ طنا وتدريعها غير كاف ومسلحة بمدفع عيار ٤٠ مم فما الذى كان فى استطاعتهم أن يفعلوه بهذه الدبابة أمام المدافع المضادة للدبابات والمدرعات البريطانية ؟ إنهم كانوا يضعون أكياسا من الرمال حول برج الدبابة لكى تعطى للرجال التعساء شيئا من الوقاية فى هذه التوابيت المتحركة . وقد كتب لى الدكتور مونزل كبير المترجمين الألمان فى الفيلق العشرين الإيطالى عن هذه الدبابات وكان رأيه صحيحًا فكتب يقول: « إن فرصة البقاء حيا بعد المعركة فى مثل هذه الدبابة خارجة عن نطاق الشجاعة التى يتطلبها الواجب من الجندى ، فكيف تكون الحال فى محاولة كسب المعركة بمثل هذه الدبابة؟ » .

ولم تكن أنواع الأسلحة الأخرى أحسن حالا من الدبابات . فكان الإيطاليون فى نواح كثيرة فى نفس موقف جيش الشعب الألمانى فى نهاية الحرب عندما وصل الأمريكيون إلى أرض ألمانيا .

وكان كل جندى ألمانى يعرف أن الإيطالى رغم تسليحه السيئ صلب العود ويحارب بشجاعة كبيرة فآلاى البرساجليرى التاسع مثل باقى ألوية البرساجليرى لا يمكن أن يوجه إليه أى لوم من الناحية العسكرية . وهناك شىء آخر يجب ذكره ، وهو أن كتائب العمل الإيطالية قد حققت المعجزات ، فالطريق حول طبرق يعتبر

مثالا رائعا للفن المعمارى الإيطالى ، ولو أن الجندى الإيطالى العادى لم يظهر نفس الاستعداد بالنسبة للبطولة والتضحية فى المعركة كباقى جنود الأمم الأخرى إلا أن آلافا منهم أظهروا قدرة عظيمة على العمل الشاق فى شمال إفريقيا وفى أحلك الأحوال . بينما كان يحصل جنود الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية فى أقصى المواقع الأمامية على وجبات جيدة من الطعام ، وكانت المطابخ الميدانية الألمانية تقدم للجنود وجبة ممتازة ، أما الجندى الإيطالى فكان طعامه غير كاف ولا طعم له ، وبالرغم من كل هذا قاتل الجندى الإيطالى وقابل الموت بصدر رحب.

وفى ٢٨ يونية ١٩٤٢ حوالى الساعة الخامسة مساء قامت الفرقة ٩٠ الخفيفة ومعها وحدة الاستطلاع رقم ٥٨٠ ومجموعة من مجموعات القتال ، ومن بينها مجموعة كهل والنقيب بريل قائد الكتيبة ٦٠٦ المضادة للطائرات ، والمجموعة الخاصة ٢٨٨ ، مع عناصر من الفيلق الإيطالى العاشر والفيلق الإيطالى الواحد والعشرين بشن هجوم على مرسى مطروح . وكان يوجد بداخل مرسى مطروح حوالى ٨٠٠٠ جندى من جنوب إفريقيا والهنود . وقد قاوموا مقاومة عنيفة من مواقع جيدة التجهيز .

وفى صباح يوم ٢٩ أطلقت آخر طلقة بعد أن تم تدمير ٤٠ دبابة للعدو داخل النطاق الدفاعى للبلدة ، وأسر ٦٠٠٠ جندى . وهكذا أسقطت آخر القلاع القوية ذات الميناء الجيد غرب الإسكندرية . وكان نصراً عظيما ونالت الفرقة ٩٠ الخفيفة الذكر الحسن فى النشرة الرسمية للجيش الألمانى تقديرا لما قامت به ، إلا أن هذا النصر لم يكن النصر النهائى على قوات أوكنلك .

وكان هدف روميل الرئيسى أسر معظم المشاة البريطانية فى مرسى مطروح ومنعهم من احتلال خط دفاعى جديد قبل الإسكندرية إلا أن ذلك لم يتم . وتمكن القائد العام البريطانى من سحب خيرة قواته من المشاة إلى موقع العلمين وبذلك أنشأ آخر خط للمقاومة غرب النيل .

وبينما كان رجال مجموعة قتال بريل يبحثون عن الغنائم فى مستودعات التموين البريطانية فى مرسى مطروح (حيث وجدوا الكثير من البيرة والمربى والسجائر) جاء الأمر الإنذارى بالاستعداد . وكانوا يتوقعون بعض أيام من الراحة هناك .

ففى الساعة ١٠ أحضر الرقيب شميدت من جماعة اللاسلكى رسالة مرسلة من روميل إلى قائد المجموعة ، وكانت تتضمن: « على النقيب بريل ومجموعة القتال التابعة له التوجه إلى يسار النقطة ٥٨٦ عند رقم ٩ التوقيع ... روميل » . وبعد خمس دقائق اصطفوا استعداداً للسير إلى النقطة المحددة على الخريطة وفى ذلك الوقت ظهر روميل .

وطوى روميل الخريطة وقال: « حسنا يا بريل ، عليك أن تتقدم مع رجالك إلى الإسكندرية ولا تتوقف إلا عندما تصل إلى ضواحى المدينة ، فقد انتهى البريطانيون » وتوقف الفيلد مارشال وابتسم وواصل كلامه قائلا: « وعندما أصل إليك غدا سوف نركب معا لنذهب إلى القاهرة حيث نتناول القهوة » .

١٠ - ٦٠ ميلا للوصول للإسكندرية :

وكان بريل أول رجل من رجال المدفعية المضادة للطائرات ينعم عليه بوسام « صليب الفارس » وأول حامل لوسام الصليب الذهبى ، وكثيرا ما كان يتلقى أوامر غريبة من روميل خلال مدة خدمته فى إفريقيا إلا أن هذا الأمر أدهشه جدا ، لأن هذا معناه النصر ، وقام بريل القادم من إقليم وستثاليا بألمانيا بشد قامته إلى مداها وقال: « سمعا وطاعة يا سيدى الفيلد مارشال . وما هى المعاونة التى ستمنحها لى؟» فكان يتوقع تعزيزات معينة . فقد تكبدت الكتيبة رقم ٦٠٦ المضادة للطائرات خسائر فادحة فبالنسبة للسلاح مثلا فلم يكن لديه سوى مدفع واحد عيار ٤٠ مم ومدفع آخر عيار ٥٠ مم مضاد للدبابات وأربعة مدافع عيار ٢٠ مم ومدفعين هاون وسبعة مدافع عيار ١٠٥ مم وكانت الأخيرة من البطاريات التابعة للآلاى ٣٣ مدفعية . وكان المدفع التابع للملازم جريب مفقودا ولم يضم للبطارية إلا فيما بعد ، وابتسم روميل وقال: « عليك تنفيذ الأمر يا بريل ، وسوف أرسل إليك كل شىء يمكن أن أجمعه » . وفى الحقيقة فهذه القوة لم تدعم تدعيما كافيا . فقد ضم إليها مدفعين ذاتى الحركة وبعض الدبابات التشيكية الصنع زنة الواحدة ٣٨ طن مجهزة بمدفع ألمانى عيار ٧٥ مم وبعض المدافع المضادة للدبابات من الآلاى رقم ٦٠٥ . وكانت الوحدات المتقدمة قد سبق لها القتال مع مجموعة قتال بريل فى بير حكيم وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك كتيبة كايزر من قاذفى القنابل المدرعة . وأخيراً عربتان من عربات الاستطلاع ، وتقدموا جميعا نحو غرضهم . وكانت أوامر روميل لهم أن يتقدموا حتى يصلوا إلى مشارف الإسكندرية .

وكان اندفاعا جنونيا فكلما التقوا بوحدة بريطانية حاصروها بحركة تطويق حتى تجبر على الانسحاب أو الاستسلام . ولم يهتموا بالقوات الموجودة على أجنابهم.

وفى مقر القيادة التكتيكية لجيش البانزر كان رئيس أركان حرب ٣ للجيش يهز رأسه وهو يقرأ التقارير التى ترد ساعة بساعة من بريل وكان يردد « إن هذا مستحيل » ثم قال موجها كلامه إلى عامل الإشارة: « كرر الرسالة » ولم تكن هناك أخطاء كما توقع ، ففى تمام الساعة ٣٠ر٢ وصلت القوة إلى هدفها الأول ، وفى الساعة ٥٠و٢ وصلت إلى هدفها الثانى ، وفى الساعة ٣٥ر٣ اشتباك مع عربة استطلاع للعدو وتحطيم ثلاث دبابات، والخسائر مدفع واحد عيار ٤٠ مم وعربة خفيفة ومدفع عيار ١٠٥ مم . وفى الساعة ٠٢ر٦ حققت القوة واجب اليوم . وقامت بتعزيز مواقعها التى وصلت إليها ، ومن يلقى نظرة إلى مكانى الهدف الأول والثانى- واجب اليوم - على الخريطة كان يفهم أن بريل ورجاله قد وصلوا إلى الضبعة . وقال روميل: « لو تمت الأمور على هذا المنوال فليس هناك حاجة للتوقف وتعزيز المواقع التى استولينا عليها » . وأعطيت الأوامر لمجموعة القتال بريل بالهجوم على الضبعة ، وسرعان ما تم الاستيلاء على هذا الموقع القوى . وفى الساعة ١٠ر١٠ أرسل بريل تقريرا يقول فيه: « استولينا على الضبعة وقواتنا تتقدم إلى سيدى عبد الرحمن » وقال الضباط فى مقر قيادة جيش البانزر وهم يهزون رءوسهم: « إنه حقق كل ما طلب منه وسوف يصل إلى الإسكندرية » .

وفى نفس الوقت كانت القوات الرئيسية للفرقة ٩٠ الخفيفة قد تجمعت على الطريق الساحلى مستعدة للتقدم فى اتجاه الشرق . أما عربات الفرقة ١٥ والفرقة ٢١ المدرعتين فكانت تقعقع وهى تسير اتجاه الشرق مخترقة خط مرسى مطروح الذى خلا من المقاومة وهدفها كان الإسكندرية ثم القاهرة .

أما بريل فكان بعيداً عنها فى الأمام ، إلا أن أشد الأعمال جرأة لها حدودها الطبيعية التى تتمثل فى قوة التحمل الجسمانية للجنود . ولا يستطيع أى قائد أن يتجاوز ذلك ، فعندما تصبح الأطراف ثقيلة ثقل الرصاص ، وعندما يتوقف العقل بوضوح ظاهر عن العمل فلن تحل المشكلة بالكلمات الرنانة أو المشجعة أو جرعات الخمور المغنومة مهما كثرت ومهما كانت الأوامر ، ولذلك فهذا الوقت يكون هو الوقت الملائم للراحة . لأن الرجال سيسقطون على الأرض أو يجلسون أمام عجلات القيادة ورءوسهم على صدورهم ويغرقون فى النوم .

وفى ساعة متأخرة من الليـل أمر بريل بالتوقف شـمال شرق سـيدى عبد الرحمن ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين أصابهم الإعياء التام بل بدأت العربات أيضا تضرب عن العمل . ولف الرجال أنفسهم فى أغطيتهم واستلقوا تحت عرباتهم وتساءل أحدهم :

ما هى المسافة التى بقيت أمامنا لنقطعها؟

حوالى ٦٠ ميـلا .

٦٠ ميلا إلى الإسكندرية !!! ولم يعرفوا شيئًا عن العلمين التى تقع بينهم وبين دلتا النيل سوى ما هو مرسوم على الخرائط العربية بأنها بلدة صغيرة فيها محطة للسكة الحديد وقد حشد البريطانيون قواتهم هناك .

ولم يعلم رجال هيئة أركان حرب روميل شيئًا عن حقول الألغام حول العلمين ولم يتنبهـوا للألغـام التى بثت بعـمق طوال الأسـابيع الطويلة بواسطة الإيطاليين من أسرى الحرب ووحدات المهندسين البريطانية جنوب العلمين على حافة هضبة الرويسات وعلى طول منخفض القطارة .

ونستطيع أن نقول بأن هذه المواقع كانت محتلة بقوات ضعيفة فى أول الأمر فكانت كل القوات التى توجد هناك هى الفرقة الأولى جنوب إفريقيا ومعها اللواء ٦ النيوزيلندى واللواء ١٨ الهندى وكان ذلك من مدة أسبوع فقط . ولو أن روميل لم يعط البريطانيين الوقت الكافى لتجميع فرقهم المنسحبة فى هذا الموقع القوى لما استطاعت جبهة العلمين الصمود لفترة طويلة .

وقامت كتيبة النقيب كايزر بتأمين الطريق الساحلى . وأثناء الليل أرسلت الدوريات إلى الأمام .

وفى صباح اليوم التالى بقيت مجموعة القتال بريل فى موقعها لصيانة عرباتها وتجهيز أسلحتها . وتقدمت دوريات الاستطلاع اتجاه الشرق ومرت بالمسجد الأبيض المشهور ووصلت إلى المحطة ووقفت بعض العربات فوق خط السكك الحديدية ولم يكن هناك شىء آخر . ولم يجدوا قوات بريطانية تحتل مواقع دفاعية هناك . وتقدم بريل ببطء فى طريقه إلى الأمام حتى وصل إلى حزام الألغام أمام العلمين وهناك قوبل بأول مقاومة من النيران الدفاعية القوية واندلعت النيران فى عربات الاستطلاع ، وخلال منظار الميدان شاهد طوابير طويلة على الطريق الساحلى فكان البريطانيون يتحركون من الإسكندرية والقاهرة نحو هذا الموقع وكانوا

يستخدمون كل ما يقع تحت أيديهم لاحتلال القلعة الأخيرة قبل دلتا النيل . وتساءل أحدهم :

« كم تبعد الإسكندرية؟ » .

« فكانت الإجابة خمسين ميلا » .

خمسون ميلا فقط إلى الإسكندرية وتبادل رجال بريل الضحكات وقالوا: « إذاً سوف نكون هناك فى الصباح إن لم يحدث شيء فى اليوم التالى » . وفى صباح يوم ٣٠ يونية ١٩٤٢ عندما أصبحت مركباتهم على أهبة الاستعداد مرة أخرى كانت الفرقتان ١٥ ، ٢١ المدرعتان قد عبرتا خط« القصير- الضبعة» . وفى المنطقة الساحلية قامت الفرقة ٩٠ الخفيفة بشق طريقها قتالا حتى بلدة فوكة خلال القوات البريطانية المتراجعة . وبعد أن طهرت حقول الألغام وأسكتت بعض البطاريات المدفعية وصلت الفرقة إلى قطاع الضبعة . وأخذت المقاتلات التابعة لسلاح الطيران الملكى والطائرات التى تطير على ارتفاع منخفض بمهاجمتها ، ومرة أخرى وصل روميل على رأس قواته المتقدمة واحتل مركز قيادته التكتيكى فى الأكواخ المخصصة لمستودعات التموين فى الضبعة . ولكنه قذف هناك بالقنابل فقام بسحب هيئة القيادة من مكانها إلا أن القنابل واصلت سقوطها ، ولأول مرة أحسوا بتهديد القوة الجديدة المحشودة لسلاح الطيران الملكى التى أقلعت من مطارات القاهرة والإسكندرية وقاتلت بعزم وإصرار . وكان واجب سلاح الطيران الملكى إيقاف تقدم روميل ، وذلك بإنزال الخسائر الجسيمة بغض النظر عن خسائره هو وذلك كأوامر تشرشل التى أصدرها من لندن .

وسارعت الحرب فى شمال أفريقيا حتى وصلت إلى ذروتها . فهل تستطيع المدرعات الألمانية الوصول إلى النيل؟

وهل سيقضى على مركز بريطانيا كقوة عالمية . وبذلك تسنح لألمانيا فرصة استراتيجية لسقوط سوريا والعراق وإيران فى أيديها ، ثم يتم محاصرة تركيا فتضطر إلى الانضمام لجانب ألمانيا وبذلك يصبح جناح روسيا مهدداً .

١١ - هانيبال على الأبواب :

وفى يوم ٣١ يونية كان كل ذلك يبدو محتمل التصديق . ورأى روميل أن

الجيش البريطانى المندحر يقف فى العلمين حجر عثرة بينه وبين تحقيق هدفه. وأخذ يقوى نفسه هناك لكى يقوم بآخر محاولة للهجوم ، وأصر على وجوب تحطيم هذه المقاومة فوراً.

وخلال عصر ذلك اليوم استدعى الفيلد مارشال قادته إلى مقر قيادته التكتيكى على الطريق الساحلى بين الضبعة وسيدى عبد الرحمن لمناقشة العمليات المستقبلة . وكان على العقيد بايرلاين أن يقطع ٣٠ ميلا خلال الطوابير المتراجعة من الفرقة الأولى المدرعة البريطانية . وظل سائرا لساعات طويلة فى أثر البريطانيين المتراجعين ، وهبت عاصفة رملية غطت وجه السماء وخلال هذا المؤتمر حدد موعد الهجوم على موقع العلمين فى اليوم التالى الموافق ١ يولية ١٩٤٢ ، وكانت الأوامر الصادرة للفيلق الإفريقى هى: « التقدم بأقصى سرعة عبر الصحراء إلى القاهرة » وعندما ذكر بايرلاين حالة الإعياء الموجودة عند القوات ، قال رئيس هيئة أركان حرب جيش البانزر: « إن الجنود يمكنهم تنفيذ الأوامر ، علاوة على أنه من المؤكد أن البريطانيين لن يتوفر لهم الوقت لنسف الكبارى الكبيرة المقاومة على النيل فى القاهرة » وكان هذا القول يظهر درجة تفاؤلهم ، وأرسلت رسالة إلى بريل تتضمن « أوقف تقدمك - تراجع وانضم إلى الفرقة ٩٠ الخفيفة . انتظر تعليمات أخرى » .

وقد تلقى بريل هذه الرسالة أثناء وجوده مع البطارية ١٠٥ التابعة له والتى يقودها الملازم جريب وكان على وشك إصدار أمره بإطلاق النيران ، لضرب المواقع البريطانية أمام العلمين . وقال عامل اللاسلكى شميدت بمكر: « إن القهوة ستبرد يا سيادة النقيب » وضحك بريل وقال: « حسنا علينا أن نشربها باردة يا شميدت» .

وأسرع الملازم البريطانى بلنتون - ضابط اتصال اللواء الثالث جنوب إفريقيا - على الطريق الساحلى فى اتجاه الإسكندرية ، ليبلغ وحدات التموين والفدائيين والبحريين هذه الأنباء السيئة فقال: « الألمان يقومون بضرب العلمين » ولم يعرف أن من قام بذلك هى مجموعة قتال بريل فقط وليس الفيلق الإفريقى ، أو حتى الفرقة ٩٠ الخفيفة .

الفصل الحادى عشر

معركة ستالينجراد الصحراء

الفصل الحادى عشر

معركة ستالينجراد الصحراء

١ - أخطبوط البحر المتوسط :

انكب المارشال روميل على دراسة الخرائط والصور الفوتوغرافية الجوية داخل عربة قيادته وقد احمرت عيناه والتهب أنفه وتضخم كبده . واستمر يكرر قوله: «عندما تقدمنا إلى العلمين فى أوائل يولية رغم إنهاك قواتنا كنت أريد منع البريطانيين من تدعيم قواتهم أمام الإسكندرية ومن جلب الإمدادات ، وذلك لأمنع الحرب من أن تصبح حرباً ثابتة ذات خطوط مجهزة محددة ، لأن القوات البريطانية قد تدربت على مثل هذه الحرب . وأن عناد وتصميم البريطانيين يؤتى ثماره فى مثل هذا النوع من القتال الثابت » .

وحاول روميل منع ذلك ولكنه لم يتمكن أبداً من تنفيذ خطته والاندفاع إلى ما وراء خط العلمين ، بينما توقعت لندن وواشنطن وصول مدرعات روميل إلى الإسكندرية . كان ذلك فى بداية شهر يولية وعلى وجه التحديد فى مساء ٣ يولية. ومنذ ذلك التاريخ أوقف تقدمه عند العلمين .

ومن ٢٦ مايو إلى ٣٠ يولية أسر الألمان ٦٠ر٠٠٠ جندى وضابط بريطانى وجنوب إفريقى وهندى ونيوزيلندى وفرنسى وأسترالى وأرسلوا إلى معسكرات الأسرى الإيطالية الألمانية ، وخسر البريطانيون ٢٠٠ دبابة وعربة استطلاع . وتبعثر فى الصحراء حطام جيش الهجوم البريطانى بينما أخذ روميل يمد جيشه البانزر لمدة عدة أسابيع بالمؤن المستولى عليها وأصبح ٨٥٪ من عرباته صناعة إنجليزية أو أمريكية ، إلا أن خسارة الألمان بين مايو وسبتمبر من نفس العام كانت باهظة جدا . فقد قتل ٢٣٠٠ ضابط وجندى وجرح ٧٥٠٠ وأسر ٢٧٠٠ وأصبحت قواتهم المقاتلة فى أغسطس ٣٤ر٠٠٠ رجل أما خسائر الإيطاليين فقد بلغت ١٠٠ قتيل و١٠ر٠٠٠ جريح و ٥٠٠٠ أسير .

ولكن بالرغم من ذلك لم يستطيعوا الوصول إلى القاهرة ، فقد أوقفوا أمام

العلمين وكانوا معرضين لخطر قاتل هناك حاول روميل تجنبه ، بينما أخذت قوة البريطانيين تتزايد كل يوم . وكانت خطوط التموين إلى الجبهة بالنسبة للبريطانيين تتراوح بين ٥٠ إلى ١٢٥ ميل . فاضطرت سفن الحلفاء لإحضار كل ما يحتاجونه من مواد بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . ووصلت فرق جديدة من سوريا والهند والعراق . ولكن ما الذى تلقاه روميل ؟ فرقة واحدة فقط وهى الفرقة ١٦٤ الخفيفة ولواء رامك من جنود المظلات وبدون مركبات . ولم يصل إلى الجبهة أكثر من ثلث الإمدادات المطلوبة وقد أرسلت كلها من طبرق أو بنى غازى أو حتى طرابلس على طرق معرضة للهجوم الدائم من قبل سلاح الطيران الملكى البريطانى.

علاوة على ذلك كانت الإمدادات يلتهمها الأخطبوط المسمى بمالطة بالاشتراك مع البحرية البريطانية والقوات الجوية أثناء إقلاعها من إيطاليا ، وكانت القاذفات البريطانية تدمرها وهى فى طريقها إلى الجبهة . ومن ناحية أخرى كانت توجد ٢٠٠٠ مركبة و ١٠٠ مدفع تخص جيش روميل فى إيطاليا ، بينما كان يوجد فى ألمانيا ١٠٠٠ مركبة و١٢٠ دبابة تخص روميل أيضا ولكنها لم ترسل أبدا إلى إفريقيا لأن البحرية الإيطالية لم تقم بواجبها . وكانت النتيجة بسيطة فقد قال روميل- بعد توقعه النتائج التى ستترتب على ذلك - لضباطه: « إن انتصار جيشنا البانزر خلال الأسابيع الماضية قد نشر الذعر والفزع فى واشنطن ولندن . وإنه من الواضح أن هذا سوف يشجع الحلفاء لبذل مجهود أكبر لمنع ضياع دلتا النيل والشرق الأوسط ، وضرب روميل بيده على التقارير الواردة من الاستطلاع والمخابرات الألمانية وقال: « إن قوافل كبيرة تصحبها حراسة قوية تمخر البحر حول رأس الرجاء الصالح . وفعلا وصلت أولى هذه القوافل إلى البحر الأحمر ، وهذه كانت البداية فقط . فسوف تصل قوافل أكثر وأكثر ، إن تشرشل وروزفلت يعرفان ما يحدث فى شمال إفريقيا . وإنه من الواضح أن فى منتصف سبتمبر سيكون الجيش الثامن من القوة بدرجة تجعلنا غير قادرين على مواجهته » .

وهكذا قال روميل « فى منتصف سبتمبر » فما الذى يمكن عمله؟ وقام ضباط القيادة الألمانية العامة بعمل الإحصائيات . ففى نهاية أغسطس كانت مقارنة القوى فى الرجال ثلاثة إلى واحد فى صالح البريطانيين ، أما فى الجو فكانت خمسة إلى واحد فى صالحهم كذلك . أما الدبابات فكان لدى الألمان ٥٩ دبابة صالحة للقتال بالإضافة إلى ٢٤٣ دبابة إيطالية لا تصلح للقتال بينما تواجه هذه القوة فى الجانب البريطانى ٧٠٠ دبابة . وكانت حقول الألغام البريطانية فى غاية المناعة ، ومدفعيتهم متفوقة ولديهم ذخائر غير محدودة . ثم يأتى بعد ذلك الوقود ،



الفيلد مارشال روميل يدرس الخرائط والصور الجوية فى عربة قيادته

ففى جيش روميل البانزر لم يكن لديه من الوقود إلا ما يكفى لتحركه ٨٠ ميلا ، أما البريطانيون فكان لديهم كل ما يحتاجونه وقد تعود روميل أن يقدم له ضباط قيادته الحذرون الإحصائيات اليائسة والتى يقدرونها له قبل الهجوم مباشرة . أما فى الجانب الآخر فكان البريطانيون يستعدون . وطار ونستون تشرشل إلى القاهرة فى أول أغسطس ، وكان فى طريقه إلى موسكو لكى يهدئ ستالين الذى أصابه الفزع والذعر نتيجة للهجوم الألمانى الصيفى فى روسيا ، لأن الألمان المندفعين فى القوقاز وصلوا إلى ضفاف الدون وأمام ستالينجراد ولذلك كان يجب عمل شىء .

وقال تشرشل فى القاهرة: « يجب عمل شىء » . وقد تم عمل أشياء وأشياء . فقد عين الجنرال السير «هارولد ألكسندر» صاحب أعظم عقل إستراتيجى فى الإمبراطورية البريطانية قائداً عاما للشرق الأوسط . ثم أخذ يبحث عن قائد جديد للجيش الثامن ، ووقع اختيار تشرشل على الجنرال جوت إلا أن هذا الرجل المندفع الصلب والذى كان معروفاً لدى الجنود باسم « الصاعقة » قد أصبح متعبا ، ولم يتمن روميل خصما أحسن منه ، لأن الجنرال جوت لا يشكل مشكلة بالنسبة لثعلب الصحراء إلا أن تشرشل صمم على اختياره . ولم يوافق فى ذلك الوقت أن يعهد بقيادة الجيش الثامن إلى قائد غير مجرب من إنجلترا مثل مونتجمرى » .

ولو احتاج الأمر إلى دليل على أن قدرة الله تغير تاريخ الحروب فإن اسم مونتجمرى يجب أن يذكر ، فبعد أن وقع الاختيار على الجنرال جوت كانت تطير طائرة استطلاع ألمانية فى بطء أثناء عودتها إلى الخطوط الألمانية فى عصر أحد الأيام بعد جولة فوق القاهرة ، فشاهدت طائرة نقل بريطانية بدون حماية جوية . وما هى إلا بضع طلقات حتى هوت الطائرة وقد اشتعلت فيها النيران . وفقد الجنرال جوت حياته .

واختير مونتجمرى لقيادة الجيش الثامن . وظهر فوق خشبة المسرح الرجل الذى كان عليه أن يهزم روميل . وما كاد الألمان يعلمون بتعيين مونتجمرى حتى أرسل روميل فى طلب جميع المعلومات الكاملة المعروفة عن القائد الجديد . وفى نفس المساء قرأ التقارير الواردة ، وكانت تتضمن التالى: « فى معركة دنكرك ظهر اسم مونتجمرى كقائد فرقة ، وهو منظم قدير » ، وهمهم روميل لنفسه وهو يقرأ «إن هذا الرجل لرجل خطر » فكم تكون درجة خطورته ؟ فقد أحضر معه من إنجلترا بعض الضباط ممن تربطه بهم علاقات شخصية وثيقة . وكان على رأسهم الليفتنانت جنرال بريان هوروكس الذى عينه قائداً للفيلق ١٣ . وكان هؤلاء القادة

الشبان ممن يطيعون الأوامر ولا يعملون حسب أهوائهم أو لإرضاء قيادتهم العليا فقط ولكن لمصلحة جنودهم . وقام مونتجمرى على الفور بإلغاء كل التعليمات والخطط المتعلقة بانسحاب الجيش الثامن من موقع العلمين ، وكان يؤكد دائما فى حديثه مع الضباط: « إن ترك جبهة العلمين خارج عن الموضوع » .

٢ - عبقرية روميل:

وأصدر مونتجمرى أوامره إلى قادة الفرق بعدم استخدام القوات إلا فى حشد. وأعلن رأيه بقوله: « لقد انتهى عهد القتال بوحدات صغيرة لأن هذا مكن روميل من الحصول على انتصاراته » ، وأضاف: « وفى المستقبل لن نستخدم الدبابات والمدفعية إلا فى حشود كبيرة » وبعد ذلك أخبر مونتجمرى الوزارة البريطانية عن الحد الأدنى لاحتياجاته وقال: « لن أقوم بالهجوم حتى تستكمل هذه الاحتياجات ولكنى سوف أحتفظ بموقع العلمين حتى تستكمل هذه المطالب » وبالطبع فقد علم القادة الألمان بذلك . ولكن ما الذى كان يمكن أن يفعلوه؟ وقال لى الجنرال نهرنج: «هل كان على روميل أن يبقى ساكناً وينتظر هذا التهديد بالهجوم، والذى بلا شك سوف يشن بقوة متفوقة وخطط معدة بعناية ؟ أو يحاول الانسحاب إلى موقع أكثر ملاءمة مثل الموقع الذى احتفظ به سنة ١٩٤١ على الحدود الإيطالية المصرية ؟ » وتابع نهرنج كلامه قائلا: « بعد انتهاء الحوادث قد يكون من السهل القول بأن الانسحاب لموقع دفاعى أكثر ملاءمة –حيث يمكن إمداد القوات بطريقة أفضل هو– الحل الصحيح ولكن هذا كان معناه الانسحاب . وكانت برلين وروما تعتبران مثل هذا الانسحاب الإستراتيجى غير مقبول من الناحية السياسية ؟ رغم أن مثل هذا القرار سوف يحقق لروميل خفة الحركة وفرصة للاستفادة من تفوقه التكتيكى » وهذا هو حكم الجنرال نهرنج الرجل الحذر ذى الفكر الهادئ وهو القائد الذى كثيرا ما غضب عليه خلال خدمته لنقده النزيه للمواقف المختلفة ولكن فى النهاية صدرت الأوامر لروميل من كل من القيادة الألمانية العليا (هتلر) وموسولينى بعدم الانسحاب .

وأمروه بالثبات تاركين له طريقاً واحداً مفتوحاً وهى الهجوم ، على أن يحشد كل قواته مرة أخرى ويقامر بكل شىء على ورقة واحدة . وقد وضعت الخطة على هذا الأساس وقد تضمنها الأمر الذى قام بتوزيعه: الرقيب أول مانكويكز التابع للسرية التاسعة من الآلاى البانزر ١٠٤، وباقى رقباء أوائل الكتيبة الآخرين فى جيش البانزر – على قيادات السرايا المختلفة يوم ٣٠ أغسطس ١٩٤٢ وهذا نص الأمر :

« القيادة التكتيكية لجيش البانزر الإفريقى»... ١٩٤٢/٨/٣٠

الأمر اليومى للجيش ...:

أيها الجنود ، إننا اليوم بعد أن عزز الجيش بفرقة جديدة سوف نقوم بتحطيم قوة العدو نهائيا فى هجوم جديد . وإنى أتوقع من كل جندى تحت قيادتى فى خلال الساعات الحاسمة أن يبذل غاية ما فى وسعه وطاقته .

الإمضاء

فيلد مارشال - روميل

القائد العام »

وكانت خطة المعركة تحمل « عبقرية روميل » فكان الهجوم سيبدأ بقيام الفيلق الإفريقى ومعه الفرقة ٩٠ الخفيفة والفيلق ٢٠ الميكانيكى الإيطالى بمهاجمة الجناح الجنوبى للجيش الثامن بالالتفاف حول جبل الكلخ ثم الاتجاه إلى الشمال الشرقى . وبعد عبور هضبة الرويسات كان على هذه القوات تطويق الجناح البريطانى الشمالى والقوات الاحتياطية وتدميرها . أما الفرقة ١٦٤ الخفيفة والفرق الإيطالية الموجودة شمال هضبة الرويسات والتى ألحق بها لواء المظلات رامك فعليها تثبيت العدو على الطريق الساحلى بواسطة هجوم بالمواجهة ، وكان على الفيلق ٢٠ الإيطالى والفرقة ٩٠ الخفيفة العمل كحلقة وصل بين هذه القوات (التى لا تزيد فى الواقع عن أن تكون قوات تثبيتية) وبين الفيلق الإفريقى مع القيام فى نفس الوقت بهجوم مماثل لتأمين الجناح الشمالى الغربى للفيلق الإفريقى وكالعادة كان على الفيلق الإفريقى أن يتحمل الصدمة الأولى للمعركة . ولو نجحت هذه الخطة لتحطم الجيش الثامن ثم بعد ذلك يتم تنفيذ الجزء الثانى من الخطة . وتتضمن المرحلة الثانية من الخطة قيام الفرقة ١٥ بانزر ومعها الفرقة ٩٠ الخفيفة بالهجوم نحو الشرق فى اتجاه السويس عن طريق القاهرة ، على أن تقوم الفرقة ٢١ بانزر بالاستيلاء على الإسكندرية . وكان يتوقف نجاح خطة روميل على عدة عوامل رئيسية ، منها قرار روميل بألا يشن الهجوم بالقوات الميكانيكية للفيلق الإفريقى فى الجزء الشمالى للسهل الساحلى من خط القتال على أن يتم الهجوم بهذه القوات فى الأرض الوعرة فى الجنوب على حافة الملاحات ، وبذلك يخدع القادة البريطانيين الذين لن يتوقعوا الهجوم فى الجنوب، وذلك لأنه يسهل اكتشاف الفيلق الإفريقى ومدرعاته على السهل الساحلى بواسطة طائرات الاستطلاع ولذلك

موهت الدبابات والمركبات على هيئة صناديق وغطيت بالأعشاب الشوكية ومواد التمويه البريطانية التى تم الاستيلاء عليها مع استخدام جميع المواد الأخرى وذلك لكى يتم إخفاؤها من الجو . وأمر روميل بأن يتم تجهيز عدد مماثل من هذه الصناديق ومواقع المدفعية خلف الجناح الجنوبى للجبهة بغرض خداع العدو .

وقد كانت خدعة بارعة لأن العدو بالملاحظة الدقيقة سوف يظن أن هذه المنشآت هى منشآت خداعية وللتمويه ، ومن ثم فلن يتوقع الهجوم من الجنوب . ولو أخطأ العدو واعتقد أن هذه المواقع فعلا مواقع لدبابات حقيقية فسيقدر احتياطى جيش روميل بضعف قوته الحقيقة وسوف يؤدى هذا مرة أخرى إلى أن العدو سيعتقد أن الهجوم سيتم فى الشمال . والنقطة الثانية المهمة فى الخطة أن يتم تقدم قوات الاقتحام وعبورها حقول الألغام واختراق الخطوط للوصول إلى خلف المواقع البريطانية فى الجنوب بسرعة البرق وفى ليلة واحدة وبهذه الطريقة وحدها لن يستطيع العدو المتفوق إعادة تجميع قواته .

وتحت ستار ليلتين من الليالى القمرية وهما ليلتا ٢٩ ، ٣٠ أغسطس سنة ١٩٤٢ تم تحرك الفيلق الإفريقى إلى الجنوب ، وقد أدى وجود المواقع الخداعية فى الشمال إلى إخفاء تحرك الدبابات عن طائرات استطلاع العدو .

ولكن هل بقيت هذه التحركات سرا ؟ وهل تحقق المطلب الأول وهو أهم المطالب لنجاح العملية ؟

وفى مذكرات الفيلد مارشال « آلان بروك » رئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية البريطانية الذى كان فى زيارة للجيش الثامن فى منتصف أغسطس جاء ما يلى: « لم يمض على مونتجمرى فى قيادته الجديدة سوى أيام قليلة حتى علم أن روميل سوف يقوم بهجوم فى يوم معين ، وأن الهجوم الرئيسى سيتم فى الجبهة الجنوبية على أن يتلوه الالتفاف إلى الشمال . وشرح لنا بالتفصيل كيف سيقوم بصد الهجوم بواسطة المدفعية . وكانت تأكيداته مقنعة لدرجة أن رئيس الوزراء اعتبر أن كل خططه واحتياطاته تعتبر شديدة الإحكام » .

وقد ذكر مونتجمرى فى مذكراته بأنه كان مقتنعا بأن روميل سيهاجم من الجنوب واعترف الليفتانت جنرال هوروكس قائد الفيلق ١٣ بأن جميع ترتيبات الدفاع البريطانى قد تم وضع خطتها بالتفصيل على أساس خطة روميل الماكرة .

ولم يعتبر الهجوم الألمانى مفاجأة للقادة البريطانيين فى إفريقيا إلا بالنسبة للوقت وللطريقة .

ومنذ البداية اعتبر مونتجمرى هجوم المحور على الجزء الشمالى من الجبهة ما هو إلا هجوم خداعى ولذلك لم يقم بتعديل مواقع قواته لمواجهته . بل انتظر فى المكان الصحيح وفى الوقت المناسب .

وحتى الجنرال هوروكس الذى كان فيلقه يواجه الهجوم الرئيسى ذهب إلى النوم بعد وصول التقارير بأن الهجوم قد بدأ . ولم يكن لديه أدنى شك بما سيقوم به روميل ، فسوف يقوم بالهجوم على مواقع الفيلق ١٣ باستخدام الفيلق الإفريقى فيما بين الفرقة النيوزيلندية وهضبة الحميمات وعندما يتم اختراق جبهة الفرقة ٧ المدرعة كان عليه إما أن يقوم بحركة تطويق واسعة حول علم حلفا ليصل إلى بلدة الحمام أو الالتفاف القريب ليصل إلى مؤخرة علم حلفا .

ولم يذكر القادة البريطانيون شيئاً عن الخيانة فلم يكن ذلك مهماً على وجه الخصوص لأن روميل كان دائماً لا يكشف عن مصادر مخابراته السرية .

وقال مونتجمرى وهيئة قيادته: إنهم توصلوا لمعرفة خطة روميل من تقارير الأحوال الجوية وقوة الفيلق الإفريقى وموقف الوقود ، ومن تكتيكات روميل التى تمت قبل ذلك ومن العقلية الألمانية وكيف تفكر ودوريات الاستطلاع المعادية ، إلا أن القصة التالية تستحق الإمعان والتفكير .

وعلى المنضدة التى أكتب عليها توجد أمامى خريطة وضعها تحت تصرفى الجنرال بايرلاين الذى كان برتبة عقيد وقت المعركة ويعمل رئيساً لهيئة أركان حرب الفيلق الإفريقى وهذه الخريطة توضح خطة هجوم روميل ويظهر عليها بوضوح وبالألوان الجداول والطرق والمسالك وحالة التربة خلف الجبهة الجنوبية البريطانية والأهداف وتوقيتات الهجوم الألمانى . وكانت هذه الخريطة تعتبر كنزاً . فقد كتب عليها كل الصعوبات التى تصورتها القيادة الألمانية . وقد اكتشفت دوريات الاستطلاع الألمانية التى يعتمد عليها حقلاً للألغام . ولكن ما الذى يوجد خلف هذا الحقل ؟ وكانت الخرائط الإيطالية للمنطقة لا تعطى إلا القليل من المعلومات علاوة على أن استجواب أهالى المنطقة لا يعتمد عليه . وكان غير ممكن إرسال دورية استطلاع مسلحة خوفاً من أن يشك العدو فى الأمر . فمن المعلوم أن الغارات الجريئة المفاجئة داخل أرض العدو هى فقط الطريقة الوحيدة للحصول على

معلومات يمكن الاعتماد عليها عن الأرض التى قطعتها القوات التى قامت بهذه الغارة ونتيجة لهذا فقد صدرت الأوامر لكل الوحدات بأن تعطى أهمية خاصة للخرائط البريطانية المستولى عليها لهذه المنطقة . ومثل هذه الغنائم كانت دائماً ذات فائدة عظيمة لأنها صادرة من الإدارة التى ترسم الخرائط البريطانية الممتازة .

٣ - سباق الأيام الستة :

وفى إحدى الليالى سمع صوت انفجارات فى حقل الألغام الألمانى فى القطاع الجنوبى للجبهة فقد انفجرت الألغام وقام الحراس بإعطاء الإنذار وجهزت المدافع الرشاشة وأطلقت طلقات الإشارة . وكان هناك هرج ومرج وسط حقل الألغام . ثم شوهدت بعد ذلك عربة استطلاع بريطانية تحاول نقل جرحاها إلى الخلف . وتقدمت دورية استطلاع ألمانية للأمام لتعرف جلية الأمر فوجدت عربة الاستطلاع البريطانية محطمة فى حقل الألغام . وفتش الجنود العربة بحثًا عن الغنائم . فما الذى وجدوه على المقعد المجاور للسائق ؟ لقد وجدوا حقيبة خرائط مخضبة بالدماء فالتقطوها .

وحدث احتفال كبير فى هيئة قيادة روميل عندما وجدوا فى جيب الحقيبة خريطة للقطاع الجنوبى للجبهة البريطانية . وكانت مطبوعة طباعة جيدة ومرقمة بأرقام كودية . وكانت ملطخة ببقع الشاى والحبر . إلا أن هيئة القيادة بالطبع كانت حذرة وشكت فى الأمر ولكن بعد مراجعتها ومقارنتها بالخرائط الأخرى وجدت أنها صحيحة . والآن أصبح لديهم ما هم فى أشد الحاجة إليه ، فقد أظهرت لهم الخريطة الطرق الصلبة المتماسكة والقطاعات التى لا يمكن اجتيازها لوجود الكثبان الرملية والغرود المتحركة الخداعة والمناطق المفتوحة الواسعة التى تصلح للتحرك فى الصحراء . وبذلك أصبح فى متناول أيديهم المفتاح السحرى للمواقع البريطانية . واعتقدوا أن هضبة علم حلفا أصبح سقوطها مؤكداً .

وقد أصبحت هذه الخريطة فى الحال الأساس لكل الخرائط لتلك المنطقة ولو أن التفاصيل لم تقبل كلها بدون نقد ، فقد أكد الجنرال هوروكس هذه القصة فقال: «لقد أفرغ الألمان عربة الاستطلاع وقامت الفرقة السابعة المدرعة فى صباح اليوم التالى بإبلاغ قائد الفيلق ١٣ عن أسر القوات الألمانية لعربة استطلاع بريطانية وقد اتصل السير بريان فوراً بالجنرال جوينجاند – وكان يعمل رئيس أركان حرب الجنرال مونتجمرى– تليفونيا وقال له: « هالو –فردى – لقد التقط الألمان بيضتك ،

وأجاب رئيس أركان حرب مونتجمرى بمرح: « إننا نأمل أن يفرخوها » فما هو المقصود من ذلك ؟

لقد فكر البريطانيون فى خدعة رائعة لكى يغروا روميل على اتخاذ قرار خاطئ . فقد قام الجنرال دى جوينجاند برسم خريطة للمنطقة الموجودة خلف الجبهة البريطانية وسجل عليها طبيعة أرض مخالفة لحقيقة الجبهة البريطانية ، وحملت الخريطة إلى داخل حقل الألغام الألمانى . وفجرت بعض الألغام لكى تدمر العربة ثم انسحبت الدورية وانتظرت على مقربة لترى ما الذى سيحدث . وجاءت دورية ألمانية وفتشت العربة ووجدت الخريطة وجعلت هذه الخريطة الأساس لخطط الهجوم والأصل فى الخرائط الخاصة بطرق الاقتراب للقوات الألمانية فهذه الخريطة المزيفة كان تأثيرها كبيراً على مجرى معركة علم حلفا .

ولقد رأيت خريطة هيئة أركان الحرب الخاصة بالقتال حول العلمين واستطعت أن أتابع مرة أخرى الخطوط الملونة التى تمثل مواقعنا ومواقع العدو وكنت أستطيع قراءة أرقام النقاط الإستراتيجية المهمة وأن أتابع بأصبعى المدقات . وكان فريتزر بايرلاين رفيق روميل فى جميع تحركاته جالسًا بجوارى وهو يشرح لى .

وخلال معركة علم حلفا كان بايرلاين رئيس هيئة أركان حرب الفيلق الإفريقى ، الذى كان يقوده الجنرال نهرنج الذى جرح فى ٣١ أغسطس وحل محله الجنرال فون فيرست . ويعد بايرلاين والجنرال فون فيرست من القلائل الذين شاهدوا الهجوم المدمر الذى وقع فى أغسطس والمعروف باسم (سباق الأيام الستة) فهذه المحاولة الأخيرة لاختراق جبهة العلمين والاستيلاء على الدلتا قد استمرت مثل هذه المدة بالضبط وقد رسم بايرلاين بضعة خطوط ليبين المواقف المختلفة وسير المعركة وقال: « هذه هى الخطة التى أردنا أن ننفذها ، وذلك بقيام لواء المظلات رامك ومعه الفرقة ٩٠ الخفيفة والفيلق ٢٠ الإيطالى الميكانيكى بالالتفاف حول موقع العلمين ثم الاتجاه نحو الشمال ، بينما تقوم مدرعات الفيلق الإفريقى بتطويق الجيش الثامن وتدميره بواسطة هجوم مدرع من الخلف . وكان هذا تكتيك روميل المعتاد . وقد استخدمه قبل ذلك فى طبرق ومرسى مطروح والغزالة ، وهنا كذلك فى العلمين وكان من المنتظر أن هذا الأسلوب يحرز له النجاح . وأخيرا كانت الخطة تعتمد على التأثير النفسى فالجبهة المكسورة الممزقة مع وجود العدو فى مؤخرتها يؤديان إلى ذعر للقوات البريطانية . وحركة التطويق الواسعة هذه تحتاج

إلى كميات ضخمة من الوقود وتحتاج كذلك إلى تحقيق عنصر المفاجأة والاندفاع السريع حتى لا يكون لدى العدو الوقت الكافى للقيام بعمل مضاد لإحباطها أو لإعادة تجميع لقواته .

ولذا فكان الإمداد بالوقود والمفاجأة هما الأساس لنجاح هذا الهجوم .

٤ - ضابط إيطالى يمنح وساماً أمريكيا رفيعاً :

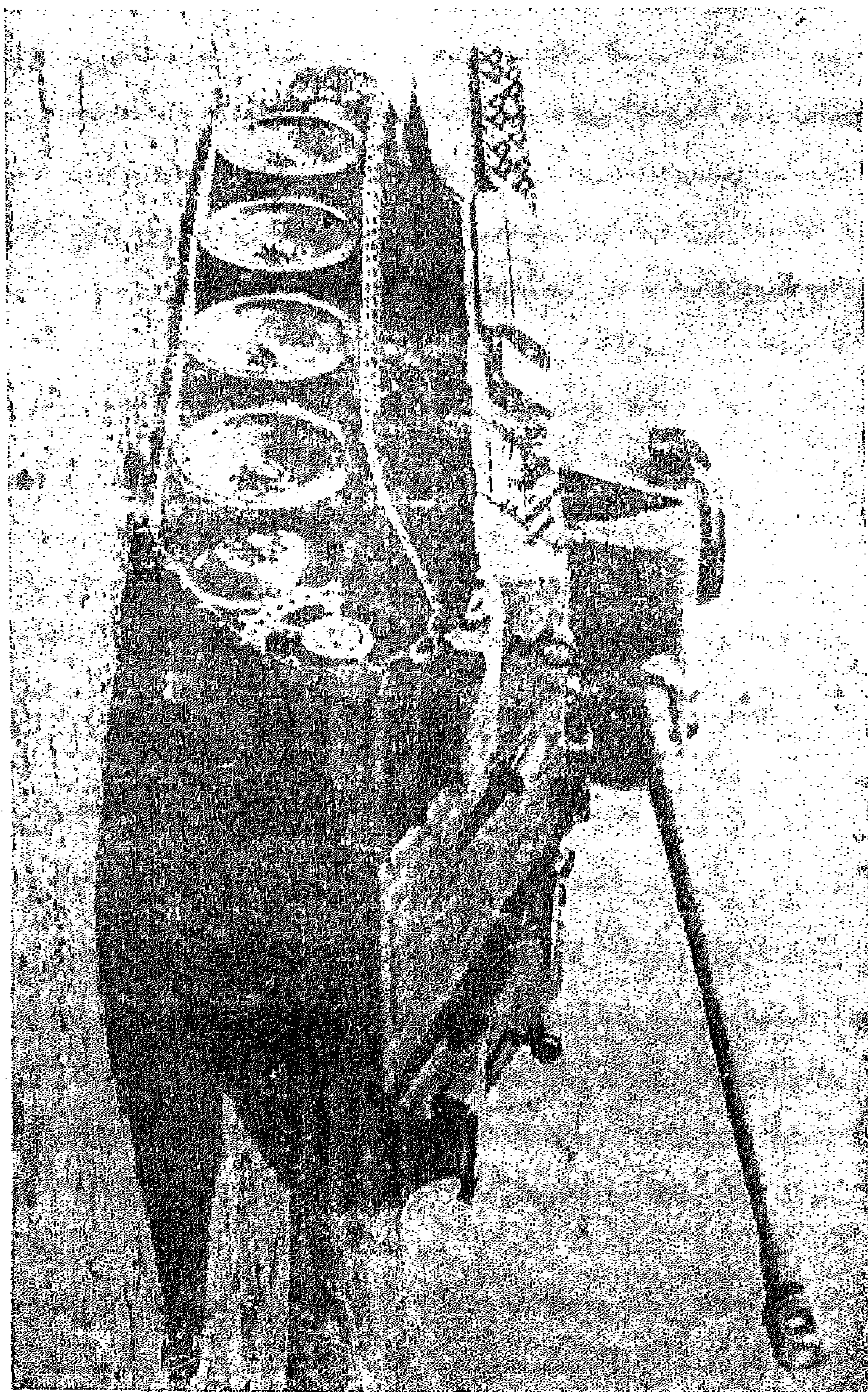
فى ٢٧ أغسطس عقد مؤتمر حاسم فى مقر قيادة جيش البانزر بين روميل والقائد الإيطالى العام الماريشال كافاليرو ، والفيلد مارشال كسلرينج القائد العام للجبهة الجنوبية ، وفى هذا المؤتمر طلب روميل ستة آلاف طن من الوقود كحد أدنى للقيام بالهجوم المنتظر وقد أوضح ذلك بقوله: « إن نتيجة المعركة تتوقف على التوقيتات المضبوطة لوصول الوقود فى ميعاده » فأجاب عليه الماريشال كافاليرو «يمكنك أن تبدأ معركتك لأن الوقود فعلا فى الطريق » .

إلا أن روميل كان يعلم من تجاربه الماضية إلى أى حد يمكن الاعتماد على مثل هذه الأقاويل . فهو يعرف العقبات التى تعترض خط الإمداد الطويل ويعرف جيداً الحوادث المفجعة التى تحدث عندما تندفع القوافل الإيطالية – وكأنه بناء على تدبير سابق – إلى أحضان الأسطول البريطانى أو إلى المنطقة المضروبة بقنابل سلاح الطيران الملكى . وفى ذلك الوقت لم يعرف روميل كل ما عرفناه اليوم إلا أنه كان يعلم ما فيه الكفاية حتى يخامره الشك مما قيل له بخصوص الإمداد بالوقود . فلم يكن يعرف على سبيل المثال ما أماط عنه اللثام الطيار الإيطالى أنطونيو ترينويتو فى كتابه المثير ، فلقد كتب تفاصيل مذهلة، وعلى سبيل المثال ما يلى: « فى صيف ١٩٤٢ جلس ضابط بحرى إيطالى فى محطة لاسكلية أقيمت خصيصاً بالقرب من مرسى مطروح ليرسل منها أهم أنباء المخابرات العسكرية ليلا ونهاراً إلى رئيسه الأدميرال موجيرى رئيس المخابرات الإيطالية . وهو نفس الأدميرال الذى بعد الحرب منح وساماً أمريكيا رفيعاً . ونفس الضابط دبر فيما بعد نزول العملاء الأمريكيين إلى الشاطئ الإيطالى وسهل اتصالهم بالضباط الكبار فى القيادة الإيطالية البحرية » ، وهناك فصل كامل عن التعاون الذى تم بين الضباط الكبار الإيطاليين البحريين – الذين يعرفون تفاصيل رحلات القوافل البحرية المتجهة إلى إفريقيا – والمخابرات البريطانية، وقد أكد ذلك ما كتبه قائد المدمرة الأمريكية زاكارياس فى كتابه « مهمة سرية » فقال: « كانت تصلنا المعلومات عن

نوايا قيادة المحور البحرية بالنسبة للحرب الإفريقية ، وكذلك المحادثات التى تدور بين البحرية الألمانية والإيطالية ، فهل نكون على خطأ لو نطقنا بكلمة « الخيانة » بعد معركة خاسرة ؟ وكان للمحور كذلك عملاؤه ، وهذه الأعمال غير الشريفة لم تكن مقصورة على جانب واحد إلا أنه يمكننا أن نقول اليوم بكل ثقة إن إمدادات جيش البانزر التى كانت تعتمد اعتماداً كليا على الهيئات البحرية الإيطالية ، كانت عرضة للخيانة ، وهجوم روميل الأخير كان يقوم فى ظل هذه الخيانة . فمنذ ١٩٤١ كان الفيلد مارشال يشك فى أن هناك شيئاً ، ونحن نعرف المحادثات التى أظهر فيها قلقه من هذه الناحية ، ولكن كان عزاؤه فى ذلك المؤتمر الكبير الذى تم فى ٢٧ أغسطس والذى أكد له فيه الماريشال كسلرينج أن الأسطول الثانى الجوى سوف ينقل له الوقود اللازم له لو أخفق الإيطاليون فى ذلك .

وفى ٣٠ أغسطس حوالى الساعة الثامنة مساء وعندما حل الظلام عادت فرق البانزر إلى مواقعها واتجهت إلى القطاع الجنوبى للجبهة فى العلمين . وكان القمر فى ذلك الوقت بدراً وكان يطل بنوره على هذا التقدم المدرع ذى الأصوات الصاخبة . ودخلت الفرقة ١٥ بانزر المعركة ومعها ٧٠ دبابة مارك ٣ ، ٤ ، أما الفرقة ٢١ بانزر فقد قامت بالهجوم بـ ١٢٠ دبابة . وواصلت القوات التقدم على مواجهة واسعة ، وقبل منتصف الليل بقليل وصلت مقدمة فرق البانزر إلى نطاق الألغام الموجود أمام الدفاعات البريطانية وبدلا من أن تصطدم بدفاعات ضعيفة كما كان متوقعًا فقد قوبلت بدفاع عنيد . وتقدمت الكتيبة الأولى من الآلاى المدرع ١١٥ بقيادة الرائد بوش داخل حقل الألغام البريطانى تسترها الدبابات والمدفعية والمشاة ونشبت معركة عنيفة . أما الكتيبة الثانية تحت قيادة النقيب وشزل فقد تمكنت من إنقاذ الموقف بقيامها بالهجوم خلال حقل الألغام مع إنشاء رأس كوبرى وتطهير ثغرة فى حقل الألغام وبذلك استطاعت الفرقة ١٥ بانزر من التقدم خلالها .

أما الفرقة ٢١ بانزر فقد وجدت نفسها متورطة فى حقل ألغام بريطانى ولكن الكتيبة الثالثة التابعة للآلاى البانزر ١٠٤ التى كانت فى مقدمة القوات المدرعة استطاعت الوصول إلى حقل الألغام وتطهير ثغرة خلاله وانتظرت هناك لتوجيه الدبابات للمرور خلال الثغرات . ثم تطايرت المركبات فجأة فى الهواء وعلى طول الخط نتيجة لانفجار الألغام وتجمد ملازم المهندسين وكأنه شبح من الأشباح وحاول أن يوقف المأساة بالإشارة بيده . فهناك كذلك تقدمت العناصر الأمامية من الفرقة فى حقل ألغام غير محدد وقام الجنود بالنزول من عرباتهم بحذر . وكانت الألغام



الدبابة البانزر الألمانية مارك ٤

تنفجر فى كل مكان . وصاح أحدهم: « توقفوا . انبطحوا على الأرض » وأخذت المدافع الرشاشة البريطانية تطلق نيرانها . وأصيب الرجال والعربات ، بينما أخذ الصياح يدوى فى طلب حملة النقالات . وحاول ضباط القيادة إعادة بعض النظام لهذه الفوضى السائدة . ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة فى المعركة فقد نزلت ضربة أخرى مميتة ، فقد وصلت طائرات السلاح الملكى البريطانى . وامتلأت السماء بمشاعل المظلات وهى المعروفة باسم « أشجار عيد الميلاد » وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدم الطيارون البريطانيون نوعا جديداً من القذائف وهو مشاعل من المغنسيوم ، وكانت تشتعل فقط عند وصولها للأرض ، وكان من الصعب إطفاؤها . وأصبحت أرض المعركة مضيئة مثل وضح النهار . وقاد الجنرال نهرنج قائد الفيلق الإفريقى عربته نحو الفرقة ٢١ بانزر وكان فى عربة قيادته رئيس أركان حربه العقيد فريتزر بايرلاين وياوره فون برج سدروف واثنان من السائقين وثلاثة من رجال الإشارة بما فيهم عاملا اللاسلكى هالك سور وجومز باخ . وواصلت الألغام انفجارها وتطايرت القنابل وغمرت المدافع الرشاشة وجه الأرض بنيرانها . واحتدمت المعركة واستقبل نهرنج أول الأخبار غير السارة ، فقد قتل قائد الفرقة ٢١ بانزر الماجور جنرال جورج فون بسمارك ، وكان على رأس فرقته أثناء عبورها حقل الألغام البريطانى .

وجرح الماجور جنرال كليمان قائد الفرقة ٩٠ الخفيفة .

وكان الوقت بعد منتصف الليل والفرقة لا تزال تقاتل داخل حقل الألغام البريطانى الواسع . وانفجرت القنابل الثقيلة التى ألقيت من خلال السماء المضيئة وأنزلت النيران المنصبة من مدافع المقاتلات والقاذفات البريطانية خسائر فادحة بالقوات الميكانيكية ثم انقض طيار بريطانى كالصقر على ميدان المعركة المضيئة ، فقد رأى عربة قيادة الجنرال نهرنج وأطلقت هيئة القيادة مدافعها عليه إلا أن الطيار رفض أن يتحول عن هدفه وقذف بقنابله من ارتفاع منخفض فسقطت قنابله أمام العربة وانفجرت . وقتل عدد من الرجال والضباط الموجودين بالعربة ، واخترقت الشظايا درع العربة وجرح نهرنج . وفى الخارج كان برج سدروف يعانى من سكرات الموت بينما قتل ضابط تموين الفيلق «واتر شميدت » ، وقاد الرقيب فرانز فوللر العربة الفولكس واجن حيث نقل بها الجنرال نهرنج إلى محطة الإسعاف . وقتل ثلاثة من الجنرالات الأربعة الذين قادوا الهجوم فى أول المعركة ، أما بايرلاين فقد ركب إحدى الدبابات وقاد الفيلق حتى تسلم منه القيادة الجنرال فون فيرست .

ولم تتحطم المقاومة البريطانية فى حقل الألغام إلا قبل الفجر بقليل ولم تتمكن مقدمة الفيلق الإفريقى ومجموعات الاستطلاع من الوصول إلا لمسافة تتراوح من ٨ إلى ١٠ أميال شرق حقول الألغام وقد تم ذلك فى صباح يوم ٣١ أغسطس . وهكذا فشل روميل فى التقدم بقواته الميكانيكية فى ضوء القمر مسافة ثلاثين ميلا إلى الشرق ثم الالتفاف بها للهجوم فى اتجاه الشمال . وقد فشلت الخطة بسبب المقاومة غير المتوقعة وبسبب وعورة الأرض التى لم تظهر على الخريطة التى رسمها دى جوينجاند ، ففى المكان الذى كانت القوات تنتظر مدقات صالحة للسير فيها لم يجدوا سوى كثبان رملية صعبة العبور ، وحيث رسمت كثبان رملية لا يمكن اجتيازها اصطدموا بمراكز بريطانية قوية .

وقال لى بايرلاين: « لقد فكرنا هل من الواجب علينا إيقاف المعركة لأن البريطانيين يعرفون موقفنا؟ وقد ناقش روميل الموقف معى وقررنا مواصلة الهجوم إلا أن شيئاً واحداً كان واضحا وهو أن الخطة الأصلية وهى تطويق الجيش الثامن لم يعد فى الإمكان تنفيذها لأن العدو كان لديه الوقت الكافى ليقوم بهجوم مضاد ، وبذلك ضاع عنصر المفاجأة. زاد على ذلك أنه لم يعد من الممكن بالنسبة لنا تجنب مرتفعات علم حلفا المحصنة وخاصة أننا أصبحنا فى وضح النهار . وقد أرغمنا العدو على اختيار الحل الثانى . وهو الالتفاف إلى الشمال كما سبق أن خططنا وهو القيام بالهجوم بالمواجهة على المرتفع الحيوى رقم ١٣٢ الواقع على هضبة علم حلفا. (انظر اللوحة رقم ١٦)

وقد أبلغت دوريات الاستطلاع الألمانية أن تبة علم حلفا محصنة تحصينا قويا إلا أنها لم تكتشف أن فرقة مشاة بريطانية (١) بكامل قوتها قد وصلت حديثا من بريطانيا وأنها تحتل مواقع محصنة على علم حلفا فعلا ومدعمة بمدفعية ثقيلة ودبابات موجودة داخل مواقع محصنة .

٥ - الوقـــود المنقـذ :

وفى بداية الهجوم تمكنت الفرقتان المدرعتان ١٥ ، ٢١ من إحراز بعض التقدم ، إلا أن فرقتى آريتى وتريستا الإيطاليتين تخلفتا كثيرا عنهما .

ولحسن الحظ أن هبت عاصفة رملية طوال اليوم بالرغم من أن العاصفة

---

(١) كانت هذه الفرقة هى الفرقة ٤٤ البريطانية . (المعلق)

جعلت الحياة غير محتملة بالنسبة للجنود إلا أنها منعت السلاح الجوى الملكى البريطانى من التدخل فى المعركة .

وفى مساء ٣١ أغسطس كان موقف الوقود ينذر بالخطر . فأين ذلك الوقود الذى وعد بإرساله كافاليرو؟ ويجب أن نتذكر أنه قد أكد لروميل بأنه يستطيع أن يبدأ المعركة لأن الوقود فى طريقه إليه .

وقد ترددت أساطير كثيرة عن مأساة الوقود هذه بعد انتهاء معركة علم حلفا فالبعض يتكلم عن أعمال التخريب ، والبعض يتكلم عن عدم الكفاءة ، والبعض الآخر عن سوء الحظ .

وقد بحثت الموضوع بمنتهى الحذر، وأعتقد بأننى قد أوضحت كل ما يمكن إيضاحه ، ففى يوم ٢٧ أغسطس أقلعت ناقلة البترول بيس فاسيو من ميناء ليجهورن وبعد يومين انضمت إليها حاملة الوقود أبروزى القادمة من ميناء بيروس فى طريقها إلى طبرق . وكلتا الحاملتين أغرقتا بجوار درنة بواسطة الطائرات البريطانية الحاملة للطوربيد . وفى ٢٧ أغسطس أرسل الماريشال كافاليرو بعد تردد حاملة البترول بازاريكا من نابولى وقد ضربت هى الأخرى بالطوربيد . وقد أقلعت حاملة أخرى وسفينة شحن محملة ببراميل البترول اسمها ترجستيد تحت حماية بعض المدمرات . ويمكن تتبع رحلتهما حتى وصولهما إلى ميناء طبرق ، ثم حدث لها ما حدث لغيرها . فقد قيل إن إحدى سفن الحراسة قد أصدرت تعليماتها إلى ربان السفينتين بخفض السرعة إلى خمس عقد خوفا من الألغام المغناطيسية ، وبينما تجاهلت السفينة التجارية الألمانية الأمر الإيطالى فوصلت بسلام إلى الميناء بسرعة ١٤ عقدة . بينما هوجمت الباخرة الإيطالية بواسطة الطائرات البريطانية وهى تتهادى وأغرقت خارج مدخل ميناء طبرق مباشرة .

أما الرواية الثانية فتقول: إن السفينة ترجستيد وصلت إلى طبرق سالمة إلا أنها أمرت بترك الميناء أثناء غارة جوية ثم أغرقت بواسطة غواصة بريطانية خارج مدخل الميناء مباشرة ، وعلى كل فأى الروايتين أصدق فإن الوقود الذى وعد به كافاليرو قد فقد . وأخيراً اضطر الماريشال كسلرينج للعمل ، فأرسل طائرات النقل إلى إفريقيا إلا أن حمولة هذه الطائرات كانت ضئيلة .

وفى اليوم الأول من سبتمبر قامت الفرقة ١٥ بانزر تحت قيادة قائد المدرعات الممتاز العقيد جريسمان بالهجوم على تبة علم حلفا وبعد قتال مرير

تقدمت حتى أصبحت على مقربة من التل ١٣٢ وكانت المعركة فى مرحلتها النهائية . وما تحمله رجال المشاة والمهندسون والمدفعية ورجال الدبابات من المتاعب والصعاب يفوق الوصف . فقد قاتلوا تحت وابل من القنابل وكان عليهم أن يقتحموا المنحدر المغمور بنيران المدفعية الشديدة ، بالإضافة إلى ذلك فقد شنت الفرقة السابعة المدرعة الإنجليزية هجوما قويا على الجناح الشرقى للفرقة الألمانية المهاجمة لعلم حلفا إلا أن روميل كان قد عقد العزم على الوصول إلى البحر ، وتمكن الآلاى الثامن المدرع من اختراق خطوط العدو . وفى عصر يوم أول سبتمبر كانوا على بعد عشرة أميال من الساحل بينما كان باقى الفرقة المدرعة لا يزال فى مؤخرة جبهة العلمين .

ولكن لم يستطع الآلاى المدرع الخامس الموجود فى الجناح الأيسر من اختراق الخطوط الدفاعية البريطانية واضطر إلى التوقف ، وظل سلاح الطيران الملكى طوال اليوم يلقى بقنابله على الآلايات المدرعة والمدفعية الألمانية وقد قتل فى قيادة الفيلق الإفريقى سبعة ضباط . وكانت عمليات تموين المدرعات الأمامية بالوقود والذخيرة صعبة للغاية . وتوقفت القوات معظم الوقت بدون حركة لنقص الوقود وقد كانوا فى مؤخرة العدو .

وظلت أسراب سلاح الطيران الملكى تقذفهم بدون رحمة وهى تقف فى هذه الصحراء المكشوفة . وفى مساء أول سبتمبر قرر روميل إيقاف الهجوم والانسحاب على مراحل إلى نقطة الانطلاق شمال منخفض القطارة . واستمرت معركة الانسحاب العنيفة هذه مدة ثلاثة أيام وانتهى بذلك سباق « الأيام الستة » .

ومرة بعد مرة تردد السؤال التالى: « لماذا خسر روميل المباراة فى هذه المرحلة الحاسمة من هذه المعركة التى كان هدفها الوصول إلى النيل ؟

والجواب على ذلك لا يتغير أبداً وهو أنه: « نقص الوقود » إلا أن هذه النظرية لا يمكن تأكيدها . حقيقة كان هناك نقص فى الوقود إلا أنه خلال الانسحاب لم يترك سوى مركبات قليلة جدا بسبب نقص الوقود . وقد أوضح لى الجنرال فون فيرست هذه الأكذوبة فقال: « لقد قمنا بتفريغ خزانات البترول الاحتياطية فى المركبات وبعدها جاء سلاح الطيران الألمانى بحمولة من الوقود المنقذ » . وقد أكد لى الجنرال أن سبب الهزيمة يرجع إلى أن قوات روميل كانت ضعيفة جدا . كما أن قائد الجيش البريطانى الجديد مونتجمرى كان ملما بالخطط



المدفعية الأجنبية أثناء تحركها لاحتلال تبة علم حلفا

الألمانية كما أنه كان مدعمًا تدعيمًا قويا بالمدفعية والمدرعات المتفوقة فى العدد والنوع ، ولكن هل كان من المحتمل – لو أن موقف روميل تحسن ، بالنسبة لوقود الفيلق الإفريقى، وترتب على ذلك تحقيق المناورة مع إجراء التحركات بسرعة – أن يؤدى ذلك إلى قلب الميزان ضد الدفاع البريطانى العنيد ؟ نعم هذا كان محتملا . إلا أنه لا يمكن إنكار أن التفوق البريطانى كان عاملا حاسماً فى المعركة، ولأول مرة خلال الحرب العالمية الثانية أرغم القادة الألمان على الاعتراف بأن تفوق العدو الجوى كان عائقًا قويا فى المعارك الصحراوية . وكان هذا ظاهراً للعيان، إلا أن القيادة الألمانية فى إفريقيا كانت عديمة الحيلة إزاء ذلك . كما أن الماريشال كسلرينج قد أعلن بأن بعض أسراب الطائرات سوف ترسل من الجبهة الشرقية من أجل معركة العلمين . وفى ١٧ أغسطس طارت ثلاث مجموعات تابعة للسرب رقم ٢١٠ قاذفات من تاجانزوج إلى طبرق إلا أن هذا كان قطرة فى المحيط، لأن قوة سلاح الطيران الألمانى فى إفريقيا كانت فى اضمحلال مستمر بالإضافة لذلك فمراكز التنصت التابعة لسلاح الطيران الألمانى – والتى كانت تكشف تحركات العدو فى الجو والبر وتقدم معلومات لا تقدر بثمن إلى الدفاع الجوى بالنسبة لتحركات العدو – توقفت فجأة عن العمل . فقد تحول البريطانيون عن اتصالهم باللاسلكى على الموجة القصيرة جدا فجأة ، هذا بالإضافة إلى فشل محطات التنصت التابعة للجيش. وقد سبب كل ذلك ضرراً بالغا للدفاع الجوى .

وقد انتهت معركة علم حلفا التى تعتبر من المراحل الحاسمة للحرب الإفريقية التى ظهرت فيها الشجاعة والدهاء والإقدام ، وقد قام به القائد الألمانى ورجاله ولكنهم فشلوا بالرغم من كل ذلك لأنهم كانوا يقاتلون أمام عدو متفوق فى المعدات والسلاح الجوى والمدفعية . وفوق هذا كله كان أمامهم قائد جديد وبالرغم من أنه كان لا يزال قائداً حديثا بالنسبة لمعارك الصحراء إلا أنه كان واثقا من النصر فقد كان لديه معدات لا حصر لها ، وهذا القائد الذى غير مجرى الحرب فى أفريقيا كان الجنرال مونتجمرى .

ومن ذلك الوقت قام بإملاء الحوادث والأحداث وأذاق القوات الألمانية المرهقة طعم الهزيمة بكل مرارتها ؛ فعلاوة على خسائرهم الفادحة أخذت ثقة الألمان بالنصر تتزعزع . زد على ذلك أن نقطة التحول فى معركة علم حلفا جاءت من الهزيمة التى حدثت للألمان أمام ستالينجراد ، فهذا هو السبب فى أن معركة علم حلفا سميت بحق « معركة ستالينجراد الصحراء » .

٦ - الإغارة البريطانية على طبرق :

إن مصر من أجمل بلاد الدنيا ، وهى تبدو فى أجمل مناظرها من شرفة نادى اليخت بالإسكندرية . هذا هو رأى سكان الإسكندرية وكل روادها خلال الحرب ، فقد وجدوا أنها تشابه مدن الأساطير حيث يجلسون فى الظل ، وأمامهم يمتد البحر بلونه الجميل واليخوت بأشرعتها البيضاء . وكان ضيوف النادى فى وقت الحرب عبارة عن الضباط والأثرياء من أهل المدينة ومعهم النساء الجميلات .

وفى بداية سبتمبر ١٩٤٢ قامت مجموعتان من زوارق الطوربيد رقم ١٠ ، ١٥ ببعض المناورات بالقرب من الشاطئ . وكانت الزوارق تجر خلفها زوارق إنزال صغيرة . وكانوا يتدربون على إنزال الجنود وإجلائهم . ونجحت المناورات ، وقد أحضرت السيدات المصريات – اللاتى تعودن تناول الشاى عصر كل يوم فى شرفة نادى اليخت– معهن نظارات الأوبرا حتى لا تفوتهن حركة واحدة من هذه المناورات . وأثناء السير فى الطريق العام كنت ترى وجوه رجال البحرية وكانت متجهمة فى العادة ولكنها كانت تنفرج عند سماعهم لإحدى السيدات تقول: « ما جنسية ضباط البحرية هؤلاء ؟ » فتجيبها صديقتها: « إنهم يونانيون يا عزيزتى فلقد سمعت ذلك من زوجى » فسألت: « يونانيون ؟ » وأجابتها: « نعم إنهم مدربون يونانيون » إلا أن السيدة كانت بطيئة الفهم بعض الشيء فسألت: « من أين أتى هؤلاء اليونانيون » فأجابتها: « من اليونان بالطبع » .

وكان وجود مدربين يونانيين فى مناورة تدريبية لزوارق الطوربيد فى الإسكندرية فكرة رائعة من قبل المخابرات البريطانية ، فقد صدرت التعليمات إلى قوات المحور فى البحر المتوسط أن تكون على أهبة الاستعداد لأن هناك محاولة لغزو اليونان . وفى الحقيقة فالتدريبات التى كانت تتم بالإسكندرية لم تكن لها علاقة باليونان . فقد بدأ الموضوع فى أوائل يولية ١٩٤٢ عندما اختمرت فكرة لدى العقيد جون هارسليدن قائد مجموعة الصحراء بعيدة المدى وهى عبارة عن توجيه ضربة قاتلة إلى إمدادات روميل وخاصة الوقود ، فقد اقترح نسف مستودعات البترول الضخمة الموجودة فى طبرق .

وبما أن القيادة البريطانية العليا الموجودة بالقاهرة فى ذلك الوقت كانت تتعلق بأى شيء يعطيها بعض الأمل فى النصر ، لذلك فخطة هارسليدن وجدت الكثير من المؤيدين .



الفيلد مارشال مونتجمرى قائد الجيش الثامن البريطانى
الذى استطاع إيقاف زحف روميل على مصر

وسرعان ما كبرت الخطة الأصلية . فلم يعد الأمر مقصوراً على القيام بنسف مستودعات البترول بل كذلك ورش الإصلاح الموجودة فى طبرق وكان ذلك يتضمن تدمير آلاى الصيانة رقم ٥٤٨ الذى يقوم بإصلاح دبابات روميل وعرباته ، فكان هؤلاء من الجنود الأكفاء الذين يقومون بإدارة أدق ورش إصلاح الدبابات على الأرض الإفريقية . وكان هذا هو رأى المختصين فى القاهرة ، وفى نفس الوقت كان من الممكن تدمير مستودعات الذخيرة ومنشآت الميناء ثم عليهم بعد ذلك إطلاق سراح أسرى الحرب البريطانيين، وتردد عديد من هذه الموضوعات حتى أصبحت خطة التخريب هذه موضوعا مهمّا يشغل بال القيادة العليا البريطانية فى القاهرة . وتقرر إشراك قوات مختلطة من القوات البحرية والجوية والبرية وهدفها سيكون وراء خطوط روميل بـ ٣٠٠ ميل . وفى يوم ٢١ أغسطس أقر قادة الأسلحة الثلاثة الخطة وكان الوقت فى منتصف سبتمبر ، وبالرغم من زوال الخطر المحدق بالجبهة البريطانية بعد أن تحطمت قوة روميل الضاربة فى معركة علم حلفا، ولكن العملية لم يصرف النظر عنها .

وفى يوم ١٣ سبتمبر كان العريف ألبرت جولدمان من الخدمات الطبية – وقد نقل من كريت إلى السرية ٢٢٠ الموجودة بشمال إفريقيا – يسير مع خمسة من رجاله فى اتجاه طبرق . فقد هبطوا لتوهم فى المطار وكانوا يبحثون عن مقر لهم . ومر بجوارهم بعض العربات المستولى عليها من البريطانيين . وكانوا على وشك أن يوقفوا هذه العربات إلا أنهم لاحظوا أنها مملوءة بأسرى الحرب البريطانيين الذين بلا شك قدموا من الصحراء . وربما كانوا من جبهة العلمين بالذات . وجلس الحراس الألمان بجوار السائقين ورفع جولدمان يده للبريطانيين بالتحية وأجاب عليه أحدهم ملوحا بيده وقال جولدمان: « يا لهم من مساكين » وشاهد الحراس الألمان يرفعون سدادات الطريق لكى تمر العربات عند نقاط التفتيش الأمامية ، وكانت تحلق فوق الطريق طائرة استطلاع ألمانية لبعض الوقت ثم اختفى كل شىء . وتابع جولدمان ورجاله سيرهم بجوار مانع الأسلاك الشائكة القديم ومخلفات الحرب من المعدات المدمرة . ولمع البحر أمامهم ولم يسمع صوت النيران بعد لأن الحرب والخطوط الأمامية كانت بعيدة جدا عنهم وهبط بسرعة والتجأ جولدمان وجماعته إلى دشمة خالية للمدفعية المضادة للطائرات ، وقال العريف: « سوف نبقى هنا ، حاولوا أن تستريحوا » .

٧ - عملية الاتفاق :

وفى نفس الوقت كانت العربات التى تحمل الأسرى البريطانيين تسير على الطريق المرصوف الساحلى فى اتجاه الميناء واتجهوا نحو اليمين وصاح رجلان من البوليس الحربى الألمانى: « قف » ومعهما بطاريتان سلطوهما على العربات وقال أحدهما : « التصاريح من فضلك » وكان يخاطب الضابط الألمانى الذى يرافق الأسرى، وأجاب الضابط: « سأحضرها حالا ».

وهبط الضابط من العربة مصحوبا بشخص آخر طويل القامة . وفجأة صمت البريطانيون الذين فى العربات ثم سقطت البطاريتان على الأرض . وسمعت صيحة ألم خافتة وأخرى مكبوتة . وأصدر الضابط الذى يرتدى الملابس الألمانية أوامره للعربات بالتقدم وهو يضع خنجره الدامى فى جيب سرواله ثم قام ضابط إيطالى آخر بإيقاف القول مرة ثانية عند كشك الحراسة . وخلال الحديث أطلقت ثلاث طلقات إشارة علامة على حدوث غارة جوية وسمعت صيحة الإيطالى المقتول ولكنها ضاعت وسط صوت إطلاق المدافع المضادة للطائرات ثم قام الجندى الألمانى طويل القامة بإعطاء مدفع رشاش إلى أحد الأسرى البريطانيين الموجودين فى العربة وقال له: « إنه لن يحتاج إلى هذا المدفع بعد الآن » وأضيئت السماء ، لأن سلاح الطيران الملكى البريطانى قد وصل فى الوقت المحدد بالضبط إلا أن عدد القاذفات كان أكثر من المعتاد .

وكما هى العادة كل مساء كان رجال وحدة المدفعية المضادة للطائرات رقم ١١٤ الألمانية الموجودة فى طبرق ينتظرون هجوم البريطانيين المعتاد . ففى الساعة الثامنة وصلت الطائرات المغيرة فى ميعادها وفى تشكيلها المعتاد، فأُطلقوا عليها النيران وأبعدوها .

إلا أنِ أجهزة الرادار سجلت تشكيلات أخرى قادمة ، وأقبلت الطائرات فى موجات وأرسلت الاثنا عشر مدفعا من عيار ٨٨مم قذائفها إلى السماء . ولم يدر بخلد رجال المدافع المضادة أنهم سيطلقون كل ذخيرتهم فى السماء فقد أطلقت البطارية الأولى وحدها ٣٥٠٠ قذيفة .

فقد اشترك فى عملية « الاتفاق » ما يقرب من ٢٠٠ طائرة ، ولمدة أربع ساعات ظلت المدينة تقذف بقاذفات ولنجتن ودمرت خطوط التليفونات . وهاجموا مراكز المدفعية المضادة وأجبروا الضباط والجنود على البقاء فى حفرهم وبذلك

مهدوا الطريق أمام غارة فدائيى هارسليدن الذين مروا خلال طبرق متنكرين على شكل قافلة من أسرى الحرب البريطانيين محاولين إنشـاء رأس كوبرى على خليج أم أسكاسيوس وكانت الأوامر المعطاة لهم تتلخص فى التالى :

« على المقدم هارسليدن الدخول إلى المدينة فى ثلاث عربات ومعه تسعون جنديا متنكرون فى هيئة أسرى حرب بريطانيين » . وكان على بعض الجنود البريطانيين الذين يجيدون الألمانية أن يرتدوا ملابس ألمانية ويقوموا بدور الحراس . وتحت حماية الغارة الجوية كان على هارسليدن ورجاله احتلال رأس كوبرى جنوب خليج الميناء مع الاستيلاء على المدفعية الساحلية والمدافع المضادة للطائرات الموجودة هناك . (وعندما تنجح مهمتهم عليهم إرسال إشارة ضوئية إلى القوات البحرية الموجودة أمام طبرق لكى تنزل جنودها) ، وعلى مشاة البحرية النزول من المدمرات على الشاطئ الشمالى لطبرق . وعلى جنود الاقتحام المحملين فى زوارق الطوربيد النزول إلى الشاطئ جنوب المنطقة الموجود فيها فدائيو هارسليدن .

وكان العدد المقرر نزوله هو ٦٥٠ جندى وعليهم بالاشتراك مع رجال هارسليدن احتلال المدينة حيث توجد وحدات الإمداد الألمانية ورجال المدفعية المضادة للطائرات ورجال المدفعية الساحلية الإيطالية ، وعليهم أن يدمروا كل المنشآت المهمة . أما رحلة العودة فتكون عن طريق البحر حيث يركبون المدمرات وزوارق الطوربيد .

كما سارعت وحدة خاصة تحت قيادة النقيب لويد راوين فى عبور الصحراء مع قوات هارسليدن نحو طبرق وكان عليها البقاء خارج المدينة وأثناء الغارة الجوية تقوم بالتوغل فى دفاعات المدينة . وكان واجب راوين الرئيسى إغلاق الطريق المؤدى إلى مدخل المدينة والاستيلاء على محطة اللاسلكى والرادار مع الاستيلاء على كل المعدات الحيوية وتعطيل مركز القيادة وقطع كل المواصلات . وكانت هذه هى الخطة .

٨ - مفاجأة القوات الإيطالية :

ولم ينقص جماعة هارسليدن أى شىء من الجرأة فقد قطعت ١٥٠٠ ميل من القاهرة عبر الصحراء ، وعلى نفس الطريق ولكن فى الاتجاه العكسى الذى سلكه النقيب الكونت المازى منذ أربعة شهور مع رجاله من آلاى براندبرج لتوصيل عميلى روميل أبلر وساند ستيدت إلى أسيوط .

وعلى مقربة من الشاطئ وقفت وحدتان من أسطول البحر المتوسط البريطانى وهما المدمرتان سيخ وزولو وثمانية عشر زورقا للطوربيد وثمانى مدمرات من طراز هينت والطراز كوفتنيرى . وكانت الخرائط التى يحملها المقدم هارسليدن دقيقة كل الدقة فى كل تفاصيلها . فقد عثروا على الوادى الذى يفصل رأس الكوبرى إلى قسمين . واتجه الرائد كامبل ومعه ثلاثون رجلا نحو الشرق . وقاد هارسليدن ما تبقى من الرجال إلى الغرب . واختفى كامبل فى الظلام . وقام رجال هارسليدن بفتح الباب الأول لأحد الأكواخ الإيطالية حيث توجد قيادة البطارية الساحلية الإيطالية فوجدوا أفراد البطارية داخل الكوخ (الذى غطيت نوافذه بلون أسود لمنع تسرب الضوء) وكانوا يتناولون نبيذ الكيانتى ونظر إليهم الإيطاليون فى دهشة . وقبل أن يسألوا لماذا يقف فى الباب ضباط فى زى الألمان وبأيديهم المسدسات ، كان الوقت قد فات فقد انفجرت القنابل اليدوية ودوى صوت طلقات المدافع الرشاشة . وغطى على أصواتها صوت القذائف المتفجرة التى كانت تلقيها الطائرات على طبرق . وحمل البريطانيون جثث الإيطاليين إلى الخارج وجلسوا بدلا منهم فى مقر قيادتهم الجديد . وأعد رجال الإشارة أجهزتهم للعمل وبذلك حصل المقدم هارسليدن على مقر لقيادته . وعلى بعد ربع ميل كان يوجد كوخ ثان وبالرغم من الغارة الجوية إلا أن الإيطاليين كانوا نياماً . وضرب فدائى بريطانى الباب بقدمه وأضاء بطاريته وأصدر أوامره بإطلاق النيران وسمع الفدائى صوت شخير الإيطاليين فى الممر السفلى لقاعدة المدفع فأعطى أوامره فى همس: « اقذفوا بقنابلكم اليدوية فى الممر». وسمع صوت انفجارات وصراخ وظل الرجال يقذفون بقنابلكم اليدوية حتى ساد الصمت والسكون .

وقد حدث نفس الشيء وبنفس الطريقة فى الجانب الغربى من خليج أم أسكاسيوس . ولم يقاوم الإيطاليون إلا مرة واحدة فى أحد أكشاك الحراسة حيث جرح الملازم البريطانى جراهام تايلور فى صدره وذراعه فقام حارسه بقذف القنابل اليدوية على المبنى الصغير حتى تم إبادة جميع من فيه .

وقد تم كل شيء وفقًا للخطة . فقد سقط كل أفراد الوحدة الإيطالية للمدافع الساحلية قتلى إما فى أكواخهم أو أمام مدافعهم . وأمر المقدم هارسليدن بإطلاق الإشارة الخضراء . وكان معناها أن الجانب الغربى من الخليج قد سقط فى أيدى البريطانيين . ووقف الملازم سكوت حارسا على حافة اللسان الممتد فى البحر ورأى الإشارة الخضراء . واستدار نحو الشرق منتظرا إشارة كامبل ، لأنه عندما يراها كان

عليه أن يخبر قيادة هارسليدن لترسل إشارة إلى الأسطول لينفذ باقي العملية . وكان معنى الإشارة أن رأس الكوبرى تم احتلالها وكان على «سكوت» أن يطلق إشارته اتجاه البحر لتتقدم الزوارق المنتظرة إلى الشاطئ تحت ستار الظلام ، إلا أن إشارة كامبل لم تطلق .

وفى الساعة ٣٠ر١ صباحاً كانت أفواج قاذفات ولنجتن تصل تباعا فوق طبرق ولم تسقط أية مشاعل فوق القسم الشمالى من الميناء لمدة نصف ساعة لأن أسطول الغزو من المدمرات كان يحتاج إلى الظلام .

وفى نفس الوقت كانت بطارية العقيد هاريثمان الألمانية قد أطلقت حتى ذلك الوقت ٦٥٠٠ دانة ، وأسقطت ٢٣ قاذفة . ثم جاء الإنذار الأول تليفونيا وكان يتضمن: « لقد هبط البريطانيون إلى الشاطئ » .

أما فى القاهرة فقد اجتمع جميع أفراد هيئة القيادة العامة فى مقر مدير المخابرات العسكرية وكانوا يواصلون النظر إلى ساعاتهم ، فقد حدد ميعاد الغزو بالساعة الواحدة صباحا . وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحا وإذا لم تعط الكلمة الكودية حتى الساعة الثانية صباحا فكان على الفدائيين البحريين إلغاء المهمة .

ولم يبق على ساعة الصفر سوى عشر دقائق ...... ثم خمس دقائق .

وأحضر الضابط المنوب الأمر بإلغاء العملية . وبدون كلمة وضع الأمر على المكتب وفى هذه اللحظة سمع رنين جرس التليفون ، فقد وصلت الرسالة أخيراً . وكانت هى الرسالة التى طال انتظارها وغادر ضباط القيادة مكاتبهم على الفور .

وأخيراً أعطى الرائد كامبل إشارته التى تدل على استيلائه على البطارية الإيطالية على الجانب الشرقى من رأس الكوبرى . لأن الأمور لم تسر هناك بالسهولة التى سارت بها بالنسبة لهارسليدن . فلم يستطع كامبل الاحتفاظ بموقع البطارية المستولى عليها ، ولذا اضطر إلى نسف المدافع . وعلى كل فإن رأس الكوبرى تم احتلاله تماماً بواسطة الفدائيين رغم أنهم تأخروا بعض الشيء . وهكذا يمكن للبحرية أن تبدأ عملها إلا أن القدر تدخل فجندى الإشارة التابع لكامبل وهو توم لنجتن ، والذى كان واجبه هو نفس واجب سكوت فى مجموعة هارسليدن وهو إضاءة مصباحه الكشاف من الركن الشرقى من الخليج إلا أنه فقد مصباحه الكشاف. وبذلك ضلت زوارق الطوربيد الطريق إلى الخليج الصغير . ولم يصل إليه

سوى زورقين من ثمانية عشر زورقا واضطرت باقى الزوارق للعودة ثانية إلى البحر أو الدوران حول مدخل الميناء .

فما الذى حدث لأسطول المدمرات ؟ فالمدمرتان سيخ وزولو اللتان موهتا على شكل مدمرات إيطالية ، كانتا تسيران قريباً من شاطئ طبرق ، وبعد تلقيهما الكلمة الكودية قامتا بالتوجه إلى القطاع الساحلى شمالى مدخل الميناء لإنزال مشاة البحرية قبل دخولهما الميناء ومهاجمة السفن والأهداف الساحلية . ولكن بدأت المتاعب عند إنزال زوارق الغزو ولكن بالرغم من ذلك فالموجة الأولى من المشاة وصلت إلى الشاطئ ولكنها وصلت متأخرة نصف ساعة . وابتعدت المدمرتان عن الساحل وبعد مرور أربعين دقيقة كانت الموجة الثانية لم تنزل بعد فقد وصلت إشارة من قائد الزورق الأول تفيد بأنه قد وصل إلى الشاطئ ، ولكن المحرك تعطل . أما الزورق الثانى فقد جنح إلى الشاطئ . واقتربت المدمرتان من الشاطئ لكى تسرعا من العملية . ولكن فجأة تم إضاءة الأنوار الكاشفة وكان قطرها ٦٠ سم وتتبع البطارية الأولى للآلاى ٤٦ المضاد للطائرات والذى يقوده الملازم مولر فرانك وتم توجيهها نحو الماء فكشف الضوء عن المدمرة سيخ ، واضطرت المدمرة إلى إطلاق نيرانها من المدافع بوم بوم ، وردت المدفعية الإيطالية على النيران بالمثل . وواصلت المدمرة إطلاق مدافعها .

وفى نفس الوقت أبلغ رقيب إشارة البطارية فيووج قائده بالإشارة التالية: «لقد سجلت أجهزتنا أنه توجد ثلاث سفن حربية على بعد ستة آلاف ياردة من الشاطئ».

٩ - نهاية مغامر عظيم :

والآن ولأول مرة فى حوالى الساعة ٤ صباحا وصل الإنذار إلى قيادة القوات فى طبرق وتلقاه قائد الحامية الألمانية . وفى ذلك الوقت فقط اقتنع بصحة ما قاله جندى المدفعية الإيطالى الهارب من خليج أم أسكاسيوس ، بأن القوات البريطانية قد نزلت إلى الشاطئ وكانوا يضحكون فى أول الأمر والآن كفوا عن الضحك . فقد كان فى استطاعتهم أن يروا أسطولا بريطانيا كاملا فى مياه طبرق .

ولكن أين كانت وحدة أوين الخاصة وهى المجموعة ى ٢ ؟ هل لم تصل بعد إلى طبرق ؟ وطبقًا لمعلومات هارسليدن فإنها لم تصل بعد . وقد وصل أوين ورجاله إلى المدينة بعد أن سمح لهم بالمرور من نقط الحراسة الألمانية الإيطالية.

وكانوا كلما قابلتهم صعوبات كان الخنجر والسلك يتم استعمالهما ، وقد أثبتا فائدتهما.
وانتظر أوين عبثا إشارة النجاح من هارسليدن عن نجاح ضربته الأولى .

وقد شعر بأن جدول التوقيت للخطة قد تأخر عن موعده . وفي حوالى الساعة الواحدة عندما لم تصل زوارق الغزو البريطانية إلى الشاطئ ، استدار على عقبيه وغادر طبرق وكان هو الرجل الوحيد الذى تمكن من إنقاذ رجاله ، ولكنه لم يستول على البطاريات ٨٨مم الحيوية والمطار ولم يمس محطات اللاسلكى ومراكز التليفونات . ونتيجة لهذا فهارسليدن والأسطول خسرا نصف المعركة . وفي الساعة ١٠ر٥ صباحا فتح الملازم فيووج نيرانه على المدمرة سيخ من مدفعه « دورا » وسقطت الطلقة الأولى أمام الهدف إلا أن الطلقة الثانية سجلت إصابة مباشرة . وصدرت الأوامر لكل المدافع بضرب نيران مباشرة على المدمرة . وكان هذا هو أحسن هدف للضرب يمكن أن يأملوا فيه ! بالرغم من أن رجال المدفعية كان ينقصهم بعض التدريب .

وقاد فيووج البطارية بواسطة اللاسلكى وسيطر عليها سيطرة كاملة وقذف ببعض القنابل المضادة للطائرات نحو المدمرة لكى تنفجر فوق سطح المدمرة سيخ بقليل . وردت المدمرة البريطانية على النيران بالمثل إلا أن بطارية النقيب روها هى التى أصيبت إصابات مباشرة .

وتراجعت المدمرة سيخ والنيران مشتعلة فيها ومالت قليلا على جانبها . وحاولت المدمرة زولو رغم إصابتها أن تسحب المدمرة سيخ إلا أن طلقة من المدفع ٨٨مم قطعت سلك الجر وهجر البحارة المدمرة سيخ . وقد أمكن فيما بعد التقاط الربان وبعض رجال السفينة . وأغرقت المدمرة زولو بنيران المدافع المضادة للطائرات ، وكانت هذه النيران من البطارية البريطانية عيار ٧٥مم التى استولى عليها الإيطاليون قبل ذلك . ولم ينج من هذه العملية سوى بعض المدمرات الصغيرة من طراز هنت بالرغم من إصابتها إصابات جسيمة جدا .

وفي الساعة السابعة صباحا دخلت ثلاثة زوارق طوربيد الميناء بأقصى سرعة ، وقبل أن تطلق مدافع الزوارق نيرانها وصلت طائرة إيطالية وأغرقت الزوارق البريطانية بهجوم غاطس . وكانت ليلة ليلاء .

وفي أقصى الجنوب من طبرق ، وفي الوادى الممتد من الخليج الصغير انبطح رجال هارسليدن أرضاً وذلك لشدة النيران التى تضربها الحامية من المدافع الرشاشة

علاوة على وابل من القنابل اليدوية . وهناك قتل العقيد هارسليدن قائد مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، ووجدوه ورأسه مستندة إلى مدفع رشاشه القصير . وهذه هى نهاية المغامر العظيم . ورقد كذلك الرائد كامبل فى النزع الأخير على شاطئ الخليج الصغير وكان ممسكا بسلاحه فى يده وما أن حل يوم ١٤ سبتمبر حتى كان كل شيء قد انتهى . وقام الفدائيون من وحدات الإنقاذ والتموين الألمانية بتفتيش المناطق المجاورة للقبض على القوات الإنجليزية التى لم تستطع الانسحاب .

وأصدرت القيادة الألمانية البلاغ التالى: « فى الليلة الماضية حاول العدو فى قطاع طبرق إنزال قواته فى عدد من الأماكن مستخدما قواته البرية والبحرية والجوية . وقد فشلت محاولته نتيجة للعمل السريع الذى قام به الجنود الإيطاليون والألمان ».

وتمكن نصف دستة من رجال هارسليدن وبعض مشاة الأسطول من الهروب إلى الصحراء وبعد مرور خمسة أسابيع تم التقاطهم بواسطة الدوريات البريطانية «وكانوا نصف موتى » من العطش والقذارة . وقد اضمحلت أجسامهم حتى أصبحوا كالهياكل . وبعد مرور شهرين بالضبط على الغارة عثرت دورية بريطانية على الملازم دافيدلا نارك وكان هائما على وجهه فى الصحراء كأنه شبح وقد فقد عقله .

وهكذا عاد آخر رجل ممن اشتركوا فى غارة هارسليدن على طبرق .

الفصل الثانى عشر
حدائق الشيطان فى العلمين

الفصل الثانى عشر

حدائق الشيطان فى العلمين

١ - تطور بث الألغام : (انظر اللوحة رقم ١٧)

كانت الصحراء الجرداء الخالية من الماء عارية تماما من كل شيء ، تنتشر فيها الرمال وقليل من الشجيرات الشوكية والتى تنمو ضعيفة ، فهكذا كانت جبهة العلمين ، ففى الشمال من الجبهة كانت الشمس تلهب المرتفعات الصخرية مثل تل العيصى بينما يوجد فى الجنوب مرتفع الحميمات ويبلغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم ويطل على حافة منخفض القطارة . هذا المنخفض الذى لا يمكن اجتيازه . فهذان المرتفعان يكونان ركنى الجبهة ويفصل بينهما ٤٠ ميلا . وكانت المسافة بين موقع العلمين والإسكندرية حوالى ٦٠ ميلا . ووقف الجيشان المتحاربان كل يواجه الآخر وقد أنهكتهما المعارك العنيفة التى خاضوها خلال الشهور الخمسة السابقة .

وكان الملازم فردريك فانزاجل أحد خبراء الألغام ولكنه فى مسرح شمال إفريقيا كان عليه أن يبدأ من البداية وكأنه طالب جديد لأن التجارب التى اكتسبها فى بولندا وفرنسا واليونان حيث خدم مع رجاله فى الكتيبة ٢٢٠ مهندسين أصبحت لا قيمة لها فى إفريقيا فقد صدرت عدة تعليمات جديدة بخصوص بث الألغام فى الصحراء الغربية ، وقام المهندسون الألمان بتطوير فن بث الألغام إلى مستوى عال جدا من المهارة ولذلك لا يمكن أن نتجاهل أثناء كتابة تاريخ الحرب فى الصحراء ذكر اسم قائد المهندسين فى إفريقيا العقيد هكر ووحداته . فقد كان لكل من: الكتائب ٣٣ ، ٢٠٠ ، ٩٠٠ مهندسين، والوحدات الخاصة، وخدمة الجيش شهرة عسكرية كبيرة فقد حققوا أعمالا أدت إلى معظم الانتصارات التى تمت فى شمال إفريقيا ، وقد رأت جبهة العلمين قمة حرب الألغام فلم يوضع فى أى جبهة قبلها مثل هذه الكمية الهائلة من الألغام ولا فى أى مسرح من مسارح الحرب العالمية الثانية . وعندما وصلت السرايا الثلاث التابعة للكتيبة ٢٢٠ مهندسين إلى الجبهة الشمالية

حلت محل الكتيبة الشهيرة رقم ٩٠٠ . وكان هؤلاء رجال الرائد كويا وقد تم تدريبهم على الأعمال الهندسية فى دارسو روزلار وقد ألحقت الكتيبة ٢٠٠ على الفرقة ٢١ بانزر والكتيبة ٣٣ على الفرقة ١٥ بانزر والكتيبة ٩٠٠ على الفرقة ٩٠ الخفيفة . وكانوا يعملون كمكتشفين للألغام وحرس للمؤخرة ومعاونين أثناء التقدم والهجوم . أما الكتيبة ٢٢٠ فألحقت على الفرقة ١٦٤ الخفيفة وبمجرد انضمام الملازم جلوك إلى الملازم فردريك قال : « إن المهندسين هنا فى إفريقيا يعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ويعتبرون من الشخصيات المهمة . فمن المحتمل أن يكونوا أكثر أسلحة روميل أهمية فى الوقت الحالى » .

وبالرغم من هذه الأهمية الكبيرة فلم يكن من المستحب أن يروا جثثهم وهى تتناثر إلى قطع صغيرة عندما تنفجر الألغام خطأ .

وقد احتلت قوات روميل المكونة من ست فرق من المشاة (واحدة ألمانية وخمس إيطالية) ومعها لواء مظلات رامك مواقع دفاعية على طول جبهة العلمين البالغ طولها ٤٠ ميلا ، بينما حشد خلف هذه الجبهة احتياطى من المدرعات الألمانية والإيطالية . أما الفرقة ٩٠ الخفيفة فكانت تعمل كاحتياطى فى الشمال على الطريق الساحلى .

ووقفت الفرقة ٢١ بانزر على أهبة الاستعداد فى الجناح الجنوبى ، بينما وقفت الفرقة ١٥ بانزر تدافع عن وسط الموقع الدفاعى . وهكذا أرغم ثعلب الصحراء على اتباع أسلوب الحرب الجامدة حرب الخنادق وأقامت الفرقة ١٥ بانزر خطا دفاعيا واستقرت فى مواقعها خلف حقل ألغام عريض . ووقف قاذفو القنابل ورجال المدفعية المضادة للدبابات بالقرب من مدافعهم ، وقد تطلب إخفاء وتمويه الدبابات فى هذه الأرض الصخرية مجهودات مضنية . وكان نفس الشيء يحدث بالضبط فى الجانب الآخر . فقد تحصنت ١١ فرقة تابعة لمونتجمرى فى مواقعها . وظل الجيشان البالغ عددهما ربع مليون جندى يراقب كل منهما الآخر . فمن الذى سيقوم بالضربة الأولى؟ وكان الجميع يرددون هذا السؤال فى كلا الجانبين .

وكان القادة الألمان يعرفون الحقيقة ، وهى أن جيش مونتجمرى الثامن يزداد قوة يوما بعد يوم . فقد تدفق عليه سيل من التعزيزات والإمدادات من إنجلترا والولايات المتحدة وهذه الإمدادات تضمنت دبابات ومدافع وجنود وأهم كل ذلك الوقود . أما فى الجانب الآخر فمعظم الإمداد الألمانى كان يرسل إلى القوقاز

وستالينجراد . ولذلك فقد روميل رشده وثار غضبه وأرسل فى طلب المعونة باللاسلكى وأخذ يهدد مرة ويتوسل إلى القيادة الألمانية العليا وإلى الدوتشى مرة أخرى . فقد وعدوه جميعا بالمساعدة إلا أنهم لم يوفوا بوعودهم فكانت تسيطر على العقول الموجودة فى روما وراستنبرج فكرة خاطئة وهى : « أن كل شىء سار سيرا حسنا حتى الآن فى إفريقيا رغم شكوى روميل . فلماذا لا يحدث نفس الشىء فى هذا الوقت ؟ » . أما قادة جيش البانزر الإفريقى فكانوا مقتنعين تماما بأن البريطانيين سيسبقونهم فى شن الهجوم قبل أن تستعد قوات المحور . إذاً ما هى نتيجة المعركة ؟

فقد حققت جبهة العلمين لكلا الجانبين الدفاع الآمن فى شمال إفريقيا نتيجة لطبيعة الأرض هناك فقد كانت جبهة القتال فى العلمين صغيرة نسبيا . وهذا يحقق لهم الدفاع الحصين ويؤمنهم من التطويق أو من تفوق العدو فى المناورة لأن الجبهة كانت ترتكز فى الجنوب على الأرض السبخة والملحة لمنخفض القطارة وفى الشمال كانت ترتكز على البحر ، وأى محاولة لاختراق الخط يجب أن تتم بالمواجهة ولذلك كان لا يوجد أمام مونتجمرى طريقة أخرى للهجوم سوى الهجوم بالمواجهة . أما روميل فكان عليه أن يعمل كل ما فى استطاعته لمنعه من ذلك .

وكان روميل وضباطه يعلمون أن الجيش البريطانى كفء فى الدفاع وفى الهجوم بالمواجهة فقط ، ولكنه ضعيف فى خوض المعارك المتحركة فى الصحراء لأن تدريب جنودهم كان يعتمد أساساً على التجارب التى خرجوا بها من الحرب العالمية الأولى . وقد قال لى الجنرال بايرلاين: « لقد سبب لنا ذلك قلقاً بالغاً فكانت المشاة الأسترالية والنيوزيلندية مدربة على الهجوم بالمواجهة بالإضافة إلى تفوق المدفعية البريطانية عامة مع وجود إمداد ضخم لهذه المدافع بالذخائر ، وكل ذلك يمكن أن يكون مدمراً . وسبب لنا ذلك صدعا كبيراً . وأما فى جبهتنا فكان الموقف يتطلب ألا نسمح لمواقعنا بأن تتحطم ، لأن جيش البانزر لم يعد فى حالة تسمح له بخوض معركة دفاعية متحركة للنقص فى الوقود ، وزاد من عدم إمكانية ذلك تفوق سلاح الطيران البريطانى الذى أدى إلى جمود قواتنا المدرعة فى مواقعها ، وبناء على ذلك فقد تضمنت خطتنا الاحتفاظ بالجبهة بأى ثمن . ويجب منع أى تسلل للعدو بالقيام بهجمات مضادة فى الحال حتى لا يستطيع العدو من عمل رأس كوبرى . وقد ابتكر روميل طريقة تتمشى مع أسلوبه فى القتال ، وهى الطريقة الخاصة التى تعرف باسم « حدائق الشيطان » .

وقد دعى الملازم بانزاجل مع قائد سريته الملازم جنكر سدوون إلى رئاسة الآلاى المدرع ٤٤٣ ، فقد قرر روميل عقد مؤتمر لقادة السرايا ليشرح لهم فكرته بالنسبة لحماية موقع العلمين ، وكان ذلك ليس فقط بحقول ألغام عادية ولكن بواسطة حقول ضخمة من الألغام لها قوة دفاعية كبيرة ، وقد سماها بحدائق الشيطان . وسألهم روميل: « ما هو رأى المهندسين فى هذه الفكرة ؟ » وكان قد انتهى من بحث هذا الموضوع مع قائدهم هكر ووضع الخطة فعلا . وأجاب الملازمان قائلين: « إن بث حقول خاصة من الألغام ليس بالأمر الصعب بالنسبة للمهندسين ولكن من أين يمكننا الحصول على المواد والألغام يا سيادة الفيلد مارشال؟» فأجاب: « سوف أهتم بذلك » .

والمهم أن يقوم سلاح المهندسين ببناء حدائق الشيطان بحيث لا يستطيع أى جندى بريطانى اختراقها ولا تستطيع أى جماعة من جماعات إزالة الألغام تطهيرها. فأجاب الملازم بحرج: « لا تقلق يا سيدى » ثم ذكر عدة حيل كان تعلمها أثناء خدمته مع الكتيبة ٢٢٠ واستخدمها بنجاح . فعلى سبيل المثال فلو تم توصيل سلك بين أعمدة التلغراف الموجودة على الطريق فسوف يترجل سائقو عربات الاستطلاع البريطانية من عرباتهم لإزالة هذه العوائق . فلو وصلت هذه الأسلاك بريئة المظهر بمفجر شديد الانفجار موضوع فى حفر ، سينفجر عندما يتم تحريك الأسلاك ، فهؤلاء الجنود سوف ينسفون ومعهم عرباتهم . ومثل هذه الشراك الخداعية تثير أعصاب العدو وتجعله غير واثق من نفسه وقد يؤثر هذا تأثيراً كبيراً أو يكون ذا فائدة أكبر من الخسائر الفعلية . وأخذ مهندسو هكر يبتكرون كل يوم طرقاً جديدة لهذه الحرب النفسية . وقد قام العريف كارل التابع لإحدى مجموعات المهندسين بابتكار فكرة جديدة . فمنذ قتاله فى مرسى مطروح والكراهية تأكل قلبه، ففى صيف ١٩٤٢ ترك البريطانيون شراكا خداعية ماكرة فى الفنادق وثكنات الضباط وعلى سبيل المثال تم توصيل السيفونات فى دورات المياه بمفجرات بحيث إذا جذبها أى شخص انفجرت العبوة ، بل لقد وضعت الألغام فى الأدراج ولذلك كان هناك ضحايا عديدون ، ومن بينهم صديق كارل الحميم وهو مراسله قائد الكتيبة . ومنذ ذلك الوقت ركز كارل كل تفكيره فى ابتكار شراك الهلاك هذه، وكانت فكرته تتلخص فيما يلى : يجب معالجة الأمور عن طريق الناحية النفسية وكثيراً ما كان يقف طويلا أمام أحد المنازل ويقول: « يجب أن نضع لغما مربوطا بمقبض الباب ، ولكن هذا العمل يعتبر عملا عاديا يعمله الأطفال لأن البريطانيين

تعلموه حتى سئموا منه . ولم تعد هذه الأمور تخدع أحداً أو تؤثر على معنويات أحد» . وعلى حائط إحدى الحجرات علقت صورة غير مستقيمة ويقول كارل: « الجندى البريطانى لا يهتم إطلاقًا بصورة غير مستقيمة الوضع ولكنها تضايق الضابط البريطانى عند رؤيتها ، وسوف يتجه إليها فوراً ويحاول تصحيح وضعها وسيكون هذا العمل هو آخر ما يقوم به فى حياته ولذلك ربط سلكا بالصورة وتم توصيله بمفجر موضوع فى الحائط ، ووضع المفجر فى مستوى صدر الإنسان .

٢ - المهندسون الألمان يمزحون مع الموت :

وبعد أيام قليلة من حديث روميل مع ضباطه المهندسين فى رئاسة الآلاى ٤٤٣ أمر قائد سلاح المهندسين فى إفريقيا بإنشاء « حدائق الشيطان » . وكانت مهمة الفرقة ١٦٤ فى القطاع التى تحتله تتلخص فيما يلى : « بناء أربعة حقول ألغام ضخمة لحماية الجبهة الشمالية على شكل صناديق ، عمق كل صندوق ما بين ميلين وثلاثة أميال وواجهته تبلغ ما بين ميلين ونصف وأربعة أميال . وكان كل صندوق بالطبع مفتوحا من اتجاه العدو حتى يجذب المهاجم إلى المصيدة . وكانت حديقة الشيطان الأولى وهى الصندوق « هـ » فى القطاع الساحلى ويحتله الآلاى ١٢٥ من قاذفى القنابل ، وقد قام الملازم وركسل التابع للسرية رقم ٣ من كتيبة المهندسين ٢٢٠ بإطلاق العنان لخياله . أما الصندوقان رقم « أ » و « ل » فكانا فى القطاع الذى يحتله الآلاى ٣٧٢ من قاذفى القنابل . وقد قام الملازم لوزنز ومعه السرية الثانية بوضع مصائد الموت فى هذا القطاع ، أما الصندوق الرابع فقد أنشأته السرية الأولى فى قطاع الآلاى رقم ٤٣٣ من قاذفى القنابل . وكان الملازم فانزاجل يقود المجموعة التى تعمل فى هذا القطاع وفيما بعد تولى قيادة السرية رقم ٢ وقام ببناء الصندوق رقم « ل » . وقد وفى روميل بوعده وقام بتوفير المواد اللازمة لهذه الحقول . فقد انتزع السياج المشهور المقام على حدود ليبيا ومصر ونقله إلى الجبهة. وكان العدد الهائل من الزوايا الحديدية ولفات السلك الشائك والأعمدة التى ظهرت للعيان مذهلة . وقد استخدم السلك الشائك والزوايا الحديدية فى إحاطة قواعد الصناديق المنشأة على شكل حرف (U) لعمل سياج لحدائق الموت . وأخيراً وصلت حمولات عديدة من الألغام المضادة للدبابات الفرنسية والمصرية . ووضعت هذه الألغام على شكل حدوة الحصان وعلى بعد عشرة أقدام من سياج الأسلاك الشائكة إلا أن هذا كله لم يكن السياج الواقى ، لأن محتويات حدائق الشيطان الحقيقية كانت كما يلى : لقد وضعت الألغام العادية البسيطة من طراز (T) فى

طبقتين أو ثلاث فوق بعضها فلو تمكنت جماعات التطهير من شق طريقها خلال الحقل وإزالة اللغم العلوى انفجر اللغم الثانى أسفله وإذا تمكنت عن طريق التطهير الدقيق الذى قد يؤدى إلى كشف اللغم الثانى فإن اللغم الثالث سيكون مميتاً .

وأقاموا مصائد للألغام الخاصة من القنابل اليدوية الإيطالية وقاموا بتوصيلها بألغام من طراز (T) مع وضع عدد من قنابل الطائرات زنة ٥٠ و ٢٥٠رطل كمظهر جديد لهذه المصائد . وقد وضعت هذه القنابل على هيئة رقع الشطرنج وغطيت بمخلفات العربات المدمرة ، وأحيطت بأسلاك التفجير وهذه الأسلاك وضعت على شكل شبكة العنكبوت وبلمسة بسيطة تنفجر القنبلة .

وبالطبع فهذه القنابل لم تكن « حية» فى أول الأمر . فقد أجل روميل إصدار أوامره بجعل هذه المحتويات الخطرة « لحدائق الشيطان » نشطة ، وكان هذا ضروريا لأن مواقعه الرئيسية تقع أمام هذه الصناديق . ولذلك بعد أن تم إنشاء جميع حدائق الشيطان وانسحاب الجنود إلى الخلف تم تجهيزها بالمتفجرات الحية .

ولم يملك رجال المشاة والمخابرات سوى أن يفتحوا أفواههم إعجاباً أمام المتفجرات وأمام المنجزات التى قام بها سلاح المهندسين والطريقة التى عملوا بها وهم يحفرون ويرصون الألغام وكانوا على اتصال مستمر مع الموت . وقد قاموا بتجهيز حزام من القنابل اليدوية ودانات المدفعية المستولى عليها من العدو بالمفجرات ، وكانوا يعملون وكأنهم فى مصنع كبير . أما الأعمدة الخفية بريئة المظهر فقد تم لصق كل عمودين معا بشحنات ضخمة من المتفجرات فإذا مرت على أحدها دبابة تنفجر الشحنة الكبيرة التى أحسن إخفاؤها وتمويهها ، فتنسفها إلى عنان السماء . وقد تم كل ذلك العمل تحت وطأة الشمس الإفريقية المحرقة فى أواخر الصيف . وقد وضع المهندسون نصف مليون لغم فى الرمال الموجودة أمام العلمين ولم يقوموا بالعمل فقط فى النهار فذلك كان محتملا ولكن كانوا يعملون أيضًا فى الليل، وكان العمل فى منتهى الخطورة ، لأن كل شيء كان يجب تنظيمه إلى أدق التفاصيل حتى يمكن تقليل الحوادث إلى أدنى حد .

وقام المهندسون بمد أسلاك التليفون من رئاسة الآلايات إلى السرايا المتقدمة فى خط القتال وكانت المركبات تتبعهم فى بطء بينما تسير أمامهم جماعة المدافع الرشاشة لتحميهم وكان يتم العمل كالتالى : تقوم جماعة بإحضار اللغم من العربة الخفيفة بينما تقوم جماعة ثانية بتجهيزه ، وعلى الجماعة الثالثة وضع اللغم وأخيراً

تقوم جماعة بتغطية هذا اللغم . وعلى الرجل الأخير فى العملية أن يضع المفجر فى اللغم ليصبح « حيا » وأخيرا يتم قياس الحقل كله وتسجيله على الخرائط .

وكان رص ألف لغم فى ليلة واحدة شيئاً عاديا . نعم، رص ألف لغم ، فقد كان المهندسون يمزحون مع الموت وكلهم ثقة بينما كانت أعلامهم المدببة تحدد حقول الألغام إلا أنه فى بعض الأحيان كانت ثقتهم هذه تؤدى بهم إلى الموت . وكان هناك رقيب فى السرية رقم ٢ يحب مداعبة جنود المشاة بأن يضع ألغاما فرنسية حية ويسير فوقها . وهى عكس الألغام الألمانية فلا تنفجر إلا تحت ضغط ٧٠٠ رطل . ووضع الرقيب هذه الألغام فى الحقل ولكنه نسى أن هناك ألغاما ألمانية حساسة من طراز « س » قد أدمجت مع الألغام الفرنسية .

وما هى إلا ثوان حتى تناثر هذا الرقيب إلى قطع صغيرة فى الهواء ودفن بجوار المسجد الأبيض .

وكان روميل يحب حرب الألغام هذه حبّا خاصّا. وكان يقول دائما: « إنه يستطيع أن يتعرف على مكان اللغم من على بعد عشر ياردات . ولم يكن هذا صعبا على رجل أخصائى فى الألغام لأن الانخفاض القليل فى الرمال المحيطة باللغم عادة ما يكشف عن مكانه . وظل الفيلد مارشال يراقب العمل فى حدائق الشيطان يوميا وعندما كان يشرح له العقيد هكر الشراك الخداعية الموجودة فى الحقول التى تم إنشاؤها ظهر الانشراح على وجه روميل . وكانت ثقته فى حقول الألغام هذه كبيرة لأنها ستكون عقبة لا يمكن اجتيازها مهما كانت قوة الجيش الثامن . وبعد معركة علم حلفا تم إقفال أبواب جبهة العلمين بواسطة المهندسين . وأصبحت منيعة وسحب خط القتال الرئيسى إلى ما خلف حدائق الشيطان وامتدت حوله الألغام المنشأة على هيئة حدوة الحصان امتداداً كبيراً فى الأرض الحرام . وبالطبع فهذه الصناديق كان يجب حمايتها بنيران المشاة لأن أى حقل ألغام غير محمى يصبح لا فائدة منه ، لأن العدو يستطيع تطهيره ثم عبوره . ولكى يشعر الإنجليز بأمان كاذب ترك روميل بعض السرايا والجماعات فى مواقعها القديمة حيث كانت توجد مواقع الكتائب السابقة . وكانت عبارة عن نقاط انتحارية تعرف باسم (طعم الدفاع) وسد كذلك الثغرات الموجودة بين حدائق الشيطان بموانع من الألغام طراز «س » و « ل » وترك ممرات صغيرة معروفة فقط لواضعى الألغام حتى يمكن الاتصال بالنقط الأمامية . وقد استخدمت هناك بعض الحيل الخاصة ، فقد قال الملازم فانزاجل: « لقد دفنا أعمدة حديدية فى الممرات لكى تسجل مكتشفات الألغام

البريطانية عن وجود أجسام حديدية مما يجعلهم يعتقدون أنهم فوق منطقة ملغمة . وفى ذات ليلة راقبنا البريطانيين وهم يطهرون ممرا خلال الألغام . لتتسلل منه إحدى دوريات الاستطلاع . وتركناهم يواصلون عملهم . وبعد انسحابهم زحفنا ووضعنا ألغاما جديدة . وبالطبع تركنا العلامات البريطانية الدالة على تطهير الحقل مكانها . وقد فوجئت مجموعة الاستطلاع البريطانية مفاجأة مؤلمة .

فقد اكتشف رجال الملازم هنتز التابعون لكتيبة المهندسين رقم ٢٠٠ رياضة خاصة فقد كانوا يزحفون إلى حقل الألغام البريطانى ثم يزيلون المتفجرات من الألغام ثم يعيدون دفن الألغام ثانية . ولو أن الألمان قاموا بتطهير حقل الألغام الإنجليزى بالمكتشفات المغناطيسية لأصبح الأمر عاديا ومتوقعا ولكن نستطيع أن نتخيل رعبهم عندما يرون دورية استطلاع ألمانية تقوم بعبور حقل الألغام بدون حدوث انفجار واحد .

٣ - النسر الإفريقى :

يمر الطريق من العلمين إلى طرابلس بمساجد كثيرة ، وكل منها له مئذنة رفيعة وقبة بيضاء ، إلا أن واحداً فقط من هذه المساجد تعارف عليه الجنرالات والجنود على حد سواء وقاموا بتسميته بالمسجد الأبيض . وكل جندى حارب فى إفريقيا يعلم أى المساجد المقصود بها هذا الاسم ، وهو مسجد صغير موجود فى سيدى عبد الرحمن بالقرب من العلمين . وهو عبارة عن تل أصفر عليه بناء مربع يوجد فوق قبته البيضاء هلال وقد اتخذته جميع القوات نقطة إشارية لمدة خمسة شهور خلال الصراع من أجل العلمين . فكانوا يقولون: « إن وحدتنا تقع جنوب المسجد الأبيض بثمانية عشر ميلا » ، وكانت هذه معلومات كافية لمعرفة مكان هذه الوحدة . وفى ذلك الوقت كان المسجد خاليًا ومهدما ، وقد أوقف ترتيل القرآن الكريم فى هذا المسجد الرطب وهجر هذا المسجد كما هجرت واختفت أشياء أخرى بسبب الحرب ، ولكن اليوم سمع صوت المؤذن مرة أخرى من أعلى المئذنة داعيا إلى الصلاة (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله لا إله إلا الله) ولم تعد جنازير الدبابات تثير الرمال من حوله أو تملأ الحفر التى أحدثتها القنابل إلا أن الذكريات بقيت ومن ضمنها ذكرى مصرع أحب الطيارين الألمان الذى لقى مصرعه بالقرب منه . وكان يبلغ من العمر ٢٢ سنة إلا أنه كان معروفاً فى العالم أجمع باسم جوكن مارسيل وكانوا يسمونه فى مقالات الصحف بالنسر الإفريقى ، وكانت تكتب له

الفتيات خطابات معنونة فقط باسم (نجم الصحراء) ودائما كانت تصل إليه هذه الخطابات .

وقد كتب الكثير عن جوكن مارسيل وكان مزيجا من الحقيقة والخيال إلا أن هذا الطيار العظيم لم يكن فى حاجة إلى أساطير تكتب عنه ، لأنه سيبقى أحد الشخصيات المثيرة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية .

وفى مساء يوم عيد الميلاد لعام ١٩٤٠ كان مارسيل ما زال تلميذاً طياراً. وانضم إلى السرب رقم ٣ التابع لجناح الطيران رقم ٢٧ فى منطقة برلين دويريتز ، وفى ١٣ ديسمبر احتفل بعيد ميلاده الواحد والعشرين . وقد أظهرت خدمته العاملة فوق القنال الإنجليزى عن مدى بسالته التى أدت إلى إسقاطه ثمانى قاذفات إلا أن هذا السجل الحافل لم يكن دليلا كافيا على مهارته الفائقة فى الطيران التى لم يكن لها حدود .

ولم تستطع برلين منحه فى ذلك الوقت ما يريده من مغامرات لأنه فى عام ١٩٤١ لم تكن هناك طائرات تستحق الصيد فوق عاصمة الرايخ . وكان يقضى معظم وقته فى إجراء بعض تجارب الطيران ولعب الورق وشرب القهوة . وقد فرح أفراد سريته عندما أرسلوا إلى إفريقيا فى نهاية أبريل عام ١٩٤١ بعد قيامهم بمهمة قصيرة فى يوجوسلافيا ، وكان قائد السرب فى ذلك الوقت هو الملازم أول هومث وتعتبر قصة هومث وكلبه قصة مسلية ، فقد أحضره معه من فرنسا وأصبح تعويذة السرب رقم ٣ . ولما كانت الرحلة عبر البحر المتوسط سوف تتم على ارتفاع ١٥ ألف قدم . وحيث إنه لا يوجد من يعرف هل الكلاب تستطيع تحمل السفر على الارتفاعات العالية ، ولذلك فقد طلب هومث من قائد الأسراب نيومان تعديل ارتفاع الطيران إلى ١٢ ألف قدم لعدم وجود قناع أكسجين لكلبه كيتى ، وقد أجيب لطلبه، وهبط الكلب إلى إفريقيا سالما .

عندما هبط الطيار التلميذ مارسيل إلى إفريقيا كان أحد الشبان المتشوقين إلى الخبرة والعمل ، والعازمين على إنهاء الحرب بالنصر . ولم يكن سجله مشجعا فقد سجل له قائده فى سجل خدمته ملاحظات تعتبر معوقة لترقيته فى سلاح الطيران الألمانى فكتب عنه: « ينقصه الضبط والربط فى الطيران » وذلك لأنه عندما أسقط الطائرة القاذفة الأخيرة من القاذفات الثمانى فوق القنال الإنجليزى اضطر للهبوط بالمظلة . وقد هبط بالمظلة عدة مرات تقارب فى عددها القاذفات التى أسقطها

وكان هذا الشاب المتوسط الطول ذو الملامح الحسنة والشعر الأشقر الطويل يذكرنا بمانفريدفون ريستهوفن الطيار الأول فى الحرب العالمية الأولى . فكلاهما كان لديه حب عميق للطيران . ولم يحتج مارسيل إلى أكثر من ستة أشهر فقط حتى يصبح طيرانه فنا حقيقيا .

وخلال هجوم روميل الصيفى سنة ١٩٤١ ظهر اسم مارسيل فى الأوامر الرسمية أكثر من مرة وأصبح معروفًا للجميع لإسقاطه عدداً كبيراً من طائرات العدو. إلا أنه كان لا يزال هناك من هم أفضل منه حتى فى إفريقيا ولكن فى العمليات الدفاعية التى تمت فى شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ ضد الهجوم البريطانى برز اسم جوكن ضمن طيارى السرب الممتازين وأصبح له الحق فى بعض الامتيازات الخاصة . وكان يطير دائما على الطائرة رقم « ٤ أصفر » وكان الجناح من الطائرات يتكون من ثلاثة أسراب وكل سرب يتكون من ثلاث مجموعات ، المجموعة الأولى من كل سرب تحمل أرقاما بيضاء ، والمجموعة الثانية تحمل أرقامًا حمراء ، والثالثة صفراء . ولو حدث بالصدفة أن كان هناك مجموعة رابعة فى السرب ، فرقمها يكون أزرق ، أما طائرات القيادة فتحمل أرقاما سوداء فردية أو مزدوجة ، وفى شكل خطوط مستقيمة أو متقطعة كعلامات مميزة .

وعادة تتكون المجموعة من ١٢ إلى ١٦ طائرة ، ويتكون السرب من ٤٠ إلى ٦٠ طائرة أما الجناح فيضم حوالى ١٥٠ طائرة .

٤ - الطيار الخيالى :

وأصبح اسم المجموعة ١٤ أصفر اسما مرادفا للجرأة والمهارة فى الطيران . وفى ربيع ١٩٤٢ رسم فنان السرب ستاندلر وهو من أهالى ميونخ صورة فى مقر قيادة النقيب هومث لتتمشى مع الهواية الخاصة لقائد السرب . فقد صور كل طيار فى السرب وكأنه عازف أرغن . وصور كل طائرة أسقطت للعدو وكأنها مزمار للأرغن وكان عدد كبير من الطيارين يجلسون فى الصورة بوجوه متجهمة وأرغنهم بدون مزامير إلا أن مارسيل كان هو الفنان الأعظم الذى يضغط على آلته وشعره يتموج فى الهواء .

وقد زود أرغنه بعدد من المزامير وكان يعتبر مثالا يحتذى به بين الطيارين المقاتلين . فكان دائما يسقط من ثلاث إلى ست طائرات عندما يشتبك فى قتال متلاحم مع العدو . أسقط فى أول ديسمبر ١٧ طائرة خلال ثلاث طلعات . وقد

اعترف العدو بسقوط ١٦ منها رسميا . ففى صباح ذلك اليوم أسقط تسع طائرات للعدو فى ١٢ دقيقة . وقد هبط النقيب فرانز كيت من طائرته وهو الحامل لوسام صليب الفارس . وهز رأسه وقال: « نسيت أن أطلق النيران أثناء مراقبتى لمارسيل وهو يتوغل داخل تشكيل طائرات العدو » .

وقد وصف لى الرقيب طيار ينهر بوتجن العملية وقد صاحب مارسيل شهوراً عديدة أثناء طيرانه وكان من الصعب المحافظة على مكانه فى التشكيل أثناء الطيران مع قائده مارسيل لحمايته لأن مارسيل بعد التأكد من سقوط طائرة العدو يستغل الاضطراب الذى يحدث بسبب هجومه المفاجئ على تشكيل العدو فيقوم بمهاجمة الطيارين الذين يخرجون عن الحماية التى يوفرها لهم تشكيلهم وإسقاطهم بواسطة حركة التفاف ضيقة إلى الخلف . وكان يركز عينيه تماماً على طائرة العدو عندما يضغط على زر الإطلاق لمدفعه الرشاش . وكان يطير عادة بطريقة آلية وقد قال بوتجن: إن مارسيل أثناء قتاله الملتف الضيق كان يخفض سرعة طائرته إلى الحد الأدنى وبهذه الطريقة يستطيع أن يطير فى دوائر أضيق وبذلك يصل إلى أسفل طائرة خصمه . وكان من الواضح أن تصويبه الدقيق نتيجة لموهبة خاصة . وبالإضافة إلى ذلك كان لديه خواص ممتازة فى استغلال الموقف لصالحه .

وكان مارسيل بعد كل قتال متلاحم (له نصيب الأسد من الانتصارات) وكان يستخدم أقل ما يمكن من الذخيرة . فقد استخدم فى إحدى المرات ٢٠ قذيفة من مدفع عيار ٢٠ مم و ١٨٠ طلقة رشاش لكى يسقط ٦ طائرات .

إنه من الصعب أن نحلل القدرات التكتيكية أو الفنية لمارسيل لأنه هو نفسه لم يكشف إلا عن القليل منها . فقد كان وسط هجوم العدو يقلل كمية الوقود وبذلك يخفض من سرعته ويستطيع أن يتابع طيرانه فى دوائر رأسية ضيقة . وعندما يطلق النيران كان يصيب الهدف تماماً ، وبعد جزء من الثانية يقوم بحركة انقلاب نصفية ثم يطلق لنفسه العنان ليهاجم طائرات العدو .

وكان فنه لا يمكن وصفه بأكثر من أنه ممتاز فكانت مهارته فائقة موروثة وهى مزيج من الخبرة والعزم والتصميم وكان يطير بطائرته بالسهولة التى يرتدى بها الأفراد ملابسهم ، ويطير كما لو كان هو نفسه لديه أجنحة .

٥ - حقد الآلة على الإنسان :

وعندما وصلت المدرعات الألمانية إلى الحدود المصرية وتوقفت أمام العلمين كان جوكين مارسيل الطيار يتكلم عنه الناس أكثر من أى شخص آخر بعد روميل .

فقد حصل على أعلى الأوسمة الألمانية والإيطالية ، ومنها وسام « صليب الفارس بأوراق البلوط والسيف » والميدالية الذهبية للبسالة الإيطالية التى لا تمنح إلا نادراً ولم يحملها سوى ثلاثة فى الحرب العالمية الثانية . وهم مارسيل والنقيب مانشبرج ودوق أوستا أما روميل ونهرنج فقد كانا يحملان الميدالية الفضية فقط .

وكان مارسيل يمثل طرازاً سرعان ما ينقرض ، وهو يمثل طراز الفرسان النبلاء الذين يتقنون فنا خاصا . وكان فى نفس الوقت شخصا خياليا . ولكن لم يمض عليه وقت طويل حتى أصبح وجهه أشد صلابة وذلك لصراعه الدائم مع الموت . وكان وجهه يبدو شاحباً ونحيفاً بعد هبوطه من طائرته. وكان أول رد فعل يقوم به هو إشعال سيجارة لا يستطيع الإمساك بها إلا بيد مرتعدة وأى فرد يرى مارسيل فى مثل هذه الحالة يستطيع أن يكون فكرة عن الطاقة وضغط الأعصاب التى تتطلبها كل مهمة من هذه المهام تحت الشمس الإفريقية المحرقة ، إلا أنه أمكنه بصحته الجيدة وشبابه السيطرة على أعصابه فكان ينفض عن نفسه هذه الانفعالات كما ينفض الكلب الماء عن جسده وكان الجنرالات والقادة الكبار من هيئة قيادة المحور ضيوفًا دائمين عنده فى الخيمة الموجودة بين الكثبان الرملية وعند دخولها يخيل إليك أنك فى مقهى بوهيمى فى روما أو باريس ، ففى أحد أركان الخيمة يوجد بار صغير وخلفه مواطن إفريقى أسود اسمه مافياس وكانت المقاعد مصنوعة من قواعد القنابل البريطانية ذات الأجنحة ، أما المناضد فمصنوعة من لفات قديمة من أسلاك التليفون ، أما الكراسى والأرائك فمصنوعة من أكياس الرمال والناموسيات وتظل موسيقى الجرامافون تعزف حتى ساعة متأخرة من الليل ، موسيقى الرومبا والأغانى الإيطالية ، وفى كل مساء تسمع أغنية ليلى مارلين .

وفى ذلك المكان كان مارسيل وزملاؤه الطيارون يشربون ويدخنون لكى

ينسوا الحرب . وقد سجل جوكين مارسيل ١٥٨ انتصار ، وبعد أن حقق نصره الـ ١٢٥ منح ألماسات لصليبه الحديدى (١) وقد قال لى أخوه هانس رودلف مارسيل: إنه حقيقة لم يتسلم الوسام ولم يقدم لعائلته بعد موته . ولم يهزم مارسيل بواسطة إحدى طيارات الأعداء ، ولكن الذى أدى إلى موته هو حقد الآلة التى صنعها الإنسان على الإنسان نفسه . وقد وصف لى بوتجن الذى صاحبه فى طيرانه فى مهمته الأخيرة قصة موته فقال: « كان ذلك فى صباح يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٤٢ ، وكان مؤشر الارتفاع يسجل ٤٥٠٠ قدم وكنا عائدين من جماعة الطيران رقم ٣ من رحلة فوق منطقة القاهرة بدون أن نصادف العدو . وكان جناح طائرتى (من طراز مسز شمت) قريبا من جناح طائرة القائد رقم ٤ أصفر كما كانت الحال فى مئات المرات . وكانت الساعة تشير إلى ٣٥ر١١ صباحا ولم نهتم بشىء ، فما الذى يمكن أن يحدث؟ وما الذى كان من المحتمل حدوثه؟ وكنت أفكر فى معركة جوكين المريرة الأخيرة التى حدثت منذ ثلاثة أيام يوم ٢٧ سبتمبر . فعلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم تقابل مع طيار بريطانى ممتاز سجل ٣٥ نصراً ! وكان يحمل قصب السبق فى مسرح العمليات الإفريقى فى الجانب البريطانى . ولم يحتج جوكين لأكثر من ١٢ دقيقة لكى يسقطه . وعند الهبوط قال: « إن هذا هو أصعب خصم قابلته ، ثم أضاف فى إعجاب: « إن حركاته فى الدوران كانت رائعة ولا تكاد تصدق ، وسمعت صوت جوكين فى السماعات الموجودة على أذنى وكان يقول: « إن هناك دخانا فى غرفة قيادتى ، ونظرت عبر الياردات القليلة التى تفصلنا وكنت أستطيع رؤية وجهه، وكان وجهه فى بياض الثلج تحت سقف غرفة القيادة اللامعة وكانت يده اليسرى تحاول فتح فتحة التهوية ليتدفق منها الدخان ونظرت إلى الخريطة ، وكنا لا نزال على بعد ٣ دقائق طيران عن خطوطنا فى العلمين وقد التقطت المحطة الأرضية إشارة مارسيل الأولى للنجدة وسمعت أصواتاً تتحدث على الهواء . «ما الأمر يا رقم (ألب) استمر من فضلك ، وظل جوكين يقول: « أنا لا أستطيع الرؤية بوضوح، واقتربت طائرات الجماعة من بعضها وأخذناه فى وسطنا نقوده عن طريق اللاسلكى ، وكانت صيحاتنا ترشده وتضمنت « يمين – يسار ، ولكنه كان يقطعها باستمرار بقوله: « أنا لا أستطيع أن أرى شيئًا ، فناديت عليه قائلا: « لم يبق سوى دقيقتين للوصول إلى العلمين » .

وسمحت له المحطات الأرضية بالهبوط بالمظلة إلا أنه رفض أن يترك

---

(١) هذا الوسام يعتبر من أعلى الأوسمة الألمانية على الإطلاق وقد صنع طبقًا لنموذج خاص أشار به هتلر . (المعلق)

طائرته فوق خطوط الأعداء فهو لا يحب أن يؤخذ أسيراً . وكان عقرب الدقائق فى ساعة الطائرة قد دار ثلاث دورات كاملة . فكانت الساعة تشير إلى ٣٨ر١١ صباحا .

وكان يوجد أسفلنا حديقة الشيطان رقم « ل » عند موقع أحد المدافع ذاتية الحركة التابعة للبطارية ٧٠٧ وقام قائد المدفع الرقيب بوير بوضع منظاره المكبر على عينيه ونظر إلى المقاتلات الألمانية وقال لزملائه: « إحدى الطائرات قد اشتعلت فيها النيران » فلقد كان الدخان الأسود الكثيف يتدفق من الطائرة .

إلا أنه كان هناك على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم يوجد بوتجن وهو يحدق اتجاه اليمين إلى الطائرة « ٤ أصفر » ثم يحدق إلى الأمام . وكان هناك المسجد الأبيض حيث الخطوط الألمانية ، فهل يستطيع جوكين إتمام رحلته ؟ وكانت غرفة القيادة مملوءة بالدخان . وما الذى يقوله جوكين ؟ وكانت كلماته تأتى خافتة: « أنا .... لا ..... أستطيع ...... أن .... أستمر أكثر .... من ذلك .... ومرة أخرى يجب أن أخرج من هذا المأزق – وسوف أطير فى دورة واسعة اتجاه اليسار » وبينما كان بوتجن يروى ذلك ترقرقت الدموع فى عينيه وتابع كلامه: « لقد جذب مارسيل الطائرة إلى الخلف فانقلبت على ظهرها » . وانفصل سقف غرفة القيادة كما لو انتزعته يد عملاقة ، والآن عليه أن يقفز بالمظلة . وقد قلت لمحطة اللاسلكى إن جوكين قد قفز بالمظلة ، ولكن ما الذى حدث ؟ يا للجحيم إن طائرته تنقض فى سرعة بطيئة . وهى بذلك لن تترك له أية فرصة للنجاة . فقد قذفته نحو ذيلها ثم أخيراً هوت به إلى الأرض وسقط كما لو كان حجراً فأين المظلة المنقذة ؟

وبعد ربع ساعة هبطنا خلف الكثبان الرملية . وكنا ننقص واحداً . وهو من جماعة الطيران رقم ١٢ ... وقام النقيب فرانز سكيت بإحضار جثته وكان يرقد على بعد أربعة أميال جنوب المسجد الأبيض .

وجلس الطيارون التابعون له حول المائدة فى سكون .

أما مافياس الزنجى – وكان يقوم بخدمة مارسيل – فقد اختفى ولم يعد يسمع صوته من داخل المطبخ الذى يعمل فيه . ولم يعد من المكان الذى اختبأ فيه إلا بعد حلول المساء وكان فى مكان ما فى الصحراء وكان يحمل معه قلادة من المحار أعطاها إلى بوتجن وقال له بوتجن: « ما هذا يا مافياس » فأجابه: « إنها ٥٧ محارة يا سيدى، تمثل ٥٧ انتصارا سجلها القائد منذ أن التحقت بخدمته فى نهاية

أغسطس . لقد بحثت عن كل محارة من هذه المحارات ولقد مر وقت طويل قبل أن أجد ٥٧ محارة كلها متشابهة بيضاء جميلة ، . وكان مافياس رجلا ذا أنفة إلا أن الدموع سالت على وجنتيه . وقال: « ضع القلادة معه في قبره » . ثم استدار على عقبيه وترك الخيمة .

وبعد ثلاث سنوات قبض رجال المقاومة في فرنسا على مافياس وأعدموه ورقدت قلادته - المكونة من ٥٧ محارة من جوكين مارسيل - في تابوته . وعندما دفنوه كانت ترقد على صدره كأنها وسام يبرق ، وكانت أكثر لمعانا من الألماس لأنها دليل المحبة من رجل أسود .

٦ - روميل يمسك بمقبض باب الإسكندرية :

وعندما حل خريف ١٩٤٢ كان قد مضى على روميل ثمانية عشر شهرا في قيادة جيش البانزر في الصحراء بدون راحة . وقد بدأ القلق يظهر على طبيبه الخاص البروفسور هالستر خلال معركة علم حلفا ، فكان يقوم كل يوم بالكشف على كبد الجنرال المتضخم ويعالج حلقه الملتهب باستمرار . وقد وصلت أنباء مرض روميل إلى موروالد بجوار راستنبرج حيث يوجد مقر قيادة هتلر . وفي ١٩ سبتمبر أرسل هتلر الجنرال شتوم إلى إفريقيا ليحل محل روميل لأنه قرر استدعاءه إلى ألمانيا . وغادر الفيلد مارشال الميدان في أجازة كان محتاجا إليها فعلا .

وفي يوميات الملازم جبسن وهو طيار روميل الخاص قد كتب يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ ما يلي :

« لقد قمنا بالطيران إلى درنة ، وفي اليوم التالي طرنا إلى روما . وفي ٢٤ سبتمبر قطع روميل رحلته الجوية في بلدة «فورلي» ليزور الدوتشي في مقره الصيفي » .

وعندما ودع روميل المارشال كافاليرو بعد محادثته مع موسوليني سأله الأخير: « هل يمكن لإيطاليا أن تعتمد على عودتك فورا لو قام مونتجمري بالهجوم؟» فاستدار روميل إلى طياره وسأله: « كم من الوقت يلزمنا يا جبسن للوصول إلى إفريقيا لو قام البريطانيون بالهجوم ؟ » فأجابه: « ثماني ساعات إذا طرنا رأسا يا سيادة الفيلد مارشال . وعشر ساعات إذا طرنا عن طريق روما » .

فسأله روميل: « هل هذا رد يقنعك ؟ » فأومأ كافاليرو وصافحه بكلتا يديه وقال: « أشكرك » .

وقبل أن يعود روميل إلى سيمرنج فى جنوب ڤيينا تسلم عصا المارشالية فى يوم ٢٥ سبتمبر فى مقر قيادة هتلر من هتلر شخصيا . وعاد روميل إلى برلين وكان متعباً ومنهك القوى وروحه المعنوية منخفضة . وهناك دعا جوبلز الصحافة العالمية والمحلية لمقابلته فى مسرح وزارة الدعاية ، وسقط ثعلب الصحراء العجوز فى أحد فخاخ الدعاية التى أسف عليها بمرارة فيما بعد . ولكنه كان يعمل بناء على تعليمات القيادة العليا الألمانية فقد تقدم المارشال إلى القاعة ثم توقف وأمسك بمقبض الباب فى يده وخيم الصمت على القاعة ثم قطع صوته هذا الصمت قائلا: « إن يدى على مقبض باب الإسكندرية » وبعد أربعة أسابيع انتزع المقبض من قبضته .

وقال العقيد ماكيرت : « إن القمرغدا سيكون بدراً » ثم أضاف: « يبدو على مونتى أنه لم يستعد بالرغم من أن هذا الوقت هو أفضل وقت للهجوم » إلا أن ماكيرت تغاضى عما كان يدور فى تفكيره ، وفى هذه اللحظة مزق السكون صوت زئير كالرعد كما مزق الليل والصحراء .

وقد تجاوبت أصداؤه خلال سقف الحفرة الضخمة التى كانت مقرا للقيادة التكتيكية ، وكان ضباط القيادة فى ذلك الوقت يشربون الأنخاب مع قائد الفرقة الجنرال لونجر هوزن وظهر لهم الأمر كما لو كان ماردا جبارا قد ضرب بقبضته الضخمة على المنضدة . فقفز العقيد ماكيرت رئيس عمليات الفرقة إلى السلم الخاص بمقر القيادة وجرى إلى عربة قيادته ، أما الرائد ألتريش ضابط مخابرات الفرقة فكان لديه الوقت الكافى لإعادة توازن زجاجة النبيذ . أما السيفون الخاص بالصودا فقد سقط من على المنضدة . ونظر الجنرال لونجر هوزن من خلال الفتحات الضيقة للمخبأ تجاه الجبهة . فرأى شريطا واحدا متصلا من النيران المتلألئة الذهبية وكانت عبارة عن غلالة كثيفة من النيران المنصبة على قطاع الفرقة بالكامل وقال الجنرال: « إن هجوم مونتى قد بدأ » ونظر إلى ساعته فوجدها ٨ر٤٥ من مساء يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

ومنذ خمسة أيام مضت حضر إلى إفريقيا العقيد ليس قادما من راستنبرج ليخبرهم بأنه طبقا للتقارير الواردة من المخابرات فلن يستطيع مونتجمرى القيام بالهجوم فى أكتوبر .

وهكذا نجح مونتجمرى فى خداع قادة المحور ، فقام بهجوم مخادع جنوبى

جبهة العلمين بينما كان يجهز للقيام بالهجوم الرئيسى فى الشمال . وقد تعلم القائد البريطانى تلك الخدعة من روميل نفسه ولذلك أنشأ مجموعة مخابرات لجبهته الجنوبية لإعداد تقارير خاصة لمحطات الالتقاط الألمانية . وأكثر من هذا فقد أنشأ خط أنابيب متصلا بمحطات ومستودعات للوقود وكان يتم بناؤه فى بطء شديد حتى تعتقد المخابرات الألمانية أنه سيستغرق على الأقل أربعة أسابيع قبل أن يكتمل تماماً. وهكذا استطاع خداع القيادة الألمانية بمهارة لدرجة أن قادة جيش البانزر لم يكتشفوا وصول فرقتين جديدتين ومعهما ٢٤٠ مدفع و ١٥٠ دبابة إلى الجبهة فى العلمين .

٧ - مونتجمرى يخلع الأسنان الأمامية لروميل : (انظر اللوحة رقم ١٧)

وكانت ورقة مونتجمرى الرابحة تكمن فى قيامه بالهجوم على أقوى مناطق روميل فى جبهة العلمين . فطبقاً لكل مبادئ فن القتال كان يجب عليه أن يقوم بالهجوم الرئيسى فى الجنوب فى أضعف منطقة لروميل . ولكنه هاجم فى الشمال فى نفس المكان الذى زرع فيه مهندسو الفرقة ١٦٤ لعدة أسابيع كاملة حدائق الشيطان ، وكان هذا مدعاة لأن يفشل هجومه ؟ فلو قام مونتجمرى بالهجوم بدباباته وحاول اختراق حقل الألغام فالنتيجة ستكون الفشل ، إلا أن القائد البريطانى فكر فى خطةٍ جديدة بالرغم من أن جميع مبادئ الحرب الكلاسيكية تتضمن التالى:

يجب تدمير مدرعات العدو أولا بهجمات قوية بالدبابات ثم بعد ذلك تدمير قواته غير المدرعة إلا أن مونتجمرى عكس الوضع فقد قرر أن يهزأ بالحرب الكلاسيكية . وقال مونتجمرى لهيئة قيادته: « فى المعارك الكبيرة التى تستخدم فيها المعدات على نطاق واسع يجب أن يتم تدمير مشاة المحور الموجودة فى المواقع الدفاعية . وبذلك سيتم تحطيم حائط روميل المسلح حجرا بعد حجر . وبذلك نخلع له الأسنان الأمامية . ثم ندفع مدرعاتنا بعد ذلك لتدمير قواته المدرعة » .

فهذه كانت خطة مونتجمرى الجديدة ، وكان يستطيع تطبيقها . وقد بدأت المعركة بغلالة قوية من النيران لمدة خمس ساعات . وركز ١٠٠٠ مدفع بريطانى نيرانه على قطاع العدو فى الخط الأمامى وكانت المواجهة تمتد خمسة أميال بين بير الغطش وبير «أبو صيفى» حيث مواقع الفرقة ١٦٤ والمشاة الإيطالية فقد تم تركيز ألف مدفع على رقعة تمتد مواجهتها ١٠٫٠٠٠ ياردة ، وهذا يعنى أنه خصص

مدفع لكل عشر ياردات ليركز نيرانه عليها وبذلك وقعت قوات المحور تحت وابل من الانفجارات والدخان والتراب وانقطعت كل خطوط المواصلات .

وفى الساعة العاشرة تحولت المدافع البريطانية إلى حدائق الشيطان ، وكانت النتيجة لا يمكن أن يتصورها أى إنسان إلا من حضر هذه المعركة المرعبة فكل دانة تسقط فى الحقل كان يتبعها انفجار هائل للألغام من جراء انفجار قنابل الطائرات المدفونة وشحنات المتفجرات . وطار فى الهواء « بيض الشيطان » الذى دفنه العقيد هكر ومهندسوه بعناية . وقد وضعت هذه الألغام أصلا لتدمير الدبابات أو المشاة البريطانية إلا أن هذه الحقول حرثت تماما . وكان مونتجمرى لديه المدفعية والطائرات والذخيرة الكافية التى تمكنه من فتح ممرات فى حقول الألغام بواسطة النيران ، ولم يتوقع روميل ذلك .

وعندما قامت فرق المشاة التابعة للفيلق ٣٠ بالهجوم لم تتوقع أن تجد أى فرد على قيد الحياة خلف أو خلال حقول الألغام الألمانية ، إلا أنهم كانوا مخطئين ففى حديقة الشيطان « هـ » رقد الناجون من الكتائب والسرايا التابعة لآلاى البانزر ١٢٥ فى حفرهم الضيقة بين الأسلاك الشائكة الممزقة وحقول الألغام التى انفجرت وأخذوا يطلقون النيران . نعم لقد أطلقوا النيران من مدافعهم المضادة للدبابات ومدافعهم الرشاشة وبذلك أمكنهم إيقاف هجوم المشاة البريطانية لفترة ، ولكن الكتيبة رقم ٢ التى يقودها النقيب ويندل تكبدت خسائر فادحة .

ولكن الموقف جنوبى مواقع الآلاى ١٢٥ أمام وخلف حدائق الشيطان « ج » و « ل » كان يبدو متأزما ، ففى قطاع الآلاى ٣٨٢ المدرع هجرت الكتائب الإيطالية رقم ٦٢/١ و ٦٢/١١ و ٦٢/١١١ مواقعها . ودافع الآلاى ٣٨٢ عن قطاعه باستماتة وبسالة ضد الفرقة التاسعة الأسترالية والفرقة ٥١ الإسكتلندية . واشتبك النقيب كروب وكتيبته فى قتال متلاحم مع الأستراليين والإسكتلنديين ، وقامت الدبابات البريطانية بمعاونة الهجوم بمدافعها الرشاشة ، ولكن عندما فتحت المشاة البريطانية السونكيات ردت عليها الكتيبة الألمانية بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة القصيرة ، ولكن الدبابات البريطانية تقدمت إلى الأمام واكتسحت الكتيبة وسقط فى الأسر قائد الكتيبة (الذى جرح جرحًا بالغا) مع حفنة من رجاله الجرحى .

ولم يكن الموقف أحسن حالا بالنسبة للكتيبة الأولى تحت قيادة النقيب بابير فقد اقتحم البريطانيون الموقع وتمكنت الكتيبة الألمانية رقم ٤٣٣ ومعها مفرزة من

مدفعية الفرقة بالقيام بهجوم مضاد وإيقاف الهجوم وغلق الثغرة . ولكن إلى الجنوب قليلا من حدائق الشيطان رقم « ل » و « ك » شق النيوزيلنديون والأستراليون طريقهم عبر حقل الألغام . أما فى حديقة الشيطان « ك » فتكبدت المدرعات البريطانية خسائر فادحة نتيجة لانفجار قنابل الطائرات الموجودة فى الحقل . ولكن ما الفائدة من كل ذلك ؟ لقد أمكن فى النهاية التغلب على حزام الألغام الكبير .

أما فى القطاع الجنوبى لجبهة العلمين فحاولت الفرق التابعة للفيلق ١٣ شق طريقها بالقوة . وقامت طائرات سلاح الطيران الملكى والمدفعية بتليين المواقع الإيطالية الألمانية وأبادت النقاط الأمامية بينما تم تثبيت النقاط القوية فى ممرات حقول الألغام وأخذت المدفعية فى صب نيرانها ، وبهذا لم تقلع أسنان روميل ولم يستطع السير بريان هوروكس قائد الفيلق ١٣ البريطانى من تحقيق هدفه فى هذه المرحلة .

فقد تمكنت مجموعة القتال كهل من صد جميع هجمات العدو . وقاتلت الكتائب التابعة للآلاى المدرع ١٠٤ ووحدات المدفعية التابعة للفرقة ٢١ بانزر إلى النهاية فاستطاعت السرية العاشرة تحت قيادة الملازم رينجلر من إيقاف هجوم كتيبة بأكملها من الفرقة ٤٤ البريطانية لمدة ٢٤ ساعة داخل حقل الألغام .

وقد صمد رجال رينجلر هناك لمدة ٢٤ ساعة بدون ماء أو طعام وكانوا معرضين لنيران متواصلة .

٨ - المدفعية هى العمود الفقرى للمدرعات :

لقد طارت إحدى عجلات المدافع المضادة للدبابات نتيجة لإصابة المدفع إصابة مباشرة . فرقد رجلان تحت المدفع حتى يتمكن الرجال من مواصلة إطلاقه، وبهذه الطريقة دمروا دبابتين ثقيلتين ، وقد قاتلت وحققت فرقة آريتى المدرعة وكتيبة برسجليرى ووحدات من فرقة برسكيا وفرقة فولجورى بطولات عظيمة . وتمكن الفيلق ١٣ من شق طريقه فى حقل الألغام الشرقى ولكن ليس بالعمق الكافى ليصل إلى الخط الرئيسى للجبهة .

أما فى القطاع الشمالى فأخذ الموقف يتأزم ، ففى فجر يوم ٢٤ أكتوبر تمكن البريطانيون من فتح ثغرتين، ودفع القائد البريطانى العام خلف الفرقة البريطانية الثالثة (المكونة لرأس الحربة) الفرقتين الأولى والعاشرة المدرعتين وبهما ٧٠٠ دبابة ، واندفعت هذه القوة الضاربة اتجاه الغرب ، فهل هذه هى نهاية جيش البانزر

الإفريقى ؟ وهل ستنهار جبهة المحور؟

إلا أن مونتجمرى لم يكن بالقائد الذى يقامر بكل شىء على ورقة واحدة ولذلك أعطى الألمان الفرصة لكى يفيقوا من هذه الأزمة الخطيرة .

ولكن لم يكن الحظ حليفا لقيادات المحور ، ففى هذا اليوم فكر الجنرال شتوم- القائد المؤقت لجيش البانزر وكان يتصف بالشجاعة والجرأة فى اتباع أسلوب روميل فى القيادة، بضرورة تواجده فى الخط الأمامى ولذلك توجه إلى الجبهة وكان يصحبه ضابط المخابرات العقيد بوخنخ .

وتوجه بعربته رأسا إلى أكثر المناطق خطورة فى الجبهة وكان ذلك بجوار التل رقم ٢٨ ، وهناك فتح البريطانيون عليهم النيران من المدافع الرشاشة والمضادة للدبابات . وأصيب العقيد بوخنخ بجرح مميت فى رأسه أما شتوم فقفز من العربة أثناء سيرها إلا أنه تعلق بها من الخلف وكان السائق يقودها بسرعة ليخرج بها من منطقة النيران فسقط الجنرال على الأرض دون أن ينتبه السائق إلى ذلك . وبقى ملقيا هناك وقامت فصيلة من فصائل الاستطلاع التابعة للكتيبة الأولى من الآلاى ١٣٥ بالتوجه لإنقاذ الجنرال ولكن الرقيب أول هولز تشه والعريف كيل من السرية الثانية وجداه ميتا وقد تولى الجنرال ريتر فون توما قيادة جيش البانزر من بعده .

وفى مساء ٢٤ أكتوبر طلبت القيادة الألمانية العليا أن يوافيها الجنرال وستفال فى بحر ساعة: « هل هجوم العدو استطلاع بالقوة أم الهجوم الرئيسى؟» وأجاب وستفال: « إنه بدون أدنى شك هو الهجوم الكبير للعدو الذى طال توقعه ، وعودة روميل ضرورية ».

وفى ذلك الوقت أخذت المشاة البريطانية فى مواصلة الهجوم فى موجات جديدة وقذفت المدفعية وسلاح الطيران الملكى الجبهة بدون انقطاع ليلا ونهارا .

وكان الملازم برنارد أورف يرقد مع البطارية الأولى التابعة لآلاى المدفعية ٣١ ومنظاره المكبر الليلى ملتصق بعينيه على بعد خمسة أميال خلف خط القتال .

وكان ملحقاً على مجموعة القتال الموجودة جنوبى مواقع الفرقة ١٥ بانزر والتى يقودها الليفتانت جنرال فون فيرست وكان رئيس أركان العمليات هو المحارب القديم هنيرش مولر بينما كان العقيد تيج قائد الآلاى الثانى مدرع يقود مجموعة القتال . وعندما أشرقت شمس يوم ٢٤ أكتوبر شاهد الملازم أورث خلال سحب

الدخان الناتج من البارود وانفجار القنابل منظراً بشعاً ذُعر له ، رأى المشاة الإيطالية وهى تهرب من مواقعها . وكانوا يصيحون وهم يفرون تجاه الغرب: « لقد انهارت الجبهة – لقد انهارت الجبهة » . وخلف الجنود الهاربين ظهرت أولى دبابات العدو. وكانت دبابات أمريكية جديدة من طراز شيرمان وجنرال جرانت ، وأرسلت إشارة باللاسلكى تتضمن: « مدرعات العدو تتقدم » وجاء الوقت المناسب لاستخدام المدفعية التى تعتبر العمود الفقرى للفرقة المدرعة بمدافعها الهاوتزر المضادة للدبابات وهاوناتها وتم تصويب كل المدافع جيداً . وأصيبت أولى الدبابات واشتعلت فيها النيران . وتوقفت رأس الحربة المدرعة . وكانت هذه هى اللحظة الحاسمة للقيام بهجوم مضاد مدرع بالكتيبة الأولى من آلاى البانزر الثامن تحت قيادة النقيب ستدل ماير وأدت القوة الدافعة لإرغام الدبابات البريطانية على التراجع إلى حديقة الشيطان رقم « ل » وكان هذا مميتاً بالنسبة للبريطانيين .

ورغم أن العديد من الألغام انفجر خلال القذف الليلى إلا أنه ظهر أن كثيراً من « بيض الشيطان » ما زال حيا ويستطيع العمل ، ولذلك ارتفع عمود من الدخان الكثيف إلى عنان السماء . وانفجرت قنابل الطائرات محدثة الذعر والفوضى بين دبابات العدو ورقدت ٣٥ دبابة داخل حدائق الشيطان مدمرة بينما انسحبت باقى الدبابات، وبذلك توقفت عملية الاختراق التى كانت تجرى فى أقصى الشمال .

وأما بالنسبة لجيش البانزر الإفريقى فكان المثل القائل بـ « حرب الرجل الفقير» ينطبق كلية على جيش روميل ، بينما كان لدى مونتجمرى معدات لا حصر لها زد على ذلك أنه استخدم قواته الجوية إلى أقصى طاقاتها . وحقق السلاح الجوى الملكى السيادة الجوية فى مسرح العمليات الإفريقية ، فاستمر قذف القوات الأرضية الألمانية باستمرار فكانت الغارة الجوية البريطانية المعادية تقوم بها ٨٨ قاذفة تحرسها ١٤ مقاتلة . ولم يحيدوا عن غرضهم قط فكانوا يقذفون المربعات المحددة على الخريطة الواحد بعد الآخر . وكانوا يصلون دائما وعددهم كامل وهو ١٨ قاذفة.

وفى فجر ٢٥ أكتوبر قام مونتجمرى بضرب مركز وقوى بالمدفعية علاوة على قذف جوى متجدد ثم الهجوم بالقوات الأرضية مرة أخرى وكان التل رقم ٢٨ هو الأرض الحيوية للمعركة ففى هذا المكان صمم البريطانيون على فتح ثغراتهم .

وبينما كانت القنابل تنفجر حول هذا التل التعس الصغير وبين الكثبان الرملية

كـان رومـيل يقف فى وينار فـوستـادت بجـوار طائرتـه من طراز هينكل وعليـهـا العـلامـات المميـزة (د. هـ . ى . أ) وكـانت السـاعـة ٧٫٥٠ صـبـاحـا والملازم الطيــار جبسن لا يزال يحـاول مع خبير الأرصاد الجوية ليسمح له بالتحليق . وقام عـامل اللاسلكى ورقيب أول القيـادة هاهن بتـقـديم تقـريره عن صـلاحـيـة الطائرة للطيران وسمع روميل الجدل الذى حدث مع رجال الأرصاد . فقال روميل: « نحن سنطير » وأصر على هذا الأمر بالرغم من أن جبسن عاد وأبلغه ما يلى : « لم نتلق بعد الإذن بالتحليق لخطورة تراكم الثلج على ارتفاع ١٨ ألف قدم » وتبادل كل من جبسن وهاهن النظرات بينما كان يازى وولف مهندس الطائرة وساوريش المراقب قد اتخذا مكانيهما فى الطائرة . وأقلعت الطائرة إلى روما ، وبعد وقفة قصيرة هناك أقلعت ثانية ونزلت فى مطار هركليون فى جزيرة كريت . وهناك نقلتهم طائرة من طراز دوتيز ٢١٧ إلى إفريقيا . وهبط روميل فى مطار الضبعة فى الساعة ٥٫٢٠ بعد الظهر واستقل على الفور طائرة من طراز ستوريس وطار بها الى الجبهة . وقبل حلول الليل كان الفيلد مارشال فى مركز قيادته التكتيكى يستمع إلى تقرير الموقف من وستفال .

وفى صباح اليوم التالى قدم الجنرال فون توما (ذلك الرجل النحيل الصارم المزهو بنفسه) تقريره إلى روميل وختم كلامه بقوله : « إن الموقف يا سيدى الفيلد مارشال قد ساء ، لأن المدفعية القوية للعدو قد حطمت حدائق الشيطان ، أما الموقف بالنسبـة للوقـود فلم يتـغـير ، وقـد أثر القـذف المتـواصل بالمدفـعـيـة والـقذف الجـوى بالطائرات فى نفسية الجنود تأثيرا كبيراً . ولم يبق صالحاً للقتال سوى ٣١ دبابة من الفرقة ١٥ بانزر » .

وكان تقريراً محزنا فيه يأس . ونظر روميل إلى الخريطة ووضع يده على ذقنه وكان وجهه عابساً .

٩ - ٤٠٠ دبابة إنجليزية ضد ١٠٠دبابة ألمانية: (انظر اللوحة رقم ١٧)

وأمر روميل على الفور بحشد كل قواته الميكانيكية فى الجبهة الشمالية للقيام بهجوم مضاد إلا أنه لم يستطع الاستقرار على رأيه فيما يختص بإحضار الفرقة ٢١ بانزر من مواقعها فى احتياطى القطاع الجنوبى للجبهة ، لأنه لم يتأكد بعد من أن الهجوم البريطانى فى الشمال هو الهجوم الرئيسى وربما يدعمه هجوم فى القطاع

الجنوبى ، وهكذا نجحت خدعة مونتجمرى .

وفى نفس الوقت قام القائد العام البريطانى بنقل بعض لواءاته من المشاة والمدرعات من الجبهة الجنوبية وقذف بها فى المعركة فى الشمال . وفى يوم ٢٧ أكتوبر قرر روميل سحب الفرقة ٢١ بانزر ونصف مدفعيته من الجنوب ليعزز بها القطاع الشمالى وكان يقامر بعمله هذا .

ولكن ما الذى كان يستطيع أن يعمله غير ذلك ؟ فكان يحتم عليه الموقف غلق الثغرة فى الجبهة الشمالية وإلا فسوف يهزم هزيمة كاملة .

وقامت الفرقة ٢١ بانزر بالهجوم خلال مواقع الفرقة ١٥ بانزر . وقام الجنرال فون راندو ومعه رئيس عملياته الرائد فون هورك (الذى قتل فيما بعد ذلك بشهرين فى ليلة عيد الميلاد بواسطة لغم وضع بواسطة مجموعة الصحراء بعيدة المدى) بقيادة فرقته خلال الثغرة وسط الدخان والتراب اللذين ملآ جو ميدان المعركة . وانضم العقيد تيج قائد الآلاى الثامن المدرع إلى الهجوم بما تبقى معه من دباباته . وقد قوبل هذا الهجوم بنيران كثيفة من المدفعية .

واحتدمت المعركة مع الدبابات البريطانية الجديدة وكانت تفوق الدبابات السابقة فى قوة النيران والمدى المؤثر . وكانت المشاة البريطانية تحاول دائمًا اقتحام مواقع المدفعية الثقيلة ، ففى هذا الموقف المشاة لها فائدتها . فقد عمل رجال المدفعية كمشاة كما حدث لرجال المدافع عيار ١٠٥ مم من الآلاى ٤٠٨ فقد اضطروا مرتين إلى القتال المتلاحم بالأسلحة الصغيرة لطرد العدو من مواقعهم إلا أن العدو كان قويا جدا .

أما بالنسبة لجيش البانزر فكانت معركة لا أمل فيها بكل ما فى الكلمة من معنى فقد قوبل أعظم القادة العسكريين الألمان بعدو له تفوق كاسح فى المعدات لا يقف أمامه أى نوع من الشجاعة . وقد علق روميل على الموقف وكأنه يوضح ذلك: « وحتى أشجع الجنود يمكن أن يقتلوا بقنبلة » ، وقال ذلك وفى صوته رنة الألم والحزن المكتوم .

وفى ليلة ٣١ أكتوبر شن مونتجمرى هجومه الذى أطلق عليه اسم « عملية الهجوم المتفوق » وهو الاختراق الكبير فى الشمال . وبعد غلالة كثيفة من النيران لمدة ساعة قام الأستراليون بهجوم بالمواجهة على جناح الآلاى المدرع ١١٥ . وتمكنت المدرعات البريطانية من اكتساح وحدة مدفعية إيطالية . وفى صباح يوم

٣١ وقف البريطانيون بدباباتهم الثقيلة على الطريق الساحلى .

وقذف روميل بوحدة الاستطلاع ٣٣ فى المعركة ليحول دون إغلاق حلقة الحصار حول البروز . وأرسلت آخر طائرات ستوكا للعمل . وقامت الفرقة ٢١ بانزر والفرقة ٩٠ الخفيفة بهجوم مضاد وذلك لغلق الثغرة فى الجناح الشمالى ، ولكنهما فشلتا .

ثم قام مونتجمرى بضربته الكبرى ، فقد حشد كل الدبابات التى بقيت من أسطوله الضخم من المدرعات وكان عددها فى أول المعركة ٨٠٠ دبابة وقذف بها فى حلبة الصراع ، ووقفت ٢٠٠ دبابة بريطانية ضد ٨٠ إلى ١٠٠ دبابة ألمانية وإيطالية .

١٠ - حرب الرجل الفقير :

عندما حل مساء ليلة ١ ، ٢ نوفمبر ١٩٤٢ على صحراء شمال إفريقيا كانت معركة العلمين قد دخلت فى يومها التاسع . وأصبحت حقول ألغام روميل (حدائق الشيطان) المشهورة كلها تقريبا فى أيدى العدو . فقد دفعت الخطوط الألمانية الأمامية إلى الخلف واخترقت فى أماكن عديدة فى القطاع الشمالى . وتم احتلال جبهة جديدة بعدد قليل من المدافع والمدرعات وبقايا متناثرة من الفرق المتحركة الممزقة ، فقد استمرت الآلايات ١٠٤ ، ١٢٥ ، ٣٧٢ ، ٤٣٣ فى قتال دامٍ لمدة ٩ أيام .

أما هجمات مونتجمرى الليلية فقد تمت على أسلوب سليم ، فظل ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مدفع بريطانى يضرب المواقع الرئيسية لروميل لمدة ثلاث ساعات . هذا بخلاف ضرب سلاح الطيران البريطانى الذى كان يرهق قوى الجنود . وبعد ذلك قامت المشاة البريطانية تعاونها الدبابات بالهجوم . وكانت النتيجة لا يمكن تفاديها . فقد اخترقت الجبهة جنوب غرب التبة الحيوية رقم ٢٨ وتدفقت ٤٠٠ دبابة خلال الثغرة إلى الغرب . وكان لدى مونتجمرى ٤٠٠ دبابة أخرى فى الاحتياطى شرق حقل الألغام .

وأمر روميل بالتحضير لهجوم مضاد وحشدت بقايا المدرعات الألمانية والآلايات المدرعة والمدفعية المضادة للطائرات ومدفعية الميدان ومجموعات القتال المكونة من المهندسين وأفراد القيادات والوحدات الاحتياطية . وبدأت معركة للدبابات فى تل العقاقير . وكانت من أعنف معارك المدرعات فى تاريخ الحرب الإفريقية . وظلت طائرات السلاح الجوى الملكى والمدفعية البريطانية تضرب بدون

توقف بكميات لا تنضب من الذخائر . بينما كانت المدفعية الألمانية على العكس من ذلك فهى على عادتها تنقصها الذخيرة . وليس السبب عدم وجود ذخيرة فى إفريقيا بل لأنها كانت موجودة فى طبرق أو فى المستودعات بعيداً فى الخلف . وقد استخدم الجنرال كروس مطابخ الميدان لحمل القنابل إلى خط القتال . وكان هناك نقص فى البترول وفى وسائل النقل لإحضار القنابل إلى الجبهة

وقد أحضرت البطارية الثانية التابعة للآلاى ١١ مدفعية داناتها هاوناتها ٢١٠ مم بواسطة عربات التموين من طبرق . وكانت العربة حمولة ٣ طن تستطيع نقل ١٠ قذائف فقط وتستغرق الرحلة ثلاثة أيام . فهذه حقا كانت « حرب الرجل الفقير » ورغم ذلك فقد تمكن الجنود الألمان من إغلاق الثغرة التى أحدثها البريطانيون على جبهة عرضها ميلان ونصف لفترة . وقام مونتجمرى بقذف احتياطيه من الدبابات وكانت لدى الفيلق الإفريقى ٣٥ دبابة فقط صالحة للاستعمال .

وقام الآلاى ٣٣ مدفعية بضرب المدرعات البريطانية المهاجمة كما لو كان فى إحدى المناورات . وتغلب البريطانيون على البطارية رقم ٢ إلا أن سرعة بديهة الملازم أول أروث أنقذت البطارية رقم ١ فقد تراجع إلى خارج مرمى المدفعية البريطانية الخفيفة والمتوسطة واتخذ موقعاً أكثر ملاءمة لإطلاق النيران . وبمعاونة هذه البطارية ومدفع من عيار ٨٨ مم أمكن إنقاذ ثلاثة مدافع من البطارية الثانية من وابل قذائف العدو الفولاذية واستخدامها كدفاع مضاد للدبابات . وهكذا لم يبق من آلاى المدفعية رقم ٣٣ الذى قاتل تحت قيادة قائده المقدم جرسمان فى كل الانتصارات السابقة وتحمل كل أزمات المدرعات فى إفريقيا سوى سبعة مدافع . أما الآلاى رقم ٨ المدرع فقد أبيد بالكامل، وكان قائده العقيد تيج آخر من سقط من رجاله واستلقى جنود الآلايات المدرعة وكتائب المهندسين ووحدات الإشارة والوحدات المضادة للطائرات وجماعات الاستطلاع وباقى التشكيلات فى حفرهم. وهكذا كان الموقف فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . وكتب الملازم رالف رينجلر قائد السرية العاشرة فى الآلاى ١٠٤ المدرع فى يومياته يقول : « الثالث من نوفمبر ١٩٤٢ على طريق التلغراف وهو الطريق الصحراوى الممتد من سيدى عبد الرحمن. لقد أقبل الصباح ، جائع وأشعر بالبرد . لقد تمزق العريف فرانكن إلى قطع متناثرة . وضوء النهار يتزايد والشمس تخترق الدخان . لقد ذهب البرد ، إلا أن الجوع بقى، وحل – الآن – بالإضافة إلى ذلك العطش . يرقد هنا عدد قليل من

الرجال فى حفر يبعد كل منها عشرين ياردة ، وفى بعض الأماكن خمسين ياردة . ولم يبق لدينا سوى مدفعين مضادين للدبابات . هذا كل ما هناك . والسرية التاسعة موجودة فى مكان ما على اليسار . وعلى بعد ثمانية أميال يوجد البحر . وخلفنا لا شيء وفى مواجهتنا أسطول من الدبابات . لقد جاءوا بالأمس دبابتان ثم أربع ثم ثمان ثم عشر ثم قاموا بالهجوم. فلنأخذ حذرنا وأسرعت أربع دبابات فى اتجاه موقعى . فلماذا لا تطلق المدفعية المضادة للدبابات نيرانها ؟ لقد اقتحمت مواقعنا الدبابات الأربع . ولم يتم فى إفريقيا قتال متلاحم مع المدرعات ، فلا يوجد لدينا قذائف متفجرة وخارقة . والآن وصلت الدبابة الأولى إلى موقع المدفع الرشاش لقد مرت فوق جنديين بجنزيرها ثم توقفت ودارت حول نفسها ودفنت الجنود أحياء . وهشمت الموقع ثم اتجهت دبابة ماركة ٢ إلى موقعى فجلست القرفصاء فى رعب فى أحد أركان الخندق . وتساءلت هل سيتوقف صوت صرير الجنزير فوق حفرتى؟ متى يتوقف السائق ويدور لكى يهشمنى ؟ وما كاد يمر حتى قفزت على قدمى ، واقتربت دبابة ثالثة من اليمين وكان قائدها يقف ونصفه العلوى ظاهر من فتحة البرج وكله ثقة وأخذت قنبلة يدوية من حزامى وانتزعت مسمار الأمان وقذفته بها، إلا أن القنبلة ارتدت عن البرج وانفجرت بلا تأثير وابتسم قائد الدبابة لى ولم يفعل شيئا سوى الانحناء للأمام قليلا . والآن أخذ يلوح بذراعيه كما لو كان فى تمرين لضرب النار وكان يقول: « إصابة خاطئة » ثم عاود السير . وعلى الجناح الشمالى لموقعى رأيت خمسة رجال من جنودى وكانت أيديهم مرفوعة فوق رءوسهم ويجرون اتجاه الدبابة البريطانية . وصعدوا على ظهرها وهم الرقيب القادم من روسيا وأربعة من رجاله . لقد وصل لتوه ليلة أمس وقد انهارت أعصابه . وكانت هذه هى النهاية ؟ فهل تكون نهايتى كذلك ؟ » .

وكانت هذه القصة تتكرر على طول القطاع الشمالى لجبهة العلمين فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ . ففى كل مكان كان البريطانيون يتقدمون ولذلك اتخذ روميل القرار الصائب بترك موقع العلمين والانسحاب إلى الخلف . وقد حذر الفيلد مارشال فى تقريره الاستراتيجى مركز رئاسة الفوهرر من هذا الاحتمال . وذلك اعتماداً على أن القيادة العليا فى راستنبرج قد تركت له حرية التصرف لاتخاذ القرارات فقد اعتقد أنه فى مثل هذه الظروف لن يجد معارضة . ورغم هذا فقد كان لديه إحساس غير مطمئن (لأنه يعرف كلا من هتلر وموسولينى) لأن كليهما يعتبر الانسحاب وصمة عار . وكانت نوايا روميل ليست فقط الانسحاب إلى خط الفوكة

(الذى كثر الحديث عنه) أو إلى الموقع القديم فى مرسى البريقة أو إلى طرابلس ، ولكنه نظر إلى الموقف نظرة أبعد مدى . وأصبح الموقف الآن يتطلب التخلى عن إفريقيا كلها؟ ولكن هل القيادة العليا فى راستنبرج والتى تبعد ألفى ميل ستوافق على ذلك؟

١١ - النصر أو الموت:

وقرر روميل أن يرسل ياوره النقيب احتياط أنجمار برندت (وهو مستشار من وزارة الدعاية وكان يعرفه هتلر ويحبه جدا) إلى مقر قيادة الفوهرر (١) وقال له وهو يودعه: « اشرح موقفنا بوضوح للفوهرر واشرح له أنه من المحتمل أن نفقد مسرح العمليات الإفريقى وعن الحالة السيئة لفرقنا المدرعة » ثم قاد روميل عربته تجاه الشرق على الطريق الساحلى متجها إلى خط القتال وكانت مهمة برندت مثار نقاش دائم وتم تصويرها بصورة روائية . وفى الحقيقة كانت فقط حدثاً من الأحداث. وقد استخدم روميل ضابطا سياسيا لهذا العمل المهم بدلا من أحد ضباط القيادة العامة وهذا يظهر أن الثعلب الألمانى العجوز كان يعرف أن هتلر لا يثق فيهم جميعًا. وعندما اقترح العقيد وستفال أن يقوم هو بالطيران إلى راستنبرج أجاب روميل ، وكان محقا فى إجابته: « إنه لن يصغى إلى شىء من حديثك » .

وفى حوالى الساعة الواحدة ظهراً كان العقيد وستفال يتناول غدائه فى مقر قيادته فى جيش البانزر وكان محاطا بالتقارير التليفونية وصفائح البترول . وفجأة اندفع النقيب فون هلدورف إلى الحجـــــرة وبيده ورقة ثم قال: « أمر من الفوهرر يا سيدى العقيد » فسأله: « ماذا تقول الرسالة يا هلدورف ؟ » فأجابه: « إنه أمر الموت بالنسبة للجيش يا سيدى العقيد » فزمجر وستفال وقال: « لقد جنوا جنونا مطبقا هناك » وفى هذه اللحظة وصل روميل فى دبابة القيادة . وقفز الفيلد مارشال وناوله وستفال البرقية وقال باقتضاب: « أمر من الفوهرر » ورفع روميل حاجبيه إلا أن وستفال لم يلفظ بكلمة واحدة وقرأ روميل الرسالة . وبدا وكأن ضجيج المعركة فى خط القتال قد زاد من حدة السكون الذى أحاط بالفيلد مارشال وتركزت أعين ضباطه عليه وشاهدوا عضلات وجهه تتقلص وهو يقرأ الرسالة . ثم وضع روميل البرقية على المنضدة ثم استدار وحدق خارج النافذة وكان نص البرقية كما يلى :

« أنا زعيمك ومعى الشعب الألمانى ونحن نثق فيك ثقة مطلقة كقائد وفى شجاعة القوات الألمانية والإيطالية التى تقاتل فى معركة دفاعية بطولية فى مصر

---

(١) الفوهرر معناها الزعيم . (المعلق)

تحت قيادتك . وفي الموقف الحالي فليس لدينا أي قرار آخر محتمل سوى الوقوف بصلابة مع قذف كل العتاد وكل الرجال إلى المعركة ، وبالرغم من تفوق العدو ، فسوف نستنزف قواه ولن تكون هذه المرة الأولى في التاريخ التي تنتصر فيها العزيمة الأقوى على قوات عدو أكثر تفوقا . وليس هناك مخرج آخر أمام جنودك سوى النصر أو الموت ... أودلف هتلر » .

فهل ينفذون أمره أم يتجاهلونه ؟ هل سيرسلون برقية ردا على برقيته فيقولون فيها: « سوف نطيع الأوامر إلا أنه يجب أن نشير إلى ... أم يجب عليهم أن يبرقوا: « الانسحاب مستمر في طريقه » وهذه كانت الأسئلة التي نوقشت في الساعات الأربع التالية بين روميل ووستفال هادئ التفكير ، وكان من رأيه أن البرقية المؤسفة لا يمكن أن تكون قد كتبت على علم تام بالتقرير الاستراتيجي المرسل في ٢ نوفمبر . وقال وستفال: « إنه قول حماسي المقصود منه رفع الروح المعنوية . ومن يعلم كم مضى على كتابة هذه البرقية الملعونة ؟ » وردا على قول وستفال فيمكن مراجعة تاريخ إرسال البرقية من القيادة العليا . وكان من الواضح أن الأمر قد أرسل بعد استلام تقرير روميل في ٢ نوفمبر وبالرغم من هذا فقد حاول العقيد أن يدفع الفيلد مارشال إلى تجاهل أمر الفوهرر ، إلا أن عسكرية روميل كانت تأبى عليه مثل هذا الحل . وبالنسبة لقائد جيش فإن المشكلة أكثر صعوبة منها بالنسبة لضابط في هيئة أركان حرب.

وقال روميل لوستفال: « إنني ما زلت أصر على أن يطيعني رجالي طاعة عمياء حتى إذا لم يفهموا أوامري أو اعتبروها خاطئة . وأنا شخصيا لا أستطيع أن أحيد عن هذا المبدأ ويجب أن أخضع له » فأجاب العقيد: « إن هذا يعني نهاية الجيش» فكانت إجابة روميل الوحيدة: « أنا جندي أطيع الأوامر » .

وظلت المناقشة على هذا المنوال لبضع ساعات . ولم يعرف الفيلد مارشال أن هتلر أعطى أمره « بالنصر أو الموت » دون أن يحصل على المعلومات الكاملة عن موقف جبهة العلمين . وقرر روميل إرسال رد إلى مقر القيادة العامة . ولكن ماذا يمكن أن يقوله غير ما ذكره في تقريره عن الموقف في ٢ نوفمبر ؟ وتقرر إرسال النقيب برندت ليشرح الموقف لهتلر مرة أخرى شخصيا ولكن دعنا نرى ماذا حدث خلال ذلك .

١٢ - القائد الذى جرح عشرين مرة :

ففى ساعة متأخرة من ليلة ٤ نوفمبر قرر روميل إيقاف الانسحاب وأعطى الأمر التالى: « قاتلوا إلى آخر طلقة » .

وأصدر أوامره بتوزيع القنابل اليدوية والرشاشات القصيرة على أفراد قيادة الجيش للقتال المتلاحم يدا بيد . ولم يعد فى الإمكان إلغاء الأمر . فقد تتابعت الحوادث بسرعة كبيرة . وفى صباح ٤ نوفمبر كان الموقف كما يلى :

« احتلت بقايا الفيلق الإفريقى والفرقة ٩٠ الخفيفة خطا رقيقا من الجبهة على جانبى الغرود الرملية التى كان ارتفاعها ١٦ قدما حول تل الممصرة . وكان يقف إلى الجنوب الفيلق المدرع الإيطالى الممزق مع ما تبقى من فرقة آريتى وليتوريو وتريستا . أما فى القطاع الجنوبى للجبهة فكان محتلا بفرقة ترينتو الإيطالية ولواء المظلات رامك والفيلق الإيطالى العاشر . وفى الساعة الثامنة قام مونتجمرى بالهجوم بعد ضرب تمهيدى بالمدفعية لمدة ساعة، وقاتلت بقايا الفيلق الإفريقى تحت قيادة الجنرال فون توما للدفاع عن مواقعهم ببسالة ضد البريطانيين الذين هاجموا بـ ٢٠٠ دبابة .

وعند الفجر استأذن العقيد بايرلاين من الجنرال فون توما لإقامة مركز للقيادة جنوب الضبعة بقليل ، وقد لاحظ أن الجنرال يرتدى كل أوسمته وهو أمر لم يحدث من قبل فى إفريقيا وقال له فون توما: « يا بايرلاين إن أمر الفوهرر جنون مطبق وإنه أمر الموت للجيش . كيف أستطيع أن أبرره لرجالى؟ » ثم نظر فون توما إلى العقيد وقال: « اذهب إلى الضبعة وسوف أبقى أنا هنا لأقود الدفاع فى تل الممصرة بنفسى » ثم أضاف فى ألم مكبوت وفى تهكم مرير: « وذلك طبقًا لأوامر راستنبرج» .

وقد تأثر بايرلاين بحالة اليأس الموجودة عند الجنرال . وفكر فى أنها تحمل معنى سيئاً وحدثته نفسه أثناء توجهه إلى الضبعة بأن الجنرال يرغب فى الموت .

وكان ثقل الهجوم البريطانى موجها إلى تل الممصرة وفتحت أبواب الجحيم على الكثبان الرملية فى هذا القطاع وكان ريتر فون توما فى الخط الأمامى على رأس رجاله . وفى الساعة الحادية عشرة وصل الملازم هارتوجن ياور توما إلى مقر القيادة حيث يوجد بايرلاين وقال له: « إن الجنرال قد أرسلنى ومعى جهاز الإرسال » وقال إنه لن يحتاجه بعد الآن.

لقد دمرت جميع مدافعنا المضادة للدبابات والمضادة للطائرات فى تل الممصرة وأنا لا أعلم ما حدث للجنرال » فقفز بايرلاين فى قلق بالغ إلى عربة استطلاع مدرعة صغيرة وقادها إلى الشرق . وفجأة تعرض لوابل من نيران الدبابات ، ثم رأى العديد من الدبابات الضخمة السوداء ، فقفز من عربته وجرى فى الحرارة المحرقة فى اتجاه قمة الكثبان . وهناك اكتشف منظراً مروعا . فكانت هناك مجزرة بشرية فالدبابات المحترقة والمدافع المضادة للطائرات المدمرة والمدافع المضادة للدبابات مهشمة والموتى فى كل مكان . ولم يبق على قيد الحياة إلا القليل من الجرحى والمصابين إصابات بالغة . وعلى بعد ٢٠٠ ياردة رأى دبابة محترقة . ويقف بجوارها الجنرال فون توما وسط وابل من النيران . وكان الرجل طويل القامة شاحب الوجه واقفاً وكأنه شبح قد انعكس على وجه السماء .

ريتر فون توما الذى جرح عشرين مرة خلال الحربين الأولى والثانية إنه مثال للشجاعة والبطولة ولقد أكسبته بسالته فى الحرب العالمية الأولى شهرة كبيرة وحصل على أعلى الأوسمة وهى « الميدالية البافارية للبسالة » و « وسام ماكس جوزيف » وقاتل مع الفيلق الألمانى فى الحرب الأهلية الإسبانية وقاد دبابته عبر سهول روسيا البيضاء ، ومن أيام قلائل قاد فيلقا من الدبابات فى إفريقيا ، والآن يقف كالتمثال الجامد وحيداً بجوار دبابة محترقة وسط المعركة وأحاطت به الدبابات البريطانية من طراز شيرمان فى نصف دائرة . وكانت غلالة النيران التى أطلقها العدو على الكثبان الرملية من الشدة بحيث لا يمكن لبايرلاين الوصول إلى مكان الجنرال بدون أن يصاب .

وفجأة توقف إطلاق النيران وتحركت الدبابات البريطانية . ووقف فون توما ثابتا كقطعة من الحجر ممسكا فى يده بحقيبته المصنوعة من قماش البل (١) . وكان ينظر نحو الدبابات البريطانية المنسحبة . وتقدمت إليه عربة جيب تتبعها دبابتان . وكان النقيب جرانت سنجر من الفرسان التابعين للفرقة العاشرة يحمل مدفعاً رشاشاً قصيراً ، ونادى عليه ونظر إليه الجنرال وتقدم بخطى بطيئة إلى عربة الجيب وركبها . وقفز بايرلاين من حفرته وجرى فى اتجاه الغرب . وقد استغرق وقتًا طويلا للوصول إلى الضبعة (حيث مقر القيادة) وللبحث عن روميل

(١) كانت هذه الحقيبة يحملها دائما كل جنرال ألمانى وبها تعيين للطوارئ وبعض الأدوية . (المعلق)

ليبلغه ما رآه . وكانت سحب التراب العالية فى الجنوب والجنوب الشرقى من الضبعة مكملة لرؤية بايرلاين المفجعة . وفى الخلف كانت هناك مأساة أخرى حيث تدور معركة بين الدبابات الإيطالية ضعيفة التسليح والتدريع التابعة للفيلق ٢٠ مع حوالى ١٠٠ دبابة بريطانية . وقد تم تطويق الإيطاليين إلا أنهم رفضوا الاستسلام فدافعوا عن أنفسهم كما أمرهم روميل ودمر الفيلق عن آخره . وعند وصول التقرير عن هذه الحالة المفجعة ، أحضر ضابط المخابرات رسالة لاسلكية أمكن لنقطة التنصت الألمانية التقاطها ، فقد أرسلت بدون شفرة إلى مونتجمرى من لواء الهوسار العاشر وتتضمن: « لقد أسرنا جنرالا ألمانيا واسمه ريتر فون توما . التوقيع نقيب جرانت سنجر » .

١٣ - روميل يخالف أوامر قائده الأعلى :

وخلال صباح هذا اليوم المفجع الموافق ٤ نوفمبر وصل الفيلد مارشال كسلرينج إلى قيادة جيش البانزر قادما من إيطاليا . وقد تم تبادل التحية بينه وبين القائد بمنتهى البرود لأن روميل كان يعتقد أن كسلرينج قد أرسلته القيادة (هتلر) كنوع من الإشراف ، واندهش روميل جدا عندما أعلن كسلرينج فى حضور وستفال أنه نظراً للموقف المتأزم الحالى فهو يعتبر أمر هتلر لا يمكن تنفيذه .

وقرر روميل أن يرسل برقية باللاسلكى إلى هتلر يطلب فيها إلغاء الأمر . وقد أيده كسلرينج فى طلبه . وهكذا تم كل شىء يمكن أن يفعله قائد فى مثل هذا الموقف إلا أن روميل أظهر كذلك أنه يستطيع أن يقبل أكثر من مجرد إطاعة الأوامر .

ونتيجة للأحداث التى مرت فى الساعات القليلة توصل إلى أنه لا توجد حجج عسكرية أو خلقية تبرر التسليم بأمر هتلر ، لأن الجندى يمكن أن يؤمر بالقتال حتى النهاية ويمكن أن يؤمر جيش بالتضحية . ولكن هل يمكن أن يؤمر جندى بأن يموت دون هدف ؟ أو يؤمر جيش بأن يضحى بنفسه بدون سبب أو هدف ؟ وكانت إجابة روميل بالنفى .

وتوجه الفيلد مارشال فى عربته إلى مقر قيادة الفيلق الإفريقى . وانفرد ببايرلاين وقال له: « إن جبهتنا قد تحطمت والعدو يتدفق خلالها إلى مؤخرتنا . وأمر الفوهرر هذا أصبح ليس له معنى . سوف نرتد إلى موقع الفوكة ونحاول إنقاذ ما

يمكن إنقاذه من القوات والمعدات ، ثم أضاف: « يا عقيد بايرلاين ، أنا أسلمك قيادة الفيلق الإفريقي ، وإذا كان علينا أن نواجه محاكمة عسكرية لعدم إطاعة الأوامر فليكن ذلك بإرادتنا ، فنفذ مهمتك بكل طاقتك ، على أن تصدر كل أوامرك إلى الجنود باسمى ، واذكر ذلك إلى الضباط الأقدم منك لو قابلتك أية صعوبات ، وسادت فترة صمت قصيرة . فقد قرر روميل أن يخالف أوامر قائده الأعلى وذلك بمحض اختياره وهو على تمام العلم بالنتائج المترتبة على ذلك ، وقرر الفيلد مارشال اتخاذ هذه الخطوة . وأجاب بايرلاين : « سوف أفعل كل ما فى وسعى يا سيدى » .

وقاد روميل عربته عائدا إلى مقر قيادته حيث كان ينتظره وستفال بالخطط الخاصة بالانسحاب . وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة وصلت برقية من مقر قيادة هتلر وكان نصها : « ردا على رسالتك رقم ٤٢/١٣٥ سرى للغاية المؤرخة ٤ نوفمبر لقد أبلغت الدوتشى برأيك والتطورات التى حدثت وأنا موافق على قرارك . ولقد صدرت الأوامر اللازمة بذلك بواسطة الدوتشى عن طريق القائد الأعلى » . ما هو المقصود من هذه الرسالة ؟ وما الذى حدث فى مقر قيادة الفوهرر ؟ ولقد حاولت أن أعرف الجواب الحقيقى على هذا السؤال المهم .

ففى منتصف يوم ٣ نوفمبر ١٩٤٢ زمجر هتلر قائلا للجنرال جودل أثناء وجوده فى مقر قيادة القوات المسلحة وهو يتسلم تقرير روميل المؤرخ ٢ نوفمبر ١٩٤٢ : « لماذا لم يسلم إلى هذا التقرير فى ميعاده ؟ » وكان باستطاعة جودل أن يجيب قائلا: « لأنك تظل نائما فى سريرك إلى ساعة متأخرة يا زعيمى » ولكن بالطبع امتنع الجنرال عن ذلك .

١٤ - الهزيمة عبارة عن طفل لقيط :

وكان تقرير روميل الإستراتيجى المحرر فى ٢ نوفمبر يشرح الموقف ويرفع الستار عن الخطر المنتظر وقوعه فى جبهة العلمين والاختراق البريطانى المنتظر ويقترح الانسحاب إلى خط الفوكة على بعد ٦٠ ميلا خلف العلمين ، وهو الإنقاذ الوحيد لمدرعات الفيلق الإفريقى . فقد وصل التقرير إلى مقر قيادة هتلر خلال ليلة ٣ نوفمبر وكان ضابط النوبة فى مقر القيادة برتبة رائد احتياط . وكان يشغل فى حياته المدنية وظيفة مدير مؤسسة صناعية كبيرة . وخلال تلك الأسابيع من القتال

المرير فى ستالينجراد تعود هذا الرائد على الأخبار المزعجة ، ولذلك لم ير سببا قويا لإيقاظ هتلر أو جودل بسبب هذه الرسالة القادمة من شمال إفريقيا . وكان الرجلان قد دخلا لتوهما للنوم . وكان من عادة هتلر أن يقضى نصف الليل فى المناقشات ووضع الخطط أو ينكب على خرائط الحرب . ما دام هو مستيقظاً فالقادة والمعاونون وهيئة السكرتارية وضباط الاتصال وأكثر الوزراء أهمية كان محتما عليهم التواجد فى مكاتبهم . ولكن بمجرد أن يعرفوا أن هتلر قد ذهب إلى فراشه فكل الموظفين ورجال المخابرات يريحون أطرافهم المتعبة على أسرة الميدان فى مخابئهم الواقية . وكانوا يتبعون نفس نظام هتلر فينامون إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى .

وكان جودل وكيتل قد صحوا من نومهما فى الساعة التاسعة من صباح اليوم المذكور . وحوالى الساعة العاشرة قرأ جودل رسالة روميل . وقد بدا عليه القلق على الفور . وسأل نفسه: « هل كل هذا بسبب أوامر هتلر؟ » . هل الأمر أرسل ؟ وهل أطاع روميل الأمر ؟ فقد ظل هذا الأمر لعدة أيام على مكتب هتلر . وفى الليلة السابقة قبل أن يأوى إلى فراشه وقع الزعيم بإمضائه . وقد قام جودل بإرسال الأمر لكتابته بالشفرة وإرساله . وكان أمر هتلر هذا (كما حكم عليه وستفال تماما) قد أرسل لرفع الروح المعنوية وكان من المعروف أن الموقف فى العلمين شائك ولكن ليس خطرا بأية حال . والتقط جودل التليفون واتصل بمركز القيادة . وكان الرد: «نعم إن أمر الزعيم قد أرسل خلال الليل » .

وهرول جودل إلى جناح الزعيم لكى يقدم تقريره إليه قبل ابتداء المناقشة اليومية فى الموقف الحربى ، إلا أنه كان عليه الانتظار حتى منتصف النهار ليقابل هتلر . فقد استيقظ هتلر فى الساعة الحادية عشرة والربع . وسأل هتلر جودل بشك «ما هى المشكلة ؟ » فأجابه وهو يناوله تقرير الليلة الماضية : « أنباء سيئة من روميل» فقرأ هتلر الرسالة واحمر وجهه وغمغم: « إن هذا أهم من كل شيء آخر » وأخذت عيناه تحدقان فى الفضاء كما هى عادته دائما فى مثل هذه الأحوال ... وهى علامة الخطر ثم سأل بهدوء: « هل أرسلت أمرى الخاص إلى روميل؟ » فأجابه جودل : « نعم يا زعيمى لقد أرسلته فى الليلة الماضية » وقال هتلر وقد رفع صوته إلى حد الصياح : « لماذا لم يعرض على تقرير روميل بخصوص الموقف إلا الآن فقط ؟ » فأجابه جودل: « لقد وصلت الرسالة متأخرة جدا خلال الليل » وتابع

جودل كلامه قائلا: «إن الرائد المنوب ... ظن ... » إلا أنه لم يسمح له بإتمام كلامه ورد هتلر: « الرائد ظن ... من هذا الرجل ؟ ألم يكن فى استطاعته أن يعلم أن الأمر الذى أرسلته لتوى يضعنى فى موضع الخطأ بالنسبة للموقف فى إفريقيا » ثم صاح : « إنه مثال آخر للغباء وعدم الاهتمام سوف أجعل منه عبرة للآخرين يجب أن يحاكم الرائد عسكريا » وكان صوته يمكن سماعه فى كل حجرة من الكوخ وحل الذعر بالضباط والسكرتارية .

وبعد ثلاث ساعات كان الرائد يحاكم أمام محكمة عسكرية ، وأعلن الحكم فى نفس الليلة وهو عزله إلى رتبة نفر على أن يرسل على الفور إلى إحدى كتائب العمل وهكذا وجدت الضحية وعوقبت ، إلا أن الأمر بقى نافذاً .

وظل هتلر ثائرا طوال النهار ويندد بضعف كفاءة هيئة قيادته ، إلا أنه من طبيعته ألا يلغى الأمر الذى يصدره . وقد أعطته البرقيتان المرسلتان من كسلرينج وروميل الفرصة لإجراء ذلك بدون أن يريق ماء وجهه . ولو انتظر روميل بعض الوقت لأصبح الانهيار كاملا ، إلا أن أمره الثانى الذى جاء فى وقته أنقذ ما تبقى من المدرعات الألمانية من الدمار .

وكتب الكونت شيانو (وزير خارجية إيطاليا) فى مذكراته: « للنصر آباء كثيرون ولكن الهزيمة طفل لقيط » وإذا طبقنا هذا القول على الحرب فى شمال إفريقيا فإنه يعنى :

أن الانتصارات التى حققها روميل بين مرسى البريقة والمسجد الأبيض عند سيدى عبد الرحمن تبنتها القيادة العليا الإيطالية والألمانية ، أما هزيمة العلمين فكانت تعتبر هزيمة روميل وحده . إلا أنه ثبت بالدليل القاطع بأنه لا يستطيع أى قائد جيش فى العالم أن يحرز النصر على مونتجمرى وجيشه الثامن بالقوة المتيسرة لروميل فى خريف ١٩٤٢ لأن القوتين المتحاربتين كانتا غير متكافئتين بالمرة.

ويعتبر ما حققه روميل بقواته غير المتكافئة خلال ١٢ يوماً أثناء معركة العلمين مذهلا .

وانتصار مونتجمرى فى العلمين كان لا يمكن تفاديه . ولكن ما معنى النصر فى الصحراء ؟ ففى خلال تسعة عشر شهراً كسبت وخسرت معارك عديدة للجانبين

إذاً ما هو السبب فى أن هزيمة روميل فى العلمين كانت سيئة إلى تلك الدرجة ؟ هل يرجع ذلك إلى التأخر فى الانسحاب بسبب أمر هتلر ؟

لأن هذا أدى إلى خسائر فادحة فأصبح من المستحيل الانسحاب فى الوقت المناسب أمام مدرعات مونتجمرى المتفوقة علاوة على فقد كثير من المدافع التى إذا أنقذت خلال الانسحاب لأمكن استخدامها فى معارك أخرى مرة ثانية ضد الدبابات البريطانية ؟ وعلى كل فقد بقيت هزيمة روميل وخسائره الفادحة مثار خلاف لأن وجهات النظر غير متفقة فى الجانب الألمانى والإيطالى وكانت الخسائر الفادحة هى مثار النقاش وقد لاموا على الفيلد مارشال عدم تراجعه بسرعة كافية علاوة على فشله فى القيام بقتال مجدٍ أثناء الانسحاب إلا أن تقارير المحيطين بروميل تصر على أنه كان من المستحيل إيقاف الهزيمة حتى يوم ٦ نوفمبر علاوة على أن الارتداد نفذ بسرعة خارقة أكثر من مرة وقد صدر الأمر اليومى بالخروج عن نطاق السلاح الملكى البريطانى . ولكن النقاد أصروا على أن روميل كان مقتنعا بأن كل شىء قد انتهى ، وأن الطريق الصحيح الآن والذى يجب أن يتخذه هو الارتداد إلى طرابلس ومغادرة شمال إفريقيا نهائيا ، وهذا هو السبب فى عدم تحمله مخاطر أكثر ، ولم يحاول تكبيد البريطانيين خسائر أكبر بمقاومة قوية بل سمح لهم بالتقدم بسرعة فى أعقابه . وقد زاد من حدة هذا الكلام واللوم نزول الجنرال آيزنهاور فى ٨ فبراير مع قوات الحلفاء فى مراكش والجزائر ، استعدادا لمهاجمة تونس . وكان الهدف الاستراتيجى والرئيسى لروميل فى ذلك الوقت هو منع انضمام قوات آيزنهاور على قوات مونتجمرى . بينما أصرت روما والقيادة العليا فى راستنبرج والقيادة العليا والقائد العام للقيادة الجنوبية كسلرينج على قيام روميل بمحاربة جيش مونتجمرى بين الفوكة وتونس . ولكن هل كان ذلك ممكنا تحت الظروف السيئة؟ وهل يستطيع روميل احتلال هذه المواقع وخطف الكستنائة من النار ؟ وعلى كل فهذا السؤال ما زال بغير جواب .

١٥ - أعمدة النصر الألمانية :

واستطاع الدكتور المقدم مولر (وهو آخر ضابط شغل منصب ضابط الإمدادات لجيش البانزر الألمانى) الاحتفاظ ببعض المستندات التى تظهر بوضوح الخسائر فى العلمين وقد أعارنى الدكتور موللر هذه المستندات . وهى المستندات

التى تبين أسلوب الحرب التكنولوجية الحديثة التى تشن بالحبر بدلا من الدم وبأعمال الحساب والمنطق فالنصر والهزيمة يتم حسابهما بأرقام وقوائم وجداول . فمثلا تعتبر الدبابة ماركة ٣ سلاحا قويا فى يد القائد الشجاع ولكنها فى نفس الوقت تعتبر آلة تحتاج إلى ٨٠ جالون من البترول لكى تسير ٦٠ ميلا ، نعم ٨٠ جالون . ففى رئاسة الإمداد والتموين تم حساب كل التفاصيل اللازمة حتى تستطيع المدرعات الدخول فى المعركة وقد تم ذلك إلى آخر رقم عشرى .

ويعتبر العمل الذى قام به الدكتور موللر مثالا للتنظيم العسكرى فى وقتنا هذا لأن من ينتصر فى المعركة دائما هم المهندسون والقوات الميكانيكية . ويمكن أن نعرف من مستندات الدكتور موللر تسليح جيش البانزر الألمانى قبل وبعد معركة العلمين .

ففى ٢٣ أكتوبر ، عندما بدأ الهجوم البريطانى كان تسليح روميل طبقا للمستندات عبارة عن ٢٨٥ دبابة + ٨ دبابات للقيادة + مدفع واحد ذاتى الحركة . وفى الساعة السادسة من مساء يوم ٢ ديسمبر تم التبليغ عن الخسائر التالية:

٢٢١ دبابة + ٨ دبابات للقيادة + مدفع ذاتى الحركة . ولم يتبق سوى ٦٤ دبابة يوجد منها ١١ فى ورش الصيانة للإصلاح وبذلك لم يتبق سوى ٥٣ دبابة مستعدة للقتال . وقد تضمن التقرير ما يلى :

« ترجع الخسائر الفادحة التى تكبدناها فى ٤ نوفمبر إلى أمر هتلر الذى طلب فيه الاحتفاظ بموقع العلمين . ومنذ هذا التاريخ ونتيجة لهذا الأمر أصبحت ورش الإصلاح مثقلة بعمل يفوق طاقتها . وقد تم تدمير ٤٠ دبابة معطلة خاصة الآلاى الخامس المدرع لمنع استيلاء العدو عليها . ويرجع الفضل فى الحفاظ على ما تبقى من مدرعات روميل إلى مقدرة ورش الإصلاح وإلى احتياطى الدبابات .

وقد أشار ونستون تشرشل إلى الخدمات الفنية التابعة لروميل: « إنها كانت أحد أعمدة النصر الألمانية فى إفريقيا » . وكان محقا فى قوله وكان شعار رجال ورش الإصلاح رأس زنجى فى أذنه اليسرى قرط وكان كل جندى فى إفريقيا يعرف هذه العلامة ولكن ما الفائدة من المهارة الفنية للأخصائيين إذا تعذر الاحتفاظ بالجبهة أو سقطت الدبابات المعطلة فى يد العدو أو إذا اضطر الأمر إلى

نسف ورش الإصلاح بمعداتها بالكامل لأن الارتداد أصبح تقهقراً غير منظم .

فهذه المعركة الملعونة ، معركة العلمين !! قد أنزلت الرعب فى قلوب الضباط والجنود على حد سواء فقد امتلأت السماء بقاذفات الحلفاء واكتظت الصحراء بالدبابات البريطانية .

وخلال هذا التراجع فقدت الشمس المحرقة رعبها بالرغم من جيوش الذباب والدوسنتاريا واليرقان . لقد كانت معركة العلمين هذه معركة قاسية . وكانت تقع على طريق النصر إلى القاهرة .

والآن فقدت العلمين ، وأصبحت بعيدة فى المؤخرة ، وأصبح المسجد الأبيض بعيدا هو الآخر عن مدى البصر . وتركت القبور التى لا تحصى مهملة . وأصبح المثل القديم القائل: « إلى الأمام فوق القبور » معكوسة: « إلى الخلف فوق القبور » .

الفصل الثالث عشر

الجيش المندحـــــر

الفصل الثالث عشر

الجيش المندحــر

١ - المصباح الخلفى لجيش البانزر الألمانى :

إن الانسحاب بعد الهزيمة دائماً يؤلم العقل والنفس معاً لإنه يؤدى إلى الخوف ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه زد على ذلك تفكك كل قيود الضبط والربط . ومن أسوء الظروف وأكثرها رعباً جيش يفقد ضبطه وربطه فيتحول إلى مجموعة من الغوغاء . ومن يوم ٥ نوفمبر وبقايا جيش البانزر تتراجع عبر الصحراء وعلى طول الساحل وكان هدفهم احتلال موقع الفوكة على بعد ستين ميلا خلف العلمين . ولكن مونتجمرى لم يمهلهم فقام بمطاردة القوات الألمانية والإيطالية المندحرة بـ ٢٠٠ دبابة ، واضطر روميل نفسه مرغما على الانسحاب ثانية لمسافة أكبر لأنه يريد عدم إبادة جيشه فى منطقة الفوكة . واستطاع سلاح الطيران الملكى تحديد محل قيادة روميل عن طريق رسالة أرسلت وأمكن التقاطها . وفجأة ألقى على القيادة وابل من القنابل . واضطر روميل ووستفال إلى الالتجاء إلى إحدى الحفر .

وانسحب الجيش تحت صفير القنابل وعلى طول الطريق المزدحم وخلال حقول الألغام ، وواصل الجيش انسحابه وسرعان ما وصلت قوات روميل إلى ليبيا مرة أخرى . ونظروا إلى السهل الساحلى المصرى المنبسط الذى عبروه منذ أربعة شهور مضت وهم متجهون إلى الشرق تجاه دلتا النيل وكانوا يركبون فى ذلك الوقت مركبات بريطانية مأسورة ومزودين ببترول بريطانى وتعيينات بريطانية ولكن أصبحت طبرق الآن خلفهم بكثير . وأصبح المهندسون مرة أخرى هم المصباح الخلفى لجيش البانزر . ونسفوا المستودعات فى درنة ووضعوا الألغام فى منازل المستعمرين الإيطاليين وعلى جوانب الطريق وجعلوا الطريق عبر برقة من المستحيل اجتيازه .

وكانت جماعات التدمير ترى وهى تجلس القرفصاء على جانبى الطريق منهكى القوى ويئنون من التعب وسرعة العمل ، هؤلاء الجنود الذين حنكتهم

التجارب ، فطبرق وسيدى رزق والعلمين كانت كفيلة بأن تعلمهم وتحنكهم .

ومر سيل متدفق من سيارات الفولكس واجن والموتوسيكلات والمدافع ذاتية الحركة وقليل من المدرعات وقليل من المدافع عيار ٨٨ مم وقلت حركة المرور على الطريق وسمح الوقت بتدخين سيجارة . ووصلت أعداد جديدة من الجنود وسألهم المهندسون: « ماذا وراءكم ؟ » فأجابوا : « لا شيء سوى قوات العدو » . فأجاب ضابط من المهندسين: « حسنا واصلوا السير فى طريقكم » وقام المهندسون بنسف الطريق بمعاونة عمال من العرب تحت إمرة ضابط صف إيطالى .

ثم جاء دور العمل العادى وهو بث الألغام على نظام المربعات إلا أن مهندسى روميل ابتكروا خدعة جديدة فقد رأسهم لعدة أيام الجنرال بلويوس ضابط المهندسين القديم لأن العقيد هكر أصيب بالصفراء والدوسنتاريا وكانت الشراك الخداعية مثلا ظاهرا للابتكار ، فكانوا يضعون الصفائح وبعض الألغام فى الحزام الأول فتبدو وكأنها ألغام حقيقية لأنه كان يتم حفر الحفر كالمعتاد على نظام رقع الشطرنج وكانت واضحة تماما ، والمسافة بين الحفرة والأخرى خمس ياردات فى جميع الاتجاهات ، ولكن لم يوضع فى هذه الحفر سوى صفائح عادية ولغم من طراز «ت» بدون مفجر .

ووصلت الوحدات الإنجليزية المتقدمة وشاهدت الحفر ، فتقدمت وبدأ المهندسون البريطانيون ومعهم أحدث مكتشفات الألغام (والتى تشبه فى منظرها المكنسة) ، وبدءوا فى العمل . ودل صوت الأزيز المنذر من الجهاز على وجود معدن ، وبحذر تم تنظيف الحفرة تلو الأخرى ولم يظهر شيء سوى صفائح قديمة . وبعد قيام الصف الرابع بتطهير الصفائح القديمة بدا الأمر وكأنه مضيعة للوقت فصعدوا إلى عرباتهم وتقدموا ، وبعد عشرين ياردة اقتحموا منطقة الألغام الحقيقية وهى حزام من الألغام أحسن إخفاؤها وتعالى الصراخ وسقط الجرحى .

وتوقف الطابور أمام كل حفرة فى الطريق ، وواصلوا الحفر مرة أخرى ليخرجوا الصفائح القديمة حتى ظهر الأمر مرة أخرى مثيرا للسخرية ، ومرة أخرى حدثت المأساة وأذاعت محطة القاهرة: « إن تقدم الجيش الثامن لا تقابله إلا مقاومة ضعيفة ولكنه تعرقل تقدمه كثيراً نتيجة لأعمال المهندسين الألمان » .

وكل رجل توفر له مكان فى عربة أثناء الانسحاب يعتبر سعيد الحظ وكانت المشاة بالطبع غير محظوظة لأنه تحتم عليهم السير مترجلين . وقد ترتب على

نقص وسائل النقل فى جيش البانزر خلال الانسحاب من العلمين نتائج سيئة ، وكانت المشكلة التى واجهت روميل ، هل يترك المشاة المترجلة لمصيرها أم يرهق القوات الميكانيكية بأكثر من طاقتها لتحمل المشاة المترجلة فتصبح غير قادرة على القتال والمثابرة ؟

وبما أن المشاة الإيطالية كان من المستحيل نقلها بالعربات لذلك كان من الطبيعى ألا يتم نقل المشاة الألمانية ولا حتى القوات الخاصة مثل لواء المظلات رامك بالعربات . زد على ذلك أنه لم تكن هناك مركبات متوفرة حتى لهذه الوحدات الخاصة . وعندما تلقى روميل تقريراً بأن الفيلق ١٠ الإيطالى فى جنوب العلمين قد اندحر ووقع رجاله فى الأسر قال : « علينا كذلك أن نعتبر رجال رامك من المفقودين » . إلا أن روميل كان عرضة للمفاجآت فى هذا الشأن . وكانت المسألة مسألة تقديرية بالنسبة لروميل . هل يعطى مركبات لرجال المظلات لإنقاذ هذه القوات الخاصة المهمة ؟ وكان هذا موضوع نقاش . وكان الجنرال رامك من أنصار هذا الرأى .

وفيما بعد احتج الجنرال رامك بمرارة لجورينج لأن ذلك لم يحدث .

وربما كان روميل يعوزه إمعان الفكر ولكن وثائق الدكتور مولر تبين أن رامك كان لديه عدد لا بأس به من عربات تكفى على الأقل لنقل جزء من قواته ، إلا أن المركبات انطلقت وسط الفوضى دون أن تنتظر قوات الخطوط الأمامية علاوة على أن قادة الكتائب والسرايا قاموا بالفرار أيضًا ، إلا أن رجال المظلات لم يستسلموا بأية حال من الأحوال . فقد انطلقوا بعدد من سيارات الفولكس واجن والموتوسيكلات فى ٣ نوفمبر تسترهم وحدة مدفعية بقيادة الرائد فينسكى وتمكنوا من صد هجوم بريطانى مدرع . وقبل انسحابهم دمروا عربة اللاسلكى الخاصة باللواء ، ونسفوا مطابخ الميدان لعدم وجود حملة لجرها ، وبقى مع كل رجل نصف لتر من الماء وكان أمامهم ستون ميلا للوصول إلى الفوكة .

٢ - الشياطين الخضر :

قاد الجندى العجوز الرائد بروكهارت كتيبة حرس المؤخرة . وضم إلى قواته مفرزة من المدفعية الإيطالية ، وبهذه الطريقة انسحب برجاله سالمين اتجاه الغرب ، وكان رجلا محظوظا ، هذا القائد المحنك إلا أن حظه لم يدم طويلا ، فقد أخذ أسيراً. وعلى كل فقد تسلل عدد قليل من رجاله خلال الخطوط البريطانية بعد أن

أصلحوا مركبة ألمانية قديمة ورحلوا بها أثناء الليل وكانوا يختبئون أثناء النهار حتى وصلوا إلى واحة سيوة فى اليوم الثالث عشر ، وهناك انتهت مغامرتهم كذلك . وكان هذا محزنا ومثيراً للغضب لأن الشرطة المصرية قامت بالقبض على هانز فريدريك وزملائه ومكثوا فى الأسر خمس سنوات ونصف ، وهذه قصة من عديد من القصص التى دارت أثناء الحرب . أما الرائد فينسكى ومدفعيته فقد انتهى دوره قبل ذلك ، فبعد معركة عنيفة مع المدرعات البريطانية دافع فيها عن مواقعه حتى آخر قذيفة قام البريطانيون بأسره . وحل نفس المصير بالملازم هاستور قائد السرية المضادة للدبابات فى لواء المظلات إلا أن غالبية اللواء تمكن من الإفلات . وأكثر من هذا أنه قبل الفوكة بقليل وخلال الليل شوهد قول بريطانى فزحف رجال المظلات إليه بالمدافع الرشاشة القصيرة والمسدسات واستولوا عليه . وقد تمكنوا من إيقاف المدرعات البريطانية بمدفع واحد مضاد للدبابات وبذلك ركب الشياطين الخضر العربات المستولى عليها واستطاعوا الفرار بها . وكانت ضربة بارعة ليس من أجل العربات فقط ولكن من أجل محتوياتها المهمة . فقد كانت العربات محملة بالبترول والماء والطعام المحفوظ من اللحوم إلى الفواكه والسجائر . وهكذا غنم رجال رامك قولاً إداريا كاملاً خاصًا بلواء دبابات . وسأل روميل حوالى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى (وكان فى مقر قيادته التكتيكى الموجود على الطريق الساحلى خلف مرسى مطروح) : «ما هذا الذى يقترب؟» ورفع وستفال نظارته إلى عينيه وحدق فى الصحراء فى اتجاه سحابة الغبار ، وتقدمت عربة خفيفة ونزل منها الجنرال رامك وقد طالت لحيته لعدة أيام وذبل وجهه وأبلغ عن وصول لوائه . ونسى روميل كل متاعبه وهو يحيى ٦٠٠ جندى من المظلات الذين شقوا طريقهم مقاتلين لمسافة ٢٠٠ ميل عبر الصحراء .

وبذلك ضربوا المثل الرائع لقوة العزيمة والمثابرة خلال الحرب ، وكان هناك كثير من المتخلفين الذين وصلوا فيما بعد . فمثلا العريف الدكتور أوتو كنجر فقد قذف بنفسه أرضا خلف كثيب رملى صغير عندما شاهد سرباً من طائرات الهاريكان يطير على ارتفاع منخفض فوق مواقعه . وبعد لحظات سمع صوت طلقات المدافع الرشاشة وهى تضرب المطار . وخلال الأيام القليلة السابقة كانت تحدث مثل هذه الغارات كل بضع ساعات . وكانت خيمة مستشفى بوكنجر منصوبة وحدها فى منخفض صغير ولا يوجد أحد غيره هناك . فقد قام الرقيب أوتو بودرن بإخلاء آخر الجرحى فى عربة الإسعاف . أما العريف كونج فقد ركب موتوسيكله أثناء توجهه إلى البطارية المضادة للطائرات وقال لبوكنجر : « حاول أن

تحصل على عربة خفيفة ، حتى يمكننا إنقاذ الخيمة والمعدات الطبية قبل أن يأسرنا البريطانيون المتقدمون » . وكان مونتجمرى يتقدم بسرعة غير مألوفة فطارد قوات روميل اتجاه الفوكة . وكان رجاله يتعقبون قوات المحور حتى لا يعطوا لهم الوقت الكافى لإعادة تنظيم قواتهم أو الوقوف للقتال ولا حتى مجرد الوقوف فقط فى الفوكة. وكانت القيادة البريطانية العليا يبدو أنها مطلعة هامًا على موقف روميل السيئ . فقد أدلى بعض الضباط الأسرى من الألمان بمعلومات تتضمن انهيار جيش البانزر. كما أن مونتجمرى لا بد أنه عرف من استطلاعه الجوى مبلغ ضعف القوة الضاربة لجيش البانزر الهارب ، وعلى كل فكانت جرأة مونتجمرى فى المطاردة واضحة للعيان وأرغمت روميل على التخلى عن موقع الفوكة . وأصبحت الوحدة ٥٨٠ من وحدات الاستطلاع التى بقيت فى الفوكة تحت قيادة النقيب فوس فى موقف لا تحسد عليه .

ولم يكن بوكنجر الراقد خلف الكثبان الرملية لمطار الفوكة يعرف بالطبع شيئا عن قرار روميل ، كذلك لم يعلم أن آخر موتوسيكل فى مجموعته قد تعطل بواسطة القاذفات المقاتلة وملقى على الطريق قبل مرسى مطروح وكان كل ما يعلمه أن البريطانيين ليسوا بعيدين .

وقد وصل فى ذلك الصباح الرقيب كرول على موتوسيكله قادما من موقع المدفعية المضادة للطائرات الذى يحمى المطار وقال « يا دكتور لن نرحل بدونك وسأرسل سيارة خفيفة لإحضارك » فقد كانوا جميعا ينادون بوكنجر بلقب الدكتور . ثم عاد كرول إلى المطار ، وبعد ذلك بقليل حدثت غارة جوية ، ولم يسمع بوكنجر سوى صوت المدافع الخفيفة المضادة للطائرات . وقال لنفسه: « إن هذا لعجيب » إلا أنه لم يقلق نفسه بدون داع وانتظر . أما ما حدث فقد ضربت البطارية الرابعة المضادة للطائرات التابعة للملازم شميدت بالقنابل فاضطر كرول أن يصدر أوامره بعصبية بالانسحاب وزيادة فى سوء الحظ اشتعلت النيران فى عربة ثقيلة واحترقت بكامل حمولتها ، وهرب كرول مع بقية رجال البطارية الرابعة ونسوا بوكنجر . وعندما تسلق الدكتور الكثبان وظلل عينيه بيده رأى ماسورة مدفع من عيار ٨٨ مم مرتفعة إلى السماء .

وكان من البعد بحيث لا يستطيع أن يعرف هل هذا المدفع دمر وتركه رجاله أم لا ، وكانت الصحراء حوله ساكنة .

٣ - طبيب المهام الخاصة :

ورفرف علم الصليب الأحمر على خيمة بوكنجر وكان يتمايل مع نسيم النهار الذى يهب عادة فى مثل هذا الوقت قادما من البحر . وفكر بوكنجر فى وطنه لأنه فى مثل هذا الوقت يكون الجو خريفا باردا ، وفكر فى وطنه ومنزله ذلك المنزل المعروف باسم مصحة بوكنجر وقد أسسها والده أوتو ولكن ما فائدة السمعة الطيبة فى ألمانيا عندما يدون الضابط السياسى – لأسباب سياسية فى السجل الخاص بالطبيب – بأنه غير ثقة بالرغم من الشهادات العالمية وخبرته الكبيرة علما بأن بوكنجر الصغير شخص يمكن الثقة به وذو خبرة بالطيران الشراعى وله سجل ممتاز فى الخدمة العسكرية إلا أنه دون فى نموذج الخدمة العسكرية ما يلى :

« غير لائق للترقى لرتبة الضابط » ولهذا السبب أصبح الطبيب بوكنجر نجل الجنرال الذى كان قائدا للخدمات الطبية فى الحرب العالمية الأولى سائق عربة ثم بعد قيامه بعدة مهام جريئة أصبح وكيل عريف لعربة إسعاف وأخيرا عريف .

والسبب الذى جعلنى أروى القصة فى مثل هذا الإسهاب . أن روميل كان لا يهتم كثيرا بالملاحظات التى يدونها الضباط السياسيون ، ولكن فى الحقيقة كان لا يستطيع تغيير الأوامر ولكن يمكن ببساطة أن يتجاهلها أو لا ينفذها . وهكذا فالدكتور بوكنجر الذى منح وسام الصليب الحديدى من الطبقة الأولى والثانية من أجل بسالته ما زال يحمل رتبة العريف ، إلا أنه منح، بمعرفة قائده فى آلاى المدفعية المضادة للطائرات ، وبواسطة طبيب الفرقة ١٩ مدفعية مضادة للطائرات، رتبة طبيب للمهام الخاصة الميدانية وكان كل ضابط بما فيهم قائد الفرقة ٩٠ الخفيفة والفرقة ١٩ المضادة للطائرات يحيون الطبيب العريف بوكنجر بود خاص .

وقام الدكتور بوكنجر باختبار تليفون الميدان الموجود خلف مطار الفوكة فى موقع المدفعية المضادة فوجده صامتا ، ثم شاهد عربات استطلاع غريبة تتأرجح فوق الكثبان الرملية متجهة إلى الطريق الساحلى ومعها دبابات ذات أبراج مستديرة . وقال بوكنجر لنفسه: « إنهم بريطانيون . يجب أن أذهب بسرعة » وقام بجمع معدات المستشفى وحملها خارج الخيمة ووضع فوقها غطاء مضادا للماء بريطانى الصنع ثم وضع عليها البترول . وقبل أن يبدأ سيره إلى المجهول قام بقذف عود ثقاب مشتعل على البترول . وظل لمدة ساعة كلما نظر خلفه يرى عموداً من الدخان يرتفع خلف كثبان الفوكة .

وسار محاذياً للطريق الساحلي وهو يراقب العدو . وخلال الليل يبيت فى الوديان الصغيرة ويتخذ من معطفه وسادة وغطاء . وإلى الغرب كان يرى فى ضوء القمر الباهر وميض المدفعية والمشاعل التى تسقطها القاذفات . فقد لحقت المعركة بالطبيب وتقدمت عليه ولكنه تابع سيره فى إثرها .

وكان غير مرغم على عمل ذلك ، إلا أن القوات الألمانية الصحراوية كان لها شعارها فى الحياة وهو روح الزمالة وكان لا ينسى أنه مع روميل فى إفريقيا . وبالرغم من كل المهانات التى تحملها الطبيب العريف من أعضاء الحزب النازى إلا أنه أدى واجبه لأن جيش البانزر الإفريقى لم يكن نظاما سياسيا أو نوعا من التحكم ولكنه كان أحسن مما فى ألمانيا . وهكذا تابع سيره فى إثر زملائه . وأقام فى الكهوف وحفر الرمال . وبعد أربعة أيام قبل مرسى مطروح بقليل استطاع أن يلوح أخيرا لعربة استطلاع ألمانية وكانت عودة سعيدة فشرب جرعة كبيرة من ترمس القهوة وتابع السير إلى البلدة الواقعة على الطريق . وعندما لوح الطبيب لمجموعة من رجال المشاة الألمانية على جانبى الطريق خارج مرسى مطروح نظروا إليه فى رعب وفزع ولم يفهم سبب هذا الفزع إلا بعد أن انضم إليهم . فكان سعيد الحظ لأنه عبر أثناء سيره حقلا للألغام أقامه المهندسون لتوهم ولا بد أن ملاكا رحيما قاد خطى الطبيب . وأخيراً انضم إلى الفرقة ٩٠ الخفيفة فى الوقت المناسب ليشترك فى القتال مع حرس مؤخرة القوات المنسحبة إلى الغرب .

٤ - وصول الجنرال آيزنهاور إلى إفريقيا :

« قد تسبب الشهرة العسكرية فى بعض الأحيان ضررا للمرء لأن الإنسان له حدود بينما ينتظر منه الآخرون المعجزات على الدوام وإذا أصابته الهزيمة نسبوا إليه ذلك » .

وفى كلمات روميل هذه يمكن أن نقرأ المرارة العميقة التى كان يحس بها فقد كان يعرف أن هزيمته فى العلمين لم تكن سوء حظ أو عدم كفاءة ولكنها تبرر تحذيراته وتهديداته ومطالبه التى تجاهلتها كل من القيادة الألمانية والإيطالية. فقد تمكن مونتجمرى من اختراق الجبهة الألمانية لأن الجيش الثامن كان استعداده أحسن وأكثر قوة . وفوق ذلك كانت لديه السيادة الجوية فوق أرض المعركة . وأصبح من الواضح أنه مهما كانت عظمة وشجاعة القوات البرية فكل هذا يصبح لا قيمة له أمام سيادة العدو الجوية . وهناك مثالان واضحان وهما العلمين سنة

١٩٤٢ والاردين سنة ١٩٤٤ ففى كلتا المعركتين أصبحت القوات المدرعة عاجزة عن الحركة ، وشلت تحركات القوات البرية بواسطة القوات الجوية المعادية .

وفى إفريقيا كان على روميل أن يقبل هزائم كثيرة لكى يستطيع بناء انتصارات جديدة إلا أنه تحقق أن هزيمة العلمين كانت أكثر من مجرد خسارة معركة . فقد عرف أنه خسر حملة شمال إفريقيا بالكامل . وقد زاد من اعتقاده عندما علم فى ٨ فبراير أن الأمريكيين قد نزلوا فى مراكش والجزائر .

والآن أصبح هناك ٨٠ ألف جندى أمريكى و ٢٥ ألف جندى بريطانى يعملون على تحطيم جيش روميل الضعيف بحركة كماشة قوية . ويجب أن يضرب جيش البانزر الألمانى حتى يسقط على ركبتيه . وتمكن الجنرال آيزنهاور القائد العام بعد اشتباك خفيف مع الفرنسيين من إنزال مدافعه وطائراته وقواته على شاطئ إفريقيا الشمالى والشمالى الغربى .

وكان الطريق طويلا حقا من هناك إلى تونس أو طرابلس أو طبرق . وكانت المسألة مسألة وقت فقط . فمن الذى يستطيع إيقاف الأمريكان ؟ فبرلين وروما لم تستطيعا تقوية وتعزيز جيش روميل إلى الحد المطلوب فى مدة ١٨ شهراً ليستطيع هزيمة جيش واحد ، فكيف يمكنه الآن مواجهة جيشين ؟

وفى ليلة ٨ ، ٩ نوفمبر جلس روميل فى العربة المدرعة الخاصة بالجنرال لنجرشوسن قائد الفرقة ١٦٤ الخفيفة . وكانت عربة اللاسلكى المجاورة لهما تذيع خطاب هتلر من قاعة البيرة بميونخ . وكان الفوهرر يتحدث عن النصر ، بينما كان يرقد فى كابتزو رجال الفرقة ٩٠ الخفيفة والفرقة ١٦٤ الخفيفة والفيلق الإفريقى منهكين على رمال الصحراء . وعندما وصلت السرية رقم ٢ من الكتيبة ٢٢ مهندسين ، أبلغ المساعد أوهلر قائد السرية قائلاً : « السرية تقدم نفسها وقوتها ٢٨ رجلاً » . ومنذ ستة شهور مضت وصلت هذه السرية من كريت بكامل قوتها وأسلحتها .

وتجاهل الفوهرر فى ميونخ هذه الدلائل . ولكن روميل لم يستطع أن يتجاهلها وأثناء حديثه فى تلك الليلة مع الجنرال شوسن قال بمرارة: « إن الحملة فى إفريقيا قد انتهت وإن لم تتخذ روما وراستنبرج قراراً فى الوقت المناسب لإنقاذ جنودى فسوف يذهب أشجع الجيوش الألمانية إلى معسكرات الأسر ، إذاً من سيقوم بالدفاع عن إيطاليا ضد الغزو الذى يهددها ؟

وكان هذا هو شغل روميل الشاغل . وأخذت فكرة جريئة تختمر في رأسه . فسوف يقوم بعملية في إفريقيا مثل عملية دنكرك . فكل شيء صالح لعبور البحر . وكل سفينة يمكن للبحرية الإيطالية استخدامها للحراسة يجب أن تستخدم لإنقاذ جنوده . وناقش الأمر مع العقيد وستفال ، كما ناقشه مع بايرلاين وأوضحه إلى ياوره برندت وهو نازى متعصب وأعلن عن وجهة النظر التالية: « ما هي قيمة المعدات التي سنتركها خلفنا ؟ فمعظمها معدات بريطانية ، والباقي لا يصلح إلا للتكهين . ولكن ٧٠,٠٠٠ مقاتل محنك يستطيعون كسب المعارك في صقلية أو في جنوب فرنسا وبذلك يستطيعون إنقاذنا من هزيمة تامة » . وكان لدى روميل الشجاعة بالتصريح أمام ضباطه بأن الانسحاب البريطاني من دنكرك سنة ١٩٤٠ لم يكن فقط نوعًا من التنظيم العبقري ولكنه يدل على شجاعة وبعد نظر ، رغم أن جوبلز في ألمانيا أطلق عليه « هزيمة منكرة » ، وماذا يحدث لبريطانيا العظمى إذا لم يكن لديها الضباط وصف الضباط الذين نجوا من دنكرك ليقوموا ببناء جيش جديد للمعارك القادمة ؟

إلا أن القيادة الألمانية لم تكن لديها الشجاعة لإجراء مثل هذا الانسحاب الاستراتيجي وهذا بالتأكيد حرمهم من النصر النهائي . وقد يبدو هذا القول مبالغا فيه إلا أنه هو الحقيقة . وكانت النتيجة مريرة للغاية .

فقد مزقت الفرقة ٢١ المدرعة في ٦ ، ٧ نوفمبر بواسطة مدرعات العدو في قطاع الفوكة . ولم يبق منها سوى ٤ دبابات صالحة من ٣٠ دبابة نجت من المعركة في العلمين .

أما الآلاي الثاني المحشود تحت قيادة النقيب دوفال دي نافاري الذي كان يعمل في حرس المؤخرة على طريق كابتزو ، فلم يتبق منه سوى ١٠٠ رجل فقط، أما السرية ذات الخبرة رقم ٣ من الكتيبة ٦٠٦ مدفعية مضادة للطائرات فقد تغلب عليها العدو وهي تقوم بالدفاع عن الفوكة فقد سحقت الكتيبة ولم يبق منها سوى الحملة التي قادها الملازم داني وتمكن من تجنب الأسر .

أما جنود الاقتحام الذين لا يكلون أو يملون مثل مجموعة القتال التابعة للرئاسة العامة فأصبحت الآن مكونة من رجال منهكي القوى نصف أموات ورغم ذلك فقد واصلوا القتال لشق طريقهم من المواقع المحاصرة ..

٥ - بوابة الصحراء :

وخلال الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر قام الجنرال جرافى سبونك قائد الفرقة ٩٠ الخفيفة بدفاع مذهل ضد عدو متفوق تفوقاً كاسحاً وقام بتغطية انسحاب القوات الألمانية والإيطالية ، والفضل يرجع إلى مهارة قائد الفرقة ٩٠ الخفيفة الذى تمكن من تفادى التدمير فى ممر حلفاية . وعندما ألقت الكتيبة أسلحتها فى ممر حلفاية تمكن لواء بريطانى مدرع بأكمله من اختراق المواقع ، إلا أن الجنرال جرافى سبونك – الذى كان يقوم بالاستطلاع ، وشاهد قوات العد فى الوقت المناسب– أنذر الفرقة لتنتشر ثم دفعها للقتال بنجاح ضد العدو المتقدم .

إلا أن ممر حلفاية الذى تبادله الجانبان ثلاث مرات فقد نهائيا بالنسبة لروميل وكذلك ترك فى الخلف خط الغزالة الذى شهد معارك عام ١٩٤١ وكذلك بنى غازى ، وهكذا ضاعت برقة . وفى ١٣ نوفمبر تراجعت رأس حربة جيش روميل المنسحب مسافة ٦٥٠ ميل ووصلت العناصر المتقدمة إلى موقع مرسى البريقة . والآن أصبح روميل مرة ثانية عند نقطة البداية التى تقدم منها مرتين فى تقدمه المنتصر إلى النيل .

فهل تصبح العقيلة ومرسى البريقة مرة أخرى نقطة تحول ؟ ولكن كانت الأمور فى هذه المرة مختلفة تماما . ففى شهر نوفمبر حدث حدثان مهمان فى إفريقيا أولهما فى يوم ٢٤ نوفمبر فى بلدة أركودى فلينى والثانى فى ٢٨ نوفمبر فى راستنبرج ، ففى ٢٤ نوفمبر عقد مؤتمر بين روميل وكسلرينج والمارشال الإيطالى باسيكو والمارشال كافاليرو فى بلدة أركودى فلينى وهى بوابة الصحراء التى تفصل برقة عن طرابلس وهى العلامة المعروفة لدى كل جندى ألمانى . وفى ظل النصب التذكارى (الذى أقيم ليكون فاتحة للنصر الفاشستى الإمبراطورى للاستعمار فى إفريقيا) تبادل المارشالات الألمان والإيطاليون الآراء . وقال الإيطاليون: إن أوامر موسولينى هى « يجب الاحتفاظ بموقع مرسى البريقة ويجب عمل الاستعدادات لشن هجوم جديد ضد الجيش الثامن فورا » .

إلا أن روميل كان من الصعب تحويله عن رأيه . فقد أوضح الموقف للإيطاليين وطلب الجلاء فورا عن طرابلس . وحاول كسلرينج عبثا أن يقوم بدور حمامة السلام . فقد يئس روميل من الحصول على النصر فى إفريقيا ووجد أنه وصل بقواته إلى موقع مرسى البريقة بمجهود شاق فقد واجه العقيد بايرلاين الذى

قاد الفيلق الإفريقى خلال هذه المرحلة صعوبات كثيرة فى اتخاذ قراراته . فهل يدافع عن منطقة معينة؟ أو أن الوقت ملائم للإفلات من حركة الكماشة البريطانية؟ وقد أوضح مونتجمرى فى مذكراته عن دهشته لنجاح قوات روميل المرة بعد المرة إلى اللحظة الأخيرة من الإفلات من بين فكى الكماشة . ومثال على مدى صعوبة تحمل المسئولية فى ذلك الوقت ، فقد هدد الفيلد مارشال مرة بمحاكمة بايرلاين عسكريا بالرغم من أنه أوثق المعاونين له لأنه لم يطع أمرا وتصرف من تلقاء نفسه . وكان روميل لا يرى إلا حلا واحدا معقولا وهو الانسحاب بأقصى سرعة ممكنة إلى طرابلس أو تونس لكى ينقذ جيشه عن طريق إجلائه إلى الأرض الأوربية .

وفى ٢٦ نوفمبر تلقى طيار روميل الأمر التالى : « طائرات النقل والطائرات المرافقة لها عليها الاستعداد للإقلاع من أركودى فلينى فى ليلة ٢٨ » . ويشير سجل عامل اللاسلكى الرقيب أول ريتشارد هاجن إلى أن الطيار جبس قد هبط عند أركودى فلينى بعد أن ألقت قاذفات القنابل البريطانية آخر قنابلها الحارقة ووصل روميل إلى هناك بعد ١٥ دقيقة . وطار الساعة ٢ر٥٠ صباحا إلى مركز قيادة هتلر فى وكر الذئب فى راستنبرج لأن روميل كان يريد مقابلة هتلر بدون إعلان سابق ليحصل منه على إذن بالجلاء عن إفريقيا وقبل أن يستقر رأيه على القيام بهذه الرحلة الجوية ناقش الأمر طويلا مع وستفال مع دراسة كل الاحتمالات والتوقعات.

فكان روميل يرى أهمية كبرى لإنقاذ أكبر عدد ممكن من أفراد الجيش للقيام بصراع آخر فى القارة الأوربية . وقال روميل باختصار للطيار قبل نزوله فى جورتاجلى بالقرب من ترونتو إنه لا يريد أن يرى أحدا . وقام الرقيب أول هاجن بإسدال الستائر على نوافذ الطائرة . وأثناء تزويد الطائرة بالوقود بقى روميل فى الطائرة جالسا وعيناه مغلقتان فهل كان نائما أم كان يستعرض الحجج التى سيعرضها أمام هتلر؟

أما ياوره برندت فأخذ يتصفح بعض الأعداد القديمة من جريدة الواحات وهى جريدة جيش البانزر .

وفى الساعة ٨ر١٥ صباحا هبطوا فى وينر نيوستارت وقام روميل بزيارة سريعة لزوجته وبعد أربع ساعات كان يجلس مرة أخرى فى طائرته . وفى الساعة ٥ر١٥ مساء هبطت طائرته فى المطار بجوار مقر قيادة هتلر . وركب سيارة من

سيارات القيادة نقلته خلال غابة البلوط فى بروسيا الشرقية إلى وكر الذئب . وحياه الحرس عند البوابة رقم ٢ ورفع الحاجز وسارت السيارة على الطريق الرئيسى ثم استدارت إلى اليسار إلى طريق جانبى ثم توقفت أمام إحدى الثكنات حيث يوجد مركز قيادة الفيلد مارشال كيتل رئيس هيئة الأركان العامة .

وفى محادثة استغرقت ما يقرب من الساعة قدم روميل فيها تقريره عن الموقف العسكرى فى شمال إفريقيا واقترح الجلاء عن إفريقيا . واستمع له كيتل فى صمت وكذا جودل رئيس الأركان للعمليات والماجور جنرال شمينت وقد بدا عليهم الاهتمام الشديد . وكان روميل تملؤه الثقة وهو يتخذ طريقه إلى مقر قيادة هتلر فقد دعى إلى الاجتماع الذى يعقده الفوهرر فى الساعة ٦ مساء ولم يكن هتلر فى انتظار روميل بمفرده لأن جورينج كان حاضرا . وسأل هتلر: « كيف تجرى الأمور فى إفريقيا؟ » فذكر له روميل الأسباب التى مكنت البريطانيين من اختراق خطوط العلمين . وقال: « إن لديهم معدات أكثر جودة ومدفعية أقوى ودبابات أكثر علاوة على السيادة الجوية » .

وأخذ روميل يشرح الأسباب التى من أجلها لم يستطع صد هجوم البريطانيين وكان أول ما قاله: « لم يعد لدينا وقود » فتدخل جورينج قائلا « ولكن مركباتك هربت بالمئات على طول الطريق الساحلى فهل كان لديها وقود لذلك ؟ » فنظر هتلر إلى روميل ولم ينطق بكلمة واحدة .

وقال روميل: « ولم تكن لدينا ذخائر » فقال جورينج: « وبالرغم من ذلك تركت ١٠ر٠٠٠ دانة مدفعية خلفك فى طبرق وبنى غازى » .

وارتفع الدم إلى وجه روميل . فهل يسأل هذا الدخيل كيف كان يمكنه أن يحمل هذه الذخائر؟ . وكيف كان يمكنه إحضارها إلى مواقع المدفعية ؟ وظل هتلر صامتا فهل رتب هتلر هذه المهزلة لتبادل الاتهامات من جورينج . وقال روميل: «كما أننا لم تكن لدينا أسلحة كافية » فسأل جورينج : « وما الذى حدث للأسلحة ؟» ثم توقف لبرهة وجيزة وبطريقة مسرحية ثم تابع كلامه بصوت مرتفع : «إن الأسلحة تركت أثناء فرارك » وهنا فقط كما لو كان الأمر معدا لتبادل الحوار . فتدخل هتلر قائلاً : « ولكن أى فرد يلقى بسلاحه يستحق أن يترك ليتعفن » . فقفز روميل من مقعده وقد امتقع وجهه وصاح: « يا زعيمى ... » إلا أن هتلر ضرب بقبضته على المنضدة وكرر قوله: « إن أى فرد يلقى بسلاحه ولا يحافظ عليه ليدافع

به عن نفسه يجب أن يترك ليتعفن » .

٦ - عمليـة المشعل :

وكان شبح ستالينجراد جاثماً فى تلك اللحظة فى الحجرة . وهى المدينة التى حوصرت منذ عشرة أيام قبل هذا الاجتماع أى فى ١٩ نوفمبر . وهى المدينة التى أقسم هتلر على الاحتفاظ بها مخالفا بذلك منطق العقل . والآن يطلب منه روميل الانسحاب من إفريقيا !!! وصاح هتلر: « أبدا » واستدار إلى كيتل وسأله : «ما هى كمية الأسلحة التى لدينا فى نابولى» فأجاب كيتل : « ستة آلاف بندقية موجودة هناك جاهزة للنقل يا زعيمى » وقال هتلر : « أرسلها كلها على الفور » إلا أن روميل لم يكن مقتنعا بوعد ستة آلاف بندقية وقال : « وماذا تجدى هذه البنادق يا زعيمى ؟» وبعد ذلك بالرغم من لهجة هتلر التهديدية قام بشرح وجهة نظره بالنسبة لشمال إفريقيا بعد نزول الحلفاء فى مراكش والجزائر ولذلك أصبح لا يمكن الاحتفاظ بها وقال متوسلا: « دعنى أسحب جيش البانزر المدرع إلى إيطاليا حتى يمكنه الدفاع عن القارة ضد غزو آيزنهاور المنتظر » .

إلا أن هتلر أجاب: « أنا لا أريد أن أسمع منك بعد ذلك هذا الكلام الفارغ فى هذا الموضوع ... يجب الدفاع عن شمال إفريقيا كما ندافع عن ستالينجراد . يجب هزيمة آيزنهاور وجيشه على الباب الأمامى لإيطاليا وليس فى ردهتها فى صقلية » وكان هذا يبدو سليما ولكن لو كانت القوات كافية والمدرعات والطائرات أرسلت إلى أفريقيا . إلا أنه خلال الـ ٢٠ شهرا الماضية لم يرسل إلى إفريقيا ما يكفى للتغلب على جيش واحد والآن يطلبون التغلب على جيشين ، فلقد ظلوا لمدة سنتين فى راستنبرج رغم التحذيرات ينظرون إلى الحرب فى شمال إفريقيا على أنها إحدى حروب المستعمرات وليست مسرحا حربيا يمكن أن تتخذ فيه قرارات تؤثر فى كل أوربا .

وحاول روميل أن يتابع كلامه إلا أن هتلر أسكته بقوله: « إن شمال إفريقيا يجب الدفاع عنه ولن ننسحب من هناك . إن هذا أمر أيها الفيلد مارشال » .

« إن هذا أمر أيها الفيلد مارشال » نعم ، فأودولف هتلر يعرف سحر هذه الكلمات ، يعرف كيف يعامل قادته . « إن هذا أمر » وطبقا للتقاليد البروسية اضطر روميل إلى إطاعة الأمر بلا مناقشة . ومنذ هذه اللحظة تحطمت آماله فى الفوهرر وتحطم معها نجمه كمحارب . فلقد كان منهكا وسافر فى قطار جورينج الخاص إلى

روما . وقد أراد مارشال الرايخ أن يناقش المسألة شخصيا مع موسوليني وكسلرينج والقيادة الإيطالية العليا ولذلك قال وهو يبتسم: « حتى نضمن الاستمرار في الدفاع عن إفريقيا » وبعد محادثات غير مجدية كثرت فيها الوعود ولم ينفذ منها شيء ، طار روميل عائدا إلى جيشه الذي يحتل موقعا في مرسى البريقة . فهناك عند علامة الطريق الحجرية في منطقة العقيلة بدأت الحرب بالنسبة للفيلق الإفريقي منذ عشرين شهرا وقد ظهر في ذلك الوقت بوادر النصر من هناك. وهناك توقفوا بعد هزيمتهم في نوفمبر ١٩٤١ ومن هناك مرة أخرى قامت قواته في يناير ١٩٤٢ بشق طريقها إلى الإسكندرية . أما الآن فقد قذف بهم إلى هذه البقعة المميتة على حدود برقة . فهل تصبح علامة الطريق الحجرية للمرة الثانية نقطة تحول للوثوب لهجوم منتصر اتجاه مصر؟ (انظر اللوحة رقم ١٨).

وكانت قوات روميل تأمل في ذلك . ولكن بينما كانت مجموعة القتال هيدى تقاتل في النصف الشرقي من الصحراء الليبية ضد مقدمة جيش مونتجمري الثامن وتحتل الخط الأمامي لموقع البريقة اندلعت حرب أخرى في شمال إفريقيا في مؤخرتهم في تونس . ففي الساعات الأولى من صباح يوم ٨ نوفمبر ظهر الجنرال آيزنهاور الذي لم يسمع اسمه من قبل ومعه أسطول غزو قوى عند الدار البيضاء ووهران والجزائر . وقام بإنزال جنوده بسلام ، وقد أرسل جزء منه من إنجلترا والجزء الآخر من الولايات المتحدة رأسا . وكان تشرشل وروزفلت قد أطلقا على هذا العمل الجرىء اسم « عملية المشعل » فهل قلت : عمل جرىء ؟ بل كان يجب أن أقول: عمل فيه مغامرة ، لأن مراكش والجزائر وتونس كانت لا تزال تحت السيطرة الفرنسية . وكانت فرنسا قد وقعت هدنة مع ألمانيا ولم تعد تعتبر نفسها في حالة حرب معها .

وكان المارشال بيتان رئيس الدولة الفرنسية ولافال رئيس وزرائه يتعاونان مع الألمان وثمنا لهذا التعاون تعهد هتلر بترك مستعمرات فرنسا في شمال إفريقيا بدون أن تمس . وكانت القوات الفرنسية تحتل هذه البلاد .

وقام عملاء بريطانيا وأمريكا في الجزائر بالإعداد الجيد لعملية الغزو . وكان القائد الفرنسي العسكري في الجزائر الجنرال جوان وقد أطلق سراحه من الأسر الألماني كمحاولة لإرضاء بيتان . وقد أمكن كسبه إلى صف الحلفاء . وكان الجنرال

مستعداً لمخالفة أوامر رئيس الدولة والانضمام إلى جنود آيزنهاور ولكن حيث إن الخطط المعدة بدقة قد تفشل أحيانا . فقد تسبب حادث صغير فى فشل هذه الخطة . ففى يوم الغزو كان الأدميرال درالان قائد الأسطول الفرنسى موجودا فى الجزائر . فكان يزور ابنه المصاب بالشلل . فهذه المأساة الشخصية كانت نقطة البداية لدرامة سياسية أدت إلى تطورات بالغة الأهمية .

فأدى وجود درالان بمحض الصدفة هناك إلى أن أصبح قائداً عاما بدلا من جوان ولذلك فزعت لندن وواشنطن لأن درالان يميل إلى الألمان ويكره الإنجليز والأمريكان . وهكذا حدث أسوأ ما كانت تخشاه كل من لندن وواشنطن . فقد أمر درالان بالمقاومة المسلحة ضد الغزو . وعندما حاول الجنرال جوان استمالة الضباط إلى صفه لم يتبعه إلا حفنة قليلة وأطلقت الغالبية النيران على قوات آيزنهاور . وبدلا من الاستقبال الودى (الذى من أجله أحضر آلاى أمريكى فرقته الموسيقية)، فقد أغرقت مدمرتان بريطانيتان فى ميناء الجزائر أما فى وهران فقد قضى على إحدى الكتائب المهاجمة التابعة للفرقة الأمريكية الأولى المدرعة بواسطة مشاة البحرية الفرنسية وغرقت مدمرتان هناك أيضا استقرتا فى قاع البحر وعليهما جميع البحارة . وبعد معركة استمرت ٢٤ ساعة أمكن تحطيم المقاومة الفرنسية .

٧ - الخداع السياسى :

أما فى الدار البيضاء فكان الأمر أسوأ بالنسبة لآيزنهاور . فهناك أيضا كسب رجال المخابرات البريطانية القائد الفرنسى المحلى بيتورا لصفهم ومرة أخرى لم تسر الأمور فى يسر ، فقد أصر الجنرال «نوجيه» المندوب السامى على ولائه لبيتان. فقبض على بيتورا وأصدر أوامره بالمقاومة . وكان على القوات البحرية الأمريكية إغراق سبع بواخر فرنسية قبل أن تستطيع قوات الاقتحام النزول إلى الشاطئ . ولقى ألف فرنسى حتفهم إلا أن الجنرال «نوجيه» واصل المقاومة . وتوقع المتشائمون فى لندن حدوث كارثة ، فقد كانوا يخشون أن أعداد القتلى فى الدار البيضاء ووهران والجزائر قد تمهد الطريق لإيجاد مبررات لإجراء تحالف بين كل من فرنسا وألمانيا. وكان كل شىء معلقا بخط رفيع إلا أن مناورة سياسية ناجحة أنهت الأزمة فالأدميرال درالان الرجل الخطير الذى سبب اضطرابا لروزفلت وتشرشل بالنسبة لجدول الغزو الزمنى قد أصبح غير خطر ، وأكثر من ذلك فقد أمكن إقصاؤه من على مسرح الأحداث .

فكان تشرشل يعلم دائماً مدى خطورة الأدميرال وكراهيته للبريطانيين . وقبل الغزو بقليل شرح لآيزنهاور المزايا العظيمة التى يمكن تحقيقها من كسب ولاء درالان إلى جانب الحلفاء . ولم ينتظر تشرشل طويلا ليتحقق ذلك .

فقد أمضى الأدميرال درالان عصر اليوم كله ونصف الليل من ٨ نوفمبر فى مشاورات ومؤتمرات ، ثم قام بزيارة ابنه المريض . وكان درالان مسترخيًا على أريكة متعبا عندما أيقظه جرس التليفون . وسمع على الجانب الآخر أحد الضباط يطلب منه أن يتوجه حالا لمقابلة الجنرال جوان وكانت المكالمة مستعجلة جدا لأنها تخص أمرا وطنيا مهما .

وتوجه درالان وهو متعب ودون أن يأخذ حذره لمقابلة جوان وكان القنصل الأمريكى فى الجزائر فى ذلك الوقت هو روبرت ميرفى قد اختمرت فى رأسه فكرة عبقرية بإحضار الأدميرال إلى الجنرال ثم إلقاء القبض عليه . وقد نجحت الخطة .

أما ما حدث حقيقة فى تلك الليلة فلم يدون أبداً فى السجلات بصفة رسمية وفى مذكرات تشرشل يمكن للإنسان أن يقرأ أن درالان عندما تحقق من وقوعه فى الفخ استدار إلى ميرفى وقد احمر وجهه وقال: « لقد كنت أعلم منذ زمن طويل أن البريطانيين أغبياء ولكنى كنت أعتقد أن الأمريكان أكثر ذكاء » .

ففى نفس الليلة صدرت أوامر موقعة من الأدميرال درالان تتضمن توقف المقاومة الفرنسية . وبالطبع وصلت هذه الأوامر إلى مسامع هتلر ولذلك دهش لهذا التصرف ولم يكن يعرف الظروف التى أحاطت بها . فقد رجح ذلك إلى الخيانة من جانب درالان بل إن شكوكه حامت حول المارشال العجوز بيتان نفسه وفى ثورة غضبه أمر هتلر باحتلال الأجزاء التى لم يسبق احتلالها من فرنسا وهى المنطقة التى تسيطر عليها الحكومة التابعة لفيشى ، وكان هذا القرار جنونيا لأن هذا جعل المارشال بيتان يظهر أمام العالم كله كرئيس دولة خائن لأنه يحكم بلادا محتلة . ولكنه رجل عجوز متهدم سجين يعمل تحت تهديد الحراب الألمانية .

ولسوء الحظ فقد أرغم هتلر بيتان كذلك على إعلان حكم بالإعدام على الخائن درالان وقد أدى هذا بالإضافة إلى المشاكل الشخصية التى حلت بالأدميرال المذهول إلى مواصلة الحلفاء الضغط عليه للانضمام إلى جانبهم .

وبعد مناقشة الأمر مع ميرفى شخصيا . سارع آيزنهاور بنفسه لكى يرى «الشرير الكريه » كما دعى تشرشل الأدميرال درالان قبل ذلك بأسابيع قليلة ،

وبذلك أصبح القائد الأعلى للقوات الفرنسية متحالفا مع آيزنهاور . وكانت ضربة موفقة من جانب السياسة الأنجلوسكسونية . وأصبح الرجل الذى أطلق عليه الأمريكان والإنجليز فى الصحافة منذ أيام قليلة بأنه خائن وفاشست وأنه رجل عصابات أسود القلب أصبح يساوى أكثر من قوة جيش بالنسبة لآيزنهاور.

وقد لعب الأدميرال دوره المحزن بإخلاص إلا أنه قتل فى ظروف غامضة ليلة عيد الميلاد . وفى بحر ٤٨ ساعة حوكم قاتله بواسطة محكمة عسكرية وأعدم رميا بالرصاص وكتب تشرشل عن ذلك فى مذكراته قائلاً : « إن مقتل دالان رغم ما فيه من إجرام قد أعفى الحلفاء من حرج العمل معه . وفى نفس الوقت تركهم من كل المزايا التى أمكنه أن يسبغها عليهم خلال الساعات الحاسمة لنزول الحلفاء إلى إفريقيا ».

والآن حدث ما لم يمكن تصديقه فقد وقف الآن جيش بريطانى فى مؤخرة روميل .

وعلى العكس من موسولينى ، لم يتوقع هتلر هذا الإنزال فى شمال إفريقيا ولم يتخذ أية إجراءات لمنعه . وفى صباح ٨ نوفمبر كان جورينج لا يزال يعتقد أن هدف أسطول غزو الحلفاء هو جنوب فرنسا وقال: « دعهم يأتون » وقد جاءوا ولكن ليس إلى المكان المتوقع . واستمرت أسلاك التليفون مشغولة بين برلين وراستنبرج وكسلرينج فى روما .

وسأله هتلر: « ما الذى تستطيع أن ترسله إلى تونس من القوات البرية يا كسلرينج ؟ » وأجابه القائد العام للجنوب بلهجة قاطعة : « حفنة من رجال المظلات وسرية القيادة التابعة لى » فقال هتلر متوسلاً: « أرسل كل ما تستطيع أن ترسله » .

الفصل الرابع عشر

السباق من أجل تونس

الفصل الرابع عشر

السباق من أجل تونس

١ - معركة فردان التونسية :

فى ١١ نوفمبر ظهر نشاط كبير فى مطار نابولى وترابانى الإيطاليين لم يشاهد منذ مدة طويلة . فقد حلقت ٤٩ طائرة يونكرز ٥٢ بحمولات ثمينة فقد أمر كسلرينج بنقل الآلاى ٥ مظلات تحت قيادة المقدم كوش إلى تونس لإنشاء رأس جسر هناك لمنع سقوط مدينة تونس (وكان بها ٢٢٠ ألف نسمة) وميناءها المهم من الوقوع فى أيدى الحلفاء .

وكانوا مجموعة من الشباب البواسل أولئك الذين عبروا البحر إلى إفريقيا على متن طائرات يونكرز العتيقة . ولم يتجاوز متوسط أعمارهم ٢٠ عاما وكان أكثر ضباط الصف خبرة لا يزيد سنه عن ٢١ سنة . أما الضباط فكانوا من المجربين الذين سبق لهم الاشتراك فى المعارك . وكان الآلاى كوش مشكلا من الآلاى مندل مظلات المشهور والذى خاض معارك لييج وكريت . وبعد إعادة تشكيل الآلاى فى جرو سبورن نقل إلى فرنسا لتدريبه على عملية غزو مالطة إلا أن هذه العملية لم يقدر لها أن تتم .

وفى تونس هبطت الطائرات الواحدة تلو الأخرى كما لو كان الأمر فى مطار تمبلهوف وكان فى استطاعة المظليين أن يتخلصوا من مظلاتهم فى هذه المرة لأن كسلرينج واثنين من الدبلوماسيين المجربين فى وزارة الخارجية الألمانية وهما السفير رودلف راهن والقنصل العام فردريك مولههوزن قررا الانتقام لنفسيهما من القنصل الأمريكى ميرفى الذى قام بمؤامرة درالان . فقد أرسل راهن إلى شمال إفريقيا عن طريق وزارة الخارجية فى برلين كممثل دبلوماسى لدى تونس . وحيث إنه خبير بالمشاكل الفرنسية فكان عليه أن يقوم بمهمة رجل السياسة الحاذق .

وقد نجح راهن فى حمل المقيم العام الفرنسى وهو الأدميرال أستيف على المحافظة على الحياد التام .

وطبقاً للأوامر الصادرة من العقيد هارلنجهوزن قائد القوات الجوية فى تونس تم احتلال مطار العوينة فى ٩ نوفمبر . وهبط هارلنجهوزن قائد القوات الجوية فى المطار فى منتصف النهار بطائرة من طراز هينكل ٣ تحرسها طائرتان مسز شميت ١٠٩ . وبعد لحظات قلائل هبطت ثلاث طائرات فوك ولف كوندور . وفى الساعة ١٠ر٥٥ صباحا نزلت على مهبط المطار بضع طائرات يونكرز تحمل الرجال الفنيين (التابعين لسرب القتال رقم ٥٣) والوقود والزيوت والمدافع الخفيفة المضادة للطائرات وأطقمها . ومن بين هؤلاء كانت توجد وحدة النقل (ك ج ١٠٥) التى سحبت من روسيا .

وكان الفرنسيون فى خنادقهم حول المطار إلا أنهم لم يطلقوا النيران . وبعد محادثات استغرقت ساعة مع راهن أعطى الأدميرال أستيف الأوامر قرب منتصف الليل بعدم اعتبار القوات الألمانية قوات معادية . وعلى ذلك سحب الجنرال بارى قائد الفرقة الفرنسية جنوده من المطار وتمكن بعد ذلك المظليون التابعون لكوش من الهبوط فى مطار العوينة فى بحر ٢٤ ساعة وكما لو كانوا فى مناورة ، ثم ساروا فى طوابير مواجهتها أربعة جنود خلال شوارع تونس إلى ثكنات المارشال فوش الشهيرة. فقد وصل الألمان ، وكانوا آلاى واحداً للدفاع عن مدينة بها ٢٢٠ ألف فرد ولكن الآلاى كان عظيما ، كما سنرى قريبا .

وتقدم الجيش البريطانى الأول تحت قيادة الجنرال كينث أندرسون من الغرب كما قامت المجموعة « ب » التابعة للفرقة الأولى المدرعة الأمريكية تحت قيادة الجنرال روبينت بالتقدم إلى تونس . واعتبر الجنرال آيزنهاور أن الاستيلاء على المدينة محقق بعد عدة أيام فقط .

ومن سوء الطالع للأمريكان أن سقط المطر ، وأصبحت الطرق موحلة وحتى يوم ١٥ نوفمبر لم يحتل الجيش الألمانى تونس ، إلا أن القيادة الألمانية العليا أرسلت أحد الجنرالات على الأقل وهو الجنرال نهرنج الخبير والمتخصص فى حرب الصحراء (بعد أن شفى بعض الشيء من جرحه) ليجهز المواقع فى مرسى البريقة ، ولكنه أرسل بدلا من ذلك إلى تونس . وتولى القيادة فى تونس كقائد للفيلق ٩٠ وفى الحقيقة كانت قوة الفيلق عبارة عن فرقة واحدة فقط وبالإضافة إلى آلاى كوش وكتيبة الرائد وتيزنج من المهندسين المظليين التى أرسلت بمنتهى السرعة إلى ميناء بنزرت .

وأخيراً أضيف إلى قوات نهرنج سرية استطلاع تحت قيادة الملازم هامرليل وبطارية مدافع مضادة للطائرات عيار ٨٨مم من الفرقة المضادة للطائرات . ولم تكن هناك خدمة طبية بل مجرد طبيب واحد فقط ، ولا مركبات سوى بعض سيارات التاكسى التونسية . وكانت قيادة هذا الفيلق المشهور تتكون من الجنرال وياوره وكان من المفروض أن يكون رئيس أركان الفيلق هو العقيد الكفء بومتو ولكنه كان لا يزال يعمل مع الفرقة الثالثة المدرعة فى القوقاز كرئيس للعمليات وحالت العواصف الثلجية دون تحليق طائرته . وكان من الواضح أن القيادة الألمانية العليا ليس لديها رئيس أركان حرب آخر للفيلق الضعيف رقم ٩٠ . وعلى كل فإن هذا التشكيل الواهى قام بأعمال عسكرية عظيمة .

فقدموا مثالاً رائعا للشجاعة وشدة البأس وفن الابتكار فى استغلال الموقف رغم قلة معداتهم .

وكان الإنزال الأول الألمانى فى بنزرت يتسم أيضا بالخداع . فالكتيبة ١٦ مشاة التى كانت ستنقل من ليباخ عن طريق أثينا إلى روميل قد حولت بسرعة إلى روما . وهناك أعيد تشكيلها تحت اسم كتيبة تونس الميدانية الأولى .

وهبطت السرية الأولى بقيادة الملازم ورنر رودلف مدعمة بقول أهرندت من مهندسى المظلات فى مطار بنزرت فى ١١ نوفمبر . وقد دهش ولف عندما وجد طائرة يونكرز هناك . فقد تركت هذه الطائرة التشكيل أثناء الطيران ومعها جماعتان من قول أهرندت لاحتلال مطار بنزرت قبل وصول السرية .

وبعد انتهاء الحرب انتقد المعلقون الإنجليز والأمريكان الحلفاء لعدم محاولتهم النزول فى بنزرت ، ومن المؤكد أن قوات غزو آيزنهاور كان يمكنها النزول كما فعل الألمان بدون قتال عنيف . فهذا الميناء الاستراتيجى الحيوى يعتبر المدينة الثالثة فى تونس وكان محتلا بمشاة الأسطول التابعين للأدميرال درالان وكان عددهم ١٤ ألفا. وكان درالان من رجال فيشى المخلصين . وكان من الصعب إبقاء بطاريات الحصن من عيار ٣٠ سم صامتة فى وجه أية محاولة للغزو من جانب الأنجلو أمريكان ولذلك فآيزنهاور لم يكن مخطئا كثيرا فى رفضه الاستيلاء على بنزرت من البحر . فكان يريد احتلالها عن طريق البر ، ولكن حدثت هناك غلطة ، فكان يجب عليه أن يكون أكثر سرعة . وتلقى قائد الجيش البريطانى الأول الجنرال أندرسون الأوامر باحتلال المدينة بقوات نزلت فى الجزائر إلا أن الجنرال نهرنج أحبط

هذه الخطة بواسطة قوات المظلات . وأطاع الأدميرال درالان أوامر فيشى بعدم مقاومة القوات الألمانية . وقامت كتيبة المهندسين المحمولين بالجو تحت قيادة الرائد وتيزنج باحتلال مواقع دفاعية على الفور على طول طريق (مطير الأبيض) ثم تقدموا اتجاه الغرب ووصلوا إلى القطاع(شرقى مطير الأبيض) وسدوا الطريق أمام المقدمة القوية للفرقة ٧٨ المشاة البريطانية . وقد دهش البريطانيون جدا لمقابلة الشياطين الخضر القادمين من كريت ، حيث أخذوا يطلقون مدفعين إيطاليين بدون انقطاع على عربات الاستطلاع البريطانية حتى أجبروها على التراجع .

إلا أن الجنرال أندرسون قرر أن يحصل على معلومات أكثر عن موقف الألمان فتقدم بقوات مدرعة قوية واصطدم بقوات وتيزنج التى كانت تعمل كحرس للمؤخرة وقاتلها قتالا رائعا . ثم توقف عند نفق جفنة وصد كل هجمات العدو . وحتى يناير ١٩٤٣ لم يتقدم البريطانيون ياردة واحدة عن تلك النقطة . وأصبحت المعركة من أجل نفق جفنة وكأنها معركة فردان التونسية ، على مقياس صغير .

وحصلت الكتيبة التونسية الألمانية - التى حلت محل المظليين وقاتلت قتالا عنيفا على الحدود - على أوسمة الصليب الحديدى .

٢ - المدينة البيضاء :

وفى فجر يوم ١٧ نوفمبر ١٩٤٢ ، وقف الرقيب رودلف بوهن ومعه رجال الدراجات البخارية المدعمة يرتجفون من البرد تحت المطر الغزير فى مطار تونس وكان رجال المظلات لديهم معداتهم وكل أسلحتهم اللازمة للقيام بمهمتهم خلف خطوط العدو . وأخذوا دراجاتهم البخارية معهم . وبالطبع لم يعلم أحد منهم شيئاً عن المهمة بالتحديد إلا أن الشائعات انتشرت بين الصفوف . وبعد تعليمات القائد الثانى الملازم كيمبا كان من الواضح أن مهمتهم هى الاستيلاء على مطار قابس بواسطة إغارة مفاجئة بالجنود المحمولة بالجو .

وكانت قابس منطقة استراتيجية مهمة أختيرت للربط بين رأس الجسر فى تونس وبين جيش روميل ، فلو وصل الأمريكيون أو البريطانيون إليها من قطاع بوجيه فى الجزائر فستعزل الهضبة التونسية ويتم قطع خط الرجعة ويمكنهم سد الطريق أمام جيش روميل البانزر الذى كان لا يزال على بعد ألف ميل باستغلالهم للتحصينات الفرنسية فى خط مارث . وفى نفس الوقت تستطيع قوات الحلفاء الرئيسية اكتساح تونس ، ثم تستعد لغزو صقلية ولذا فقابس يجب احتلالها بواسطة

الألمان لمنع مثل هذا الموقف وكانت محتلة فى ذلك الوقت بوحدات فرنسية تحت قيادة الجنرال بارى . ولا يعلم أحد فى أى جانب يقف الجنرال بارى وقامت قواته بسد الطريق فى أماكن متعددة أمام قوات الاستطلاع الألمانية وأخذتهم أسرى وأرسلتهم إلى المؤخرة مجردين من السلاح . فهل كان الجنرال متحالفا مع آيزنهاور؟؟

وركبت جماعة الملازم كيمبا البالغ عددها ٥٠ رجلاً فى ١٢ طائرة يونكرز ومعهم سرية ٣ حرس التابعة للقائد العام فى الجنوب وتقدمت اتجاه قابس ، هذه المدينة البيضاء واستدارت الطائرة الأولى نحو المدينة . ولمعت مواسير المدافع والطلقات الكاشفة . فما معنى هذا ؟ وكانت النيران تصدر من مدافع رشاشة مركبة على عربات مدرعة . فكان الفرنسيون يطلقون نيرانهم على الألمان من عربات استطلاعهم التى تحمى المطار . وأصيبت طائرتان يونكرز . وأصدر الملازم سلاج (قائد سرية الحرس الذى كان موجوداً فى الطائرة الثالثة) أوامره عن طريق اللاسلكى بعدم النزول وارتفعت الطائرات واستدارت وعادت إلى تونس . ونتيجة لإطلاق النيران ومنع هبوط الطائرات تفرق التشكيل ولكن تجمعت ست طائرات مرة ثانية وكانت تحمل رجال المظلات التابعين لكيمبا والنقيب جراند قائد محطة قابس الجوية المنتظر . وانضمت إليهم طائرة سابعة كانت فى طريقها إلى طرابلس تحمل إسطوانات أكسجين . وعلى بعد ٢٥ ميلاً غربى طريق (صفاقس – قابس) لاحظ قائد التشكيل مطارا ملائما للنزول فأصدر الملازم كيمبا أمره لجميع الطائرات عن طريق اللاسلكى بالهبوط وسارت الأمور على ما يرام إلا طائرة واحدة تحطمت عجلاتها عند الهبوط . فما العمل الآن؟ هل يركبون دراجاتهم البخارية ويقومون بمهاجمة الفرنسيين فى قابس؟ ولكن الملازم كيمبا قرر اتباع الطريق الأصوب فى مثل هذه الظروف ، فأرسل جماعة استطلاع لاستكشاف الموقع ثم أصدر أوامره «يجب الاستيلاء على مطار قابس بغارة سريعة . ويجب أن توجه الجنود المحمولة بالجو والتى ستصل غدا إلى أماكن الهبوط بواسطة طلقات إشارة بيضاء ثم خضراء ثم بيضاء» .

وانطلقت جماعة الاستطلاع والتقت خارج المدينة بعربة استطلاع فرنسية وبصعوبة بالغة وعن طريق الاختفاء مع قافلة جمال تمكن رجال المظلات من تجنب الأسر واضطروا أن يعسكروا فى أحد المنخفضات بدون دراجاتهم البخارية وهم فى حالة نفسية سيئة .

٣ - الخدعة الألمانية : (انظر اللوحة رقم ١٨)

وفى صباح ١٨ نوفمبر حوالى الساعة العاشرة . حلقت فوقهم الطائرات اليونكرز التى تحمل الجنود متجهة إلى قابس . ولوح الرجال من الأرض بأيديهم إلا أن زملاءهم فى الجو ظنوا أنهم يحيونهم ، وببساطة هزوا أجنحة الطائرات لتحيتهم. وتوقع الجميع حدوث كارثة ، إلا أن شيئا غريبا حدث . فمن خلف مجموعة النخيل فى اتجاه قابس ارتفعت مشاعل بيضاء ثم خضراء ثم بيضاء إلى عنان السماء واستعدت الطائرات للهبوط .

وبسرعة فائقة اندفع رجال جماعة الاستطلاع الستة إلى قرية عربية مجاورة واستولوا على عربتين تجرهما الحمير وتوجهوا إلى قابس . وفى المطار التقوا بجميع أفراد الدورية وكانت روحهم المعنوية عالية . وكان بطل ذلك اليوم هو العريف بيدر.

فما الذى حدث؟ فالحظ لعب دورا كبيرا فى ذلك . فعندما لم تعد جماعة الاستطلاع الأولى قام الملازم كيمبا طبقا للتعليمات العسكرية بإرسال دورية ثانية إلا أن هؤلاء الرجال السبعة بقيادة العريف بيدر اصطدموا بدورية فرنسية ولم يستطيعوا الفرار مثل زملائهم . فقد أسروا وأخذوا إلى قابس وهناك تم استجوابهم بواسطة القائد الفرنسى وسألهم : « ما هى مهمتكم؟ » واتبع العريف سلوكا حازما وقال « إن لديه أوامر إن لم يتم استسلام المطار فسيتعرض فى صباح الغد إلى غارة من طائرات ستوكا . فذعر القائد الفرنسى وقال: « حسنا سوف نرى، وإذا لم تصل الطائرات فى الصباح سوف أقوم بإعدامكم » . وسجن الرجال السبعة فى كوخ مصنوع من الصاج المعرج وعين لهم الحرس اللازم ، وأمضى بيدر وزملاؤه ليلة قلقة وغير مريحة .

وفى صباح اليوم التالى أمر القائد الفرنسى بإحضار الرجال السبعة من غرفة السجن لاستجوابهم مرة أخرى إلا أنه فى هذه اللحظة اقتربت طائرات اليونكرز ومعها مقاتلات الحراسة فقام الرائد الفرنسى بجمع قواته بكل سرعة وهرب . وترك العريف بيدر ورجاله الستة لشأنهم واستطاع العريف بذلك إطلاق مشاعله البيضاء ثم الخضراء ثم البيضاء التى دلت على أن المطار خال من قوات العدو . وهكذا استولى الألمان على المنطقة الحيوية فى خطوط المواصلات مع جيش روميل ولكن لم يكن ذلك نهائيا . فبعد ثلاثة أيام ظهرت الدبابات الأمريكية عند قابس لأن هيئة

أركان حرب آيزنهاور أدركت أهمية هذا الموقع ولكن بعد فوات الأوان .

واستقبل جنود المظلات الألمان القوات الأمريكية بالنيران الكثيفة حتى يظهروا وكأنهم آلاى كاملا ، مما أدى إلى توقف المقدمة الأمريكية لمدة سمحت بإحضار كتيبتين من فرقة سوبيرجا الإيطالية على وجه السرعة فحلوا محل رجال كوش فى الدفاع عن قابس .

وجميع الألمان الذين خدموا فى تونس يعرفون اسم برنثين لأن آلاى المظلات برنثين كان العمود الفقرى للدفاع المبكر خلال الأسابيع الأولى من نوفمبر. فآلاى برنثين المسمى باسم قائده ولتر برنثين قائد مهندسى الفيلق قد تم تشكيله بسرعة من عناصر مختلفة من فيلق المظليين للحرب التونسية . وكان الآلاى مجهزا بوسائل النقل الميكانيكية وبالمدافع المضادة للدبابات من عيار ٥٠ مم والرشاشات المضادة للطائرات . وفى ٢٠ نوفمبر وصلت أولى البواخر إلى بنزرت من رئاسة الآلاى وقول من راكبى الدراجات البخارية وقول المهندسين والمخابرات والخدمة الطبية . وقامت رئاسة الآلاى على الفور ومعها الكتيبة الثالثة بالتقدم فى قطاع الماطور وأنشأ المقدم برنثين قيادة مجموعة قتال الماطور بالقرب من الباب الخلفى للقلعة البحرية . وكانت لهذه النقطة الصغيرة بالإضافة إلى بلدة تيبوريا أهمية كبرى بالنسبة لمدينة وميناء تونس .

وكان الموقف فى الماطور أقل تأزما . ففى البلدة الصغيرة كانت توجد كتيبتان إيطاليتان من المشاة وبطارية مدفعية إيطالية إلا أن فائدتهما كانت قليلة فأمر برنثين على الفور بتجهيز مواقع دفاعية على المرتفعات خارج المدينة . وكانت كتيبة وتيزنج تحمى جناحه الأيمن ، أما المشاة المحملة والمهندسون فكانوا يحمون جناحه الأيسر مع العمل كحلقة اتصال مع آلاى كوش ، وبهذه الطريقة أمكن احتلال جبهة دفاعية رقيقة حول بنزرت وتونس فى منطقة (جفنة – الماطور – تيبوريا – المسخوطة) وكانت المواقع مجهزة تماما عندما بدأت المعركة.

ففى ٢٦ نوفمبر قام اللواء ٣٦ البريطانى بالهجوم وقد تم اكتساح الإيطاليين الذين رفعوا أيديهم مستسلمين . ولكن برنثين قام رغم ذلك بعمل رائع بأن استخدم مدافعه المضادة للدبابات مما أجبر البريطانيين على أن يكونوا أكثر حذرا .

ولكنه كان يتساءل : متى يقومون بهجومهم الشامل ؟ فكتيبة واحدة لا يمكنها صد لواء بأكمله . فلو هاجم البريطانيون فبنزرت تعتبر منتهية . فهل يقوم

البريطانيون بهجومهم قبل أن يستطيع برنثين إحضار باقى الآلاى؟ ولكن البريطانيين لم يحضروا وقد قص على المقدم برنثين بنفسه القصة المثيرة: « فى يوم ٢٨ نوفمبر دهشنا عندما شاهدنا البريطانيين يقومون بإنشاء التحصينات . وكانوا يقومون بهذا العمل بشكل ظاهر . وفى هذه اللحظة زارنى عمدة الماطور فى مقر قيادتى وقال بكل فخر : لن يقوم البريطانيون بالهجوم. فسألته : ولماذا لا يقومون بالهجوم ؟ فقال العمدة : لقد أرسلت أحد مشايخى إليهم ليخبرهم بأن آلاى كاملا قويا من رجال المظلات قد حضر من كريت ومعه أسلحته الثقيلة وقد تحصن حول الماطور وهذا منع البريطانيين من القيام بالهجوم » .

٤ - مساعدة العرب للألمان فى تونس :

ولا عجب فى أن يحاول العرب مساعدة الألمان وخداع البريطانيين . فقد قام برنثين بناء على أوامر القائد العام بإنشاء صداقات قوية مع السكان العرب وكانت النتيجة أنه سرعان ما كان لديه عدد كبير من العرب المتطوعين لكل سرية وكانوا يعملون كجنود ومراسلات ويقومون بأعمال كثيرة أخرى ومهام خاصة خلف خطوط العدو . وبهذا الشكل قدموا خدمات جليلة وقاموا بعمل اتصالات بشيوخ القبائل وكانت هذه سياسة ناجحة . وقد أتت ثمارها على طول الجبهة التونسية . فخلال الحملة كلها لم يحدث عمل تخريبى واحد بواسطة العرب ضد الألمان ، وهذا عمل ملحوظ جدا . وعندما واصل الجنرال أندرسون هجومه على مواقع برنثين فى ٢٨ نوفمبر كانت الكتيبتان ١ ، ٢ قد وصلتا وبذلك أصبح هناك آلاى كاملا من «الشياطين الخضر» وبذلك تمكنوا من صد اللواء البريطانى .

ورغم أن الأمور سارت سيرا حسنا عند الماطور إلا أنها سارت سيرا سيئا عند جناحه الأيسر فى قطاع «مجاز الباب» ، فقد تقدم رجال المظلات التابعون لكوش بعيدا عن تيبوريا إلى «مجاز الباب» . وهناك اصطدموا بقوات فرنسية تحت قيادة الجنرال بارى فعرقلت تقدمهم وقتل بعد جنود الاستطلاع الألمان وأخذ البعض أسرى . وأمر كسلرينج بالتفاوض مع الفرنسيين ليفسحوا لهم الطريق اتجاه الغرب .

وعندما فشل ذلك أرسل طائرات ستوكا لمهاجمة مقدمة الفرقة الفرنسية إلا أن الوقت قد فات فقد تمكن لواء الحرس البريطانى مع عناصر من الفرقة الأولى الأمريكية المدرعة من الوصول، ومهاجمة «مجاز الباب» فى ٢٠ نوفمبر . وقاتل الجنود الأمريكيون تحت قيادة الجنرال روبينت قتالا مجيدا بينما كان رجال

الشياطين الخضر التابعون لكوش فى منتهى القسوة فقد تبادل الفريقان محطة سكة حديد مجاز الباب مرتين إلا أن آلاى المظلات أرغم على التراجع خطوة فخطوة . وكانت جرعة مرة المذاق فقد أصبح الطريق الشمالى المهم الممتد على نهر مدجردة إلى تيبوريا مفتوحا أمام العدو . وبما أن المصائب لا تأتى فرادى فقد ظهرت فجأة القوات الأمريكية المدرعة المكونة من ٦٠ دبابة وعربة استطلاع عند ممر شجوى شمال تيبوريا وعبرت نهر الطين وتقدمت اتجاه سرية استطلاع فُردهاتين هامرلين المدرعة. واجتيحت السرية جانبا . وأسرعت الكتيبة الأمريكية الثانية اتجاه تيبوريا بدباباتها من طراز جرانت بينما تقدمت سرية مجموعة القتال برنثين تجاه بلدة الجديد وسرعان ما وجد أطقم المدافع المضادة للطائرات الألمانية (الذين يدافعون عن مطار الجديد) أنفسهم يواجهون قوات قوية من مدرعات العدو ، وسرعان ما تم الاستيلاء على المطار . ودمرت جميع الطائرات بدانات خارقة للدروع . وواصل الأمريكيون تقدمهم فى اتجاه تونس للاستيلاء على المدينة والميناء بإغارة سريعة . وأمكن لرجال الدبابات الأمريكية مشاهدة مآذن المساجد فى تونس . وكانت المدينة التى تقع فى السهل لا تبعد سوى ٦ أميال .

وكان الجنرال نهرنج فى مثل هذه المواقف يحافظ تماما على ثبات أعصابه وكان قد وضع مدفعين من عيار ٨٨مم تابعين للفرقة المضادة للطائرات عند مدخل المدينة ووضع كل آماله فى هذين المدفعين . وقد أوقف المدفعان مقدمة القوات الأمريكية مع إقامة غلالة من النيران أمام المهاجمين . وكان هذا العمل أكثر من طاقة الجنود الأمريكيين غير المحنكين وتوقفت القوات وتراجعت بسرعة إلى بلدة الجديد . وهكذا أنقذت تونس إلا أن الأزمة لم تنته بعد .

وقد قامت المدافع من عيار ٨٨مم بإنقاذ موقف خطير آخر عند تيبوريا ، فبينما كان النقيب والت والرقيب ويلهام فوجيت التابع للبطارية المضادة للطائرات (٣٢/٣) يستطلعان موقعا جديدا لمدفع فويجت فى أحراش تيبوريا شاهد على بعد ٣٥٠٠ ياردة تجمعات من الدبابات الأمريكية الثقيلة تشق طريقها خلال المزارع إلى تيبوريا فقال والت : « هذا هو المكان المناسب » وعادا إلى الخلف حيث الموقع القديم لإحضار المدفع فويجت . وفى نفس الوقت أخذ ضابط الصف يعمل على إخفائه وتمويهه بأغصان وأوراق شجرتى زيتون . وأحضر المدفع ٨٨مم مجرورا بواسطة جرار ثقيل .

وبمجرد وضع المدفع فى مكانه ظهرت دبابتان أمريكيتان من بين الأشجار.

وكانت مدافعها من عيار ٧٥مم ورشاشاتها موجهة فى الاتجاه الآخر . ولو عرف الأمريكيون ما يدبر خلفهم لكانوا أشد حرصا .

وعندما تحققوا من الموقف كان الوقت قد فات . فعند الطلقة الأولى (وكانت أول طلقة تضرب من المدفع فويجت على الأرض الإفريقية) تعطلت الدبابة القائدة، وتصاعد منها عمود من اللهب وحدث انفجار ، وهرب على الفور قائد الدبابة الثانية بأقصى سرعته . ودوى الصوت المشهور الحاد للمدفع عيار ٨٨ مم مرة أخرى عبر بستان الزيتون وتصاعد عمود آخر من اللهب فى الجو . وقفز رجلان من الدبابة وخلعا سترتيهما المحترقتين واتخذا ساترا خلف تل . وكانت غلالة النيران هذه من بستان الزيتون مقدمة لصراع للمدراعات دام يومين بين البطاريات والدبابات الثقيلة من أجل تيبوريا وقد تم تدمير ٢١ دبابة ودمر الملازم هاباك ١٢ منها أما ويلهام فوجيت فقد دمر أربع ، وكان هذا هو الحدث الوحيد فى المعركة والذى استطاع به الجنرال نهرنج إفساد أول هجوم واسع النطاق لآيزنهاور لاختراق رأس الجسر التونسى ، وقطع خط الرجعة على قوات روميل وقواعد تموينه .

ولم يكد يتم التغلب على هذا الخطر حتى ظهرت أزمتان جديدتان كانتا فى طور التكوين ، ففى ٢٨ نوفمبر أبلغ العرب عن نزول ٢٠٠٠ من جنود الحلفاء عند رأس سرتة من المحتمل أن يحاولوا تطويق مجموعة قتال وتيزنج ودفاعات بنزرت أما الأزمة الثانية المزعجة فقد أبلغت عن طريق العرب أيضا ، وهى هبوط ١٠٠٠ جندى مظلى أمريكى شمال ذغوان ، وكان هذا يعنى أن آيزنهاور يريد اختراق جبهة الدفاع حول تونس فى أضعف نقاطها بواسطة جنوده الممتازين.

وقذف نهرنج بمشاته ضد القوات التى نزلت فى رأس سرتة ونجح فى مهمته واستطاع أسرهم وإجبارهم على التراجع إلى زوارق إنزالهم ، ولم يكونوا ٢٠٠٠ بل ٥٠٠ فقط .

٥ - **المظلات المتجولة :**

واستخدم نهرنج لمواجهة النزول الخطير للمظليين الأمريكيين فى منطقة ذغوان مرة ثانية سرية استطلاع هامرلين المدرعة المسماة بلواء النار لعمل رأس كوبرى ، ولحسن الحظ أيضا أن بلاغات العرب كانت مبالغا فيها فقد قفز ٥٠٠ رجل إلى ريبين شمال بونت دى فاس وبما أن أسلحتهم كانت ثقيلة وكذا معداتهم

فلم يكونوا خفيفى الحركة . وقامت سرية هامرلين مع عناصر من فرقة سوبرجا الإيطالية بتطويق الحلفاء حيث تم أسر أغلبهم ، وهرب نحو ١٠٠ رجل ، ولسوء الحظ أننا سوف نقابلهم فيما بعد .

وظل نهرنج لأسابيع طويلة يخوض هذا النوع من الحرب وهو « من اليد إلى الفم » بواسطة قواته الضئيلة . وأخيرا فى ٢٩ نوفمبر وصلت عناصر قوية من الفرقة ١٠ بانزر تحت قيادة الماجور جنرال فيشر إلى بنزرت وتونس ووصلت فى نفس الوقت معدات أخرى ، وهى ثلاث دبابات تعتبر معجزة المدرعات حيث يبلغ حمولة الواحدة ما بين ٥٥ إلى ٦٠ طن وهى مسلحة بمدفع عيار ٨٨ مم وكانت مدرعة تدريعا لم يشاهد له مثيل من قبل فى أى جبهة من الجبهات وعلى كل فكانت تستهلك ١٧٠ جالون من البترول فى كل ٦٠ ميلا ، ولكن تونس فى أثناء الشتاء بأنهارها المرتفعة وطرقها الموحلة وممراتها الجبلية لم تكن أرضا مثالية لها .

وكانت دبابات « النمر » قد صممت فى الحقيقة للعمل فى روسيا لمواجهة دبابات استالين ماركة ت ٣٤ . وعندما قاتلت فى تونس ظهر أنها تعانى من مشاكل كثيرة فبعض الماكينات تعطلت بعد سير ١٥٠ ميل وكانت هناك عيوب كثيرة فى مجموعة التروس .

وعلى كل فدبابات النمر أثبتت أنها حاسمة فى المعركة من أجل تيبوريا لأن الدبابات القوية كبيرة الحجم منحت الثقة للمشاة . وقد جاءت الدبابات هذه من بلدة فالينجيو ستل فى جنوب إقليم سكسونيا حيث شكل الرائد لورد أول وحدة من دبابات النمر رقم ٥٠١ . وقد أحضر لورد الدبابات بنفسه إلى تونس وكان قائد السرية الأولى هو قائد الدبابات الممتاز النقيب فون فولد .

وكان فولد مثل قادة وحدات المظلات برنثين وكوش وتيزنج الممتازين وهؤلاء هم الذين كونوا قوات الحرس فى معارك تونس .

وفى نفس الوقت تجمعت عناصر من الفرقة ١٠ المدرعة فى منطقة (بنزرت – تونس) للاستعداد لأن ترسل فى أى اتجاه يتطلبه الموقف .

وفى ١ ديسمبر أصدر نهرنج أوامره بمهاجمة القوات الأنجلو أمريكية المتقدمة عند تيبوريا .

وكان العقيد فون بروتيش يتولى القيادة فى القطاع الشمالى إلى الغرب من بنزرت وكان الماجور جنرال فيشر يقود الجبهة الوسطى وتحت قيادته الفرقة ١٠

بانزر . كما أن القوات الإيطالية كانت تحرس الجبهة جنوب تونس . وقد قذف إلى المعركة بكل شيء له قدمان أو يستطيع السير على عجلات وكان ضمن القوات المشتركة الآلاى ٧ المدرع والآلاى ٨٦ بانزر من قاذفات القنابل والكتيبة ١٠ مشاة محملة والآلاى ٩٠ البانزر جينجر ، وعناصر من الوحدة ٩٠ إشارة وسرية دبابات النمر وبطاريات المدافع ٨٨ مم ووحدات من المشاة ولم يبق في تونس سوى ٣٠ رجلا لحراسة الميناء ومراقبة ٢٢٠ ألف من السكان .

وكان يوجد مدفعان عيار ٨٨مم يحرسان مدخل المدينة .

وكان هدف الجنرال نهرنج تطويق العدو المتقدمة فى قطاع تيبوريا وكان يوجد فى مدينة تيبوريا ذاتها سرية من رجال المظلات التابعين لبرنثين ومهندسيه وكانت محاصرة . وقد فشلت كل المحاولات التى قام بها لواء من الحرس البريطانى ومجموعة القتال «ب» الأمريكية لإزالة هذه الشوكة من جنبهم . فقد دافع الشياطين الخضر عن أنفسهم بعنف منذ ٢٥ نوفمبر وأصبحوا يشكلون مانعا قويا فى مؤخرة العدو . وتقدم المقدم كوش بآلاياته من الجنوب الغربى للهجوم على تيبوريا ودفع رتل مهندسيه تحت قيادة الرقيب أول أهرندت الذى شق طريقه خلال القوات البريطانية واتصل بمهندسى برنثين فى تيبوريا وبذا سد مهندسو المظلات الطريق الحيوى الرئيسى بين تيبوريا ومجاز الباب أمام قوات الحلفاء وهكذا انتهى الفصل الأول لتطويق تيبوريا .

ووضع الرقيب أول أهرندت مدفعين رشاشين على كلا جانبى الكوبرى الوحيد المقام على نهر مدجردة على بعد ميلين غرب باتان مع تلغيمه بعبوات من البارود لعدم وجود الديناميت ، وظهرت أولى المركبات الخفيفة البريطانية وحدث انفجار أدى إلى سقوط المركبة على جانبها .

فأصبحت حاجزا طبيعيا فوق الكوبرى ، وإذا حاول أى فرد رفعها يتعرض لنيران كاسحة من المدافع الرشاشة . ولمدة ثلاثة أيام وليلتين ظل أهرندت يدافع عن هذا الموقع خلال معركة تيبوريا وبذلك منع معظم اللواء البريطانى والعناصر التابعة للفرقة الأمريكية المدرعة من إحضار الإمدادات أو الانسحاب وفى نفس الوقت قامت الفرقة ١٠ المدرعة تحت قيادة الجنرال فيشر بالدخول فى المعمعة . ولكن كما يحدث غالبا فى تاريخ الحروب تدخل عامل الحظ .

فقد وصل جنود مظلات الحلفاء الذين نجوا يوم ٢٨ نوفمبر من بلدة بونت

دى فاس بعد أن شقوا طريقهم اتجاه الشمال الشرقى . وقد حملوا إلى مجاز الباب فى الوقت الذى كانت فيه عناصر من آلاى كوش تندفع إلى الجنوب الغربى لسد الطريق خلف قوات العدو المطوقة فى تيبوريا . ولم تتنبه قوات كوش لهذه القوة التى ظهرت فجأة على الطريق واتخذت مواقعها وشرعت فى إطلاق النيران . ولم يكن لدى هؤلاء الأمريكيين أدنى فكرة عن المعركة التى اشتركوا فيها ، إلا أنهم قاتلوا كالشياطين لأنهم اعتقدوا أن أرواحهم فى خطر ، وقد أدت هذه المعركة غير المتوقعة إلى تأخير الجدول الزمنى لحركة التطويق الألمانية وأعطت القوات المتحالفة فى تيبوريا فرصة للهروب من حركة التطويق والتراجع إلى قطاع (تيبوريا - سيدى نصير - مجاز الباب) ويرجع نجاحهم إلى رجال المظلات المتجولين .

٦ - الألمان يكسبون السباق من أجل تونس :

لقد انتهت معركة تيبوريا التى استمرت أربعة أيام بنصر كامل للألمان وهكذا كسبوا الجولة الأولى فى تونس . فقد أدت خبرة الجنود الألمان فى المعارك السابقة رغم قلة عددهم ومعداتهم إلى هزيمة الأمريكيين والبريطانيين حديثى العهد بإفريقيا . وفقد اللواء البريطاني ومجموعة القتال (ب) الأمريكية كل معداتها كما تكبد الآلاى ١٨ التابع للفرقة الأولى الأمريكية المدرعة خسائر جسيمة . كما قضى تماما على كتيبة بريطانية مع إرسال ١١٠٠ أسير إلى تونس واحترقت ١٣٤ دبابة فى أرض المعركة ، وغنم ٤٠ مدفعا وأسقطت ٤٧ طائرة للعدو فوق أرض القتال وكانت هزيمة نكراء لجيش الغزو التابع للجنرال آيزنهاور . كما كانت هناك خسائر جسيمة فى الجانب الألمانى . فبين القتلى كان قائد دبابات النمر المحبوب جدا النقيب فون فولد قد سقط بعد أن قفز من عربته المدرعة أثناء القتال المرير شمالى غرب الجديد حيث قطعت إحدى القذائف ساقيه . ودمر النقيب دايكمان الدبابتين الأمريكيتين اللتين تسببتا فى موته .

ولكنه عندما فتح دايكمان برج الدبابة النمر ليحدد اتجاهه قتلته رصاصة أطلقها قناص بريطانى من بستان الزيتون ، وكان الرقيب أول أهرندت من بين القتلى أيضا . وقد منح وسام صليب الفارس فى رسالة خاصة من مركز قيادة الفوهرر ولكنها لم تستطع وضعه حتى فوق نعشه لأنه أهرندت قد أصيب فى رأسه وهو يقاتل فى حرب المؤخرة ضد قوات العدو المتفوقة ، وقد وضعه المهندسون فى كوخ من الخشب اشتعلت فيه النيران خلال القتال . وقد احترقت جثته مع الكوخ .

وقتل عدد من الرجال من نفس الطراز إلا أن النصر الذى أحرزوه كان

يستحق التضحية . وكانت تيبوريا إحدى المعارك القاتلة وتماثل العلمين وستالينجراد وقد أنقذ هذا النصر رأس الجسر الألماني فى تونس . وهكذا فحملة الجنرال نهرنج هذا الرجل الجسور الذى لم يكن مستعدا تماما قد انتهت تماما ، انتهت نهاية مفجعة وقد أشار تقرير هيئة الأركان الأمريكية عن الحرب فى شمال إفريقيا الذى نشر فى عام ١٩٤٤ إشارة محزنة لما حدث وهذا نصها : « لقد كسب الألمان السباق من أجل تونس » .

٧ - المبادئ الاستراتيجية للحلفاء :

لقد كسب الألمان السباق من أجل تونس وصمد رأس الجسر وبقى الباب الخلفى مفتوحا لتراجع روميل حتى هذه اللحظة ، إلا أن التعزيزات التى وصلت لآيزنهاور من الولايات المتحدة أخذت تتدفق من الدار البيضاء ووهران والجزائر . وكان كل جندى ألمانى فى تونس يستطيع أن يرى بوضوح نية القائد الأعلى للحلفاء وما ينوى القيام به . ولم يكن فى حاجة لمعرفة شروط الاتفاق الذى تم بين روزفلت وتشرشل فى مؤتمر الدار البيضاء فقد كان هدف الحلفاء تحطيم رأس الجسر فى تونس ، والتقدم جنوبا إلى ساحل تونس ومنع تراجع روميل إلى رأس الجسر وعمل اتصال بين جيش الغزو لآيزنهاور والجيش الثامن التابع لمونتجمرى .

هكذا كانت المبادئ الاستراتيجية للحلفاء ، إلا أنه حتى بداية ديسمبر كان آيزنهاور لم يصل بعيدا باستراتيجيته فقد وقفت مدرعاته ورجال مظلاته ومشاته حتى ١٢ نوفمبر فى بونة وإلى يوم ١٥ فى تبيسة فى الشمال وإلى يوم ٢٥ عند مجاز الباب . وفى ٢٨ نوفمبر قد احتل أخيرا سبيطلة وقفصة ومنطقة ممر قصرين وهناك توقف التقدم ، فقد أوقفه نهرنج بحفنة من الجنود ويجب ألا ننسى حالة الطقس السيئ التى كانت حليفة للألمان . فقد أدت الصعوبات التى لم يتصورها الحلفاء أثناء السير فى الوحل ووعورة الأرض إلى تعطيل خططهم . وتقرير آيزنهاور الذى ضمه فى مذكراته عن الحملة كان عبارة عن شكوى طويلة مدعمة بأمثلة كثيرة من الدراجات البخارية التى غرقت فى الوحل وعن الدبابات التى غاصت إلى نصفها فى الطين . أما الجنود الألمان الذين تعودوا على وحل روسيا ، عرفوا كيف يتغلبون بنجاح على هذه الصعوبات أكثر من الأمريكيين والبريطانيين. ويستطيع المقدم برنتين أن يذكر أمثلة كثيرة تبرهن على أن الخبرة تتغلب على عدم المران . فخلال معركة تيبوريا على سبيل المثال تمكنت مدرعات برنتين مع بعض المدافع المضادة للدبابات جنوبى كوبرى الطين من التغلب على هجوم

بريطاني مـدرع مكون من أربعين دبابة ، وكـانت خـدعـة برنثين أن أطلق أربع طلقات متوالية من مدفع عيار ٨٨مم بأقصى سرعة ممكنة لكى يوهم العدو أنه فى مواجهة بطارية كاملة . وكان يوجه نيرانه على الدبابات المهاجمة التى كانت تلتزم الطريق ثم بعد ذلك يوجهها إلى مزرعة الشبح المشهورة وهى مملوكة للفرنسيين وتقع فى الأرض الحـرام . وقـد أدت الطلقـات الأربع إلى إصـابة دبابة وتدمـيـر مستودع ذخـائر بالقرب من المزرعة وقد ذهل البريطانيون من نيران المدفعية المتـجـمعـة ، وبعد عشر طلقات تراجعت الدبابات وبذلك استطاع برنثين أخـيرا التـخلص من العائق الذى أقامه العدو على الطريق الفرعى المهم بين تيبـوريا و شجورى . وإذا نظرنا إلى هذا الحادث ، أو إلى الخدعة الماكرة لكتيبة وتيزنج عند نفق جفنه أو إلى الهجوم المباغت الجرىء للملازم بورجر بسرية من المظليين على المرتفعات الحاكمة لسيدى نصير أو إلى تجريد ١٢ ألف فرنسى فى ٨ ديسمبر من مدفعيتهم الساحلية الثقيلة فى بنزرت فنجد أنها جميعا نفذت ببراعة وأظهرت شجاعة وقيادة تثيران الإعـجاب . ولكن أى قائد يعلم أنه إن عاجلا أو آجلا سوف تنتهى حرب الخداع والمكر . فمرة بعد الأخرى وجه الجنرال نهرنج نظر القائد العام للجنوب إلى هذه الحقيقة وكانت تقاريره عن الموقف لا تخفى شيئاً . وكـان نهرنج يرى الأمل ضعيفا جدا ولكن ما الذى يريده هتلر ؟ وما الذى كانت تريده القيادة الألمانية العليا ؟

فهل سينسحب جيش روميل من إفريقيا ؟ وهل هذا هو السبب فى إقامة رأس الجسر التونسى ؟ أم أن هتلر كان يريد العودة إلى الهجوم فى إفريقيا ؟

٨ - تشكيل الجيش الخامس البانزر :

وفى ٣ ديسمبر ١٩٤٢ . حدثت مناقشة صريحة فى راستنبرج أجابت على هذه الأسئلة :

فقد استدعى هتلر الكولونيل جنرال فون أرنيم والليفتانت زيجلر من الجبهة الشرقـية . وقد استـقبل زيجلر على الفور فقد وصل مبكرا بعض الشىء عن فون أرنيم. وقد أبلغه الفوهرر أنه سيشكل الجيش الخامس المدرع فى تونس وأن الجنرال فـون أرنيم سيتـولى القيـادة وسـوف يكون هو نائبـه الدائم فى القيـادة ومـخـولا كل السلطات . لماذا أنشأ هتلر هذا المركز الجديد « النائب الدائم المزود بكل السلطات » فطبقا لرأى هتلر فإنه لا يريد أن يحدث نفس ما حدث مع المارشال روميل فقد كان كل شىءيتوقف على تصرف روميل شخصيا . علاوة على أنه كان يريد إيجاد

ضابط من نفس رتبة قائد الجيش ليتم مناقشة المواضيع المهمة بينهما . وفوق كل الاعتبارات كان هذا النظام الجديد سيوجد فى حالة الزيارات التى يقوم بها القائد العام فى إفريقيا (وكانت تستغرق وقتا طويلا نتيجة لطول المسافات أكثر منها فى مسرح الحرب الأوربى) نائبا مفوضا بكل السلطات ليحل محله . وبهذه الوسيلة فالقرارات يمكن أن تتخذ فى أى وقت بواسطة القيادة العليا فى تونس .

وكان الجنرال زيجلر ضابطاً قديراً وواقعيا ويتمتع بتفكير سليم . فقد سأل على الفور عن القوات التى سوف تلحق بهذا الجيش المدرع الجديد . فأجابه كيتل الذى اشترك فى المؤتمر قائلا: « ثلاث فرق مدرعة ، وثلاث فرق مدفعية محملة ، وسوف ترسل إلى تونس فى مارس ومن بينها فرقة هرمان الجوية الممتازة » .

فسأل الجنرال زيجلر: « هل من الممكن إرسالهم بسلام بهذه الأعداد الكبيرة عبر البحر المتوسط؟ » فأجاب هتلر: « طبعا » فقال الجنرال زيجلر: « بهذه الإمكانيات يمكننى مواصلة الهجوم فى شمال إفريقيا » . وقدم الجنرال خطته للهجوم وكانت تتضمن التقدم من منطقة (بنزرت – تونس) إلى الغرب والوصول بأقصى سرعة إلى الجبال الواقعة على الحدود بين تونس والجزائر ، ثم الاستيلاء على موانى بونة وفيليب فيل ثم الاستيلاء على الموانى الجزائرية غربا . وكان الجنرال زيجلر يعتمد فى خطته على ثورة العرب إلى جانب الألمان . وكان يعتمد على معاونة المقاومة العربية للوصول إلى وهران ، وبهذه الطريقة سوف تسقط فى يديه، وهى أهم الموانى فى شمال إفريقيا ، وبذلك سيكون على جيش آيزنهاور أن يختار بين التسليم أو الجلاء . والعامل الرئيسى للوصول إلى مثل هذا الموقف (طبقا لرأى زيجلر) هو ضمان الإمدادات المستمرة والاستيلاء على جزيرة مالطة لأن امتلاك هذه الجزيرة (كما أثبتت الحوادث بعد ذلك) كان هو البداية والنهاية من أجل عمليات إمداد ناجحة عبر البحر المتوسط وكانت هذه كلمات جريئة وخططا جسورة.

وبعد محادثته مع زيجلر استقبل هتلر الكولونيل جنرال فون أرنيم الذى كان قد وصل بعد ذلك وقد قدم من زجيف حيث كان قائدا للفيلق ٣٩ المدرع وقد قام أرنيم بتوجيه نفس الأسئلة : كم فرقة يتكون منها جيش البانزر ؟

هل يضمن وصول الإمدادات ، وعند حصوله على الإجابة عن أسئلته من هتلر قدم نفس الحلول التكتيكية التى وصل إليها زيجلر، وتبعا لذلك فقد وافق هتلر على خطط القائدين اللذين رحلا بروح عالية إلى تونس .

وفى ٩ ديسمبر فى أحد أوامره اليومية ودع جنوده فى الفيلق ٩٠ وكتب يقول: «إن موقفنا كان فريدا فى تاريخ الحرب » وكان كلامه هذا صحيحا للغاية .

وفى نفس اليوم تولى الجنرال أرنيم قيادة جيش البانزر الجديد .

وكان رئيس أركان حرب (العقيد المجرب تومتو) ورئيس الإمداد والتموين فى تونس (العقيد ميجل) قد بدءوا أثناء وجودهم فى روسيا (كما فعل كثير من ضباط هتلر) فى إقلاق القيادة الألمانية والإيطالية يوميا من أجل الإمدادات ، ولكن عبثا ، فلم تصلهم أية كمية من الدبابات أو التموين ولم تكن هناك فرق جديدة كما وعدهم هتلر .

٩ - تـل التوقف :

ووقع ثقل الهجوم الذى تم على جيش الغزو لآيزنهاور على عاتق آلايات المظليين والفرقة ١٠ المدرعة وعناصر من الفرقة ٣٣٤ التى وصلت إلى تونس مع الجنرال وبير . وقد اشتهر الآلاى ٧٣٦ من الآيات الألب المدرعة فى معارك ديسمبر وخاصة فى الأسابيع الأولى من يناير عند ممر شجورى وفوق جبل نسرين المشهور وعلى هضبة كريسماس التى تم الصراع عليها بشدة . وكان الأمريكيون يسمون هذا المرتفع التكتيكى المهم (لونج ستوب هيل) أو (تل التوقف) . ولن تنسى مجموعة بركنز - تحت قيادة المقدم بركنز وكانت من الفرقة عشرة(١٠) المدرعة - مطلقا أمسية عيد الميلاد سنة ١٩٤٢ . فالاحتفال بالنسبة لها كان عبارة عن صراع دام ضد اللواء البريطانى الذى يدافع عن التل وقد تغلبت عليه وأسرت ٣٠٠ فرد ، إلا أن لواء الحرس البريطانى قام فى يوم عيد الميلاد بهجوم مضاد ومرة أخرى اجتيحت مجموعة القتال الألمانية ودفعت إلى أسفل التل . ومرة أخرى قامت الكتيبة الأولى من الآلاى المدرع رقم ٦٩ لقاذفى القنابل (وكانت سابقا الآلاى ٦٩ وينسد بكر) بالهجوم على التل ومعها البطارية ٦ ، ٨ من آلاى المدفعية المدرعة وقم ٩٠ والوحدة رقم ٢ من آلاى المدفعية ٥٠ وأجبرت لواء حرس على الارتداد بعد الالتحام بالأيدى واحتفظت بالموقع الذى الذى يحمى رأس الجسر التونسى إلى الغرب .

وفى المعارك المتصلة من أجل تل التوقف ، أثبت الآلاى المدرع ٨٦ وآلاى المشاة ٧٥٤٥ جدارتهما . وكان اسم تل التوقف ملائما جدا لأنه حتى نهاية الحملة التونسية تقريبا لم يتم الاستيلاء على المرتفع .

١٠ - العمل خلف خطوط العدو :

كانت القنابل لا تزال تنفجر فى معركة « عيد الميلاد » من أجل تل التوقف

الطويل فى موقع البويرات على بعد ١٢٠ ميل من طرابلس . ووقف شاب مع العقيد بايرلاين وقد انكبا على خريطة للقطاع التونسى الجنوبى وقد حدد بالقلم الأزرق على ثلاث نقاط على الخريطة تقع خلف خطوط العدو وكانت عبارة عن ثلاثة كبارى فوق الأنهار والوديان على خط سكة حديد (وهران - الجزائر) فى كل من تبيسة وقفصة وقطاع تزور ويعتبر هذا الخط الحديدى حيويا بالنسبة لإمداد الحلفاء وتمتد على طول الطريق أيضا خطوط التليفون والتلجراف . وهما وسيلتان معاونتان للإمداد والمخابرات ولذلك يجب تعطيلهما وفى تقرير الجنرال نهرنج العام عن المعارك التى خاضها الفيلق ٩٠ فى تونس قال: « من أجل الترتيبات الوقائية أرسل الفدائيين والمخربين للقتال بعيدا إلى الغرب » . ولسوء الحظ لم توجد سجلات حوادث حالية مسجل بها مدى نجاح عملياتهم ضد كبارى السكك الحديدية ومستودعات التموين . وكان هذا من حسن حظهم لأن مخابرات الحلفاء بحثت طويلا عنهم بعد الحرب فهؤلاء الفدائيون البواسل يجب القصاص منهم . واليوم يمكن إعطاء بعض التفاصيل عن هذه العمليات الجريئة :

كان النقيب فون كوش ابن مزارع من جنوب إفريقيا وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة ، وهى لغة أمه . وقاد السرية ١٣ من الآلاى براندبرج ، وكان نصف السرية قد وصل فى نفس الوقت مع كوش إلى تونس مع المظليين الأوائل . وحمل النصف الثانى بالطائرات من نابولى فى ٥ ديسمبر وعسكر فى بلدة حامد الواقعة على البحر وأقام فى فيلا بين بساتين الليمون والبرتقال إلا أنه لم تكن لديهم فرصة للراحة والاستجمام . فعندما تأزمت الأمور خلال الأسابيع الأولى للحملة التونسية انغمس الفدائيون التابعون لكوش فى القتال بالرغم من أن القاعدة العامة هى ألا يستخدم البراندبرج فى خطوط القتال الأمامية . فقد كانت مهمتهم مختلفة تماماً . فقد كان البراندبرج عليهم التواجد خلف خطوط العدو للعمل كملاحظين لمدفعيتهم أو القيام بقطع خطوط المواصلات وتغيير علامات الطريق وجعل الطرق غير صالحة للمرور مع القيام بأعمال كثيرة إلى جانب ذلك . وفى حوالى منتصف ليلة ٢٦ ديسمبر ١٩٤٢ انطلق البراندبرج من مطار بنزرت مرة أخرى وأقلعت ثلاث طائرات يونكرز ٥٢ متجهة إلى الجنوب وكانت كل منها تجر سابحة خلفها . والسابحات المقطورة هذه ليست بالوسيلة المريحة للنقل ، لأن الأفراد يجلسون الواحد خلف الآخر على مقاعد خشبية لها مقابض بينما يضعون أقدامهم على عارضة خشبية . ومن وقت لآخر كان النقيب فون كوش الذى يجلس خلف قائد السابحة ينظر حوله

ليتم على رجاله . وكان رقيب المهندسين هانز نيومان الذى اشترك فى مهام كثيرة قبل ذلك يجلس وخلفه المترجم ريجنا لدواد ثم يليه الرقيب سلوكا وخمسة رجال آخرين . ولا يمكن للسابحة أن تتسع لأكثر من ذلك . ولم يكن هناك حديث متبادل بينهم فكل واحد يعرف الخطة ودوره فيها ويعرف أيضا أنه يوجد تحت مقاعدهم صناديق مملوءة بالأسلحة و ٤٠٠ رطل من المفرقعات .

ولمع الحبل الذى يربط السابحة بالطائرة فى ضوء القمر بينما ظهر البحر المتوسط أسفل منهم عميقاً ومضيئاً . وفى دورة واسعة اتجهت الطائرات القائدة نحو الأرض من على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم . وقد تم الاتفاق على أن تطلق السابحات على بعد ٣٥ ميلا قبل الهدف وأطلقت الإشارة الضوئية من الطائرة القائدة ففكت أسلاك السابحات ، وتلاشى صوت الآلات وتابعت السابحات طريقها بدون صوت وظهر أسفلهم فى ضوء القمر الخط الحديدى والكوبرى الذى يعبر الوادى الكبير .

وتابع طيارو السابحات انزلاقهم لمدة ثم هبط الطيار الأول بسرعة مخيفة نحو الأرض وحبس الرجال أنفاسهم لأنهم تذكروا أنه يوجد بطائرتهم ٤٠٠ رطل من المفرقعات وكان كل منهم يفكر فى الوصول إلى الأرض بسلام ، وهبط الطيار فى اللحظة المناسبة واصطدمت زحافات الطائرة بالحصى الموجود على الأرض وأحدثت صوتا غريبا وكان بالأرض أسلاك شائكة أدت إلى توقف الطائرة وقامت بعمل فرملة .

وهبطت الطائرة الثانية على بعد قليل من الأولى وهبط الطيار هبوطا ممتازا دون أن يحطم أى جزء من السابحة الشراعية ، أما السابحة الثالثة فكانت خارج مدى النظر ولم يكتشفوا الحقيقة إلا بعد عودتهم من مهمتهم ، فعرفوا أن الطائرة التى كانت تقطر تلك السابحة الشراعية قد انضمت إلى تشكيل آخر ولم يلاحظ الطيار خطأه إلا بعد فوات الأوان .

وزحف النقيب كوش والرقيب نيومان والعداء بسرعة إلى الكوبرى البالغ طوله ٣٠٠ ياردة وقال كوش: « إنه عمل هندسى رائع » وفى حذر زحفوا إلى منطقة قريبة منه فكانوا يتوقعون وجود حراس للعدو هناك إلا أن الفرنسيين كانوا يجلسون على الجانب البعيد فى مبنى المحطة حيث يتناولون النبيذ الجزائرى . وربما كانوا نياما. وحدق كوش من خلال منظاره الميدانى الليلى . وكان فى استطاعته أن يقرأ اسم المحطة المكتوب بالحروف السوداء « محطة سيدى أبو بكر » وقال أحدهم: « إن

المكان خال ، وأسرع العداء فى العودة . وحضر العريف سلوكا مع الآخرين وكانوا يحملون المتفجرات . ورفع كوش طيات الأمان .

وقام نيومان بالإشراف على وضع المتفجرات . فوضع عبوتين تزن كل منهما ثمانية أرطال على مبنى الكوبرى العلوى . وستة أرطال من المتفجرات على كلا جانبى الكوبرى ، وألصق شحنتين كبيرتين زنتهما ١٦٠ رطل على العمود الرئيسى للكوبرى . وفى نفس الوقت تسلق رجل عمود التلجراف لكى يقطع الأسلاك. ولم يكن معه قصافة فحطم الأسلاك بأزميل ، ورنت الأسلاك النحاسية . وما كاد يقطع آخر سلك حتى مال العمود على أحد الأجناب وكاد يسقط الرجل معه. ولم ينقصهم سوى وضع الفتيل فأين الفتيل ؟ لقد كان فى السابحة الثالثة التى اختفت . وكان مع نيومان احتياطى منها . ولكن احتراقه كان يتم فى حوالى ٦٠ ثانية . وهذا لا يمنحهم الوقت الطويل للابتعاد . ويجب أن يكونوا حذرين . وأطلق نيومان صفارته كإشارة ليجذبوا الحبل من الشحنتين الكبيرتين .

ولمع ضوء القمر ، وسمعت صوت الصفارة وجذب الرجال الثلاثة الموجودون أعلى الكوبرى حبالهم وجروا وأنصت نيومان . وكانت الشحنة رقم « ١ » تحترق ، ثم سمع صوت الشحنة الثانية ، حسنا ، ومرت عشرون ثانية . والآن عليه أن يبتعد وفى هذه اللحظة تعرقلت قدماه فى أسلاك التلجراف فسقط وقفز العريف سلوكا خمسة عشر قدما من الكوبرى إلى الوادى لكى ينقذ نيومان إلا أنه حدث رض لمفصل قدمه من هذه المحاولة . ولحسن الحظ أن نيومان استطاع الوقوف على قدميه وأصبح فى استطاعته أن ينقذ من أراد إنقاذه ، فحمل سلوكا وسحبه إلى حافة الوادى. وقذفا بنفسيهما على الأرض . وفى هذه اللحظة انفجرت الشحنة الأولى ولكن ما الذى حدث للشحنتين الباقيتين؟ كان يجب عليهما أن تنفجرا فى نفس الوقت ، توقف نيومان ونظر اتجاه الكوبرى . وتصاعدت أعمدة جديدة من الدخان فى الهواء . وقد أدى الانفجار إلى اختلال توازنهم وقذف بهم إلى الأرض وتطايرت الشظايا من فوق رءوسهم إلا أن الرجال لم يشعروا بالخوف بل بالانتصار، فلقد نجحوا فى مهمتهم إنها فرحة النصر .

١١ - العلامات الزرقاء :

وعندما هدأت عاصفة التراب ظهر الكوبرى فى ضوء القمر وكأنه إحدى الأسنان المخلوعة وكان مكان التجمع بعد العملية فى منخفض صغير إلى الجنوب، إلا أن هذا المكان ظهر أنه قريب جدا من مبنى المحطة الذى أخذ الفرنسيون يطلقون منه النيران بجنون من مدافعهم الرشاشة . فأمرهم كوش بالتجمع عند السابحات الشراعية وسأل: « هل الجميع هنا ؟ » وجاء الرد: « لا فقدنا رجلين » . وتطوع العريف سلوكا بالعودة للبحث عنهما . أما باقى الرجال فقد اتجهوا إلى التلال . وقد وضعت شحنات المتفجرات فى السابحات الشراعية قبل ذلك وبعد ثوان انفجرت السابحات .

وتحرك الرجال بعيداً وكأنهم أشباح . وعندما طلع النهار اختبئوا فى وادٍ صغير فى جبل بورملى وألقى الرجال أنفسهم على الأرض ليناموا ، لأنهم لا يستطيعون متابعة رحلتهم إلا فى الليل فقط .

وفى منتصف النهار حدث إنذار . فقد دخل العرب إلى الوادى الصغير فأرسلوا المترجم لمقابلتهم . وشوهد وهو يحادثهم ويلوح بيده . ثم جروا مسرعين فى أتجاه باقى القوة وقذف أحدهم بغطاء رأسه . وكان بيرجر أحد الرجلين المفقودين . وأمكنه التفاهم مع العرب فى القرية المجاورة . وبحاسة لا تخطئ قادوه إلى مكان الاختباء الصحيح . وأخذوا يتجاذبون الحديث مع مترجم كوش وعرضوا عليه إخراج القوة من المنطقة الخطرة . وما أن حل الليل حتى فضوا معسكرهم وقادهم العرب عبر الجبل فى طريق يبلغ طوله ٤٠ ميلا بعيداً عن مدينة قفصة وبعد ذلك عن طريق مدق للرعاة خلال جبل أرباتة وفى اليوم السادس بعد انتهائهم من مهمتهم وصل كوش ورجاله إلى مكناس . وبعد ١٢ ساعة أحضرت جماعة من العرب الجندى المفقود الثانى وهو البافارى هانزلد مان . وكان يمتطى حماراً وكان فى غاية الصحة . ويجب ألا ننسى أن العرب كانوا معرضين لعقوبة الإعدام لمعاونتهم للألمان . أما العريف سلوكا فلم يعد أبداً . فقد أبلغ العملاء أن دورية فرنسية عثرت عليه وقتلته رميا بالرصاص .

وفى الليلة التى طار فيها النقيب فون كوش مع رجاله الـ ٢٠ إلى « الوادى الكبير » قام عشرة رجال آخرين من سريته بقيادة الملازم هاجيتور ورقيب المهندسين بولدى بالطيران فى سابحة شراعية لنسف الكوبرى فى قصرين إلا أن هذه العملية كانت سيئة الحظ . فقد تحطمت السابحة الشراعية عند الهبوط . وأخيراً أسرت المجموعة كلها بواسطة دورية استطلاع مدرعة فرنسية . ولم ينج إلا رجلان

هما العريف فرانز ودجيرك والرقيب ويلى كلورمان ووصلا إلى الخطوط الألمانية بعد ١١ يوما من السير . وكان كل ما يملكانه ٦٧ سيجارة وزجاجة كوكاكولا واحدة ومسدسين فى كل منهما سبع طلقات . وقد ساعدهما كذلك الفلاحون التونسيون .

وفى ١٠ يناير بعد أسبوعين أرسلت مجموعة من الفدائيين لنسف كوبرى فى قطاع كزور فى جنوب تونس وكانت هى العلامة الزرقاء الثالثة على الخريطة وقد قرر النقيب بيسنج قائد الفدائيين والرقيب أول كليما القيام بالعملية فى مركبة من الجبيلى حيث إن هدفهم يقع إلى الشمال من ملاحة شط الجريد وكانت هناك نقطة متقدمة إيطالية قوية فى جبل مورا إلا أن قوات الأمن الفرنسية لاحظت اقتراب الألمان بصورية بالغة تمكن البراندبرج من القرار . وبذكاء حاولوا محاولة ثانية فى الليلة التالية وفى هذه المرة نجحوا . فقام الرقيب أول كليما بوضع المتفجرات فى هدوء على العمود الأوسط للكوبرى . ووضعت شحنة على دعامات الكوبرى والباقى بين الأسوار . وأشعل كليما فتيلة تحترق لمدة عشر دقائق ثم غادر الفدائيون المكان بغاية السرعة فى العربة وبعد عشر دقائق توقفوا على حافة الجبل . وأخرجوا المنظار المكبر الليلى وكان منظر الكوبرى رائعًا فى ضوء القمر . ومرت ١٥ دقيقة وتوترت أعصاب كليما . ثم مرت ٢٠دقيقة وقال: « إن هناك خطأ يحب أن أعود وألقى نظرة » .

فمنعه النقيب بيسنج من العودة وفى هذه اللحظة سمعوا صوت قاطرة قادمة من بعيد وعلت صفارة القاطرة وهى تقترب من الكوبرى وحدقوا جميعا ثم حدث الانفجار وقفز الرجال إلى عرباتهم وقادوها بأقصى سرعة .

وقد ظهر فى الصورة الفوتوغرافية الجوية التى أخذت فى المساء التالى القاطرة والعربات المهشمة للقطار بين أنقاض الكوبرى المدمر .

وقد حاول البريطانيون القيام بعّمل انتقامى ، فقد أنزلت غواصة بريطانية قوة من الفدائيين عند حمامت لنسف مركز قيادة كوش ولكن رجاله كانوا متيقظين فقد سمع هيرمان مولر القائم بالحراسة صوت تجديف قارب يقترب من الشاطئ ثم صوت قطع الأسلاك الشائكة . فأطلق ثلاثة مشاعل بيضاء وعلى ضوء المشاعل شاهد أشباحًا تتحرك ، وبدأت مطاردة عنيفة ، وتمكن الفدائيون البريطانيون من الهرب . ولكن فى بحر الـ ٤٨ ساعة التالية أمكن القبض على الثمانية الذين أنزلوا من الغواصة ومن بينهم نقيب بريطانى ، بواسطة المقدم هيل . وقد قذفت الأمواج

جثة ملازم بريطانى على الشاطئ من مجموعة الصحراء بعيدة المدى ، فقد حاول أن يعوم للغواصة .

١٢ - لؤلؤة الإمبراطورية الاستعمارية :

فى ١ فبراير قامت آخر وحدات الجيش الألمانى السادس بالاستسلام فى ستالينجراد ، وفى تونس قاد الجنرال فيشر قائد الفرقة المدرعة العاشرة عربته بعد ذلك بأربعة أيام فوق حقل ألغام إيطالى وكان بيض الشيطان الإيطالى غالباً ما يكون تالفا ، إلا أنه عندما ينفجر يسبب خسائر جسيمة وقد قطعت ساقا القائد وذراعه الأيسر . وكان لديه إرادة حديدية فطلب دفتراً ليكتب لزوجته ، وأكمل صفحة ونصفاً . ولم يمهله الموت ليتم خطابه . وكانت آخر كلماته : « إن كل شىء سوف ينتهى قريباً » .

وقد أصيب فى هذا الحادث المقدم بركلين رئيس أركان حرب للفرقة (١) بإصابة بالغة ، وقتل الياور والسائق على الفور .

ونتيجة لهذه المأساة ظهر رجل على المسرح سوف يصبح اسمه على كل لسان بعد ثمانية عشر شهراً من ذلك . وهو المقدم الكونت ستوفنبرج الذى أصبح رئيس أركان حرب (١) للفرقة ١٠ المدرعة التى تولى قيادتها الجنرال فون برويتش وكان ستوفنبرج جسوراً ذا موهبة ممتازة فى التنظيم . وقد أظهر نشاطاً فى شمال أفريقيا ، حتى جرح جرحاً بالغا وتم ترحيله إلى الوطن ، لأن التاريخ قد احتفظ بدور آخر يلعبه . فهذا الرجل قاتل فى شمال إفريقيا من أجل تحقيق النصر لألمانيا . وهو نفسه الذى وضع فيما بعد القنبلة التى أعدت لقتل هتلر فى راستنبرج . وفى بداية فبراير ١٩٤٢ كان الجنرال أيزنهاور لا يزال بعيداً عن هدفه وهو تدمير رأس الجسر الألمانى فى تونس ، إلا أن قوات فون أرنيم من المدرعات والمشاة والمدفعية ورجال المظلات لم يحافظوا فقط على مواقعهم فى جبال تونس ، بل قاموا – فى الحقيقة – بتوسيع رأس الجسر وفى منتصف يناير تمكنت وحدات من قوات الاقتحام ويبر فى عملية « الرسول الخاص رقم ١ » من دفع الفيلق الأجنبى الفرنسى إلى الجنوب الغربى من رأس الجسر . وكان أغلب هؤلاء الجنود من عناصر الفرقة ٣٣٤ المشاة . وبهـذه الطريقـة أمكن تجنب تداعى الجناح الإيطالى بالرغم من أن الفرنسيين تغلبوا على مواقع فرقة سوبرجا الإيطالية الجبلية فى ١٢ فبراير .

وبواسطة العملية «الرسول الخاص رقم ١ » تمكنت قوات فون أرنيم من توجيه ضربة قاسمة للفيلق الفرنسي . وأسرت ٤٠٠٠ رجل واجتيحت مرتفعات السيطرة والممرات الواقعة بين بونت دى فاس وبيشون وسقطت فى أيدى القوات الألمانية .

أما عملية الرسول رقم ٢ وهى مواصلة التقدم للاستيلاء على بيشون والقضاء على الجبهة الفرنسية كلها قد فشلت .

ووصلت قوات الاقتحام ويبر فى ٣١ يناير وتقدمت على طول طريق (بونت دى فاس – ربعة – أوسليتا) بدون حوادث لمسافة خمسة أميال ، إلا أنه سرعان ما ظهر الفيلق الفرنسى وقد عزز بوحدات أمريكية مجهزة بأحدث المدافع المضادة للدبابات والمدفعية الثقيلة وتكبدت الوحدة رقم ٥٠١ الألمانية خسائر فادحة .

وحدث قتال عنيف جنوب غربى تشيرتش واستولى لواء الحرس البريطانى على جبل منصور بعد جلاء الألمان عنه . ثم عاد رجال الفرقة ٣٣٤ المشاة فاستولوا عليه مرة أخرى واحتفظوا به إلا أن التقدم توقف . وقامت الفرقة ٤٧ المشاة باقتحام بيشون إلا أنه تحت وطأة ضغط قوات العدو القوية اضطر ويبر إلى الانسحاب بالجنود إلى المرتفعات شرق البلدة . وبذلك فشل فى تحقيق غرضه وهو تدمير القوات الفرنسية فى منطقة بيشون ، وذلك لأن قوات الاقتحام التابعة لفون أرنيم كانت ضعيفة جدا وتعانى نقصا فى الذخيرة ، وكانت هى نفس المتاعب التى عانى منها روميل قبل ذلك .

ومنذ منتصف يناير وفى نفس الوقت فى القطاع الجنوبى للجيش الخامس المدرع كانت الفرصة سانحة لتجنب تهديد دائم ، ظل معلقا وكأنه سيف «ديموقليس» فوق رأس الجسر الألمانى . فقد توقف الحلفاء منذ ديسمبر عند ممر فايد الاستراتيجى المهم . وكان فى استطاعة الدبابات الأمريكية فى أى وقت أن تترك صفاقس وتعبر الممر وتغلق طريق روميل وهكذا ينفصل الجيشان الألمانيان عن بعضهما .

ولكن كيف يدفع فون أرنيم هذا الخطر ؟ وحتى نهاية يناير لم يكن لديه القوة الكافية . ولكن وضعت الفرقة ٢١ المدرعة من الفيلق الأفريقى تحت قيادته وكأنه كسب ورقة «يانصيب» . فمن ضمن طوابير روميل المتراجعة من جبهة البويرات إلى خط مارث كانت الفرقة ٢١ ، وهى أول فرقة عبرت الحدود (الليبية – التونسية) وقد سحبت من خط القتال للراحة فى الخلف ولذلك وضعت فى الاحتياط

إلا أنه عندما تأزم الموقف عند ممر فايد قرر فون أرنيم استخدام هذه الفرقة ذات الخبرة هناك .

وفى ٣٠ يناير قامت الفرقة يسبقها الفيلق الإيطالى ٣٠ بالاقتراب من الممر وتم الاستيلاء عليه فى اليوم التالى وأمكن الاحتفاظ به بالرغم من كل الهجمات المضادة وقال فون أرنيم لأركان حربه (١)« إن الكابوس قد انتهى » .

وفى المضايق العميقة بالقرب من مكناس قامت مجموعة إيطالية تحت قيادة الجنرال أمبريالى بالقتال ببسالة فى صراع غير مستقر . وأمكن الاحتفاظ بالمضايق وقد ضيعت على أيزنهاور فرصة ذهبية فى شق طريقه البحر . وفى ٣١ يناير وصلت تعزيزات أمريكية جديدة إلى مكناس فاضطرت القوات الألمانية إلى الانسحاب إلا أنه فى ٩ فبراير تم طرد الأمريكان من قفصة وتقدم الألمان مرة أخرى . ويمكن أن نستخلص من هذه الحوادث كم كانت قوات أيزنهاور قليلة الخبرة . ومن ناحية أخرى وبعد ثلاثة شهور من الحملة فى رأس الجسر كان الألمان يفتقرون إلى القوات والأسلحة إلا أن العدو زادت قوته وأصبح أكثر خطورة ولذا كان يجب عمل شىء أكبر وقد قام كل من روميل وفون أرنيم بالتفكير فى إعداد خطط بعيدة الأثر .

ورغم أن كليهما حكم على الموقف والاحتمالات المنتظرة على حدة إلا أنهما كانا متفقين تماما فى نقطة واحدة . وهى أن التهديد الأكبر سيأتى من اتجاه القطاع الجنوبى لجبهة الحلفاء فى تونس ، ويجب عمل شىء ويجب طرد أيزنهاور قبل أن يصبح مونتجمرى خطراً عليهم .

وفى بداية فبراير وصلت تقارير مستمرة لقيادة الجيش الخامس عن تجمعات مستمرة للجيوش الأمريكية فى مناطق (تبيسا - سبيطة - سيدى أبو زيد) ، كما أن العرب أدلوا بمعلومات عن تحركات الجيوش الأمريكية فى هذه المناطق . وتوصل الجيش الخامس إلى نتيجة وهى أن توزيع قوات العدو سوف يؤدى فى غضون الأسابيع القليلة المقبلة إلى القيام بهجوم عام وسيكون هدفه الرئيسى الوصول إلى البحر وعزل المدرعات الألمانية الإيطالية عن الجيش الخامس البانزر .

أما روميل فقد ارتد من طرابلس ومعه مدرعاته فى ٢٢ يناير إلى خط مارث فوصله فى ١٢ فبراير ، أما فى روما فقد حبس الفاشيست والملكيون أنفاسهم لضياع إقليم طرابلس لؤلؤة إمبراطوريتهم الاستعمارية ، ولن يغفر لروميل هذا . ولن يمنح

الفيلد مارشال مطلقاً الميدالية الذهبية للشجاعة التى فكر موسولينى فى منحها له . وأصبح جيش البانزر الألمانى والإيطالى والجيش الخامس البانزر كلهم على وشك الاتصال ببعضهم ، وهذا التقارب يجب ألا يضيع هباء .

وقام الجنرال فون أرنيم والجنرال زيجلر وهيئة أركان الجيش وعلى رأسها رئيس الأركان القدير فون كلست رأركان حرب (١) العقيد بومتو برسم خطة تقضى بقيام فرقتين بتحقيق نجاح حاسم ضد أيزنهاور فى تونس وقد أعارنى بومتو مستنداته التى تعطى صورة دقيقة عن عملية رياح الربيع .

١٣ - **رياح الربيع :** (انظر اللوحة رقم ١٨)

وكانت الخطة كما يلى : « على الفرقتين ١٠ ، ٢١ المدرعتين شن هجوم مباغت على الحشود الأمريكية المبلغ عنها غرب ممر فايد . وإذا أمكن تحطيم المدرعات الأمريكية بهجوم مركز فعلى القوات المحشودة التقدم اتجاه الشمال مع التغلب على جبهة أيزنهاور أمام تونس » . ولم تكن الخطة مبالغًا فيها وكانت مرسومة على أساس إنهاء مصير أيزنهاور .

وكانت رأس الحربة فى الهجوم هى السرية رقم ١ من الوحدة ٥٠١ من دبابات النمر الملحقة بالفرقة العاشرة المدرعة ، وكانت على هذه الدبابات الضخمة بمدافعها عيار ٨٨ مم القيام بهجوم مفاجئ على ممر فايد حيث حشود العدو . وكان قائد عملية « رياح الربيع » هو الجنرال زيجلر ومعه أركان حرب من قيادة الجيش الثامن المدرع . وقاد العقيد بومتو الهجوم .

وبينما كان زيجلر وبومتو يعدان آخر الترتيبات فى مقر القيادة التكتيكى فى بلدة لافو كونير اتصل بهما الفيلد مارشال روميل ، فقد وصلت قواته إلى خط مارث وبما أن الفيلد مارشال لم يتوقع فى هذا الوقت هجومًا من الجيش الثامن فقد عرض المساعدة فى هجوم فون آرنيم بالفيلق الأفريقى فى الجنوب من خط مارث . وفى الحقيقة أن ثعلب الصحراء كان لديه خطة أخرى يفكر فيها فالفيلد مارشال لم يوافق تمامًا على خطة فون آرنيم الحذرة . أما خطته فكانت تتضمن التقدم بعيدا إلى الخلف حيث توجد مناطق النقل والتموين للعدو أى إلى تبيسا ، ومن هناك يتجه إلى الساحل بسرعة وبذلك يقطع خط الرجعة على جيش غزو أيزنهاور ويعزله عن الموانى الجزائرية وبذلك يتسبب فى انهيار جبهة الحلفاء . وكانت هذه هى استراتيجية روميل الجريئة القديمة . وكانت هى أساس إغاراته الكبرى على الغزالة

وطبرق والسلوم . ولكن فون أرنيم وأركان حربه لم يوافقا على هذه العملية وكان اعتراضهما الرئيسى أن القوات المتيسرة لديهم ضعيفة جدا وبالتبعية فالعملية تكون مخاطرة كبيرة . وقد قال لى فون آرنيم إنه ما زال متمسكا برأيه الأصلى ، وهناك كثير من الاستراتيجيين المحترفين يؤيدونه فى ذلك ، لأن مثل هذا التقدم سيؤدى بهم إلى الأراضى الجبلية التونسية الجزائرية الوعرة التى يصعب اجتيازها . وهذا يتطلب نظامًا دقيقًا للإمداد لم يكن متاحا لهم فى ذلك الوقت ، زد على ذلك أن تبيسا محمية بثلاث سلاسل جبلية متتالية . وقد حدث فى هذا القطاع أثناء الحرب الفرنسية الجزائرية أن استطاع الثوار الجزائريون الصمود فى وجه الجيش النظامى الفرنسى وكان مكونا من ١٠٠ ألف جندى مدرب .

وهذا يؤيد نظرية فون آرنيم . وعلى كل ففون آرنيم فى ذلك الوقت أصر على الاكتفاء بالأهداف القريبة فقط من أجل عملية رياح الربيع وبما أن القيادة الألمانية العليا لم تستقر على رأى فى شأن تنحى روميل عن القيادة فى أفريقيا لذلك حدث انقسام فى قيادة الجيشين ونتج عن ذلك حدوث خطط مختلفة لكليهما . (انظر اللوحة رقم ١٨)

وفى يوم ١٤ فبراير فى الساعة ٤ صباحا كانت الفرقتان ١٠ ، ٢١ فى موقعيهما ، وبعد التشكيل للقتال عبرت الفرقة ١٠ المدرعة ممر فايد ودفعت الفرقة ٢١ مكتسحة من الجنوب . وكانت الرمال المتطايرة تلدغ عيون الرجال . وكان الجو باردا والطريق موحلاً ، إلا أن الهجوم أظهر تقدمًا وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كانت المدرعات الأمريكية التابعة للفيلق الثانى الأمريكى «فى سيدى أبو زيد» قد حوصرت . ثم استدارت الفرقة العاشرة اتجاه الجنوب واستولت على المكان . وحدثت معركة دبابات كلاسيكية . فقد اقتحمت المدرعات الألمانية دبابات العدو المنتشرة من الجنوب والخلف . وقاد القادة مركباتهم وهى مفتوحة الأبراج . وصفرت القذائف وأضاءت طلقات الإشارة بين الدبابات المتحركة . وزأرت الدبابات بطلقاتها من مدافع عيار ٨٨ مم بقوة . وقام الأمريكيون بالدفاع المستميت وحتى أطقم الدبابات المعطلة واصلت المقاومة . وتعطلت ٦٨ دبابة أمريكية . وحاولت مجموعة القتال «ب» تخليص العناصر من الآلاى ١٦٨ بواسطة هجوم مضاد إلا أنها وقعت فى حلقة الحصار هى الأخرى .

وفى اليوم التالى (وهو يوم ١٥ فبراير) تقدم زيجلر فى اتجاه سبيطلة وحاولت الفرقة الأمريكية المدرعة القيام بهجوم مضاد ولكن هذا الهجوم تكبد خسائر

فادحة . وعند حلول المساء كانت هناك ١٦٥ دبابة وعربة مصفحة أمريكية ترقد محترقة فى أرض المعركة .

وأخذ ٢٠٠٠ من الأسرى طريقهم إلى تونس . وهزمت مجموعتا القتال الأمريكيتان « أ » و « جـ » أما مجموعة القتال « ب » فبقيت سليمة . وقد ذعرت رئاسة الأركان العامة الأمريكية فى البنتاجون فى واشنطن ، بينما قام روزفلت فى البيت الأبيض باستجواب مستشاريه العسكريين عما حدث .

وطبقا لخطة فون آرنيم فقد أرسلت الفرقة ١٠ المدرعة شمالا إلى بيشون وكان يجب أثناء الليل الاستيلاء على هذه النقطة المهمة بهجوم مفاجئ . كما كان من الواجب هزيمة مجموعة القتال الفرنسية لأن هذا كان سيؤدى إلى انهيار جبهة الحلفاء ، إلا أن عملية الاختراق لم تكن ناجحة . ومن ثم فقد دفع الجنرال زيجلر بعض التعزيزات وهو الآلاى ٤٧ المشاة تحت قيادة العقيد بوهس وهو الرجل الذى ما زال الجنرال فون آرنيم يطلق عليه اسم « رجل المطافئ التونسى » . فقد أمر الآلاى بالقيام بهجوم بالمواجهة على بيشون ، إلا أنه بحلول ليل ١٦ - ١٧ فبراير كانت عملية رياح الربيع قد استهلكت نفسها . وأخليت مجموعة هجوم زيجلر وأصبحت الفرقتان ١٠ ، ٢١ المدرعتان تحت قيادة روميل . وعاد أركان حرب مجموعة القتال هذه إلى تونس حيث مقر قيادة الجيش الخامس المدرع .

فما الذى حدث فعلا ؟ وكان هذا السؤال من أهم الأسئلة إثارة للاهتمام فى تاريخ الحرب كلها .

١٤ - علامة الآلهـة :

وطبقًا للسجلات الخاصة بنائب قائد الفيلق الأفريقى فريهر فون ليبسنين فقد اقترح روميل فى ٥ فبراير على القيادة العليا التقدم من خط مارث إلى قفصة لتجنب التهديد الموجه لجناحه الأيسر ، إلا أن هذه الخطة رفضت . فالقيادة العليا الإيطالية لم ترغب فى التدخل فى العمليات السابق إعدادها فى قطاعات الجيشين . وكان الخط الفاصل بين الجيشين هو خط طول ٣٤ وكان هذا الرأى فى الحقيقة رأيا خياليا مضحكا من الناحية الإدارية فى الحرب الحديثة ، عندما يعرف القارئ مدى الصعوبات التى تنشأ من التنافس وعدم وجود قيادة موحدة فى أفريقيا . وبالطبع فقد غضب روميل لرفضهم اقتراحه وأمر فون ليبسنين فى ٨ يناير باستعداد بعض عناصر الفرقة ١٦٤ المشاة الخفيفة والفرقة ١٥ المدرعة والمدفعية الثقيلة للفيلق

الأفـريقى على أن توضع كلهـا فى تشكيل واحـد . وخـلال ليل ١٤-١٥ قـام الأمريكيون نتيجة لعملية رياح الربيع ، وللخسائر الفادحة فى معركة «أبو زيد» - بإخلاء قفصة بدون مقاومة . وقام روميل بالهجوم على الفور ، واحتل قفصة بواسطة الآلاى المدرع الأفريقى والوحدة ٢٨٨ وهى وحدة العقيد المشهور منتن القديمة . وفى نفس الوقت أرسلت قوة استطلاع إلى فريانا . واحتلت عناصر من الفيلق الأفريقى فى ١٧ فبراير هذه النقطة المهمة الواقعة على الطريق بين قفصة وتبيسا . وبذلك توغلت فى جناح المدرعات الأمريكية التى كانت تدافع عن نفسها فى سبيطلة ضد فرق فون آرنيم .

كما أن قيادة الفوهرر استغلت هذا التطور الملائم ورأت الفرصة متاحة لتحقيق خطة روميل التى اعتبرتها قبل ذلك خطة بالغة الجرأة ، وقد سلم جودل لإصرار روميل . وفى ليلة ١٦- ١٧ فبراير قررت القيادة العليا وضع مجموعة قتال زيجلر تحت قيادة روميل وسمحت له بالقيام بالهجوم فى اتجاه تبيسا .

وكان هذا هو السبب فى سحب مجموعة قتال زيجلر .

وقد تم كل شىء فى البداية طبقا لخطة روميل . فاستولت الفرقة ٢١ على سبيطلة واتجهت الفرقة ١٠ المدرعة إلى ممر قصرين وإلى الجنوب بعيدا قامت القوات الألمانية والإيطالية باحتلال تزور . وفى ١٨ فبراير قامت عناصر من الفيلق الأفريقى والفرقة ١٥ المدرعة بحرمان الأمريكان من مطار كليت . وفى اليوم التالى قامت قوات استطلاع روميل بالتقدم بحذر إلى ممر قصرين ، وفى نفس الوقت تدفقت وحدات الاستطلاع على طول الطريق الرئيسى من مطار كليت إلى تيبسا ثم أمر روميل بالهجوم على ضواحى تبيسا حيث ممر قصرين وهو المدخل إلى جبال تونس . وفى ليلة ١٩ -٢٠ كانت لاتزال عناصر من الوحدة ٣ استطلاع تشق طريقها إلى أعلى الممر لتنتزع الطريق من العدو ، إلا أن هذه المحاولة فشلت فقذف روميل بالآلاى المجرب وهو آلاى البانزر الأفريقى من قاذفات القنابل الذى يقوده العقيد بنتون ، إلا أن هذا الهجوم أوقف بواسطة نيران المدفعية الأمريكية .

١٥ - الصحافة الأمريكية تهاجم أيزنهاور :

وفى صباح ٢٠ فبراير تجمعت الفرقة ٢١ المدرعة والفرقة ١٠ المدرعة وعناصر من الفرقة ١٥ المدرعة وعناصر من فرقة آريتى الإيطالية المدرعة أمام الممر على جبهة طولها ٧ أميال . وأطلقت بطاريات الهاون من الآلاى ٧١ هاون

قذائفها على مواقع العدو . وأحدثت القذائف دويا مثل الرعد أثناء انفجارها ومزقت الأرض والصخور إلى قطع متناثرة . وأخيراً استطاع الرائد ستوتن السيطرة على الممر الساعة ٥ مساء بعدد قليل من المدرعات . وقام الآلاى المدرع بالتقدم على طريق الممر ، وأنشأ رأس جسر وصد هجوما أمريكيا مضادا ، ثم بدأ الهجوم الرئيسى عبر الممر . وقد وصفت الصحافة الأمريكية الفوضى التى حدثت بين القوات الأمريكية والقيادات بسبب فقد ممر القصرين ولم يتوقع أحد بما فى ذلك أيزنهاور هجومًا ألمانيا على هذا الموقع ولذلك لم يتم تجهيز الدفاعات اللازمة هناك.

وفى يوم ٢١ أرسل روميل الفرقة ٢١ المدرعة لتلف حول الجبال ، والفرقة ١٠ المدرعة شمالا إلى ثالا فى محاولة للتطويق وفتحا الحلقة الحديدية أمام تبيسا من التلال وقد قوبلت الفرقة ٢١ بمقاومة قوية من العدو أدت إلى أن فقد الاتصال مع الفرقة ١٠ المدرعة ، وقد حققت المعركة نجاحا ملحوظاً وأسر ٣٠٠ فرد مع ١٦٠ دبابة و٩٥ عربة مصفحة و ٣٦ مدفعًا ذاتى الحركة و ٦٠ مدفعًا آخر قد دمرت أو استولى عليها ، إلا أن أيزنهاور لم يشن حرب الرجل الفقير ، فقد كان لديه العديد من القوات والمعدات كانت الفرقة ١٠ المدرعة فى استطاعتها الاستيلاء على ثالا إلا أن المقاومة ازدادت واصطدم التقدم الألمانى بمواقع احتياطى العدو القوية للفرقة ٦ البريطانية ولواء الحرس ، ولذلك كانت فرقة ألمانية واحدة مدرعة تعتبر ضعيفة ، وكان لا بد من إخلاء ثالا . وحاولت مجموعات القتال التابعة للفيلق الأفريقى تحت قيادة الجنرال بولويز (الذى حل محل القائد الجريح الجنرال ليبسنين) التقدم غرباً للاستيلاء على تبيسا التى تحتلها مجموعة القتال الأمريكية (ب) والتى قاتلت قتالا مستميتا ولم تتراجع قدمًا واحدة. وشاركت الطائرات الأمريكية والبريطانية التى كانت تطير على ارتفاع منخفض فى المعمعة وكان العدو قد استعاد صوابه وكان يقاتل بعناد ، وكان لديه الكثير من المعدات ليقاتل بها . وكان أيزنهاور يقود أكثر من جيش وكان لديه مقاتلات وقاذفات ومدفعية بأعداد كبيرة . وحاول فون آرنيم تحت إلحاح روميل تثبيت قوات العدو فى جبهة الجيش الخامس بالهجوم المتواصل وقام الآلاى ٤٧ مشاة تحت قيادة العقيد بوهس بالهجوم بعنف فى اتجاه الغرب . واستولى على بيشون وتقدم ١٢ ميلا فيما وراءها إلا أنه اضطر إلى التوقف وفى يوم ٢٢ فبراير أوقف الفيلق الأفريقى بواسطة مجموعة القتال « ب » الأمريكية . ومرة أخرى أثبت العدو أنه فى منتهى القوة ، وكان قويا

في كل مكان . وتكبد الألمان خسائر كبيرة وسقط روميل نفسه في كمين للمدفعية وطورد خلال بستان من التين الشوكى ، وقد تمكن العقيد بايرلاين والقذائف تنفجر من حوله من قيادة عربة روميل بسلام خلال التين الشوكى . ونجا كذلك كأركان حربه ولكن بعد أن أصيب إصابات طفيفة .

وفى ٢٢ فبراير أدرك روميل أنه لم يحقق أى تقدم سواء فى اتجاه(ثالا – الكيف) طبقاً للخطة الإيطالية أو اتجاه تبيسا التى كانت هى خطته الشخصية ، لأنه كان فى غاية الضعف . كما أن الأرض الجبلية كانت وعرة لإجراء عمليات سريعة وكما كانت هى العادة فالتموين كان يتم ببطء .

وأصبح معروفاً حسب الخطة الموضوعة سابقا للهجوم على تبيسا (بعد تعديل الاتجاه إلى الشمال) أنه يلزمها وقت أطول مما فكروا فيه . وفى نفس الوقت ازداد التهديد لمؤخرته من الجيش الثامن الذى كان على وشك الهجوم على خط مارث .

ونتيجة لهذا الموقف قام روميل بعقد مجلس حربه فى ممر قصرين وحضره المارشال كسلرينج وقرر فيه إيقاف المعركة .

الفصل الخامس عشر

نهاية مجموعة الجيوش الأفريقية

الفصل الخامس عشر

نهاية مجموعة الجيوش الأفريقية

١ - رأس الثـــور:

وفى ٢٣ فبراير ١٩٤٢ (وهو اليوم التالى لفشل الهجوم) استقر رأى القيادة الألمانية أخيرا على إنشاء قيادة موحدة للقوات فى شمال أفريقيا ، وكلف الفيلد مارشال روميل بقيادة مجموعة الجيوش الأفريقية الجديدة . وهى عبارة عن مجموعة الجيوش المكونة من الجيش الخامس بانزر والجيش البانزر الألمانى الإيطالى . وكان من المفهوم أن روميل سوف يعهد بهذه القيادة مؤقتا إلى الكولونيل جنرال فون آرنيم لكى يقوم هو بأجازة كان فى أشد الحاجة إليها لاستعادة صحته .

وما الفائدة من مناقشة موضوع عملية تبيسا وأنها كانت ستنجح لو أن روميل تولى القيادة العليا فى تونس منذ البداية على أن يسمح له بتنفيذ خططه دون تدخل. وقد اعتقد روميل فيما بعد أن العمل السريع والهجوم الخاطف على تبيسا قد يؤديان إلى تداعى الجبهة الأمريكية . وقد أيد نظريته العديد من التقارير الأمريكية التى أظهرت رد الفعل نتيجة لهجومه هذا على القوات الأمريكية ورئاستها قليلة الخبرة بالقتال . ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أنه يوجد خلف الجبهة البريطانية على الأقل ثلاث فرق جديدة أعدت من أجل غزو صقلية . وقد ثبت بدون شك أن نظام الإمداد الألمانى كان فاشلاً .وكان أمل روميل ضعيفًا فى النجاح وكان يعتمد على الحظ والخداع على نطاق واسع ، وكان هذا محتملاً . ولكن كيف يتطور الموقف فى أفريقيا فى المدى الطويل على ضوء موقف الإمداد السيئ ؟ ومن الواضح أن هذا السؤال يترك للمؤرخين للإجابة عليه وليس القادة . وكان روميل قائداً أولا وأخيراً . وقائدا جسورا لا ييئس أبدا حتى بعد تعرضه لهزيمة ساحقة .

وقد أثبت هذا أكثر من مرة . وبعد حديث طويل مع العقيد بومتو أركان حرب (١) للجيش الخامس بانزر فى أحد الوديان بالقرب من سبيطلة وافق روميل على خطط فون آرنيم بمواصلة المعركة بالجيش الخامس البانزر لاحتلال مواقع أكثر

ملائمة للوثوب منها ، وذلك لمنع هجوم أيزنهاور المنتظر فى الربيع ،وقد سمى هذا الهجوم باسم « رأس الثور » .

وقد شرح روميل رأيه بوضوح وأن المحور لن يستطيع الاستمرار فى المقاومة أكثر من منتصف مايو ، وعندئذ فمن الضرورى على مجموعة الجيوش الأفريقية الاقتصار على رأس جسر صغير ، ويجب أن يكون لها فى غرب تونس بعض المواقع للخطوط الأصلية الألمانية . وعلى كل حال فهذا الخط يلزمه تحسين ويجب أن يمتد من تونس إلى سفوح التلال عند بلدة أنفدافيل وكانت عملية رأس الثور آخر عملية هجومية فى تونس ، وكان الهدف الرئيسى من العملية احتلال المرتفعات الحيوية لغلق طريق إمداد أيزنهاور من بلدة بيجا إلى بلدة مجاز الباب المشهورة، للحصول على أرض- فى الشمال بالقرب من بلدة الأبيض - صالحة للمدرعات . ولكنه حتى بالنسبة لهذه الأهداف المحدودة فلم تكن لدى فون آرنيم القوة الكافية لذلك لأن فرقته العاشرة المدرعة سحبت من الجيش الخامس المدرع ووضعت تحت قيادة روميل ، أما باقى قواته والتى تشتمل على عناصر من فرقة هرمان جورينج تحت قيادة الماجور جنرال بيبو فكانت منهكة وغير صالحة للقتال . فقد سحب الآلاى ٤٧ مشاة من منطقة بيشون ووضع بين فرقة مانتوفيل والفرقة ٣٣٤ المشاة لوجود ثغرة خطيرة مفتوحة .

وقد عزز فون أرنيم بفرقة إضافية وكانت عبارة عن عناصر من الفرقة ٩٩٩، فقد أرسلت إليه برلين الفرقة ٩٩٩ مشاة مشكلة من الجنود الذين حكم عليهم بسبب استماعهم لإذاعات الأعداء والتجارة فى السوق السوداء وغير ذلك من المخالفات . وكان من بين أفرادها ضباط وضباط صف عزلوا لرتب أدنى ، ومساجين أعفى عنهم من معسكرات الاعتقال ، وكانوا جميعا أفراداً ليس لديهم ما يشجعهم على مناصرة نظام هتلر . وبالرغم من هذا فهذه الفرقة التى قتل قائدها أثناء طيرانه فوق البحر المتوسط قد قاتلت قتالا مجيداً ومثيراً للدهشة . وعلى الأخص آلاى المدفعية تحت قيادة المقدم ولف ، ولم ينضم إلى صفوف الأعداء منهم سوى أقل من عشرة فى المائة .

وحاول الآخرون عن طريق الأعمال البطولية تحسين سجل جرائمهم وكانت كل وعود هتلر التى قطعها على نفسه فى مقر قيادته تمخضت عن إرسال فرقة جميع أفرادها سيئو السمعة بدلا من إرسال فرقة ممتازة . أما موقف الجيش الخامس بانزر فكان أحسن حالا ، ويظهر ذلك من تشكيل القتال ، ففى الشمال كانت تقف

فرقة مانتوفيل ومعها آلاى برساجليرى ١٠ الإيطالى وكذلك كتيبة مهندسى المظلات تيتزيج . والآلاى بارنثين ومجموعة قتال خاصة (حوالى كتيبة) تحت قيادة النقيب فون كوش ، وآلاى آخر شكل حديثا من كتيبتين تونسيتين ، ويضاف إلى هؤلاء أربع أو خمس بطاريات من المدفعية . وكلمة (فرقة) لم تكن سوى نوع من التضليل لخداع العدو .

٢ - آخر هجوم ألمانى فى تونس :

أما فى الوسط والجنوب فكانت توجد مجموعة فيلق ويبر . وهذه كانت مشكلة من لواء لانج ومعه آلاى ٤٧ مشاة والوحدة ٥٠١ دبابات النمر (مشكلة من ٣٠ دبابة نمر) والقوة الرئيسية للفرقة٣٣٤ مشاة ، وبالإضافة إلى ذلك عناصر من فرقة هرمان جورينج وبعض كتائب تونسية .وكانت المدفعية المجمعة كلها تتكون من ٤ وحدات من آلاى مدفعية الفرقة ٣٣٤ ومعها ١٢ بطارية من ضمنها ستة مدافع هاوتزر جبلية عيار ١٠٥ مم تجرها البغال ، وكان هذا كل شيء .

وبهذا التشكيل دخلت القوات المعركة فى ٢١ فبراير ضد جيش غزو أيزنهاور. ومن الغريب أنها أحرزت انتصاراً مبدئيا . ففى الجناح الشمالى تمكنت فرقة مانتوفيل من مفاجأة العدو واستولت على رأس سراتة بالاشتراك مع بعض القوات التى أنزلت من زوارق الطوربيد ولكن الأمطار الغزيرة - التى تسقط فى الموسم الثانى والذى يبدأ فى تونس فى منتصف فبراير - وحولت الطرق إلى أوحال والوديان إلى سيول متدفقة ، وفاضت المياه على الأجناب وحولت الأرض إلى مستنقع كبير . ولم تستطع دبابات النمر التحرك خارج الطرق ، وأصبحت أهدافا ممتازة لبطاريات المدفعية المضادة للدبابات . وتذمر البوجر جيجرز من آلاى بارنثين لأن المجهود الذى بذلوه والذى يزيد عن مائة عملية استطلاع على مرتفعات سيدى نصير أصبح بلا فائدة . وكانت القيادة تتوقع الكثير من المشاة (المدربة جيداً) أثناء عملها مع دبابات النمر . ولكن كان على الجنجرز أخيرا إخراج الكستناءة من وسط النار ، وذلك فوق مرتفعات سيدى نصير وتقاطع الطرق فى جبل زيلة .

وتمكنت المجموعة الموجودة فى الجنوب من شق طريقها عند الجوبيلات إلا أن السماء أخذت تمطر هناك كذلك . كما أن النقص فى المدفعية حد من عملياتها . أما فى الوسط فقد حقق لواء لانج هدفه بإغلاق الطريق إلى مجاز الباب . وحفر

قاذفو القنابل من آلاى المشاة ٤٧ مواقعهم على المرتفعات وغطوا الطريق بنيرانهم، وفى الليل تم زرع الألغام لإجبار العدو على إيقاف كل التحركات إلى مجاز الباب .

وقد كلف الجنود بأكثر من طاقاتهم ، فلم يوفقوا فى الاستيلاء على كل المرتفعات .

وكانت العملية فاشلة تماما فى الطرف الجنوبى ، فقد حالت وعورة الأرض والمقاومة العنيفة من تقدم فرقة هرمان جورينج رغم المجهود الكبير الذى بذل ، أما الآلاى الثالث المدرع فقد اقتحم مواقع العدو ، إلا أنه أجبر على التراجع بعد معركة استمرت ثلاثة أيام . وكان إنهاء عملية رأس الثور هى العملية الختامية للمعركة . وهكذا انتهى آخر هجوم ألمانى فى تونس .

٣ - **شياطين المدفعية :** (انظر اللوحة رقم ١٨)

كل من يدرس استراتيجية روميل وتكتيكاته يستخلص أنه عادة ما يهاجم تجمعات العدو ثم يدمرها . وكثيراً ما فعل ذلك خلال ٢٥ شهرا أثناء الحرب الأفريقية . وأراد روميل تكرار فنه القديم (بعد فشل هجوم تبيسا ، وبعد نهاية عملية رأس الثور ضد جيش أيزنهاور) وذلك بالالتفاف غرب خط مارث ضد عدوه القديم مونتجمرى . ومرة أخرى كان عليه أن يستخدم كل قواته وخداعه وجرأته ضد الجيش الثامن الذى يزهو بالنصر ، ليضع حدا لتقدمه هذا ولمدة طويلة مع تدمير الجزء الأكبر منه وبعد تعيين روميل قائداً أعلى لمجموعة الجيوش الأفريقية وضع جيش البانزر الألمانى - الإيطالى تحت قيادة الكولونيل جنرال ميسى الإيطالى الذى منح وسام صليب الفارس فى الجبهة الروسية الجنوبية أثناء قيادته للفيلق الإيطالى منزنيلى وهو رجل كفء بعيد النظر . وكان رئيس عملياته الألمانى فريتزر بايرلاين الذى منح فى نفس الوقت رتبة الماجور جنرال ، وكان الموقف العسكرى كالآتى : اتخذت الفرقة ٩٠ مواقعها على طريق (قابس - مدنين) بينما وضع على يسارها حتى البحر فرقة شباب الفاشيست وهى إحدى الفرق ذات الخبرة والتى قاتلت ببسالة فى كل معركة اشتركت فيها ، وكان رجالها من ذوى القلوب الجسورة . وإلى اليمين كانت الفرقتان الإيطاليتان تريستا وبيستويا تحتل مواقع حتى جبال مطمطة . أما الفرقة ١٦٤ الخفيفة فأمنت الممرات فى تلال مارث وقامت قوات إيطالية ووحدة استطلاع بحماية الجناح الغربى لجبل القبيلى . كما دعمت الفرق المدرعة ١٠ ، ١٥ ، ٢١ بمدفعية الجيش ووضعت تحت تصرف جيش

البانزر. أما في الشمال خلف الملاحات (وكانت لا تزال من اختصاص جيش البانزر الخامس) فكانت تحميه فرقة سنتورو تحت قيادة جراف كالفي . وفي بلدة سند كانت توجد عناصر من اللواء الإمبراطوري .

وكانت الأرض هناك تتمتع بمزايا دفاعية ممتازة في شكل وديان عميقة في قيد الزوس والمرتفعات الحاكمة في تلال مارث غربي السهل ، ولا يمكن اجتيازها إلا عن طريق الممرات . وكانت هذه الممرات يدافع عنها بواسطة نقاط فرنسية قوية جردت من أسلحتها بعد الهدنة الفرنسية الألمانية أما العدو فلم تكن لديه مواقع ملائمة للمدفعية سوى أعلى الهضبة في السهل الشمالي والشمالي الغربي . وعيوب هذا الموقع الدفاعي أنه يمكن تطويقه من قبل العدو عن طريق التقدم خلال الصحراء المنبسطة غربي جبال مطمطة ، وقد حدث ذلك كثيراً ، لأن الصحراء لم تعد عائقًا للقولات الميكانيكية ، وبالإضافة إلى هذا فكان خطر تطويق قوات الفرنسيين الأحرار للموقع من الصحراء ما زال قائما .

ولذلك فكان معروفا أنه في مثل هذه الحالة لن تستمر المقاومة طويلاً أمام هجوم الجيش الثامن الرئيسي على خط مارث . وكان هذا هو السبب الرئيسي لقرار روميل بمهاجمة مونتجمري من الحركة . وقد أمر روميل الجنرال زيجلر القائد المؤقت للفيلق الأفريقي بإعداد خطة للهجوم مع الإدلاء بوجهة نظره .

وأثناء هذه الاستعدادات كان هناك اختلاف كبير في الرأى بالنسبة لطريقة إجراء الهجوم ولا يزال الجدل في مثل هذا الموضوع قائما إلى اليوم والسؤال الذى لا مخرج منه هو - ما الذى كان يحدث لو .... ؟

وكان زيجلر يريد القيام بالهجوم غرب مدنين ضد القوات الموجودة جنوب خط مارث . وكانت الخطة بها نقطة ضعف وهى سير الاقتراب الطويل بالمدرعات تحت تهديد تفوق العدو الجوى . وقد كتب لى الجنرال زيجلر عن هذه المشكلة كما يلى : « عند المناقشة النهائية التى تمت فى منزل على طريق (قابس - مارث) كان الفيلد مارشال روميل ومعه الماجور جنرال جوس قد قبلا الاقتراح مشوبا بالحذر بالهجوم من الغرب على أن يكون محور الهجوم الرئيسى فى اتجاه مدنين ولم يكن الأمر سهلا لإقناع الفيلد مارشال بالاستحالة التكتيكية لتنفيذ اقتراحه بالهجوم من الشمال . ومرة تلو المرة نوقشت الخطة وأوشكت على الانتهاء بالتوقف .

وكان هناك خلاف فى الرأى بالنسبة لإدارة الهجوم على مدنين نفسها فكان

روميل يرى أن هناك خطراً على الهجوم الذى سيتم جنوب مدنين لأن القوات المشتبكة هناك من المحتمل أن يقطع عليها خط الرجعة بسرعة أو على الأقل تثبت فى مواقعها بواسطة احتياطى العدو الذى يمكن إحضاره من الجنوب الشرقى . وكان لا يريد المخاطرة بأية حال من الأحوال بهذه العملية ونتيجة لذلك أمر بأن يكون محور الهجوم الرئيسى بالمدرعات شمال مدنين على أن يوجه ضد المواقع المحتمل وجود مدفعية العدو فيها (الأراضى المرتفعة شمال ميتامور) . وكان على الفرقة ١٠ المدرعة كذلك أن تمر شمال مدنين فى اتجاه مطامير وحدد موعد المؤتمر النهائى فى ٢ مايو ونتيجة لطول طريق الاقتراب وصعوبته بالنسبة للفرقة ١٠ المدرعة تأجلت الخطة ثانية . فقد وضعت الخطة أصلاً على أن تتم فى ٤ مارس ، إلا أنها أجلت لمدة يومين وكان هذا التأخير نذيراً للسوء .

وفى الصباح الباكر من يوم ٦ مارس كانت الفرق ١٠ ، ١٥ ، ٢١ المدرعة فى مواقعها معززة بمدفعية الجيش بقيادة الماجور جنرال كروس . والفرقتان ٩٠ ، ١٦٤ الخفيفة وفرقة آريتى المدرعة . وكان الجنرال كرامر القائد السابق للآلاى ٨ البانزر قد تولى قيادة الفيلق الأفريقى فى اليوم السابق للمعركة . وكان اليوم جميلاً مشمسا وحددت ساعة الصفر للهجوم بالساعة ٦ صباحا . وبدأت المعركة بضرب مركز من بطاريات مدفعية الفيلق الأفريقى وصبت بطاريات الهاون عيار ١٧٠ مم، ٢١٠ مم نيرانها على قطاع مدنين . ثم تقدمت المدرعات . واستطاع قائد الفيلق الأفريقى من مقر قيادته فوق جبل تيارخا مشاهدة دباباته وهى تقوم بالمناورة بعيداً أسفل منه . وعلى اليسار كانت توجد ٤٠ دبابة من دبابات آلايه المدرع القديم ويقودها العقيد أركنز وفى الوسط انتشر الآلاى ٥ المدرع على جبهة عريضة . وفى أقصى اليمين كان يوجد الآلاى ٦ المدرع (١) من الفرقة ١٠ وتحت قيادة العقيد جيرهارد وخلف دبابات جيرهارد وضع الآلاى ٨٦ قاذف القنابل المدرع – الذى دفع رأساً إلى المعركة – بعد مسيرة طويلة . ولم تكن هناك فرصة للمفاجأة بسبب الأرض المكشوفة . وقذف رجال المدفعية وقاذفو القنابل بأنفسهم على الأرض ، ودارت معركة تصادمية بالدبابات ودفع قاذفو القنابل بخوذاتهم الفولاذية إلى مؤخرة رءوسهم وهم يحملون صناديق الذخيرة . وكان الكثير منهم يدخن السجاير

---

(١) هذا الآلاى أحد آلايات اللواء الرابع المدرع السابق. (المعلق)

المشتعلة، كما كانوا يفعلون تماما فى جبهة خط ماجينو وعلى ضفاف نهر ليبج والدنيبر أمام ستالينجراد .

وعندما زار الجنرال كرامر القيادة التكتيكية للفرقة ٢١ المدرعة وجد قائدها الجنرال هيلد براندت يقف مع احتياطيه المدرع والنيران تنهال من حوله وبدا عليه الحزن الشديد وقال: « إننا لم نحقق أى تقدم » . ورأى كرامر بنفسه الغلالة الكثيفة من النيران الموجودة أمامهم . فقد واصلت البطاريات البريطانية قذفها الجهنمى على المدرعات المهاجمة . وقد تطاير من الأرض الصخرية سيل من الشظايا كان له تأثير مميت على قاذفى القنابل ورجال المدفعية . ورقد رجال الرائد شكلك من وحدة المراقبة رقم ٣٢٦ أمام القوات ومعهم أجهزة تحديد مواقع المدفعية المعادية .

وكان الجنرال فون براويش قائد الفرقة ١٠ المدرعة يبدو حزيناً ، لأن قاذفى القنابل كانوا تحت التأثير المباشر لنيران المدفعية البريطانية علاوة على تحملهم خسائر فادحة من الطائرات المغيرة على ارتفاع منخفض . وكان يوجد أمام جبهته وحدة للمراقبة ، وهم شياطين المدفعية . وقد حاولوا فى شبه حمى توجيه نيران مدفعيتهم وتحديد أماكن مدفعية العدو . وكان الهدف الأول للهجوم الألمانى مهاجمة مجموعات مدفعية العدو القوية من الجنب ومن المؤخرة ، ولكن الهجوم الألمانى أصبح هجوماً بالمواجهة . كما اتضح الأمر فيما بعد فقد كانت المدافع فى مواقعها منذ يومين .

٤ - خيانة مدنين :

ولم يكن لهذه المشكلة حل . فقد علم مونتجمرى بخطة روميل الهجومية وقام بتجميع مدفعيته طبقاً لها . وقد لعبت الخيانة دورا فى ذلك . وسرعان ما وجد الدليل على ذلك فى جيب أحد الأسرى من ضباط الصف الفرنسيين . فقد وجد معه ورقة بالتفصيلات الدقيقة للهجوم واتجاهه الرئيسى ، وموعد الهجوم (وهو ٤ مارس) ، أو بمعنى آخر التاريخ الأصلى للخطة . وقد أدى تأجيل تنفيذ الخطة لمدة يومين إلى أن قائد الجيش البريطانى أصبح لديه الوقت الكافى لاستكمال استعداداته.

وبما أن روميل كان يعتمد كلية على المفاجأة فلم يعد لديه مجال لذلك ، وخسرت المعركة قبل أن تبدأ ، وكالعادة لم تعرف هذه المعلومات إلا فى تاريخ لاحق .

وفى القيادة التكتيكية للفرقة ١٠ المدرعة انكب المقدم ستافنبرج أركان

حرب (١) للفرقة على التقارير الواردة وظل ينادى: « قاذفات الدخان ، قاذفات الدخان ، لأنها هى الوحيدة التى تستطيع إحداث صدع فى تجمعات مدفعية العدو وأشرف ستافنبرج بنفسه على وضع مدافع الهاون التى ستطلق الدخان لأنها سلاح فعال وجديد على الأرض الأفريقية والطليعة للصواريخ الحديثة ، إلا أنها فى هذه الحالة لم تكن فائدتها كبيرة . فقد دمرت بطاريات الهاون الثلاث من الآلاى ٧١ بواسطة الطائرات المقاتلة القاذفة . وظلت الدبابات تحت تأثير المدفعية البريطانية . وعند منتصف النهار رقدت ٥٥ دبابة ألمانية على أرض المعركة أمام بلدة مطامير. فقد تسربت خطة الهجوم للعدو ولم يعد هناك فرد فى القيادة يشك فى ذلك نتيجة لتصرف البريطانيين ضد هجوم الفرقة ٩٠ الخفيفة بالمواجهة فقد أرسلت الفرقة جنوبا لخداع العدو ، وكان عليها تثبيت القوات البريطانية فى مواقعها إلا أن مونتجمرى قام بسحب جنوده من مواجهة الفرقة ٩٠ الخفيفة فأصبح الهجوم الألمانى موجها ضد لا شيء . وكان من الواضح عدم اهتمامه على الإطلاق بهذا الهجوم الذى قد يكون خطيراً فى هذا الاتجاه . إذاً فمن هو الخائن ؟ وبعد انتهاء الحرب حامت الشبهات حول القيادة الإيطالية العليا وقالت دوائر كثيرة بأن الخيانة نبتت من أحد ضباطها .

وفى عصر يوم ٦ مارس حوالى الساعة ٤ بعد الظهر وضح لروميل استحالة كسب معركة (مدنين – مطامير) . واقترح الجنرال كرامر وقف القتال ووافق روميل على ذلك ، وبذلك انتهى آخر هجوم عام لجيش المحور المدرع وأصبحت النهاية المؤسفة للحملة الأفريقية واضحة للعيان .

وبعد ثلاثة أيام من هذه المعركة (فى ٩ مارس ١٩٤٣) غادر الفيلد مارشال روميل أفريقيا وطار إلى مقر قيادة الفوهرر فى محاولة أخيرة لتنظيم عملية جلاء مجموعة الجيوش الأفريقية ، إلا أن هتلر أصم أذنيه عن كل جدل وأمر روميل بالتوجه على الفور للعلاج .

٥ - القتال بدون أمل فى النصر :

لقد وقع عبء قيادة الجيش الألمانى فى تونس على عاتق الكولونيل جنرال فون آرنيم واستمر ذلك حتى نهاية الحرب المريرة فى أفريقيا . فظل فون آرنيم القائد العام لمجموعة الجيوش الألمانية فى تونس وبقى الجنرال جوس رئيسا لهيئة أركان حرب مجموعة الجيوش الألمانية. وكان العقيد بومتو أركان حرب (١) لنفس

المجموعة . أما جيش البانزر الخامس فكان تحت قيادة الجنرال فون فيرست القائد السابق للفرقة ١٥ المدرعة الشهيرة وكان رئيس أركان حربه الجنرال فون كلست .

وقد أدى فون آرنيم (هذا البروسى النبيل) واجبه كاملا وبشجاعة وإنسانية لا ينساهما جنوده أو حتى جنود الأعداء . وقد كتب فون بومتو فى خطاب له يصف فون أرنيم فقال: « إنه أحد القادة الذين ينتمون إلى مدرسة الفرسان القديمة» .

وهذه هى أحد الأمثلة التى تستحق الذكر والتسجيل فى تاريخ الحرب الأفريقية ، فعلى مقربة من تونس فى مرسى لاجوليت كانت تقف فى الأيام الأولى من مايو باخرة إمداد إيطالية وهى الباخرة بللونو وكان يوجد على ظهرها ٧٠٠ أسير بريطانى وأمريكى وقامت قاذفات السلاح الجوى الملكى البريطانى بمهاجمة الباخرة، فتركها البحارة الإيطاليون ، فقام قائد الميناء القبطان كيلر بالاتصال برئاسة مجموعة الجيوش وطلب إرسال مقاتلات لحماية أسرى الحلفاء ضد قاذفاتهم؟ وبالطبع كان لا يوجد طائرات لحماية قوات الألمان أنفسهم . فطلب القبطان كيلر من العقيد بومتو اتخاذ أى إجراء ، فقام ضابط الأركان بشرح الموقف لفون آرنيم وكان الجواب: «أرسل إشارة لاسلكية إلى الجنرال ألكسندر قائد الحلفاء ليوقف قذف بنى وطنه » وأصدر فون آرنيم أوامره إلى رئيس أركان العمليات الرائد مول بإرسال إشارة على الهواء بدون استخدام الشفرة إلى القائد العام البريطانى فى تونس ، نائب أيزنهاور وهو الجنرال ألكسندر وهذا نصها : « أوقفوا الهجوم الجوى على ميناء تونس لأنه يوجد على ظهر إحدى السفن ٧٠٠ أسير لكم » وقد اتخذ ألكسندر على الفور الخطوات اللازمة واستدعى القاذفات البريطانية .

وعندما أسر فون آرنيم فيما بعد ورفض أيزنهاور مقابلة أى قائد من الجيوش الألمانية قابله ألكسندر وسأله : « هل لديك أية طلبات يا جنرال » فأجاب فون أرنيم « أرجو إرسال ٧٠٠ جريح ألمانى - وهم فى حالة خطيرة فى إحدى سفن المستشفى - إلى إيطاليا مقابل ٧٠٠ أسير أنقذتهم لكم فى ميناء تونس » فتردد ألكسندر فترة ثم أومأ برأسه وقال: « سوف أحقق رغبتك » وقد حققت رغبة الجنرال وقد أسر فون آرنيم بعد شهرين من معركة مدنين وكانت هذه الفترة عبارة عن فصل درامى من المراحل الأخيرة للحرب فى شمال أفريقيا . وكانت شجاعة الرجال والضباط خلال الشهرين مدعاة للإعجاب لأنهم كانوا يقاتلون بدون أمل فى النصر ، ولكن لمجرد تأدية الواجب الذى يثقل كاهلهم ولإنهاء هذه الحملة التى لا

هدف لها على أن تكون نهاية تحفظ لهم كرامتهم وبعد معركة مدنين علمت هيئة أركان حرب فون آرنيم وجنوده جيداً أن هذه المعركة هى بداية النهاية . فقد كان العدو متفوقا لدرجة كبيرة فى الرجال والعتاد لدرجة أنها أصبحت مسألة وقت بالنسبة للمقاومة المحورية فوق الأرض الأفريقية علاوة على أن تفوق الحلفاء الجوى كان ساحقاً .

وكان على مجموعة الجيوش الدفاع عن جبهة طولها ٥٠٠ ميل . وكان لديها جيشان قوامهما ٣٠٠ ألف رجل ثلثهم من الألمان . ولو استبعدنا أفراد الإمداد والخدمات (وكان عددهم كبيراً عند الإيطاليين) فتكون القوة المقاتلة المتبقية حوالى ١٥٠ ألف مقاتل . وبهذا القدر من الرجال لا يمكن الدفاع عن جبهة طولها ٥٠٠ ميل حتى لو سمحت طبيعة الأرض أو استخدم أسلوب الحرب السابق فى أفريقيا . وفى الواقع كان يتم الدفاع عن مساحات شاسعة بعدد من النقط المنعزلة . أما كيف كانت تبدو الجبهة الرقيقة للناظرين فإنها تظهر واضحة فى القصة المذهلة التى رواها لى فون آرنيم نفسه .

«لقد أعلن العقيد هيجل الخبير الاقتصادى فى هيئة أركان فون آرنيم فجأة أن الأسعار فى السوق السوداء قد ارتفعت . وكان السبب فى ذلك يرجع للمشتريات الكثيرة التى تتم بواسطة العرب وكانت تنقل البضائع من تونس بقوافل من الحمير .

ومن الغريب أن العرب كانوا يدفعون ثمن مشترياتهم بالدولار أو الجنيه الاسترلينى وكان هذا يعنى بالنسبة للجنود الألمان زيادة فى أسعار المنتجات المحلية مثل النبيذ والفاكهة والذرة علاوة على النقص الشديد فى هذه الأشياء .

وكان هذا يشكل خطرا على موقف الإمداد السيئ . ولذلك راقب هيجل المشترين من العرب وكانت دهشته كبيرة عندما اكتشف أحداً من العرب يرتدى أحذية عسكرية بريطانية ، وعند إجراء التفتيش الدقيق ظهر تحت الرداء رقيب بريطانى . وكانت العملية تتم بسهولة حيث يقوم الفدائيون المتخصصون بالشراء من السوق السوداء فى تونس ويحملون المشتريات بواسطة القوافل إلى الخطوط البريطانية الأمريكية ، ولذلك كانت تونس مسرحا غريباً للحرب .

فبالإضافة إلى نقص الجنود هناك كانت توجد صعوبة فى الحصول على الإمداد فلا يوجد ما يكفى من الطعام والذخيرة والوقود لأن القيادتين فى راستنبرج وروما لم يعد فى إمكانهما تزويد مجموعتى الجيوش بأدنى احتياجاتها ، فلا تصل

إلى ميناء سوى البواخر الصغيرة التى لا تزيد حمولتها عن ٣٠٠٠طن . وقد استخدمت المعديات (١) وكان لا يمكنها نقل أكثر من ٢٠ طن وهى كمية ضئيلة جداً بالنسبة للاحتياجات الشهرية التى تبلغ ٧٥ ألف طن . وحتى الإمداد بواسطة الجو لم يغير من الموقف لأن كسلرينج كان عليه استخدام أساطيل جوية كبيرة من طائرات اليونكرز التى لا يملكها ، وحتى الطائرات التى أرسلها فوق البحر المتوسط أسقطت . ولقد قال لى فون أرنيم بإيجاز العسكريين: «وحتى بدون هجوم الحلفاء فكان علىّ أن أستسلم فى أول يونية على الأكثر لأنه ليس لدينا ما نأكله » .

وفى ١٨ مارس أبلغت طائرات الاستطلاع الألمانية عن وجود قوة ضخمة تتكون من ثلاثة آلاف مركبة بريطانية تشق طريقها عبر الصحراء للقيام بنفس الشيء الذى كان كل قائد ألمانى يتوقعه من عدة أسابيع ، وهو تطويق خط مارث . وتقدم مونتجمرى اتجاه الشمال ومعه فرقة نيوزيلندية ولواءان من المدرعات والفرقة الأولى البريطانية وهاجم خط مارث بالمواجهة ومن الأجناب .

٦ - السباق الدرامى :

وفى ١٦ مارس صد الآلاى ٣٦١ مشاة مع كتيبة من الآلاى ٤٧ هجوما قام به لواء من المدرعات . وفى ٢٠ مارس قام لواء الحرس بهجوم فاشل على التل رقم ١٥١ إلا أن الفرقة ٥٠ البريطانية مشاة تمكنت من اختراق مواقع وسط الجبهة فى وادى الزجزاج وقبل أن يحضر البريطانيون أسلحتهم المضادة للدبابات تعرضوا لهجوم مضاد من الفرقة ١٥ المدرعة . وفى قتال متلاحم أمكن إيقاف الهجوم ولقى مئات من البريطانيين مصرعهم فى وادى الزجزاج .

وفى ٢٢ مارس هاجم الجيش البريطانى القائم بالتطويق جناح القوات الإيطالية بالقرب من الجبل . وكانت الفرقة ٢١ المدرعة ما زالت تحتفظ بالجبهة وفى الشمال هاجم الأمريكيون من قفصة إلى الجويتار عبر الوديان الضيقة التى تدافع عنها فرقة سينتورو واللواء الإمبراطورى وقد تم هذا الهجوم فى وقت واحد على المواجهة والمؤخرة والأجناب . وإزاء هذا الموقف الخطير أمر فون آرنيم بالجلاء عن خط مارث وقاتل جيش الجنرال ميسى متراجعا إلى الخلف .

وكانت المواقع الجديدة قد اتخذت فى الشط أو خط عكاريت . وهو المضيق بين الملاحات وخليج قابس ، والآن بدأ سباق درامى . ففى ٢٦ مارس خلال

(١) كانت تسمى هذه المعديات بقوارب سبيل .

هبوب عاصفة رملية - وكان القمر بدراً - اخترق النيوزيلنديون جناح ميسى الخارجى حتى وصلوا إلى مواقع المدفعية وواصل النيوزيلنديون ضغطهم فى اتجاه بلدة الحمة نحو الساحل ولو تمكنوا من الوصول إلى الساحل لاستطاعوا عزل وتدمير جيش الجنرال ميسى بأكمله . ولم يكن لدى مجموعة الجيوش احتياطى لمنع هذه الكارثة، ولكن فى هذه اللحظة الحرجة دفع الجنرال بولوديتز بفرقته (١) . بالرغم من ضعفها هاجم بها جناح النيوزيلنديين الجنوبى وقد فوجئ النيوزيلنديون وتحولوا عن هدفهم والتحموا مع العدو المهاجم . وبذلك استطاعت الفرقتان ١٦٤ الخفيفة والفرقة ٢١ المدرعة من إنشاء مواقع دفاعية حول الحمة وإيقاف الهجوم البريطانى حتى تتمكن مشاة الجنرال ميسى من احتلال مواقعها فى منطقة عكاريت الجديدة .

غير أن الضربات أخذت تتلاحق .

فقد قام الفيلق الأمريكى الثانى بالهجوم من قفصة على الدفاعات الإيطالية الموجودة فى مؤخرة الموقع الجديد للجنرال ميسى وأصبح هناك خطر من اختراق المواقع والوصول إلى البحر ولكن مدفعية العدو أوقفت الهجوم المضاد اليائس الذى قامت به الفرقة ١٠ المدرعة . وفى نفس الوقت قامت قوات أيزنهاور بهجوم من الغرب على نطاق واسع على مضايق مكناس ، وكانت تحاول كذلك الوصول إلى البحر . وظهرت بضع دبابات من طراز النمر فكان على العقيد لانج دفع قوة مكونة من كتيبة من كل من الآلاى ٦٩ ، ٨٦ وعدد من البطاريات ٨٨مم إلى الشمال ولكنها أُبيدت عن آخرها فى بضع ساعات ، لأن الموقف فى مكناس كان عبارة عن قتال بين بضع كتائب ضد قوة العدو المكونة من عدة فرق . وفى الوادى اللين استطاع الرائد فردريك وليهلم فوس بإحدى وحدات الاستطلاع من إيقاف تقدم الفرقة الأولى المدرعة الأمريكية . وعلى ممر مكناس كانت المأساة تتخذ صورتها النهائية وكأنها ذكرى الإسبرطى ليونيداس وهو يدافع عن ممر ثيرموبيلى . فقد تمكن الحرس الخاص السابق لروميل تحت قيادة الرائد ميديكوس الاحتفاظ بالممر لأكثر من أسبوع ضد هجمات فرقة ونصف أمريكية . فقد قاتل ثمانون رجلا من المهندسين ومركز الرئاسة تحت قيادة الملازم برندت وكأنهم عصابات أندريا هوفر ، فقد دحرجوا الصخور من فوق المنحدرات على الدبابات المتقدمة وقذفوها بالحجارة الضخمة . وفى ٢٦ مارس كان لا يزال لدى الفرقة ٢١ المدرعة ٢٦ دبابة فقط ، وكان لدى الفرقة ١٥ المدرعة ٣ دبابات . وضمت دبابات

(١) كانت هذه الفرقة هى الفرقة ١٥ البانزر . (المعلق)

الفرقتين معا مع ما تبقى من فرقة سينتورو فى بلدة القطار لمواجهة هجوم الحلفاء المستميت ، أما فى الشمال فقد سقطت رأس سرتة فى أيدى البريطانيين . وهكذا تحطم كل شىء . ولم تصل الإمدادات وقامت وحدات خاصة بتقطير الوقود من النبيذ التونسى وكان هذا إعلانا بالإفلاس التام .

وكان من الواجب عدم الدفاع عن موقع الشط أصلا ، فكيف يمكن لهذا الموقع أن يقاوم الحصار ؟ فلا يوجد به موقع مجهز يقى القوات من الهجمات الجوية المستمرة لقوات الحلفاء .

وواصل مونتجمرى هجومه ، واستولت فرقته ٥١ هايلاندرز الإسكتلندية على جبل رمانة وقد خضبته الدماء ، وكذلك التل رقم ١٧٥ . ومرة أخرى قامت الآلايات ٢٠٠ ، ٣٦١ المشاة برد العدو على أعقابه إلا أن الجبهة الإيطالية تداعت .

٧ - **سخرية المصير بالنسبة للإنسان :** (انظر اللوحة رقم ١٨)

وفى ٦ أبريل أعلن الانسحاب وتراجعت القوات إلى موقع أنفيدافيل بعيدا إلى الشمال فى خليج الحمامات .

وكان من سخريات الحرب أن رجال الآلاى الأول من الفرقة الموصومة رقم ٩٩٩ (كانوا من السجناء السابقين التابعين للعقيد فولفريد) دافعوا عن المنخفضات والوديان بالقرب من بيشون وفندق لمدة ستة أيام ضد هجوم أكثر من فرقتين ، وحطموا ١٦٠ دبابة أمريكية ثم ستروا الانسحاب إلى المواقع التى اتخذتها القوات الألمانية فى ١٣ أبريل سنة ١٩٤٣ .

وحدث آخر يعطى لمحة عن سخرية المصير بالنسبة للإنسان ، فأثناء قيادة المقدم جراف ستافنبرج لجنوده – وكان يقف فى عربة مدرعة – هاجمته قاذفة بريطانية ، ودوت طلقات مدافعها الرشاشة وسقط ستافنبرج جريحًا مصاباً بجرح بالغ ولحسن الحظ كانت هناك عربة إسعاف قريبة منه حمل إليها .

إلا أن رجال آلاى المدفعية المدرعة ٩٠ الذين رأوا الحادث لم يشكوا فى أن المدفع الرشاش البريطانى كانت توجهه يد القدر ، لأن المقدم الكونت ستافنبرج غادر أفريقيا وكان أفضل له الوقوع فى الأسر لأنه اشترك فى المؤامرة التى دبرت لقتل هتلر وقام بوضع القنبلة تحت المنضدة التى يقف أمامها هتلر فى مقر قيادته ببروسيا الشرقية .

ثم غادر المقر ، وعندما سمع انفجار القنبلة أسرع بركوب طائرة إلى برلين ليعلن عن موت هتلر والاستيلاء على الحكم مع باقى المتآمرين إلا أنه اختلف مع أحد قادته فى المؤامرة . وحدثت معركة بالمسدسات بينهما سقط فيها ستافنبرج قتيلا .

ويشتمل تاريخ الحروب على الانسحاب الناجح والتقدم الظافر ، ويعتبر انسحاب مجموعة الجيوش الأفريقية الألمانية إلى موقع أنفيدافيل عملا رائعاً فى فن الحرب ويرجع ذلك لاستفادة القوات من خبرتها فى المعركة . وعندما بدأت المعركة النهائية فى تونس فى منتصف أبريل دخل أيزنهاور المعركة بـ ١٥ فرقة بريطانية و ٥ فرق أمريكية كاملة العتاد والتجهيز وبالإضافة إلى ذلك كان لديه فيلق فرنسى وأسطول جوى ووحدات خاصة للمخابرات والتموين والمهندسين .

بينما كان لدى فون آرنيم ٩ فرق ألمانية منهكة القوى معظمها أقل من المرتب الأصلى أما الفرق الإيطالية الست فلم تكن ذات قيمة من الناحية القتالية . وبالإضافة إلى ذلك كانت توجد وحدات خاصة تحمل اسم لواء آلاى أو مجموعة قتال إلا أنها كانت فى الحقيقة لا تزيد عن قوة كتيبة . وهذه النسبة فى القوة تحمل فى طياتها القصة الكاملة .

أما التعزيزات فقد حدثت فيها خسائر فادحة فالرقيب ويزمان التابع للكتيبة الميكانيكية الشهيرة رقم ١٥ طار إلى تونس خلال هذه الأيام الأخيرة فى طائرة نقل إيطالية مع بعض عناصر من سرية مشاة . وتحطمت الطائرات وقتل الطيار . وأسر ويزمان مع باقى رجاله . وقبل ذلك بعدة أسابيع تم نقل كتيبة احتياطية من الآلاى المدرع ١٠٤ بالبحر وكانت كاملة المرتب ويقودها المقدم رينهولد الذى قاتل فى عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ عند سيدى رزق ، وتم نقلهم فى ثلاث مدمرات إيطالية إلى تونس . وأغرقت المدمرات ولم ينج سوى ستة رجال من الكتيبة بأكملها لأن البحر كان عاصفاً .

وحشد الجنرال ألكسندر قواته أمام الجبهة الوسطى وكون مجموعة هجوم قوية من ست فرق مشاة وفرقتين من المدرعات الإنجليزية للقيام بالهجوم الرئيسى على تونس . وكان طريق تقدمه خلال وادى مدجردة وعلى طول الطريق المتجه إلى المسخوطة . وفى الجنوب كذلك استعد الفرنسيون للهجوم فى منطقة بونت دى فاس ويعاونهم ٣ فرق بريطانية .

وفيما بين ٢٠ أبريل و ٥ مايو اندفع ألكسندر لمهاجمة مواقع المحور الرقيقة وفى الشمال تراجع آلاى برنثين خطوة فخطوة تحت قيادة الرائد باير (بعد إصابة قائد الآلاى) إلى موقع جفنة القديم . وفى أول مايو اضطر الألمان تحت وطأة الهجوم البريطانى الخطير إلى التراجع عن مواقعهم فى الجبهة إلى غرب الماطور .

وفى نفس الوقت كانت عناصر من الفرقة ٤٣٤ المشاة والآلاى ٤٧ تقاتل ضد الفيلق الأمريكى الثانى من أجل التل رقم ٦٠٩ الذى كانت قد فقدته فى أول مايو . أما فى الماطور فقامت باقى الفرقة والآلاى ٤٧ بتكوين جبهة مرة أخرى .

وعند التل لونج ستوب (الذى دار من أجله قتال مرير) هاجمت الفرقة البريطانية ٧٨ مشاة كتيبة من الفرقة الألمانية ٣٣٤ . وقد حرثت القنابل التل وكان فى قبضة الألمان منذ عيد الميلاد ولكنهم فقدوه فى ٢٤ أبريل ، وباحتلال التل اخترق خط الدفاع حول تونس .

وعلى جبل الجمل انتزعت الفرقة ٦ البريطانية المدرعة الموقع من فرقة هرمان جورينج . ثم استعاد قاذفو القنابل الألمانية الجبل لكى يفقدوه مرة أخرى.

وفيما بين ٢٨ أبريل وأول مايو استمر الهجوم المضاد على طريق المسخوطة بينما كان القتال فى المزرعة الفرنسية على أشده، وقاتل هناك قاذفو قنابل الفرقة ١٥ المدرعة واندفع العقيد أركنز بما تبقى من الدبابات لمعاونة المواقع المهددة. واشتبكت المدافع الباقية لدى الفرقة ٢٢ المضادة للطائرات من عيار ٨٨مم وأخذت تواصل القتال ضد الهجمات المتجددة من المدرعات البريطانية .

وأبلت القوات المحملة بلاء حسنا بمدافعها عيار ٨٨مم وكأنها إشارة الوداع. وإلى الشمال من الماطور تمكن مدفعان من مدافع الملازم هباك من تدمير ١٣ دبابة أمريكية . وكان هذا العمل تحية شريفة نارية من المساعد فوجيت للمدفع ٨٨مم. أما التروب الثانى من الآلاى المدفعية ١٩٠ الذى تضاءل حتى أصبح بطارية واحدة تحت قيادة النقيب سيدل فكان آخر صراع له مع المدرعات الأمريكية فى ٥ مايو . وكانت المسألة فى ذلك الوقت تحدياً أكثر منها تحقيق هدف مفيد .

وخلال ليلة ٥ و ٦ مايو اشتدت نيران مدفعية العدو لدرجة أنها أصبحت غلالة مساحية من النيران . وقامت قوات الحلفاء الجوية بقذف المواقع الألمانية. وعلى طول الجبهة الممتدة ثلاثة أميال قامت فرقتان بريطانيتان من المشاة تعاونهما

المدرعات بمهاجمة الآلايين الضعيفين من الفرقة ٣٣٤ مشاة وبقايا فرقة جورينج وقد دافعت هذه القوات دفاعًا مجيداً فاستقبلوا المهاجمين بنيران المدفعية الرشاشة والمدافع المضادة للدبابات . وكان استعراضاً نهائيًا رائعاً إلا أنه عديم الجدوى لأن الجبهة كانت تتداعى . وظل هجوم الحلفاء يتقدم ببطء إلى الشرق. وعند غروب الشمس وصل الحلفاء إلى ضواحى المسخوطة .

ولم تعد الشجاعة التى أظهرها العقيد أركنز مع ما تبقى من دبابات الفرقة ١٥ المدرعة تجدى وكذلك الشجاعة التى أبداها رجال المظلات كليتز شميدت على التل رقم ٥٣٠ جنوب الماطور فبالرغم من أنها كانت مقاومة مثيرة للإعجاب وباسلة إلا أنها كانت بدون تعقل بالمرة .

٨ - عدم جدوى الحرب :

وفى صبيحة يوم ٧ مايو ، بعد أن تم تغيير مشاة الخط الأول قام البريطانيون بتجديد الهجوم . وفى يأس ومرارة دفع العقيد أركنز دباباته إلى المعركة ، ولكن عبثا ، ففى منتصف النهار كان لواء ١١ الهوسار على أبواب تونس . وفى نفس الوقت قام الأمريكيون باحتلال بنزرت التى أخليت. وهكذا تم هزيمة مجموعة الجيوش الأفريقية تماما . وأصبح الجيش المدرع الخامس مشكلا من بضع وحدات مقاتلة . وقام قائد الجيش الجنرال فون فيرست بشق طريقه متراجعا مع آخر دبابتين لديه وبضعة مئات من جنود المشاة إلى الشاطئ عند بورتوفارينا . أما فى جبل عقيل شمال الماطور فصمدت هناك وحدات صغيرة . وظل الناجون من فرقة هيرمان جورينج وآلاى كوش يواصلون القتال على ضفة نهر مسليانا حيث احتل الجنرال فرانز موقعا دفاعيا مع بقية الفرقة ١٩ المضادة للطائرات وكتيبة من لواء المظلات رامك القديم وقليل من المدافع عيار ٨٨مم. وتمكنوا من هزيمة الفرقة الهندية مرة أخرى.

وانتهى مصير الجيش بواسطة أمر صدر من راستنبرج . وكان نصه:

« إلى مجموعة الجيوش الأفريقية – إن الشعب الألمانى يتوقع منكم القتال حتى آخر طلقة ».

ولم يكن الكولونيل جنرال فون آرنيم بالرجل الذى يعصى الأوامر بسهولة . ولكن هل هذا الأمر يحمل أى شيء من التعقل؟ فقد كانت ستالينجراد وما حدث فيها عالقا بذهن كل إنسان. فهل تصبح تونس ستالينجراد أفريقيا؟ وسأل الجنرال

أفراد قيادته: «ما الذى تعنيه كلمة آخر طلقة فى الحرب الحديثة؟» ولم يكن هناك خلاف فى الرأى ، وعلى ذلك أخبر فون آرنيم الجيوش بأن: «آخر طلقة فى حرب الدبابات تعنى آخر قذيفة ، وعلى ذلك فإن الأسلحة يجب أن تدمر وتقوم الفرقة بالتسليم للعدو» . وكانت الفرقة العاشرة المدرعة قد جعلت من آخر دباباتها السبع المتبقية حصونا ثابتة لعدم وجود البترول وصدوا هجوما أمريكيا بالدبابات بواسطة آخر القذائف التى يملكونها عند منتصف يوم ١١ مايو .

وجلس الرجال فى عبوس أمام مدافعهم ، وأطلقوا آخر طلقاتهم ، والآن وداعا... ودمرت الدبابات والمدافع . وسجلت الفرقة ما يلى فى يومياتها: «نفذت الذخيرة دمرت الأسلحة والمعدات».

وفى ليلة ١١و١٢ مايو هاجم الفرنسيون الأحرار جبل ذغوان فى محاولة لشق طريقهم بالقوة وتمكنوا من اكتساح القوات الساترة من وحدات فرقة هيرمان جورينج، ولا أستطيع أن أبرر لماذا تأججت فجأة ثورة غضبهم فى جبل ذغوان حيث دارت المعركة الأخيرة والصراع النهائى يداً بيد استخدمت فيه المسدسات والخناجر والسونكيات والقنابل اليدوية ، وكان هذا القتال هو آخر صراع دام فى أفريقيا . وفى منتصف نهار ١٢ مايو سلم الكولونيل جنرال فون آرنيم نفسه نيابة عن رئاسة مجموعة الجيوش الأفريقية والفيلق الأفريقى ، وأرسل الجنرال كرامر آخر رسالة له إلى القيادة الألمانية العليا: «لقد قاتل الفيلق الأفريقى حتى النهاية طبقا للأوامر . يجب أن يشكل الفيلق الألمانى الأفريقى مرة ثانية ... كرامر» .

وفى الجنوب أيضا جاءت النهاية بالنسبة للجيش المدرع المشترك الألمانى الإيطالى تحت قيادة الكولونيل جنرال ميسى . وكانت النهاية بالنسبة لثعالب الصحراء أيضًا ، لأنهم كانوا جميعا من فرق روميل القديمة من جيش الصحراء . ففى ١٠ مايو تمكنت الفرقة ٦ البريطانية من اختراق الموقع عند بلدة الحمام وحوصر جيش الجنرال ميسى من الجنوب . وقاتلت فرقة من شباب الفاشيست والفرقة ٩٠ الخفيفة معًا ضد المدرعات البريطانية المتقدمة وظلوا صامدين لمدة يومين . وفى ١٢ مايو انهار الدفاع وأطلقت مدافع الجيش الجنوبى آخر قذائفها على الجيش الجنوبى والفرقة ٦ المدرعة البريطانية . وساد الصمت. فقد انتهت الحرب فى أفريقيا.

وفى ١٣ مايو فى الساعة ١١ صباحا ألقت آخر الوحدات المقاتلة وهى الفرقة ١٦٤ الخفيفة أسلحتها .

وأدخل ١٣ ألف جندى ألمانى إلى معسكرات الأسر ، وبقى ١٨٫٥٩٤ جندى

فى أفريقيا وقد رقدوا إلى الأبد فى مصر وليبيا وتونس . وفقد أكثر من ٣٫٤٠٠ جندى .

وما من أحد يستطيع أن يقدر عدد الجنود الألمان الذين ماتوا فى البحر المتوسط خلال عبورهم سواء بالطائرات أو بالسفن .

ويقدر عدد الجنود الإيطاليين القتلى فى مسرح العمليات الأفريقى رسميا بـ١٣٫٧٤٨ وبالإضافة إلى ذلك كان عدد المفقودين ٨٫٨٢١ .

وقد أعلنت لجنة قبور الحرب البريطانية فى نهاية أبريل ١٩٥٨ أن عدد القتلى من قوات الكومنولث البريطانية فى شمال أفريقيا حوالى ٣٥٫٤٧٦ جندى . أما لجنة قبور الحرب الأمريكية فقد قدرت عدد القتلى من الأمريكيين من الوحدات كافة فى شمال أفريقيا بـ ١٦٫٥٠٠ جندى.

ولو أضيف إلى ذلك قتلى الفرنسيين وعددهم غير معروف بدقة ففاتورة الحساب الدامية فى شمال أفريقيا تصل إلى أكثر من ١٠٠ ألف قتيل.

وتونس أخلت بطريق البحر إلى صقلية – بعد سقوطها – آخر الوحدات البحرية – الوحدات الإضافية الخاصة، مثل الفدائيين والتابعين لفرقة براندبرج والمعدات السرية والمتخصصين وضباط أركان الحرب والقادة – للتوجه إلى الجبهة الشرقية وكان معهم «أحمد البدوى» وهو أعرابى مجهول وكان يعمل مراسلا للملازم الدكتور واجنر القائد السابق لفصيلة من فرقة براندبرج الساحلية وقد قتل من زمن وجيز . وكان أحمد أحد القلائل الذين عقدوا آمالهم على ألمانيا فرفض البقاء فى أفريقيا وسافر مع قائده الجديد النقيب كولمان إلى القارة المضطربة أوروبا . وقد قطع الرحلة الطويلة مع قائده الألمانى إلى باليرمو ونابولى وروما وأثينا . وحارب مع الألمان فى بحر إيجة وجزيرة كورنو وجزر الدوديكانيز وقد منح ميدالية المشاة الألمانية والصليب الحديدى وأخيرا سار مع السرية إلى الأسر. وكانت قصاصات الورق التى قدمها إلى قائده فى المستشفى تحمل الآتى :

« يا قائدى . يا أبى » وفيما بعد وقف أحمد أمام محكمة عسكرية فرنسية حكمت عليه بالإعدام شنقا على أنه مواطن فرنسى . وكانت آخر خطاباته التى كتبها قبل إعدامه بدقائق موقعة كالعادة «ابنك» .

ولم يذكره وطنه كأحد أبنائه المخلصين له .

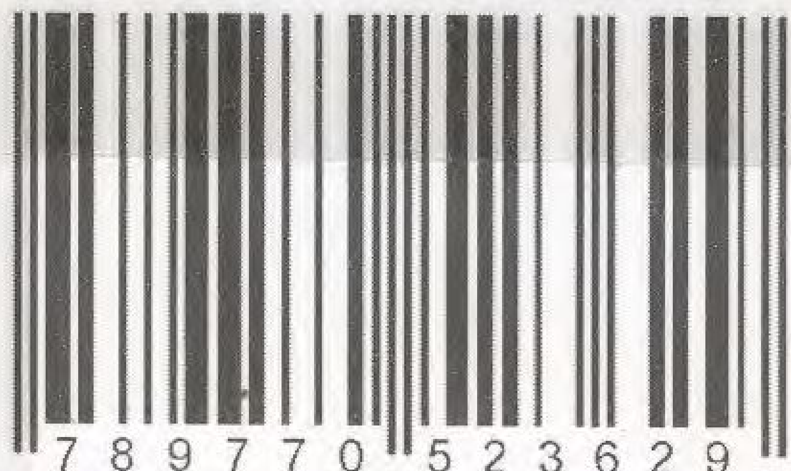
فأى شرح وإيضاح أكثر من هذا يدل بوضوح على عدم جدوى الحرب !!

* * *

ثعالبُ الصحْراء







ISBN 977-05-2362-3
9 789770 523629



مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts
www.anglo-egyptian.com